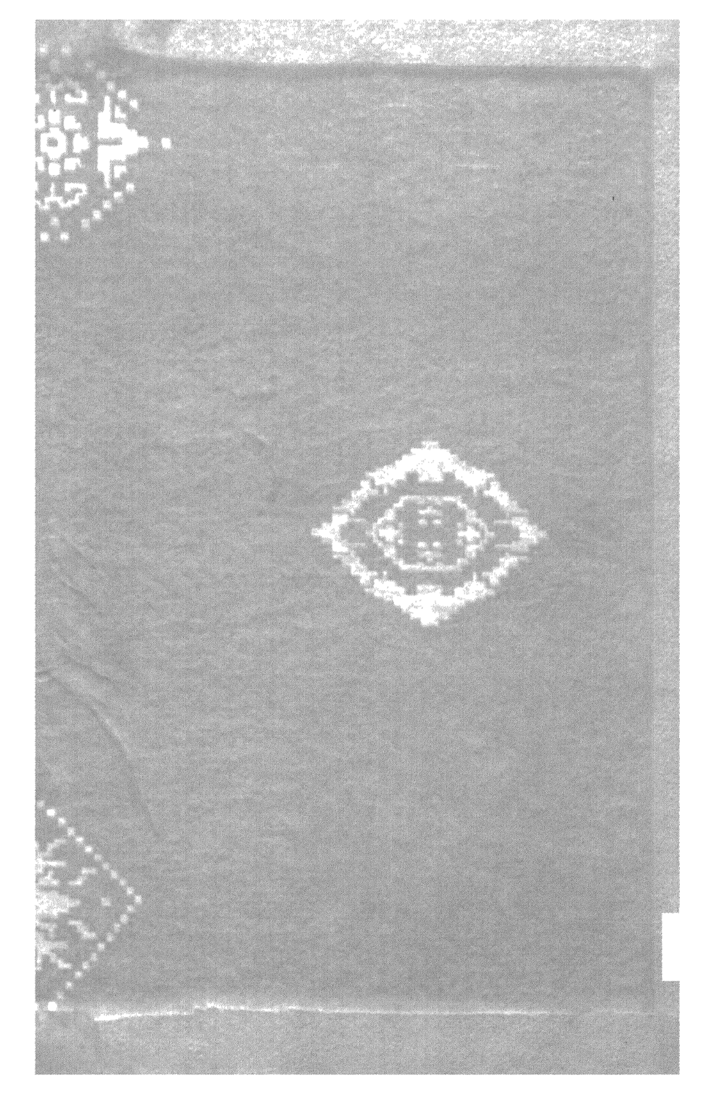
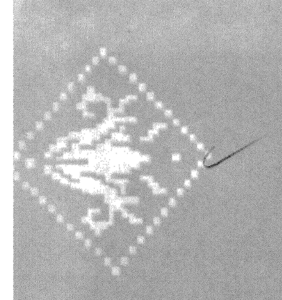
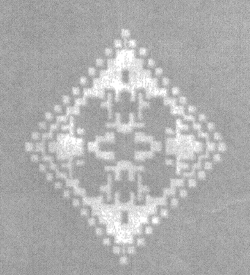
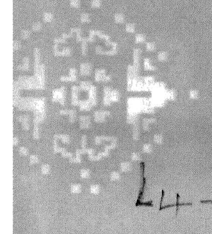










هدية العدد
كشاف السنة ١٣



الدارة

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض

العدد الأول ـ السنة الرابعة عشرة ـ شوال ١٤٠٨هـ ـ مايو ١٩٨٨م



مطابع دار الهلال للأوفست
الرياض : تلفون ٤٠١٥٢٦٨





الدارة

لا إله إلا الله محمد رسول الله

مجلة فصلية مُحكّمة

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

• العدد الأول • السنة الرابعة عشرة • شوال • ذوالقعدة • ذوالحجة ١٤٠٨هـ • مايو • يونيو • يوليو ١٩٨٨م •

دارة الملك عبدالعزيز:

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥ في ٥/٨/١٣٩٢هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.

والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها. كما أنها "المركز الوطني للوثائق والمخطوطات" بمقتضى الموافقة السامية رقم ٥/١٢٦٠٨ في ٢٠/٥/١٣٩٦هـ.

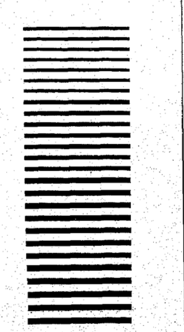
☒ ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

رقم الفاكسيميلي: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠



الأمين العام للدارة
ومدير عام المجلة

عبدالله بن حمد الحقيل



ترسل الاشتراكات باسم
الأمين العام للدارة
☎ ٤٤١٢٥٧١

رئيس التحرير

محمد حسين زيدان

■■■

هيئة التحرير

د. منصور إبراهيم الحازمي

عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس

د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

د. عبدالله الصالح العثيمين

د. محمد السليمان السديس

■■■

«سكرتير التحرير، والمشرف الفني»

مصطفى أمين جاهين

ترسل المقالات باسم
رئيس التحرير
☎ ٤٤١٧٠٢٠

الإدارة والتحرير
☎ ٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧





*** آراء الكتّاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة ***

- يراعى في البحث أن لا يزيد عن (٣٠) صفحة من القطع المتوسط ومنسوخ على الآلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب..
- لا تُردّ البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- ترسل البحوث سرياً إلى محكّمين ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر.

*** الاشتراكات السنوية ***

- ٢٠ ريالا للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية .

- وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .

- ٦ دولارات خارج البلاد العربية .

قيمة العدد

السعودية : ثلاثة ريالات - الإمارات العربية أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريالات - مصر ٤٠ قرشاً - المغرب خمسة دراهم - تونس ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية : دولار للعدد

الموزعون

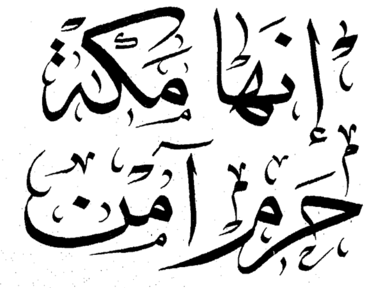
- **السعودية** : مؤسسة الجريسي للتوزيع
ص.ب ١٤٠٥ الرياض - ت ٤٠٢٢٥٦٤
- **أبو ظبي** : مكتبة المنهل
ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي - ت ٣٢٣٠١١
- **دبي** : مكتبة دار الحكمة
ص.ب ٢٠٠٧ - ت ٢٢٨٥٥٢
- **قطر** : دار الثقافة
ص.ب ٣٢٣ - ت ٤١٣١٨٠
- **البحرين** : مؤسسة الهلال للتوزيع
ص.ب ٢٢٤ المنامة - ت ٢٦٢٠٢٦
- **مصر** : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء - القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠
- **تونس** : الشركة التونسية للتوزيع
5 نهج قرطاج
- **المغرب** : الشركة الشريفية للتوزيع
ص.ب 683 الدار البيضاء 5 .





نيابة عن خادم الحرمين الشريفين رعى صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية. (ص: ٢١٠)

في هذا العدد





● بقلم رئيس التحرير ●

وحاول الطغاة المخدوعون بما عقدوا، أو الكافرون بما اعتقدوا، أن ينالوا من المسجد الحرام من مكة من بكة من الكعبة، فحجزهم الله عنها، بعضهم لم يصل إليها وبعضهم وصل حتى الغمس. . حتى وادي محسرّ، أي داخل حدود المسجد الحرام، ذلكم أبرهة. . حبشي جاء من اليمن يقود جيشاً جراراً. . بل قاده حقد فوار، فإذا النار تأكل قلبه، يشد قوته ليهدم الكعبة، ليكون لهم بيت هناك في مركز مُلكه. . لم يعرف الطريق، فإذا خوّان من العرب هو (أبو رغال) يصبح الدليل له، يسلك بالفيل وأصحابه الطريق، أكلته الخيانة فأكلت تقديسه للبيت فتآكلت عروبته، ماتت نخوته، ليشبع بقيمة وُعد بها، ولعله - في نفس أبرهة - سيكون طعاماً للسيف إذا ما انتصر صاحب الفيل، ولم يعلم صاحب الفيل عن الطير الأبابيل، عن الحجارة من سجيل تهلكه هو وكل جيشه. . إلاّ (حمامة) أم سيدي العبد بلال، أبقاها الله لتلد، هذه العود من الابنوس. . هذا الأسود. . هذا السؤدد - اسود لونه وابيض قلبه فإذا نور الإيمان في بلال يجعله أفضل من كثير ومن أكثر من الذين أسلموا بعده ويأبى الفيل - هو من ذلك الشيء الذي يسبح بحمد الله لأن الفيل يعرف الله أكثر من الكافرين الطغاة - أن يتجه إلى حيث يريد أبرهة، فعصاه ليتجه حيث أراد الله وإن لم يتحرك، ويقولها عبد المطلب بن هاشم جد محمد عليه الصلاة والسلام «أنا رب إبلي أما البيت فله رب يحميه» فحمى الله بيته، ولكن أين العرب؟ لماذا لم يحترموا أبرهه، وكلهم يحترم البيت؟ تلك قدرة الله. . إرادته. . أراد سبحانه أن يكون هو الذي يحمي بيته.

ولنسأل عن التوقيت، ألأنَّ محمداً ولد هذا العام؟ ليكون الطير الأبابيل إرهاصاً تعظم به مكانة البيت فلا يضام، وليجد رسول الله قريشاً آمنة تسميه الصادق الأمين حتى إذا أرسل أسلم الصادقون وبقي المشركون على شركهم.

العرب ما تخاذلوا ولا خُذلوا، وإنما الله ثبطهم ليكون النصر من عنده، وليكون هذا النصر آية للذين يؤمنون بالله.

... وجاء من رجم الكعبة بالمنجنيق، حماه إسلامه وأمره إلى الله، وتولّى خالد بن عبدالله القسري عاملاً لبني أمية أميراً على مكة، فما استحي من إسلامه، بني لأمـه وفي بيته كنيسة لأنها كانت نصرانية .. هجر قول رسول الله ﷺ «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب» «لا يجتمع في هذه الجزيرة دينان».

وجاء القرامطة، قرمطي كبير وقرامطة صغار، فخذلوا، ألحدوا فأذاقهم الله العذاب، فالظلم بهذا البيت أو في هذا البيت إلحاد يذوق صاحبه العذاب، والأمثلة كثيرة، وما يوم حليمة بسر.

واليوم، حاول العبث الشعوبيون من الفرس، لا يعلنون الشعوبية، وإنما يتسترون وراء الإسلام، الإسلام يمنع العبث في الحرم يمنع إراقة دم المؤمن، فكيف تطعن سكين مسلمة قلب حاج مسلم، إنها أبرهة جديدة أو قرمطية مستجدة، ولكنه الله يحمي بيته .. أنعم على خادم الحرمين الملك فهد أن يتصدى لهذا العبث، ما تعدى وما تحدى ولكنه تصدى.

الحـرم آمن، وأتحدى من يقـول إنه بعـد اغتيال عثـمان بن عفان ذي النـورين رضي الله عنه، عمَّ الأمن جزيرة العرب. . حجـازاً ونجداً وأعـالي السراة وكل التهـائم، لم يقع أمن إلاّ حين جمع الله هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالمسلمون وأكثر العرب كـانوا مـع الملك فهـد حين انتصب للعبث وحـين قطع العـلاقات، قلتهـا. . عروبتي فـرحت وإسلامي حزن، ولكن الإثم على بـاعث الحزن، الإسـلام لا يرضى أن يفـترق مسلم عن مسلم، قال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض».

محمد حسين زيدان

النمو السكاني والعمراني لمدينة الرياض

د. عبد الرحمن صادق الشريف

الخلفيـة الطبيعيـة لمدينـة الريـاض:

نشأت مدينـة الريـاض في أواسط القرن الثـامن عشر الميلادي عـلى أنقاض مـدينة حجر التي وجدت في عصر الجاهلية على ربوات قليلة الارتفـاع، في وسط حوض رسوبي صغير يقع في غرب وادي البطحاء. فورثت الرياض موقع حجر كعقدة مركزية بطرق القوافل في شبه الجزيرة العربية، وكأحد مراكز التبادل التجاري الداخلي.

تقع الرياض في وسط الجزء الشرقي من هضبـة نجد الـذي يتكون من صخـور رسوبيـة مختلفة التركيب تسود فيها حجارة الجير وتنتمي للعصر الجوراسي. وترتفع الأرض نحو ٦٠٠م عن سطح البحر، ويتجه تصريفها المائي باتجـاه وادي حنيفة الـذي يقع إلى الغـرب من موقـع المدينة. وتتصف بمناخ صحراوي جاف شديد القاريـة حيث تبلغ معدلات الحـرارة الشهريـة العظمى ٤٣° م والدنيا ٧° م، ونسب الرطوبة الشهرية العـظمى ٧٠٪ والدنيـا أقل من ١٥٪، ويبلغ معدل الأمطار السنوية ١٠٠مم فقط، تسقط في الشتاء والربيع بدون نظام ثابت.

تمثل الرياض مكاناً وسطاً بين دوائر العرض والطول التي تغـطي المملكة. فمـوقعها عـلى خط عرض ٣٨َ / ٢٤° شمالاً، وعلى خط طول ٣٤َ / ٤٦° شرقاً يجعلها تكاد تتوسط المملكة التي تترامى حدودها إلى الشمال والجنوب من الريـاض نحو ٨ درجـات عرضيـة، وتترامى إلى الشرق والغرب نحو ١٠ و ١١ درجة طولية[١].

ومن الجانب الجغرافي فإن موقع مدينة الرياض يعتبر مركزياً إذا بحثناه في عدة مستويات، فهو في موقع مركزي أولاً: بالنسبة لمواقع الاستقرار في وادي حنيفة، إذ أنه يتوسط عالية الوادي حيث العيينة والجبيلة وقرى ومدن منطقتي المحمل والشعيب بالقرب من عاليته في الشمال الغربي من مدينة الرياض بحيث لا يزيد أبعدها عن ١٠٠ كم، وسافلة الوادي حيث مدن وقرى منطقة الخرج في الجنوب الشرقي بحيث لا يزيد أبعدها عن ١٠٠ كم عنها أيضاً.

ثانياً: وتقع الرياض في موضع متوسط بالنسبة للهضبة الواقعة بين حافتي طويق من جهة والعرمة والهيت من جهة أخرى، والتي يخترقها وادي حنيفة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي منطبقاً على قطرها الكبير. وتتكون من سطح صخري حفرته التعرية السطحية، وأوجدت فيه منتجعاً للبدو الذين لابد لهم من الاتصال بمراكز الاستقرار المدني لتبادل السلع والحاجيات، والرياض واحدة منها.

ثالثاً: وتقع الرياض في موقع متوسط بالنسبة لأقاليم نجد، ففي الشمال الغربي تقع واحات الوشم على بعد نحو ٢٠٠ كم من الرياض، وتقع واحات سدير إلى الشرق من السابقة على بعد ٢٥٠ ـ ٣٥٠ كم عن الرياض، وتقع واحات القصيم على بعد ٤٠٠ ـ ٥٠٠كم، وحائل على بعد ٦٠٠ ـ ٧٠٠ كم. وفي الجنوب الغربي تقع واحات الحوطة والحريق على بعد ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كم، وتقع الأفلاج على بعد نحو ٣٠٠ كم، وتقع الدواسر على بعد نحو ٦٠٠ ـ ٧٠٠ كم.

رابعاً: وتقع الرياض في موقع متوسط بالنسبة للمناطق الحضرية لشبه الجزيرة العربية كلها، فهي في مكان متوسط بالنسبة لطريق القوافل القديم بين نجران واليمن من جهة وبلاد الرافدين من جهة أخرى. وفي مكان شبه متوسط بين شرق الجزيرة وغربها، إذ أنها تبعد عن مدن الحجاز الرئيسة: الطائف، مكة المكرمة، جدة والمدينة مسافة تتراوح بين ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ كم. في حين أنها تبعد عن مدن المنطقة الشرقية ٣٥٠ ـ ٤٥٠ كم. ولكننا إذا اعتبرنا إقليم الخليج ابتداء من الكويت شمالاً ومروراً بمدن الساحل السعودي والبحرين وقطر واتحاد الإمارات العربية حتى عمان، عندئذ فإن موقع الرياض يصبح متوسطاً بين إقليمي الحجاز والخليج. (شكل ١).

وهكذا نرى أن مدينة الرياض تحتل موقعاً وسطاً فيما بين الأماكن المعمورة داخل شبه الجزيرة العربية أو على أطرافها. ولذلك اختيرت لتكون محطة من محطات القوافل القديمة ثم

قوافل الحجاج. وقد تأكدت عقدية مدينة الرياض *(The nodality)* في العصر الحاضر باختيارها عاصمة الدولة السعودية وبظهور طرق ووسائط النقل الحديثة، حيث شقت أربع طرق برية رئيسة انطلقت منها على شكل محاور توصلها في الجهات الأربع للمملكة، ومن ثم لتوصلها بالأقطار العربية المجاورة. واتصلت بخط سكة الحديد بمدينة الدمام ثغرها الذي يوصلها بمختلف موانيء العالم. كما اتصلت عن طريق مطار الرياض باثنين وعشرين مطاراً داخل المملكة وبنحو أربعين مطاراً عربياً وعالمياً خارجها.

نشأة الرياض وتطورها العمراني

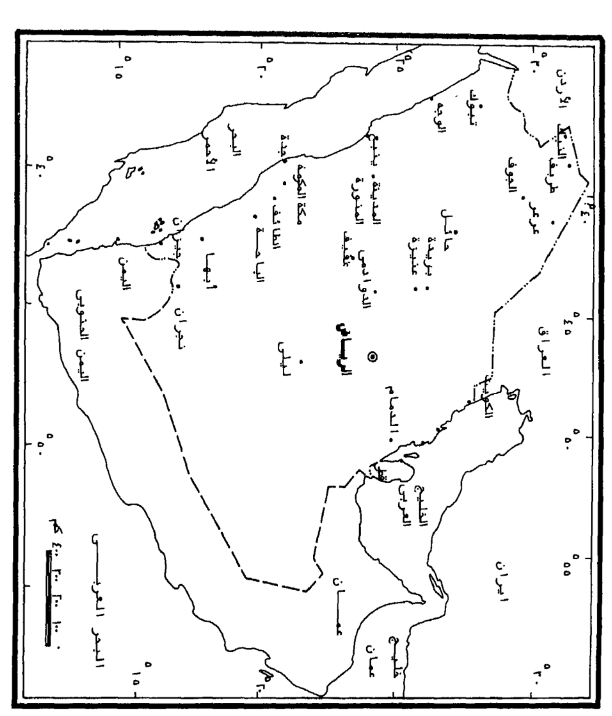
بدأ الاستقرار المدني في موضع مدينة الرياض منذ نيف وألفي سنة على أيدي قبائل طسم الذين اتخذوا من مدينة «حجر» قاعدة لبلادهم، وأنشأوا فيها العديد من البيوت والحصون(٢). إلا أنها هجرت وتخربت على أثر حملة أحد ملوك اليمن في نحو سنة ٤٢٠م وإبادته للطسميين. ثم عمَّرت حجرَ جماعة من حنيفة وأصبحت لهم الغلبة، فاستعادت ازدهارها، واتخذت سوقاً يعقد من اليوم العاشر من شهر محرم إلى نهايته من كل عام(٣). وفي ظل الإسلام أصبحت قاعدة إقليم اليمامة، ومركزاً لطرق القوافل، وسوقاً عامرة إلى أن تقلصت وانكمشت في أواخر العهد العباسي في ظل حكم الأخيضريين منذ النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي. وصار أمرها مجهولاً خلال القرون التالية(٤)، ولو أن اسم حجر بقي معروفاً كقاعدة اليمامة، وفي أواخر هذا العهد صار يطلق على الأجزاء المتناثرة المتبقية منها والتي تحولت إلى قرى منفصلة(٥).

ظهور الرياض في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ونموها الحديث:

يمكننا أن نتتبع التاريخ العمراني لمدينة الرياض بعد ظهورها بهذا الاسم حسب التغيرات التي تركت آثارها على الحركة العمرانية فيها من خلال تقسيمها إلى أربع مراحل متتابعة هي:

أ ـ المرحلة الأولى وتبدأ منذ ظهور الرياض بهذا الاسم في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي وتمتد حتى عام ١٣١٩هـ، ١٩٠٢م.

لقد تقلص مدلول حجر في أواخر أيامها حتى انحصر في جزء صغير من موضع المدينة، في حين أن المدينة تجزأت إلى قرى منفصلة يحف بكل منها البساتين الخاصة بها، ومن هنا أطلق اسم «الرياض»



• شكل (١) المملكة العربية السعودية •

ليشمل جميع ما تبقى من أحياء حجر وما حولها من أراض وبساتين. وفي سنة ١١١٦هـ ـ ١٧٤٧م تغلب ابن دواس أمير منفوحة عليها، وأقام سوراً حول تلك القرى لتصبح الرياض[٦]. وبنى في داخلها مبنى الإمارة وعدداً من الحصون نتيجة لازدياد الصراع بينه وبين الدولة السعودية الأولى القائمة في الدرعية. وقد انتهى هذا الصراع في سنة ١٧٧٣م بانضمام المدينة واتباعها

للدولة السعودية. وبقيت كذلك إلى أن احتلتها جيوش ابراهيم باشا سنة ١٨١٨م فتهدمت[٧]. وفي سنة ١٢٤٠هـ ـ ١٨٢٤م استعاد الأمير تركي بن عبدالله الرياض، فأعاد بناء السور والجامع والقصر، وعاد إليها سكانها وعُمِّرت من جديد، واتُخذت عاصمة للدولة السعودية الثانية، إلى أن خضعت لإمارة حائل مدة عشر سنين بين (١٨٩٢ ـ ١٩٠٢م).

لقد تعرضت مدينة الرياض خلال هذه المرحلة إلى ذبذبات من الازدهار والانهيار تبعاً لتغير السلطة، وقد تمثل في تغير كثافة العمران داخل الأسوار وفي تهدم الأسوار وإعادة بنائها. وكانت الرياض سنة ١٢٧٩هـ ـ ١٨٦٢م كما وصفها بلجريف قريبة من الشكل الدائري لا تتجاوز مساحتها نصف كيلو متر مربع، تتوسطها هضبة الصفاة التي تحيط بها ساحة، ويجانبها القصر والمسجد والأسواق، ويتفرع من الساحة أربعة شوارع تنتهي بأربعة أبواب محصنة في الجهات الأربع، وتقسم هذه الشوارع المدينة إلى أربعة أحياء مختلفة في مساحاتها وفي مستوى سكان كل منها[٨].

ب ـ المرحلة الثانية (١٣١٩ ـ ١٣٦٩هـ)، (١٩٠٢ ـ ١٩٥٠م): (الشكل ٢)

وتبدأ هذه المرحلة منذ تأسيس الدولة السعودية الثالثة عقب افتتاح الملك عبد العزيز الرياض وتنتهي بتاريخ تهديم أسوارها وزوالها. أي أنها تنطبق على فترة نمو وازدهار الدولة وتوحيدها. ولذلك شهدت الرياض نمواً مطرداً، فبعد أن كانت صغيرة المساحة، محصورة داخل سورها الطيني ذي الأبواب الخمسة، توسعت في جميع الاتجاهات، واستبدلت بعض المباني والأسوار، وزاد عدد الأبواب إلى سبعة[٩]. ثم ظهرت بعض المباني خارج الأسوار، بدأ بعضها كقصور كبيرة مثل قصر المربع وقصر البديعة، أو كأحياء شعبية مثل منفوحة الجديدة وحلّة العبيد وعتيقة لإيواء بعض الوافدين من البادية أو الريف[١٠]. ثم أخذت المدينة تتمدد باتجاه هذه الأحياء الخارجية مما جعل نمو المدينة يتحول من النمو الحلقي في أول هذه المرحلة إلى النمو نحو أربعة اتجاهات عريضة.

وتخطت المدينة وادي البطحاء من الشرق. وقد بلغت مساحتها في نهاية هذه المرحلة، وهي مبنية من الطين المجفف والطوب الطيني ٨,٥ كم٢، امتدت على المحور الشرقي ـ الغربي مسافة ٤ كم وعلى المحور الشمالي ـ الجنوبي نحو ٣,٥كم. وقد حالت بعض العقبات دون توسع المدينة في الاتجاهات الأربعة الواقعة بينها وهي: هضبة زهرات الوشام في الزاوية الشمالية الغربية ومقبرة السبالة وبعض البساتين في الزاوية الجنوبية الغربية، ومقبرة العود في الجنوب الشرقي وبعض البساتين في الشمال الشرقي[١١].

١٨٦٢
١٩١٩
١٩٣٠
١٩٤٠
١٩٥٠
١٩٦٠
١٩٧٠
١٩٨٥

٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ كم

• شكل (٢) التوسع العمراني بمدينة الرياض •

وقد نال النواة المركزية للرياض بعض التغيير خلال هذه المرحلة، فاستبدلت ببعض المباني القديمة مبانٍ جديدة لتقوم باستعمالات جديدة، كما استبدلت ببعض المباني أسواق متخصصة، وهدمت بعض البيوت لتوسيع الشوارع، وشيدت المحلات التجارية الجيدة على طول الشوارع المشعة من ساحة الصفاة. أي أن القلب التجاري للمدينة توسع على حساب المناطق السكنية فزاد الضغط على الأخيرة في الحلقة المحيطة بالمركز لتنمو في الحلقة المحيطة بها وفي الأطراف، ولم تعد الأسوار أو وادي البطحاء تحول دون هذا التوسع، وصار لا مناصْ من تخطي الوادي ومن التخلص من الأسوار فتمت إزالتها في عام ١٩٥٠م حيث انتهت بهذا الحدث العمراني الهام المرحلة الثانية.

جـ-المرحلة الثالثة (١٣٦٩ - ١٣٩٤هـ)، (١٩٥١ - ١٩٧٤م):

وقد تميزت هذه المرحلة بالنمو السريع والمطرد لعمران المدينة، وبالتحول من التمدد الحلقي إلى التمدد الإشعاعي في اتجاهات جديدة، كما تميز البناء بظهور طرز جديدة ومواد بناء لم تكن مستعملة سابقاً وهي مادة الخرسانة المسلحة والطوب الإسمنتي. وبدأ تخطيط الشوارع والأحياء كظاهرة جديدة مؤثرة. وقد برزت عوامل هامة مع بداية هذه المرحلة كان لها أثر عظيم على التغير المدني في الرياض مثل: تطور النشاط الاقتصادي في المملكة، نتيجة تطور المراكز البترولية بعد الحرب العالمية الثانية، ونقل الوزارات ورئاسات جميع الدوائر الحكومية من جدة إلى الرياض منذ سنة ١٩٥٣م، والعثور على موارد مائية كبيرة أمكن ضخها بواسطة الأنابيب إلى الرياض. هذا بالإضافة إلى تبلور وظيفة الرياض العلمية والدينية مع تزايد افتتاح المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، وكذلك ترسخ وظيفتها التجارية والاجتماعية بتطوير التجارة الخارجية وإنشاء طرق المواصلات الجوية والبرية والبحرية وسكة الحديد ثم التوسع في استعمال السيارات؛ أدت هذه العوامل إلى زيادة الطلب على المساكن والخدمات، لذلك نشطت أعمال الإنشاء وارتفعت قيم المستوردات لا سيما من مواد البناء.

أخذت مقدمات التوسع العمراني في هذه المرحلة صورة مشابهة لما حصل في السابق من إنشاء قصور أو أحياء منعزلة، يتبع ذلك توسيع هذه الأحياء ثم امتداد عمران المدينة إليها. في مطلع هذه الفترة أنشىء قصر الناصرية وتوابعه ثم العديد من البيوت الواسعة في شرق الناصرية وفي جنوبها وشمالها. وبني قصر البديعة إلى الجنوب منه، ثم بدأت تظهر المباني ابتداء من منطقتي الفوطة والمربع باتجاه الأول، ومن الشميسي باتجاه الثاني وفيما بينهما في منطقة عليشة، وباتجاه الشمال الغربي على امتداد طريق الدرعية وباتجاه أم الحمام الواقعة في وادي المحسن إلى الشرق من ذلك الطريق.

أُنشئت محطة سكة الحديد في شرق الرياض في (سنة ١٩٥١م ـ ١٣٧٠هـ)، واختيرت منطقة الملز الواقع إلى الجنوب الغربي من المطار القديم للتنمية، وفي أواخر هذه المرحلة أقيمت نواة حي العيا إلى الغرب من الحي الأخير. وسرعان ما اجتذبت هذه المناطق التوسع العمراني تباعاً وذلك من منطقة البطحاء باتجاهها. فنشأ شارع الريل ومنطقة غرابي كمنطقة متخصصة بورش إصلاح السيارات وبمتاجر قطع الغيار والوكالات والمعارض وبعض الخدمات، وتمددت هذه المنطقة فيما بعد باتجاه الشرق أي نحو المحطة ثم الجنوب باتجاه طريق الخرج. وتجمع القادمون من القصيم في شرق المدينة، فنشأ حي القصمان، كما تجمع القادمون من الدواسر في الجنوب فنشأ حي «الدواسر». كما نشأ شارع المطار امتداداً لشارع البطحاء، ونشأت حوله مباني الوزارات وكثير من الدوائر الحكومية ثم الفنادق والمستشفيات ثم المحلات التجارية وغيرها. وفي أواخر هذه الفترة أخذ يتقدم العمران من شارع المطار ومن منطقة الملز باتجاه طريق الدمام في الشرق.

وتوسعت الرياض باتجاه الجنوب أيضاً فنشأت منذ بدء هذه المرحلة أحياء: القرينة وصياح وحبونة وتوسعت عتيقة على طريق الحجاز، وقفز العمران عبر جسر وادي حنيفة في أواخر هذه الفترة إلى حي الشفا. وتوسعت كذلك مع امتداد وادي البطحاء باتجاه منفوحة وفيما بينهما. وتوسعت باتجاه الجنوب الشرقي فالتحمت الأحياء السابقة: حلة العبيد والمرقب والقصمان والعود وزحفت منطقة خدمة السيارات والمنطقة الصناعية على طريق الخرج وإلى الشرق منه.

استمر التوسع الذي بدأ في الأذرع العمرانية التي بدأت منذ بدء هذه المرحلة مع الزيادة في التركيز الداخلي. ونشأت أحياء الصفيح «الصنادق» في بعض الأراضي الفضاء داخل المدينة لإيواء الوافدين الفقراء من الريف، غير أن أمانة الرياض رحّلتهم عنها في المرحلة التالية إلى حي الفيصلية في جنوب شرق المدينة. وأصبحت الرياض في نهاية المرحلة تمتد نحو ١٧كم من المطار القديم شمالاً حتى حي الشفا جنوباً، ونحو ١٠كم من محطة سكة الحديد وطرف المنطقة الصناعية شرقاً إلى وادي حنيفة غرباً، ولا تقل المساحة المبنية منها عن ٨٥كم٢.

تغلب التمدد الأفقي على التمدد الرأسي في هذه الفترة، ولو أن عدداً من المباني المتوسطة (من ٣ ـ ٧ طوابق) بدأت تظهر على جوانب الشوارع المشعة من منطقة القلب التجاري وعلى المحاور التجارية الهامة، كما أن عدداً محدوداً من المباني العالية (أكثر من ٧ طوابق) ظهرت في تلك المناطق بسبب

ارتفاع أسعار الأراضي. ذلك أن معظم الأبنية في مناطق التوسع الحديثة كانت على نظام الفلل والتي لها حدائق، وتتضمن في أحيائها، ويحف بها مساحات فارغة تستطيع أن تستوعب المزيد من المباني. واستمر في هذه المرحلة تعرض النواة المركزية للتغيير، فأزيلت بعض الأحياء القديمة والمبنية من الطين ليحل محلها الطرق أو مواقف السيارات أو مجمعات الأسواق أو المباني العالية. وسيطرت المتاجر على طول الشوارع الرئسية المشعة من القلب التجاري، وظهرت الأسواق المتخصصة وبعض المباني الإدارية والتعليمية والمساجد(١٢).

وتم خلال هذه المرحلة تمديد شبكة الماء الجديدة وشبكة الكهرباء وحلَّ الهاتف الأتوماتيكي محل الهاتف اليدوي، وتم رصف الشوارع الرئيسية ومعظم الفرعية. وأنجزت مساحة كبيرة من شبكة مجاري الصرف ومصارف مياه الأمطار، وزاد التوسع في إنشاء المدارس والكليات والمعاهد العليا والنوادي. وتحولت الرياض خلال هذه الفترة إلى ورشة إنشاء، موزعة في جميع الأنحاء، وقد رافق هذا النشاط لا سيما في أواخر هذه الفترة ارتفاع هائل في أثمان الأراضي وأثمان وأجور العقارات.

د ـ المرحلة الرابعة (١٣٩٥ ـ ١٤٠٥هـ)، (١٩٧٥م ـ ١٩٨٥م):

تنطبق هذه المرحلة على فترة خطتي التنمية الثانية والثالثة في المملكة، وتتميز بأن معدلات النمو العمراني فاقت فيها كل تصور وتجاوز التوسع كل التوقعات، يدل على ذلك أن نسبة الوحدات السكنية التي أنشئت أو أعيد بناؤها خلالها بلغت ٧٤,٤٪ من مجموع الوحدات السكنية في نهايتها حسبما أشارت دراسة (غازي مكي ١٩٨٥م)(١٣). وقد اجتمعت عدة عوامل لإحداث هذه الطفرة العمرانية منها:

(١) الازدهار الاقتصادي الذي وصلت إليه المملكة خلال هذه الفترة. فقد ارتفع الناتج المحلي الإجمالي في المملكة من ١٤٨٨٠٠ مليون ريال عام ٩٤/ ١٣٩٥هـ إلى ٣٥٨١١٦ مليون ريال سنة ١٤٠٤/ ١٤٠٥هـ.

(٢) ارتفاع نصيب المشاريع في ميزانية الوزارات، فعلى سبيل المثال كان نصيب المشاريع الاستثمارية لوزارة الشؤون البلدية والقروية في الخطة الإنمائية الثالثة والتي بدأت سنة ١٤٠٠هـ هو ٤٨,٥ بليون ريال، كان نصيب المنطقة الوسطى ٣٠,٢ بليون ريال.

(٣) التوسع في انتشار الخدمات البلدية وإيصالها لأماكن التنمية الجديدة.

(٤) زيادة الطلب على المباني وعلى الخدمات نتيجة الهجرة الداخلية والخارجية إلى الرياض.

(٥) زيادة السيولة النقدية أدى إلى المتاجرة بالأراضي والمضاربة بأسعارها ونشاط المساهمات العقارية خارج الرياض وتعمير هذه الأطراف هروباً من أسعار الأراضي العالية في الداخل.

(٦) القروض الميسّرة من الدولة عن طريق البنك العقاري، فعلى سبيل المثال كان نصيب الرياض من الوحدات السكنية التي أنشئت بالاستفادة من قروض البنك العقاري حتى بداية جمادي الأولى سنة ١٤٠٤هـ ١٤٠٠٠٠ وحدة من مجموع ٥٣٨٧٨ وحدة في المملكة كلها[١٤].

(٧) منح الأراضي مثل أراضي الجامعيين وذوي الدخل المحدود في العريجا وظهرة لبن وفي جنوب الرياض.

(٨) كثرة المشاريع الإسكانية في الأماكن البعيدة الحكومية والأهلية: مثل سكن جامعة الملك سعود، ووزارة الخارجية، والحرس الوطني والدفاع ومؤسسة النقد ومشاريع بعض المستثمرين.

(٩) عدم وجود قيود طبيعية تحول دون التوسع في أي اتجاه وتشجيع الامتداد الأفقي.

اشتركت هذه العوامل في إحداث الطفرة العمرانية خلال هذه الفترة، إذ تطورت الأحياء التي سبق أن بدأت فيها عجلة التطور في المرحلة السابقة وتمددت باتجاه الأطراف، وخضعت مناطق تبعد عشرات الكيلومترات عن مركز المدينة للتنمية الغمرانية من قبل مؤسسات حكومية أو شركات عقارية، أخذت تتسع وتقترب من المدينة، والمدينة تقترب منها على المحاور الرئيسية القديمة والمستجدة. ومن الأمثلة على ذلك في الشمال: ظهور حي شمال السليمانية الذي تخطى مطار الرياض القديم، وتوسع العليا وأم الحمام وظهور منطقة المغرزات والمرسلات، ومباني جامعة الملك سعود ثم مباني جامعة الإمام، ومجمعات الأسواق، وأخيراً أنشىء مطار الملك خالد في شمال المدينة وعلى بعد نحو ٥٠كم من مركز الرياض. وفي الغرب أخذت الفراغات التي تفصل المدينة عن وادي حنيفة بالامتلاء وتخطته باتجاه بعض الضواحي النامية في الوادي وإلى الغرب منه مثل: الدرعية وعرقة ولبن وعريجا والبديعة وسلطانة وامتدت إلى السويدي ونمار. وخططت ضاحية ذوي الدخل المحدود في غرب العريجا وضاحية لبن للجامعيين وأصحاب المنح الصريحة وذلك في غرب وادي حنيفة.

وفي الشمال الشرقي استمر التوسع على محور طريق الدمام فظهرت إلى الشمال منه الأحياء: الروضة والأندلس وحي الملك فيصل والخليج والنهضة والجنادرية، وظهرت إلى الجنوب منه أحياء الربوة والمعارض والنسيم والسّلي، وخشم العان وظهر بعدها النظيم على بعد نحو ٣٠كم عن مركز الرياض.

وفي الشرق توسعت المنطقة الصناعية وتخطت خط سكة الحديد واتجهت نحو الجنوب الشرقي على جانبي طريق الخرج والتحمت بمشاريع الإسكان للدفاع والطيران والأشغال العامة وإسكان المنطقة الصناعية ومصفاة الرياض على بعد ٢٠كم عن مركز الرياض.

واستمر التوسع كذلك في الجنوب على محور طريق الحائر وفيما بينه وبين طريق الخرج فظهرت أحياء الغبيرة وخنشليلة والعزيزية والدار البيضاء. وعلى محور طريق الحجاز فتوسع الشفا وظهرت أحياء الزهيري وبدر والمعارض وحي الجامعيين وثامر وديراب والفواز حتى وصل العمران على بعد ١٨ كم من مركز الرياض في هذا الاتجاه.

استمر زحف المدينة في جميع هذه الاتجاهات حتى اتصلت معظم هذه الأحياء المتباعدة بعضها بالبعض الآخر، وتقلصت بالتالي مساحات الفراغ فيما بينها، واتخذت المدينة شكلاً هندسياً يمتد مسافة تقرب من ٤٠ كم في أي اتجاهين متقابلين وبلغت مساحتها الإجمالية نحو ١٥٠٠كم٢، غير أن المساحات المبنية منها تقدر بنحو ٣٥٠كم٢ (١٥).

نمو سكان مدينة الرياض وتوزيعهم

يصعب تحديد أرقام تتعلق بعدد سكان مدينة حجر وكذلك مدينة الرياض خلال تاريخها الطويل وحتى بداية القرن العشرين. فعددهما لم يكن ثابتاً أبداً نتيجة لعدم استقرار الأوضاع السياسية والاجتماعية وتعرضها باستمرار لفترات اضطراب الحكم وانتشار الأوبئة والكوارث الطبيعية والمجاعات في أوقات، أو لفترات الاستقرار والتوحيد والازدهار في أوقات أخرى، وانعكاس أي منها على تجمع السكان وتزايدهم أو تشتتهم وتناقصهم. ويمكن أن نعتبر تقدير بلجريف لعدد سكان الرياض في سنة ١٨٦٢م وهو (٧ ــ ٨) ألف نسمة(١٦) نموذجاً لعددهم في وقت من أوقات ازدهارها خلال هذه الفترة الطويلة التي امتدت نحو ألفي سنة.

وشهد الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي تأسيس واتساع وتوحيد المملكة العربية السعودية، ثم شهد استقراراً في الأوضاع السياسية يمتد لمدة طويلة لأول مرة في تاريخها، مما أدى إلى تجمع السكان وتزايد عددهم في مدينة الرياض عاصمة المملكة تزايداً مضطرداً. وشهد الثلث الثاني منه التطور الاقتصادي والإداري والاجتماعي نتيجة اكتشاف واستثمار الثروة البترولية مما أدى إلى تسارع هذه الزيادة في عدد سكان المدينة بشكل لم تعهده أبداً خاصة فيما بعد عام ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م نتيجة التدفق السكاني الهائل من داخل المملكة ومن خارجها، لتوفر فرص العمل وللمساهمة في تنفيذ الخطط

الخمسية الطموحة حتى أصبحت الرياض من المدن المليونية. والجدول التالي يلخص نمو سكان الرياض في القرن العشرين:

جدول رقم (١)

تقديرات سكان الرياض خلال القرن العشرين

مسلسل	السنة	السكان	ما ساعد على التقدير
١	١٩٠٠ ، ١٣١٧هـ	٨٠٠٠	وثائق تاريخية
٢	١٩١٠م، ١٣٢٧هـ	١٠٠٠٠	وثائق تاريخية
٣	١٩٢٠م، ١٣٣٨هـ	١٩٠٠٠	جون فيلبي
٤	١٩٣٠م، ١٣٤٨هـ	٢٧٠٠٠	بناء على وثائق تاريخية
٥	١٩٤٠م، ١٣٥٩هـ	٤٦٠٠٠	مكتب تخطيط المدن
٦	١٩٥٠م، ١٣٦٩هـ	٨٢٠٠٠	توتشل
٧	١٩٦٠م، ١٣٧٩هـ	١٥٥٠٠٠	مكتب تخطيط المدن
٨	١٩٧٠م، ١٣٩٠هـ	٣٥٠٠٠٠	عبدالرحمن الشريف
٩	١٩٨٠م، ١٤٠٠هـ	٩١٠٠٠٠	تخطيط المدن
١٠	١٩٨٥م، ١٤٠٥هـ	١٢٠٠٠٠٠	غازي مكي

كان لهذا التزايد السريع تأثيرات هامة على التركيب الاجتماعي للسكان وكذلك على توزيعهم وتوزيع كثافتهم وعلى تقسيمهم النوعي والعمري والإنتاجي وغيرها . ويحسن بنا أن نتناول بعض هذه الآثا ر بالتحليل.

الأصل الانتمائي للسكان:

ينحدر سكان مدينة الرياض في الأصل وكذلك سكان مدن شبه الجزيرة العربية من أصول بدوية، وكان يخالطهم وافدون من أصول مختلفة بنسبة بسيطة. ولكن منذ نحو نصف قرن تزايد عدد الوافدين من داخل البلاد ومن خارجها حتى بلغت نسبتهم في سنة ١٣٩٧هـ ٥٧٪ من مجموع سكان الرياض حسب دراسة ست أنترناشيونال[١٧] ، ثم ارتفعت إلى ٦٩٪ في سنة ١٤٠٢هـ حسب دراسة

القباني[١٨] ومن الملاحظ أن المقصود بالوافدين في تلك الدراسات هم الذين لم يولدوا في الرياض من ساكنيها.

لقد توافد المهاجرون من مختلف مصادر الهجرة وصار بالإمكان تقسيم سكان الرياض إلى أربع مجموعات هي:

(١) الذين ولدوا في الرياض.

(٢) المهاجرون من الريف والبادية.

(٣) المهاجرون من المدن.

(٤) الأجانب.

تختلف نسبة هذه الأصول في الرياض من حي إلى آخر حسب طبيعة ومستوى ووظيفة ذلك الحي. إذ ترتفع نسبة المهاجرين من الريف والبادية في بعض الأحياء خاصة الشعبية مثل حلة ابن دايل ومنفوحة والشميسي. وترتفع نسبة المهاجرين من المدن في بعض الأحياء الراقية كالفوطة والعليا والملز. ورغم أن الدراسات أثبتت أن المهاجرين غير السعوديين زادوا زيادة هائلة في الفترة الأخيرة حتى بلغت نسبتهم في سنة ١٩٨٠م ٢٨.٧٪ من سكان الرياض حسب دراسة القباني[٢٠] وأنهم ينتشرون في جميع أحياء الرياض، إلا أن مساحات واسعة في بعض الأحياء نشأت خصيصاً لإيواء القادمين الجدد فترتفع نسبتهم في تلك الأحياء أكثر من الأحياء الأخرى. مثل مجمعات عمال وموظفي الشركات الأجنبية في بعض الاحياء الواقعة في الشمال وعمال المنطقتين الصناعيتين في الجنوب الشرقي. وينطبق هذا الوضع على الفترة المبكِّرة من تاريخ تطور الرياض حيث تجمع القادمون من اليمن الشمالي في المناطق المجاورة للديرة والبطحاء.

وقد تنوعت مصادر الهجرة الأجنبية تنوعاً كبيراً واختلفت نسب هذه المصادر من وقت إلى آخر من أوقات النمو. فبعد أن كان اليمنيون الشماليون أكثر من نصف مجموع الأجانب في الرياض حتى سنة ١٩٧٢م[٢١]، ارتفعت نسبة القادمين من البلاد العربية الأخرى خاصة مصر ومن دول جنوب شرق آسيا لا سيما الباكستان والفلبين وسيرلانكا والهند وغيرها. وارتفعت كذلك نسبة القادمين من الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية مما أدى إلى تناقص نسبة القادمين من اليمن إلى درجة كبيرة.

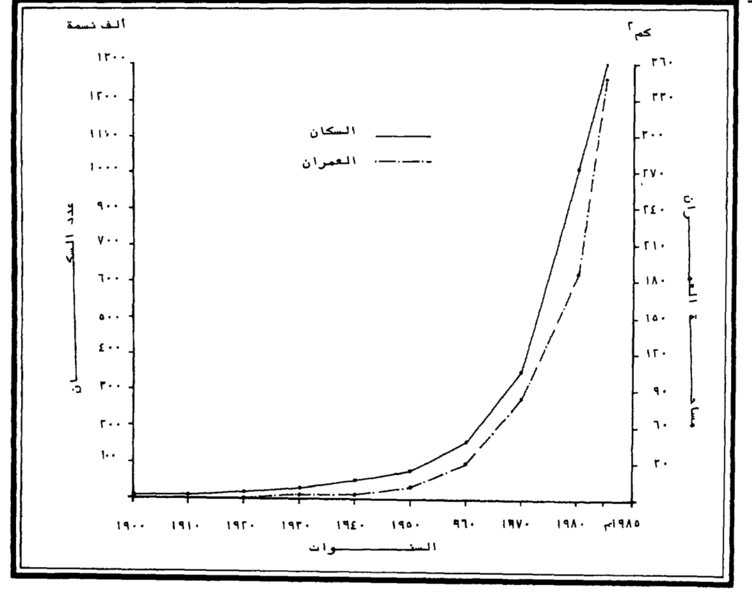
توزيع سكان الرياض:

كانت الرياض تتوسع من أطرافها، فتنشأ ضواحي متباعدة بدافع أن الأحياء القديمة تضيق عن استيعاب الزيادة الطارئة على السكان. وإذا توسع القلب التجاري للمدينة على حساب الأحياء السكنية المحيطة به، فيتجه الضغط السكاني إلى الحلقة التالية في الوقت الذي يستمر فيه التوسع الخارجي مما أدى إلى بقاء مناطق التوسع الحديث في الأطراف قليلة السكان لسهولة الانتشار فيها وتوفر الأراضي ورخصها نسبياً.

فخلال السبعينات من القرن العشرين فقدت المنطقة المركزية قسماً من سكانها بسبب إزالة كثير من الأحياء الطينية وإنشاء الأسواق أو الشوارع أو مواقف السيارات وحتى بعض المباني المرتفعة. وكذلك بسبب استبدال استخدامها في أغراض غير سكنية كالمكاتب أو المستودعات بالرغم من إشغال المباني المرتفعة خاصة في طوابقها العليا بالأغراض السكنية. في حين زاد عدد سكان الحلقة الخارجية أيضاً ولكن بنسبة تقل عن زيادة الحلقة المحيطة بالمركز التجاري وذلك بسبب وجود الفراغات ومرونة هذه الأحياء وتوسعها من الأطراف. وهذا يدل على ارتباط زيادة السكان بالتوسع العمراني ارتباطاً وثيقاً ويؤكد ذلك أن حساب معامل ارتباط بيرسون بين هاتين الظاهرتين من واقع جدول تقدير تزايد السكان والعمران كل عشر سنوات ابتداء من بداية هذا القرن بلغت ٠,٩٨ والشكل (٣) يوضح خطّي التزايد لكلا الظاهرتين. خلال القرن العشرين.

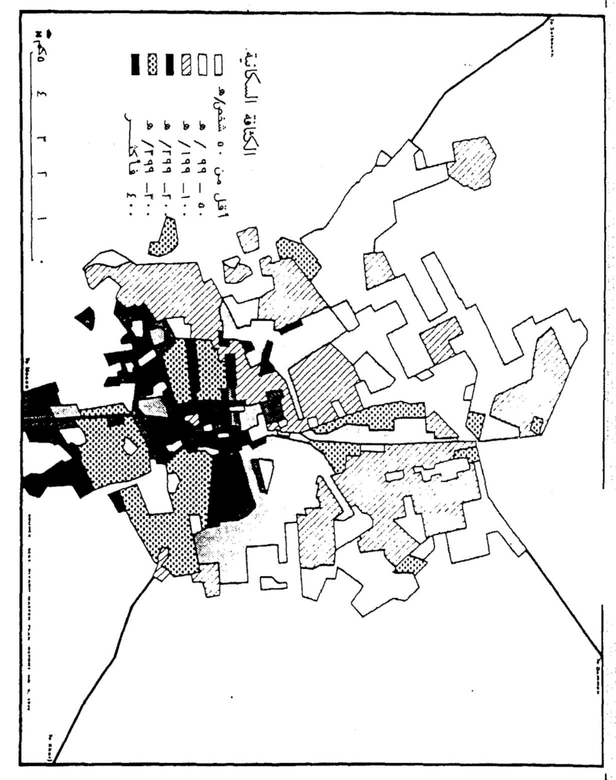
الكثافة السكانية في الرياض:

كانت الكثافة السكانية مرتفعة جداً في الرياض القديمة بسبب تجمع البيوت وضيق الطرقات والساحات وعدم وجود فراغات، وهذا مرتبط بانخفاض مستوى المعيشة، بالرغم من قلة ارتفاع المباني. ويمكن تقدير الكثافة خلال الثلث الأول من القرن العشرين بـ ٣٥٠ نسمة/ هكتار، وكانت أي زيادة في عدد السكان تقتضي توسعاً في المساحة على شكل حلقي. ثم أخذت الكثافة سبيلها إلى الانخفاض التدريجي بسبب التوسع السريع بالمساحة وارتفاع مستوى البيوت الجديدة خاصة بعد أن انطلقت المدينة دون قيود خارج الأسوار. ثم أخذت كثافة هذه الأطراف سبيلها إلى الانخفاض السريع مما جعل بالإمكان التمييز في الكثافة بين الأحياء القديمة والأحياء الجديدة لا سيما الموجودة في شمال وغرب المدينة[٢٢]



• شكل (٣) نمو السكان والعمران بمدينة الرياض بين ١٩٠٠ - ١٩٨٥م •

وفي حين أن معدل الكثافة بلغ في سنة ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م ٥٣ نسمة/هـ. فإن كثافة بعض قطاعات من الأحياء المحيطة بالمركز التجاري مثل المرقب والحميدية وصلت إلى ٤٠٠نسمة/هـ. ونقصت في بعضها الآخر عن معدل المدينة. وقد احتفظت المنطقة المركزية والحلقة المحيطة بها بأنها لا



• شكل (٤) الكثافة السكانية في مدينة الرياض سنة ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م •

تزال أعلى مناطق الرياض كثافة بالسكان بالرغم من إزالة معظم الأحياء القديمة منها، ثم تتناقص هذه الكثافة باتجاه الأطراف (شكل ٤) SCET Ine. [٢٣] بسبب ارتفاع مستوى المباني وتباعد الأحياء واتساع الشوارع والساحات واتساع المساحات المستخدمة في غير الاستخدام السكني.

ومثلما كانت المنطقة المركزية والحلقة المحيطة بها مزدحمة بالسكان فهي مزدحمة كذلك بعدد المباني وبكثافتها وبارتفاع كثافة الغرف في أحيائها لا سيما في الأحياء المنخفضة أو المتوسطة المستوى مثل منفوحة والعود والأحياء الواقعة في غرب المركز التجاري، حيث زادت كثافة أو ازدحام الغرف فيها عن ٢ فرد/غرفة، بالقياس إلى ١,٥ فرد/ الغرفة كمعدل للمدينة ولأقل من ١ فرد/ غرفة في معظم الأحياء الخارجية حسب دراسة ست أنترناشيونال.

حجم الأسرة في الرياض:

ومن الظواهر الديمغرافية التي تعرضت للتغيير خلال فترة نمو الرياض حجم الأسرة. إذ كانت تسود في الرياض وجميع مدن الإقليم الأسرة الكبيرة الممتدة. وقد أثبتت الدراسات أن حجم الأسرة اتجه إلى التناقص في المراحل الأولى من هذه الفترة، فبعد أن بلغ معدل الحجم ٧,٥ فرد/ الأسرة في سنة ١٩٣٥م حسب تقدير دوكسادس انخفض إلى ٦,٢ فرد/الأسرة سنة ١٩٦٠م [٢٤] لكنه اتجه إلى الارتفاع ثانية في المراحل التالية فبلغ حسب إحصاء ١٣٩٤، ١٩٧٤م ٦,٢ فرد/الأسرة، وإلى ٦,٣ فرد/ الأسرة حسب دراسة ست انترناشيونال، وإلى ٦,٦ فرد/الأسرة حسب دراسة القباني [٢٥] ويعود ذلك إلى تزايد مستوى وحجم المباني على نظام الجماعات التي تزيد عندهم نسبة الخدم والسواقين، مثل معظم الأحياء الواقعة في شمال الرياض.

التركيب النوعي لسكان الرياض:

قد يكون التركيب النوعي والعمري أكثر الظواهر الديمغرافية تأثراً بالهجرة إلى المدينة. فبالنسبة للتركيب النوعي اتجهت نسبة الذكور إلى مجموع سكان الرياض إلى الارتفاع المطرد منذ بدء التطور الحديث في المملكة بسبب تزايد تدفق المهاجرين لأغراض العمل أو التعلم أو التزود بالخدمات، وأغلبهم من الذكور. وتزايدت نسبتهم في الرياض بتزايد تدفق الهجرة، إذ بلغت نسبة الذكور في الرياض ٥٧٪ من مجموع سكانها سنة ١٩٦٢م، ارتفعت إلى ٥٨,٨ حسب إحصاء سنة ١٩٧٤م [٢٦].

أي أن نسبة الذكور ارتفعت من ١٣٣ إلى ١٤٣ ذكر لكل ١٠٠ أنثى فيما بين التاريخين المذكورين.

التركيب العمري لسكان الرياض:

يتصف المجتمع السعودي بالفتوة أي بارتفاع نسبة صغار السن، إذ يؤخذ من إحصاء ١٣٩٤هـ أن نسبة من هم دون ١٥ عاماً بلغت في الرياض ٤٣٪ من مجموع السكان، علماً بأن قسماً كبيراً ممن تزيد أعمارهم عن ذلك يحسبون ضمن المعالين مثل الطلاب والنساء وكبار السن، وهذا يرفع من نسبة الإعالة ويزيد من التبعات على الأفراد العاملين وعلى الدولة.

ومع ذلك فإن تزايد تدفق الهجرة لا سيما في الفترة الأخيرة أدى إلى تزايد نسبة متوسطي الأعمار على حساب الأعمار الكبيرة لأن دوافع الهجرة لا تستقطب الشباب فقط بل الذكور منهم، فارتفعت نسبة من هم بين سن ١٥ ـ ٥٥ سنة إلى ٥٣٪ من مجموع السكان في حين أن من تجاوزت أعمارهم سن الخمسة والخمسين لم يزيدوا عن ٤٪ فقط، مما يوضح أثر الهجرة دون لبس.

إن النمو العمراني والسكاني يؤثر على حياة المدينة وتركيبها وينعكس في طرق وأساليب استخدام الناس للأرض وفي تأمينهم مواردهم وحاجاتهم وهذا ينقلنا إلى الفقرة التالية.

التركيب الوظيفي في مدينة الريـاض

خضعت استعمالات الأرض داخل مدينة الرياض إلى تغير كبير ومستمر نتيجة طبيعية لنمو المدينة وتوسعها، فقد تمركزت الوظيفتان الإدارية والثقافية بشكل لم يعهد بهما من قبل. ونال القطاع التجاري، وأعمال الإنشاء، والخدمات الحكومية، والشخصية، رواجاً هائلاً. وتبلور قطاع صناعي هام توسع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة. واتسعت المساحات الخضراء نتيجة لانضمام مساحات واسعة من وادي حنيفة وروافده وبساتينه، ونتيجة لكثرة الحدائق وملاعب الأطفال التي أنشئت في المرحلة الأخيرة (٦٠ حديقة)، ونشاط حركة تشجير الشوارع والأحياء حيث زرعت الأمانة ٨٠٠٠٠ شجرة[٢٧]. ومع ذلك فإن نسبة الأحياء والمناطق السكنية كانت تطغى على أي توسع خلال المراحل المذكورة، ومثلها المساحات الفضاء نتيجة اتساع الحدود الخارجية للمدينة وتباعد الضواحي بعضها عن بعض. والجدول رقم ٢ يقارن بين مساحة الاستخدامات المختلفة في الرياض في عامي ١٣٩٢هـ، ١٤٠٠هـ.

جدول رقم (٢)

مساحة استعمالات الأرض في مدينة الرياض عامي ١٣٩٢هـ، ١٤٠٠هـ بالـدونم

نوع الاستخدام	سنة ١٣٩٢هـ	النسبة ٪	سنة ١٤٠٠هـ	النسبة ٪
السكني	٣٢٢٥٠	٤٦,٧	٩٠٠٠٠	٥٣,١
الحكومي	٣٥٠	٠,٥	١٥٠٠	٠,٩
التجاري	١٢٠٠	١,٧	١٩٠٠	١,١
الصناعي	٢٠٥٠	٣	٢٥٠٠	١,٥
الديني	٢٥٠	٠,٤	٦٠٠	٠,٤
التخزيني	١٠٠٠	١,٤	٢٠٠٠	١,٢
التعليمي	١٧٥٠	٢,٦	٢٣٠٠	١,٤
الترفيهي	٩٠٠	١,٣	٠٤٠٠	٠,٨
الصحي	٣٦٠	٠,٥	٢٥٠٠	١,٥
المقابر	٦٦٠	١	٨٠٠	٠,٥
النقل (جوية، سكة حديد)	٢٠٠٠	٢,٩	٣٢٠٠٠	١٨,٩
الشوارع	٢٦٤٠٠	٣٨,٣	٣١٠٠٠	١٨,٣
الدفاع	٣٠	—	١٥٠٠	٠,٩
مجموع الاستعمال	٦٩٢٠٠	١٠٠	١٧٠٠٠٠	١٠٠

المصادر: استخلصت أرقام ١٣٩٢هـ من دراسة الشريف، مدينة الرياض ١٩٧٦، وأرقام ١٤٠٠هـ من: *(scet Int,/Sedes, 1979. P-102)*

يوضح هذا الجدول تطور كثافة استعمالات الأرض في مدينة الرياض بمختلف أنواعها بين عام ١٣٩٢هـ أي قبل أن يبدأ صندوق التنمية العقاري وبقية البرامج الإنمائية في مزاولة نشاطاتها وعام ١٤٠٠هـ حيث ساهمت خطط التنمية في دفع عجلة البناء في كافة الاستخدامات. وأهم ما يؤخذ منه

أن اتساع المدينة في عهد«الطفرة» انعكس على أنواع الاستخدام بنسب متفاوتة نظراً لسرعة النمو واختلاف دوافعه، فالاستخدام السكني هو الاستخدام الطاغي والرئيسي ويشغل أكثر من نصف مجموع الاستخدام والذي يتميز بانتشاره في جميع الأحياء، فقد زادت نسبة انتشاره بين التاريخين ٥,٥٪ بسبب اتساع المساحات التي خضعت لبناء المساكن في خارج المدينة. ويمكن أن يقال مثل ذلك عن كل من الاستخدامين الحكومي والصحي رغم ضآلة النسبة التي يشغلها كل منهما، إذ لم تتجاوز مساحة الأول ١٪ والثاني ١,٥٪ من مساحة الاستخدام في سنة ١٤٠٠هـ. ويعود ذلك إلى التوسع الكبير في بناء المنشآت الخاصة باستخدامها في الرياض. (شكل ٥).

أما استخدام النقل فقد زادت مساحته بشكل خيالي حيث تضاعفت بقدر ١٦ مثل ما كانت عليه في عام ١٣٩٢هـ، بفضل ضم مساحة مطار الرياض القديم وحرم سكة الحديد داخل حدود الرياض. وأما باقي الاستخدامات، فبالرغم من التوسع الهائل في المساحة التي يشغلها كل منها حيث تراوح التوسع ما بين ٢٥ ـ ١٠٠٪ فيما بين هذين التاريخين، فإن نسبة ما يشغله أي منها لم يجار توسع المدينة ذاتها وبالتالي وجدنا أن نسب تلك الاستخدامات قد تراجعت عما كانت عليه في التاريخ الأول. (شكل ٦).

وقد ظهرت آثار هذا التوسع في استخدام الأراضي في كافة أحياء مدينة الرياض غير أن كثيراً من الأحياء الموجودة حالياً كانت وليدة هذه الطفرة المعمارية الكبيرة، ولم تكد تتبلور الاستخدامات فيها بعد، وظهر بعضها وكأنه أنشىء من أجل استخدامات معينة مثل منطقة المصانع الجديدة والحي الصناعي اللذين يزداد فيهما الاستخدام الصناعي عن الاستخدامات الأخرى. ومثل الدرعية وعرقة ولبن التي تزداد فيها المساحات الخضراء أكثر من المناطق الأخرى، ومثل أحياء: الملك عبد العزيز والنزهة والجنادرية وغيرها والتي يمثل الاستغلال السكني الاستغلال الوحيد في كل منها حتى الآن. ولكن يجب أن لا يغرب عن البال أن معظمها لازال في طور البناء وستظهر فيها بعض الاستخدامات الأخرى بالتدريج.

أمـا الاستخدام التجاري والذي هو مركزي بطبيعته فهو يشغل في الأصل قلب المدينة التجاري، وقد توسعت مساحته مع توسع القلب التجاري وغطى عدداً كبيراً من الأحياء المتجاورة، ويتمدد في الحلقة التالية من الأحياء عن طريق محاور الشوارع التي تنطلق من المركز إلى الأطراف. وقد ظهر الاستخدام التجاري كذلك في وسط كل من الضواحي القريبة والبعيدة، وهو في سبيله إلى التوسع ابتداء من تلك المراكز ومن نوى جديدة خططت لتكون أسواقاً في مراكز الأحياء الجديدة منذ

١٣٩٢هـ

المساحة ٦٩ كم²

١٤٠٠ هـ

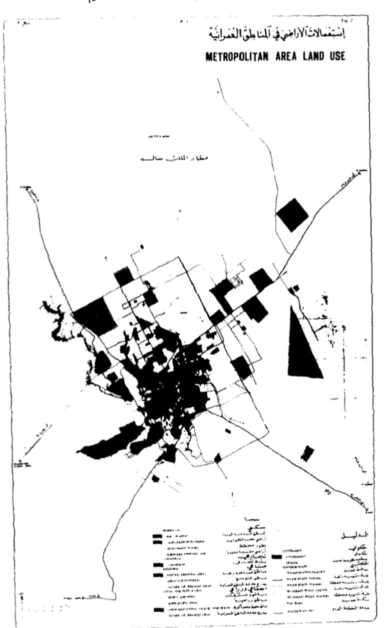
المساحة ١٧٠ كم²

سكني | صناعي | صحي
حكومي ودفاع | ديني وتعليمي | المقابر
تجاري وتخزين | ترفيهي | نقل وشوارع

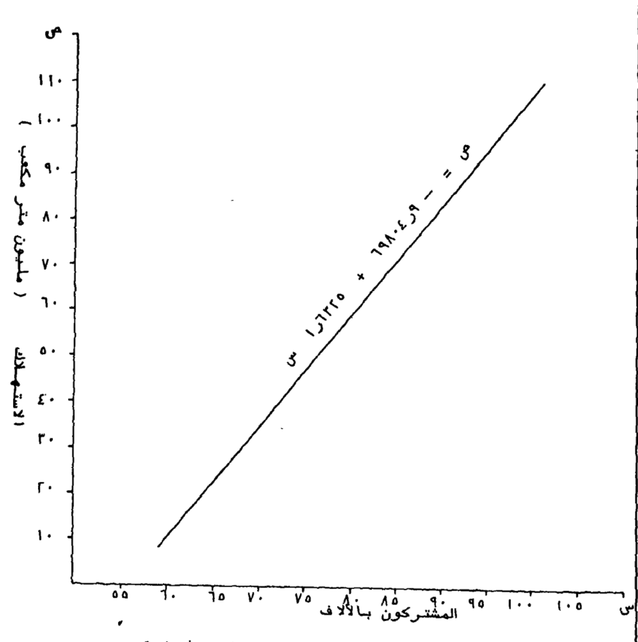
• شكل (٥) تطور مساحة استعمالات الأرض في مدينة الرياض (١٣٩٢هـ - ١٤٠٠هـ) •

إنشائها. لقد أنشئت الأسواق المركزية (سوبرماركت) في الرياض متأخرة، إلا أنها انتشرت بسرعة هائلة نتيجة التغير الاقتصادي والاجتماعي السريعين حتى أن عددها ارتفع من ٣٢ سوقاً في سنة ١٣٩٩هـ[٢٨] إلى ٢٤٨ سوقاً سنة ١٤٠٥هـ[٢٩] ومع ذلك فإن الأسواق العادية والدكاكين لازالت تتبوأ مركزاً هاماً بدليل توسعها في منطقة قلب المدينة التجاري والأحياء القديمة وانتشارها في الضواحي الجديدة.

وعلى العكس من ذلك استغلال الأراضي المختصة بالتعليم والمساجد فإنها تتصف بطبيعتها



SCET INTERNATIONAL/SEDES REPORT (1402)
مقدم لوزارة البلدية والقروية ـ وكالة تخطيط المدن



● شكل (٧) خط انحدار استهلاك الماء في الرياض/ المشتركين ●

باللامركزية وتنتشر ـ أو لابدّ لها أن تنتشر ـ في جميع الأحياء. ولو أن كثافتها لازالت في الأحياء داخل المدينة تفوق كثافتها في الأحياء الجديدة أي أن انتشارها لم يستطع أن يجاري توسع المدينة. ومع ذلك فقد ظهر الكثير من الاستثناءات لهذا التوزيع أي وجود أحياء يتركز فيها الاستخدام التعليمي كحي جامعة الملك سعود وعليشة والمربع الشمالي. وأحياء يكاد ينعدم فيها هذا الاستخدام بسبب حداثتها. والمباني الإدارية كذلك. ولو أنها منتشرة في عدد كبير من الأحياء إلا أنها تبدو أحياناً وكأنها متركزة في بعض الأحياء أكثر من الأحياء الأخرى مثل الديرة والمربع وشارع المطار.

• كفاءة تأمين موارد المدينة خلال فترة النمو •

إن سرعة تطور ونمو مدينة الرياض بهذه النسب يطرح تساؤلاً هاماً هو: هل استطاعت حركة إنشاء المرافق العامة وتأمين موارد المدينة وحتى تأمين الخدمات أن تساير ذلك التطور وتؤمّن الاحتياجات؟ لأنه إذا لم يتحقق ذلك فإن مشاكل هامة ـ أو أزمات كما اصطلح على تسميتها ـ سوف تنشأ عن عدم تزامن وتناسق تأمينها مما يكون له بالغ الأثر على حياة السكان. أما الإجابة على هذا التساؤل فهي ليست من السهولة بمكان. وهي تختلف حسب طبيعة ونوع المرفق أو الخدمة أو درجة الاحتياج لها. ويحسن بنا أن نستعرض طريقة تأمين وحل أهم هذه المرافق والخدمات.

أ ـ تزويد مدينة الرياض بمياه الشرب:

كانت مدينة الرياض القديمه تتزود بمياه الشرب من الآبار الخاصة داخل البيوت، وهي آبار ضحلة محدودة المياه. وحين زاد الطلب على المياه، بدأت منذ أواسط القرن العشرين، تعتمد على مياه آبار عميقة تتباعد أماكنها عن المدينة شيئاً فشيئاً وتسحب إليها المياه بالأنابيب، حيث حفرت الآبار العميقة أولاً في دخنة وفي البطحاء. ثم في المربع. ثم في السويدي بوادي نمار ثم في وادي حنيفة قرب مصب وادي لبن، وقرب عرقة ومن أماكن أخرى.

وقد أنشىء في الرياض منذ تلك الفترة ثلاثة خزانات في منفوحة والشميسي والملز لتجميع المياه وتوزيعها في المدينة من خلال ثلاث شبكات للتوزيع. ولكن زيادة الاستهلاك اقتضت سحب المياه من أماكن أبعد من ذلك. أي من منطقة الحائر ومن وادي نساح ولحا. حتى بلغ مجموع المياه المستهلكة في الرياض من مختلف هذه المصادر ٢٨٣١٤٠٠٠م^3 سنة ١٩٧٣م، وذلك من قبل ٦٨١٩٤ مشتركاً[٣٠].

اقتضت هذه الظروف الحرجة إنجاز مشروع حديث لمعالجة وتوزيع المياه بالرياض بدأ الشروع فيه منذ سنة ١٩٦٥م، وتضمن إنشاء محطات معالجة أولية قرب مجموعات الآبار، ومحطات تنقية، وإنشاء خطوط النقل الرئيسية وخطوط التوزيع الجديدة، وإنشاء خزان مركزي في حديقة الشمسية، ولازال العمل جارياً في توسيع شبكة التوزيع على البيوت. وفي أثناء ذلك أمكن الاستفادة من مصادر جديدة؛ فمنذ سنة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م أمكن الاستفادة من مياه منطقة صلبوخ، ومن منطقة البويب في شمال المدينة. ومنذ سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م أمكن الاستفادة من مياه تكوين الوسيع ـ البياض من منطقة تقع على بعد ١٠٠كم في شرق مدينة الرياض، وكذلك الاستفادة من المياه المزالة ملوحتها في الجبيل على الخليج والمنقولة بالأنابيب لتخلط بمياه تكوين الوسيع.

ولذلك ارتفعت كمية المياه المستهلكة في الرياض في سنة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م إلى ١٠٨٨٩٣٣٧٠م^{3} أي نحو أربعة أمثالها قبل عشر سنين ولكن عدد المشتركين زادوا إلى ١٠٤٠٠٠ مشترك أي بزيادة ٥٣٪ فقط خلال نفس الفترة [٣١]. وهذا يعني وجود صلة إيجابية بين زيادة عدد المشتركين وكمية الاستهلاك، ولكنها تعني وجود عوامل أخرى بالإضافة إلى زيادة السكان تدعو إلى زيادة الاستهلاك زيادة متعاظمة وأنها ستستمر مرتفعة في المستقبل القريب. لقد ظهر أن معامل ارتباط بيروسون بين كمية الاستهلاك وعدد المشتركين خلال الفترة الماضية بلغ ٠,٦٣ والشكل رقم (٧) يوضح العلاقة الارتباطية بينهما ويساعد في تصور كمية الاحتياجات المائية في المستقبل والتي تبلغ في حدود ١٩٥ مليون م^{3} في سنة ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

ومن حساب معامل التحديد ($R2$) الناتج عن معامل الارتباط المذكور (والشكل ٧) نستدل على أن ما لا يقل عن ٤٠٪ من زيادة استهلاك الماء في مدينة الرياض يعود إلى عامل الزيادة السكانية وليس إلى محض الصدفة. ولكن يمكن تفسير ما لا يقل عن هذه النسبة إلى عامل تزايد معدل الاستهلاك الفردي في مدينة الرياض في تلك الفترة. إذ تشير الإحصائيات إلى أن معدل الاستهلاك الفردي ارتفع في الرياض من ١٧٢ لتراً/ يوم في سنة ١٩٧٠م إلى ٢٤١ لتراً/ يوم في سنة ١٩٨٣م [٣٢]. ويتجه هذا المعدل إلى الارتفاع أكثر من ذلك في المستقبل.

وبالرغم من الجهود الهائلة التي بذلت لتأمين الرياض بالموارد المائية فإن اتساع المدينة بهذا الشكل وتباعد أحيائها يجعل من الصعوبة بمكان تحقيق الكفاءة المطلوبة لشبكة التوزيع ولا زالت بعض

الأحياء الجديدة الخارجية تعتمد على مياه سيارات الصهاريج لتأمين حاجتها. ومعروف ما لذلك من محاذير. وإذا حلّت المشكلة من الناحية الكمية بجلب المياه المزالة ملوحتها من الجبيل، فإنه لا يمكن الاعتماد على المياه المجلوبة فقط، بل لا بد من خلطها بالمياه المحلية. وهذا يقتضي تحقيق توازن بين كمية المياه المستعملة من المصدرين بحيث لا يتزايد الاستنزاف المحلي عن طاقة الخزانات المحلية، أي بحيث لا يؤثر السحب على مستوى المياه الجوفية وبالتالي على نسبة ملوحتها. وهذا يطرح ضرورة ترشيد الاستهلاك عامة وتقليل نسبة الكميات الضائعة في الشبكة والمفقودة في الاستعمالات غير اللازمة أو في الاستعمالات التي يمكن استعمال مصادر بديلة عنها. وتشجيع الصناعات التي لا تحتاج لاستهلاك كميات كبيرة من المياه، وإمكانية دراسة تطبيق تكنيك جديد لأنظمة الماء المدني والشبكات بحيث توفر الاستهلاك أو تضبطه كاستعمال محابس وحنفيات خاصة، والإقلاع عن استعمال المكيفات الصحراوية.

ب ـ معالجة المياه المستعملة:

لم يكن في الرياض القديمة نظام مجار للتخلص من الفضلات، وكانت البيوت تعتمد على الحفر الامتصاصية للتخلص منها، ولكن نمو المدينة وتزايد سكانها أدى إلى تفاقم هذه الأوضاع بارتفاع مستوى المياه الباطنية وتلوثها، مما دعا إلى البدء منذ سنة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م بتنفيذ المرحلة الأولى من مشروع شبكة المجاري. وفي سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م أنشىء مشروع معالجة مياه المجاري في الرياض والذي بلغت طاقته الإجمالية في سنة ١٩٧٩م ٥٠٠٠٠م^3/ يوم، وارتفعت إلى ١٢٠٠٠٠م^3/ يوم في سنة ١٩٨٤م. ومن المخطط أن تصل الآن ٢٠٠٠٠٠م^3/يوم حينما تعمل جميع الوحدات[٣٣] ولكن شبكة التجمع لم تستطع أن تغطي حتى سنة ١٩٨٢م جميع الأحياء الداخلية في الرياض، وبالتالي فإنه يستحيل عليها أن تغطي الأحياء الخارجية لا سيما البعيدة في غضون فترة محدودة.

لقد قامت محطة المعالجة والمقامة في جنوب الرياض بمعالجة ٧٤٦٩١م^3/ يوم في عام ١٩٨٢م وبذلك استطاعت أن تزود مصفاة البترول بما مقداره ٢٠٠٠٠م^3/ يوم وتزود الحقول الزراعية في كل من الدرعية وديراب بالماء للري. وستزداد هذه الكميات المعاد استعمالها في المستقبل[٣٤]. وينصح بأن تصرف لأغراض التشجير في المناطق الخضراء والحدائق ولمزيد من الاستعمال الصناعي والإنشائي حتى يقتصر استعمال المياه العذبة الجيدة على الاستعمال المنزلي.

وإلى جانب مشروع المجاري بدأ العمل بتنفيذ مشروع تصريف مياه الأمطار في بعض الشوارع الرئيسية في مدينة الرياض خاصة البطحاء وشارع الشميسي الجديد وطريق مكة أو جزءاً منه وفي منطقة غرابي والملز. ولذلك فإن هذا المشروع لا يغطي سوى جزء من المدينة الداخلية.

جـ ـ التخلص من القمامة والفضلات الصلبة:

حتى منتصف هذا القرن كان عمال البلدية ينقلون الفضلات الصلبة من البيوت ومن الأحياء بواسطة الحيوانات. وفي أوائل الستينات وضع ١٥٠ صندوقاً حديدياً في مختلف الأحياء، وكانت محدودة المساحة حتى ذلك الوقت، ثم تنقل القمامة منها بواسطة السيارات إلى خارج حدود البلدية[٣٥]. ومع اتساع المدينة كان يتطور جهاز التنظيف، وصار يقوم بجمع الفضلات من الشوارع يومياً منذ سنة ١٣٩٢هـ. غير أن توسع المدينة الهائل وزيادة سكانها المفاجىء في الفترة التالية جعل جهاز التنظيف التابع للأمانة عاجزاً عن القيام بمهامه حتى وصل الوضع إلى درجة بالغة السوء، مما اضطر الأمانة للتعاقد مع شركات كبيرة للقيام بمهمة النظافة منذ سنة ١٣٩٦هـ. وقد تجهزت هذه الشركات بالعمالة والآليات اللازمة لذلك حتى عادت الرياض نظيفة جميلة رغم اتساعها.

د ـ تزود الرياض بالطاقة:

كانت مشكلة التزود بالوقود في الرياض تحل بطريقة فردية، إذ كان كل ساكن يحرص على تأمين الحطب والفحم والشمع والنفط. غير أن التغير الحضري اقتضى استخدام الأجهزة الحديثة والأدوات التي تستعمل النفط أو الكهرباء، وزاد هذا الاستخدام بسرعة كبيرة خلال فترة نمو المدينة وصار النفط يجلب بواسطة الشاحنات من المنطقة الشرقية. ثم قامت شركتان بتوزيع الغاز المسال والمعبأ في اسطوانات فولاذية على المستهلكين. وفي سنة ١٣٨٢هـ أُسست بترومين التي أنيط بها مهمة توزيع مشتقات البترول وأنشئت مصفاة الرياض في سنة ١٣٩٤هـ لتزويد المنطقة الوسطى بمنتجاتها، والتى تزايد إنتاجها حتى بلغ (٤٦,٦٦٣,٠٠٠ برميلاً) في سنة ١٩٨٣م[٣٦] وتزيد هذه الكمية عن حاجة المنطقة الوسطى.

بدأ مشروع إنارة الرياض في نحو ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م بتركيب ١٢٨٩ مصباحاً تعمل على الكيروسين في الشوارع. وأنشئت في نفس الوقت بعض المحطات الصغيرة الفردية لتوليد الطاقة الكهربائية[٣٤]، كما أنشئت محطتان كهربائيتان للخاصة الملكية ومحطة ثالثة لبلدية الرياض. وفي سنة ١٩٥٦م، ١٣٧٦هـ أنشئت شركة كهرباء الرياض وضواحيها التي اشترت محطة البلدية ومولدات جديدة، ثم أدخلت توسيعات مستمرة على وحداتها التي تستهلك الديزل والفويل، ثم ضمت محطات الخاصة الملكية إليها. وأنشأت الشركة وحدات جديدة وركبتها في شرق

المنطقة الصناعية وغيرها. ومنذ أواسط العقد الماضي اندمجت شركة كهرباء الرياض بجميع الشركات في المنطقة الوسطى لتكوين «الشركة السعودية الموحدة للكهرباء في المنطقة الوسطى» والتي أنتجت من الطاقة ٧٤٩٧١٥١ ميجا.و.س. موزعة على ٣٩٢٧٨٣ مشتركاً في عام ١٩٨٣م[٣٨] فإذا علمنا أن في الرياض وحدها في ذلك العام نحو ٢٤٠٠٠٠ مشترك فإن استهلاك الرياض يبلغ نحو ٦٠٪ من هذه الكمية تقريباً.

هـ تأمين الرياض بالمواد الغذائية:

إن ظهور مدينة مليونية في وسط بيئة صحراوية يثير التساؤل عن إمكانية تأمين هذه المدينة بالمواد الغذائية. وبالرغم من أن منطقة الرياض فقيرة من السابق بإنتاج مواد الغذاء بسبب ضآلة مساحات الأرض الزراعية وضعف الثروة العشبية والحيوانية، فإنها لم تكن تعاني من مشكلة النقص في المواد الغذائية لصغر الكميات المطلوبة لهذا الغرض إلا في أوقات حرجة كأيام الحروب والمجاعات. وبعد منتصف القرن العشرين توسعت الأراضي المنتجة للمواد النباتية والحيوانية في إقليم الرياض وفي بعض الأقاليم الأخرى من المملكة، إلا أن هذا التوسع لم يجار نمو المدينة وتزايد عدد سكانها وزيادة استهلاكهم بسبب ارتفاع مستوى معيشتهم. وكان الطلب على المواد الغذائية يتزايد باطراد.

لقد تزامن ظهور هذه المشكلة وتعقدها في وقت بدأت تزدهر فيه المملكة اقتصادياً فحلت المشكلة منذ وقت مبكر بالاستيراد، وأخذ الاستيراد يتزايد ويتضاعف بسبب زيادة الطلب عليها وسهولة استيرادها مع النمو الاقتصادي وتحسن البنية التحتية لا سيما تطور وسائل النقل بمختلف أنواعها، وقد تزايدت قيم الاستيراد من المواد الغذائية النباتية والحيوانية والمصنوعة بنسبة كبيرة بعد سنة ١٩٧٣م حتى بلغت قيمة المواد النباتية والحيوانية المستوردة في سنة ١٩٨٤م ٣٥٥٥ مليون ريال سعودي[٣٩] أي ما نسبته ١١,٤٪ من مجموع الواردات في ذلك العام.

و ـ النقل والمواصلات:

إن تطور وسائل النقل ملازم للتطور الاقتصادي كملازمة السبب والنتيجة، ولذلك فقد تطورت وسائل النقل وطرق المواصلات في مدينة الرياض العاصمة منذ منتصف القرن العشرين أكثر وأسرع من أي مكان آخر في المملكة، يدل على ذلك أن عدد المشتغلين في قطاع النقل والتخزين كان في الرياض ١٢٠٠٠ فرداً في سنة ١٣٩٤هـ[٤٠]، وقدرت ست أنترناشيونال أن العدد سيكون في حدود

٢٥٠٠٠ في سنة ١٤٠٥هـ ، وأن نسبتهم سترتفع من ٦٪ إلى ٧٪ من مجموع العاملين في كل من التاريخين[٤١]. ولكن هذا العدد يتوزع على المجالات التالية:

النقل الجوي:

أنشىء مطار الرياض سنة ١٩٥٣م وساهم في نقل الأفراد من الرياض إلى المطارات الداخلية والخارجية وإليها. وقد خضع لسلسلة من التحسينات المستمرة نتيجة لزيادة الطلب على خدماته، كما خضعت طائراته للتجديد والتحسين والزيادة حتى ارتفع عدد القادمين إلى مطار الرياض والمغادرين منه من ٤٩٢١٠٤ راكباً سنة ١٩٧٤م إلى ٥٦٣٦٢٣٩ راكباً سنة ١٩٨٣م[٤٢] . ومع ذلك فقد هجر الطيران المدني هذا المطار في أواخر ذلك العام بعد تشغيل مطار الملك خالد الدولي ذي الإمكانيات الضخمة التي لم تشغل بكل طاقتها حتى الآن.

النقل بواسطة سكة الحديد:

يربط خط سكة الحديد الوحيد في المملكة الرياض بالدمام، وقد أنشىء في سنة ١٩٥١م وساهم في إنعاش الحركة الاقتصادية في ذلك الوقت. ولكن التطور الاقتصادي والاجتماعي السريعين أديا إلى عجز هذا الخط عن منافسة وسائل النقل الأخرى كالطائرات والسيارات التي كانت أكثر مرونة في مجاراة الوضع الجديد، مما جعل مساهمته في نقل الركاب والبضائع والتي كانت تتطور ببطء تعجز عن مجاراة حركة التنمية. وقد بلغت مساهمته في عام ١٩٨٣م نقل ٧٢٥١١ راكباً و٥٠٩١٦٣ طناً من البضائع من محطة الرياض وإليها.[٤٣] ولذلك فقد أنشىء في أواخر هذه الفترة خط آخر حديث يسير بين المدينتين، فزيد عدد العربات والآليات عما كان في السابق.

النقل بواسطة السيارات:

لم يكن في شبه الجزيرة العربية طرق «مزفلتة» حتى منتصف القرن العشرين، وقد بدأ إنشاء هذا النوع من الطرق في الرياض منذ سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م. لكنه توسع بسرعة هائلة قد تكون أسرع من حركة التنمية عامة، حيث بلطت جميع الشوارع الرئيسية والمحاور في المدينة وأُنشئت الطرق الخارجية، وصارت الرياض عقدة مواصلات برية تشع منها الخطوط الخارجية التي تصلها بأطراف المملكة وبالخارج.

وتبعاً لذلك فقد زاد استعمال السيارات زيادة هائلة، يدل على ذلك أن المملكة زادت من استيرادها السنوي للسيارات من ٥١١٣٤ سيارة من مختلف الأنواع سنة ١٩٧٣م إلى ٤٢٣٩٠٦ سيارة في سنة ١٩٨٣م (الكتاب الإحصائي السنوي العدد ٩، ١٩). وقد استمرت حركة إنشاء الطرق الداخلية وتحسينها كعمليات التوسيع وإحداث الكباري والأنفاق عند التقاطعات الرئيسية، وإنشاء الأرصفة وتشجيرها وأعمال الصيانة، وإنشاء الطرق في الأحياء الخارجية قبل إعمارها، وتحسين مداخل المدينة.

كان النقل يعتمد في الفترة الأولى من إنشاء الطرق على السيارات الخاصة وسيارات الأجرة الصغيرة. وقد بدأت الحافلات الصغيرة تقوم بنقل الركاب على خطوط محدودة منذ سنة ١٩٧٠م، ثم قامت مؤسسة النقل الجماعي التي تستعمل الحافلات الكبيرة بعملية النقل منذ أواسط العقد الماضي وتطورت خدماتها حتى صارت تشغل ٢٩٠ حافلة تعمل على ٢١ خطاً توصل بين أهم الأحياء المزدحمة بالسكان في عام ١٩٨٤م.

البرق والبريد والهاتف:

لقد نفذ في الرياض خلال فترات الخطط الخمسية الثلاث مشاريع كثيرة لتوفير الخدمات البريدية والهاتفية والبرقية والتلكسية، بعضها في المراكز الرئيسية وبعضها في فروع فتحت في مناطق مختلفة من المدينة سواء في الأحياء القديمة أو الحديثة. فقد أنشىء مجمع بريد مركزي يتكون من ثمان طوابق و ٢٥ شعبة بريدية، و ١٤ مكتباً للبرقيات تتسع ٢٥٣٠٠٠ خط، بالإضافة إلى ٩٥١ خط هاتف عملة و ١٨٠٣ هواتف سيارة حتى سنة ١٩٨٥م. وهذا يعني أن هذه الخدمة قد تطورت بشكل يساير تطور المدينة وتنميتها.

الخاتمة:

وقبل الختام يجدر بنا التوقف والتأمل والتساؤل: هل كان من الحكمة أن يطلق العنان لتوسع مدينة الرياض على تلك الشاكلة؟ وهل من الحكمة الاستمرار في هذا الاتجاه؟ وكيف يمكن تجنب المشاكل الناتجة عن مثل هذا التوسع؟ فالأمر يقتضي أن يتم التوسع ببطء وضمن قيود يحددها تجنب الاضطراب الناتج عن عدم توصيل الخدمات إلى كل أنحاء المنطقة المبنية، وتأمين استخدام المرافق في الوقت وبالكميات اللازمة، وضمان تشغيل وصيانة تلك المرافق والخدمات وفي جميع المناطق مستقبلاً، لأن طبيعة بعض المرافق تقتضي التوسع فيها ببطء

ولا تستطيع مسايرة التمدد الحاصل مهما بذل في سبيلها من جهود مثل شبكتي المجاري والسيول، وشبكة المياه، وحتى الخدمات الصحية والتعليمية إلى حد ما.

ومن ناحية أخرى فإن الكثافة السكانية ضمن المنطقة التي يفترض أن تصل إليها الخدمات والتي وصلت بعضها إليها فعلاً وتبلغ نحو ١٠٠٠ كم٢ تبلغ ١٢ ـ ١٥ فرداً/هـ. وحتى لو حسبنا كثافة المنطقة المبنية فعلاً فإنها تبلغ ٣٥ ـ ٤٠ فرد/هـ وهي منخفضة لكثرة الفراغات وكثرة المساكن الفارغة، ولا تبلغ نصف أوثلث الكثافة المناسبة، وهذا يعني من ناحية اقتصادية أن تكاليف وتشغيل وصيانة المرافق والخدمات تكلف ما تكلفه مدينة يبلغ عدد سكانها نحو ٢ ـ ٣ مليون من الأفراد.

لقد نشطت الأمانة بالتعاون مع الجهات الحكومية الأخرى نشاطاً لا قبل لبلديات أخرى القيام به للحاق بهذا التوسع الهائل بإقامة وتشغيل المرافق ومع ذلك فقد عجزت عن اللحاق بسرعة النمو بتمديدات المجاري ومجاري السيول والأرصفة والتشجير، وأحياناً الخدمات الصحية والتعليمية والبريدية والنشاطات الاجتماعية.

والحل في رأيي يكمن في اتخاذ الإجراءات الإدارية والتنظيمية التي تحول دون توسع المدينة عن مساحتها المبنية الآن، وتحويل الضواحي البعيدة والقائمة فعلاً إلى مدن ضواحي. وذلك باستكمال الخدمات والمرافق اللازمة لكل منها، حتى تكتفي بنفسها إلا في الأمور التي يلزم فيها مراجعة العاصمة، شأن المدن الأخرى، وتستمر الأراضي الفضاء فيما بينها وبين الرياض، وألا يسمح بالتوسع العمراني والمدني إلا ضمن الفراغات الداخلية لكل منها، حتى يمكن التحكم المدني فيها جميعاً على الوجه الأكمل.

●●●

الهوامش

(١) عبدالرحمن صادق الشريف؛ مدينة الرياض. ص ص ٥٩ ـ ٦١.
(٢) جواد علي؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ص ص ٣٣٤ ـ ٣٣٧.
(٣) حمد الجاسر؛ مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ. ص ٣٥.
(٤) ياقوت الحموي؛ معجم البلدان، المجلد الرابع، دار صادر ص ٣١٩.
(٥) حمد الجاسر؛ المرجع السابق ص ٨٧.
(٦) - Abdul Axix Al-Sheikh; locational Pattern of Cos Stations and Supermarkets, Riyadh. Journal Coll. Arts. Univ. Riydh. Vol. 11.1 1-14.
(٧) - St. J. Philby; The Heart of Arabia P. 62.



(٨) - W. A. Rugh; Riyadh, History and Guide. P. 19.
(٩) - Philby; op. Cit P. 70.
(١٠) حمد الجاسر ؛ المرجع السابق ص ١٢٢.
(١١) عبدالرحمن الشريف؛ المرجع السابق ص ص ١٣٤ - ١٣٦.
(١٢) المرجع السابق ص ص ١٣٨ - ١٣٦.
(١٣) غازي مكي ؛ أسلوب في التعرف على أنماط استخدامات الأراضي وتحديد حدود الأحياء وأصحابها في المدن، دراسة تطبيقية على مدينة الرياض مجلة مجتمع وعمران. العدد السادس مارس ١٩٨٥م. ص ص ٢٧ - ٥٣.
(١٤) وزارة المالية والاقتصاد الوطني ؛ صندوق التنمية العقارية، تقرير.
(١٥) قدرت أرقام هذه المساحات اعتماداً على أحدث خرائط للرياض.
(١٦) - Rugh; op. cit p. 15.
(١٧) - SCET International/SEDES; Improved Master Plan to the city of Riyadh. Report No. 8, 1982.
(١٨) - M. R. Al-Gabbani; Community Structure Residential Satisfaction and Preference in a Rapidly Changing Urban Enveronment the Cose of Riyadh. P. 147.
(١٩) - Al-Gabbani, op. cit, P. 92
(٢٠) - Loc. cit.
(٢١) عبدالرحمن الشريف؛ المرجع السابق ص١٨٧.
(٢٢) المرجع السابق؛ ص ص ٢١٠ - ٢١٣.
(٢٣) - SCET International/SEDES; Riyadh Action Moster Plans. Report No. 6 1979
(٢٤) مؤسسة دوكسيادس؛ الوضع الراهن في مدينة الرياض. ص ١٠٢.
(٢٥) Al-Gabbani, op. cit, P. 149.
(٢٦) مصلحة الإحصاءات العامة؛ حصر السكان والمؤسسات لسنة ١٩٦٢م، والتعداد العام لسكان المملكة لسنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
(٢٧) وزارة الشؤون البلدية والقروية. مجلة البلديات، العدد ٥ ١٤٠٦هـ.
(٢٨) Al-Sheikh; op. cit, P. 1 - 14.
(٢٩) محمد شوقي مكي ؛ الأسواق المركزية في مدينة الرياض، دراسة جغرافية في التوزيع والسلوك. ص ٢٩.
(٣٠) مصلحة مياه ومجاري منطقة الرياض ؛ سجلات وتقارير المصلحة.
(٣١) سجلات مصلحة مياه ومجاري منطقة الرياض.
(٣٢) - Abdul Rahman El-Sharif; Water Supply Problems of Riyadh, Saudi Arabia. Geojournal 11.3 239-243.
(٣٣) - Loc. cit.
(٣٤) - Moueffag Ibrahim Shuquer; The use of Purifying sewage Water is different Uses. Conference about dereloping and using water resources Vol. 1. PP 13-15.

(٣٥) منصور خالد الشلهوب؛ الرياض سنة ١٣٩١هـ. ص ٥٦.
(٣٦) مصلحة الإحصاءات العامة؛ الكتاب الإحصائي السنوي. العدد ١٩.
(٣٧) المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر؛ أضواء على المملكة العربية السعودية سنة ١٣٧٧هـ.
(٣٨) مصلحة الإحصاءات العامة؛ المرجع السابق، نفس المكان.
(٣٩) مصلحة الإحصاءات العامة؛ التجارة الخارجية لعام ١٩٨٤م.
(٤٠) مصلحة الإحصاءات العامة؛ الكتاب الاحصائي السنوي. العدد ١١.
(٤١) - SCET International; op. Cit, P. 49.
(٤٢) مصلحة الإحصاءات العامة، الكتاب الإحصائي السنوي. العددين ١١، ١٩.
(٤٣) نفس المرجع والمكان.
(٤٤) نفس المرجع والمكان.
(٤٥) ملحق جريدة الرياض؛ ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ، ١ مارس ١٩٨٦م.

المراجـــع

- ابن بلهيد؛ «صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار»، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥١م.
- أمين الريحاني؛ «تاريخ نجد الحديث وملحقاته»، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٥٤م.
- تويتشل، ك. س. ؛ «المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية» الطبعة الثانية، سنة ١٩٥٢م، ترجمة شكيب الأموي، القاهرة.
- جواد علي؛ «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، الجزء الأول، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٨م.
- الحسن الأصفهاني؛ «بلاد العرب»، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٩٦٨م.
- حمد الجاسر؛ «مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ» ـ منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.
- عبدالرحمن صادق الشريف؛ «مدينة الرياض»، مطبعة المدينة بالرياض، ١٩٧٦م.
- ـــــــــ، «جغرافية المملكة العربية السعودية»، الجزء ١، دار المريخ طبعة سنة ١٩٨٧م.
- عبدالعزيز آل الشيخ؛ «مدينة الرياض خلال القرن التاسع عشر في ضوء نموذج مدينة ما قبل الصناعة»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد التاسع، ١٩٨٢م. ٣ ـ ١٣.
- عبدالمجيد داغستاني؛ «التطور الحضري والتخطيط»، وزارة الإعلام، الرياض ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
- غازي عبدالواحد مكي؛ «أسلوب في التعرف على أنماط استخدامات الأراضي وتحديد حدود الأحياء وأحجامها في المدن، دراسة تطبيقية على مدينة الرياض، مجلة مجتمع وعمران، تونس، العدد السادس، مارس ١٩٨٥م، ص ص ٢٣ ـ ٥٣.
- جون فيلبي؛ «تاريخ نجد» تعريب عمر الديراوي، بيروت، ١٩٥٤م.
- قسم الجغرافيا؛ جامعة الملك سعود، «أطلس السكان للمملكة العربية السعودية» ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، الرياض.

- محمد شوقي مكي ؛ «الأسواق المركزية في مدينة الرياض»، دراسة جغرافية في التوزيع والسلوك، نشرة قسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية بجامعة الكويت رقم ٩٤. سبتمبر ١٩٨٦م / محرم ١٤٠٧هـ.
- المعهد العربي لإنماء المدن، وأمانة مدينة الرياض ؛ «الرياض مدينة المستقبل»، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ملحق جريدة الرياض ؛ «عدد خاص بمناسبة احتفالات مدينة الرياض بذكرى مرور ٥٠ عاماً على إنشاء أمانة مدينة الرياض، الرياض بين الماضي والحاضر»، ٢٠ جمادي الآخرة ١٤٠٦هـ، ١ مارس ١٩٨٦م.
- منصور خالد الشلهوب ؛ «الرياض سنة ١٣٩١هـ»، مؤسسة الندى، الرياض.
- المؤسسة العامة لتحلية المياه المالحة ؛ «مشروع مياه التحلية لمدينة الرياض»، الرياض ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- مؤسسة دوكسيادس ؛ «الوضع الراهن في مدينة الرياض»، وكالة البلديات، الرياض ١٩٦٩م.
- الهمداني ؛ «صفة جزيرة العرب»، نشر وتصحيح ابن بليهد، القاهرة ١٩٥٣م.
- وزارة التخطيط ؛ «خطة التنمية الأولى ١٣٩٠ - ١٣٩٤هـ، خطة التنمية الثانية ١٣٩٥ - ١٣٩٩هـ - خطة التنمية الثالثة ١٤٠٠ - ١٤٠٤هـ - خطة التنمية الرابعة ١٤٠٥ - ١٤٠٩هـ - الرياض.
- وزارة الزراعة والمياه، قسم الهيدرولوجيا، البيانات الهيدرولوجية لمحطة الرياض. وقد صدر فيها أكثر من ١٠٠ عدد.
- وزارة الشؤون البلدية والقروية:
  - مؤسسة دوكسيادس، المخطط العام لمدينة الرياض، الرياض ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
  - ست انترناشيونال - سيدس، الرياض، المخطط الرئيسي التنفيذي رقم ٨، وزارة الشؤون البلدية والقروية، الرياض. ١٩٨٢م.
  - مجلة البلديات، العدد الأول، السنة ١ سنة ١٤٠٥هـ، العدد ٥، ١٤٠٦هـ.
- وزارة المالية والاقتصاد الوطني:
  - تقرير مؤسسة م + ر الدولية، دراسة شاملة للإسكان في المملكة العربية السعودية. الرياض يوليو ١٩٧١م.
  - مصلحة الإحصاءات العامة ؛ الكتب الاحصائية السنوية. الاعداد (من ١١ - ١٩).
  - مصلحة الإحصاءات العامة ؛ بيانات التجارة الخارجية. آخرها سنة ١٩٨٤م.
  - مصلحة الإحصاءات العامة ؛ التعداد العام للسكان ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
- ياقوت الحموي ؛ معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.

- ***Al-Gabbani, M.R., Community Structure Residential Satisfaction and Preference in a Rapidly Changing Urban Environment: The Case of Riyadh, Saudi Arabia. Doctoral Thesis, University of Michigan, 1984.***
- ***Al-Sheikh, Abdulaziz; Locational Patterns of Gas Stations and supermarkets, Riyadh, Saudi Arabia. J. Coll. Arts. Univ. Riyadh. Vol. 11.1 1-14.***
- ***El-Sharif, Abdul Rahman; Water Supply Problems of Riyadh, Saudi Arabia. Geojournal 11.3 239-243.***
- ***Philby, St. J.; The Heart of Arabia, London 1922.***
- ***Rugh, W.A.; Riyadh, History and Guide 1969.***

الزلازل والبراكين في جزيرة العرب وتراثهم

د. محمد محمود محمدين

جرت العادة في بحوثنا نحن معشر العرب أن نبدأ بتفسير مدلول الألفاظ التي تدور حولها البحوث وأن نبحث في أصولها، ثم نحدد إطار هذه البحوث، ولو اتخذتُ عنواناً آخر لهذا البحث لكان (الزلازل والبراكين في جزيرة العرب، أحداثها وأحاديثها).

إذا ما تتبعنا أصل كلمة الزلازل ومدلولها نجد أنها اشتقت من فعل (زلّ) الذي يستخدم للحركة المعتادة، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة، لأن معنى التكرار يشير إلى شدة الحركة، فالزلزلة إذا هي الحركة الشديدة والهزة الأرضية[٢]. قال تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾. ولأجل شدة الحركة وصفها الله بالشيء العظيم[٣].

ويستخدم لفظ الزلزلة للازعاج الشديد، ففي الحديث الشريف: «اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم»[٤].

والزِلزال بالكسر، المصدر، والزَلزال بالفتح الاسم، وقد وردت ألفاظ الزلزلة خمس مرات في القرآن الكريم، استخدمت بمعنى حركة الأرض الشديدة، وبالنسبة للأفراد استخدمت في مجال الإزعاج[٥].

وقد عبر عن زلزلة الأرض في القرآن الكريم بألفاظ أخرى مثل: الراجفة (أي الحركة والاضطراب) ٦ / النازعات، ٩١، ١٥٥ / الأعراف، ٣٧ / العنكبوت، كما استخدم تعبير رجّت كما في قوله تعالي: ﴿إذا رجّت الأرض رجّا﴾ ٤ / الواقعة. وورد ما يشير إلى الزلازل في الأحاديث الشريفة ثلاث عشرة مرة[٦].

وأشار الرازي في التفسير الكبير أن الناس كانوا يسألون متى الساعة، فكانت الإجابة عن هذا التساؤل: إذا زلزلت الأرض زلزالها، كأنه تعالى أخبرهم بأنه لا سبيل إلى تعيين هذا الأمر بحسب وقته، ولكنه تعالى عينه بحسب علاماته وهي زلزلة الأرض[٧].

ولما كانت سورة الزلزلة تذّكر بيوم القيامة، فقد وردت أحاديث عن فضل قراءتها. وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ «إذا زلزلت» عدلت بنصف القرآن، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله». [٨].

أما فيما يتعلق بالبراكين[٩]، فقد عبر عنها الجغرافيون المسلمون (بجبال النار)، و (البرقان) وربما يكون ذلك بسبب خروج النار كالبرق[١٠]، والحرار. وقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه ثماني وعشرين حرة تبدأ من حول المدينة إلى الشام[١١]. وقد جاء ذكر حرة النار في الشعر الجاهلي، وجدير بالذكر أن تلك الحرة كانت لا تزال ثائرة حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد ذكر ذلك الطبري وغيره من المؤرخين[١٢].

وأشار الطهطاوي إلى أن جبال النار تسمى بالأفرنجية «الجبال البلكانية» ويسمى الجبل الناري (بُلكان) بضم الباء الموحدة وسكون اللام، وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة «بركان» بالراء ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس[١٣]. لقد أصاب الطهطاوي في قوله إن بركان محرفة عن «بلكان»، لأن الرومان كانوا إذا شاهدوا الدخان الأسود يرتفع من فوهة الجبل وألسنة النار تخرج منها قالوا إن «فولكان» إله النار والحدادة عندهم يصنع أجهزة قصف الرعد على سندانه (لجوبيتر) كبير آلهتهم، ويعد الأسلحة (لمارس) إله الحرب، وليست هذه الانفجارات إلا دقات مطرقة «فولكان»[١٤].

أحداث الزلازل والبراكين في جزيرة العرب:

يصف الباحثون كوكب الأرض بأنه كوكب مصاب بداء الهزات وذلك لأن عدد الهزات التي يشعر بها الناس في السنة الواحدة تصل إلى ما يقرب من ٣٠٠ ألف هزة وذلك في أقطار العالم المختلفة ومدنه وفي البحار والمحيطات، أما تلك الهزات الخفيفة التي لا يشعر بها الناس وتسجلها أجهزة الرصد الدقيقة فتصل إلى مليون هزة[١٥]. ومعنى ذلك أنه لا تسلم بقعة من سطح الأرض من زلزلة وإن كان الناس لا يشعرون بها.

أما البراكين فهي ظاهرة مرئية تسبقها مقدمات أو أحداث منذرة مثل: الزلازل والهزات

الخفيفة أحياناً، وتصاعد الدخان والأبخرة وارتفاع درجة حرارة الأرض. وكأن هذه المقدمات وسائل إنذار مبكر تنذر الناس فيلوذون بالفرار، على عكس الزلازل التي تأخذ الناس على حين غفلة، ومن هنا كان عدد الذين يفقدون حياتهم بسبب الزلازل أضعاف أولئك الذين يفقدونها بسبب ثوران البراكين(١٦).

ولما كانت الجزيرة العربية، ابتداء من الزمن الجيولوجي الثاني وحتى الرابع، مسرحاً لحركات عنف جيولوجية، حيث يرجع الجيولوجيون بداية حدوث الحركات الانكسارية التي نجم عنها ظهور الأخدود الذي يشغله البحر الأحمر وظهور الحافات القافزة على جانبيه إلى العصر الكرتياسي الأعلى (الطباشيري)، وأنه في نهاية الزمن الثالث وفي الزمن الرابع زاد نشاط هذه الحركات(١٧)، فإنها لابد وأن تكون قد تعرضت لكثير من الزلازل والثوران البركاني، ويؤكد ذلك ما نشاهده في أجزائها الغربية من صدوع وحرار وكأنها سطور تحكي لنا مآسيها الجيولوجية.

ويشير بعض الباحثين إلى أن أول إشارة للزلازل في الكتب السماوية تلك التي وردت في التوراة حينما ذهب موسى ليشاهد ربه على جبل سيناء(١٨). ودلت الوثائق التاريخية على أن أريحا ***Jericho*** بفلسطين المحتلة قد تعرضت سنة ١١٠٠ ق.م لزلزال حطم جدرانها، وتشير تلك الوثائق إلى أن المنطقة التي تحيط بالأخدود الأفريقي العظيم والصدع الذي يمتد في البحر الأحمر وخليج العقبة والبحر الميت، وإن بدت من المناطق المستقرة، إلا أنها تتعرض بقسوة لزلزالين أو ثلاثة من الزلازل العنيفة كل قرن(١٩).

وأقدم الإشارات العربية التي نعتمد عليها بشأن الأحداث التكتونية من زلازل وبراكين ما ورد في الشعر الجاهلي، حيث جاء ذكر حرة النار وهي الحرة التي كانت لاتزال ثائرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، والتي عرفت باسم أم صبَّار. قال النابغة:

إما عصيت، فإني غير منفلت مني اللصابُ، فجنبا حرة النار
تدافع الناس عنا حين نركبها من المظالم تدعى أم صبّار

إن الزلازل، والأصوات المزعجة، والنيران التي كانت ترى من مسافات بعيدة، والبريق الذي كان يظهر من الحرار مثل حرة «القوس» التي كانت ترى كحريق مشتعل وحرة «لُبن» التي كان يخرج منها ما يشبه البرق، وتسمع منها أصوات كأنها صياح، هذه الظواهر كلها تركت صوراً مرعبة في نفوس الجاهليين، وربما كان سبب تقديس أهل اليمن لحرة «ضَرْوان» هو ما كان يخرج منها من ألسنة اللهب،

وما كانت تقذفه من حمم وصلت إلى مسافات بعيدة عنها[٢٠].

ومما يدل على النشاط البركاني وآثاره في الجزيرة العربية، ما أسهب العرب في وصفه من الحرار، يقول ياقوت الحموي: الحرة أرض ذات حجارة نخرة كأنها أحرقت بالنار، والجمع: الحرات والأحرّون، والحرار والحرون. وقال الأصمعي: الحرة الأرض التي ألبستها الحجارة السود[٢١]. وتكون الحرة مستديرة فإذا كان فيها شيء مستطيل ليس بواسع فذلك الكراع، واللابة واللوبة ما اشتد سواده وغلظ وانقاد على وجه الأرض. ويبدو من ذلك أن الحرة فوهة بركانية، واللابة أو اللوبة هي اللافا أي الحمم البركانية، وأما الكراع فربما تكون أعناق الحرار[٢٢].

وقد ورد أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: ما اسمك؟ قال: جمرة. قال ابن من؟ قال ابن شهاب. قال ممن أنت؟ قال من الحرقة. قال أين تسكن؟ قال: حرة النار. قال أيها الحرار؟ قال بذات اللظى. فقال عمر رضي الله عنه أدرك الحي حتى لا يحترقوا. قيل إن الرجل رجع إلى أهله فوجد النار قد أحاطت بهم[٢٣].

وأخرج الطبراني في حديث لحذيفة بن أسد: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان ـ أو ركوبة ـ تضيء منها أعناق الإبل ببصرى» قال الحافظ بن حجر: ورومان لم يذكره البكري، ولعله المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة، ثم نقل عن البكري أن ركوبة بين المدينة والشام. وهذه النار مذكورة في الصحيحين في حديث «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز» ولفظ البخاري: «تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى[٢٤]».

وتشير بعض المصادر التاريخية ومنها الطبري إلى أن سحب الدخان كانت تخرج من بعض الجبال القريبة من المدينة في عهد عثمان بن عفان، وهذا دليل يؤكد أن النشاط البركاني لم يكن قد خمد تماماً، وأن باطن الأرض كان لايزال قلقاً ولم يهدأ[٢٥].

وهناك مصادر غير عربية تؤكد حدوث الزلازل في منطقة الجزيرة العربية والشام التي تعد امتداداً لها، إذ يذكر ماليت *Mallet* في كتابه تاريخ الزلازل معلومات عن بعض الزلازل التخريبية، كما ذكر موريتز *Moritz* في كتابه، الصحراء السورية، بعض تلك الأحداث التكتونية، وجدير بالذكر أن بعض هذه الأحداث أوردتها المصادر العربية. من الزلازل التخريبية التي ذكرها ماليت، زلزال حدث سنة ٥٥١م أصاب الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومدنه وبالذات شواطىء سوريا ولبنان، حيث هدمت منازل كثيرة في بيروت وانتقل علماؤها إلى صور[٢٦].

وفي سنة ٧٤٧م اشتدت الزلازل في فلسطين وسوريا وتركيا فهدمت أكثر من ٥٠٠ قرية وخرج أهل الشام إلى العراء. ولعل أكثر الأحداث التكتونية التي انتشر خبرها ما حدث سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، إذ يذكر السمهودي في «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» أن المدينة الشريفة تعرضت لزلزلة بدأت في مستهل جمادى الآخرة أو أواخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وستمائة [٢٧]، لكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع تكررها بعد ذلك، واشتدت في يوم الثلاثاء على ما حكاه القطب القسطلاني، وظهرت ظهوراً عظيماً اشترك في إدراكه العام والخاص، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه في الثلث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها، وانزعجت القلوب لهيبتها، واستمرت تزلزل بقية الليل، واستمرت إلى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد، فتموج الأرض وتتحرك الجدارات، حتى وقع في يوم واحد دون ليلة ثماني عشرة حركة على ما حكاه القسطلاني، وذكر القرطبي: قد خرجت نار الحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة .. وظهرت بقريظة بطرف الحرة ... لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد، يأخذ الصخور بين يديه ... واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة ... وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر، وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء نحو خمسة أيام، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى [٢٨].

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة الشريفة وغيره، أنه في ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت في تلك الليلة تزلزل، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات، وفي كتاب بعضهم أربع عشرة مرة، قال: والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديل الحرم الشريف، زاد القاشاني: ثم في اليوم الثالث ـ وهو الجمعة ـ زلزلت الأرض زلزلة عظيمة، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار، فثار من محل ظهورها في الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار، فظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة المشرق ـ وفي رأي مفكري المسلمين أن الحكمة في ظهورها في يوم الجمعة غير خافية، وأن الله أراد أن يخوف عباده فيه بذلك ليردهم إليه، فتلك النار نعمة في صورة نقمة، ولهذا وجلت منها القلوب وأشفقت، وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم، وكان أمير المدينة عز الدين منيف بن شيحة، الذي أعتق كل مماليكه، ورد على الناس مظالمهم وأبطل المكس ـ قد لجأ لمسجد النبي ﷺ وبات فيه ليلة الجمعة

وليلة السبت ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار ... قال القطب: ولما عاين أمير المدينة ذلك أقلع عن المخالفة، واعتبر، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر، وأظهر التوبة والإنابة وأعتق جميع مماليكه وشرع في رد المظالم، وعزم أهل المدينة على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار ... فصرف الله تعالى عنهم تلك النار من مخرجها وسالت ببحر عظيم من النار وأخذت في وادي أحيليين وأهل المدينة يشاهدونها من دورهم كأنهم عندها، ومالت من مخرجها إلى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكر المؤرخون(٢٩).

وذكر السمهودي أن القطب القسطلاني أفرد كتاباً لهذه النار، وهو ممن أدركها، لكنه كان بمكة فلم يشاهدها، وقد أورد القسطلاني أن ابتداءها كان يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الآخرة، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب، ثم خمدت، فجملة ما أقامت اثنان وخمسون يوماً، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطفية أياماً ثم ظهرت، قال: وهي كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى فهي لا يؤمن عودها، وإن طفىء وقودها(٣٠).

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضي سنان الحسيني أن سيل النار انحدر مع وادي الشظاة حتى حاذى جبل أحد وكادت النار تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفاً عظيماً ... قال المطري: وأخبرني بعض من أدركها من النساء أنهن كن يغزلن على ضوئها بالليل على أسطحة البيوت بالمدينة الشريفة(٣١). ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة أن هذه النار رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ورآها أهل ينبع(٣٢).

إن كل من ذكر هذه النار يقول إن عجائبها وعظمتها يكلّ عن وصفها البنان والأقلام، وتجلّ عن أن يحيط بشرحها البيان والكلام، فظهر بظهورها معجزة للنبي ﷺ لوقوع ما أخبر به وهي هذه النار، إذ لم تظهر من زمنه ﷺ قبلها ولا بعدها نار مثلها.

وذكر المؤرخون أن النار استمرت مدة ظهورها تأكل الأحجار والجبال وتسيل سيلاً ذريعاً في واد يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك (الرصاص) فإذا خمد اسودّ بعد أن كان أحمر ... قال القسطلاني: أخبرني جمع ممن أركن إلى قولهم أن النار تركت على الأرض من الحجر ارتفاع رمح طويل على الأرض الأصلية(٣٣).

وقد وصف أحد شعراء المدينة هذا الحدث البركاني فقال:

يا كاشف الضر صفحا عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا رب بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها ... حملاً ونحن بها حقاً أحقاء[34]
زلازلاً تخشع الصم الصلاب لها ... وكيف تقوى على الزلزال شماء[35]
أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت ... عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجري فوقه سفن ... من الهضاب لها في الأرض إرساء
ترمي لها شرر كالقصر طائشة ... كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها بيوت الصخر إن زفرت ... رعباً، وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى ... أن عادت الشمس منه وهي دهماء
قد أثرت سعفة في البدر لفحتها ... قليلة التمِّ بعد النور عمياء

وقد وصف موريتز *Moritz* هذا الحدث البركاني الذي كان في سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) بأنه آخر حدث بركاني في الحجاز وأنه استمر بضعة أسابيع، وكان نتيجة نشاط إحدى الحرار شرقي المدينة حيث سال منها الصهير البركاني ووصل إلى مسافة بضعة كيلومترات فقط من المدينة التي كانت نجاتها أعجوبة من الأعاجيب، وبعد القرن الثالث عشر لم يحدث أي ثوران بركاني في مختلف بلاد العرب[36].

وجدير بالذكر أن لبنان قد تعرض في ١٦ مارس ١٩٥٦م لثلاث هزات أرضية بسبب نشاط بركاني حيث خرجت غازات بركانية كثيفة وظهر وهج في منطقة جبلية بها صدع ظاهر المعالم، وقد أصيب نتيجة هذه الهزات نحو ٢٣٦ قرية، وزاد عدد المساكن التي هدمت على ١٠٠٠٠ مسكن وبلغ عدد القتلى ١٤٠ قتيلاً، وعدد الجرحى زاد على المائة[37].

أما بالنسبة للزلازل فإن آخر زلزال تعرضت له جزيرة العرب كان منذ أكثر من خمس سنوات (١٣ ديسمبر ١٩٨٢م) حينما تعرضت بلدة «ذمار» في الجمهورية العربية اليمنية لزلزال أضر بنحو ٢٠٪ من مساحة اليمن، ودمر أكثر من ثلاثمائة قرية وأكثر من عشرين مدينة، وشملت الأضرار منشآت زراعية وصناعية، وقدر عدد الذين شردوا بنحو نصف مليون، وبلغ عدد المنازل التي صدعت وهدمت ٢٥ ألف منزل، وقدرت الخسائر بنحو ملياري دولار[38].

أهم ما ورد في التراث الإسلامي عن الزلازل والبراكين:

يعد ما كتبه إخوان الصفاء وخلان الوفاء في القرن الرابع الهجري عن أسباب الزلازل من أقدم ما ورد في التراث الإسلامي عن هذا الموضوع، يقول إخوان الصفاء: «إن الكهوف والمغارات والأهويّة

التي في جوف الأرض والجبال، إذا لم يكن لها منافذ تخرج منها المياه، بقيت تلك المياه محبوسة زماناً، وإذا حمي باطن الأرض وجوف تلك الجبال، سخنت تلك المياه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً، وارتفعت وطلبت مكاناً أوسع، فإن تلك المنافذ، وإن كان ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيفاً (أي مستحكماً) منعها من الخروج، وبقيت محتبسة تموج في تلك الأهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الأرض في موضع منها، وخرجت تلك الرياح مفاجأة، انخسف مكانها، ويسمع لها دوي وزلزلة، وإن لم تجد لها مخرجاً، بقيت هناك محتبسة، وتدوم تلك الزلزلة إلى أن يبرد جو تلك المغارات والأهوية»[٣٩].

ولقد تناقل كثير من الجغرافيين المسلمين أسباب الزلازل كما وردت عند إخوان الصفاء، وهي احتباس الأهوية والأدخنة وأن محاولة خروج هذه الأهوية والأدخنة هي التي تسبب حدوث الزلازل، ومن هؤلاء ابن سينا والقزويني وابن الوردي وغيرهم.

عرّف ابن سينا (٣٧١هـ/ ٩٨٠م ـ ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) الزلزلة فقال: «الزلزلة حركة لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه[٤٠]».

وتعرض ابن سينا لأسباب الزلازل فقال: «وهذه الأبخرة والدواخن إذا احتبست في الأرض ولم تتحلل حدث منها أمور، أما الأبخرة فتنفجر عيوناً، وأما الدواخن فهي إذا لم تنسل في المنافذ والمسام زلزلت الأرض فربما خسفت وربما خلصت نار مشتعلة لشدة الحركة جارية مجرى الريح المحتبسة في السحاب، فإنها تحدث بشدة حركتها صوت الرعد وتنفصل مشتعلة برقاً أو صاعقة إن كانت غليظة كثيرة فإذا لم يبلغ قدر الأبخرة والدواخن في الأرض أن تنفجر عيوناً أو تزلزل بقعة اختلطت على ضروب من الاختلاف مختلفة في الكم والكيف»[٤١].

وفي موضع آخر يذكر ابن سينا «وربما احتبست الأبخرة في داخل الأرض فتميل إلى جهة فتبرد بها فتستحيل ماء فيستمد مدداً متدافعاً لا تسعه الأرض، فتشق فيصعد عيوناً، وربما لم تدعها السخونة تتكثف فتصير ماء وكثرت عن أن تتحلل وغلظت عن أن تنفذ في مجاري مستحصفة .. فاجتمعت ولم يمكنها أن تثور خارجه فزلزلت الأرض ... وربما اشتدت الزلزلة فخسفت الأرض، وربما حدث في حركتها دوي ... وربما حدثت الزلزلة من تساقط عوالي وهذه في باطن الأرض فيموج بها الهواء المحتقن فيزلزل الأرض وربما تبع الزلزلة بنوع عيون»[٤٢].

وتناول ابن سينا في كتابه «الشفاء» الذي يقع في ثمانية وعشرين مجلداً، تعريفاً آخر عن الزلازل

فقال: حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض يحرك الأرض، وهو إما جسم أرضي، والجسم الناري، لا يكون ناراً صرفه وفي حكم الرياح المشتعلة. ويقول ومن الدليل على أن أكثر أسباب الزلزلة هي الرياح المحتقنة، أن البلاد التي تكثر فيها الزلازل، إذا حفرت فيها آبار وقنى كثيرة، حتى كثرت مخالص الرياح والأبخرة قلت الزلازل بها. وأكثر ما تكون الزلازل في بلاد متخلخلة غور الأرض ـ متكاثفة وجهها، أو مغمورة الوجه بماء يجري أو ماء غمر كثير، لا يقدر الريح على خرقه، ومن منافع الزلازل تفتح مسام الأرض للعيون، وإشعار قلوب الناس رعب الله تعالى[٤٣].

وتعرض ابن سينا في كتابه «الشفاء، المعادن والآثار العلوية» كذلك لأنماط من الهزات الأرضية وميز بين كل منها مثل: **الرَّعشية** وهي الزلازل الاختلاجية العرضية التي ينتج عنها طيات ملتوية[٤٤] وأ[illegible] **والرجفية** وهي الهزة الأرضية التي يتخيل معها أن الأرض تقذف إلى فوق أي زلزلة رأسية، أما التي تحرك الأرض حركتين رأسية وأفقية معاً **فهي السلمية**، وينتج عنها الصدع السلمي، وأطلق ابن سيناء على الزلازل التي تحرك الأرض من اتجاهين تسمية القَطْقَطْ[٤٥].

وذكر القزويني في القرن السابع الهجري (٦٠٥هـ ـ ٦٨٢هـ) في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات تحت عنوان: فيما يعرض للأرض من الزلزلة والخسف: «زعموا أن الأدخنة والأبخرة الكثيرة إذا اجتمعت تحت الأرض لا يقاومها برودة حتى تصير ماء وتكون مادتها كثيرة لا تقبل التحليل بأدنى حرارة ويكون وجه الأرض صلباً لا يكون فيها منافذ ومسام، فالبخارات إذا قصدت الصعود ولا تجد المسام والمنافذ تهتز منها بقاع الأرض وتضطرب كما يضطرب المحموم عند شدة الحمى[٤٦] بسبب رطوبات عفنة احتبست في خلال أجزاء البدن فتشتعل فيها الحرارة الغريزية فتذيبها وتحللها وتصيرها بخاراً ودخاناً فيخرج من مسام جلد البدن فيهتز من ذلك البدن ويرتعد، ولايزال كذلك إلى أن تخرج تلك المواد فإذا خرجت يسكن، وهذه حركات بقاع الأرض بالزلازل، فربما يشق ظاهر الأرض ويخرج من الشق تلك المواد المحتبسة دفعة واحدة والله أعلم»[٤٧].

ويوضح القزويني بعد ذلك أن ارتفاع الجبال وشموخها جاز أن يكون بسبب زلزلة فيها خسف، فتنخفض بعض الأرض وترفع بعضها ثم المرتفع يصير حجراً[٤٨].

وتناول سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي (توفي ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م) شرح أسباب الزلازل فقال: «خلق الله جبلاً يقال له قاف محيط بالعالم السفلي وعروقه متصلة بالصخرة التي عليها الأرض،

وهي الصخرة التي ذكرها لقمان عليه السلام حيث قال: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض﴾ الآية، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية في الأرض أمر ذلك الجبل أن يحرك العرق الذي يلي تلك القرية فتتزلزل في الوقت»[٤٩].

ومن الجدير بالذكر أن سراج الدين بن الوردي أورد ما تداوله بعض الجهلة من الناس من أن تحت الأرض ثوراً والثور على صخرة وأن له أربع قوائم وأربعين قرناً وأربعين سناماً، رأسه بالمشرق وذنبه بالمغرب، ومسيرة ما بين قرن وقرن من قرونه خمسون ألف سنة[٥٠]. وشاع بين الجهلة أن الثور إذا حرك رأسه حدثت الزلازل، وللأسف تمسك بعض المستشرقين بما أورده ابن الوردي وروّجوه على أنه مازال رأي أغلب المسلمين في أسباب الزلازل حتى الآن، يحرك الثور رأسه فتتحرك الأرض[٥١].

ولقد تصدى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لخرافة الثور وفندها، يرى ابن تيمية أن الزلازل من الآيات التي يخوف الله بها عباده، كما يخوفهم بالكسوف وغيره من الآيات، والحوادث لها أسباب وحكم، فكونها آية يخوف الله بها عباده، هي من حكمة ذلك، وأما أسبابها: فمنها انضغاط البخار في جوف الأرض، كما ينضغط الريح والماء في المكان الضيق، فإذا انضغط طلب مخرجاً، فيشق ويزلزل ما قرب منه من الأرض. وأما قول بعض الناس: إن الثور يحرك رأسه فيحرك الأرض، فهذا جهل، وأن نقل عن بعض الناس، وبطلانه ظاهر، فإنه لو كان كذلك **لكانت الأرض كلها تزلزل** وليس الأمر كذلك والله أعلم[٥٢]، وليس بمستغرب ألا يذكر المستشرقون قول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في الرد على الجهلة وإظهار بطلان قولهم بأن سبب الزلزلة يرجع إلى حركة الثور الذي يحمل الأرض، وذلك دأبهم دائماً في اختيار ما يمكن أن يستخدموه في مهاجمة المسلمين ومهاجمة تراثهم.

ومما يؤسف له ما شاع حديثاً من القول في إذاعاتنا: «إن زلزالاً ضرب مدينة ما، أو ضرب بركان منطقة ما» أيليق بنا نحن معشر المسلمين، حماة اللغة العربية، أن نستخدم عبارات تحمل بصمات من الوثنية التي كانت تسود أوربا التي شغفت بتعدد الآلهة للظاهرات الطبيعية المختلفة مثل إله جوف الأرض «بلوتو» وإله النار والحدادة «فولكان» الذي اشتق منه اسم (البركان)، و(أطلس) الذي ثار على الآلهة فعوقب على ثوره وفرض عليه أن يحمل الدنيا على كتفيه.

لماذا نقول ضرب زلازل مدينة كذا؟ لما لا نقول: «زلزلت الأرض بمدينة كذا؟ اقتداء بالقرآن الكريم في قوله تعالى: «إذا زلزلت الأرض زلزالها». كما أن استخدام «زلزلت الأرض» أدق من القول

«ضرب زلزال» لأن الزلزال لا يضرب المدينة وإنما يزلزل الأرض التي تقوم عليها المدينة، وهناك فرق بين الزلزلة والضرب[٥٣].

استمر اهتمام المسلمين بالزلازل والبراكين طوال العصور الوسطى، ومع احتكاك المسلمين المباشر بعلماء الغرب في القرن التاسع عشر، اتسع نطاق معرفتهم، فهاهوذا رفاعة الطهطاوي رائد الجغرافيا العربية الحديثة (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) يتحدث لنا عن البراكين فيقول: «ثم أن جبال النار تسمى بالإفرنجية «الجبال البلكانية» ويسمى الجبل الناري «بلكان» (بضم الباء الموحدة وسكون اللام) ... وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة «بركان» بالراء، ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس. ويسمى (طَهْمه) (بفتح الطاء، وسكون الهاء) كما ذكره المسعودي في كتابه المسمى (مروج الذهب)، وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية (كراتيرة «*Cratere*») (بكاف وتاء فوقية مكسورتين، وفتح الراء الثانية)، ولايوجد جبل النار غالباً إلا في الجزائر. وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاثة أقدام، وأن دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخاً فرنساوياً ودائرة فوهته ربع فرسخ.

ثم إن العادة أن جبل النار يهيج، ثم يسكن، ثم يهيج، وقد يمكث مدة مطفياً حتى يظن الناس خموده بالكلية، ثم يهيج ثانية بعد مضي مدة أعصر.

وقد هاج جبل «اتنا» إحدى وثلاثين مرة، ومنها هيجانه سنة ١٨٠٩م بتاريخ الإفرنج، وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين، حيث ضرب مدينة «كابان» وأهلك ثمانية عشر ألف نسمة.

وعلامة هيجان البراكين شدة العجيج والقرقعة والدوي تحت الأرض، وابتداء التدخين، وازدياده. قال بعض الطبائعية[٥٤] إننا إذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة **وهي النيران التي تحت الأرض أي المختنقة في باطنها**. إلا أن آثار الزلازل تظهر في متسع عظيم من الأرض، بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد إلا بجوار قرب جبل النار.

وقد جرت العادة أيضاً أن الزلزلة تعظم بقدر البعد عن البركان، وعلل ذلك بعضهم بقوله: «إن النار التي تحت الأرض تحاول متنفساً لتخرج منه، فإن كان في الأرض بركان فإنها تخرج منه، فتذهب قوة النار فتنفقد الزلزلة، بخلاف الأرض الخالية عن البراكين، فإن النيران تحاول منفساً فيها، فلا تجده فترتج الأرض بذلك...

ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كلما قل علوه، ويقل كلما عظم العلو، وهذا ما جرت

به العادة والله تعالى أعلم.

وقال بعض الحكماء: إن كلا من الحوادث البركانية والزلازل، صادر عن جاذبية المحاكة، المسماة بالفرنساوية «الإكتريسته « *Electricite* » (بكسر الهمزة وسكون الكاف، وكسر التاء والراء وكسر السين وفتح التاء) التي هي خاصة الكهرباء عند حكها»[٥٥].

ولعل أشمل ما كتب عن الزلازل من حيث أسبابها ونتائجها ما كتبه أحمد أفندي ندى في القرن الثالث عشر الهجري (١٢٨٨هـ). أي منذ أكثر من مائة وعشرين عاماً في كتابه الذي يعد الأول من نوعه في العالم العربي والذي سماه «الأقوال المرضية في الكلام على الطبقات الأرضية»[٥٦]. وقد تناول فيه موضوع الزلازل فقال: زعموا أن الأبخرة والأدخنة إذا اجتمعت تحت الأرض لا يقاومها برودة وتكون مادتها كثيرة لا تقبل التحلل بأدنى حرارة، ويكون وجه الأرض صلباً لا منفذ فيه ولا مسام فتهتز منها بقاع الأرض وتضطرب كما يضطرب المحموم عند شدة الحمى فلا تزال تهتز إلى أن تخرج تلك المواد منها فتسكن[٥٧]... وقال متأخرو الإفرنج أن زلزلة الأرض والبراكين ناشئان عن سبب واحد، وذلك أن باطن الأرض مشغول بكتلة سائلة مضطربة بعد غور اثني عشر فرسخاً فحينئذ نتصور القشرة الأرضية عبارة عن غلاف صلب محيط بكتلة عظيمة من نار مضطرمة وهذه القشرة الرقيقة لا بد أن يقع عليها تأثيرات مختلفة من الحركات الاضطرابية لكتلة السائل المحيط بها.

وقال عصرينا[٥٨] المعلم بيريه الطبيعي أن الجذب القمري والشمسي الذي يقتضي مد البحار وجزرها على سطح كرة الأرض يؤثر أيضاً في المادة السائلة الكامنة في أغوار الأرض، فنسب زلزلتها إلى جذب القمر وقال إنها نتيجة مد وجزر الكتلة السائلة الباطنية الموجودة في القشرة الأرضية. فإذا صدمت الأمواج المضطرمة سطح القشرة الأرضية الباطن اضطرب جزء من سطحها مختلف الاتساع فإذا كان الضغط الحاصل من الكتلة السائلة ذا قوة كافية في تمزيق القشرة الأرضية وإحداث اتصال بين ظاهر الأرض وباطنها انقذفت أمواج الكتلة السائلة الباطنية إلى الخارج فتكون بركان، وإذا دام هذا الاتصال العارضي بين باطن الأرض وظاهرها وكانت الطفحات البركانية مستمرة كما في بركان استرومبولي أو منفصلة عن بعضها ببعض أعوام كما في الوازوف (فيزوف) والاثنا سمي البركان **وهاجا** فإذا انسد هذا الاتصال سمي البركان منطفئاً، والبراكين المنطفئة كثيرة على سطح الأرض ... ووجود الطفحات البركانية في البلاد التي توجد فيها كالتراشيت والبازلت وبقاء الفوهات البركانية العتيقة الشبيهة فوهاتها بفوهات البراكين الحالية يحققان عند من اشتغل بعلم الأرض وجود براكين منطفئة في تلك البلاد[٥٩].

ولنبتدىء بشرح زلزلة الأرض فنقول: أما زلزلة الأرض فقد ينشأ عنها تلف عظيم وذلك أنها في ظرف قليل من الثواني يمكن أن تهدم إيالات[٦٠] متسعة وتصير الأراضي ذوات الثروة قفاراً خربة وتهلك عدة من الناس تحت ردم الأبنية التي سقطت عليهم أو تبتلعهم الأرض إذا انشقت وقبل الشروع في سرد الحوادث التي من هذا القبيل ينبغي أن نذكر الأحوال التي جرت العادة بسبقها للزلزلة واتساع سطح الأرض التي تعرض لها هذه الزلزلة ومقدار زمن الاضطراب واتجاهه والنتائج التي تنشأ عنها بالنسبة لشكل الأرض والمتالف التي، تنشأ عن هذه الظاهرة المهولة المفزعة للنوع الإنساني.

الأحوال التي تسبق حدوث الزلازل:

أغلب الناس يزعم أن زلزلة الأرض تكون مسبوقة باضطراب في الهواء وريح عاصفة محزنة وباضطراب غير طبيعي في الإبرة الممغطسة، وليس كذلك إذ لا ارتباط للزلزلة بالأحوال الجوية، بل الغالب أن تحصل زلزلة الأرض والهواء ساكن والجو مصحٍ فتخرّب أراضي الزراعة وتهلك كثيراً من الأشخاص والحيوانات في لمحة عين وتحصل في الزمن الممطر كما تحصل في غيره وفي الهواء الساكن والريح العاصف.

وقد شاهد المعلم «هومبولد»[٦١] زلازل كثيرة في بلاد أمريكا ورصد إذ ذاك الإبرة المغناطيسية فلم يرها تأثرت بها. والغالب أن يسبق الزلزلة أو يصحبها أو يعقبها لغط مزعج آتٍ من أحشاء الأرض لا من الجو وسببه تمزق جزء عظيم من طبقات الأرض بالطفحات الملتهبة فتبدده.

وقد تقرر في علم الطبيعة أن الأجسام الصلبة موصلات جيدة للصوت كالمعادن والصخور فتنقل التموجات ذات الرنين بسرعة أكثر من سرعة الهواء والغازات .. إن اللغط المتكون في باطن الأرض من تمزق الصخور الصلبة يسري إلى بعد عظيم ويسمع بعيداً عن منشئه بمسافة عظيمة، وقد حكى المعلم هومبولد أنه سمع في كركاس ونحوها مما يجاورها صوتاً مزعجاً وقت خروج طفحة بركانية من بركان سن ونسان الذي بجزائر الأنتيلا ... كما يسمع لغط الوازوف من باريز: وقد يحصل هذا اللغط بدون أن يصحب زلزلة الأرض أو يعقبها.

نطاق حدوث الزلزلة:

وحيث إن الزلزلة عبارة عن تذبذب واضطراب في القشرة الأرضية فلا يكون الارتجاج مقصوراً[٦٢] على محل واحد من كرة الأرض بل يمتد إلى مسافة عظيمة فقد يكون اتساع الأماكن

المضطربة عظيماً وذلك كالزلزلة التي حصلت في مدينة (أشبونة)[٦٣] فإنها امتدت إلى نحو نصف الكرة الأرضية وكانت مساحة البلاد التي حصلت فيها الرجات قدر أوربـا أربع مرات أي أنه حصل اضطراب في أرض البرتغال وأسبانيا وأغلب أوربـا وشمال أفريقية بل وصل هذا الاضطراب إلى أمريكـا... وارتفع البحر جهة شاطىء أسبانيا ٣٠ متراً واضطربت النهيرات والينابيع والبرك اضطراباً زائداً في إنكـلترا ... وحصل تذبذب لطيف في بلاد السويد والنرويج وهولاندة وفرنسا والنمسا والسويس (سويسرا) وإيطاليا ... وقوي التذبذب في شمال الإفريقية لأنه أهلك نحو عشرة آلاف شخص في الجزائر وفاس ... ولا تكون الزلزلة مقصورة على الأرض القارة بل قد يضطرب قاع البحر أيضاً فتتحرك كتلة المياه حركة قوية فإن بعض القبودانات كان مسافراً بسفينة في البحر فاضطربت فجأة اضطراباً أورث المسافرين فزعاً عظيماً حتى ظنوا أن السفينة لامست قاع البحر لكنهم علموا بعد إلقاء المراسي أنهم بعيدون عنه ثم أن اضطراب الأمواج من الزلزلة إنما يخاف منه إذا كان نحو الشاطىء.

مدة الزلزلـة:

ومدة الزلزلة تختلف فمن البلاد ما يمكث فيه الاضطراب أسبوعاً، ومنها ما يمكث فيه شهراً كاملاً ومنها ما يمكث فيه أشهراً، وقد شوهد ببلاد بـيرو أن الزلزلة استمرت عدة سنين، وقد تكون دورية في بعض البلاد ففي بلاد المكسيك تحصل الزلزلة كل عام مرة، ومن البلاد ما تحصل فيه مدة ستة أشهر ومنها ما يحصل فيه مدة سنة ثم تنقطع مدة قرون وقد لا تمكث إلا يوماً أو ساعة أو ثانية كما في بعض البلاد فعلم مما ذكرناه أن مدة الزلزلة مختلفة، وعلى أي حال كان عدد الرجّات، لا يكون مُكث الواحدة منها إلا برهيا فالزلزلة تمكث زمناً كالعواصف إلا أن الرجة قد لا تمكث إلا ثواني قليلة أو تكون كالبرق، فالزلزلة التي حصلت سنة ١٦٩٣م وقلبت مدينة مسينة وعدة محال من جزيرة صقلية وكانت سبباً في هلاك ستين ألف شخص لم تمكث إلا خمس ثوان.

اتجاه حركات الأرض:

يعسر معرفة اتجاه حركات الأرض لأنه يندر أن يوجد وقت الزلزلة راصد ذو ثبات لمشاهدة اتجاه حركات الأرض، وقد ذكر أرستطاليس أحد فلاسفة اليونان الذي شاهد زلزلة الأرض مراراً في جزائر بحر الروم وعلى شواطىء آسيا أن للرجات ثلاثة اتجاهات وكان معناه أن الرجات إما أن تكون تموجيه أي أفقية وإما أن تكون عمودية بأن ترتفع الأرض وتنخفض على التعاقب وإما أن تكون رحوية. والغالب أن تحصل الرجات الأفقية والعمودية في آن واحد. ومتى حصلت الرجات بالاتجاهات الثلاثة

المتقدمة فإنها تحدث إتلافاً عظيماً وذلك كالزلزلة التي أخربت جزيرة صقلية.

وزعموا أن سلاسل الجبال تمنع انتشار زلزلة الأرض خصوصاً إذا كانت مكونة من صخور حبوبية غائرة في أعماق القشرة الأرضية ورد هذا الزعم بعدة مشاهدات.

آثار الزلازل:

ليست الزلازل مقصورة على هدم المدن بل تنشأ عنها مع ذلك تنوعات مهمة في نفس الأرض فيمكن أن ترتفع كما في الزلزلة المفزعة التي حصلت في بلاد شيلي من أمريكا عام ١٨٢٢ وهي التي شوهد فيها ارتفاع جزء من شاطىء أمريكا طوله ٣٠٠ فرسخ، وبهذه الكيفية يمكن أن تظهر جبال جديدة وتنهدم جبال أخرى فتردم الأودية وأحياناً تنشق الأرض فتظهر عليها بعد الزلزلة شقوق عظيمة طولها عدة فراسخ.

وهذه الشقوق لا تبقى دائماً فأحياناً تنطبق بغتة بعد حصول الزلزلة فتنطحن بين جدرها المنازل التي ابتلعتها وتغير استواء سطح الأرض الناشيء عن ارتفاع وانخفاض مسافة مختلفة الاتساع ... ففي عام ١٨١٩م حصل في بلاد الهند ارتفاع أكمة طولها عشرون فرسخاً وعرضها ستة فراسخ وكان ارتفاعها في وسط بلدة مسطحة وانخفض ما حولها من أرض البلدة وأخذ معه قرى أخرى وما حصل في بلاد الهند في اتساع عظيم من الأرض يحصل في كل زلزلة في اتساع قليل منها فينفتح سطحها الأصلي وتغير سير الأنهار يكون نتيجة لذلك.

وكثيراً ما يرى انقذاف طفحات من مواد مختلفة من الشقوق التي انفتحت في الأرض وذلك كالماء والغازات واللهب والمياه التي تخرج من الأرض كثيراً ما تكون ممزوجة بالرمل ... ويعسر تمييز تصاعد الغازات على سطح الأرض لأنها تتوزع في الهواء الجوي وتنتشر انتشاراً لا يتضح إلا إذا تكوّن تحت طبقة من الماء فقد شوهد غليان في البحر مدة الزلزلة وتفجر فقاقيع غازية عظيمة على سطحه.

ثم أن ما ذكر في شأن زلزلة الأرض في جميع البلاد وكتب في جرائد أخبار جميع الأمم يتضح منه ما قلناه فقد ذكر فيها انشقاق الأرض وتكوّن هوات عظيمة فجأة ابتلعت الأجزاء الموجودة على سطح الأرض كالمنازل ومن جملة ما في هذه الجرائد أن هذه الشقوق كثيراً ما خرج منها كتل عظيمة من ماء سائل وأبخرة مائية وخرج منها في بعض الأحيان لهب من غازات قابلة للاحتراق فاحترقت بأوكسجين الهواء وارتفعت في بعض الأحيان آكام في وسط سهول وتارة حصل ارتفاع في قاع البحر وتارة انهدمت جبال وخلفتها برك وتارة غاضت نهيرات في مجار تحت الأرض تكونت دفعة واحدة وتارة

جفت البرك وتارة انبجست ينابيع في مجال جافة جداً منها ما هو حار جداً.

وبالجملة فنتائج زلزلة الأرض المختلفة تشهد بصدق بعض ظواهر مذكورة في كتب المتقدمين فقد ذكر بليناس أن جزيرة صقلية انفصلت عن إيطاليا بزلزلة وذكر أيضاً أن جزيرة قبرص انفصلت عن الشام وماذاك إلا للسبب المتقدم فما يحصل الآن بين أيدينا يوضح ما حصل في سالف الزمان»(٦٤).

(خاتمـــة)

إن ظاهرة الزلازل والبراكين ظاهرة عرفتها جزيرة العرب. ويشهد بذلك ما انتشر من صدوع وحرار في غربيها، وما سجلته أشعار العرب. وكما قيل: إن الشعر ديوان العرب ومستودع علومها وخزانة حكمتها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى الزلازل وأشارت أحاديث الرسول عليه السلام إلى الزلازل والبراكين (حيث خروج النار) ويقول بعض الباحثين إن الجزيرة العربية وإن بدت بعيدة عن الزلازل القاسية، فإنها تتعرض كل قرن لزلزالين أو ثلاثة من الزلازل العنيفة. وآخر هذه الزلازل زلزال «ذمار» في جمهورية اليمن العربية الذي وقع في ١٣ ديسمبر ١٩٨٢ وصدع ٢٥ ألف منزل ودمر أكثر من ثلاثمائة قرية وأكثر من عشرين مدينة. وإن كان الجغرافيون المسلمون الأوائل قد اهتموا بظاهرتي الزلازل والبراكين، وإذا كان زلزال «ذمار» كان بمثابة تنبيه، فإن جامعة الملك سعود قد أخذت على عاتقها إنشاء أول مرصد للزلازل في المملكة العربية السعودية، ليتابع دراسة ظاهرة الزلازل وفق أحدث ما وصل إليه العلم، وبذلك نصل يومنا الناهض بأمسنا الزاهر لتستمر مسيرة التقدم.

●●●

الهوامش:

(١) هناك ارتباط وثيق بين الزلازل والبراكين، إذ أن كل حدث بركاني تصحبه غالباً زلزلة ظاهرة، لذا آثر الباحث الجمع بينهما.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ، جـ ٢، ص ٤١، تاج العروس للزبيدي، جـ ٧، مادة زلزل، متن اللغة، للشيخ أحمد رضا، جـ ٣، بيروت، ١٩٥٩، ص ٥٢.
(٣) الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير، الجزء الحادي والثلاثون، الطبعة الأولى، التزام عبدالرحمن محمد، ميدان الأزهر بمصر، د. ت، ص ٥٧.
(٤) لسان العرب، جـ ٢، ص ٤١.
(٥) (زلزلت) ١ / سورة الزلزلة، (زلزلوا) ١٢٤ / البقرة، (زلزالا) ١١ / الأحزاب، (زلزالها) ١ / الزلزلة، (زلزلة) ١ / الحج.
(٦) أ. ي. ونستك، و. ي. ب. منسنج، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، جـ ٢، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٤٣، ص ٣٤١.
(٧) الرازي، التفسير الكبير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
(٨) تفسير القرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م، جـ ١٩، ص ١٤٩.

(٩) يعتقد أن أول من استخدم مصطلح البركان من الجغرافيين المسلمين هو ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) وذلك في كتابه صورة الأرض، حينما تحدث عن خوزستان ووصف جبلا تتقد منه النار ليلا وبالنهار يرمي بالدخان لايطفأ أبدا كالبركان الذي بنواحي صقلية (صورة الأرض، ص ٢٣٠).

(١٠) ذكر أبو الفداء في (تقويم) البلدان: قبالة رومية في البحر جبلان شامخان لايزال يظهر منهما الدخان نهاراً وليلاً، واسم أحد الجبلين بركان بضم الباء. . . واسم الآخر (استنبرى). . ومعنى بركان استنبرى (البرق والرعد).

(١١) الحموي، معجم البلدان، جـ ٢، ص. ص ٢٤٥ ـ ٢٥٠.

(١٢) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٤٨.

(١٣) رفاعه الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريس، تحقيق مهدي علام، أحمد أحمد بدوي، أنور لوقا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د. ت، ص. ص ٩٢ ـ ١٠٨.

(١٤) فردريك هـ. بو، كل شيء عن البراكين والزلازل، ترجمة الدمرداش عبدالمجيد سرحان، دار المعارف، ١٩٧١م، ص ٩.

(١٥) *Billye W.Brown and Walter R.Brown, Historical Catastrophes, Earthquakes, Addison - Wesley Publishing Comp. 1974, P.14.*

(١٦) أدى زلزال تانجشان بالصين الذي وقع في ٢٧ يوليو ١٩٧٦م إلى موت نحو ٦٥٠ ألفا وإصابة ٧٨٠ ألفاً.

(١٧) *Roy Lebkicher, G. Rentz and M.Steine Ke, Aramco Handbook, 1960, pp. 264-267.*

(١٨) *Bruce A. Bolt, Earthquakes, San Francisco, 1978, p. 4.*

(١٩) *Ibid, p. 4.*

(٢٠) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م، ط ١، جـ ١، ص ١٤٨.

(٢١) الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، جـ ٢، ص ٢٤٥.

(٢٢) لسان العرب، مصدر سبق ذكره، جـ ٢ / ١٤٢، جواد علي، جـ ١ / ١٤٦.

(٢٣) مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، المغانم المطابة في معالم طابة، قسم المواضع، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، د. ت، ص ١١٢.

(٢٤) السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ص. ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢٥) جواد علي، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ١٤٧.

(٢٦) محمد علي المغربي، الهزات الزلزالية، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م، ص ٤٢.

(٢٧) جمع السمهودي في وفاء الوفاء كل من كتب عن هذه النار في ست عشرة صفحة، من ص ١٣٩ ـ ص ١٥٥.

(٢٨) وفاء الوفاء، بأخبار دار المصطفى، دار إحياءالتراث العربي، بيروت، د. ت، ص. ص ١٤٢ وجاء في مسند الامام أحمد عن أبي ذر قال: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأينا ذا الحليفة، فتعجل رجال إلى المدينة وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبتنا معه، فلما أصبح سأل عنهم، فقيل تعجلوا إلى المدينة، فقال: «تعجلوا إلى المدينة والنساء، أما أنهم سيدعونها أحسن ماكانت، ثم قال ليت شعري متى تخرج نار بأرض اليمن وجبل الوراق تضيء منها أعناق الابل ببصرى بروقا كضوء النهار» رواه ابن شبه من غير ذكر «بأرض اليمن» وربما تكون تلك النار التي حدثت سنة ٦٥٤هـ هي ما عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢٩) وفاء الوفاء، مرجع سبق ذكره، ص. ص ١٤٤ ـ ١٤٥. وقد ورد مسند الفردوس عن عمر حديث لا تقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار يضيء له أعناق الإبل ببصرى».

(٣٠) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٥.

(٣١) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٧.

(٣٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٨.

(٣٣) وفاء الوفاء، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٣٤) أحقاء: مستحقون.

(٣٥) الجبال العالية.

(٣٦) *Moritz,s., The Syrian Desert, London, 1937, P.13.*
جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ١، ص ١٤٧.

(٣٧) علي الحجار، أسباب الزلازل في لبنان، محاضرة في أبريل سنة ١٩٥٦م.

(٣٨) جريدة المدينة السعودية ٦/٥/١٤٠٣هـ، جريدة الرياض ٣١/٣/١٤٠٣هـ.
(٣٩) اخوان الصفاء، رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الثاني، الجسمانيات الطبيعيات دار بيروت للطباعة والنشر، سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م)، ص ٩٧.
(٤٠) ابن سينا، المعادن والآثار العلوية، تحقيق عبدالحليم منتصر وآخرون، القاهرة، سنة ١٩٦٥م، ص ١٥.
(٤١) ابن سينا، تسع رسائل، طبع على نفقة أمين هندية، القاهرة، سنة ١٩٠٨م.
(٤٢) ابن سينا، النجاة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م)، ص.ص ١٥٥ - ١٥٦.
(٤٣) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م، ص ١٤٥.
(٤٤) عبدالله يوسف الغنيم، منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، الكويت، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م)، ص ٤٥، نقلا عن كتاب الشفاء، المعادن والآثار العلوية، لابن سينا، تحقيق عبدالحليم منتصر وآخرون، ص ١٩.
(٤٥) المرجع السابق نفسه، ص.ص ٥٢ - ٨١.
(٤٦) ذكر شكسبير في روايته المشهورة ماكبث *Macbeth* أن بعض الناس يقولون أن الأرض كانت محمومة ولهذا اهتزت:
(Some say the earth was feverish and did shake)
(٤٧) زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨م، ط ٣، ص.ص ١٩٨ - ١٩٩.
(٤٨) المصدر السابق، ص.ص ١٩٨ - ١٩٩.
(٤٩) سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٧م)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مصطفى البابي الحلبي، مصر، د.ت، ص ٥.
(٥٠) المصدر السابق نفسه: ص ٢٣٩.
(٥١) ذكر *Billye W. Brown* في كتابه عن الزلازل ما يلي:
"There were groups of people who thought (and some still believe) that the earth is held on the back of some huge animal and that earthquakes occur when this animal shifts its body: To many Moslems, it was a bull that supported the earth" Billye W. Brown, Earthquakes, Addison. Wesley Publishing Comp. 1974, p. 15.
(٥٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد النجدي الحنبلي، طبعة ١٣٩٨هـ، جـ ٤، ص ٢٦٤.
(٥٣) محمد محمود محمدين، الوثنية اللفظية في الجغرافيا العربية المعاصرة، رسالة الجامعة، جامعة الملك سعود، ١١/١/١٤٠٥هـ، ص ١٠.
(٥٤) الطبائعية المهتمون بدراسة الظاهرات الطبيعية.
(٥٥) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريس، مصدر سبق ذكره، ص.ص ٩٠ - ٩٢.
(٥٦) يتناول البحث عرض أفكار أحمد ندى بشيء من التفصيل مع التصرف في عرض هذه الأفكار تحت عناوين فرعية.
(٥٧) يشابه هذا النص ما ذكره القزويني في القرن السابع الهجري أي قبل أحمد ندى بستة قرون.
(٥٨) عصرينا أي معاصرنا.
(٥٩) تمثل الحرار التي يكثر وجودها في غربي شبه الجزيرة العربية نشاطاً بركانيا قديما.
(٦٠) ايالات: مقاطعات.
(٦١) يقصد بذلك الكسندر فون همبولت (١٧٦٩ - ١٨٥٩). *Alexander Von Humboldt*
(٦٢) في الأصل قاصرة.
(٦٣) يقصد زلزال لشبونة الذي حدث سنة ١٧٥٥م.
(٦٤) أحمد أفندي ندى، الأقوال المرضية في الكلام على الطبقات الأرضية، المطبعة العامرة الزاهية الزاهرة، القاهرة، شعبان سنة ١٢٨٨هـ، ص.ص ٢٧ - ٣٩ (بتصرف).

أهم المصادر والمراجع

١ - ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): كتاب صورة الأرض، ليدن، سنة ١٩٣٨م، طبقة بيروت سنة ١٩٦٢م.
٢ - ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، طبعة الحلبي، بدون تاريخ.
٣ - ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبدالله): المعادن والآثار العلوية، تحقيق عبد الحليم منتصر وآخرين، القاهرة، ١٩٦٥م.
٤ - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م.
٥ - أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن نور الدين): كتاب تقويم البلدان، طبعة مدينة باريس، سنة ١٨٤٠م.
٦ - إخوان الصفاء وخلان الوفاء: رسائل إخوان الصفاء، خمسة مجلدات، دار صادر بيروت ١٩٥٧م.
٧ - الحجار (علي الحجار): أسباب الزلازل في لبنان، محاضرة مطبوعة، بيروت، أبريل ١٩٥٦م.
٨ - الحموي (ياقوت الحموي): معجم البلدان، خمسة مجلدات، بيروت، ١٩٥٥م.
٩ - الرازي (الإمام الفخر الرازي): التفسير الكبير، ميدان الأزهر، د. ت.
١٠ - الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس، طبعة دار ليبيا، بنغازي، د. ت.
١١ - السمهودي (نور الدين علي بن أحمد المصري): وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
١٢ - الطهطاوي (رفاعة الطهطاوي): تخليص الإبريز في تلخيص باريس، تحقيق مهدي علام، وآخرين، القاهرة، د. ت.
١٣ - الغنيم (عبدالله يوسف): منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، الكويت، سنة ١٤٠٤هـ.
١٤ - الفيروزابادي (مجد الدين أبو الطاهر) المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات اليمامة، الرياض، د. ت.
١٥ - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
١٦ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٨م.
١٧ - المغربي (محمد علي): الهزات الزلزالية، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م.
١٨ - رضا (أحمد رضا): متن اللغة، بيروت، ١٩٥٩م.
١٩ - سرحان (الدمرداش عبدالمجيد): كل شيء عن الزلازل، مترجم، دار المعارف، ١٩٧١م.
٢٠ - علي (جواد علي): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨م.

٢١ ـ منتصر (عبدالحليم): تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.
٢٢ ـ ندى (أحمد أفندي): الأقوال المرضية في الكلام على الطبقات الأرضية، القاهرة، ١٢٨٨هـ.

المراجع الأجنبية

1. *Bolt, Bruce A., Earthquakes, San Francisco, 1978.*
2. *Brown B. W. and Walter R. B., Historical Catastrophes, Earthquakes, Addison - Wesley Publishing Comp., 1974.*
3. *Lebkicher R., etal, Aramco Handbook, 1960.*
4. *Moritz, S., The Sysian Desert, London, 1937.*





من مجيء الخبر على خلاف ظاهر الحال في القرآن الكريم

د. عبده عبد العزيز قلقيلة

الخبر قسيم الإنشاء، لا يخرج الكلام عنهما، وإذا كان السكاكي قد نص على أن المعتنين بهما فرقتان: فرقة تحوجهما إلى التعريف، وفرقة تغنيهما عنه، واختار رأي الفرقة الثانية[1] فإننا على الرغم من تأخر الزمن بنا عن عصر السكاكي، بل لتأخر الزمن بنا عن عصر السكاكي نرى العكس، وننحاز إلى الفرقة التي تجعل تعريفهما مدخلاً لفهمهما وتمييزاً لأحدهما عن الآخر، وتأتي الأمثلة فتعمق هذا التمييز وذلك الفهم، وانطلاقاً من ذلك نقول: الخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته أي لذات الخبر في نفسه وبصرف النظر عن قائله؛ لتدخل فيه الأخبار المقطوع بصدقها أو بكذبها، منظوراً في هذا القطع إلى ذوات قائليها أو إلى مضامينها.

والخبر الصادق هو ما طابق الواقع أو هو ما صدَّقه الواقع.
أما الخبر الكاذب فهو ما خالف الواقع أو هو ما كذَّبه الواقع.

من هاتف كليته يخبر زميل زميله بنجاحه ويهنئه به ويأتي الزميل ليرى بنفسه، فإذا وجد اسمه في كشوف الناجحين كان كلام زميله صدقاً، وكانت تهنئته صادقة، وإذا لم يجد اسمه في كشوف الناجحين كان كلام زميله كذباً وكانت تهنئته مخرقة.

مضمون كلام الزميل هو النسبة الكلامية، وما في الكشوف هو النسبة الخارجية، ومدار الصدق والكذب فيهما على توافقهما أو تخالفهما.

• أضرب الخبر •

الأضرب ـ بالضاد، ويمكن أن تكون بالدال ـ جمع ضرب أو درب، ومعناهما الاصطلاحي واحد، فضرب الخبر أو دربه إنما هو نمط أسلوبه ونسيجه اللغوي، هل هو مرسل أو مؤكد؟ وهل جاء على حسب مقتضى ظاهر حال المخاطب به أو على خلافه؟

وما ذكرناه معناه أن لأضرب الخبر مجالين مختلفين:

مجالاً تجري فيه هذه الأضرب وفقاً لظاهر حال المخاطب من حيث علمه أو عدم علمه بمضمون الخبر، ومن حيث قبوله أو رفضه لهذا المضمون، بل من حيث درجة هذا الرفض إن كان ثمة رفض.

ومجالاً تجري فيه الأضرب طبقاً لاعتبارات بعيدة عن ظاهر حال المخاطب، أي عن ظروفه من علم أو جهل بمضمون الخبر، ومن قبول أو رفض لهذا المضمون، والاعتبارات في هذا المجال أكثر دقة من الاعتبارات في المجال الأول؛ لأنها لا تطفو فوق السطح كما هناك، بل تكمن في العمق وهو عمق مزدوج:

شقة الأول مرسل الأدب بفنيته وبرؤيته الجمالية.

وشقة الثاني مستقبل الأدب بما يحيط به ويكتنفه من ظروف دقيقة يصعب على غير البليغ فهمها والصدور في كلامه عنها.

والمجال الثاني باعتباراته المزدوجة العمق أدخل في فن القول من المجال الأول، ولا عجب؛ فالراحة على قدر التعب، وعند الصباح يحمد القوم السري.

• المجال الأول •

أضرب الخبر في هذا المجال ثلاثة هي:

١ ـ الابتدائي:

وهو يتحقق بإلقاء الخبر غير مؤكد على خالي الذهن من مضمونه ليحصل له هذا المضمون

وينتقش في ذهنه ثبوتاً أو انتفاءً.

تقول لشريكك الذي يقاسمك غرفتك في أحد النزل: أنا مسافر غداً، أو لست مسافراً غداً، مستغنياً عن أن تؤكد له كلامك بأي مؤكد؛ لأن غرضك من كلامك إنما هو إفادة شريكك القرار الذي اتخذته، وهذا الغرض قد تحقق كاملاً بما قلته، فإذا زدت عليه كانت هذه الزيادة لغواً، وقد تمثل السكاكي في هذا الضرب وله بقول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى وصادف قلباً خالياً فتمكنا

وسمي ابتدائياً لمطابقته ابتداء حال المخاطب وهو خلوُّ ذهنه من مضمون الخبر.

٢ ـ الطلبي:

وهو يتحقق إذا كان المخاطب بالخبر متردداً في تصديق مضمونه، وحالة المخاطب هذه تستدعي تأكيد الخبر له بقدر الحاجة إلى هذا التأكيد. وقد رأى البلاغيون أن مؤكداً واحداً يكفي في هذه الحالة، وصدوراً عن ذلك نقول لمن أجاب إجابة متوسطة تجعله يقف على الأعراف بين النجاح والرسوب:

قد نجحت أو قد رسبت. هكذا بمؤكد واحد؛ لأننا لو أخلينا الخبر من هذا المؤكد كنا مقصرين في حق المخاطب بتركه لشكه، ولو عكسنا فضاعفنا المؤكد كنا متجاوزين حد الحاجة في الكلام البليغ.

وإنما سمي هذا الضرب طلبياً، لأن المخاطب بشكه في مضمون الخبر، غدا وكأنه يطلب بلسان الحال لا بلسان المقال تأكيد هذا المضمون.

٣ ـ الإنكاري:

وهو يتحقق إذا كان المخاطب منكراً مضمون الخبر، وينبغي في هذه الحالة أن نؤكد له الخبر على قدر إنكاره:

فإن كان إنكاره متوسطاً أكدنا له الخبر بمؤكدين، وإن كان إنكاره فوق المتوسط أكدنا له الخبر بثلاثة، وإن كان إنكاره شديداً أكدنا له الخبر بأربعة مؤكدات وربما أكثر.

لنتصور طالباً أجاب عن سؤال واحد من أربعة أسئلة.

إنه في هذه الحالة ينكر إخباره بنجاحه، لكن الواقع أنه نجح بإضافة أعمال السنة وبالرأفة، ولنقنعه

بنجاحه يلزم ـ بلاغة ـ أن نقول له: إنك قد نجحت؛ فإن صدقنا وإلا زدنا مؤكداً ثالثاً فقلنا: والله إنك قد نجحت أو لقد والله نجحت وهكذا.

وبسبيل من ذلك قول الله تعالى: «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا: إنا إليكم مرسلون، قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[٢].

في الإخبار الأول، أكد الله سبحانه وتعالى الخبر بثلاثة مؤكدات هي: إنّ، واسمية الجملة والقصر بتقديم ما حقه التأخير في «إليكم مرسلون»، فقد قدم متعلق الاسم المشتق عليه، وأصل الكلام: إنا مرسلون إليكم.

وفي الإخبار الثاني زاد الله سبحانه وتعالى على ما سبق مؤكدين آخرين هما القسم واللام.

والعلة واضحة في تسمية هذا الضرب بالإنكاري؛ فالمخاطبون به منكرون مضمونه على تفاوت بينهم في درجة هذا الإنكار، يقول السكاكي بعد أن أجمل ثلاثة الأضرب السابقة:

«وإخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة يُسمى إخراج مقتضى الظاهر، وإذا أعملت فيه البصيرة استوثقت من جواب أبي العباس للكندي حين سأله قائلاً:

إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله لقائم، والمعنى واحد.

وذلك أن قال: بل المعاني مختلفة: فقولهم: عبدالله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبدالله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبدالله لقائم، جواب عن إنكار منكر[٣].

انتهى القول في المجال الأول، والخبر فيه جار على مقتضى الحال ومقتضى الظاهر معاً، أما أنه جار على مقتضى الحال، فلتنوعه وتوزعه على الحالات المتباينة للمخاطبين به، وأما أنه جار على مقتضى الظاهر، فلكونه المتبادر إلى الذهن والمناسب للموقف الكلامي بطرفيْه: مرسل الأدب ومستقبله.

* * *

ويحسن التنبيه إلى أن تردد الجمل الخبرية بين التوكيد وعدمه تردد فني جمالي؛ لأن قاعدته فنية جمالية، أقصى مدِّها هو: (ينبغي) و(يحسن) ونحوهما، أما (يجب) و(يلزم) و(لا بد) ونحوها، فهذه

وأمثالها لا تكون إلا مع ما نصدر فيه عن القاعدة العلمية، وهي ملزمة؛ لأنها لصحة التركيب وسلامته من الخطأ.

يقول حازم في مثل ما نحن بصدده: «وكلامنا ليس واجباً على الشاعر لزومه، بل مؤثر حيث يمكن ذلك»[٤].

وفي باب الفصل والوصل من كتاب «عروس الأفراح» نقرأ قول السبكي: «حيث قلنا في هذا الباب: يجب الوصل أو قلنا: يجب الفصل، نريد به الوجوب بحسب البلاغة وتطبيق الكلام على مقتضى الحال، ولا نعني الوجوب بحسب اللغة»[٥].

● المجال الثاني ●

سبق القول بأن أضرب هذا المجال هي الأبلغ، ها هوذا السكاكي يمهد لها بقوله: «ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيراً» أجل «لا على مقتضى الظاهر كثيراً» ولا عجب؛ فهم مفلقون سحرة «يرون سلوك هذا الأسلوب من كمال البلاغة وإصابة المحز» كما قال[٦].

والاحتمالات العقلية لأضرب هذا المجال كثيرة منها:

١ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه فيلقي عليه الخبر خلواً من أي مؤكد مثل أن أقول للمسلم الذي يعلم بحكم إسلامه وجوب الصلاة لكنه لا يصلي: الصلاة واجبة.

ألقينا الخبر عليه والأصل أنه في غير حاجة إليه لعلمه المسبق به. هذا أولاً.

أما ثانياً: فقد جعلنا هذا الخبر خلواً من أي مؤكد تكريساً للحالة الجديدة التي حركناه إليها وهي اعتبار المخاطب به خالي الذهن من مضمونه أي جاهلاً هذا المضمون.

ومن هذا الضرب قول الفرزدق لهشام بن عبد الملك لما تجاهل عليَّ بن الحسين رضي الله عنهما وقال: مَنْ هذا؟ فقد تحدَّر الفرزدق بقوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك: من هذا؟ بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم

إلى آخر ما قال[٧].

٢ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الشاك فيه، فيلقي إليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد، مثل أن أقول للمسلم الذي يعلم بحكم إسلامه وجوب الصلاة ولكنه لا يصلي: قد فرض الله الصلاة.

٣ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له، فيلقي عليه الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد مثل أن أقول للمخاطب السابق: إن الصلاة قد فرضها الله. أو والله إن الصلاة قد فرضها الله.

ومن هذا الضرب قول أبي نواس للتي من بيتها خفّ مركبه إلى مصر:

سألتْ: أما دون مصر للغنى متطلب؟

فأجاب: بلى. إن أسباب الغنى لكثير، مؤكداً بإن واللام واسمية الجملة.

٤ ـ تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة الشاك فيه فيلقي عليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد مثل أن أقول لمن لا يعلم عودة أخيه من سفره: قد عاد أخوك من السفر.

٥ ـ تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له كأن أقول لمخاطبي السابق: إن أخاك قد عاد من السفر. أو والله إن أخاك قد عاد من السفر.

٦ ـ تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه، فألقي عليه الخبر غير مؤكد، كأن أقول للشاك في نجاحه: نجحت؛ إهداراً مني لشكه كأني غير معترف به أي بهذا الشك.

٧ ـ تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة العالم به، وهو هو الضرب السابق بمثاله ولكنه احتمال عقلي مخالف له.

٨ ـ تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة المنكر له. مثل أن أقول للشاك في نجاحه: إنك قد نجحت. أو إنك والله قد نجحت.

٩ ـ تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به، كأن أقول للمسلم المنكر وجوب الزكاة: الزكاة واجبة.

قلنا. ولم يكن قولنا مطلوباً أولاً، ولما قلنا. لم نؤكد ثانياً.

١٠ ـ تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه. مثل أن أقول لمخاطبي السابق: الزكاة واجبة.

قلنا. وكان واجباً أن نقول، لكنا حين قلنا لم نراع أن مخاطبنا منكر. وهو هو الضرب السابق في الظاهر، لكنه احتمال عقلي مخالف له.

١١ ـ تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة الشاك فيه، كأن أقول لمنكر فضل العلم: إن العلم ينفع صاحبه؛ تخففاً من كثافة المؤكدات من جهة، واستهانة بإنكار المنكر من جهة.

* * *

ما سبق هو أكثر أضرب الخبر الجاري على خلاف ظاهر الحال دوراناً في الكلام.
ونتشرف الآن بإمعان النظر في القرآن الكريم لنرصد ما يفتح الله علينا به من هذه الأضرب، مُرتَّبةً على حسب ورودها في سوره.

سدد الله على طريق التوفيق خطانا وهدانا سواء السبيل آمين.

ـ ١ ـ

«ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» [الآية ٢ من سورة البقرة].

نفى الله الريب عن القرآن الكريم دون أن يؤكد ذلك، مع أن القرآن مستهدف منذ نزوله بالارتياب الشديد فيه من غير المؤمنين به، وقد فعل الله ذلك استناداً إلى أن القرآن من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا يصح الارتياب فيه. والآية الكريمة لهذا من تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه، وهو الضرب العاشر من احتمالات الخبر الجاري على خلاف ظاهر حال المخاطب أو المخاطبين به والله أعلم.

ـ ٢ ـ

«وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون». [الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة البقرة].

* * *

هذه الآيات وما قبلها وما بعدها في سياقها من سورة البقرة تدور حول المنافقين الذين يعيثون في الأرض فساداً حتى إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون، أي لسنا مفسدين، وهذا منهم حمق أيّ حمق، ولاعجب؛ فهم لا يشعرون أنهم مفسدون، وإذا كانوا لا يشعرون أنهم مفسدون فإن مقتضى ذلك هو الإخبار عنهم بالضرب الابتدائي بأن يقال: هم مفسدون، أو نحوه، لكن الله تعالى نزلهم منزلة المنكرين، بل عتاة المنكرين فقال: «ألا إنهم هم المفسدون» هكذا بخمسة مؤكدات هي [ألا] التنبيهية، و(إنَّ) المقرِّرة، وتعريف الخبر، وضمير الفصل (هم) و(اسمية الجملة). وفي تكثيف التوكيد بهذه الدرجة، وإلى هذا الحد إيماء إلى غباء المنافقين، وتشنيع عليهم بفقدهم القدرة على التمييز بين الفساد: وهو خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، والصلاح: وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة[٨].

* * *

وما قلناه في «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، نقوله في: «ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون».

وهما من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ٣ ـ

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون» [الآية ١٤ من سورة البقرة].

صورتْ الآية الكريمة لعب المنافقين على الحبلين، وترددهم بين اليهودية والإسلام: إذا لقوا المؤمنين ساقوا إليهم الكلام مرسلاً دون توكيد ما، لا شيء إلا الإخبار بالحدث (آمنا) وهو الضرب الابتدائي في مجال مطابقة الكلام لمقتضى ظاهر الحال.

وإذا خلوا إلى كبرائهم ورجال دينهم سلكوا بهم أو إليهم الضرب الطلبي فقالوا لهم: (إنا معكم).

والسبب في عدولهم عن الضرب الابتدائي إلى الضرب الطلبي أنهم ـ لجبنهم ـ قد استشعروا أن من يخاطبونهم شاكون في أمرهم، وسيكونون مترددين في تصديقهم لو قالوا لهم (نحن معكم) فنزلوهم منزلة الشاكين وقالوا لهم (إنا معكم) وهو الضرب الرابع من الاحتمالات السابقة.

وقولهم بعد ذلك: «إنما نحن مستهزئون».

إما أن نجعله توكيداً فوق توكيد، ويتحول الضرب به من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة.

وإما أن نجعله استئناف كلام، وكأن الشياطين عقبوا على قول المنافقين (إنا معكم) بقولهم لهم: فما بالكم إن صح أنكم معنا تقولون للمؤمنين: آمنا؟ فقالوا: (إنما نحن مستهزئون).

و(إنما نحن مستهزئون) على هذا التقدير تكون من مجيء الخبر على حسب مقتضى ظاهر حال المخاطبين، وهو تكذيب رؤساء المنافقين قول المنافقين (إنا معكم) والله أعلم.

ـ ٤ ـ

«أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون. واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»

[الآيتان ٤٤، ٤٥ من سورة البقرة]

الخطاب في الآيتين الكريمتين موجه إلى أحبار اليهود الذين كانوا يأمرون أقاربهم وخاصتهم بالإيمان بمحمد ولا يفعلون هم ذلك تشبثاً بسلطاتهم الدينية، وحرصاً على منافعهم الدنيوية، وقد وبخهم الله على ذلك بقوله: «أفلا تعقلون».

أي أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه؟!!! لكأنكم مسلوبو العقول.

ولما كان هذا التوبيخ من الله للأحبار يمثل جانب الشدة معهم والتقريع لهم، فإن الوجه الآخر للتربية الربانية وهو وجه الرفق بهم والنصح لهم، قد تمثل في الآية الثانية «واستعينوا بالصبر والصلاة» أي بالجمع بينهما بأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين مشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب ودفع الوساوس ومراعاة الأدب مع الخشية والخشوع واستحضار أن الصلاة إنما هي قيام بين يدي الله.

ولأن الصلاة بالكيفية السابقة أمر صعب وهو ما لم يكن في الحسبان عقب سبحانه بقوله: «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين».

هكذا بتنزيل الخالين من مضمون الخبر منزلة المنكرين له، وهو الضرب الخامس من المجال الثاني؛ إيحاءً بأن من يتهيأ للصلاة يجب عليه أن يستحضر الله وإغراءً للمصلين بأن يكونوا من الخاشعين.

وما كان هذا التوجيه بشقيه ليتحقق لو أن الله سبحانه ساق الخبر للأحبار أصلاً، ولغيرهم فرعاً على مقتضى ظاهر حالهم وهو خلو أذهانهم من صعوبة الالتزام بإتقان الصلاة.

ـ ٥ ـ

«من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين»

[الآية ٩٨ من سورة البقرة]

نقف من الآية الكريمة عند جملة «فإن الله عدو للكافرين»؛ لأنها من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من المجال الثاني.

ونوضح ذلك بالآتي:

ظاهر الحال يقتضي أن يقال: من عادى الله ورسله وملائكته وبخاصة جبريل وميكال عاداه الله، لكن لأن سياق الآية هو التهديد الشديد روعي فيها ما يأتي:

أ ـ مجيئها اسمية لتفيد الثبوت والثبوت تأكيد.

ب ـ توكيدها بإنَّ لتكتمل للهجة التهديد حدتها ولتصل فاعليتها إلى أقصى المدى في تخويف الكافرين.

جـ ـ وضع الظاهر موضع الضمير مرتين:

مرة في «فإن الله» بدلاً من (فإنه)؛ تهويلاً عليهم بلفظ الجلالة.

ومرة في «عدو للكافرين» بدلاً من (عدو لهم)؛ إيماءً إلى أنهم بسبب عداوتهم لله وللملائكته ولرسله صاروا كافرين، والله أعلم.

ـ ٦ ـ

«ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين»
[الآية ١٤٥ من سورة البقرة].

الخطاب في الآية الكريمة موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ، والمتكلم إنما هو الله سبحانه وتعالى يحيطه علماً بأن اليهود والنصارى ميئوس من إيمانهم مهما بذل في ذلك من جهد ومهما قدم لهم من دلائل، بل لو قدم لهم كل المعجزات وكل الدلائل.

وغير وارد بالدرجة نفسها أن يتبع محمد ﷺ دين اليهود أو دين النصارى.

يتمثل هذا أو ذاك في التوجه أو عدم التوجه إلى الكعبة، واتخاذها أو عدم اتخاذها قبلة، ويمضي فيكرس اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم حتى إن بعضهم لا ولن يتبع قبلة بعض.

* * *

ما مضى تم الإخبار به في هدوء، لم يجلب الله على رسوله فيه بتهديد أو وعيد، فلم يكن محمد قبله يعلم أن الطريق إلى هداية أهل الكتاب مسدود، ولا أن بينه وبينهم حائطاً يتحطم عليه أمله في أن يتجه الجميع نحو قبلة واحدة صدوراً عن دين واحد هو الإسلام.

أما وقد بصَّر الله رسوله وأبان له حقيقة الموقف، فليس له بعد ذلك عذر إذا عاد إلى قبلته القديمة كما تمنوا عليه قائلين له: «لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره»(٩).

إلى هنا والإشارة خضراء، لكن ها هي ذات تتحول إلى صفراء، وعلى ضوئها الباهت وفي وقتها الضيق يقول الله لرسوله: «ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم».

ويْ. إنه النذير والتحذير، وها هو ذا الضوء الأصفر يتلاشى ليحل محله الضوء الأحمر.

تأزم الموقف إذن، ولم يعد يحتمل المجازفة، فليكن هذا الحكم الجازم الصارم الذي يشق على مؤمن عاص، فما الظن بمؤمن منيب، بل ما الظن برسول كريم هو محمد خاتم الأنبياء والمرسلين؟!!!

لكنه الخطر الداهم لو قطعت الإشارة الحمراء. إنه الصدم والحطم، وما ذلك بشيء ذي بال في جانب قول الله لرسوله، أو من هم وراء رسوله مما يوحى به تلهب الموقف:

«إنك إذاً لمن الظالمين».

ولما كان الشهيد سيد قطب بصدد ما نحن فيه سأل:

لماذا هذا الجد الصارم في خطاب الله لرسوله؟

وأجاب:

«إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه، ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم وبهذه المواجهة والتحذير (إنك إذاً لمن الظالمين). إن الطريق واضح والصراط مستقيم، فإما العلم الذي جاء من عند الله، وإما الهوى في كل ما عداه، وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين في غمرة الدسائس اليهودية، وحملة التضليل الماكرة تستدعي هذه الشدة في التحذير وهذا الجزم في التعبير»[١٠].

انتهى كلام الأستاذ سيد قطب، وهو يسمح بأن يكون المخاطب في (إنك إذاً لمن الظالمين) هكذا بالضرب الإنكاري إنما هو الرسول ﷺ وحده، أو بعض المسلمين وحدهم، أو هما معاً في موقف أمل تفتر فيه حركة العقل تحت تأثير صور زاهية وأحلام وردية بواقع ديني متفرد هو انتظام الناس في صف الإسلام.

تلك الصور وهذه الأحلام جعلت محمداً ﷺ أو بعض أصحابه أو هما معاً يبدون وكأنهم غير مدركين خطورة ما يعرضه أهل الكتاب عليهم، وما يترتب عليه لو قبلوه من إضعاف لموقفهم، ومن ظلم لدينهم وأنفسهم.

وتصعيداً من الله لحالتهم تلك خاطبهم خطاب المنكرين للخطر المحيط بهم لو تركوا كعبتهم، وعاودوا التوجه إلى بيت المقدس.

وتكون الآية الكريمة مثالاً لتحول الضرب الابتدائي إلى الضرب الإنكاري، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

– ٧ –

«وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟ قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم»

[الآية ٢٤٧ من سورة البقرة]

الآية الكريمة واحدة من آيات كثيرة وردت في سياقها وفي القرآن الكريم كله تحكي قصصاً مختلفة عن بني إسرائيل وتعطي مواقفهم مع الله سبحانه وتعالى ومع أنبيائهم وملوكهم موافقين ومخالفين، طائعين وعاصين.

وآيتنا والآية (٢٤٦) قبلها تقولان: إنهم طلبوا من نبي لهم اسمه شمعون أن يُنَصِّبَ عليهم ملكاً يحاربون بقيادته جالوت وجنوده، ولحنكة شمعون وخبرته بهم أبطأ في الاستجابة لهم ولما ألحوا عليه قال: أخشى إن كتب الله عليكم القتال ألاّ تقاتلوا، فردوا: «وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا»؟! وحين اطمأن شمعون إلى أنهم جادون أخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً يحكمهم ويقودهم في الحروب، لكنهم لم يرحبوا بهذا الخبر بل صدموا به وراحوا يتساءلون وهم متعجبون ومنكرون: أنّى يكون له الملك علينا؟ ولو تأملنا لوجدنا أنهم لم يصدروا في تساؤلهم عن فراغ، ولم يحتجوا على طالوت من غير سبب بل إن لديهم لذلك لسببين وجيهين في رأيهم ومن وجهة نظرهم:

أحدهما مرئيّ هو أن طالوت لم يؤت سعة من المال.

والآخر خفيّ نفهمه من قولهم «ونحن أحق بالملك منه»؛ فهو متضمن أن طالوت ليس من أبناء الملوك، وفيهم من هو من أبناء الملوك.

وانطلاقاً من هذين السببين الوجيهين في رأيهم ومن وجهة نظرهم أصدروا حكمهم المرسل (ونحن أحق بالملك منه) هكذا دون تأكيد ما. فلماذا؟ أجل لماذا؟!! وإنهم ليعلمون وهم يجادلون نبيهم شمعون أنه مع من اختاره الله لهم، وتلك حججه تنهال على رؤوسهم كالمطارق حجة في إثر حجة. شمعون الذي هو من نسل هارون أي الفصيح بالوراثة يحاجهم ويجادلهم فيكتفون وهم يثبتون أحقيتهم بالملك من طالوت بإلقاء الخبر عليه ابتدائياً غير مؤكد!! إنه لأمر محير، والمسألة لا تخرج عن احتمالين:

أولها: أنهم ليسوا على مستوى الموقف قولاً وفعلاً. ومستحيل أن يكون هذا هو رأيهم في أنفسهم.

والثاني: أنهم أجروا خبرهم على خلاف ظاهر حال شمعون، وهذا الاحتمال هو المعقول، وبه كانت جملة (ونحن أحق بالملك منه) مما نحن فيه أي من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم.

لقد كان المتوقع أن يقولوا: «إننا لأحق بالملك منه» أو «ورب موسى وهارون إننا لأحق بالملك من طالوت» لكنهم جاءوا بالخبر خافتا مصمتا كما نرى. مرة أخرى لماذا؟

وبسبيل من الإجابة عن هذا السؤال الملح نعترف بأنه على الرغم من أن الأدلة على أحقية طالوت بالملك أدلة مادية ومعنوية، وهي بهذه الازدواجية كانت في حاجة إلى أن تُنقض وتنقض وتنقض، وهي مرات من النقض تتوأم وتتلاءم مع ما عند شمعون من خلفية عن الموقف برمته وإنها لخلفية رافضة ومناهضة ثم هي مركبة:

بعضها يتعلق بالمعارضين لطالوت وهو أنهم أقل منه في الجسم والعلم.

وبعضها يتعلق بطالوت. وما يتعلق بطالوت أمور منها:

أ ـ أن الله اصطفاه عليهم أي اختاره من بينهم، وإذا كان الله قد اختاره من بينهم فلا شك أنه يفضلهم.

ب ـ أن الله زاده بسطة في العلم والجسم.

جـ ـ أن الله يؤتي ملكه من يشاء، وقد شاء الله طالوت ولم يشأ غيره.

وبهذه الخلفية المكثفة عند شمعون ينتفي انتفاءً تاماً أن يكون المجادلون له من وجهة نظره وفي اعتقاده أحق بالملك من طالوت، واستلال هذا الاعتقاد فيهم يقتضيهم ـ محواً له وإحلالاً لضده محله ـ أن يؤكدوا أحقيتهم بالملك ما شاء الله من التأكيد. لكنهم لم يؤكدوا، وعلام التأكيد وهم في غير حاجة إليه؟!

إن أحقيتهم بالملك في اعتقادهم هم ومن وجهة نظرهم هم واضحة وضوح النهار الذي لا يحتاج إلى دليل. المسألة بالنسبة إليهم منتهية، وخارج نطاق الأخذ والرد، وقد راعوا في تقرير أحقيتهم بالملك حقيقة أمرهم هم وهي الحقيقة المطلقة عندهم لا حقيقة حال شمعون ولا ظاهر حاله.

ومن يدري فلعلهم تركوا لسان حالهم يقول عنهم، ولما خافوا ألا يُسمع له تفضلوا فقالوا دون تأكيد ما، وبحسبهم أنهم قالوا.

ومرة أخرى من يدري؟ فلعلهم كانوا يرون أن التعامل مع الواقع القابع في العقول أقوى وأصدق من التعامل مع الواقع الظاهر للعيون، وفي هذا تكمن بلاغة وأفضلية مجيء الخبر مخالفاً لظاهر حال المخاطبين به على وجه العموم.

والآية الكريمة لهذا من تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به أو خالي الذهن منه أي من جعل

الضرب الإنكاري ابتدائياً، وهما الاحتمالان التاسع والعاشر فيما سبق والله أعلم.

ـ ٨ ـ

«فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» [الآية ٣٦ من سورة آل عمران]

تضمنت الآية الكريمة فصلاً من قصة مريم.

توقعت أمها حين حملت بها أن ما في بطنها ولد، فنذرته للخدمة في بيت المقدس، ولمّا كان الوفاء بالنذر مشروطاً بأن يكون المولود ذكراً، فقد أصيبت أم مريم بالإحباط حين ولدت أنثى ولم تملك نفسها أن قالت: «رب إني وضعتها أنثى»، ولأن الله أعلم بما وضعت، فقد كان مقتضى ظاهر الحال ألا تقول أصلاً، وإن قالت فبالضرب الابتدائي لا الطلبي. تقول مثلاً: (أنا وضعت أنثى) أو (المولود أنثى).

فلماذا عدلت عن ذلك إلى «إني وضعتها أنثى»؟

يمكن القول بأن أم مريم لم تتوجه بخبرها إلى الله تعالى بل إلى نفسها.

وعن الجملة الإنشائية (ربِّ)، فقد أتت بها لتشهد الله على بثها، ولتريه أسفها على ضياع أملها.

ونمضي في استبطان زوجة عمران فنذهب إلى أنها إنما قالت ذلك على سبيل الاعتذار إلى الله عن عدم وفائها بنذرها، لأن مولودها أنثى، والأنثى في ذهنها وفي زمنها لم تكن صالحة للمهمة التي نوت نوطها بحملها لو جاء ولداً.

وسواء كان خبرها موجهاً إلى الله تعالى أو إلى نفسها فإنه من تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المتردد في قبوله وهو الضرب الثاني من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم.

* * *

وما قلناه في (إني وضعتها أنثى) نقوله في: «وإني سميتها مريم» وفي «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» والله أعلم.

ـ ٩ ـ

«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيهاً في الدنيا

والآخرة ومن المقربين» [الآية ٤٥ من سورة آل عمران].

معنى «إن الله يبشرك بكلمة منه» أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب.

وظاهر الحال في الآية الكريمة يقتضي أن تأتي بدون (إنّ) لأن مريم كانت خالية الذهن مما بشرت به، وهو الضرب الابتدائي، لكن عُدل عنه إلى الضرب الطلبي لاعتبارات خاصة منها:

(أ) نزول الملائكة على مريم؛ فالملائكة لا تنزل في الأمور السهلة.

(ب) استقطاب الملائكة لها بندائهم الهادر عليها، نفهم ذلك من (يا) الدالة بأصل وضعها على نداء البعيد، فما كانت مريم خارج دائرة الصوت وقت مناداتهم عليها بل في بؤرتها.

ها هي ذات بين أيدي الملائكة وها هم أولاء يصبون اسمها في أذنيها.

(جـ) ما آل إليه حال مريم نتيجة الأمرين السابقين من قلق نفسي وتوتر عصبي.

(د) الخبر الملقى عليها مظنة الشك فيه للإبغات به ولذاته، ولا عجب؛ فهو من نوع «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً».

ومجيئه طلبياً لا إنكارياً دليل على مراعاة الله لظروف مريم من جهة، وعلى حسن ظنه بها من جهة والله أعلم.

- ١٠ -

«ويعلمه الكتاب والحكمة والإنجيل. ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» [الآيتان ٤٨، ٤٩ من سورة آل عمران].

* * *

(ورسولاً): أي ويجعل الله عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، وهو عطف على (ويعلمه الكتاب) في صدر الآية السابقة.

والشاهد هو الخبر المتمثل في قول الله تعالى «إن في ذلك لآية لكم».

فقد نزل الله المقرين به منزلة المنكرين له فأكده بثلاثة مؤكدات هي: (إنَّ) و(اللام)، و(القصر) بتقديم ما حقه التأخير، وهو الضرب الثالث من المجال الثاني فيما سبق.

والسبب البلاغي في ذلك أن الخبر مسبوق بأربعة أدلة على صدق رسالة عيسى، ولما كانت هذه الأدلة بالغة القوة، ناسب أن يعقبها خبر في مثل قوتها طرداً للباب على وتيرة واحدة هذا أولاً.

أما ثانياً: فهو أنه إذا كان اليهود لا ينكرون معجزات عيسى قولاً، فإنهم لم يرتبوا على عدم إنكارهم هذه المعجزات ما كان منتظراً منهم وهو الإيمان بعيسى فعلاً.

وقد جعل الله هذا السلوك منهم بمثابة إنكارهم رسالة عيسى قولاً وفعلاً معاً والله أعلم.

- ١١ -

«ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» [الآية ١٧٨ من سورة آل عمران].

الإملاء للكافرين هو تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطوال ليرعى كيف شاء، أو هو إطالة أعمارهم[١١].

والمعنى الكلي للآية هو: لا يظن الكافرون أن إطالتنا أعمارهم مع إمهالنا لهم بدون عقاب خير لهم، فنحن بتفسيح المدة وترك المعاجلة بالعقوبة نريد أن تزداد ذنوبهم ليزداد تبعاً لذلك عقابهم، وكان مقتضى ظاهر الحال أن يؤكد الله ما توعدهم به من العذاب المهين أشد توكيد، ليمضي السياق في مساره المحلق بلا الناهية وبنون التوكيد الثقيلة وبأنَّ المؤكدة وبالقصر وبزيادة الإثم، لكنه سبحانه نزل به عما كان متوقعاً له فقال: «ولهم عذاب مهين» هكذا بمؤكد واحد هو القصر بتقديم الخبر على المبتدأ علماً بأنهم ينكرون أنهم سيعذبون ذهاباً منهم إلى أنهم لو كانوا سيعذبون ما أملى الله لهم.

والسر البلاغي في تحول السياق من الشدة إلى اللين أن الله تعالى قد وكل الكافرين إلى عقولهم، فلو فكروا لعلموا دون تأكيد ما أن عذاباً مهيناً ينتظرهم جزاء كفرهم.

وبهذا يكون الله قد نزل من ينكر مضمون الخبر منزلة الشاك فيه وهو الضرب الحادي عشر من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٢ -

«وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم

سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم. وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم»

[الآيات ١٠١ ـ ١٠٣ من سورة التوبة]

في الآيات الثلاث يخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعامة ومحمداً ﷺ بخاصة أن من الأعراب المحيطين بالمدينة ومن أهل المدينة نفسها منافقين مردوا على النفاق أي لجوافيه وثبتوا عليه. هؤلاء سيعذبهم الله مرتين أي نوعين من العذاب في الدنيا ثم يردون إلى عذاب عظيم في الآخرة.

وعدا المنافقين خارج المدينة وداخلها يوجد المؤمنون الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لانفاقاً بل كسلاً ثم ندموا على ما فعلوا، يقول الله في شأنهم: «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول فيما كان من الغزوات قبل تبوك بتخلفهم عن تبوك.

هؤلاء «عسى الله أن يتوب عليهم».

قال الطبري: «عسى من الله واجب ومعناه: سيتوب الله عليهم ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي».

وقد علل سيد قطب قول الطبري «إن عسى من الله واجب» بأنه «رجاء من يملك الرجاء سبحانه»(١٢) وكأن المخاطبين بما سبق وهم المسلمون والرسول حالياً والمسلمون والمسلمات مستقبلاً، أقول: كأن هؤلاء وأولئك حاك في صدورهم أو سيحيك ما جعل الله ينزلهم منزلة المتسائلين عن السر في أن يتوب الله على المتخلفين وهم مذنبون، فأجاب عن التساؤل المفترض بقوله: «إن الله غفور رحيم» هكذا بمؤكدين هما (إن) و(اسمية الجملة).

وبهذا التأكيد كان الإخبار بأن الله غفور رحيم مما جاء على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين لأن مقتضى ظاهر حالهم هو عدم التأكيد لهم.

وتصفية لموقف المتخلفين عن غزوة تبوك من أية شائبة، ورغبة في أن تعود صحفهم إلى سابق بياضها أمر الله رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم كي يلحقوا بإخوانهم الذين حضروا تبوك.

قال ابن جرير: «حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم، فأتوا بها رسول الله ﷺ فقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصلِّ علينا، يقولون: استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله ﷺ: لا آخذ منها شيئاً حتى أُومر، فأنزل الله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم»، يقول: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا، فلما نزلت الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق به عنهم»(١٣)

وكما نرى لم يقصر الله سبحانه وتعالى طلبه من محمد ﷺ على أخذ بعض أموالهم، بل أضاف إليه الصلاة عليهم.

وإذا كان سبب النزول ظرفاً للطلب الأول، فإن الأمر بالصلاة زائد على هذا الظرف وغير داخل فيه لسبب واضح هو أنه لم يكن وارداً على ذهن الرسول ﷺ، وبناءً عليه لم يكن الرسول ﷺ متوقعاً له، ومن شأن هذا السبب بشقيه أن يجعل الرسول ﷺ غير متوائم نفسياً مع أمر الله له بالصلاة عليهم.

وليتم هذا التواؤم جيء بالمؤكدين (إن) و(اسمية الجملة) في «إن صلاتك سكن لهم» كما جيء بهما في «إن الله غفور ورحيم» وهما لذلك من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المتردد فيه وهو الاحتمال الرابع من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ١٣ ـ

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم»

[الآيات ٦٢ ـ ٦٤ من سورة يونس]

الولي بنص الآية الثانية هو المؤمن التقي، قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم وما أعمالهم، قال: هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(١٤).

ونقف من الآيات الثلاث وقفتين: الأولى مع الآية الأولى، والثانية مع صدر الآية الثالثة أما الآية الأولى فهي خبر ضربة إنكاري؛ لأنه مؤكد بثلاثة مؤكدات هي (ألا) الاستفتاحية و(إنَّ) و(استغراق النفي بلا المكررة)، لكأن المخاطبين بهذا الخبر في غاية الإنكار له وفي منتهى الرفض لمضمونه، علماً بأنه لذاته، والخلوّ أذاهنهم من مضمونه قبل قوله، كان خليقاً أن يُساق مرسلاً كأن يُقال: أولياء الله لا يخافون ولا يحزنون. أو: لن ينال الخوف ولا الحزن أولياء الله. فلما ذا عُدل عن ذلك إلى الضرب الإنكاري؟ نجيب بأن المسألة مسألة مصير، ومن تأصيلها أنها نتيجة للإيمان وللتقوى.

أجل: إنهما ذكرا بعدها، لكن على أنهما سببها والمسوغ لها، ولا ننسى أن إضافة الأولياء إلى الله تستدعي أسلوباً يحدد هويتهم ويؤكد خصوصيتهم وينسجم في النهاية مع ما قرره الله لهم من دعة وأمن، ومن فرح وسرور.

والآية لهذا من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر أو العالم به منزلة منكره، وهي لذلك تتردد بين الضربين الثالث والخامس من الاحتمالات السابقة.

وأما صدر الآية الثالثة (لهم البشرى) فلفخامته وعظمته، ولسعة رقعة البشارة به في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قد أوشك على تجاوز المتوقع، وصار مظنة ألاَّ يُصدق.

ولأنه قد أوشك على تجاوز المتوقع، وصار مظنة ألاَّ يُصدق، كنا ننتظر أن يأتي مؤكداً بأكثر من مؤكد، لكنه أتى شبه مرسل.

ويمكن القول لهذا بأن التصور الوهلي لنموذجنا المزدوج قد جاء معكوساً هكذا:

ما كان متوقعاً أن يأتي مرسلاً جاء مؤكداً بثلاثة مؤكدات في الآية الأولى، وما كان متوقعاً أن يأتي مكثف التوكيد جاء شبه مرسل في الآية الثالثة، وإذا كنا قد عللنا الشق الأول، فإن من تعليل الشق الثاني أن نقول: إن الله بملكه وملكوته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يشق عليه أمرٌ ما ــ حاشاه ــ من أمور الدنيا أو الآخرة، وبحسبه في وعده لأوليائه أن يقول: «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» هكذا بأسلوب القصر وكفى؛ اعتماداً على ما هو مستقر في أعماق المؤمنين من أن الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، وهو الضرب الحادي عشر من الاحتمالات السابقة، والله أعلم.

ـ ١٤ ـ

«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا؛ إنهم مغرقون» [الآية ٣٧ من سورة هود].

«إنهم مغرقون» في الآية الكريمة خبر أتى على خلاف ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب به وهو نوح عليه السلام؛ لأنه كان خالي الذهن من مضمون الخبر، لكن لما نهاه الله عن أن يتشفع لديه لقومه، توجّس خيفة وتردد حدسه بين نزول العذاب بهم ونجاتهم؛ وقد كان هذا التردد في جوانية نوح سبباً في أن يلقى الله عليه الخبر مؤكداً بمؤكدين هما (إنَّ) و(اسمية الجملة) وصولاً به إلى استقراره النفسي، وإشباعاً لغريزة حب الاستطلاع عنده.

وبهذا يكون خالي الذهن من مضمون الخبر قد نزل منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٥ -

«وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم»

[الآية ٥٣ من سورة يوسف]

الآية الكريمة مما أجراه الله على لسان يوسف عليه السلام، وجملة «إن النفس لأمارة بالسوء» خبر جار على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين به.

بعد إدلال يوسف بعفته في قوله: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب»، وبعد توجهه إلى ما يشبه التشفي من خصمه بقوله: «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» قال: «وما أبرىء نفس».

ولما كان هذا القول مظنة إنكارٍ ممن يسمعه لأنه هو الطرف الآخر لما قبله، عقب عليه بقوله: «إن النفس لأمارة بالسوء» هكذا بأربعة مؤكدات هي (إنَّ) و(اللام) و(صيغة المبالغة) و(اسمية الجملة) والخطاب بعد موجه إلى خالي الذهن منه، أي إلى من لم يكن يعلمه، فهو من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٦ -

«وإلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون»

[الآية ٢٢ من سورة النحل]

بعد أن تهكم الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية بالأصنام المعبودة من دونه قال: «وإلهكم إله

واحد » هكذا دون تأكيدٍ ما مع أن المخاطبين به هم المنكرون المستكبرون، ثم هم المتعجبون من أن محمداً ﷺ قد جعل الآلهة إلهاً واحداً.

وقد صدر الله سبحانه في هذه الآية عما صدر عنه في الآية الثانية من سورة البقرة فالموقف هنا وهناك أوضح من أن يحتاج إلى دليل، والأمر فيهما ومعهما كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

والآيتان لهذا تنضويان تحت الضرب العاشر من أضرب الخبر الجارية على خلاف مقتضى الظاهر وهو الخاص بتنزيل منكر الخبر منزلة خالي الذهن منه، متى كان عنده أو حوله ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره دون تدخل بلاغي والله أعلم.

- ١٧ -

«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً»

[الآية ٢٩ من سورة الكهف]

الآية الكريمة مما نزل في عيينة بن حصن ورفاقه، أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي وعليه شملة صوف قد عرق فيها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟!! ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس، قالوا: فَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فلما نزلت الآية التي تسبق آيتنا وهي: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا».

أقول: لما نزلت هذه الآية والآية التي معنا وآيتان بعدهما خرج رسول الله ﷺ يلتمس الفقراء، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمدلله الذي جعل من أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم.

والشاهد في آيتنا هو قول الله تعالى: «إنا اعتدنا للظالمين ناراً، فهو خبر جار على خلاف مقتضى ظاهر الحال؛ لأنه إن كان موجهاً إلى رسول الله فرسول الله يعلم مسبقاً أن الله أعدّ للظالمين ناراً، وإن كان موجهاً إلى عيينة ورفاقه، فعيينة خالي الذهن من مضمون الخبر وكذلك رفاقه.

وسواء كان هذا أو ذاك، فظاهر الحال في هذا أو ذاك يقتضي إلقاء الخبر مرسلاً غير مؤكد لكن الله سبحانه وتعالى أتى به مؤكداً بمؤكد واحد؛ تنزيلاً للعالم بمضمون الخبر (محمد ﷺ) أو الخالي الذهن منه (عينية...) منزلة الشاك فيه. لماذا؟.

لأنه سبحانه قد قاله على سبيل التهديد والوعيد لعيينة وجماعته، في غير قليل من السخط وفي غير قليل من الغضب أمر الله رسوله أن ينهي إلى المتغطرسين من قومه أن ما جاء به من الدين إنما هو الحق من ربهم خالق الفقراء وخالقهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لكن دون تشرط، ولم يكن ملائماً للسخط كما لم يكن ملائماً للغضب أن يجيء التهديد والوعيد دون تأكيد. والآية قبل وبعد تتردد بين الاحتمالين الثاني والرابع من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٨ -

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم»

[الآية (١) من سورة الحج]

الآية الكريمة من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له.

والسبب في ذلك أن الله تعالى بدأ فأمر الناس ـ كل الناس ـ بتقواه، ولما كان كثير منهم يعصونه أو ينتظر منهم ذلك، فقد ثنى سبحانه بالجملة الخبرية المهولة بما اشتملت عليه وأبرزته وهو أن زلزلة الساعة شيء عظيم، وناسب هذا النسق الجاد الصارم أن تسور الجملة بمؤكدين يرسخان معناها ويجعلان احتمال التراجع عن التهديد بها أمراً غير وارد والله أعلم.

- ١٩ -

«وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور»

[الآية ٦٦ من سورة الحج]

يكثر في سورة الحج الضرب الإنكاري الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين به كقوله سبحانه قبل الآية ٦٦:

«وإن الله على نصرهم لقدير» [من الآية ٣٩].

«إن الله لقوي عزيز» [من الآية ٤٠].

«وإن الظالمين لفي شقاق بعيد» [من الآية ٥٣].
«وإن الله لهو خير الرازقين» [من الآية ٥٨].
«وإن الله لعليم حليم» [من الآية ٥٩].
«إن الله لعفو غفور» [من الآية ٦٠].
«وأن الله سميع بصير» [من الآية ٦١].
«وأن الله هو العلي الكبير» [من الآية ٦٢].
«وإن الله لهو الغني الحميد» [من الآية ٦٤].
«إن الله بالناس لرؤوف رحيم» [من الآية ٦٥].

«وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور».
والآية الأخيرة هي موضوع هذه الفقرة.

لقد أوجز سبحانه وتعالى قصة الحياة والموت والبعث أبلغ إيجاز وأوردها في ثلاث كلمات كل كلمة منها عالم قائم بذاته ومرحلة ممتدة في الزمان والمكان بمقدار الزمان والمكان.

أحياكم أعماركم وأعاشكم إياها، ثم يميتكم ويبقيكم في قبوركم إلى أن تقوم الساعة للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب.

والمراحل تمضي متراخية، فواصلها (ثم)، والمخاطبون بها لا يستشعرونها، ولأنهم لا يستشعرونها فإنهم لا يشكرون الله عليها، لكأنهم يجحدونها.

ومن هنا كان تصعيد الخبر من الضرب الابتدائي إلى الضرب الإنكاري؛ تنزيلاً لخالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره.

وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٠ -

«ثم إنكم بعد ذلك لميتون» [الآية ١٥ من سورة المؤمنون].

بعد أن سرد الله تعالى مراحل خلقنا وأطوار نشأتنا عطف على ذلك بقوله «ثم إنكم بعد ذلك لميتون» هكذا بثلاثة مؤكدات هي (إن) و(اللام) و(اسمية الجملة)، مع أن الموت مسلم به من كل

الناس، لا ينكره أحد ولا يماري فيه، وكيف ينكره أو يماري فيه وهو يعانيه من حوله وفي أهله وذات يوم في نفسه.

لكن الناس مع ذلك ينسون أنهم سيموتون، فيتصرفون كأنهم مخلدون، ولهذا كثف الله لهم التوكيد، وهذا التكثيف من قبيل تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الثالث من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ٢١ ـ

«ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» [الآية ١٦ من سورة المؤمنون].

بعد الآية السابقة وهي آية الموت، أتت هذه الآية وهي آية البعث.

وإذا كان الموت مسلماً به من جميع الناس، فإن البعث ليس كذلك، وكان مقتضى هذا أن تؤكد آيته أكثر من تأكيد آية الموت، لكن الله تعالى قد رأى أن يكل الناس في هذه القضية الشائكة إلى عقولهم، عساها تخلخل إنكارهم وتحركه من نقطة النهاية إلى نقطة الوسط، وتفاعل لهم بذلك فخاطبهم وهم منكرون على أنهم شاكون.

والآية لهذا من الضرب الحادي عشر والله أعلم.

ـ ٢٢ ـ

«وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون» [الآية ٧٤ من سورة المؤمنون].

المتحدث عنهم في الآية الكريمة لا يؤمنون بالآخرة ولا يعترفون مع عدم إيمانهم بها أنهم ناكبون عن الصراط المستقيم، بل هم من وجهة نظرهم مستقيمون، وإذا كان هذا حالهم فقد كان يكفي الإخبار عنهم بالضرب الابتدائي، لكن الله سبحانه وتعالى نزلهم منزلة المنكرين، وتحدث عنهم بالضرب الإنكاري تمشياً مع السياق الذي بدأ بمخرقتهم والتشنيع عليهم بأنهم ينظرون إلى الرسول ﷺ وكأنه ينتظر أجراً منهم على موالاته دعوتهم إلى الإسلام (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين).

وهذا كمن يشنع على قوم بفساد الاعتقاد ثم يعقب على ما ذكره بقوله: «إن هؤلاء لضالون» علماً بأنهم يصدرون في معتقدهم عن موروث خاص بهم يجعلهم لا يشعرون بأنهم مخالفون إلى درجة الشذوذ، وهو من الضرب الخامس في الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٣ -

«قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور» [الآيتان ١، ٢ من سورة المجادلة].

غضب أوس بن الصامت على زوجته خولة بنت ثعلبة فظاهر منها أي قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ولما كان هذا الظهار يحرِّم الزوجة على زوجها ولكنه لا يطلقها منه أي يدعها معلقة فقد تضررت خولة منه وأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله. إن أوساً ظاهر مني فما ترى؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه، لم تقتنع خولة، وأخذت تجادل الرسول وتقول له: ما طلقني يا رسول لكنه ظاهر مني، فيعيد الرسول ﷺ عليها قوله السابق، ولم تملك خولة أن قالت: اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة رضي الله عنها وكانت بحيث تسمع: فما برحت حتى نزل جبريل بالآيات من أول سورة المجادلة.

والشاهد في قوله تعالى «وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً» وفي قوله تعالى: «إن الله لعفو غفور»،فهما من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره بتأكيده مرتين في الشاهد الأول وثلاث مرات في الشاهد الثاني؛ تهويلاً على المظاهرين، وردعاً لهم، وتمهيداً من الله سبحانه وتعالى لرفع الظلم الواقع على الزوجات المظاهر منهن بما سيقوله جل شأنه في الآيتين الثالثة والرابعة من السورة، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٤ -

«إن ربك لبالمرصاد» [الآية ١٤ من سورة الفجر].

بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة على هذه الآية من سورة الفجر ما فعل بعاد وثمود وفرعون، وهو أنه سبحانه قد صب عليهم سوط عذاب، عقَّب ـ جلت قدرته وعظمت حكمته ـ فقال محذراً ومنذراً «إن ربك لبالمرصاد» هكذا بمؤكدين هما (إنَّ) و(اللام) أي بالضرب الإنكاري، مع أن محمداً ﷺ وهو المخاطب بـ«ألم تركيف فعل ربك بعاد»، وبالكاف في «وصب عليهم ربك سوط عذاب» وفي «إن ربك لبالمرصاد». محمداً صلى الله عليه لا ينكر ولا يمكن أن ينكر أن ربه بالمرصاد لعاد وأمثال عاد إلى أبد الآباد.

ما السبب إذن في العدول بالخبر من الضرب الابتدائي وهو ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب إلى الضرب الإنكاري وهو ما اقتضاه خلاف هذا الظاهر؟ أقول:

لعل السبب في ذلك أن الخبر موجه بظاهر مبناه إلى محمد ﷺ، وبباطن معناه إلى كفار مكة الذين يسيرون في الطريق نفسه الذي سارت فيه ثمود وعاد وفرعون ذو الأوتاد، وبناءً عليه يكون المقصود بظاهر اللفظ في الخبر قد نزل منزلة المقصود بباطن المعنى فيه، وقد سهل ذلك وساعد عليه وأزال أو على الأقل خفف الحرج منه أن مضمون الخبر في ذاته مقصود به التهديد والوعيد جنباً إلى جنب مع الإخبار، بل قبل الإخبار، وأكاد أقول لا الإخبار، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٥ -

«والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى».

[الآيات ١ ـ ٤ من سورة الليل]

الآيات الكريمة أسلوب قسم، وأسلوب القسم ينقسم إلى مقسم به ومقسم عليه، والشاهد هنا في المقسم عليه وهو: «إن سعيكم لشتى» أي مختلف، فضربه إنكاري، علماً بأن المخاطبين به لم يكونوا يعرفون قبل ذكره على أيِّ شيء يقسم الله بالليل والنهار وخلق الذكر والأنثى.

وكان ظاهر حالهم يقتضي أن يساق الخبر لهم مرسلاً غير مؤكد أي ابتدائياً، لكن الله سبحانه ساقه إنكارياً مؤكداً بثلاثة مؤكدات هي (إن) و(اللام) و(اسمية الجملة).

ونبحث عن السبب البلاغي في ذلك فنجد أمرين يمكن الوقوف عندهما:

الأمر الأول يتصل بالمقسم به، والمقسم به هنا تركيب كوني عجيب وحداته الليل والنهار وكل ما يدخل في حوزتهما أو ينبثق عنهما ذكراً كان أو أنثى.

والأمر الثاني يتصل بالمقسم عليه وهو تنوع سعي البشر ما بين خير له ثواب، وشر عليه عقاب.

ولم يكن منتظراً في زحمة عظمة المقسم به والمقسم عليه أن يأتي الخبر عادياً يقال أو يكتب بلا عناء، ويُسمع أو يُقرأ بلا تدبر، بل لا بدَّ له وفيه من مؤكدات تريشه ليصل إلىَ أعمق العمق من قارئه أو سامعه مهما كان موقفه منه أي بصرف النظر عن ذلك، وهذا ما كان، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٦ -

«كلا إن الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى. إن إلى ربك الرجعي»

[الآيات ٦ ـ ٨ من سورة العلق]

من الموضوعات التي عالجتها سورة [العلق] وتسمى أيضاً سورة [اقرأ] موضوع طغيان الإنسان حين يجد نفسه مستغنياً بالمال عن السؤال، والآيات التي معنا نص في هذا المعنى، فبدلاً من أن يشكر صاحب المال ربه الذي يسره له تجده قد نسيه وجحد فضله، لكأنه لم تعد له حاجة به أو إليه على حد قول الشاعر:

صلى وصـــام لأمـــر كـــان يـطـلـبـــه فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما

هذا التنكر لله بالسلوك المنحرف عن الله، وسّع الله معناه وجعله كذلك تنكراً بالجنان واللسان وبناءً عليه خاطب صاحبه خطاب غير المعترف بالبعث، وبما سيكون بعد البعث من لقاء الله للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، وقد اقتضاه ذلك أن يؤكد له الخبر ـ وهو المقرُّ به ـ بمؤكدين هما: [إنَّ] و[القصر] بتقديم ما حقه التأخير: خبر إنَّ [إلى ربك] على اسمها [الرجعي] تنزيلاً للعالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له، وهو الضرب الثالث من الاحتمالات السابقة، وتخريج الآية لهذا هو تخريج بيت حجلة بن فضلة.

جـــاء شـــقـــيق عـــارضـــاً رمحه إن بني عمك فيهم رمـــــاح

والله أعلم.

- ٢٧ -

«قل يأيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين»

[سورة الكافرون]

الآيات من ٢ ـ ٦ في هذه السورة ضربها ابتدائي، وهي تتردد بين طرفين وتدور حول محورين:

المحور الأول وهو هو الطرف الأول: أن النبي ﷺ لا ولن يعبد ما يعبد كفار مكة من الأصنام.

والمحور الثاني وهو هو الطرف الثاني: أن كفار مكة لا ولن يعبدوا ما يعبد محمد ﷺ وهو الله سبحانه وتعالى.

جاء إعلان المحور الأول الذي هو الطرف الأول في الآية الثانية من السورة الكريمة في صيغة جملة فعلية منفية [لا أعبد ما تعبدون] وتم توكيده لفظياً بالآية الرابعة من السورة الكريمة في صيغة جملة اسمية [ولا أنا عابد ما عبدتم] جمعاً بين التجدد المستفاد من الجملة الفعلية والثبوت المستفاد من الجملة الاسمية.

وجاء إعلان المحور الثاني الذي هو الطرف الثاني في الآية الثالثة من السورة الكريمة بصيغة الجملة الاسمية ابتداءً [ولا أنتم عابدون ما أعبد]، وتم توكيده هو هو توكيداً لفظياً محضاً بالآية الخامسة من السورة الكريمة [ولا أنتم عابدون ما أعبد] وهي الجملة الاسمية السابقة نفسها؛ إيماءً إلى أنهم قد ألغوا عقولهم من أول الأمر قولاً واحداً.

* * *

ونلتفت نحن يمنة إلى محمد ﷺ ودينه وموقفه.

ثم نلتفت يسرة إلى الكفار ودينهم وموقفهم، فلا نجد بارقة أمل في لقاء توهمه الكفار ممكناً بقبول محمد العرض الذي عرضوه عليه وهو سبب نزول هذه السورة قال المفسرون:

إن قريشاً طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً، فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه [١٥].

وما فعله محمد ﷺ هو الصواب أولاً، وإنه لمأمور به من الله ثانياً وحاشاه أن ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، علمه شديد القوى.

أجل فالشرك شرك والتوحيد توحيد ولن يلتقيا؛ لأنه لا يصح إلا الصحيح، والصحيح فيما نحن فيه هو الخروج من الشرك جملة والدخول في التوحيد جملة، أو كما قال سيد قطب «هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه، لا ترقيع ولا أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام أو ادعت هذا العنوان» [١٦].

* * *

بقيت القفلة أو الخاتمة متمثلة في الآية الأخيرة من السورة الكريمة (لكم دينكم ولي دين) وإذا

كانت الآيات السابقة قد أكدت نفسها داخل حدودها بتكررها كما هي جملة اسمية في حالة الكافرين، وبتكررها مراوحاً فيها بين الجملتين الفعلية والاسمية في حالة محمد ﷺ، فقد كان مقتضى ذلك، وبعبارة بلاغية أدق: مقتضى ظاهر الحال في ذلك أن تأتي الآية الأخيرة قاطعة للحوار المثار قبلها وأن تصعد إلى أفقها الذي توقعناه لها على سلم من التوكيد المكثف كأن تكون «إن لكم دينكم وإن لي ديني» أو «إن لكم لدينكم وإن لي لديني» ونحو ذلك، تكبيراً للصورة وإبرازاً لملامحها. لكن مقتضى ظاهر الحال شيء، ومقتضى الحال نفسه شيء آخر، ولعلنا هنا أمام موقف من مواقف الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فقد راعى الله سبحانه وتعالى الحال الحقيقي وهو حال المخاطبين المدرك بالبصيرة، ولم يراع ظاهر حالهم المدرك بالبصر وبعبارة مختصرة: تعامل مع الجوهر ولم يتعامل مع العرض.

ومن المسلم به دينياً وتربوياً أن اللين يعقب الشدة، وأن الرفق يعقب العنف وأن الكلام بعده السكوت.

وقد جاءت آية «لكم دينكم ولي دين» بمثابة النقطة توضع في آخر الكلام دلالة انتهاء وعلامة وقوف.

هو الختام إذن؛ بل هو الفطام، وعلى الكافرين أن يتدبروا أمرهم فيما بينهم وحدهم وليس فيما بينهم وبين المسلمين، وأن يقرروا: يكونون أولاً يكونون.

و(لكم دينكم ولي دين) بذلك أو لذلك من تحول الضرب الطلبي أو الإنكاري إلى الضرب الابتدائي، وعلى وجه التحديد من تنزيل الشاك في مضمون الخبر أو المنكر له منزلة العالم به أو خالي الذهن منه، وهو بذلك يتردد بين الاحتمالين السادس والسابع في حالة الشك، والتاسع والعاشر في حالة الإنكار.

والله أعلم.

ـ ٢٨ ـ

«سيصلى ناراً ذات لهب» [الآية رقم ٣ من سورة المسد].

مع أن السورة مبدوءة بجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ قصداً للدعاء على أبي لهب.

وإذا كان من المفسرين من ذهب إلى أن الجملة الثانية (وتب) خبرية لفظاً ومعنى بدليل قراءة ابن

مسعود لها (وقد تب) فإنني أرى أنها هي أيضاً خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ قصداً للدعاء على أبي لهب جملة، والمعنى على هذا: قطع الله يديه وقطعه.

ومع أنه يمكن لنا جعل (تبت يدا أبي لهب) مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، إلا أن الوقوف بالجملة عند الدعاء على اليدين وحدهما ممكن، ونبرره بأن يدي أبي لهب كانتا تصحبان بل تسبقان لسانه في إيذاء المصطفى ﷺ.

ولا ننسى أن اسم السورة يتردد بين أن يكون (المسد) و(اللهب) و(تبّ) وقد تحدثتْ عن عدو الله أبي لهب وامرأته حمالة الحطب بما لونزل على جبل وعقل الجبل لمات من الكمد.
مع ما سبق وعلى الرغم منه نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد جعل آيات السورة بعد الآية الأولى وربما بعد الجملة الأولى خبرية أولاً ومن الضرب الابتدائي ثانياً.

والسبب البلاغي في ذلك إنما هو تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به أو خالي الذهن منه؛ فأبو لهب لو أعمل عقله فيما يتمرس به من إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم لعلم أن عمله هذا مما لا يمكن قبوله ديناً أو عرفاً، ولتأكد وحده دون تدخل من جانب صاحب الخبر وهو الله سبحانه من أنه سيصلى حتماً ناراً ذات لهب، والخبر لهذا مما يمكن التمثيل به للضربين التاسع والعاشر من الاحتمالات السابقة والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّمْ.

●●●

• الهوامش •

١ - مفتاح العلوم ص ٧٨ الطبعة الأولى. مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.
٢ - الآيات: ١٣ - ١٦ من سورة يس.
٣ - مفتاح العلوم ص٨٢.
٤ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦م.
٥ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح جـ٣ ص١٥ الطبعة الأولى ١٣١٨هـ.
٦ - مفتاح العلوم ص٨٢.
٧ - ديوان الفرزدق جـ٢ ص ص١٧٨ - ١٨١ طبعة سنة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

٨ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م جـ١ ص١٧٩، ولا تكون الجملة الاسمية مؤكدة على سبيل الاستقلال، بل بالتبعية لغيرها من المؤكدات الكثيرة الأخرى، فإن كان هناك مؤكد آخر، جُعلتْ اسمية الجملة من المؤكدات، وإلا فلا.

وإنما كانت اسمية الجملة مؤكدة، لأنها تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء، وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار، وهاتان الإفادتان مشروطتان بأن يكون خبرها مفرداً أو جملة اسمية، فإذا كان خبرها جملة فعلية أو شبه جملة لم تكن مؤكّدة، وانظر [البلاغة الاصطلاحية] للدكتور عبده قلقيله ص: ١٣٦ ومابعدها طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٧م.

٩ - صفوة التفاسير جـ١ ص٨٩ ط (١) ١٤٠١هـ ١٩٨١م دار القرآن الكريم - بيروت.

١٠ - في ظلال القرآن - المجلد الأول ص١٢٩ ط (١٢) شركة دار العلم للطباعة والنشر بجدة ودار الشروق للطباعة والنشر بالقاهرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

١١ - الكشاف جـ١ ص٤٨٢.

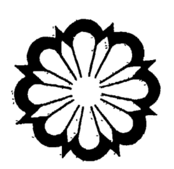
١٢ - الطبري ١١ / ١٢ وصفوة التفاسير ٥ / ٤٥ وفي ظلال القرآن ٣ / ١٧٠٧هـ.

١٣ - في رواية أنهم ثلاثة وفي رواية أنهم سبعة وفي رواية أنهم عشرة وأن ثلاثة منهم لم يربطوا أنفسهم وانظر ص١٧٠٨ من «في ظلال القرآن» المجلد الثالث.

١٤ - الطبري ١١ / ١٣٢ وصفوة التفاسير ٥ / ٧٤.

١٥ - صفوة التفاسير جـ٢٠ ص١١٢.

١٦ - في ظلال القرآن - المجلد السادس ص٣٩٩٢.



رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز

ترجمة وتحقيق وتعليق د./ أحمد بن عمر الزيلعي

مقـدمـة المترجـم

نشر هذا البحث عام ١٩٤٧م في مجلة عالمية معروفة، هي المجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن. وهي من إعداد الأستاذ وَلْفِرِد ثِسِيجَر، آخر عظماء الرحالة البريطانيين في البلاد العربية. ولد السيد ثسيجر في أديس أبابا عام ١٩١٠م، وتعلم في ايتون واكسفورد، وعمل، بعد تخرجه، في السودان، والحبشة، وسوريا، ثم في الصحراء الغربية. ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية، استهوته الرحلات والمغامرات، فقام برحلات عديدة إلى أقطار مختلفة، ومنها الجزيرة العربية، حيث قطع الربع الخالي مرتين في الفترة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٤٨م. وتسنّى له في عام ١٩٤٥م وفي العام الذي يليه، القيام برحلة عبر تهامة وعسير، وجبال الحجاز، كانت نتيجتها هذا البحث الذي يقدم اليوم للقارىء العربي. وهو وصف دقيق حقاً للمجتمعات التي زارها، وتسجيل وثائقي للأوضاع المعيشية لأفراد هذه المجتمعات، وكذلك أنظمة حياتهم المختلفة، بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم، ونظام أسواقهم، والسلع التي تباع في هذه الأسواق، ونظم الزراعة والرعي، والحاصلات الزراعية، والحركة التجارية، والطرز المعمارية، ووصف البيئة النباتية والحيوانية والطبيعية، بما في ذلك وصف وتحقيق أسماء الأمكنة، والجبال، والأودية، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أي دارس لهذه المنطقة التي لم تلق عناية كبيرة من قبل الدارسين. وفوق هذا، فقد كان هذا الرحالة دقيقاً في وصفه، وأميناً في تصوير المجتمعات التي زارها، وبعيداً إلى حدّ ما عن التعصب، والسخرية والتعالي الذي يتصف به بعض الرحالة الذين سبقوه.

وكان لعمله في بعثة مكافحة الجراد، وحصوله على إذن من جلالة الملك عبدالعزيز، كما يتضح من خاتمة هذا البحث، الأثر الأكبر في إعطاء رحلته طابعاً رسمياً مكّنه من الإتصال بأمراء المناطق التي زارها، وسهل عليه حرية الإنتقال، والحصول على المعلومات التي يريدها. ومع هذا، فقد تجنب وصف موائد الطعام، واستقباله من قبل هؤلاء الأمراء، أو الحديث عن نفسه ومغامراته كما يفعل كثير من الرحالة؛ وركز، بدلاً من ذلك، على نقل المعلومات العلمية

المجردة مما جعل عمله هذا - رغم قصره - رائداً، ومرجعاً لدارسي المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة بمختلف تخصصاتهم.

وقد روعي في منهج الترجمة استخدام بعض المصطلحات المحلية، ومن ثم شرحها في الهوامش حتى يسهل على القراء فهمها، ولاسيما أولئك الذين لا ينتمون إلى البيئة التي يتناولها هذا البحث. كما روعي بقدر الإمكان الحرص على أمانة النقل باستثناء إضافات طفيفة وضعت بين خاصرتين [ ]، وكذلك المحافظة على تعليقات المؤلف التي جاءت في إحدى وعشرين حاشية، حيث تمت ترجمتها وإثباتها ضمن التسلسل العام لحواشي التحقيق والتعليق مع وضع الحرف (م)، وتعني المؤلف، أمام الحاشية الأصلية في النص الإنجليزي، وذلك لتمييزها عن الحواشي الأخرى التي وضعت من قبل المترجم.

ولم يقتصر هذا العمل على الترجمة إلى اللغة العربية فقط، بل تعدى ذلك إلى تحقيق النص، والتعليق على بعض معلوماته، بعد مقارنة هذه المعلومات بتلك التي وردت في المصادر والمراجع الميسورة عن بلاد عسير، والمناطق المجاورة لها. وقد تم تزويد هذا البحث بقائمة شاملة لأسماء هذه المصادر والمراجع حتى يسهل الرجوع إليها عند الحاجة. ومع ذلك فلن يخلو هذا العمل من هفوات أو سقطات يرجي أن يغفرها القارىء الكريم، والله ولي التوفيق..

في سنة ١٩٤٥م، وبعد أن أمضيت شهرين بين أهالي نجد المتمسكين بدينهم في شدة وصرامة، مررت سريعاً عبر تهامة من جدة إلى جيزان. ومنذ ذلك الحين، ظلت تطاردني ذكرى هذا الشعب اللبق البشوش، وبقيت هذه اللمحة الخاطفة حلماً يراودني حتى سنحت لي الفرصة في سنة ١٩٤٦م، عندما اضطررت تحت وطأة حرارة الصيف إلى مغادرة الربع الخالي، والعودة مرة أخرى إلى تلك السلالة المحببة.

وبحكم عملي في وحدة الشرق الأوسط لمكافحة الجراد، قطعت خلال شهور ابريل ومايو ويونيه ٩٥٠ ميلاً، تنقلت أثناءها في تهامة، وعسير، وجبال الحجاز، من القنفذة حتى حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، ثم إياباً من أبها إلى الطائف[١م].

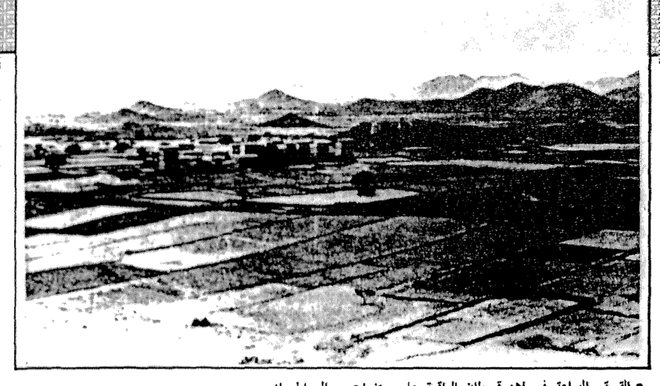
بدأت رحلتي من وادي الأَحْسبة، إلى الشمال من القنفذة[٢]، وكان بصحبتي أحد أخويا الإمارة، وهو شاب من الأشراف، وجمّالان، وأربعة من الجمال المستكراة التي تسير، حسب العرف السائد في تهامة، ورؤوسها مقطورة إلى ذيول بعضها البعض، حيث لا يسمح لهذه الجمال بأن ترعى، بل إن أفواهها تكمم، بصفة مؤقتة، بسلال على هيئة شبكة، ذات فتحات[٣]، يقدّم من خلالها

بواسطة اليد، غذاء الجمال المكون من قصب الذرة الذي تحمله على هيئة حزمتين كبيرتين توضعان فوق الأحمال من الجانبين. وهي في الغالب لا تحصل على كفايتها من العلف لما في ذلك من الصعوبة وارتفاع التكلفة. وتستطيع جمال تهامة أن تنقل أحمالاً ثقيلة، ولكنها غير قادرة على الحركة فوق الصخور، وسرعان ما يصيبها الحفا عندما تسير على أرضية حجرية. وهي ترد الماء يومياً وأحياناً مرتين في اليوم عندما يكون الجو حاراً. ويسافر هؤلاء الأعراب ليلاً خلال الصيف، وعندما ينامون يتكورون فوق الأحمال وجمالهم تسلك الطريق دونما تردد[٤]. وبالرغم من حرارة الجو، إلا أنني رفضت السفر بعد الظلام لأن عملاً كهذا سيحول دون ملاحظاتي.

وفي طريقنا إلى المُخْوَاة، سلكنا وادي الأحسبة حيث يسكن الأشراف العبادلة في السهل الساحلي من هذا الوادي، ولكنه سرعان ما يدخل الطريق في منطقة صخرية وعرة، لا توجد فيها إلا قرى قليلة، وزراعة حقيرة. وكانت تقع أمامنا بمسافة بعيدة أصْدَار جبال الحجاز[٥]، وبالقرب منا تنتصب قمتان من الجرانيت يصل ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، هما شَدَا اليماني وشَدَا الشامي، وهما أحد المعالم البارزة التي يسهل التعرف عليهما من بعيد[٦]. وينمو شجر البن على هذين الجبلين، بالرغم من أنه لم يستنبت حتى الآن على سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة إلى الشمال منهما.

• العشش، نموذج من المساكن في تهامة عسير •





• القرية والزراعة في بلاد قحطان الواقعة على مرتفعات جبال الحجاز •

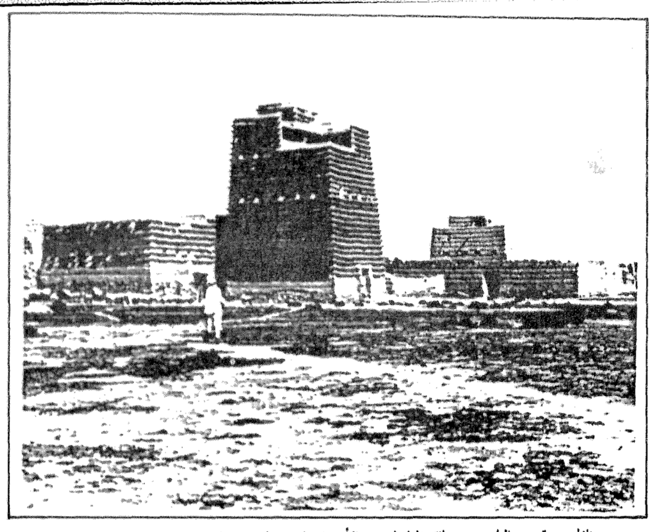
وتقع المُخْوَاة، بين شدا والأصدار في بقعة من الأودية المتشابكة، والتلال الوعرة المتوجة بأطلال القرى القديمة. وهي قرية بيوتها مبنية من الحجارة، وتتكون من دور واحد، وتقع في بلاد بني عُمَر [٧]، وتتبع مدينة الظَّفِيْر من الناحية الإدارية [٨]. ويعقد فيها سوق الخميس المهم [٩]، حيث تباع فيه الأبقار، والأغنام، والماعز، والحمير، وقليل من الجمال، وتباع فيه أيضاً الحبوب، والبن، والملح، والملابس، والأواني الفخارية، والحصر، والسلال، والحبال، والأرحية، والخضروات، والعسل والنباتات ذات الروائح الذكية. وتهبط إلى هذا السوق جموع غفيرة من قبائل غامد، وزهران الذين يلبسون جَنَابي [١٠] في أوساطهم، ويرتدون ثياباً فضفاضة، شغلت بأشكال مميزة من الخيوط الحمراء طبقاً للعرف السائد في جميع أنحاء الحجاز. وكثير من أفراد هذه القبائل حاسرو الرؤوس، توجت خصلات شعرهم بعصائب من النباتات الذكية الرائحة، بينما يلبس الآخرون صمائد وعقلاً قصبت بخيوط الذهب والفضة.

وعند مغادرتنا المخواة، سرنا عبر تلال جبلية ذات حوائط عمودية شديدة الإنحدار، يبلغ ارتفاعها فوقنا ٣٠٠٠ قدم. وهذه المنطقة تخص فخذاً من قبيلة غامد القوية التي يسكن معظمها في الجبال إلى الشرق من هذا الموقع [١١]، وتتناثر مزارعهم على طول وادي بَطَاط [١٢]، حيث اكتظت ضفتاه بالزراعة التي تروى من الآبار والسيول معاً. ثم اجتزنا وادي قَنُوْنَا إلى الوراء من بطاط، ودخلنا بلاد بَلْعُرْيَان [١٣]. وهي منطقة جرانيتية خصبة، يقوم على حراستها العديد من أبراج المراقبة. ووصلنا في اليوم التالي إلى مركز إمارة تُرَيْبَان الصغيرة حيث، احتفى بنا أميرها وأكرمنا [١٤]. ثم سافرنا من هنا في برد الصباح، وسط حشد من القرويين المتجهين على الحمير، والجمال المحملة إلى سوق الثلاثاء الواقع

على ضفتي وادي يَبَة، في وسط بيئة من التلال المكونة من الصخور الجرانيتية، حيث يكتظ هذا الوادي بأشجار النخيل. ورأينا هناك ثمة محاصيل ممتازة من الذرة، والسمسم، تسقى من جدول يتدفق في الوادي، حيث يقوم سوق عُمَارة [الذي يعقد كل يوم ثلاثاء](١٥). وعمارة قبيلة جذابة، تشبه أعراب تهامة، يلبس أفرادها مئآزر قصيرة من القماش، ويشد الواحد منهم جَنْبِيَّة على وسطه من الأمام. أما شعورهم الطويلة، فقد زينت بنباتات ذكية الرائحة، اشتريت من السوق لهذا الغرض. ويلبس معظم النساء وقليل من الرجال قبعات مصنوعة من الحصير، حيث تتميز قبعات الرجال بأن حوافها واسعة ومرتخية، أما قبعات النساء فهي قصيرة الحواف، ومتصلبة، وتيجانها مرتفعة(١٦).

وعندما اجتزنا الجدول، كان ثمة راع شاب، يشبه رمز الغابات أو الجمال عند الرومان، وقد ملأ بساتين النخيل بترديده لأنغام موسيقية شجية تنبعث من مزماره(١٧)، ثم دخلنا أرضاً مجدبة تتكون من الصخور النارية، والتلال الناتئة حيث توجد شجيرات متفرقة من السمر، ولو أنها عديمة الأوراق المزهرة. وتستمر هذه المنطقة المهجورة حتى وصلنا وادي خَاط(١٨)، ثم أراضي قبيلة حُمَيْضة الزراعية في بَارِق(١٩). وهي تشبه قبيلة عمارة ويسكن أفرادها في بيوت مستوية الأسقف، بنيت من الحجارة بشكل جيد، وهذه القبائل المستقرة تملك قليلاً من الجمال وبعض الأبقار، وأحجاماً جيدة من قطعان الضأن والماعز(٢٠)، ولكنهم أساساً مزارعون يقومون بزراعة الدخن والذرة سواء في سهول صغيرة تسقى عن طريق السيول، أو في بقع طينية في بطون الأودية. وإلى الوراء من آل حميضة، توجد قبيلة آل جَبَلِيْ، وهم يسكنون على ضفتي وادي آل جبلي، أحد روافد وادي حَلِيْ المهمة(٢١). وقد استطعنا أن نطوي هذا الوادي حتى نصل إلى وادي حلي الذي كنت تواقاً لتتبع مجراه حتى الشاطىء، لكي أزور أعراب تهامة الممتعين.

نحن الآن خارج المنطقة الزراعية، وبالتحديد في أرض البدو، وهذا الإصطلاح يستخدم هنا للدلالة على القبائل التي تعتمد أساساً على الرعي، وتسكن في المنطقة الوعرة الواقعة بين المرتفعات الجبلية، والسهل الساحلي، إنهم، وقبل كل شيء، رعاة قطعان الماعز، ولكنهم يملكون بعض الضأن، والبقر وقليلاً من الجمال، ويقومون بزراعة بقع صغيرة على طول ضفتي الوادي. ويسكن هؤلاء البدو في بيوت صغيرة من الحصر تعرف باسم الخدور. ولا يستطيع المرء أن يرى، في غرب جبال الحجاز، الخيام السوداء «بيوت الشعر» المعروفة في وسط الجزيرة العربية. وأثاثهم الوحيد قليل من الأسرة المُحَبَّلة بحبال من الحصير. وهؤلاء البدو هم رَبِيْعَة الطَّحَاحِيْن، ومُوسَيفِرَة، وبنو هلال، ومَنْجَحَة، وإلى الجنوب منهم فخوذ من بدو بني نُمَار، وشهران، وقحطان، وخولان، والرَّيْث(٢٢).



• برج ومنازل مبنية من الطين، ومغطاة بخطوط من الأحجار البارزة في بلاد قحطان •

وقد كانت لهؤلاء، في الماضي القريب جداً، سمعة سيئة كقطّاع طرق، وأهل عنف، ولكن تبدل هذا السلوك في الوقت الحاضر لهيبتهم من ابن سعود. ويلبس هؤلاء مئآزر قصيرة من القماش مصبوغة باللون، الأخضر، والأزرق، أو البني المشوب بحمرة. ويلبس النساء قبعات من القش قصيرة الحواف عالية التيجان.

ثم وصلنا إلى حلي على امتداد يعرف باسم حَلَوِيَّة، حيث يوجد، عبر منطقة صخرية مكشوفة، جدول صغير يتدفق في الوادي ويحف به نبات الحلفا، وأحراش السلم، والسمر وغيرها من الأشجار البرية مثل شجر الأراك، والمرخ، والمَضّ ذي الزهر الأحمر، وشجرة العَدَن بزهورها المحببة إلى النفس، وجذوعها العارية القبيحة، ولبنها الذي تدره من أغصانها ليتحول إلى صمغ، ثم نبات الصبار الذي ينمو في التلال المكونة من الصخور النارية. ورأيت على طول مجرى الغَيْل الذي يعج ماؤه بصغار السمك، كثيراً من طيور البجع، وطائر أبي ·مة، وطائر أبي منجل اللماع، ولوحظ أيضاً

طائر اللقلاق [أبو مشط أو أبو مطرقة]، وطائر البَلَشون الأبيض، ومالك الحزين، وفي بعض الأحيان طائر الخطاف، والدجاج السوداني أو الغِرْغِر، وطائر الدُّرَّاج الذي يشبه الحجل، وطائر البوقير، وطائر الشَّرَقْرَق الحبشي، وآكل النحل ذو اللون الأخضر، وطائر التُّمَّر ذو البريق المعدني، وطائر الصُّرَد أو الدَّغْنَاس، وطائر البابلر أو الأصفر العينين، وطائر البلبل، وطائر الوقواق، وأحياناً طائر النسر. وينساب وادي حلي عبر ممر حصن الطرفين الضيق إلى سهل ساحلي رملي، حيث توجد أول قرية في هذه المنطقة هي قرية السَّبَطَة التي تسكنها قبيلة العُمُور[٢٤]، وفيها سوق الأربعاء، أحدأسواق وادي حلي[٢٥م].

تحتوي تهامة على سهل ساحلي رملي يتراوح عرضه بين ١٢ ـ ٢٠ ميلاً[٢٦]، وهي تنقسم إلى تهامة الشام، وتمتد من البِرْك إلى اللَّيْث شمالاً، ثم تهامة عسير، وتهامة اليمن. وتعرف المنطقة الجبلية التي تتوسط بين تهامة الشام وسفوح جبال السراة، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ـ ٤٥٠٠ قدم، باسم «العُرْضِيَّة»، بينمايطلق على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أبها اسم «الحِبَاطَة». ويطلق على جميع هذه السلسلة الجبلية بما في ذلك عسير التي يزيد ارتفاعها عن ٩٠٠٠ قدم اسم «الحجاز». ويستخدم هنا بشكل شامل اصطلاح الشام الذي يطلق على الشمال، واليمن على الجنوب، والجبلي على الشرق، والبحري على الغرب. ويعرف سكان تهامة باسم التهاميين، ويتمركزن في الأودية التي تستمد سيولها من الجبال. وهم بصفة عامة مستقرون، ولا يوزع الرجل منهم أرضه خارج عشيرته، ولا يبيعها إذاكان له أبناء كبار دون أخذ موافقتهم. ويرث الأبناء حصصاً متساوية، والبنات نصف حصة الرجل. والأودية الرئيسية الواقعة في الشمال [تهامة الشام] هي اللَّيْث، ودَوْقَة[٢٧]، والأَحْسَبة، وقَنُونَا، ويَبَة، وحلي[٢٨]. وفي جميع الإعتبارات فإن وادي حلي، بروافده الواسعة الممتدة من شَرِيْ في الشمال إلى تَيِّه في الجنوب، يعد من أعظمها أهمية، ولا يتفوق عليه إلا وادي بَيْش الذي يعتبر، مع وادي عِتْود وضَمَد الصغيرين، من الأودية الرئيسية في تهامة عسير[٢٩]. وينتسب التهاميون بصورة عامة إلى أسماء أوديتهم، وهكذا، فإن سكان حلي يسمون «الحَلاَوْنَة»، وأهل يبة «اليَبَابِنَة».

ويستوطن هذه الأودية كثير من القبائل المختلفة، ففي وادي حلي أربع قبائل كبرى هم: العَلاَوْنَة، والصُّحَب، وكنانة، والعمور[٣٠]. ومن القبائل في وادي يبه، بنو يَعْلَى، والنَّوَاشِرَة، وبَلْعَيْر، والشَّوَارِدَة[٣١]. وتسكن في الأحسبة قبيلة الأشراف العَبَادِلَة[٣٢م]. ولا يجمع هذه القبائل أصل مشترك، ولكنهم عند إعلان الحرب يتحدون تحت راية واحدة. ويوجد من بين هؤلاء السكان فئة كبيرة من العبيد، وبصورة خاصة في تهامة عسير، ولكن كثيراً منهم الآن أحرار ويملكون أرضاً. وعندما

لا يسيل أحد الأودية فإن سكانه يهاجرون إلى أي مكان آخر في تهامة، حيث يستقبلون بالترحاب، ويساعدون في الحصاد، ثم يعودون بعد ذلك إلى أوطانهم، ومعهم أحمال من الحبوب. وعلى العكس عندما يصيب الخير ديارهم في بعض السنوات الأخرى، فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين. وهذا النظام يشمل الإقليم الممتد من جيزان إلى الليث، وقد صادفت أسراً من أهالي المنطقة المحيطة بمدينة صَبْيا في طريقهم إلى القنفدة. وتعاني الأودية الصغرى كثيراً من سنوات الجفاف العديدة، إلا أن وادي حلي ووادي بيش يستطيعان الإعتماد على السيول سنوياً، في السنة الماضية انفجر العَقْم الرئيسي في وادي حلي[٣٣]، وتبعاً لذلك، أصبح الوادي الذي في أعلى البَيِّضَيْن مهجوراً[٣٤]، فقد انتقل ساكنوه إلى وادي يبة. وتأتي السيول في أي شهر خلال السنة، ولكن فصلي الخريف والشتاء أكثرها اعتياداً، حيث تحجز وتوزع على مساحات كبيرة بواسطة عدد من السدود الترابية تعرف باسم «زَبِيْر»، وهي تحتاج إلى انتباه منتظم؛ لأن السيول التي لا تُستَطاع السيطرة عليها، ربما يلحق فيضانها أذى بالمحاصيل اليافعة.

والمحصولان الرئيسيان في تهامة هما: الذرة التي تنمو في الأراضي الطينية الرسوبية، وتنتج من بذرة واحدة من ثلاث إلى خمس حصدات[٣٥]. والدخن الذي يبذر بصورة عامة على المطر، وينمو في الخَبْت أو الأراضي الرملية بين الأودية. وتحصد الذرة بعد ثلاثة أشهر من بداية زراعتها، ثم بعد ذلك

رجلان من تهامة عسير، أحدهما يلبس مظلة من الحصير، والآخر يلبس خوذة مصنوعة من ورق النخل

كل شهرين، بينما يصرم الدخن مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ غرسه. ويعتبر قصب الذرة، وليس الدخن، علفاً جيداً حتى ولو كان يابساً، والمحاصيل التي يكتمل نموها في شهري يوليه وأغسطس تستخدم فقط لهذا الغرض، لأن الرياح الحارة التي تهب في ذلك الفصل تساعد على تجفيف الحبوب. ويزرع السمسم في أطراف الأراضي السيلية، حيث تزرع أيضاً مقادير صغيرة من القطن والفاصوليا. وليس لدى أهل تهامة دورة زراعية للمحصولات، فهم يبذرون كلما وجد السيل. وتوجد حول بعض الآبار بساتين صغيرة تستنبت فيها الطماطم، والباذنجان، والبامية، والدباء والحبحب والخربز، والنباتات ذات الروائح الذكية(٣٦). ولا ينمو هنا البصل، والثوم، والفلفل الأحمر، فهذه المحاصيل مع محاصيل أخرى هي الليمون، والعنب، والمشمش، والخوخ، والرمان، والموز، والبطاطس، والبِرْك، والشّار، تجلب إلى أسواق تهامة من جبال الحجاز. والتمر قليل، وينمو معظمه في أعلى وادي يبة، وعلى طول الساحل بين عَمِقْ، والقَحْمَة. وجملة التمور المستهلكة هنا تصل عن طريق البحر، أو من واحة وادي بيشة. أما شجر الدوم الذي تصدر أوراقه، وأيضاً تباع في هذه الأسواق، ويصنع منها الحصر، والزنابيل، والسلال، والحبال، فإنه ينمو فقط في أودية تهامة عسير(٣٧).

• وادي يَبْش عند دخوله من الحِبَاطة إلى تهامة •



ولا يملك التهاميون إلا قليلاً من الجمال، ومعظمها تمتلكها القبائل الساكنة إلى الشمال من القنفدة، وهم يستخدمون البقر في حرث الأرض وإقامة العُقُم، أو السدود الترابية، وقد علمت أن رجلاً غنياً يمتلك من ثلاثين إلى أربعين رأساً من البقر، لذا فمن الواضح، أنهم يمتلكون أكثر مما رأيت. وتوجد أحجام طيبة من قطعان الماعز، وبعض الضان التي تودع بصورة عامة عند جيرانهم البدو لحفظها. وتربية الدجاج شائعة حول القرى، والحمير دواب ركوبهم المفضلة، وهم يسافرون عليها مسافات طويلة في وقت قصير يبعث على الدهشة، ويستخدمونها أيضاً في جلب الماء من الآبار في جرار كبيرة تعلق في شباك من الحبال على جانبي الحمار. والحطب شحيح على الرغم من وجود بقع من شجر الأراك، والأثل في الأودية؛ ويحافظون على أشجار السدر الكبيرة في الحقول لفاكهتهم[٣٨]. ويسكن هؤلاء الأعراب في عُشَشٍ مستديرة الشكل، جيدة التركيب، تُبنى في العادة على هيئة كتلة واحدة، على هيكل من الأغصان بدون عمود خشبي، وتكلس من الداخل بالطين، ومن الخارج تغطى بالحشيش الذي يحكم رباطه بحبال رفيعة. وتتكون المنازل في القرى من مجموعات، بينما يحاط بعضها بأفنية عالية مبنية من الأخشاب الرفيعة، ويحاط البعض الآخر بزريبة من مَرَامِيْد قصب الذرة. وقد جرت العادة أن تترجل عن الجمل، وتمشي على رجليك عندما تمر عبر هذه القرى[٣٩].

أواني الطبخ، والماء، وفناجين القهوة، مصنوعة محلياً، وبصورة عامة من الفخار الأحمر؛ وأقداح الشرب مصنوعة من الخشب[٤٠]. أما أطباق الطعام والسلال فهي من ورق الدوم [الطُّفيْ]، وأواني الزبدة من لحاء الدباء؛ وهذه تعلق على جدران المنازل في معاليق جلدية[٤١]. وتستخدم الأسِرَّة المصنوعة من الخشب والحبال، للنوم والجلوس معاً؛ لأن أرضية المنازل تغص بالكُرْش [القراد الصغير]، ولو أن حشرات البق والبراغيث لا وجود لها في هذه القرى.

القهوة بالزنجبيل هي الشراب العام[٤٢]. والفنجان يملأ دائماً، ويعطى الضيف فنجانين دفعة واحدة[٤٣]. والغذاء الرئيسي هو خبز أو ثريد الذرة، وفي حالة عدم وجوده أو انعدامه فإن الدخن يؤكل عريكاً بسمن الزبدة النيّ. ويؤكل السمك المجفف والتمر بصورة عامة، ولكن اللحم وجبة ترفيهية، والحليب شحيح[٤٤].

ويلبس الرجال بصورة دائمة مئآزر من القماش مع خنجر أو جنبية مشدودة في الوسط من الأمام، ويحملون بشكل اعتيادي سيوفاً في أغمدة مفضضة، والأطفال يكسون الثياب منذ سن مبكرة. ويلبس جميع الذكور حتى الأطفال أحزمة من الجلد تحيط بالخصر[٤٥]، وفي إحدى المرات كان أحد الأطفال يأكل معنا، وقد نسي أن يلبس حزامه بعد الإستحمام، وحالما لاحظ عدم وجوده على بطنه

رفض أن ينهي وجبته وهرع لأخذه، وتلبس في الإحتفالات، بصورة خاصة، صديرية قصيرة، زاهية الألوان، ضيقة الأكمام، ويمتلك الأطفال، والشباب شعوراً طويلة فرق في الوسط، وتمرخ على طول المفرق بمعجون اللباب الأبيض المسحوق. ويلف الشعر بشريط جلدي رفيع، مزخرف في بعض الأحيان بالفضة (٤٦)، في حين تلبس بصورة دائمة عصابة من البرك، أو حزمة من النباتات الذكية الرائحة تغرز في الشَّلاَّف (٤٧). إنهم شعب نحيل البنية، وملونين، وشعورهم سوداء مموجة، بجانب ما يظهر عليهم من صفات المرح، والسعادة، والإنطلاق، كما أنهم يعرفون بضحكهم، ووداعتهم، وعدم جديتهم، وكذلك بتصرفاتهم العفوية، وقد لاحظت عدداً من حالات التراخوما، وقليلاً من قرحة المناطق الحارة، وحالة واحدة تقريباً مؤكدة من حالات الزائدة الدودية، ويوجد هنا مرض الدودة الغينية (٤٨)، وقد رأيت فيما بعد حالات متعددة حول صبيا.

وصلت إلى البيضين، قرية المشاييخ، لأجد الأهالي وجيرانهم يحتفلون بالختان (٤٩). وهذا الإحتفال ذو أهمية عظيمة بين هؤلاء القبائل. وهو مناسبة للرقص الذي يستمر من أسبوعين إلى شهر. وتتم عملية الختان لفتيان بين سن السادسة عشر، والخامسة والعشرين (٥٠). وقد ختن في هذه المناسبة أربعة أولاد فقط، رغم أن عدد المختونين يصل في بعض الأحيان من ٨ ـ ١٠ أشخاص. إنهم يرتدون ثياباً مميزة تتكون من سروال ذي طرفين مشغولين بخيوط حمراء تحيطان بأسفل الساقين تحت تنورة كاملة البياض مشدودة بحزام على الوسط (٥١)، ومعاطف حمراء براقة [صديرية].

يتجمع الجمهور كل عصرية وفي المساء، والثَّلاَّبَة يرقصون بينهم، والموسيقيون زنوج، وأدواتهم الموسيقية هي: الزَّلَفَة، وهي طبل واسع يضرب باليدين، واثنان من الأزْيَار [مفرد زِيْر] يدقان بواسطة المضاريب، وزمارتان تدعى الواحدة منهما صُفَرْيَقَة (٥٢).

تدار بواسطة الزلفة حركات الركض المعقدة التي تخضع لطابع معين، ويرقص الثَّلاَّبَةُ جماعة وفرادى، وهم يجثمون ويحنجلون [يهكعون ويقفزون] بينما يحملون في أيديهم خناجر مسلولة، يحركونها أمام أجسامهم، وقد انضم إليهم طفلان صغيران ليتعلما الرقص، وبقية الأطفال يتدربون خارج الحشد، بينما يوجد خلفهم الجَيْش أو الفرسان في صف واحد (٥٣)، وهم يهزون أنفسهم على وقع الطبول، ويحملون في أيديهم سيوفهم المسلولة والمشرعة إلى أعلى، وتراهم في ضوء القمر متوجين بالزهور، ونصف عارين.

وقبل إجراء عملية الختان بيومين، انطلق الأولاد راكبين جملين، وبصحبتهم أصدقاؤهم، وتتقدمهم راية، ليدوروا حول القرى المحيطة بهم، حيث يحتفى بهم فيها، ويرقصون في كل منها (٥٤).

ويوم الختان يتجمع حشد كبير من المتفرجين، وبعد ظهر هذا اليوم بوقت متأخر، يرقص الأولاد، ثم ينسحبون إلى عشة معدة لتغيير ملابسهم، حيث يلبس الواحد منهم إزاراً من القماش، ويصعدون على أكتاف العبيد، ثم ينزل هؤلاء الثلاثة، ويمشون بثبات أمام الجماهير ويقفون وأيديهم مشدودة إلى صدورهم، وعندئذ يتم تنفيذ عملية الختان بواسطة اثنين من العبيد[٥٥]. ثم يصعد الثلاثة مرة أخرى على ظهور العبيد الذين يأخذونهم إلى الفرقة الموسيقية، ويدورون بهم بين الجماهير، وهم يؤدون بذراعيهم، وكتفيهم حركات راقصة. وقد أعرض أحد هؤلاء الثلاثة عن الركب، وقدم عرضاً طويلاً ومدهشاً من الرقص. ولم يظهر على أحدهم أي شيء من علامات الألم. وبالرغم من أن هذه العملية قد خففت في هذه الأيام بناء على أوامر الملك [عبد العزيز]، وأجرى عليها تعديل بمنع السلخ الذي كان سائداً في الماضي القريب، إلا أنها تجري بطريقة شاذة ومؤلمة[٥٦].

غادرنا حلي من كياد، وهي سوق كبيرة تعقد يوم الأحد، وتستخدم من قبل البدو المحيطين بها، وسرنا محاذين لقوس [حافة] وادي حلي عبر أراضي بني هلال[٥٧]. وهذه القبيلة الفتاكة، ورثة الإسم المشهور في الأساطير، تسكن حالياً في منطقة بركانية تمتد بين محايل، والبرك، والقَحْمَة[٥٨]. وتنسب الرواية المحلية بطولات أبي زيد الهلالي إلى منطقة وادي حلي، ويذكر أنَّ قبر ابنه العزيز هناك. وكان قطع الطريق، والقتل المتعمد، حتى وقت قريب، علامة مميزة لبني هلال، ويعتبرون حتى اليوم مبعث خوف للمسافرين الذين يسلكون هذا الطريق. إنهم قليلو العدد، ويعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانية[٥٩]. وقد حدث في الماضي كثير من الثورات ، من جبل الشريف الذي تقع بالقرب منه نواة بركانية كانت في حالة نشطة جداً، وحقل الحرة الذي يبدو بوضوح أنه خمد منذ زمن طويل. وهي تمتد نزولاً من هنا حتى البحر فيما بين عمق والرَّقَبَة، الواقعة إلى الجنوب من القحمة، بما في ذلك حَبْحَبْ الشيخ المشهور بالقرب من البرك[٦٠] ثم اجتزنا وادي حلي مرة أخرى بالقرب من مَحَايل، وهي قرية تتبع مدينة أبها إدارياً، وبها سوق السبت الهام، وتقع على ارتفاع ١٦٩٠ قدم فوق سطح البحر، وهي مثل جميع قرى العرضية، منازلها مبنية من الأحجار، ومن طبقة واحدة، وتنمو على سطوحها المستوية، في أوان خاصة، النباتات الذكية الرائحة.

هنا [في محايل] غيرنا جمالنا مرة أخرى، لأن الجمال لا يمكن أن تستكرى للسفر بعيداً عن القرى الخاصة بها. ثم سلكنا وادي تية إلى عقبة شعَار، الممر الذي يصعد عن طريقه إلى جبال الحجاز. وتية واد غني مزروع بشكل كثيف من قبل فخوذ قبائل بني ثُوْعَة المستقرة[٦١]. وقد عملت السيول هنا على أحداث قطع بعمق ٤٠ قدماً نزولاً في الطين الرسوبي إلى قاع الحصباء في الأسفل، ولكن ثمة سلسلة

من القنوات تسقي جميع المستويات، حيث توجد محاصيل جيدة سقيت بسيول حديثة. وقد جلبت الأمطار الشديدة التي نزلت على الجبال خلال العشرة أيام الماضية، إلى الوادي طبقة كثيفة من الطمي. وهذا الوادي لا تزيد نهايته من أعلى عن ٢٠٠ ياردة في العرض. وهو حجري للغاية، ومعزول بواسطة جبال من الصخور الجرداء الشديدة الإنحدار. إنه منظر رائع ويبعث على الرهبة، ومهجور إلى أبعد حد، والصخور التي حول عقبة شعار لها لمعان فضي غريب. وفي أعلى العقبة (٦٢م)، وهي سهلة نسبياً، توجد حلقة من القلاع التركية، ويوجد هنا أيضاً طريق تركي جيد يؤدي إلى أبها عبر بلاد بني مالك.

وقبائل عسير مجتمعة هي: بنو مُغيْث، وبنو مالك (٦٣م)، وعَلْكَم وربيعة، ورُفَيْدَة، بالإضافة إلى القبائل الصغرى المكونة من عاصم ورجال أَلْمَع الذين يسكنون في أسفل السُّوْدَة (٦٤). وعلى طول الطريق الذي يمر في أودية صغيرة عبر التلال الجبلية، توجد القرى، وحقول القمح والشعير، وبساتين الفاكهة. والمنازل هنا مميزة، وهي مبنية من الطين، ولها مداميك متعددة على هيئة شرفات بارزة من الحجر أو القرميد، وضعت في النصف الأعلى من الجدران، لتقيها من التعرية. وتُحرس الحقول والنقاط المرتفعة بواسطة كثير من أبراج المراقبة، سواء المربعة منها أو الدائرية، وقد بنيت من الصخور الكبيرة المشذبة، وزخرفت بأربعة أشرطة خارجية من المرو الأبيض. بينما الأخرى مستديرة الشكل بصفة دائمة، ومبنية من الطين سواء بشرفات بارزة من القرميد، أو بدون ذلك (٦٥م).

وأبها، مدينة صغيرة تقع على ارتفاع حوالي ٧٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقد بنيت حول قلعة، وبها عدد من الدكاكين، وهي مركز إداري هام، يتولى إمارتها الأمير تركي السديري، أكبر أبناء عائلة مشهورة يتولى أفرادها أيضاً حكم جيزان، والقنفدة، وجدة، والجوف، والظهران على الخليج.

ويعقد سوق أبها يوم الثلاثاء، وهو فريد في ألوانه، حيث يلبس النساء فيه فساتين زاهية الألوان، ويضعن على رؤوسهن شيلات براقة. ويوجد من بين الأنواع الكثيرة من القبائل التي تهبط هذا السوق، رجال من قبائل تهامة، ونجديون في عباءات مصنوعة من وبر الجمال، وبدو من الصحارى العظيمة إلى الشرق، ورجال من الجبال بثيابهم الفضفاضة المطرزة بأشغال الإبرة، ورؤوسهم المتوجة بعصائب من النباتات العطرية، وبينهم أيضاً زوار من اليمن، وعبيد من أخويا الأمير. وتباع في هذا السوق، وفي زاوية مفصولة عن الأخرى، كل من الحبوب، والزبدة، والسمن، والحطب، والملح، والموز والجص أو البويات، والبن، والعسل، والبهارات، والأواني الفخارية، والأدوات الحديدية، والحصر، والسلال، والحبال، والملابس والجلود، والفاكهة، والأعشاب ذات الرائحة الذكية،

والأعلاف، وقليل من الماشية. ويزرع في هذه الجبال البر، والشعير في الشتاء؛ والذرة في الصيف. وقد وصلت أبها في الثاني من شهر مايو عندما كانت كثير من الحقول خالية، في حين أن بعضاً من الذرة كانت تبذر في الحال، وأن الشعير، والبر لم يحصد كله بعد. وقد عُملت المنحدرات المزروعة في كل مكان على شكل مدرجات، وقليل من الحقول تروى بواسطة الآبار، وفاكهة الحجاز هي: المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكمثرى، والتفاح الأخضر الصغير، والعنب، والرمان، والتين، والبرشومي، واللوز.

ثم سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب التي وصلناها بعد أربعة أيام ونصف. مررنا خلالها ببلاد شهران، ثم قحطان، إلى الوراء من تَمْنِيَة، وهما قبيلتان كبيرتان وقويتان[٦٦م]. ومما يبعث على السرور حقاً، هو أن من يسافر عبر هذه المناطق الباردة والمنعشة حيث توجد قرى متصلة، يحصل على متعة لا نهاية لها. فهناك منازل متباينة في أشكالها، وطرق بنائها التي أعدت للدفاع، وبنيت بأحجام كبيرة من أدوار متعددة، ولكنها جميعاً على درجة من البهجة، والجمال المتناغم. وغرف الضيوف [في هذه البلاد] هادئة، ورحبة، والجدران مزخرفة من الأسفل بأشرطة من الألوان الخضراء، والحمراء، والسوداء، حيث قضينا أمسيات طويلة، وسعيدة بين رجال القبائل الذين يتجمعون حول محمصة البن، والذين لم تقتحمهم بعد تأثيرات الغرب النشاز.

ثم اجتزنا عقبة قَوَارِي التي يبلغ ارتفاعها ٩٠٠٠ قدم والتي تكتسي منحدراتها بأزهار القَابُوْر الذهبية اللون، ووصلنا في اليوم التالي إلى الظهران، بعد أن سافرنا في نصف اليوم الأخير عبر طبقة من الصخور النارية المهجورة التي تعلو طبقة أخرى من الصخور الجرانيتية. وتقع الظهران على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم، وهي تسترعي النظر، لضيق، وازدحام، وكثرة أدوار منازلها التي بنيت على طول وادي عَرِيْن[٦٧]، حيث ينمو فيه قليل من شجر البن. وتشيع في هذه المدينة أمراض العين بصورة غير عادية. ثم نزلنا من هنا إلى وادي قَاعَة عن طريق عقبة مفتاح الخَشَبَة[٦٨م]. وهي عقبة صعبة، وقد تأكد لنا من قبل، أنها لا تصلح لسير الجمال.

كانت الجبال هنا مغطاة ببساط من الأزهار البرية، وأشجار العرعر المتناثرة التي تنمو على طول أعالي الجرف[٦٩م]، حيث سلكنا هذا الوادي عبر منطقة من شجيرات المناطق الحارة التي تكثر فيها طيور الغرغر أو الدجاج السوداني. وسرنا بمحاذاة سلسلة جبال مُشَيْت [مُشَيْط] حتى وصلنا جلَّة الموت[٧٠]. وهي بقعة مشئومة، يبلغ ارتفاعها ٣٥٠٠ قدم، وتقع على نقطة التقاء وادي دَفَا مع وادي ضَبْعَة في حوض بين جبال مرتفعة[٧١]. وفيها مركز حكومي صغير مات به من أثر الحمى أربعة

وأربعون رجلاً من أخويا الإمارة خلال سنتين. هنا في هذه المنطقة النائية المقفرة، التي يصعب الوصول إليها، والمتفشية فيها الحمى، بين قبائل متوحشة لم يتم إخضاعهم إلا قريباً، يعمل على تطبيق القانون، وحفظ النظام فيها، أمير، ومجموعة من الأخويا ، بفضل هيبة، واحترام اسم ابن سعود.

ويوجد إلى الشرق من وادي دَفَا بدو قحطان، وإلى الغرب منه توجد قبائل الرَّيْث، والعَزِّيّين، وعلى طول الحدود اليمنية قبائل خولان آل تَلِيْد وقبائل بني مالك، وبَلْغَازي (٧٢) . وقد وَجَدْتُ هؤلاء القبائل مضيافة، ويختلفون في المظهر عن بدو العرضية. فألوانهم فاتحة، وأنوفهم معقوفة، ولحاهم بارزة، وهم يشبهون بدو وسط الجزيرة العربية. إنهم يلبسون مئازر قصيرة جداً من القماش لا تكاد تستر عوراتهم عندما يجلسون القرفصاء، وشعورهم طويلة، ولكن أولئك الذين لم يختتنوا منهم بعد يحتفظون في أعلى رؤوسهم ببقعة واسعة محلوقة (٧٣) . ويؤخر الختان عند هؤلاء حتى يبلغوا من سن العشرين إلى الثلاثين سنة، وربما يكونوا قد تزوجوا، ولهم أطفال (٧٤) . وهم مسلحون بشكل جيد، ومعظم بنادقهم صناعة إيطالية مؤرخة سنة ١٨٨٩م. إنهم يقطنون في دائرة بسيطة، ووضيعة، ويأوون إلى مساكن من الحجر الخشن المسقوف بالحشائش وأغصان النبات، ويضعون عليها في الجو الرطب جلوداً مدبوغة لكي تبعد المطر، وتقي ما بداخلها من البلل. ولديهم قطعان كبيرة من الضأن، والماعز، وبعض البقر؛ ويمتلكون من الجمال أكثر مما تملكه القبائل التي إلى الشمال منهم، وينمو عندهم، في أعالي الجبال، بعض شجر البن، وقليل من البر، والذرة، والتنباك، ولكنهم بصفة عامة لا يشتغلون بالزراعة، وإنما يتاجرون بالسمن في سبيل الحصول على الحبوب، والبن من أسواق تهامة، وحدود اليمن، حيث يعملون على جلب السمن على ظهور جمالهم عبر جبال شديدة الإنحدار، عديمة المسالك. وبدلاً من استعمال الشداد أو الحني، فإنهم يربطون الأكياس المصنوعة من جلد الماعز على ظهور الجمال فوق جلد آخر مطوي.

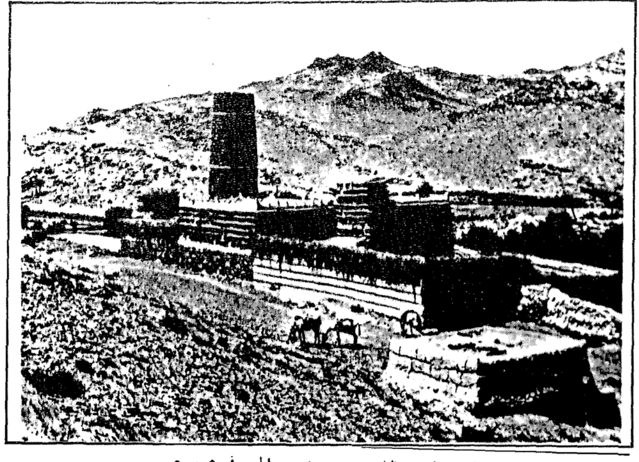
ويقع جبل فيفا على الحدود اليمنية، وعلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، وهو مكتظ بالمدرجات التي يزرع فيها شجر البن، والموز وثمر البَبْو، والعنب، والرمان، والخوخ، والبرشومي، والذرة، والبر، والشعير. ويجاوره جبل بني ملك على ارتفاع ٧٦٠٠ قدم، والزراعة فيه أيضاً على شكل مدرجات، حيث يزرع فيه شجر البن، والموز، والذرة، والبر، والشعير. أما إمدادات الماء فهي غير كافية في كلا الجبلين، وعليه فإن قربة الماء الكاملة تعطي، في جبل فيفا يوم السوق، مردوداً قدره أربعة ريالات.

ثم سلكنا من جلة الموت طريق دَفَا الذي سرعان ما تغير اسمه إلى بيش، حيث نزلت أمطار غزيرة

ليلية على الجبال نتج عنها سيول متتابعة أدت إلى عرقلة رحلتنا بشكل سيء(٧٥) ؛ لأن طريقنا الوحيد يمر في مجرى الوادي. وكنا نرى القردة يومياً، وأحياناً في مجموعات كبيرة، وكذلك الأرانب البرية التي شاهدناها في كل مكان أثناء الرحلة. وهنا تكثر الذئاب، والضبعان، والنمور الصغيرة ذات الألوان المختلفة، والوعول التي تختلف على الجبال، ولكن الغزلان توجد فقط في السهل الساحلي. ثم واصلنا سيرنا حول الجانبين الشرقي والشمالي لجبل الريث، حيث يحف شجر الدوم الكثيف بواد لا نهاية له، وهو يتلوى عبر تلال مجدبة وقائضة. وكانت الحرارة شديدة، والسيل المعكر بالطمي، وغير الصالح للشرب يلتف حول ركبنا، وبعد وصولنا إلى السهل، استدرنا جنوباً مجتازين حَقْو، وصعدنا جبل هَرُوْب، حيث كان الجو بارداً على منحدرات الجبل الذي تقع، على قمه وتحت إكليل من السحاب، أراضي العزيين ومُنْجد، فهناك ينمو شجر البن، والبر، والشعير، وفي الودي ينمو الموز، والببو.

وفي طريقنا إلى صبيا، مررنا بصبيا الجديدة، عاصمة الإدريسي المهجورة، التي تداعى قصرها المزخرف، وتحول إلى خرائب. وفي هذه الأيام يدور حديث عن الإنتقال إلى هناك؛ لأن صبيا بالي [مدينة صبيا الحالية] تعاني كثيراً من السيول(٧٦). وصبيا مدينة كبيرة، بيوتها من العشش، وبها قليل من المنازل المبنية من الحجر، وجميع القرى التي تغطي المنطقة المحيطة بها، أكبر بكثير من تلك التي في تهامة الشام. والزراعة تنتشر بكثرة حيث، ينمو هنا شجر النَّيْلَة، بالرغم من أن نموه لا يبعد كثيراً إلى الشمال، ويعمل منه الصباغ [النِّيل] في أوان كبيرة على آبار القرية. ومدينة جيزان ميناء محلي، ومنها تدار تهامة عسير؛ بينما القنفدة، وتعرف بصورة عامة باسم البندر، تخدم تهامة الشام. وكلا الميناءين متاحان فقط لرسو السنابيك التي تتوقف أيضاً في البرك، والقحمة. وهنا حضرنا سوق السبت في أم الخَشَب بوادي بيش(٧٧)، أحد أكبر أسواق تهامة، حيث تصنع الخوذ من ورق الدوم، وهذه الحرفة من خصائص هذا الجزء من تهامة، وهي تلبس من قبل الرجال، ولو أن المسنين منهم يفضلون قبعات القشّ ذات الأهرام الواسعة والحافات العريضة.

عدت الآن إلى أبها عن طريق وادي عتود، وعقبة ضلَع السهلة، حيث يكثر الحمام الأخضر في هذا الوادي، وتوجد فيه أيضاً طيور الحُبّاك، وطيور الرَّفْرَاف، والكروان، والشُبَد أو الضُّوع، وطائر الأبلق ذو اللون الأشهب والذيل الطويل. ويشيع في هذه الجبال وجود طائر العقاب الكاسر الجناح(٧٨)، وهو يهبط عبر التلال الجبلية إلى مستوى ٢٠٠٠ قدم، وتنمو هنا أنواع كثيرة من الزهور سواء على الصخور البركانية التي تكون الوجه الغربي للجبل، أو على القمة الجرانيتية.



• منازل طينية مغطاة بخطوط من القرميد البارز، وبرج مبني من الحجر في عسير •

ونظراً لأن الطريق الجبلي إلى الطائف غير عملي لاستخدام الجمال ولأن الإستئجار ينتج عنه تأخير متواصل، فقد اشتريت من أبها ثلاثة من الحمير. وكان طريقنا هذا يمتد عبر النُّمَاص، والظفير على طول امتداد قمم سلسلة جبال السروات. حيث توجد عقبات كبيرة متعددة، وأضلاع لا نهاية لها من التلال المتتابعة الشديدة الإنحدار. وعموماً، فمن المستحيل عليّ، تبعاً لذلك، أن أركب، لذا مشينا ثلاثة أرباع الطريق إلى الطائف، حيث وجدت صعوبة في المشي على قدميّ، لأن حذائي تقطعت، ولم يكن في وسعي الحصول على أخرى.

تحتوي الجبال التي خلف عقبة شعار على صخور جرداء، ولكن توجد بالقرب من بيْحَان غابة كثيفة من شجر العرعر. وبعد أن تنقلت أسفل المنحدرات الجبلية، ثم على امتداد ذرى الجبال حتى الظهران، اعتقدت أن شجر العرعر الذي شاهدته حول السودة قبل سنة، كان استثناء في جبال جرداء خالية من الأشجار، ما عدا شجر الطلح المتناثر هنا وهناك. وكان علي الآن أن أجد ذلك إلى الشمال من أبها. إن قمة سلسلة جبال الحجاز جيدة التشجير بصورة عامة، وهي، في بعض الأماكن، كثيفة حقاً، ومكتظة بأشجار العرعر، والزيتون البري، والسُّمَّاق، والسنط، والطلح[٢٧٩]. ويتراوح ارتفاع

هذه الجبال بين ٦٥٠٠ ــ ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، بحيث يكون أقصى ارتفاعها حول السودة، وهضبة بيجان.

وعموم الصخور هنا من أصل بركاني، ولكن القليل من القمم المشهورة مكونة من الحجر الجرانيت، مثل جبل منيع في تنومة، وجبل قَشْنَة، جنوب الظفير، وجبل إبراهيم في بلاد بني مالك، وجبل بَيْضَان في بلاد بني سعد، وجبل إبراهيم هذا يشاهد من مسافة كبيرة، وهو عجيب الشكل ناعم الوجه، وذو نواة جرانيتية ترتفع من هضبة بازليته.

ويلاحظ أنه من حدود اليمن إلى وادي جدرة، جنوب الطائف، تجري المياه بالقرب من سفوح الجبال، أحياناً في حدود ١٠٠ ياردة من الطرف، وقلما ترتد عنها إلى أكثر من ميل. ويلف تهامة سديم دائم، وهو كثيف جداً في بعض الأحيان حتى أن الجرف الشديد الإنحدار الواقع على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم يقع كلية تحت غشاوة تجعل رؤيته مفقودة.

وتتدنى الرؤية خلال أشهر الصيف إلى أميال قليلة على السهل الساحلي، بسبب سحاب بحري عال، وتكون هذه الرؤية مستقرة في أوقات الصباح الأولى، ولكنها تنخفض خلال النهار بفعل رياح غربية قوية للغاية، تهب في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتتلاشى عند الغروب[٨٠]. وتقتصر الحياة النباتية على السفوح الشرقية، لأن المنحدرات الغربية الشاهقة صخرية، وتفتقر إلى التربة الصالحة، والعوامل المساعدة على الإنبات. والأعشاب غير شائعة هنا، ما عدا الورود البرية، والعوسج، وزهر العسل، وزهور الربيع المتعددة الألوان، وزهور القرنفل، والكَحْلاء، والكزبرة، والسرخس مع الحُمَّاض، والقُرَّاص [القُطْبَة أو الزُّغْب]، والبرسيم، وجميعها تنمو على امتداد الممرات، وبوفرة تشبه وفرتها في الصيف الإنجليزي، في حين تعطر نباتات الخزامي والشِّذَاب بعبقها الهواء الدافىء. ويوجد قليل من شجر الصفصاف على امتداد الأودية، وكلما أمكن فإن جانبي الجبال والأودية مزودة بمدرجات تنمو عليها محاصيل البر، والشعير، والسَّيَّال، والذرة[٨١].

وتعتمد هذه الزراعة على الأمطار، ما عدا قليل من الحقول، غالباً حقول البرسيم، التي تسق عن طريق الآبار، حيث يرفع منها الماء، بواسطة الحيوانات، في غروب جلدية تنزل إلى البئر على بكرة يحملها قائمان [سَانِيَة][٨٢] ، وهي الطريقة الوحيدة المتبعة في رفع الماء من الآبار بغرض الري، سواء في الحجاز، أو في تهامة، وتنمو أشجار الكروم بشكل مألوف على عروش فوق هذه الآبار. ويزرع البطاطس، والطماط، والكوسة في المنطقة المحيطة بالنماص. وتسقط الأمطار في أي شهر، ولكنها أكثر اعتياداً بين نوفمبر ويناير، أو في أغسطس وستبمبر. وقد كان ثمة مطر حديث إلى الجنوب من النماص

عندما مررت بها، ولكن إلى الشمال لم تكن هنالك إلا زخات خفيفة فقط منذ شهر نوفمبر.

وقبائل شمال عسير هم: بَللَّحْمَر، وبَللَّسْمَر، وبنو عمرو، وبنو شِهْر الذين يسكنون حول النماص. وهذه القبائل الأربع تعرف جميعاً باسم رجال الحَجَر [الحجارية][٨٣]. وهم يسكنون في منازل متعددة الأدوار، مبنية من كتل كبيرة من الحجر المشذب، ومكسوة أحياناً بغطاء من الجص الأبيض، ومزخرفة، حسب العرف السائد في بلاد الحجاز، بنماذج من المرو مثبتة حول النوافذ الضيقة. وتسكن القبائل الواقعة خلف النماص في بيوت بنيت بضخامة، وتتكون من طابق واحد، ولها في الغالب فتحات ذات أحجام كبيرة، وسقوفها تستند إلى صف من دعائم عملت من خشب العرعر، والطلح المزخرف بنماذج محفورة، والمطلي بالقار الأسود. وفي بعض الأحيان، يسكنون في غرف أصغر، بنيت فوق حظائر الماشية، ومعظم هذه البيوت تختفي خلف جدران عالية مفرغة، وفي الجو الدافىء ينامون في العراء فوق سطوح مكشوفة. أما بالنسبة لحشرات البق، والبراغيث فهي شائعة في البيوت في هذه الجبال.

وصلنا النماص في يوم الاحتفال بالختان، وهذه القبائل تقتصر فقط في احتفالاتها بهذه المناسبة على اليوم الذي يسبق هذه العملية والتي تتم لصبية من سن العاشرة إلى الثانية عشرة سنة. إنهم يحتفون بجميع القادمين على عكس الاحتفال في وادي حلي[٨٤]، فقد ظهر هنا نحو ١٥٠ فرداً من رجال القبائل مسلحين ببنادق المَسْكِيْت التي لا تطلق بواسطة زناد، وإنما بواسطة فتيل بطيء الإشتعال، ثم انقسموا إلى أربع فرق، واندفعوا مسرعين وفي تتابع مستمر إلى جَرِيْن خال، حيث أخذوا يرمون بنادقهم عالياً في الهواء، ثم أطلقوا وابلاً من النار المحتدمة، وتراجعوا ليعيدوا تعبئة بنادقهم مرة أخرى، بينما اندفع أفراد الفريق التالي بخفة، وهم يلبسون أفخر ثيابهم، ويتمنطقون بحلية من قنائن البارود الفضية، ويتزينون بأكسية أخرى مزركشة. فكانوا في منظر بطولي عبر دوامة من سحب الدخان، وجماهير كثيفة من المتفرجين الذين يغطون الأسقف والسطوح المجاورة، وهم يصمون الآذان بضجيج لا نهاية له.

وبعد أن ارتحلنا على امتداد بلاد بَلْقَرْن، وخَثْعَم[٨٥]، دخلنا منطقة غامد التي تدار مركزياً من الظفير، وهي قرية صغيرة، بنيت حول قلعة، وسوقها الثلاثاء، ومنها يوجد منظر جميل لجبل شدا الشامي الذي يشكل إطاراً عند نهاية الوادي. لقد وجدت قبيلتي غامد وزهران، بشكل ظاهر، من أكثر قبائل الحجاز إكراماً للضيوف[٨٦م].

ولا توصد الأبواب بين القبائل المضيافة، والضيوف يدخلون المنزل إذا كان صاحبه خارجاً عنه،

ويجعلون أنفسهم كأنهم في بيوتهم.(٨٧)

وصلنا الطائف في الرابع والعشرين من شهر يونية، بعد أن غطينا من أبها ٣٠٠ ميل، قطعناها في ستة عشر يوماً من السير. فقد وصلنا النماص في أربعة أيام، والظفير في ستة أيام أخرى، مضافاً إلى ذلك ستة أيام إلى الطائف. ويوجد، قليلاً إلى الشرق من الظفير، طريق إضافي للجمال، يصل الطائف في أربعة أيام ونصف. ولكنه يستلزم حمل الماء لمدة يومين؛ لأن الماء ضروري في كل مكان من هذه الجبال. لقد سافرنا بجد، وبمعدل نحو عشر ساعات يومياً على الطريق، وبالرغم من أن طعامنا غير المتنوع كان يتكون من خبز البر المغموس في الزبد، وأحياناً صحن من التمر إلا أنني بقيت لائقاً جداً.

أمراء المناطق والمراكز الذين قابلتهم خلال هذه الشهور الثلاثة، قدموا لي كثيراً من المساعدة، وكرم الضيافة التي اشتهرت به الجزيرة العربية. وقد سافرت بين قبائل كثيرة لم يقابل أهلها إلا قليلاً من الإفرنجيين والمسيحيين، هذا إذا كانوا قد قابلوا أياً منهم، وكنت دائماً أستقبل استقبالاً جيداً، لأن المسافر الذي يسافر [في هذه البلاد] بإذن من ابن سعود، يُتَكَفَّل له في كل مكان بالأمن والمساعدة.

لقد تكرم السيد هـ. سانت ج. ب فيلبي بمقابلة وتصحيح كتابة الحروف العربية بالحروف الاتينية لجميع الأسماء العربية في هذا المقال، فأنا معترف بجميله وفضله على مباشرته لهذا العمل، خاصة بعد أن رأى عددا من الاخطاء التي كانت موجودة حقاً. كما أود أيضاً أن اعترف بجميله في وضع مخطط رحلته من جازان إلى الليث بين يدي، وسماحه لي بأن أضيف جزءاً كبيراً منها إلى خريطتي (٨٨).

مجموعة من النباتات التي تم جمعها أثناء هذه الرحلة، هي في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي).

●●●

الهوامش والتعليقات

(١م) في شهري يونية ويولية سنة ١٩٤٧م، سافرت على جمل عن طريق الساحل من القنفدة إلى صبيا وجيزان، ثم من أبي عريش إلى جبل فيفا، ومن هنا صعدت إلى جبل بني مالك، ثم من جبال آل تليد المشابكة والعديمة المنافذ إلى ظهران الجنوب، ومن الظهران زرت نجران، ثم من هناك سافرت إلى أبها. وقد ضُمَّت بعض المعلومات التي جمعت عن هذه الرحلة، إلى هذا المقال، أنظر أيضاً»

(H. St. B. Philby, «The land of Sheba,» Geogr. J. 92, (1938) - 1 - 21, 107 - 32 - and «Sheba's Daughter,» London, 1939).

(٢) الحَسْبَة، أو الأَحْسَبة: واد يقع إلى الجنوب من وادى نَاوَان، وإلى الشمال من وادي قَنُونَا، وهو ينحدر من جبال السروات، ويصب في البحر الأحمر، وترفده عدد من الشعاب، ويسكن في أعلاه بعض فخوذ بني عُمر، وغامد الزِّنَاد. وفي أسفله الأشراف العبادلة، وبعض فخوذ زُبَيْد. انظر: السلوك، علي بن صالح؛ **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)**، منشورات دار اليمامة بالرياض، بيروت ١٣٩١، ص ٤٦؛

AL-Zayla ʿī, «The Southern Area of the Amirate of Makkah,» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1983, PP. 193 - 198.

(٣) هذه السلال تعرف محلياً باسم القَدَائم (مفرد قِدَامَة)، وهي تصنع مع الطُّفِي، أو الحَصِيْر المستخرج من ورق أشجار الدوم الذي ينتشر بكثرة في تهامة.

(٤م) الحِيّ: هو الشداد الوحيد الذي يستخدم في تهامة، وهو يوضع على امتداد ظهر الجمل بكامله. (المترجم) يصنع الحي من الحصير الذي يحشي بنبات الحلفا، أو العَلاَل (البَرْدِي) بعد خياطته باحكام بحبال تصنع أيضاً من الحصير، أو من لحاء السلم، أو المرخ. وتثبت على جانبيه عصاتان قويتان ذات طرفين بارزين، تعرف الواحدة منهما باسم «المِنْضَاح» وتلف عليهما حبال التحميل الغليظة. ويدعم الحي من الامام باداة مثلثة الشكل تعرف باسم «الشَّعْبَة»، وهي تصنع من خشب الاثل أو السدر.

(٥) الأَصْدَار: جمع صدر، وتطلق على المنطقة المشرفة على تهامة من جبال الحجاز. أنظر: السلوك، علي بن صالح، **بلاد غامد وزهران** ص ٥١.

(٦) ويعرفان باسم شدا الأعلى وشدا الأسفل، فالأول يقع إلى الجنوب من مدينة قِلْوَة المعروفة في تهامة الباحة، بحوالي خمسة عشر كيلو مترا، وأغلب سكانه من فخوذ قبيلة زهران، ويقع الثاني إلى الجنوب من شدا الأعلى، وغربي مدينة المخواه المذكورة، بحوالي عشرة كيلو مترا، ويسكنه بعض فخوذ قبيلة غامد المشهورة، أنظر: السلوك، **بلاد غامد وزهران**، ص ١٤١ ـ ٣.

(٧) في الأصل «بنو عمرو».

(٨) كانت الظفير العاصمة الادارية لبلاد غامد وزهران في الفترة من سنة ١٣٥٣ ـ ١٣٧١هـ، ثم انتقلت منها إلى مدينة بَلْجُرَشي، ومنها إلى مدينة الباحة في أواخر سنة ١٣٨٣هـ، ولاتزال الباحة إلى اليوم المقر الاداري لبلاد غامد وزهران، أنظر: المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٩م) وفيما يلي الأسواق المجاورة للمخواه:
القنفذة، وسوقها الخميس. وادي الاحسبه، وسوقه الجمعة اليمانية [تعرف باسم جمعة زُبَيْد]. قَرْمَا، وسوقها الاحد. وادي يَبْس، وسوقه الاثنين (غامد). سوق الثلاثاء لبني عِيْسَى. وادي دَوْقَة، وسوقه الأحد. بنو سهيم، وسوقهم الاثنين. بنو بُحَيْر، وسوقهم الربوع، بنو المُنْتَشِر، وسوقهم الخميس. العَوَامِر، وسوقهم الاحد، شُمْرَان، وسوقهم السبت، بنو رِزْق، وسوقهم الاحد، عُمَارَة، وسوقهم الثلاثاء. آل سليمان، وسوقهم الاربعاء (في نِخَال)، الجَوْف، وسوقها الثلاثاء.

(١٠) واحدتها جَنْبِيَّة، وهي خنجر طويل تشد بحزام على الوسط، وهي السلاح المفضل في المنطقة الجبلية الذي يحمل من أجل الزينة والدفاع عن النفس، على عكس تهامة التي يفضل أهلها حمل السيوف،

والسكاكين، والخناجر لهذا الغرض. ويختلف شكل الجنبية من منطقة إلى أخرى، فهي في بلاد غامد وزهران والعرضية قصيرة ومفضضة، في حين أنها في منطقة مَحايل وماجاورها، طويلة وغمدها من الخشب المغطى بالجلد الذي ينتهي بذيل من السيور الجلدية.

(١١) يعرف هذا الفخذ باسم غامد الزِّناد، وتنتشر ديارهم في بطاط والفَرعَة ونُصْبَة والعطوة، ويَبْس، حيث تنتهي ديارهم من الغرب بالقرب من بلاد زبيد، انظر: حمد الجاسر، في **سراة غامد وزهران**، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩١، ص ٢٦٠، السلوك **بلاد غامد وزهران**، ١٤.

(١٢) وادي بطاط، يطلق على أعلي وادي الأحسبة المذكور، وبه مقر الشيخ الزندي، شيخ قبائل غامد الزناد، أنظر: حمد الجاسر، في **سراة غامد وزهران**، ص ٢٦٠، السلوك، **بلاد غامد وزهران**، **ص ٥٧**.

(١٣) **إحدى قبائل العرضية التابعة لمنطقة القنفدة. أنظر: البركاتي، الرحلة اليمانية**، القاهرة ١٩١٢، ص ١٠٣، الواسعي **تاريخ اليمن**، الطبعة الثالثة، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٤٠٣، ١١٤،

(١٤) ثُرَيْبَان، المقر الرئيسي لقبيلة بَلْقَرْن التهامية، وهو يتبع امارة القنفذة، ويقع في أعلى وادي يَبَة، وقبيلة بلقرن، أحدى قبائل العُرْضِيَّة الرئيسية، أنظر عن هذه القبيلة: كحالة، **معجم قبائل العرب**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨هـ، جـ ١، ص ١٠٣.

(١٥) بلاد عُمَارَة، وتعرف باسم العرضية الجنوبية، وهي تتبع القنفذة، وتقع بين ثريبان من الشمال، وبلاد بني شهر من الجنوب. وقبيلة عمارة، أحدى فخوذ قبائل بَلْقَرن. انظر: البركاتي، **الرحلة اليمانية**، ص ١٠٢، كحالة **معجم قبائل العرب**، جـ ١، ص ١٠٣، وجـ ٢، ص ٨٢٢.

(١٦) تسمى الواحدة من هذه القبعات مظلة أو طَفَشَة، وهي تصنع من ورق أشجار الدوم (الطفي) أو من خوص النخيل، وتزين مظلات النساء بالودع، وبسيور ملونة من القماش أو الجلد.

(١٧) المزمار: يعرف محلياً باسم الصُّفْرَيْقَة، وهي تصنع من لحاء عروق شجر السمر، أو شجر العاش، أو من مواسير حديدية خاصة.

(١٨) في الأصل حاط.

(١٩م) أسواق بارق هي كما يلي:

آل حيضة، وسوقهم الربوع [الاربعاء] (في العَجَمَة). آل موسى، وسوقهم الاحد (في القُرَيْحَاء) [في الاصل قريحات]. آل حميضة وسوقهم الجمعة (في أثْرُب) [في الاصل أثرق]. آل سباعي، وسوقهم السبت (في سَاحِل) [في الاصل ساحار]. بللسمر، وسوقهم الثلاثاء (في المنظر).

(المترجم) يطلق اسم بارق على منطقة تمتد من وادي خاط شمالاً إلى وادي بَقْرَة جنوباً، ومن جبل اثرب شرقاً إلى حَقْو جبل مرسى غرباً. ويطلق اسم بارق أيضاً على مجموعة من القبائل التي تسكن المنطقة التي يشملها هذا الإسم، ومنهم حميضة المشار إليها في النص. أنظر: **النعمي، عسير في الماضي والحاضر**، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة، ص ١٢، ٥١.

(٢٠م) الضأن، لونها أبيض، وذيولها مكتنزة بالشحم، وأحياناً رؤوسها سوداء، والماعز تتراوح ألوانها بين البني، والابيض والأسود، أو متعددة الألوان. ويوجد في العرضية نسل محسن من الماعز، عادة ألوانها بنية، ولها علامات في رؤوسها تشبه القرون. وفي الحجاز، لون الضأن أبيض، ولون الماعز هو الأسود [في الغالب].

(٢١) آل جبلي، أحد فخوذ قبائل بارق المذكورة آنفا، أنظر النعمي، المرجع نفسه، ص ٥١، وحلي واد كبير، ترفده كثير من الأودية الصغيرة، وهو ينبع من جبال السراة، ويصب في البحر الأحمر في المنطقة المعروفة باسم ساحل حلي. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ، ص ١٧٦ - ٢١١. الزيلعي، «المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي»، حوليات كلية الآداب، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ، ص ١١، والصفحات التي بعدها.

(٢٢) عن بعض هذه القبائل، أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، الرياض، ١٣٧٨، جـ١ ص ٧٩، النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ص ٤١ - ٤٢، ٥٢، ٥٣، البلادي بين مكة واليمن، ٢٢٢ - ٣٠، ٢٨٨، ٢٩٦ - ٧.

(٢٣) هو الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، وقد اشتهر بهذه الكنية بين الكتاب العرب المعاصرين له، وهكذا يعرف بين الكتاب الغربيين حتى الآن.
أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، القاهرة ١٩٥١م. ص ١٠ - ١١

*Mansfield, Peter; **The Arabs**, Ist. edit.,*
London, 1976, PP. 400 - 401.

(٢٤) يعرفون باسم عمور السبطة نسبة إلى اسم قريتهم التي تعتبر أول قرى حلي في سهل تهامة. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ١٩٢،

*Cornwallis, **Asir before World War I**, The Oleander Press, Cambridge, 1976, 35.*

(٢٥م) أسواق حلي هي:
كِيَاد، وسوقه الاحد. مخشوش، وسوقه الاثنين. السبطة، وسوقها الأربعاء. الرَّدْحَة [في الأصل ربحة] وسوقها الخميس. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الصُّفَّة، المركز الاداري لشرق حلي في الوقت الحاضر.
أسواق وادي يبه هي:
قبيلة بَلْعَيْر، وسوقهم الثلاثاء. بنويعلى، وسوقهم الأربعاء. وربيعة، وسوقهم الجمعة. الشُّوارِدَة، وسوقهم السبت. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الحَبِيْل، احدى قرى وادي يَبَه الرئيسية، واستحدث سوق آخر هو سوق الخميس في قرية القَوْز المعروفة في المراجع باسم قوز بلعير، وهو الآن من أهم أسواق وادي يبة بل من أهم أسواق ساحل منطقة القنفذة.

(٢٦) يذكر عبدالله الغنيم أن عرض سهل تهامة يتراوح بين ٢٠ و ٧٠ كيلو متراً. أنظر: جزيرة العرب من كتاب المالك والمسالك لابي عبيد البكري، الطبعة الأولى، ذات السلاسل، الكويت ١٣٩٧هـ، ص ١١٠.

(٢٧) في الأصل، دونقة.

(٢٨) عن هذه الأودية، أنظر: البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٥٨، البلادي بين مكة واليمن، ص ٣٠ - ١٩٥،

Al-Zayla ᶜi, «The Southern, Area of the Amirate of Makkah,» P. 91.

(٢٩) عن هذه الأودية، أنظر: العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١ ص ٣٦ ـ ٤٠.
Carnwallis, ***Asir before World War I, 36 - 37.***

(٣٠) عن هذه القبائل، انظر فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**، الطبعة الثانية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ص ١٥٣ ـ ٤.

(٣١) في الاصل، الشَّارِدي، وهي نسبة الشخص الواحد إلى هذه القبيلة. وربما يقصد المؤلف ببلعير سكان القوز، ولكن بلعير تشمل سكان القوز والمَقَاعِدَة، سكان الجبيل، والنواشرة، والشواردة. أنظر: كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ ١ ص ١٠٣، البركاتي، **الرحلة اليمانية**، ١٠٢.

(٣٢م) تسكن قبيلتا زبيد والسعدة في وادي لومة. وسكان دوقة هم: الخِيرَة، والمَشَايِيْخ، والأشراف الحَرَازِيَة، ويسكن وادي قنونا قبائل بني زيد، وبدو الرواشد يسكنون في وادي ناوان، وزُبَيْد تسكن في وادي قَرْمَا، وبنو هلال يسكنون في وادي عَمِق.

(٣٣) يعرف العَقْم الرئيسي في وادي حلي باسم جُعَيْرَة، ويليه في الأهمية الرَّصَّاص، ويقصد بالعقم السد الترابي الذي يحجز مياه السيول لغرض ري الأراضي الزراعية، عن العقم (العقوم) ونظام الري في هذه المنطقة، أنظر:
Abdulfattah, Kamal, ***Mountain Farmer and Fellah in ᶜAsir****, Erlangen, 1981.*

(٣٤) قرية المشاييخ، وهي تقع في ساحل حلي، أنظر: الزيلعي، «**المواقع المندثرة في وادي حلي**»، ص ٣٨.

(٣٥م) خلال رحلتي عبر تهامة في عام ١٩٤٧م، تأكدت من هذا، بصورة لا تقبل الشك، عندما اطلعت في شهر يونيه على المحصول الخامس في وادي حلي. [المترجم] يطلق الاهالي على هذه الحصدات على التوالي اسم: (١) الشَّب، (٢) الخَلْف، (٣) خلف الخلف، (٤) خلف الجِنِّيَّة أنظر:
Abdulfattah, ***Mountain Farmer and Fellah in ᶜAs'ir****,p.43.*

(٣٦م) مثل الريحان، والشِّيْح، والشَّار، والكَاذِي.

(٣٧) أوراق الدوم هذه تسمى محلياً الطفي، ويستخدم في كثير من الاغراض المنزلية، وقد لقيت زراعته وصناعته والاتجار به قدرا كبيرا من الرواج منذ زمن طويل. أنظر: الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية** عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض ١٤٠١هـ، ص ١٨٩.

(٣٨) تسمى هذه الفاكهة النَّبْق، وهي تشبه ثمر التفاح الصغير البري انظر:
Rutter, ***The Holy Cities of Arabia****, The Westminster Press, London, 1928, vol. I, p.*

(٣٩) هذه العادة كانت شائعة، لأن راكب الجمل يكشف البيوت من الداخل، ومن هنا فإن عليه أن يمشي على رجليه كلما كان طريقه يشق المحلات السكنية، وان لم يفعل فإن أهل المحلة يجبرونه على النزول عن ظهر جمله والمشي على رجليه.

(٤٠) اشتهرت هذه المنطقة، ولاسيما حلي ابن يعقوب، بصناعة الأقداح من الخشب منذ مدة طويلة. أنظر: المقدسي، **أحسن التقاسيم** طبعة ليدن، ١٩٠٦م، ص ٩٨، الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية** ص ١٨٩.

(٤١) هذه المعاليق تسمى سلال أو شباك (مفردها سلة أو شبكة)، وهي تعمل في تهامة من المَشَق المصنوع من الطفي، أما في المناطق الجبلية فتعمل من السيور الجلدية.

(٤٢م) القِشْر: شراب أو نقيع يعمل من قشر البن، وهو أيضاً يشرب في تهامة عسير بصورة عامة.

(٤٣) يذكر فيلبي هذه العادة أثناء زيادته لحلي، ونزوله ضيفاً على شيخ كنانة إبراهيم الكناني، جد شيخها الحالي، عبدالرحمن بن عيسى الكناني، ويضيف بأن الخادم صب له ثلاثة فناجين متتابعة قبل أن يقدم شيئاً لبقية الحاضرين، أنظر:

Arabian Highlands, New York, 1952, 687.

(٤٤) (والتهاميون بالمقاييس العربية ليسوا كرماء) ولا يري فيلبي أن هذا الوضع ناتج عن بخل وإنما بسبب الفقر. أنظر:

Arabian Highlands, 689.

(٤٥) هذا الحزام يسمى جَدِيلَة، وهو يصنع محلياً من سيور الجلد الرفيعة ويوضع على البطن منذ الصغر، وكان الاعتقاد السائد أن هذه الجديلة تقي حاملها من الفتق، ومن دوالي الخصية.

(٤٦) يعرف هذا الشريط محلياً باسم الشِّلاَف أو الغُدَار، ويصنع من السيور الجلدية الرفيعة ويرصَّع بحبيبات من الفضة.

(٤٧) حزمة النبات هذه تسمى طِلاَلَة أو غُرْزَة، وهي تغرز في عصابة مصنوعة من النبات، أو من الخيزران الرفيع المرصع بحبيبات الفضة، وتعرف باسم المشقة.

(٤٨) بعض هذه الصفات التي ذكرها المؤلف كانت مرتبطة بالجهل، أما بعد إنتشار التعليم في الوقت الحاضر، فإن أهالي حلي أصبحوا في غاية التهذيب. أما مرض الدودة الغينية فيعرف محلياً باسم العُرُوْق، وهو يسبب آلاماً مبرحة، ويبدأ بتورم في الأطراف غالباً، ثم ينتج عنه تقيح لم يلبث أن ينكشف عن عرق أبيض يشبه الدودة، حيث يأخذ المريض في جر هذا العرق رويداً رويداً حتى يتخلص منه الجسم. وبالتالي يشفي المريض، وتستغرق هذه العملية مدة طويلة، وينتج عن هذا المرض قصور أو تشوه في الأعضاء أحياناً.

(٤٩) يسمى هذا الاحتفال الهَوْد، أنظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٢هـ، ص٢٩.

(٥٠) عن عادة الختان في هذه المناطق، أنظر:

شاكر، محمود، **شبه جزيرة العرب** (عسير)، دمشق ١٣٩٦هـ، ٨٥، رفيع، محمد عمر، **في ربوع عسير**، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ص٨٤ ـ ٨٧، النعمي، **عسير في الماضي والحاضر**، ص٥٨، فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص١٠٩ ـ ١١١.

(٥١م) لا تلبس الدَّكَّة، ولا السروال، ولا الحزام الخاص بهما إلا من قبل الثُّلاَّبَة خلال الاحتفالات التي تسبق الختان. (المترجم) تعرف هذه التنورة، على الأقل في تهامة، باسم الدكة، وهي من قماش الحرير بألوانه الأحمر والأخضر والأصفر أو الأبيض. وتتكون من قطعة طويلة تتراوح بين ٧ و١٠ أذرع، تخاط من الطرفين وتزم من الأعلى بقدر الخصر بحيث تلبس فوق السروال، وتشد بحزام الخنجر وعندما يستدير الثلاب أثناء الرقص فإن الشكل الفضفاض للدكة يرتفع بفعل الهواء من الأسفل محدثاً شكلاً مثل المظلة التي يستخدمها جنود سلاح المظلات. وتطلق كلمة الثلابة على الفتية الذين ينوون الختان، ويمارسون هذا النوع من الرقص قبل إجراء عملية الختان، والمفرد ثلاب. ويطلق عليهم في بعض

المناطق كلمة المُدَرِّمِينْ، مفرد مُدَرِّم، وفي جازان يطلق على الواحد منهم الدِّرْم. أنظر العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٢٩.

(٥٢) عن هذه الأدوات الموسيقية، أنظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٢٤.

(٥٣) تطلق كلمة الجَيْش على نوع الرقصة، والمُجَيِّشَة (مفرد مُجَيِّش) على الرجال الذين يمارسونها، وتعرف في جازان باسم العَزَاوِي، انظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٢٧.

(٥٤) تسمى زيارة القرى المحيطة من قبل هؤلاء باسم دَعِيَّة أو دعوة، وفي جازان تعرف باسم المَطَالِيْب، انظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٣٠.

(٥٥) يسمى هذان العبدان الخاتن واللازم، وعن كيفية اجراء عملية الختان ولباس المختونين، أنظر: رفيع، **في ربوع عسير**، ص٨٦ - ٨٧.

(٥٦م) ختان السلخ الذي كان يمارس في تهامة قبل أربعين سنة، هو إزالة الجلدة تماماً من الأسفل إلى داخل ما بين الفخذين، ولا يزال يمارسه بعض البدو. وقد خفضت في تهامة إلى سلخ القضيب بكامله واستمر ذلك حتى عهد قريب. ولكن هذه الطريقة منعت الآن من قبل الملك عبدالعزيز. ويمكن بمقتضي هذا المنع ازالة عرض بنانتين فقط تبدأ من الأسفل. وترفع الغرلة ثم تقطع قطعتين؛ احداهما إلى أعلى، والأخرى إلى أسفل، ويعالج الجرح يومياً بورق السَّلَع. وفي سنة ١٩٤٥م حكم على ثمانية أولاد من أهل وادي حلي بقطع يد كل منهم، لتجاوزهم الطريقة المتبعة، واجرائها على الشكل الممنوع. [المترجم] صدر الأمر بالعفو عنهم قبل اجراء عملية القطع.

(٥٧) تقع كياد على حافة وادي حلي الجنوبية، البلادي، **بين مكة واليمن** ص٢١١، الزيلعي، «**المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي**» ص٣٣، ٣٥. أما قبيلة بني هلال، فهي من القبائل المشهورة التي تنتشر حول مدينة البرك، وهي تتكون من أربعة أفخاذ. انظر: كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ٣، ص١٢٢٠.

(٥٨) هذه المواقع من المراكز الرئيسية في المنطقة الجنوبية الغربية، انظر: البلادي، **بين مكة واليمن**، ص٢١٧، ٢٣٠، ٣١٠.

(٥٩) يقصد بهذه المنطقة البركانية حرة كنانة أو حرة بني هلال المعروفة في المصادر العربية، أنظر: الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٤، ص١١٨، ٢٥٨، ياقوت، **معجم البلدان**، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م، جـ٢، ص٢٥٠.

(٦٠م) حقل المقذوفات البركانية [الحرة] يفصل تهامة الشام عن تهامة عسير. والبرك يتبع القنفذة من الناحية الادارية، أما القحمة فهي تابعة لجيزان، وفي الماضي كانت تهامة عسير تحت حكم الإدريسي.

(٦١) في الأصل، ثوار، وعقبة شعار من العقاب المشهورة التي تقع بين محايل وأبها، وهي على بعد حوالي ٢٨ كيلو متراً إلى الشمال من أبها، أنظر: فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص٩١.

(٦٢م) العقاب، أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة، وتقع إلى الشمال من أبها هي: عقبة سمعه (السودة)، وعقبة قضا (العصامي)، وعقبة شعار (وادي تية)، والجدعا (بيحان)، وجلجلة (بللسمر) وعقبة ساقين (تنومة)، وعقبة سنان (النماص). عن هذه العقاب، أنظر: فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص٩١ - ٩٣.

(٦٣م) توجد ثلاث قبائل يطلق عليها اسم بني مالك، وجميعهم من أصول مختلفة، وهم: بنو مالك جنوب الطائف، وبنو مالك العسيريون وبنو مالك على الحدود اليمنية في أعالي وادي ضمد ووادي دافا.

(٦٤) عن هذه القبائل العسيرية، أنظر: النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ص٣٤ - ٥٣. وعن قبائل بني مالك، انظر: فؤاد حمزة في بلاد عسير، ص١٠٤، العقيلي، المخلاف السليماني، ص٨٨ - ٩٨، كحالة، معجم قبائل العرب، جـ٣، ص١٠٢٦ - ٣٢.

(٦٥م) المنازل الحجرية في جميع أنحاء هذه الجبال تبنى بأحجار مهذبة تقريباً، وتملأ الفرج بالمونة حتى تصبح تقريباً مثل الحجر الأملس المنحوت، وترصع جدران هذه المنازل في الغالب بنماذج من المرو وبصورة عامة حول النوافذ، وأحياناً تؤطر النوافذ في البيوت المبنية من الطين باطار من الدهان الابيض أو البرتقالي.

(٦٦م) فروع قبيلة قحطان المستقرة هي: بنو بشر، ورفيدة، وشُريف، وسنحان، وعبيدة، ووادعة. ومن شهران: تمنية، والمسقي، والجهرا، وسيحان، ووادي ابن هشبل [في الأصل، هشبان] وناهس وتندحه، وعتود، وقارة [لعلها القارية]، وبنو ماجار [لعلها آل عاجر]، [المترجم] خلط المؤلف هنا بين اسماء القبائل وأسماء الأماكن، يتضح ذلك من مقابلة الأسماء التي أوردها هنا مع الكشوف التي تضمنها كتاب عسير في الماضي والحاضر لمؤلفه هاشم بن سعيد النعمي، ولمزيد من المعلومات عن اسماء قبائل قحطان وشهران، واسماء المواقع التي ينتمون إليها، انظر: المرجع نفسه، ص١٤ - ١٩، ٤١ - ٤٦.

(٦٧) يبدأ وادي عرين من عراعر التي توالي تهامة من الغرب، ويصب في المجزعة، ومن القرى التي تقوم عليه: عراعر، والحصن، وآل المؤنس، ومدينة الظهران. أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص١٣٩.

(٦٨م) العقاب أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة وتقع إلى الجنوب من أبها، هي: عقبة ضلع، وعقبة جدلة (عتود)، وعقبة القرون (تمنية)، وعقبة آل الخلف (وادي بيش)، وشراقيب (رأس بيش) ومفتاح الخشبة (وادي قاعة)، وعلب (حدود اليمن).

(٦٩م) هذه الجبال بركانية، ولكن في أعلى العقبة التي يبلغ ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، توجد طبقة من الحجر الرملي الوردي اللون المتماسك بالكربونات.

(٧٠) تعرف جلة الموت باسم قلة الموت، وتقع بالقرب من جبل الريث إلى الجنوب من أبها. انظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص٢٩٦. جبال مشيث *Mushaith*، هكذا وردت في الأصل، ولم أجد لها ذكرا في المصادر الميسورة، أو على خريطة المملكة. ولعلها جبال مشيط نسبة إلى بعض فروع قبيلة آل مشيط المعروفة، حيث أخبرت أن لها فروعاً هناك.

(٧١) وادي دَفَا، أحد روافد وادي بيش من شمال بلاد خولان، انظر: العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٣٩.

(٧٢) عن هذه القبائل ومواطنهم، أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٨٨ - ٨٩، البلادي، بين مكة واليمن، ص٢٨٨ - ٢٩٧.

(٧٣) يذكر رفيع أن بعض قبائل هذيل القاطنة على بعد ثلاث مراحل من مكة، وجنوباً عنها مما يلي السراة

يتركون علامة على شعر الصبي الذي لم يختتن، ولا يحق له أن يرجل شعره على عادة المختونين إلا بعد الختان. في ربوع عسير، ص٨٤.

(٧٤) من القبائل العسيرية التي كانت تؤخر الختان إلى ما بعد العشرين قبيلة ربيعة. أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص: ١٠٩.

(٧٥م) ربما كان ذلك في عهد المؤلف، أما في الوقت الحاضر فقد منعت زراعة ومنع بيعه وترويجه

(٧٥) وادي بيش من أكبر أودية منطقة جازان، وقد مر ذكره عند الحديث عن أودية تهامة. أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص: ٣٩ ـ ٤٠، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)**، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩، ص: ٦١ ـ ٦٤.

(٧٦)لا تزال خرائب مدينة الادريسي قائمة حتى اليوم، وهي ذات قيمة أثرية كبيرة، وقد قامت ادارة الآثار والمتاحف بتسويرها، وبنت متحفاً بالقرب من هذا المكان لحفظ آثار منطقة جازان فيه.

(٧٧م) هروب، وسوقها الأحد. الحقو. وسوقها الاثنين. صبيا، وسوقها الثلاثاء. أبو عريش، وسوقها الربوع. ومغزل [في الأصل مغزى]، وسوقها الثلاثاء. الدرب، وسوقها الخميس، بيش (أم الخشب)، وسوقها السبت.

(٧٨) طائر بين النسر والعقاب، ويعرف بأسم كاسر العظام. وقد جاءت تسمية الكاسر من ضم الطائر لجناحيه أثناء الانقضاض. أنظر: ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، اعداد وتضنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، م٣، ص: ٢٥٦.

(٧٩م) يمتد معدل الحزام أو النطاق النباتي كما يلي: السلم، والسمر والاثل، والسدر من السهل الساحلي إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، والقتاد والمقل والقرظ [وعموم الصمغيات] من ٥٥٠٠ ـ ٧٠٠ قدم، والطلح من ٦٥٠٠ ـ ٧٥٠٠ قدم، والزيتون البرى من ٥٥٠٠ ـ ٧٥٠٠ قدم، والعرعر من ٦٥٠٠ ـ ٩٠٠٠ قدم، والورد البرى من ٨٥٠٠ ـ ٩٠٠٠ قدم.

(٨٠) تسمى هذه الرياح محلياً بأسم الغُبْرَة، وهي تهب على المنطقة في شهري يونية وزيوليو من كل عام. أنظر: العقيلي، **مقاطعة جازان**، ص: ١٧.

(٨١) في الأصل: سيلان.

(٨٢) السانية (جمع سواني)، كانت وسيلة الري الوحيدة في المنطقة عن طريق الآبار، وقبل انتشار المضخات. أنظر:

Mughram, M.A., «Assarah, Saudi Arabia» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1973. P. 75; Al-Zayla-ʿī, «The Southern Area of the Amirate of Makkah» 195.

(٨٣) نسبة إلى الحجر بن الهنو بن الأزد من قحطان. عن هذه القبائل وتسميتهم بهذا الأسم، أنظر: العمروي، عمر غرامة، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد رجال الحجر)**، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧ ـ ٩٨ هـ، ص: ٥١ والصفحات التي بعدها، النعمي، **عسير في الماضي والحاضر**، ٤٦، ٥١، فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ١٥٧ ومابعدها.

(٨٤) تسعى الولائم التي تقدم يوم الختان في منطقة القنفذة باسم القرى، وفي جازان تسمى الجبْر (أنظر العقيلي، **الأدب الشعبي**، ص: ٣٢)، وغالباً لا يقوم بها آباء المختونين وحدهم، بل يتضامن معهم كل أفراد القبيلة، ويفرقونها بحسب الرأس فيما يعرف باسم «الفَرْقة». ولا ينبغي أن تؤخذ هذه العادة

مقياساً للكرم عند المقارنة بين قبيلة وأخرى كما فعل المؤلف. فبعض القبائل المستقرة ولا سيما في منطقة القنفذة عملت على أبطالها، لما فيها من البذخ والتبذير والخسائر الكبيرة، وعقدت فيما بينها اتفاقيات لهذا الغرض تعرف بأسم «المُرَابَطَة» يُغَرَّمُ المخالف بمقتضاها غرامة كبيرة قد تنوف على تكاليف هذه الولائم. ومن القبائل التي أبطلت ولائم الختان قبائل ساحل حلي، وحاضرة وادي يبة، في حين أنها تقام بين قبائل شرق وادي يبه وقنوناً والمناطق الواقعة إلى الشمال منها.

(٨٥) بلقرن وخثعم من قبائل السراة المعروفة، أنظر: فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**، ص: ١٤٨، ١٩٠، كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ ١، ص: ١٠٣ ـ ١٠٤، ٣٣١.

(٨٦م) فيما يلي أقسام قبائل زهران وهم: بيضان، وبنو حسن، وبلخزمر [بنو الخزمر]، وبنو كنانة، وبنو عامر [في الأصل عمرو]، وبنو عمر، وبنو عدوان، وقريش (المترجم) عن هذه القبائل وغيرها من قبائل زهران، أنظر: السلوك، **بلاد غامد وزهران**، ٢٥٤ ـ ٨. (المترجم) المعروف عن قبائل بلقرن وخثعم أنها من القبائل المضيافة، ولا يمكن أن تؤخذ تجربة المؤلف الشخصية وسيلة لتعميمها على هاتين القبيلتين المشهورتين بكرم الضيافة.

(٨٧) وكما قيل سابقاً عن بلقرن وخثعم يمكن أن يقال عن بني سعد، وبني مالك الذين يشتهرون بكرمهم وحسن ضيافتهم، ويجب ألا يغيب عن البال أن المؤلف كان في آخر رحلته، وكان يسير بجد للوصول إلى الطائف، فربما كان اتصاله فقط بالمقاهي، والمحطات التي تقوم على الطرق والتي يعيش أهلها على ما يحصلون عليه مقابل تقديم هذه الخدمات للمسافرين. وليس بالضرورة أن يكون العاملون في هذه المقاهي من القبائل التي ذكرها المؤلف؛ لأن هذه الأعمال كانت، حتى عهد قريب، تستعيبها القبائل المذكورة.

(٨٨) ارتحل فيلبي من جازان إلى الليث مروراً بالقنفذة في سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦، وقد دون وصف هذه الرحلة والأماكن التي زارها في كتابه *Arabian Hiqhiands, PP. 648-706.*

مصادر ومراجع التحقيق

أولاً: العربيـــة:

البركاتي، شرف بن عبد المحسن،

(١)/**الرحلة اليمانية**، مطبعة السعادية، القاهرة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢.

البلادي، عاتق بن غيث،

(٢)/ **بين مكة واليمن**، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م

الجاســـر، حمــد،

(٣)/ **في سراة غامد وزهران**، دار اليمامة، الرياض ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م

حمـــزة، فـــؤاد،

(٤)/ **في بلاد عسير**، القاهرة ١٩٥١ م.



(٥) قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ١٣٨٨هـ.
رفيع، محمد عمر،
(٦) في ربوع عسير، دار العهد الجديد، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
الزهراني، محمد مسفر،
(٧) بلاد زهران، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
الزيلعي، أحمد بن عمر،
(٨) مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١/٤٨٧هـ) عمادة شؤون المكتبات جامعة الرياض، الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
(٩) «المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي»، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة، الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
السلوك، علي بن صالح،
(١٠) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)، دار اليمامة بالرياض، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
شاكر، م÷$حمود،
(١١) شبه جزيرة العرب (عسير)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
العقيلي، محمد بن أحمد عيسي،
(١٢) الأدب الشعبي في الجنوب، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
(١٣) المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، مطابع الرياض، الرياض، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.
(١٤) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
العمروي، عمر غرامة،
(١٥) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد رجال الحجر) دار اليمامة، الرياض ١٣٩٧هـ/٩٨هـ.
الغنيم، عبدالله يوسف.
(١٦) جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الطبعة الأولى، ذات السلاسل، الكويت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
كحالة، عمر رضا،
(١٧) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دار العلم للملايين بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
المقدسي، محمد بن أحمد البشاري،
(١٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦م.
ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي،
(١٩) لسان العرب المحيط، اعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ.

النعمي، هاشم بن سعيد،

(٢٠) عسير في الماضي والحاضر، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر جدة، بدون تاريخ.

الواسعي، عبدالواسع بين يحيى،

(٢١) تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

الهمداني،

(٢٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

ياقوت، أبو عبدالله الحموي،

(٢٣) معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م - ١٩٥٧م.

ثانياً/ غير العربية:

Abdulfattah, Kamal;

(1) ***Mountain Farmer and Fellah in ᶜAsir Southwest Saudi Arabia,*** *Erlangen, 1981.*

Cornwallis, Sir Kinahan;

(2) ***Asir before World War I,*** *The Oleander Press, Cambridge, 1976.*

Mansfield, Peter;

(3) ***The Arabs,*** *1st edit. Cox & Wyman Ltd, London, 1977.*

Mughram, M.A.;

(4) «Assarah, Saudi Arabia,» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1973.

Philby, H. St. J.B.;

(5) ***Arabian Highlands,*** *Cornell University Press, New York, 1952.*

Rutter. E.

(6) ***The Holy Cities of Arabia,*** *1st edit., The Westminster Press, 1928.*

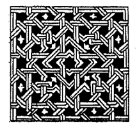
Al-Zaylaᶜī, Ahmad ᶜUmar;

(7) «The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd-7th/9th-13th Centuries) Its History Archaeology and Eqigraphy», Ph.D. Thesis, University of Durham, 1983.

Asnaf Sagad Minas

Titicaca

Creasy Hist of the Ottoman Turks



دور الشيخ عز الدين القسام في الكفاح الفلسطيني

د. حسن صالح عثمان

تمهيد :

في الثلث الأخير من القرن الماضي، لم تكن الحدود القائمة اليوم بين أجزاء الوطن العربي موجودة آنذاك، بل كان الوطن العربي وطناً واحداً مفتوحاً أمام المواطنين العرب، وكان الشباب العربي الواعي في مختلف البلاد العربية يتدارسون أوضاع وطنهم ويؤسسون الأحزاب والحركات الوطنية للنضال من أجل تحريره.

في تلك الفترة، ولد عز الدين عبدالقادر القسّام سنة ١٨٧١م في بلدة جبلة قضاء اللاذقية، وقد نشأ نشأة قاسية، حيث كان والده فقيرا، فكان وهو في الثامنة من عمره يعين والده على كسب قوت العائلة وتدبير أمورها المعاشية، كما كان يعمل بأجر زهيد في حقول الأغنياء في زراعة الدخان وقطافه وفي حصاد القمح والشعير والذرة، فنجد أنه لم يستمتع بطفولته فيلهو ويلعب مع أنداده فكان يميل إلى العزلة والتفكير في هذه الحياة القاسية التي يعيشها أهله.

وفي المساء كان يحمل حقيبته وينطلق إلى بيت الشيخ محمود ليتعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن وذلك مقابل أجر يوميّ محدد «رغيف وبيضة»[1] وفي شبابه رحل إلى مصر سنة ١٨٨٥م للدراسة في الأزهر الشريف، وكان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده[2].

لمقاومة سلطة الانتداب واليهود في فلسطين، وأصبح الرأي العام ينظر إلى القسّام وأتباعه نظرة تقدير بالغ وإكبار عظيم للأبطال الشهداء.

ولم يقصر الفتى اهتمامه على دروس الشيخ محمد عبده وحلقات الأزهر بل رافق هذا الاهتمام دراسة حركات التحرر، حيث كان الأزهر في أوائل هذا القرن منارة كبرى لنشر الإسلام وجامعة للفكر الوطني، ولما عاد إلى بلاده عمل مدرِّساً في جامع السلطان ابراهيم، وأخذ يسعى لتنوير عقول الناس وأفكارهم حتى كان اسم الشيخ عز الدين على كل شفة ولسان.

بداية جهاده:

وامتدَّت صلاته خلال الحرب العالمية الأولى برجال الحركة الوطنية الذين كانوا يسعون لرفع الظلم العثماني عن العرب حتى إذا انتهت هذه الحرب وجد القسَّام بلاده تخرج من قبضة الحكم العثماني لتصبح بين أنياب الإستعمار وهو الانتداب الفرنسي[٣].

أمام هذا الاحتلال الجديد بدأ المواطنون في المقاومة، فاشترك الشيخ عز الدين القسَّام في عصبة عمر البيطار[٤] وثورة الشيخ صالح العلي سنة ١٩٢٠م التي لم يحالفها النجاح[٥] فحاولت السلطة العسكرية الفرنسية شراءه بإكرامه وتوليته على القضاء فرفض ذلك وكان جزاؤه إن حكم عليه الديوان العرفي بالإعدام[٦] مما يدل على أن الاستعمار يعمل على استمالة الشرفاء إلى صفوفه بالترغيب فإن فشل فبالإرهاب.

جهاده في فلسطين:

اشتدت ملاحقة الفرنسيين للشيخ عز الدين، فأجرى اتصالات مع صديق قديم له من فلسطين هو الشيخ كامل القصاب تمكن بعدها من التوجه إلى فلسطين في ٥ شباط ١٩٢٢م ولجأ معه من رفاق الجهاد الشيخ محمد الحنفي من مصر والشيخ علي الحاج عبيد[٧] وذلك من أجل الإسهام في حركة الدفاع عن فلسطين نزل في قرية الياجور قرب مدينة حيفا، الميناء الفلسطيني الناشيء، فأحتفى به أهل حيفا احتفاء بالغاً لما عرفوا في الشيخ من شجاعة وصلابة وما رأوا منه من سماحة الخلق والتواضع.

وقد عمل الشيخ في بداية الأمر مدرِّساً في جامع النصر بحيفا، بينما اشتغل زميلاه في الزراعة ثم عمل خطيباً في جامع الاستقلال[٨] أكبر مساجد حيفا، ومكَّنه هذا من التعرف على عدد أكبر من المواطنين الذين يستمعون إلى دروسه وخطبه، حيث كان رجلاً عالماً مؤمناً صادقاً، فكان يلتقي بتلاميذه في مسجد حيفا تحت ستار الدروس الدينية، وما كان درسه موقوفاً على البحث عن فتوى الزواج والطلاق ولا عن إفتراضات الفقهاء في عصور التأخّر، ولكن كان درسه من دروس أعلام المسلمين

الذين يؤمنون بأن الجهاد العملي والقتال الصادق هو خير منطق يجابه به الأعداء الذين يهاجمون أرضنا ومقدساتنا، وأنه لا كرامة لمسلم يرضخ للأعداء أو يعاملهم أو يصادقهم أو يطمئن إليهم، وما انتهى يوماً من الأيام من درسه إلا وختمه بقوله تعالى «ومن يتولهم منكم فإنه منهم»(٩).

كما بدأ يكافح الأميّة في صفوف الناس وذلك بإنشاء مدرسة ليلية وإعطاء دروس ليلية لهم(١٠). بهذه الوسائل استطاع الشيخ الاتصال بمختلف فئات المواطنين في حيفا من شباب وشيوخ وعمّال وفلاّحين وطلاّب ونجّارين وحدّادين وغيرهم من أصحاب الحرف البسيطة، ولكن هذا يظل مقتصراً على مدينة حيفا ولا بد أن تتسع دائرة الاتصالات لتشمل القرى المجاورة فتقدم بطلب تعيين في وظيفة مأذون شرعي ليتسنى له الاتصال بالجميع(١١)، فلما عيّن مأذوناً شرعياً من قبل المحكمة الشرعية، أصبح بمقتضى هذه الوظيفة يحضر حفلات الأعراس مما أعطاه فرصة لدراسة نفسيات الناس(١٢) وللتجول بين الفلاحين والاتصال بهم وانتقاء العناصر الوطنية للحركة مستخدماً المأذونية ستاراً لعمله فأصبح فلاّحوا المنطقة الشمالية يُكنّون له أبلغ الاحترام والمودة بفضل زياراته المتكررة لهم.

نلاحظ من ذلك أن الشيخ عز الدين كان يركّز حركته على الفلاحين والعمال وذلك لأنهم أكثر الفئات إنقياداً واستعداداً للتضحية، ولم يتصل بالأفندية (الطبقة الغنية) لأنهم منشغلون بعقاراتهم وأملاكهم وثرواتهم ووظائفهم وبجاههم، كما أن هذه الطبقة حريصة ـ غالباً ـ على التقرب من رجال السلطة وليست حريصة على التضحية فكانوا في وادٍ والقضية في وادٍ آخر.

كيفية اختيار أنصاره:

لا شك أن الشيخ بما كسبه من خبره في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا، قد أدرك بفكره الثاقب أن الاستعمار وحدة لا تتجزأ مهما تنوعت أشكاله وأساليبه، كما أدرك أن الأخطاء التي وقعت في حركة النضال ضد الفرنسيين في سوريا يجب أن لا تتكرر في فلسطين(١٣) وكان يرى أنه لا بد من الأعداد النفسي للثورة ضد الاستعمار وقد بدأ هذه المرحلة منذ أن قدم إلى حيفا، وساعده في هذه المرحلة عدد من العاملين المؤمنين، ومن هؤلاء الشيخ كامل القصاب وهاني أبو مصلح(١٤) وعمد إلى اختيار الكيفية دون الكمية، ويقول أبو إبراهيم الكبير أحد رفاق القسّام: إنه كان للشيخ «حلقات درس يعلم فيها المسائل الدينية، ولكنه كان أكثر المشايخ تطرّقاً لضرورة الجهاد ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين، كان يركز على الاستعمار البريطاني وعلى الصهيونيـــة»(١٥)، وقد ذكر كثير من أخوان الشيخ القسام أنه كان يراقب المصلّين وهو يخطب فوق منبر

المسجد، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد للجهاد إلى زيارته في منزله، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من أخطار ضمن مجموعات سرية صغيرة[١٦].

كما آثر الشيخ عز الدين السرية المطلقة لدعوته في فلسطين، حيث تلقن درساً من الحكم العسكري الفرنسي في سوريا، فكانت أعماله الخارجية من وعظ وتدريس ستاراً لعمله الأساسي وهو اختيار الصالحين من هؤلاء التلاميذ، والمستمعين وقد صرف القسّام السنوات الطوال[١٧] في اختيار العناصر وإعدادها تحت لواء التعاليم الدينية العامة، ومنها الدعوة إلى الجهاد، حيث تألفت خلايا الجهاد السرية في أول تكوّنها على نمط حلقات دار الأرقم بن أبي الأرقم أي من خمسة أشخاص على الأكثر من بينهم نقيب مسؤول عن القيادة والتوجيه، كما سرت روح الجهاد بين الشعب فتتابع تنظيم التشكيلات السرية[١٨].

وقد حدد الشيخ طبيعة الرجال الذين يريدهم، بأنهم على استعداد للتضحية بالمال والروح، إنه يريد الرجل المقدام الصبور على الأذى، الحافظ للسر المجدّ المثابر والمستقيم الخلق، الصادق في السر والعلن، ينكر ذاته ويحب خدمة الآخرين، قوي الحجة والمنطق قادراً على الإقناع، يطلب الموت فتوهب له الحياة.

من خلال هذه الصفات شرع الشيخ عز الدين القسَّام يختار أعضاء حركته، وكان الشخص الذي يقع عليه الاختيار يخضع لتجربة ومراقبة تمتحن خلالها عزيمته وقدرته على حفظ السر وللعضوية شرطان: أولها أن يقتني العضو السلاح على حسابه، وأن يتبرع بشيء من ماله قدر المستطاع[١٩].

ويقول ابراهيم الشيخ خليل أحد أفراد العصبة القدامى بأن «المال للثورة كان له مصدران، مصدر الاشتراك الشهري وكان جيّداً، والمصدر الثاني كان التبرع الطوعي، والتبرع كان يجري على أسس العقيدة الإسلامية، ويقع تحت حكم عدة أيات قرآنية كريمة مثل قوله تعالى: «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون» وقوله تعالى: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم».

«كان عدد كبير من أخوان القائد في وضع مالي حسن، حيث المزارع الكبير والتاجر والمقاول، وكانت أرباحهم وافية، وكان العديد منهم يتبرعون بكل ما يملكون بعد سد حاجتهم اليومية... «زد على ذلك أن بعض أخوان القائد كانوا على صلات حسنة جداً مع بعض الأثرياء من المواطنين وكانوا يحصلون منهم على بعض المال طواعية وعن طيبة خاطر»[٢٠].

وقد انتشر هؤلاء الطلائع في أواسط الشعب على نطاق واسع ولكن بحذر شديد، ليبصّرون المواطنين بأبعاد الهجرة اليهودية إلى البلاد وآثارها في المستقبل، ويحذّرونهم من بيع الأراضي، كما عمل الشيخ وأخوانه على نشر روح المحبة والتآلف بين المواطنين، فازدادت أواصر الألفة والمحبة بين المواطنين، وبدأت روابط الوحدة الوطنية تقوى وتشتد، بعد أن كان الأتراك قد مزقوها شر تمزيق بما أثاروه من حزازات وعداوات عائلية وعشائرية وقبلية، وكذلك فعل الإنجليز العمل نفسه[٢١].

وقد حدد الشيخ عز الدين القسَّام ثلاثة أهداف للجهاد والثورة المسلحة هي:

أ ـ طرد الاستعمار البريطاني من فلسطين.
ب ـ منع إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين.
جـ ـ إقامة دولة عربية مؤقتة تعمل على تحقيق الوحدة العربية.

ولما وجد البلاد العربية ممزقة يعبث فيها الاستعمار فساداً، وكل بلد منشغل بحاله وبالمشكلات التي خلقها الاستعمار له كان قوله قاطعاً: «إنَّ علينا عرب فلسطين الاعتماد على النفس وعلى إمكاناتنا الذاتية لا ننتظر حتى تهبط علينا النجدات من السماء ولا حتى تصلنا من وراء الحدود».

ولذا كانت القيادة الأولى للحركة التي شكلت عام ١٩٢٨م تضم خمسة أشخاص، من بينهم الشيخ عز الدين القسَّام، أما الأربعة الآخرون منهم العبد قاسم (حيفا) محمود زعرورة (حيفا) محمد صالح وأبو إبراهيم الكبير وكلهم من أصحاب الحرف البسيطة مثل بائع جاز أو فلاح أو صاحب دكان[٢٢].

واستمر الشيخ عز الدين القسَّام في تنظيمه السري حيث جنّد ٢٠٠ ونظم ٨٠٠ من الأنصار، ولكن لم يقم باتصالات فعلية بالفلاحين والعمال الذين كان عليهم الاعتماد من جنوب فلسطين ووسطها[٢٣] وذلك بسبب مراقبة الانجليز الشديدة له، بينما يذكر إبراهيم الشيخ خليل بأن عدد الذين جندتهم ثورة الشيخ القسَّام قد تجاوز المئات وأنه باعتقاده يربو على الآلاف[٢٤].

ولم يكتف بهذا، بل وجد في جمعيّة الشبان المسلمين التي تألفت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس فكان رئيسها وحامل لوائها ويقول رشيد الحاج إبراهيم «لعل القسَّام هنا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق إليه، وهو أن ينشىء عصبة بعد عصبة من أهل الإيمان بهدف الثورة يوماً ما»[٢٥]. كما انضم إلى الحركة الوطنية الفلسطينية علانية، فكان أحد ممثلي مدينة حيفا في الاجتماعات الوطنية الخاصة التي كانت تعقد في القدس، وتشير بعض المصادر العربية إلى أن الشيخ

انتسب إلى حزب الاستقلال عندما أُسِّس في أغسطس ١٩٣٢ [٢٦] والواقع أن الشيخ لم يكن بعيداً عن تيار الحركة الوطنية في البلاد، وكانت له صداقات خاصة مع بعض أركان حزب الاستقلال المقيمين في حيفا ومنهم رشيد الحاج ابراهيم [٢٧] كما كان الشيخ عز الدين القسَّام عضو في اللجنة التنفيذية للحزب العربي الذي يتزعمه جمال الحسيني والذي تأسس في ٢٥ آذار ١٩٣٥ [٢٨]. وقد نفى إبراهيم الشيخ خليل انتسابه إلى أي حزب قائلاً «أما بالنسبة لتبعية القسَّام وارتباطه بحزب معين، فإن الذي أعرفه معرفة حقيقية، ويعرفه العديد من أخواني الأحياء أمثال أبو إبراهيم الكبير والشيخ سليمان أبو حمام ومحمد عبد القادر أبو الهيجاء وحسن شبلاق والحاج حسين حمادة وأحمد الثوية والشيخ محمد الحنني ومحمد علي دلول وغيرهم كثيرون.. بأن القائد الشهيد لم يكن له أي إرتباط حزبي مع أي حزب من الأحزاب، وأن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الإسلامية وحدها» [٢٩].

أعمال العصبة:

تعتبر المنظمة القسّامية أعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بل تاريخ الجهاد العربي الحديث، فالأعمال التي قام بها القسّاميون كانت أروع وأعظم مما قام به المجاهدون في فلسطين، فقد كانوا يقومون بملاحقة الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، أو التجسّس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود، أو السمسرة عليها لحساب الأعداء، والتصدي لدوريات الجيش البريطاني، والشرطة، والاصطدام بها، وقطع طرق المواصلات، والإغارة على ثكنات الجيش، ومراكز الشرطة [٣٠].

وقد اشتركت جماعة عز الدين القسَّام في الاضطرابات التي نشبت في الحي القديم في حيفا ورافقتها عدة غارات على حي هادارها كرمل ضاحية حيفا اليهودية الشهيرة [٣١].

كما اشترك رفاق القسَّام في أحداث ثورة البراق [٣٢]، وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه بعد هبّة البراق سنة ١٩٢٩م حدث إنقسام داخل حلقات القسَّام، إذ انشق عدد من أخوان القسَّام وعلى رأسهم أبو إبراهيم الكبير والدافع لهم هو أنهم رأوا أن الوقت حان لإعلان الثورة، حيث يرون الخطر يهدد كيان البلاد. وكان هذا الرأي لا يراه الشيخ القسَّام بحجة أن الإعداد للثورة لم يكتمل وسبب آخر دفع المنشقين هو أنه يجب أن تجبى الأموال اللازمة للثورة من الشعب بكل وسيلة ممكنة، بينما يميل القسّام بل يُصِرُّ على الانتظار وعدم استعمال العنف خوفاً من الانقسامات الداخلية منذ البداية، وأنَّ

الشعب سيدفع تبرعات كافية للثورة بعد إعلانها مباشرة وبعد أن يعرف أهداف الثورة ويشاهد الانتصارات»[٣٣].

وفي ليلة ٢٢ كانون الأول ١٩٣٢ قام القسّاميون بإلقاء قنبلة على منزل يوسف يعقوبي في مستعمرة نحلال[٣٤] فأصيب صاحب المنزل وابنه داود بجراح خطرة كانت سبباً لوفاتهما فيما بعد، فثار اليهود بسبب هذه الحادثة وحوّلوا جنازة يعقوبي إلى شبه مظاهرة على رأسها الدكتور أرلوزوروف رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، كما أعلنت الحكومة عن تخصيصها مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه فلسطيني لأي شخص يقدِّم إخبارية تؤدي إلى إلقاء القبض على من قاموا بعملية نحلال أو إدانتهم[٣٥].

كما شارك رفاق القسّام في ثورة ١٩٣٣[٣٦] ثم قامت العصبة بثلاث عمليات أقوى من الأولى[٣٧] وبعد حوادث ١٩٣٣ بدأ القسّام بجمع التبرعات لابتياع كميات صغيرة من الأسلحة إستعداداً للقيام بثورة ضد الحكومة التي اعتبرها الحامية الحقيقية للصهيونية في فلسطين وحافظ في اتصالاته وإعداداته على السريّة التامة[٣٨].

وقد قفزت الصهيونية قفزات سريعة في أوائل منتصف الثلاثينات من القرن العشرين حتى نجحت في إغراق فلسطين بأكثر من ١٥٠ ألف يهودي جاءوا إليها من كل صوب وحدب، وأخذت سياسة التهويد طريق العنف والسرعة وذلك عن طريق نقل مساحة شاسعة من الأراضي نتيجة ما أصدره أرثر واكهوب من قوانين وتنظيمات، وقد راع العرب إمعان واكهوب في سياسة التهويد، وألهبت تصرفاته مشاعرهم، وعقدوا في طول البلاد وعرضها اجتماعات شعبية تنادي فيها عرب فلسطين إلى عدم التعاون مع سلطات الانتداب ومقاطعة لجانها بل تحدّي قوانينها وأذاعت اللجنة التنفيذية العربية بياناً في آذار ١٩٣٣ طلبت فيه من عرب فلسطين أن يوجّهوا كفاحهم ضد الإنجليز باعتبارهم أصل الداء[٣٩].

وبسبب تضخم الهجرة اليهودية، وازدياد مساحة الأراضي التي انتقلت لليهود، ووفاة موسى كاظم الحسيني في آذار ١٩٣٤م رئيس اللجنة التنفيذية، وعدم قدرة تلك اللجنة على قيادة الحركة الوطنية، واكتشاف أسلحة وذخيرة حربية مخبأة في إرسالية اسمنت مرسلة إلى اليهود[٤٠]. كل ذلك دفع الشيخ عز الدين القسّام وصحبه إلى تنظيم عملهم الثوري وتقسيمه إلى خمس وحدات أو فروع:

١) **الوحدة الأولى**: خاصة بشراء السلاح، ومن قادتها الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدي.

٢) **الوحدة الثانية:** خاصة بالتدريب العسكري وهي بإشراف ضابط سابق في الجيش العثماني.

٣) **الوحدة الثالثة:** للاستخبارات ومراقبة خطط الإنجليز واليهود السرية، ومن عناصرها الشيخ ناجي أبو زيد، وكان يجنّد في هذه الوحدة العمال الذين يعملون في المصالح الحكومية وخاصة في دوائر البوليس، والعمال الذين يعملون مع اليهود لمعرفة النشاط السري للأحزاب اليهودية.

٤) **الوحدة الرابعة:** وكانت من العلماء، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد في المساجد والمجتمعات، وقد كان الشيخ كامل القصاب موجهاً ومستشاراً في هذه الوحدة.

٥) **الوحدة الخامسة:** وهي خاصة بالاتصالات السياسية، ويقول صبحي ياسين «وقد عرفت من أفرادها الشيخ محمود سالم المخزومي وهو من قرية زرعين الذي اتصل بقنصل إيطاليا في القدس أثناء حرب الحبشة وبقنصل تركيا بقصد شراء أسلحة حديثة»[٤١].

وقد استبعد أحد المراجع اتصال الشيخ القسَّام بالإيطاليين للأسباب التالية:

أ ـ إنَّ اتصال الإيطاليين قد تم بالفعل مع الحاج أمين الحسيني، وهو القادر على تحريك الجماهير العربية في فلسطين في ذلك الوقت.

ب ـ لم يكن الشيخ القسَّام، وهو رجل دين قد نسي ما قام به الإيطاليون ضد زعيم ديني آخر هو عمر المختار، ولم يمض على استشهاده أكثر من أربع سنوات.

جـ ـ إن فقر الحركة مالياً، حيث لم يكن في صندوق الجماعة عندما خرجوا من حيفا في أكتوبر ١٩٣٥م إلاّ مائة جنيه، ينفي ذلك الاتصال.

د ـ إن التقرير الرسمي البريطاني لعام ١٩٣٥م، لا يشير إطلاقاً إلى أي نوع من الأسلحة الإيطالية التي صادرتها واستولت عليها السلطات البريطانية طيلة ذلك العام[٤٢].

بينما لم تستبعد مراجع أخرى أن يكون القسَّام قد أقام بالفعل علاقات مع الإيطاليين الذين ازداد اهتمامهم بشؤون فلسطين بعد حملتهم على الحبشة وما أعقب ذلك من توتر في علاقاتهم بالبريطانيين بسبب تلك الحملة[٤٣] ولم يكن الدافع لهذا الاتصال السري المحتمل بالإيطاليين سوى الضرورة العملية لإقامة تعاون مع العناصر والجهات المعادية للبريطانيين بالرغم أن الإيطاليين كانوا مكروهين في فلسطين بسبب اضطهادهم للشعب الليبي[٤٤].

وفي الحقيقة، لم أستبعد اتصال الشيخ القسَّام بالإيطاليين باطلاع الحاج محمد أمين الحسيني الذي كانت تربطه به علاقة وثيقة والذي كان يتميز بشدة الحذر والحيطة والكتمان وذلك ابعاداً لاشتباه السلطات البريطانية وخصوم الحركة الوطنية (٤٤).

إنطلاق الثـــورة:

بسبب زيادة الهجرة اليهودية، وزيادة عدد العاطلين من العرب عن العمل، والاستفزازات الصهيونية كالتدريب العسكري السافر ومهاجمة الفاشيين اليهود من أتباع جابوتنسكي للقرى العربية (٤٥). ومواقف الساسة الفلسطينيين المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة (٤٦) ونتيجة لذلك قام الشيخ عز الدين القسَّام بالاتصال بالحاج محمد أمين الحسيني، فأرسل أحد اتباعه وهو محمود سالم المخزومي إلى المفتي طالباً منه إعلان الثورة في جنوب البلاد، في الوقت الذي يعلنها فيه القسَّام في الشمال وقيل إن المفتي أجاب أنه يؤثر التوصل إلى حل سياسي على اللجوء إلى ثورة مسلحة (٤٧) بينما يروي الأستاذ أميل الغوري بأن القسام اتصل بالحاج أمين للوقوف على رأيه في الخروج، فوافق المفتي على رأي القسَّام، وأقر خطوته وتعهد بمد الثورة العتيدة بالرجال والأموال والسلاح (٤٨).

نلاحظ: أ ـ الاختلاف الشاسع في الروايتين من حيث نتيجة الاتصال.
ب ـ مدى ثقة وصلة الشيخ عز الدين القسَّام بالمفتي.

وبينما كانت السلطات البريطانية تراقب تحركات الشيخ ورفاقه ـ وقد خصصت لذلك عدداً من رجال البوليس السري كان أبرزهم أحمد نايف ـ (٤٩) فقد صمم على الخروج.

وقد حدث خلاف بين القسَّام وأحد رفاقه حول الخروج بالسلاح أو بدونه ويوضح لنا أبو إبراهيم الكبير المسألة فيقول «كان الشيخ قد أعد جماعة غيرنا (بسبب سجن أبي إبراهيم الكبير) واتفق معهم على الخروج إلى الثورة، وكنت ذات يوم في البيت، عندما جاءني قبل الغياب حسن البابر، من الذين هيأهم الشيخ بعد سجننا، قال حسن البابر: أرسلني لك الشيخ في خبر، قلت ما هو؟ قال: الشيخ يريد رأيك في خروجنا قلت: عندما يقرر الشيخ شيئاً فعلينا التنفيذ قال: ولكن يريد رأيك، فلم أعطه الرأي وأوضح السبب أبو إبراهيم «لأننا كنا تلاميذه» وأضاف «ولقد عاد البابر وأخبر الشيخ بما حصل. فقال الشيخ: نصلي غداً في جامع الحاج عبدالله ونرى أبا ابراهيم، وفي الفجر التقينا في الجامع وصلينا واجتمعنا في غرفة هناك، قال الشيخ: نريد الخروج فما رأيك؟ قلت: ليس لي رأي ولكن الشيخ أصرَّ عليَّ، فقلت له: يا شيخ، ماذا لدينا من السلاح نحن خارجون لإعلان الثورة، وهذا يحتاج إلى

السلاح والمال، والثورة تحتاج إلى ذخائر كل يوم، وإلى مصروفات كل يوم، فماذا لدينا من كل ذلك، قال: ليس عندنا من الذخائر والسلاح إلا ما في أيدينا، قلت: إننا بما في أيدينا لا نستطيع الوقوف في وجه الإنجليز، فعلينا الاستمرار في عملنا كما هو الآن،أي القيام بالغارات ليلاً والعمل نهاراً، قال: نحن لا نريد أن نعلن الثورة، إنما نريد أن نتسلح ونخرج إلى القرى كي نحثّها ونحضّها على الجهاد. قلت: ولكن يا شيخ إن الجواسيس لن يتركونا، قال سنكون حذرين وأردف: سنخرج نحن والجماعة أما أنتم فعليكم أن تبقوا حيث أنتم لكي تساعدونا[٥٠].

ويؤكد السيد إبراهيم الشيخ خليل في مقالته «رسالة من مجاهد قديم» ما روى إبراهيم الكبير حيث يقول «كان هناك خلاف بسيط على توقيت إعلان الثورة، ففي أوائل عام ١٩٣٥م رأى القائد بأن المستعمر يراقب تحركات القسَّاميين مراقبة دقيقة، وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من أخوانه وإفساد جميع مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين، وكان رأيه الخروج إلى الجبال والطواف بالقرى وحث المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة، وكان رأي الأخ أبي إبراهيم وبعض الأخوان التريث في الخروج إلى الجبال مسلحين بل الطواف بالقرى بدون سلاح وحث المواطنين على ما يلزم للثورة، ولكن هذا الخلاف كان بسيطاً جداً بحيث أنه عندما حزم القائد أمره على الخروج إلى الجبال كان يوجد في الصندوق مبلغ مائة جنيه فأخذه أبو إبراهيم من الصندوق وأرسله إلى القائد مع المرحوم الحاج علي الحلج من قرية يعبد[٥١].

وقبل الخروج دعى القائد في أوائل تشرين الثاني ١٩٣٥ رجال قيادته وتدارسوا الموقف، ثم أصدر أمره[٥٢] القيادي الأول «ليتوجه كل إلى أهله يستودعهم الله ويعاهدهم على اللقاء في الجنة، التجمع في بيت محمود سالم المخزومي» نستدل من ذلك على مدى قوة إيمانهم وعقيدتهم في العمل الذي سيقومون به واضعين أمام أعينهم الشهادة أو النصر المبين والحياة الكريمة.

واختلفت المراجع العربية في مغادرة القسَّام حيفا، أحدها تشير إلى أنه غادرها في ١٢ تشرين الثاني وبصحبته ٢٥ رجلاً[٥٣] من أنصاره قاصدين منطقة جنين، بينما تشير مراجع أخرى إلى أن خروجه كان قبل ذلك، إذ يبدو أنه غادر حيفا ليلة ٢٧/٢٦ تشرين الأول ١٩٣٥ بعد الإضراب الشامل الذي عم فلسطين آنذاك احتجاجاً على عملية تهريب الأسلحة[٥٤] وذلك لدعوة الفلاحين في تلك المنطقة لحمل السلاح في وجه البريطانيين والصهيونيين وإقامة قواعد سرية في قرى جنين لتبدأ بعد ذلك أعمال الثورة التي كان من المحتمل أن تبدأ بعملية عسكرية ذات هدف سياسي بارز بحيث يتم إحتلال مدينة حيفا ثلاثة أيام كاملة لإسماع العالم صوت الثورة قوياً من جهة، ولاستنهاض همم الدول

العربية من جهة أخرى ولإحداث هزة على المستوى الفلسطيني ولا سيما بالنسبة للأحزاب والقيادات حتى توحد طاقاتها وتتخلى عن أساليب الاحتجاج والمذكرات والوفود التي سارت بالقضية إلى الخلف بدلاً من أن تدفعها إلى الأمام[٥٥] وأعتقد أن الأمر مستبعد للأسباب التالية:

أ ـ إن حيفا كانت في ذلك الوقت قاعدة حربية بريطانية.

ب ـ إن الأمر يحتاج إلى مزيد من الاستعداد والعتاد والإعداد والوعي علماً أن عدد أنصار القسَّام لا يتجاوز الثمانمائة.

جـ ـ إن الشيخ عز الدين القسَّام يتميز بالحكمة وصواب الرأي والمعرفة التامة بقوة بريطانيا في فلسطين.

د ـ معرفته التامة عدم استعداد القيادات الفلسطينية التقليدية لتأييده في ذلك العمل.

حقاً كان الشيخ القسَّام حريصاً على عدم اكتشاف أمره وجماعته[٥٦] ولكن حدثت حادثة كشفت عن مركز القيادة القسَّامية في ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥ ويصف أبو إبراهيم الكبير ما حدث فيقول «هاجم مجهولون ليلاً مستوطنة عين حارود» الواقعة شمال شرقي نورس حيث كان القسَّام» ومروا أثناء رجوعهم بالقرب من مركز الشيخ. وفي الصباح مرت دورية من ثلاثة أشخاص إنجليزي ويهودي وعربي مع كلب أثر، وكان محمود سالم ويوسف الذيباوي يقفان حرساً، فلما رأى محمود سالم الدورية سأل الذيباوي عما يفعل، فقال الذيباوي إذا اقتربوا منك أطلق النار، فما كان من محمود سالم إلا أن أطلق النار فقتل الشاويش اليهودي، وعندما سمع الشيخ إطلاق النار، استفسر عن السبب، فأخبر بما جرى، فنادى جماعته وقال لهم: «لنرحل على الفور حتى لا نصطدم بالقوات البريطانية» ومنذ تلك اللحظة بدأت الجماعة مسيرتها، ولكن الجواسيس انتشروا في المكان، فما إن وصلت جماعة الشيخ إلى أحراش يعبد حتى كانت مطوَّقة[٥٧] وتواصلت التعزيزات البريطانية تزيد من كثافة الطوق وتوسع دائرته ليشمل مجموعة من قرى جنين مثل يعبد، اليامون، برقين، كفرذان، فقوعه، صندلة، البارد، وحاصرت قوات الاحتلال عرين البطل المجاهد، ودارت معركة غير متكافئة بين الثامنة والعاشرة صباح ٢٠ تشرين ثاني ١٩٣٥[٥٨] صاح خلالها أحد أفراد البوليس العربي طالباً منهم الاستسلام، فرد عليه الشيخ قائلاً «إننا لم نستسلم، إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن» والتفت إلى رفاقه وقال لهم «موتوا شهداء» كما ناداهم الضابط البريطاني وقال لهم «استسلموا تنجوا» ولكن الشيخ صرخ في وجهه قائلاً «لا لن نستسلم هذا جهاد في سبيل الله والوطن» ثم تلفَّت إلى أصحابه وهتف بهم «موتوا شهداء»

فردد الجميع «لبيك يا فلسطين ـ لبيك يا فلسطين، جئناك مستشهدين ... الله أكبر ـ الله أكبر» كانت نتيجتها أن سقط القائد الشهيد مضرجاً بدمائه[٥٩]. وكان القائد القسَّام يحمل مصحفاً في جيبه وأربعة عشر جنيهاً ومسدساً كبيراً[٦٠] واستشهد معه اثنان من رفاقه[٦١] كما قبض البوليس على أربعة من رفاق القسَّام وهم حسن الباير من قرية (برقين) والشيخ أحمد جابر من (حيفا) وعرابي البدوي من قرية (قبلان) بنابلس والشيخ محمد يوسف من (حيفا) كما استولى على تسع بنادق وبندقية صيد وبندقية سريعة الطلقات وكمية من الذخيرة[٦٢].

لقد كان لاستشهاد القسَّام على هذه الصورة وقع أليم وحزين في جميع أنحاء فلسطين، لقد أطلق عليه الشعب لقباً هو أبو الوطنية[٦٣]. كما أضحى القسَّام منذ صباح ٢٠ تشرين الثاني علماً من أعلام الجهاد يتردد اسمه في البلاد كلها، وكانت الثورة القسَّامية صفعة قوية للساسة الفلسطينيين التقليديين الذين كان الجاه عندهم أهم من الوطن، كما جدد استشهاده في النفوس معنى التضحية والاعتزاز وقوى من عزائم شعب فلسطين الأبي برغم قلة العتاد وضآلة الزاد.

وقد انطلقت الصحافة العربية أثر استشهاد القسَّام مباشرة تشيد بجهاده وبادرت بتسمية أنصاره بـ(عصبة المجاهدين) وأصبحت هذه التسمية فيما بعد عصبة القسَّام، وقد جاءت هذه التسمية رداً على البلاغات الحكومية والأخبار الرسمية التي دعتهم بالعصابة الإرهابية تارة وبعصابة الأشقياء تارة أخرى.

وقد غضبت الصحافة لهذه الإهانة وأخذت تكتب أنهم عصبة وليسوا عصابة وفي رثاء أكرم زعيتر للشهداء في جريدة الجامعة الإسلامية جاء أنهم (عصابة الأشقياء في البلاغ الرسمي وعصبة من الشهداء في سجل القضية»[٦٤].

ورثاه الشاعر فؤاد الخطيب فقال:

أولت عمامتك العمائم كلها ... شرفا تقصر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة ... غير الزعامة والطريق أمان
ما كنت أحسب قبل شخصك أنه ... في بردتيه يضمها إنسان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة ... في الخلد لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت ... فرحاً، وهش مرحبا رضوان[٦٥]

وقد قال جمال الحسيني عن ثورة القسَّام: «ثورة القسَّام ثورة علينا جميعاً شباناً وشيوخاً وكهولاً، إذ يقول كل واحد منا في قلبي إيمان وفي نفسي إخلاص وعزيمة ولكني مثقل وورائي عائلة كبيرة، أخاف

إن خرجت أن يتخطفهم الذل والعار والموت، وليس لدي ما يدفع عنهم عوادي الزمان، يسمع القسَّام ... هذا فيثورون ويخرجون ... يخرجون عمن؟ يخرجون عن أعشاش فيها قطع من اللحم كأفراخ العصافير، ينتظر كل منها معيله ليسقط في منقاره ما يسد به جوعه ويروي عطشه... فيندفع القسَّام وصحبه من تلك الأعشاش لتثبيت المبدأ وإحقاق الحق وإعلاء شأن الإيمان، ونحن إذ نرى منهم ذلك لا يسعنا إلا أن نشعر بتبكيت الضمير واحمرار الوجوه، فندعو الله أن ينير قلوبنا بالإيمان» (٦٦).

فلسطين تودع القسَّام :

سرى خبر استشهاد القسَّام في أنحاء فلسطين مسرى النار في الهشيم، ورأى الشعب بعينه الفارق بين قائد لا يتلفت إلى عرض الحياة الدنيا، فقد ثقف ونظم وناضل حتى استشهد في سبيل الله والوطن، قاتل العدو بالسلاح الذي يقاتله به، وخاطبه باللغة التي يفهمها، لغة النار والرصاص، وبين قادة يلهثون وراء مصالحهم الشخصية وتستغرق خلافاتهم أكثر جهدهم، يخشون على مصالحهم فيكون نضالهم أقرب إلى رجاء سلطة الاحتلال منه إلى مقاومتهم.

وقبل أن يتسلم أهالي الشهداء جثثهم اشترطت سلطات الانتداب شرطين:

أ ـ أن يكون الدفن الساعة العاشرة في صباح الغد وذلك لانشغال الناس في أعمالهم في تلك الساعة مما يؤدي إلى عدم وجود شغب واضطرابات في حيفا.

ب ـ أن تسير الجنازة من بيت الشيخ عز الدين الواقع خارج البلدة رأساً إلى المقبرة في بلد الشيخ فلا يستطاع والحالة هذه السير بالشهداء داخل المدينة (٦٧) وذلك حتى لا يشترك الناس في الجنازة خوفاً من إثارة البغضاء والثورة ضد جنود الإنجليز والصهاينة والعرب الذين يعملون مع السلطات.

ونتيجة لذلك قام الأستاذ أكرم زعيتر بنشر بيان في جريدة الجامعة الإسلامية يدعو الزعماء ورؤساء الأحزاب وبقية الناس للسير في الموكب، ومما جاء في البيان «نمشي غداً في موكب تشييع صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عز الدين القسَّام رئيس جمعية الشبان المسلمين في حيفا وخطيب مسجدها الكبير وأخوانه الذين استشهدوا في يعبد إلى جنبه ونودعهم لحودهم في حيفا» «وأني لأدعو هذا اليوم الزعماء ورؤساء الأحزاب إلى السير في الموكب» (٦٨).

حمل المواطنون جثمان الشيخ عز الدين القسَّام وجثمان الشيخ يوسف عبدالله الذيباوي وجثمان

سعيد عطية المصري إلى مسجد الجريئة (النصر) رغم أنف السلطات، وبعد صلاة الجنازة أبّن الشيخ يوسف الخطيب قاضي مكة الأسبق الشهداء بكلمة مؤثرة بيّن فيها أجر الشهداء عند ربهم(٦٩).

وبعد ذلك سار موكب الجنازة مجلّلاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية (٧٠) وذلك تعبيراً عن إيمان الشعب الفلسطيني بالوحدة العربية التي عبّر عنها الشيخ الشهيد بالروح والدم. وانقلبت الجنازة إلى مظاهرة وطنية نادوا بسقوط الاستعمار البريطاني والوطن القومي اليهودي، وحدث صدام بين الشباب العربي وبين شرطة الانجليز جرح على أثره ثلاثة من الإنجليز وآخر عربي (٧١)، وأبت الجماهير التي تبلغ عشرين ألفا(٧٢) إلا أن تُشيّع الشيخ عز الدين القسّام إلى مقره الأخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلومترات مشتها على الأقدام، وقد وصف شاهد عيان الجنازة بقوله: «آلاف المشيعين والجثث على الأكف مرفوعة تصرخ «الله أكبر ـ الله أكبر» والنساء يزغردن من السطوح والشرفات والنوافذ، والكشافة ينشدون أناشيد تثير النخوات ثم ارتفع صوت ـ والجثث مرفوعة ـ يصرخ: الانتقام ـ الانتقام، فرددت الألوف بصوت واحد كالرعد القاصف: الانتقام ـ الانتقام، وبعد جهد شاق سار الموكب وئيداً ونحن وراء النعوش وأصوات «الله أكبر ـ الله أكبر» تدوي في الآفاق(٧٣) وقد ووريت الجثث في حالتها الطبيعية وفي ملابسها المخضبة بالدماء الزكية، وقد استغرق السير بالجنازة من الجامع الكبير في ساحة الجرينة إلى مقبرة الياجور ثلاث ساعات ونصف الساعة (٧٤).

وقد حضر الجنازة وفد من نابلس مكون من عادل زعيتر وأكرم زعيتر، راشد أبو غزالة بشير الشيخ ياسين، الحاج فوزي الخياط، حريز الحبش، وكذلك صبحي الخضراء ورشيد الحاج ابراهيم(٧٥). أما بقية الزعماء السياسيين فقد تخلفوا عن السير في الجنازة، وكانت برقيات التعزية التي أرسلوها فاترة، إذ لم يفتهم التنبه إلى أن حركة القسّام كانت بمثابة دليل على عقم أساليبهم، كما أن تضحيته وتجرده فضحت نفعيتهم وأنانيتهم(٧٦).

وقد نُعي الشيخ الشهيد عز الدين القسّام ورفاقه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب(٧٧).

وكان لاستشهاد القسّام أثر عميق في فلسطين كلها، فأيقظهم من غفلتهم وأفهمهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تخاطب به السلطة المنتدبة، وأن لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها وهكذا برهن القسّام أن الكفاح المسلح والإيمان الوطني الصحيح هما الطريق

لمقاومة سلطة الانتداب واليهود في فلسطين، وأصبح الرأي العام ينظر إلى القسَّام وأتباعه نظرة تقدير بالغ وإكبار عظيم للأبطال الشهداء.

الخاتمة

يعتبر جهاد الشيخ عزالدين القسَّام رائد النضال القومي في فلسطين، فقد كان معروفا بالوطنية الصادقة، وعرف عنه الحذق في تشكيل التنظيمات السرية الفعالة.

وكان العامل الديني هو العامل الأساسي في قيام الشيخ الشهيد عزالدين القسَّام في ثورته، فهو شخصية دينية كبيرة ورجل ذو مكانة اجتماعية، ولكن تربيته الدينية وفهمه للاسلام جعلاه رافضاً للظلم مستعداً لمقاومته، ليس لمجرد الإسهام في تحرير جزء من وطنه بل تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى من وجوب الجهاد في سبيله ومقاومة الظلم والظالمين.

وقد ألقت ثورة القسَّام ظلا كبيرا على المسرح السياسي الفلسطيني وأصبحت كل محاولة لاقامة تقارب بين الفلسطينيين والسلطات الحكومية مكتوبا عليها الفشل، حيث أكّدَ القسَّام بأنه لا حل لقضية فلسطين إلا عن طريق الجهاد الاسلامي وان الأحزاب ما هي إلا عبث وفساد وألاعيب إذا لم تكن قائمة على الايمان الصحيح.

والحق لقد كان استشهاد عزالدين القسَّام ورفاقه في أحراش يعبد بمثابة الشرارة التي اشعلت نار الثورة في صدور العرب وحفَّزتهم للمقاومة سنة ١٩٣٦ ضد بريطانيا والصهيونية.

●●●

الهوامش:

(١) عبد العزيز السيد أحمد: عز الدين القسَّام ط١ ١٩٧٧ ص ٧ ـ ٨.
(٢) كامل محمود خلة: فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩، مركزا الأبحاث ١٩٧٤ ص ٣٧٥.
(٣) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ١٢.
(٤) عادل حسن غنيم: «ثورة الشيخ عز الدين القسَّام» شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢م ص ١٨١.
(٥) صالح مسعود بو بصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح ١٩٦٩ ص ١٧٥.
(٦) بيان نويهض الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ مؤسسة الدراسات ـ بيروت ١٩٨١ ص ٣١٩.
(٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٥، دار الهناء للطباعة ١٩٥٩ ص١٩ ـ ٢٠.
(٨) أميل الغوري: ملحمة الفداء الفلسطيني ـ الهيئة العربية العليا ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٩) صالح مسعود بو بصير: المرجع السابق ص ١٧٦ ـ ١٧٧.



(١٠) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٨، بيروت ٨١ ص ٢٩٣.
(١١) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٢٥.
(١٢) شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢ ص ١٨٢.
(١٣) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٥.
(١٤) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٢.
(١٥) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ في ١٩٦٩/٩/١٥ ص ٢٤.
(١٦) شؤون فلسطينية: عدد ٦ ص ١٨٢.
(١٧) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢٠ ـ ٢١.
(١٨) صالح مسعود أبو بصير: المرجع السابق ص ٧٦ ـ ١٧٧.
(١٩) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٣.
(٢٠) إبراهيم الشيخ خليل: «رسالة من مجاهد قديم» مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧ في آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٢١) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٥.
(٢٢) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢١.
(٢٣) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٩٣.
(٢٤) شؤون فلسطينية عدد ٧ ص ٢٦٩.
(٢٥) عادل حسن غنيم: «ثورة عز الدين القسّام» مجلة شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢ ص ١٨٢.
(٢٦) محمد عزة دروزه: حول الحركة العربية الحديثة ج٣ ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢٧) كامل محمود خلة: المرجع السابق ص ٣٧٨.
(٢٨) أميل الغوري: فلسطين عبر ستين عاماً ص ١٩٧.
(٢٩) مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧ آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٩.
(٣٠) أميل الغوري: فلسطين عبر ستين عاماً ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(٣١) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ـ ص ٢٣٩.
(٣٢) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٧.
(٣٣) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣٤) لقد تم اختيار نحلال لما لها من أهمية عند الصهاينة، وقد اعترف وايزمان بذلك بقوله «إن نحلال مستعمرة ذات قيمة خاصة في نظري لأنها فيها ابتدائي لسبا حتى وبها أختمها وهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر ولست أبالغ إذا وصفتها بأنها قلب المرج «انظر الجامعة العربية عدد ٥٥٣ في ٢٠ آذار ١٩٣٢.
(٣٥) جريدة الجامعة العربية: عدد ٩٨١ بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٩٣٢.
(٣٦) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٨.
(٣٧) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٢.
(٣٨) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٣٩) حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، دار المعارف بمصر ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥.
(٤٠)
(٤١) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٤٢) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨٣.
(٤٣) ناجي علوش: المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ ص ١٠٢.
(٤٤) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٩٣.
(٤٥) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٤٦) رفضت لجنة ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب الفلسطينية إعلان الأضراب بمناسبة وعد بلفور، الأمر الذي أدى إلى انتقادات عنيفة ضد الزعماء.
(٤٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ص ١١.
(٤٨) أميل الغوري: فلسطين عبر ستين عاماً ص ٢٥١ - ٢٥٢.
(٤٩) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.
(٥٠) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ ص ٢٧ - ٢٨.
(٥١) شؤون فلسطينية عدد ٧ آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٧.
(٥٢) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٣٨.
(٥٣) يروي دروزة أن عدد الذين خرجوا مع القسَّام كانوا عشرة هم: يوسف الذيباوي، حنيفة المصري، نمر السعدي، أسعد المفلح، حسن الباير، أحمد عبد الرحمن جابر، عرابي البدوي، محمد يوسف، محمد الحلحولي، معروف الحاج جابر، انظر محمد عزة دروزه: حول الحركة العربية الحديثة ج٣ ص ١١٦.
(٥٤) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.
(٥٥) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٣٨.
(٥٦) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.
(٥٧) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ ص ٢٨.
(٥٨) يقول عبد الوهاب الكيالي «بأن» المجاهدين خاضوا المعركة في ١٩ تشرين الثاني.
(٥٩) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٣٨.
(٦٠) الجامعة الإسلامية في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥.
(٦١) هما يوسف عبدالله الذيباوي من قرية الذيب (عكا) والسيد/ سعيد عطية أحمد مصري الأصل.
(٦٢) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر - الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ - ١٩٣٩. مؤسسة الدراسات الفلسطينية ط - بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩.
(٦٣) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٩٢.
(٦٤) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣١٨.
(٦٥) صالح مسعود بو بصير: المرجع السابق ص ١٧٧.
(٦٦) جريدة الجامعة العربية: عدد ١٧٢٥ في ٧ كانون ثاني ١٩٣٦.
(٦٧) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر (الحركة الوطنية الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ط١ بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩.
(٦٨) المصدر نفسه: ص ٢٩.
(٦٩) المصدر نفسه: ص ٣٢.
(٧٠) شؤون فلسطينية: عدد ٦ كانون الثاني ١٩٧٢ ص ١٨٦.
(٧١) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨٢.
(٧٢) كامل محمود خله: المرجع السابق.
(٧٣) أكرم زعيتر: المصدر نفسه ص ٣٢.
(٧٤) أكرم زعيتر: المصدر نفسه ص ٣٢.
(٧٥) أكرم زعيتر: المصدر نفسه ص ٣٢.
(٧٦) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٨٥ - ٢٩٦.
(٧٧) شؤون فلسطينية عدد ٦ ص ١٨٦.

نزعة التعصب بين العرب والموالي في الشعر الأموي

د. السيد أحمد عمارة



تتردد كلمة الموالي كثيراً في العصرين الأموي والعباسي، فما مدلولها؟ وما المراد منها في هذا الحديث؟

الموالي : جمع مولى، وهو من ألفاظ الأضداد، فالمولى المنعم المعتق، والمولى المنعم عليه المعتق(١). كما يطلق على ابن العم وعلى الحليف، وعلى الجار وعلى الصهر، وعلى المالك وعلى الرب، وإلى هذه المعاني التي ترجع في جملتها إلى النصرة والمحبة تشير كتب اللغة(٢). والمقصود بهم هنا كل من أسلم من غير العرب، سواء استرقّ أو لم يسترقّ، لأنهم إما أن يكون أصلهم أسرى حرب، استرقوا ثم اعتقوا فصاروا موالي، وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة، وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويتحالفون معهم، لكي يعتزوا بقوتهم، فيصبحوا موالي بالحلف والموالاة، وبذلك سمي العجم موالي، لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب، وكان للعرب استرقاقهم، فإذا تركوهم أحرارا فكأنهم اعتقوهم، والموالي هم المعتقون(٣).

وفي العصر الأموي اتسعت رقعة الدولة الاسلامية، وتم في عهدها أغلب الفتوحات العربية، حتى أصبحت بلاد فارس أشبه بجزيرة عربية وسط المحيط العربي الكبير الذي امتد بين الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن فرنسا شمالا إلى أواسط إفريقية جنوبا، وبذلك أظلت الدولة شعوبا شتى من أجناس متعددة، وكان غالبية الموالي من الفرس والروم، ثم المصريين والنوبيين وغيرهم.



هؤلاء جميعاً أظلهم الإسلام وعاشوا تحت لوائه، ودخل منهم عدد كبير فيه وكان من المفروض أن يسير خلفاء بني أمية على نهج أسلافهم الخلفاء الراشدين الذين هدهدوا من العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد أسلافهم الجاهلين، وخففوا من غلوائها، امتثالاً لقول الحق سبحانه: «إنما المؤمنون إخوة»[٤] وقول الرسول الكريم في حجة الوداع: «... أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[٥] وغير ذلك من آيات الذكر الحكيم والهدي النبوي الشريف الذي يجعل التقوى معياراً للمفاضلة والموازنة بين الناس، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوي بين العربي ومولاه في العطاء، وحين جاءه بنو عدي ـ وهم عشيرته ـ طالبين منه أن يفضلهم على مواليهم ويزيد في عطائهم غضب وقال لهم: «بخ بخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري وأن أهب حسناتي لكم، والله لئن جاءت الأعاجم بعمل، وجئنا بغير عمل لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه»[٦].

فعمر الخليفة العادل يسوي بين العرب ومواليهم، لأنهم بدخولهم في الإسلام أصبحوا إخوة ولم يكن هناك ما يدعو للتمايز أو التفاضل، وإن كان سؤالهم هذا يدل على ميلهم إلى التعصب للعرب، ونفرتهم من المساواة بينهم وبين مواليهم، المهم أن عمر زجرهم وهو خليفة المسلمين الذي يصدر الناس عن أمره وينزلون على حكمه، ومن قبل عمر حقق الرسول ﷺ المساواة العملية بين الناس حين وضع من أسلم من الموالي من أمثال بلال الحبشي وسلمان الفارسي جنباً إلى جنب مع المسلمين من العرب ذوي المكانة العالية والمنزلة الرفيعة، فقد احتل سلمان الفارسي مكانة سامية من نفس رسول الله ﷺ وأصحابه، إلى الحد الذي جعله الرسول من خاصته وآل بيته، فكان يحدّث عنه قائلاً «سلمان منا آل البيت» وقد ولي قسمة الغنائم بين المسلمين في واقعة جلولاء، وكان يقول مفتخراً بإسلامه «أنا ابن الإسلام»[٧].

وكان عمر يقول حين يتذكر صنيع أبي بكر وعتقه لبلال: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا[٨]، فنزعة تفضيل العرب على غيرهم كادت تمّحى من النفوس طوال عهد الرسول والراشدين من بعده، وكثيراً ما كان يتاح لهذه النزعة أو للعصبية القبلية فرصة الظهور، فلا تكاد تظهر إلا نادراً، إذ إن سياسة الخلفاء الراشدين الرامية إلى التسوية بين الناس جميعاً والقضاء على نظام الطبقات كانت قد خففت من حدتها، حتى جاء عصر الأمويين، فوجدنا العصبية القبلية تطل بشبحها البغيض، فكان العربي يفخر بقبيلته في الإسلام كما كان يفخر بها في الجاهلية، وربما كانت النقائض التي اشتهر بها هذا العصر

تعبيراً عن روح هذه العصبية وانعكاساتها، فقد حكى المبرد أن رجلاً من الأزد كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه، فقيل له ألا تدعو لأمك؟ فقال إنها تميمية[9]. وكأن عصبية هذا الأزدي قد أعمته عن الصواب وأوردته موارد العقوق والعصيان في حين أنه كان يؤدي فريضة الحج وهو الوقت الذي تصفو فيه نفس الإنسان فيتجرد من حوله وطوله ويقبل على ربه بكليَّته عسى أن يغفر ذلته ويقبل توبته ثم أخذت هذه العصبية تنمو، حتى وجدنا تعصباً للجنس العربي كله ضد الشعوب الأجنبية على حد قول أحدهم: [10].

إنَّا من النفر الذين جيادهم طلعت على عاد بريح صرصر
وسلبن تاجي ملك قيصر بالقنا واجتزن باب الدرب لابن الأصفر

وأصبحوا ينظرون إلى الأعاجم ـ من أسلم منهم ومن لم يسلم ـ نظرة هي مزيج من البغض والاحتقار ولعل مرد ذلك إلى ضعف سريان روح الإسلام في نفوسهم لبعد عهدهم بصاحب الرسالة من جهة، وللنعرة العربية المتأصلة في نفوسهم منذ القدم بحكم الحياة البدوية التي غرست فيهم حب الأنفة والكبرياء من ناحية أخرى، وربما كانوا ينظرون إلى أصحاب هذه البلاد المفتوحة على أنهم فيء أفاء الله به عليهم فأعتقوا رقابهم، وكان ذلك سبباً في إشعال نار العداوة في نفوس الأعاجم كتيار عكسي لما كان من بني أمية.

يقول الأستاذ أحمد الشايب معلقاً على هذا الاتجاه: «ولما استطال العرب على الموالي واحتقروهم، واعتبروهم دونهم دما، وجنسا، ولغة، وأدبا، وشجاعة، وخلقا، تولد في نفوس الموالي تيار عكسي نقموا به على العرب لخروجهم على الإسلام الذي يسوى بين أهله ولا يعرف جنسا ولا طبقة... وهكذا نشأت أصول الشعوبية التي أثارت جدلاً شديداً في الدولة العباسية[11].

ويلتمس بعض الباحثين العذر لمسلك بني أمية نحو الموالي، ويرى أنه موقف طبيعي يلائم سنة التطور، ويتفق وطبيعة الأشياء، فسلك الأمويين من الموالي لم يكن أمراً غريباً .. بل كان ضرورة تحتمها الظروف والملابسات التي كانت قائمة آنذاك، فالأمويون من الجنس العربي الفاتح، وإليهم آل الحكم وتدبير الأمر، بالإضافة إلى أن العربي هو الجنس الفاتح المنتصر، والموالي مسترقّون لهم، وأنهم أجناس مغلوبة على أمرها فن السياسة إذن كبح جماح هذه الأجناس، وتذكيرهم بالسيطرة العربية حتى يتطامنوا ويخضعوا لها، ولا تحدثهم نفوسهم بالخروج عليها[12].

وإذا كان هذا تعليلاً لموقفهم من الموالي إلا أنهم بهذه السياسة قد نقضوا مبدأ هاماً من المبادىء

التي أرساها الإسلام وهي المساواة التامة بين معتنقيه، فلم تحاول الدولة أن تسوي بين العرب وبين أجناس الشعوب التي دخلت تحت سيطرتها، أو تتألفها، وتحكم فيهم بحكم الإسلام، بل على العكس من ذلك تحيزت للجنس العربي وقلدته كل مناصب الدولة، وحرمت الأعاجم من أن يلوا أمراً، باستثناء عدد قليل جداً من الوظائف. بل إنها ألزمتهم مواضع بعينها لا يتجاوزونها حتى لا يتغلغلوا في المجتمع العربي، وألزمت الداخلين منهم في الإسلام بالولاء لقبيلة عربية، وربما حرَّمت عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام، كما فعل الحجاج حين أعادهم إلى قراهم بالقوة[١٣] ولذلك يقول عنهم: إنما الموالي علوج، وإنما أتى بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، وقد أمر بترحيلهم من الأمصار وأقر العرب بها، وإمعاناً في إذلالهم، وتعبيراً عن هوانهم أمر أن ينقش على يد كل منهم اسم قريته، حتى لا يفر منها إلى غيرها، ويسهل عليه الاستدلال عليها إن ضل عنها، وكان الذي تولى ذلك رجل من بني سعد بن عجل، فقال شاعرهم مشيراً إلى ذلك[١٤]:

وأنت من نقش العجلي راحته ... ففرشيخك حتى عاذ بالحكم

كما عبر عن ذلك أحد الرجاز قائلاً[١٥]:

جارية لم تدر ما سوق الإبل ... أخرجها الحجاج من كن وظل
لو كان بدر حاضراً وابن حمل ... ما نقشت كفَّاك في جلد جلل

وازداد الأمر سوءاً حين رفض الأمويون إسقاط الجزية عمن أسلم من الموالي حتى لا يتأثر بيت المال، وإن كان عمر بن عبد العزيز قد رفض هذا الوضع الجائر طوال حياته لكن الأمر ما لبث أن عاد إلى ما كان عليه بعد وفاته لأن ذلك كان لا يمثل سياسة الدولة، فلا عجب أن نجد العناصر الأعجمية تحن إلى مجدها القديم، فتيقظت في نفوسهم النزعات القومية التي اصطدمت بالعصبية العربية، فكان بينهما صراع عنيف، بدأ ظهوره في هذا العصر، وبلغ غايته في العصر العباسي، وقد مثل الشعر هذا الصراع، والواقع أن الصراع بين العرب والفرس، أو بين العرب والشعوبية بمفهومها العام الذي يتضمن العداء للعرب والإحساس بالتميز عليهم بدأ منذ العصر الجاهلي حين فكر كسرى في غزوهم، فأخذوا ينوهون بفضلهم، وبما لهم من سجايا تفوقوا بها على سائر الأمم رداً على انتقاص كسرى لهم واستهانته بأمرهم، فهذا عمرو القضاعي يفتخر بانتصار قبيلته على الفرس حين أغارت عليهم، منوهاً بفروسيتهم والروح الحربية التي كانت تسيطر على هذا الجمع الحاشد من الجنود والفرسان[١٦]:

لقيناهم بجمع من علاف ... وبالخيل الصلادمة الذكور

فلاقت فارس منَّا نكالا وقتَّلنا هرابذ شهر زور
دلفنا للأعاجم من بعيد بجمع كالجزيرة في السعير

والأعشى يتخذ من انتصار بني شيبان على الفرس في يوم «ذي قار» مادة خصبة للفخر بهم، فأخذ يصور قوتهم، وما لقيت فارس على أيديهم من ذل وانكسار(١٧):

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلَّت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر مقدمة الهامرز حتى تولت

إلى أن يقول:

أذاقوهمُ كأساً من الموت مرة وقد بذخت فرسانهم وأدلَّت

وقد فاضت ألسنة كثير من الشعراء بالنصر الذي تحقق في هذا اليوم كرد فعل لما كان يحس به العرب من عداء الفرس لهم وغطرستهم، والرغبة في إخضاعهم والتطاول عليهم، وفي الإسلام أحس الفرس الذين أزال العرب ملكهم الكسروي وحرروا أرض العجم من جورهم ونشروا الإسلام في ربوعها أحسوا بعداء شديد للعرب، وأخذوا يتحينون الفرصة للانتقام منهم ومحاولة التخلص من سلطتهم وإعادة الدولة الفارسية، وتمثل ذلك في مقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب على أيديهم حيث تم في عهده فتح بلاد الفرس والروم، ولذلك عمدوا إلى قتله والتخلص منه، فعمد أبو لؤلؤة «فيروز» المجوسي غلام المغيرة بن شعبة إلى المسجد متسللاً بين الصفوف، وطعنه عدة طعنات أودت بحياته، كما كانت نهاية الإمام علي رضي الله عنه على أيديهم حين تمكن الشعوبي الفارسي عبد الرحمن بن ملجم من قتله، وهو يؤم المسلمين في مسجد الكوفة، وظل الموالي طوال هذا العصر يخفون ما في صدورهم من عصبية على العرب، هذه العصبية التي كانت تظهر أحياناً كلما لاحت لها فرصة الظهور على يد الذين تعلموا العربية منهم وفاض الشعر على ألسنتهم، وإن كان الشعر المعبر عن حقيقة موقفهم، والمشحون بالثورة والتمرد على العرب لم يصلنا منه إلا القليل ربما يكون ضاع فيما ضاع من التراث، لأن الدولة لم تجز إذاعته، أو أن الرواة تحفظوا في نقله لأنه يجرح مشاعر المسلمين ويسيء إليهم، كما يتضمن السخط على الخلفاء والحاكمين وعلى النظام الاجتماعي الذي بدت فيه مظاهر الطبقية المقيتة، وإذا كان شعر الموالي في هذه الفترة قد فقد، فإن ما بقي منه هو ما اتصل بالدولة الأموية مديحاً للخلفاء وتقريظاً لسياستهم أو فضحاً لأعدائهم، وقد فطنت الدكتورة «بنت الشاطىء» للوقوف على هذه الحقيقة حين ذكرت: «ضاع شعر الموالي أو صودر، ولم يضع شعر «نصيب» لأنه

كان من شعراء البلاط الذين استأثروا بالشهرة، واشتهر معهم من شعراء الحزب الزبيري «عبدالله بن قيس الرقيات» لأنه تنكر لماضيه وتعلق بركاب عبد الملك بن مروان ... فلو لم تتصل أسباب هؤلاء الشعراء بالقصر لكانوا مظنة أن يوضعوا في منطقة الظل»[١٨] وقد عبر الشعر العربي عن نظرة العرب إلى الموالي بصورة صريحة وواضحة حين نزل جرير بن عطية الخطفي بقوم من بني العنبر ورفضوا أن يضيّفوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف غاضباً مذكراً إياهم أن بيع القرى لا يمكن أن يصدر من عربي، فالبيع لا يكون إلا للموالي، وفي هذا احتقار لمشاعرهم وتصريح بأنهم يباعون بيع السوام[١٩]:

يا مالك بن طريف إن بيعكم رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكه بيعاً فقلت لهم بيعوا الموالي واستحيوا من العرب

ويعلق المبرد على ذلك بقوله: «إن جلة الموالي أنفت من هذا البيت، لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً»، واعتمد بعض الشعراء في هجائه لفريق من العرب على أنهم ليسوا بعرب، بل هم كالفرس أو الروم أو الأنباط، ولذلك فقد استحقوا الذم واستوجبوا الهجاء.

فالفرزدق يسمى طيئاً الأنباط ويقول فيهم:

وما كنت أخشى طيئاً أن تسبني وهم نبط لم تعتصب بالعمائم
نبيط القرى لم تختمر أمهاتهم ولا وجدت مَسَّ الحديد الكوالم
متى يهبط الطائي أرضاً ولم يكن به وشم موشوم يكن غنم غانم

فهو لا يعبأ بهم ولا يبالي بهجائهم لأنهم نبط أوكالنبط، فلا يضره قدحهم ولا ينفعه مدحهم وكأنه يعالن ويجاهر في صراحة أنه لا يخشى الهجاء ولا يطرب للمديح إلا إذا كان صادراً من عربي صليبة، ويبدو أن الفرزدق اتخذ من جوار طيء للأنباط منطلقاً يلج منه إلى هجائهم يقول في هجاء أيوب بن عيسى الضبي:

فلو كنت قيسياً إذا ما حبستني ولكن زنجياً غليظاً مشافره

وتظهر نظرة **الأمويين غير المتكافئة** للموالي في إبعادهم عن مناصب الدولة بينما استأثروا هم بكل وظائفها، لأن العرب ـ في نظرهم ـ لا يخضعون لغير العرب، فإذا حدث وتولى أحد الموالي منصباً **لكفاءته** واقتداره على القيام بتبعاته عدَّ ذلك أمراً غريباً، وخروجاً على النهج السوي بل كارثة تؤذن

بقيام الساعة، وقد صور ذلك أحد الشعراء حين ولي «نوح بن دراج» ـ وكان من الموالي ـ قضاء الكوفة، مع استحقاقه لذلك[٢٠]:

إن القيامة فيما أحسب اقتربت ... إذ كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيًّا له الحجاج ما بقيت ... صحيحة كفه من نقش حجاج

فهذا الشاعر يرى أن الأمر وسد لغير أهله، وقلبت الموازين وهو ما يؤذن بقرب الساعة ورحم الله الحجاج الذي كان يسم أيدي النبط بالمشراط، ويعاملهم بما يستحقون، ولا شك أنه كان ينفذ سياسة الأمويين الرامية إلى الاستعلاء على كل من ليس بعربي، على أن هذا النقش كان علامة إذلال وامتهان حتى استغله الشعراء في هجائهم.

وتتأكد هذه النزعة لدى العرب حين نراهم يحجمون عن مصاهرة الموالي، ويترفعون عن تزويجهم ويرون أن زواج الموالي من العرب فيه من النقيصة والعار، فوق ما يتحمله العربي الأصيل الذي يتخذ من صراحة النسب مجالاً للمباهاة والمفاخرة، فحين تزوج أحد الموالي بفتاة عربية من بني سليم، وشي محمد بن بشير الخارجي إلى والي المدينة، واستعداه عليه، ففرق بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه.

يقول محمد بن بشير يبارك عمل الوالي ويمتدح قضاءه[٢١]:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ... ولم ترث الحكومة من بعيد
إذا غمز القنا وُجدت لعمري ... قناتك حين تغمز خير عود

إلى أن يقول:

وفي المائتين للمولى نكال ... وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالي من مزيد
فأي الحق أنصف للموالي ... من اصهار العبيد إلى العبيد

وليست هذه حالة فردية، فإن من يقرأ قصيدة أبي بجير في تأنيب عبد القيس وسخريته منهم لتزويجهم الموالي تتأكد له هذه النزعة، ويرى أن العرب كانوا ينكرون هذا الاقتران ويحاربونه، ويرون فيه مذلة وهواناً، وكأنه ليس بزواج، وإنما هو اعتداء على الحرمات مهما علت منزلة المولى حتى لو كان من سراة الأعاجم، فأين الحفاظ على الأعراض ورعاية حق النسب؟ إنهم بفعلتهم هذه استوجبوا الخزي، وانسلوا من صفوف العرب، فلا يحق لهم فخر بعد ذلك[٢٢]:

أمن قبلة إلى أن قبلتم دعاوة زراع وآخر تاجر
وأصهب رومي وأسود فاحم وأبيض جعد من سراة الأحامر
مشى قال إني منكم فصدق وإن كان زنجياً غليظ المشافر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم فجدْعاً ورغماً للأنوف الصواغر

إلى أن يقول:

أأطمع في صهري دعيا مجاهراً ولم نر شراً من دعى مجاهر

ولذلك فلسنا مع القائلين بأن نظرة العرب إلى الفرس أو غيرهم من الأعاجم لم يكن فيها شيء من تعال، أو إثارة من عصبية، وإنما كانوا يحتضنون جميع الأمم التي شاركتهم الإسلام، وشاطرتهم التفيؤ بظلال الدولة العربية ومنحوهم أصفى الود وأعمق مشاعر الإخاء(٢٣).

صحيح أن نزعة التعصب هذه قلت بتحسن أحوال الموالي وحيازتهم للأموال وإقبالهم على الثقافة العربية والإسلامية، ونبوغ بعضهم فيها، وكلما اتجهنا إلى نهاية الدولة الأموية كلما ازدادت فرصتهم في التزوج من العرب، حتى سمعنا من يدافع عن حقه في الإصهار إليهم رغم المعارضة الشديدة التي كانت موجودة آنذاك، فيحيى بن أبي حفصة جد مروان بن أبي حفصة كان مولى لعثمان بن عفان وقد أعتقه يوم الدار، وحين تزوج يحيى هذا من عمرة بنت ابراهيم بن النعمان بن بشير وأصدقها عشرين ألف درهم، ثار جدل طويل حول هذا الزواج، ولام الناس إبراهيم، وقالوا زوجت عبداً وفضحت أباك، وخالفت ما تعارف عليه الناس، ولو عاش آباؤك وأجدادك إلى الآن لرفضوا هذا القران غير المتكافىء، والذي هو أشبه بصنيع اللئام، يقول أحدهم معيِّراً إياه(٢٤).

لعمري لقد جللت نفسك خزية وخالفت فعل الأكثرين الأكارم
ولو كان جداك اللذان تتابعا ببدر لما راما صنيع الألائم

فقال إبراهيم بن بشير يرد على لائميه الذين أرادوه على انتزاعها:

لما تركت عشرون ألفا لقائل مقالا ولم أحفل مقالة لائم
فإن كنت قد زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحُب الدراهم

ويبدو من هذا الرد أن إبراهيم لم ير غضاضة من التزوج إلى الموالي، لأن الدراهم قد أنسته عصبيته، أو خففت ـ على الأقل ـ من حدتها، بحيث لم يعد هنالك مجال للوم اللائمين، لا سيما وأن

هذه هي وجهة النظر الإسلامية التي تسوي بين المسلمين دون نظر إلى جنس أو لون، وقد جرت بذلك سنة الخلفاء الراشدين.

والعجير السلولي حين غاب عن الشام جعل أمر ابنته إلى خالها طالباً أن يزوجها بكفء، ولما خطبها مولى لبني هلال ذي مال رغبت فيه أمها وأمرت خالها أن يزوجها منه، ولما قدم العجير فسخ النكاح وخلع ابنته من المولى مستنكراً ما حدث مع قرابتها لأمير المؤمنين، مهدداً إذا لم يتم الفراق فلا بد أن يراق دمه حتى تخضب به الأرض[٢٥]:

ألا هل لبعجان الهلالي زاجر ... وبعجان مأدوم الطعام سمين
أليس أمير المؤمنين ابن عمها ... وبالحنو آساد لها وعرين
تنالونها أو يخضب الأرض منكم ... دم خر عنه حاجب وجبين

المهم أننا حين نتقدم في هذا العصر نجد هناك من يوافق على هذا الزواج، سواء أتم كما في حالة زواج يحيي بن عمرة، أم حصل التفريق بعد ذلك.

ويبدو أن نصيباً كان يدرك مكانة الموالي الاجتماعية في وسط مجتمع يتباهى بالأنساب ويحسب لها ألف حساب فإذا كان عبد الملك بن مروان قربه منه فإنه كان يعلم أنه ما اكتسب هذه المنزلة إلا بتعلمه للغة العربية وموهبته الشعرية وحسن جوابه ولم يكتسبها بانتمائه إلى أم أو أب شريفين، وقد حدّث بذلك عن نفسه حين دعاه عبد الملك إلى الطعام معه فقال له: «إن لوني حائل وشعري مفلفل وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أمٍ أو أبٍ أو عشيرة، وإنما بلغته بعقلي ولساني»[٢٦].

وبعضهم كان يشعر بهوانه لا سيما السود منهم، حتى شكى نصيب هذا إلى عمر بن عبد العزيز انفضاض الناس عن الزواج من بناته لسواد بشرتهن، فأعطاه سيدنا عمر إرضاء لنفسه وتطييباً لخاطره.

ولم تكن نظرة العرب هذه تقف عند حد امتناعهم عن التزويج إليهم بل كانت تمثل إتجاهاً عاماً ـ على الأقل ـ عند الخلفاء والولاة، عبر عنه جرير في قوله:[٢٧]

وما جعل القوادم كالذنابى ... وما جعل الموالي كالصميم

فإحساس العرب بامتيازهم عن رعاياهم من غير العرب كان يزداد عمقاً باتساع اتصالهم المباشر بهم وكان شعورهم بالسخط والغضب على ما يرونه من إفساد لنقائهم العنصري من جراء اختلاط هؤلاء الأجانب بهم بارزاً، في هجاء الشعراء ونقائضهم[٢٨].

كما أنها لم تكن قاصرة على الموالي فحسب، بل امتدت إلى المولدين، فكانوا يحتقرون ابن الأمة من العربي ويسمونه بالهجين إشارة إلى ما لحقه من نقص، والتاريخ الأدبي خير شاهد على ذلك، حين سابق عبد الملك بن مروان بين سليمان ومسلمة الذي كانت أمه أمة وسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك متمثلاً بقول القائل[٢٩]:

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

إلى أن يقول:

وأدركنه خالاته فنزعنه ألا إن عرق السوء لا بد يدرك

لكنها كانت أقل حدة بالنسبة لهم نظراً لعملية المزج والإقتران بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى والتي ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري، حتى رأينا بعض الخلفاء يتقلدون شئون الحكم وليسوا بعرب خُلَّص بل أمهاتهم أمهات أولاد، كيزيد بن الوليد، ومروان بن محمد وغيرهما، ومن الطبيعي ألا تكون معاملتهم للموالي كغيرهم، ومنهم خئولتهم.

مع أن النظرة الإسلامية الصائبة تجافي هذا الاتجاه، وتمنع من هذا المسلك البغيض الذي يوغر الصدور ويملؤها بالحقد والكراهية، فالإسلام في عدالته وسماحته لا يجد غضاضة في أن يتزوج المولى من العربية أو يقترن العربي بالأعجمية، لكن الأمويين أحيوا هذه العصبية البغيضة التي حاربها الإسلام، وحاول أن يجتث جذورها ويقتلعها من النفوس بعد أن سيطرت عليها زمناً طويلاً وكانت دعوته صريحة في ذلك، تمثلت في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وفي سيرته وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده، كما تمثلت في شعر بعض شعراء المسلمين في هذا العصر الذين أدركوا أن الفخر الحقيقي إنما يكون بالإسلام، وليس بالحسب الزائل أو النسب الموروث، على حد ما نجد عند نهار بن توسعة في قوله[٣٠]:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

أو قول تميم بن أبي بن مقبل:

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

وقد أشار الأستاذ أحمد أمين إلى موقف الأمويين من رعاياهم، ونعى على سياستهم تلك التي لا يقرها الإسلام حين قال: «والحق أن الحكم الأموي لم يكن حكماً إسلامياً يسوى بين الناس ويكافىء من أحسن عربياً كان أو مولى، ويعاقب من أساء عربياً كان أو مولى .. وكانت تسود العرب النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية، كما كان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل»[٣١] ويرى بعض الباحثين أن هذا الموقف التي اتخذته الدولة من الموالي كان سبباً في اشتغالهم بالعلم ونبوغهم فيه حتى تزعموا الحركة الفكرية ليتساووا مع العرب ويتخلصوا من المهانة التي كانت تصيبهم، وكأن العصبية ضد الموالي كانت ذات أثر فعال في خدمة العلوم اللغوية[٣٢] والشرعية.

ومن الإنصاف لهذا العصر أن نقول إن نزعة التعالي والعداء التي كانت تصدر من العرب نحو غيرهم من الشعوب الأخرى كانت لا تشمل ـ غالباً ـ من اشتهر منهم بالتقوى والصلاح، ومن نبغ في الثقافة العربية والإسلامية كالحسن البصري، وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وغيرهم ممن تحدّثنا عنهم كتب الطبقات والتراجم، فقد كانوا يصادفون نوعاً من التكريم على يد خلفاء بني أمية وولاتهم، فلم نكد نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تخف حدة هذه النزعة، ويكثر التزاوج والامتزاج بين بعض العرب ومواليهم ويعبر الفرزدق عن هذا الاتجاه حين يتحدث عن ابنته التي كانت أمها فارسية الأصل في قوله[٣٣].

فإن يك خالها من آل كسرى ... فكسرى كان خيراً من عقال
وأكثر جزية تهدى إليه ... وأصبر عند مختلف العوالي

كما يعبر عنه جرير حين يتحدث عن شعوره نحو زوجته الفارسية التي أهداها إليه الحجاج وقد ولدت له بلالاً وحزرة وحكيماً، وكان أهلها عرضوا عليه عشرين ألف درهم ويطلق سراحها فأبى وقال:

إذا عرضوا عشرين ألفا تعرضت ... لأم حكيم حاجة هي ماهيا[٣٤]
لقد زدت أهل الري عندي مودة ... وحببت أضعافا إليّ المواليا

ثم أخذ يمتدح بلالاً ابنه منها:

إن بلالاً لم تشنه أمه ... لم يتناسب خاله وعمه
كأن ريح المسك مستحمه ... ما ينبغي للمسلمين ذمه

وإن كان لم يتخلص من نزعته تماماً كما يظهر من عدم التسوية بين الخال والعم.

كما ظهر على مسرح السياسة بعض الخلفاء ممن كانت أمهاتهم غير عربيات مثل يزيد بن الوليد الذي كانت أمه فارسية، ونراه يفتخر بنسبه هذا قائلاً[٣٥]:

أنـــا ابن كسرى وأبي مـــروان وقـــيصر جـــدي وجـــدي خـــاقـــان

كما نجد الوليد بن يزيد يعهد بالخلافة من بعده لولديه الحكم وعثمان، فخالف بذلك نهج الخلفاء السابقين الذين كانوا لا يولّون ابن الأمة، وجعل الحكم مقدماً على عثمان مع أنه ابن أمه[٣٦] وكتب بذلك إلى الأمصار. ولم يأبه باحتجاج بعض بني أمية ولا بانتقاد بعض السادة من معاصريه وربما يدل هذا على تحول اجتماعي وتطور جديد في الفكر السياسي الذي يعمل على إشراك الهجناء تدريجياً في أكبر الوظائف السياسية التي كانت حكراً على العرب وحدهم، فتجاوز بذلك نهج الخلفاء السابقين الذين كانوا يبايعون لأبنائهم الصرحاء، ويتحرجون من المبايعة للهجناء على الرغم من كفاية بعضهم.

وكانت هناك ردود فعل متفاوتة من جانب الموالي، نظراً لما تحمَّلوه من عنت الأمويين وقسوتهم، وما ترسب في أعماقهم أصلاً من الاستعلاء على العرب لا سيما الفرس منهم، لذلك فقد عاودهم الحنين إلى مجدهم الزائل وسلطانهم القديم، وأخذوا يتحينون الفرصة للقضاء على العرب وسلب سلطانهم، والاشتراك في الثورات التي كانت تقوم للقضاء على سلطان الأمويين ويخططون للإطاحة بهم. وإن كانت هذه النزعة لم تظهر بوضوح في هذا العصر، بل كانت تظهر بين الحين والحين وعلى استحياء، نظراً لقوة نفوذ العرب آنذاك وتصديهم لكل من يخرج عليهم أو ينتقص منهم لكن ذلك لم يمنع بعض الموالي ممن تعلموا العربية وجرى الشعر على لسانهم أن يترجموا عما استكن في صدورهم من حقد دفين على الأمويين الذين لم يتحرروا من عقدة النسب، ولم يهتموا بمشكلاتهم الاجتماعية والسياسية، على نحو ما نجده عند يزيد بن ضبة مولى ثقيف، وكان منقطعاً إلى الوليد بن يزيد في حياة أبيه، فلما آلت الخلافة إلى هشام، أتاه يزيد يمدحه، فأعرض عنه، وقال: اذهب إلى الوليد فامدحه فذهب إليه فأكرمه وأحسن وفادته، فقال يذكر صنيع هشام به[٣٧]:

أرى سلمى: تصد وما صددنا وغير صدودها كنا أردنا
لقد بخلت بنائلها علينا ولو جادت بنائلها حمدنا

ولعله كان يرمز بسلمى هذه إلى هشام الذي رفض أن يعطيه، فحرك ما في نفسه من كراهية للعرب، وأخذ يحن إلى بني جلدته ويفتخر بهم:

ألم تر أنا لما ولينا … أموراً خُرِّقت فوهت سددنا
إذا هاب الكريهة من يليها … وأعظمها الهيوب لها عمدنا
وجبَّار تركناه كليلاً … وقائد فتنة طاغ أزلنا

ثم يذكر ما كان من تقدير الملوك لهم وولايتهم على الناس وحسن سياستهم:

وقد كان الملوك يرون حقاً … لوافدنا فنكرَم إن وفدنا
ولينا الناس أزماناً طوالاً … وسسناهم ودسناهم وقدنا

إلى غير ذلك مما يعد فخراً بقومه على الأمويين.

ويندد بعضهم بالعرب من طرف خفي، أو يتهجم عليهم في لمح خاطف، فيروون أن هشام بن عبد الملك دعا إسماعيل بن يسار في خلافته لينشده، متوقعاً أنه سيمدحه، فإذا به ينشد شعراً يباهي فيه بقومه، ويتيه بهم على العرب كقوله[٣٨]:

إني وجدك ما عودي بذي خور … عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به … ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب … من كل قرم بتاج الملك معموم
مَنْ مثل كسرى وسابور الجنود معاً … والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا … وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماذي سابغة … مشي الضراغمة الأسد اللهاميم
هنالك إن تسألي تنبي بأن لنا … جرثومة قهرت عز الجراثيم

ويبدو أن إسماعيل نسي أنه بحضرة الخليفة الأموي، فأخذ يتحدث عن كرم أصله، ونفاسة معدنه، وقوة بيانه، وانتمائه إلى كسرى والهرمزان، ويدلف من ذلك إلى ألقاب الشجاعة، فيسبغها عليهم، مما أغضب هشام، وقال أعليّ تغمز، وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت تزهق روحه، ثم أمر بإخراجه ونفاه إلى الحجاز.

ولم يكن إسماعيل يقنع بهذا الفخر أو يرضى به، وإنما أخذ بعد ذلك يتهكم بالعرب، ويزري بهم، ويستغل شاعريته في تحقيق هذه الغاية الخبيثة، يقول:

رب خال متوج لي وعم … ماجد مجتدى كريم النصاب

إنما سمي الفوارس بالفر س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسو ن سفاهاً بناتكم في التراب

ويكنى عن العرب بأمامة، ويصفهم بالجور والبعد عن الصواب، ولذا فهم أولى من العرب بالفخر، إذ يتكئون على حضارة قديمة ومجد تليد في غابر الأزمان، وهو بهذا يكشف القناع عن عدائه المستخفي للعرب، وعصبيته البغيضة عليهم.

ولم يكن هذا اتجاه اسماعيل بن يسار وحده، بل هو إتجاه يكاد يكون عامّاً لدى غالبية الموالى عبر عنه شعراؤهم بصورة تختلف وضوحاً أو خفاء، ولذلك فلسنا نتفق مع أستاذنا الدكتور «شوقي ضيف» الذي يرى في شعر إسماعيل بن يسار النسائي الذي يمجد الفرس ظاهرة شاذة في هذا العصر[٣٩]. ودليلنا على ذلك أن هناك أكثر من شاعر منهم وقف من العرب هذا الموقف كما سيتضح فيما بعد، بالإضافة إلى أن كثيراً منهم لم يتعمق الإسلام في هذا العصر لحداثة عهدهم به، فكان من الطبيعي ألا يكون ولاؤهم له كاملاً، وأن تهتز في نفوسهم قيم الوفاء والإخلاص لهذا الدين، وللدولة العربية ورجالها الذين أذاقوهم كثيراً من الهوان وحرموهم من المساواة التي كانوا ينشدونها في ظل دولة ترى أن دينها الإسلام الذي من أول مبادئه أنه لا يفرق بين عربي وعجمي، وهذا ما انتهى إليه بعض الباحثين، فإن وطأة الحكم وقيود السياسة لم تكن لتجيز لإسماعيل بن يسار وفريقه أن يذيعوا في الناس هذه المعاني، وكلها تطاول ومناوأة للعهد القابض على السلطة، وربما كان ذلك بعينه هو ما جعلهم يختزنون هذه المعاني، فبقيت حبيسة الجوانح، تدمدم في أعماقهم، وتهجس في خواطرهم دون أن يهتكوا أستارها ويفضحوا أسرارها[٤٠].

فلم يكن إسماعيل بن يسار الذي جاهر بالفخر بالفرس وتغنى بحضارتهم ومجدهم الزائل ظاهرة شاذة إذ لو وصلنا شعره كله وشعر أمثاله الناقمين على العرب، لوجدنا من ذلك الكثير، وقد ظهرت هذه النغمة وتلك الدندنة واضحة في العصر العباسي، وعالنوا بعدائهم للعرب، وهذا ما دعا بعض شعراء العصر الأموي أن يعترف بالفخر الذي ظهر على ألسنتهم في هذا العصر، وقد يجاريهم في هذا لسبب ما على نحو ما نجد عند جرير وهو يتحدث عنهم[٤١]:

إذا افتخروا عدوا الصبهبز منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا

تـرى منهـم مسـتبصريـن على الهدى ... وذا الـتـاج يضـحى مرزبانا مسوّراً

وربما كان ذلك لتزوجه منهم.

ورغبة في التخلص من الأمويين شارك الموالي في الثورات التي قامت ضدهم، وصاروا أنصار كل فتنة يشعلون نارها، كثورة المختار التي كانوا منها بمثابة القلب النابض، والرأس المدبر، وكان أكثر جنده منهم، إذ انخرط في جيش إبراهيم بن الأشتر الذي أعده المختار لمقاتلة الأمويين عشرون ألف رجل، كان جلّهم من أبناء الفرس بالكوفة الناقمين على العرب، وقد رأينا أحد قواد الأمويين، يخاطب جنده قبل القتال: يا أهل الشام إنكم إنما تقاتلون العبيد الأبّاق، وقوماً تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست لهم تقية، ولا ينطقون العربية[٤٢].

وحين خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الأمويين انضمت الموالي إلى جانبه، وكان عددهم على ما يذكره الطبري مائة ألف مقاتل ممن يأخذون العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم[٤٣] هؤلاء جميعاً تجمعهم كراهية الأمويين والرغبة في التخلص منهم، وقد رأيناهم ينضمون إلى عبدالله بن الزبير في خروجه على بني أمية ومطالبته بالخلافة، لكن ابن الزبير كان شحيحاً بالمال حتى على المقربين إليه وقد أظهر التقشف والزهد في الدنيا، وقال إنما بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا فانفضوا من حوله ونفروا منه، مستغلين ذلك وسيلة للتشهير به ورميه بكل منقصة، ونجد الهجاء يوجه إليه من أقرب الناس له «كأبي حرة» الذي يقول على لسان الموالي، ويعبر عن حقيقة موقفهم منه[٤٤]:

إن الموالي أمست وهي عـاتـبـة ... على الخليـفـة تشكو الجوع والحربا
مـاذا عـلـيـنـا ومـاذا كان يرزقـنـا ... أي الملوك على مـا حولـنـا غلبـا

ثم فارق ابن الزبير، وقال فيه بعد ذلك:

مـازال في سورة الأعـراف يدرسها ... حـتى بـدا لي مـثـل الخزفي اللين
لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد ... أفضـلـت فضلاً كـثيراً لـلـمسـاكين
إن امـرأ كـنـت مولاه فضـيـعني ... يرجـو الفلاح لعمري حق مغبون

وهو بهذا يتهكم مما ادعاه ابن الزبير من الزهد والقناعة، وقوله: إنما شبر بطنه، وأن بطنه شبر.

ويعبر أحد الشعراء عن استيائه للموقف الذي وقفه الموالي من العرب، مؤكداً عزمه على ضرب هامتهم، ومن تآزر معهم من العرب في الخروج على سلطان الخلافة الأموية، يقول «حميد بن مسلم» في يوم جبانة السبيع[٤٥]:

لأضربن عن أبي حـــــكيم مـــفـــارق الأعـــبـــد والصـــميم

وقد وزع الموالي أنفسهم على الأحزاب السياسية، ليحتموا بها أو ينالوا من برها، لأنها الأحزاب التي كانت تتصارع على الحكم، وهذا لا يمنع أن يكون بعضهم ناصرها مخلصاً كما نجد عند «عمرو بن الحصين» من موالي بني تميم، فقد انضم إلى الخوارج وأصبح أحد شعرائها الذين يدينون بعقيدتهم، ويجاهرون بها دون مواراة أو تخفي على عادة الخوارج، يقول مصوراً المعركة التي دارت رحاها يوم قديد بينهم وبين الأمويين[٤٦]:

فـــنـــدور نحن وهـــم وفيما بـــيـــنـــنـــا كأس المنون تقول هل من شارب
لـــنـــظـــل نسقيهم ونشرب من قنا سمر ومـــرهـــفـــة الـــنصول قواضب

ويرثي أبا حمزة وغيره من الشراة في قصيدة طويلة يتحدث فيها عن بلائهم وخفائهم في عقيدتهم متمنياً أن يلقى الله وهو على ما هم عليه[٤٧]:

يـــا رب أســـلـــكني ســـبـــيـــلـــهـــم ذا الـــعـــرش واشـــدد بـــالـــتقى أزري
في فـــتـــيـــة صبروا نـــفـــوســـهـــم لـــلـــمشرفـــيـــة والـــقـــنـــا الـــســـمـــر
تـــا الله ألـــقـــى الـــدهـــر مـــثـــلـــهـــم حـــتـــى أكون رهـــيـــنـــة الـــقـــبر

والواقع أن من أخلص منهم لمذهبه كان نادراً، لأنهم كانوا يفرحون بكل خارج على الأمويين ويرون أن الصراع القائم بين الدولة وخصومها سيؤدي حتماً إلى إضعاف الجميع، وفي ذلك قوة لهم، ولذلك كانوا يعمقون الخلاف بين الدولة وخصومها، فأبوا العباس الأعمى يلوم عبد الملك ويعتب عليه أنه أخذ الزبيريين باللين، وتهاون في التعامل معهم، وكان أحرى به أن يأخذهم بالقسوة حتى يعدلوا عن فكرتهم ويدخلوا في طاعته يقول[٤٨]:

أبني أمـــيـــة لا أرى لكـــم شبـــهـــا إذا مـــا التفّـــت الشيـــع
ســـعـــة وأحلامـــاً إذا نـــزعت أهـــل الحلوم فضرهـــا الـــنـــزع
الله أعـــطـــاكـــم وإن رغـــمـــت من ذاك أنف مـــعـــاشر رتـــعـــوا
أطـــمـــعتم فـــيـــكـــم عـــدوكـــم فسما بهم في ذاكـــم الـــطـــمـــع

وزياد الأعجم مولى عبد القيس كان مشهوراً بتعلقه بقبيلته، وميله للأمويين، ومع ذلك كان يخرج وهو بخراسان «وعليه قباء ديباج تشبهاً بالأعاجم[٤٩] وحنينه للأعاجم وميله للتشبه بهم هو ما

أغضب يزيد بن المهلب، وأمر به فقنّع، وضرب أسواطاً ومزقت ثيابه، ثم قال له: «أبأهل الكفر والشرك تتشبه، لا أم لك».

فكان كثيراً ما يحنّ إلى أصله يتباهى به ويفتخر على غيره، كقوله في الرد على كعب الأشقري حين هجا عبد القيس وكان مولى لها[٥٠]:

لئن نصبت لي الروقين معترضا لأرمينك رميا غير ترفيع
إن المآثر والأحساب أورثني منها المجاجيع ذكراً غير موضوع

ونحن لا ندري هنا إذا كان يغضب لنفسه أو لعبد القيس أو لها معاً، فكان لا يفتأ يذكر كسرى وإيوانه وقصوره حتى وهو يمدح الأمويين، مع أن مقام المدح يقتضيه أن ينسى ذلك ولو إلى حين، ولكن نزعته الفارسية وحبه لأصله أنسياه ذلك.

وهو حتى في مديحه لا نحس فيه الصدق ولا تدفق المشاعر والأحاسيس، بل نشعر بفتور العاطفة وخوائه من المضمون كقوله في ابن الحشرج[٥١]:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقد تعود أن يمدح من يفد عليه إذا أعطاه، فإن أطبقت عنه يداه عرض به وذمه، وكان هذا موقفه من عباد بن الحصين الحبطي حين أمّه ووضع بين يديه حاجته مؤملاً قضاءها، فلما لم يقضها صب عليه جام غضبه؛ ووجه إليه سهامه، سالباً منه ما يعتزّ به العربي من القيم الخلقية الأصيلة والتي هي مجال للمباهاة والمفاخرة كقوله رامياً له بالبخل الذي تأصل في نفسه حتى صار لا يرجى خيره ولا يؤمل معروفه[٥٢]:

سألت أبا جهضم حاجة وكنت أراه قريباً يسيراً
وكيف الرجاء لما عنده وقد خالط البخل منه الضميرا
أقلني أبا جهضم حاجتي فإني امرؤ كان ظني غرورا

ومن العجب في أمر زياد أنه كان يهجو قوماً من العرب بأنهم أعاجم كقوله في بني يشكر[٥٣]:

ألم تر أن اللؤم حل عماده على يشكر الحمر القصار السوالف

لأن الغالب على ألوان العرب السمرة، والأدمة، بينما يغلب على ألوان العجم البياض والحمرة، ويصف بني يشكر بأنهم قصار الأعناق بينما يتمدح العرب بطولها، ولعله بذلك يتقرب إلى خصومهم.

وإسماعيل بن يسار انتقل من الزبيريين إلى مدح عبد الملك وكل من جاء بعده من الخلفاء، ولم يكن في مديحه هذا صادقاً، فيروون أنه أستأذن على «الغمر بن يزيد بن عبد الملك» فحجبه ساعة ثم أذن لـه ، فدخل باكياً، ولما سأله عن سبب بكائه، قال: كيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي وأحجب، واستمر في بكائه حتى أعطاه، وسأله رجل بعد خروجه: أي مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال بغضنا إياهم[٥٤].

ورحل إلى رجل من أهل المدينة يقال له «عبدالله بن أنس» وأنشده مديحاً له، ومت إليه بالجوار والصداقة، فلما لم يعطه أخذ يهجوه[٥٥]:

لـعـمـرك مـا إلى حسن رحـلـنـا	ولـو زرنـا حسـيـنـا يـابن أنس
ولا عـبـداً لـعـبـدهـم فـنـحظـى	بحسن الحظ منهـم غير بخس
ولـكـن ضُبّ جـنـدلـة أتـيـنـا	مضـبـا في مـكـامـنـه يُـفَسِّي
فـلما أن أتـيـنـاه وقـلـنـا	بحاجـتـنـا تـلـون لـون ورس
وأعـرض غير مـنـبـلـج لـعـرف	وظـل مـقـرطـبـا ضرسـا بضرس
فـقـلـت لأهـلـه أبـه كـزاز	وقـلـت لصـاحـبي أتـراه يمسي
مخافـة أن نـزن بـقـتـل نـفـسي	فـكـان الـغنم أن قمنا جـمـيـعـاً

فهذا الشعوبي يصمه بأقبح صفات الهجاء التي تزري بنفس العربي وتحط من قدره، فهو ليس بإنسان كريم يهتز للندى، ويسر للعطاء، وإنما قُدَّ قلبه من صخر أصم، وحين جاءه وصرح له بحاجته تغير لونه، واصفر وجهه، وكأنما ألمت به نائبة أو حلت به مصيبة، حتى خشي عليه إسماعيل أن تخرج روحه بخروج نفسه، وقدر أن السلامة والغنيمة في تركه لئلا يتهم بقتله.

هذا الهجاء الذي يفيض حقداً ويقطر بغضاً وكراهية لم يكن موجهاً لهذا الرجل وحده، بل للجنس العربي كله الذي لم يسوِّ بينهم وبين العرب، ولم يملأ له جيوبه، ولذلك لم تكن له هوية معينة، بل كان يركب كل موجة ويسير مع كل ركب، وكذلك فهو حين يمدح لم يكن صادراً عن إخلاص ومحبة وإنما كان يمدح رغبة في المال والحظوة؛ أو رهبة من شر يصيبه، بعد أن فقد هو وأمثاله كل أمل في إسقاط الدولة الأموية، وقد استطاع بمدحه للوليد بن يزيد وأخيه الغمر أن يحصل من المال ما عجز عنه أمثاله.

وإذا كان بعض شعراء الموالي آثر الصمت، ولم يتعرض لنظام الحكم، ولم يشارك في العداء للعرب

بصورة صريحة، واندمج في المجتمع لأنه أحس بحاجته إلى العيش في سلام فسرعان ما يفتضح أمره ويخلع ثوب النفاق إذا تبدل به الحال، كما نجد عند أبي عطاء السندي ذلك العبد الأسود الذي نشأ في الكوفة وعاش فيها، وسال الشعر على لسانه، وكان الذي يؤرقه أن في لسانه لكنة تحول بينه وبين فصاحة التعبير، فأخذ يتوسل إلى سليمان بن سليم راجياً أن يمده بغلام يروي شعره للناس[٥٦].

أعوزتني الرواة يا بن سليم ... وأبى أن يقيم شعري لساني
وغلى بالذي أجمجم صدري ... وجفاني بعجمتي سلطاني

ويحدد حاجته التي تتلخص في غلام فصيح يرفع عنه الحرج ويبلغ شعره فصيحاً لمتلقيه وسامعيه:

فاكفني ما يضيق عنه رواتي ... بفصيح من صالح الغلمان
يفهم الناس ما أقول من الشعـ ... ـر فإن البيان قد أعياني

وأخيراً يزجي إليه الشكر ويكيل له الثناء بأبيات غر تجري على كل لسان:

فاعتمدني بالشكر يا بن سليم ... في بلادي وسائر البلدان
ستوافيهم قصائد غر ... فيك سباقة لكل لسان

وحين يستقر الأمر للعباسيين ينقلب على عقبيه ويحاول أن يتقرب إليهم بهجاء خصومهم من الأمويين فقد صار الأمويون الآن أراذل الأشرار حيث وصلوا إلى الحكومة ظلماً ولم تكن لهم قوة تساندهم أو مجد يتكئون عليه، أما بنو العباس فهم سادة الناس وخيارهم، ينتمون إلى بني هاشم ذوي الأصول الكريمة والأعراق الطاهرة، يقول في مدح أبي العباس السفاح[٥٧]:

إن الخيار من البرية هاشم ... وبنو أمية أرذل الأشرار
وبنو أمية عودهم من خروع ... ولهاشم في المجد عود نضار
أما الدعاة إلى الجنان فهاشم ... وبنو أمية من دعاة النار

وهكذا يتطاول هذا العبد على سادته ويطلق لسانه بذمهم، مدعياً أنهم أرذل من يمشي على الأرض وأن دولتهم لم تقم على الحق، بل اغتصبوا الملك من أصحابه، وبذلك كانوا ودعاتهم في النار ونسي هذا العلج أنه كان في يوم ما من الشعراء الذين وقفوا ببابهم، وبحت أصواتهم بالدعاء لهم، وحين لم يصله بنو العباس، وقبضوا أيديهم عنه أخذ يهجوهم، ويذم عهدهم، ويتذكر الأيام الخوالي التي عاشها في رحاب بني مروان، متمنياً أن تعود مع ما فيها من جور، فهي خير من أيامه هذه، وإن عدل فيها بنو العباس:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا — وأن عدل بني العباس في النار

ثم يتهكم بهم قائلاً:

بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم — فقد قام سعر التمر صاعاً بدرهم
فإن قلتم رهط النبي وقومه — فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

فهو ينصحهم في سخرية لاذعة أن يعودوا إلى الصحراء بجوار نخلهم فإن هذا مكانهم، ليثمروا التمر ويزيدوا من غلته، فقد علا سعره، وينهاهم ألا يتخذوا من قربهم للنبي ﷺ سبباً للخلافة، فإن كانوا رهط النبي فإن النصارى رهط عيسى بن مريم.

فلم يكن هؤلاء الموالي الذين تظاهروا بحب بني أمية والولاء لهم بصادقين في مدحهم، ولكنهم كانوا مخلصين لما لهم يشتهونه ويحرصون عليه.

وكان الشعراء منهم لسان حال من وراءهم والمعبرين عن اتجاههم حيث راحوا يكشفون القناع عن عدائهم المستخفى وعصبيتهم العارمة على العرب، وأخذوا يخططون لتحويل الخلافة العربية إلى دولة فارسية.

وهكذا عظم حقد الموالي على الدولة وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم، والتف منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين، وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولادة، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد وبنو سهل في عهد المأمون(٥٨) وبذلك ارتفعت منزلتهم ورجحت كفتهم، فقد برح الخفاء وجاهروا بالعداوة للعرب وعلا صوت العصبية مدوياً، وأخذوا يعبرون عن آمالهم ويفتخرون بنسبهم ويعتزون بقوميتهم في جو طليق بعيد عن الاضطهاد، حتى رأينا أحد الأعاجم وهو أبو نواس يقول في الطعن على العرب وانتقاص قدرهم(٥٩):

دع الأطلال تسفيها الجنوب — وتبلي عهد جدَّتها الخطوب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا — ولا عيشا فعيشهم جديب
إذا راب الحليب فبل عليه — ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول — يطوف بكأسها ساق لبيب

فذاك العيش لا شحر البوادي　　　وأين من الميادين الزروب

وسار على هذا النهج يحث الناس على ترك مآثر أسلافهم، داعياً إلى التحلل منها، وحملهم على عدم احترامها، واستبدال مقدمات القصائد بأخرى تنطوي على عبث ومجون، ويسخر بأصحاب الأطلال والواقفين عليها في قوله:

قل لمن يبكي على رسم درس　　　واقفاً ما ضر لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به　　　مثل سلمى ولبينى وخنس
اترك الربع وسلمى جانباً　　　واصطبح كرخية مثل القبس

وقد أدرك الدكتور طه حسين حقيقة التحول الذي طرأ على موقف الموالي حين قال عن أبي نواس في دعوته هذه إنه لا يمثل مذهباً شعرياً فحسب، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً، يذم القديم ـ لا لأنه قديم ـ بل لأنه قديم ولأنه عربي، ويمدح الحديث ـ لا لأنه حديث ـ بل لأنه حديث، ولأنه فارسي، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب، مذهب الشعوبية المشهور»[٦٠].

ورأينا بشاراً يتبرأ من الولاء للعرب، بعد أن لم تعد بهم حاجة إلى هذا الولاء، واعتبر هذه العلاقة نوعاً من التبعية للعرب والعبودية لهم، وحملهم على نبذها والعودة إلى أصلهم وأعلن عن دعوته هذه من خلال أبياته التالية[٦١]:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم　　　مولى العُرَيْب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أقرب من تميم كلها　　　أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع　　　سبحان مولاك الأجل الأكبر

كما دفعت العصبية الجنسية حماداً الراوية إلى إفساد تاريخ الشعر العربي، بما كان يصنعه منه ويضيفه إلى الجاهليين نظراً لقدرته الفنية على التقليد، ومعرفته بمذاهب الشعراء، وقد نبه الأقدمون على ذلك، كذلك وضعت الرسائل وألفت الكتب في مناقب العجم ومفاخرها ومثالب العرب[٦٢]، وهكذا تمادى هؤلاء الشعوبيون في الاستهتار بالعرب، وصارت مكارمهم وأخلاقهم الحميدة موضع طعن الشعوبيين ومثار سخطهم، نتيجة لضعف سلطان الخلفاء وتراخي قبضتهم على الحكم، والنفوذ الكبير الذي أصبح للموالى في العصر العباسي.

●●●

الهوامش :

(١) الأضداد لابن الأنباري ٢٩ ، المطبعة الحسينية بدون تاريخ .
(٢) انظر علي سبيل المثال لسان العرب والقاموس المحيط مادة «ولى».
(٣) راجع في ذلك فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، ٨٩ ط الثانية عشرة، والموالي في العصر الأموي للأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار ١٤ ط ١٩٤٩.
(٤) الحجرات آية ١٠.
(٥) البيان والتبيين للجاحظ ٢/٣٣.
(٦) فتوح البلدان للبلاذري ٣/٥٤٩، تحقيق د/ صلاح الدين المنجد، ط لجنة البيان العربي ١٩٥٧.
(٧) أسد الغابة لابن الأثير المجلد الثاني ٤٢١، ط الشعب.
(٨) السابق المجلد الأول ٢٤٥، والبداية والنهاية لابن كثير ٧/٧٠ الأولى ١٩٦٦ بيروت.
(٩) الكامل للمبرد ١/١٩٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط نهضة مصر.
(١٠) ضحى الاسلام للاستاذ احمد أمين ١/٢٠ ط التاسعة ١٩٧٧.
(١١) تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب ٢٦٩ ط نهضة مصر ١٩٧٦.
(١٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د/محمد مصطفى هدارة ٣١ ط دار المعارف ١٩٦٣.
(١٣) تاريخ الدولة العربية، فلهوزن ٢١٨ وما بعدها ترجمة أبو ريدة .
(١٤) العقد الفريد ٣/٤١٧ شرح احمد أمين وآخرين ط الثالثة.
(١٥) الكامل للمبرد /٩٦. (١٦) تاريخ الطبري ٢/٢٨ ـــ ط القاهرة ١٩٦١.
(١٧) ديوان الأعشى ٤٠ دار الكاتب العربي بيروت.
(١٨) قيم جديدة للأدب العربي بنت الشاطىء ١١١/ دار المعرفة.
(١٩) الكامل للمبرد ٢/٥٩، وديوان جرير ١/٤٣٦ تحقيق د/ نعمان محمد أمين ط دار المعارف مع تغيير بعض الكلمات.
(٢٠) العقد الفريد ٣/٤١٧..
(٢١) الأغاني ١٦/١٠٧ ط دار الكتب المصرية .
(٢٢) العقد الفريد ٦/١٣٥.
(٢٣) انظر مقالات من أثر الشعوبية في الأدب العربي د/ نعيم العزاوي ٢٩ ط بغداد ١٩٨٣.
(٢٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٤ دار المعارف، ط الرابعة، وكامل المبرد ٢/٧٣.
(٢٥) الأغاني ١٣/١٤.
(٢٦) السابق ١/٣٥٢.
(٢٧) ديوان جرير المجلد الثاني ٥٨٨.

(٢٨) شعر البصرة في العصر الأموي د/ عون الشريف ٢٨٦ دار الثقافة بيروت.
(٢٩) العقد الفريد ٦/١٣٠.
(٣٠) الكامل للمبرد ٣/١٧٩.
(٣١) ضحى الاسلام ١/٢٧.
(٣٢) الموالى في العصر الأموي ٨٣.
(٣٣) الأغاني ٢١/٣٢٠.
(٣٤) الكامل للمبرد ٢/١٢٣.
(٣٥) مروج الذهب للمسعودي ٣/٢٣٩ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ط السعادة.
(٣٦) تاريخ الطبري ٧/٢١٨.
(٣٧) الأغاني ٧/٢٥٣٥ مصور عن دار الكتب .
(٣٨) الأغاني ٤/٤٢٣.
(٣٩) العصر الاسلامي ٢١٣.
(٤٠) طالع في هذا مقال «في معترك تحقيق الذاتية بين الشعوبية والتيار القومي» للأستاذ الدكتور فتحي ابو عيسى مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ص١٩ العدد الأول ١٩٨٣.
(٤١) الديوان ١/٤٧٢.
(٤٢) تاريخ الطبري ٦/٤٢ ط دار المعارف .
(٤٣) السابق ٣٤٥.
(٤٤) الأغاني ١/٢٤.
(٤٥) تاريخ الطبري ٦/٥١.
(٤٦) شعر الخوارج ٢٨٠ جمع وتحقيق د/ إحسان عباس ط الثالثة.
(٤٧) السابق ٢٢٤.
(٤٨) الأغاني ١٦/٣٠٢.
(٤٩) السابق ١٥/٣٨٤.
(٥٠) شعر زياد الأعجم ٨١ جمع وتحقيق د / يوسف بكار ط دار المسيرة ١٩٨٣.
(٥١) السابق ٤٩.
(٥٢) السابق ٦٩.
(٥٣) السابق ٨٤.
(٥٤) الأغاني ٤/٤١٠.
(٥٥) نفسه .
(٥٦) نفسه ١٧/٣٢٨.
(٥٧) الشعر والشعراء ٢/٧٧٣.
(٥٨) العصر العباسي الأول ٧٥ د/ شوقي ضيف دار المعارف ط السابعة.
(٥٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٠٠.
(٦٠) حديث الاربعاء ٢/٩٠ ط دار المعارف ط ١٢.
(٦١) الأغاني ١٣/١٣٩.
(٦٢) يراجع في ذلك الفهرست لابن النديم ١٧٩، ١٨٠ دار المعرفة بيروت، وبلوغ الأرب في معرفة أصول أحوال العرب للألوسي ١/١٦٠ ط الثانية بيروت .



إيضاحات على ملاحظات الدكتور العثيمين

حول كتاب :

سليمان بن صالح الدخيل

د. محسن عياض عجيل

مقدمــة :

كان مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة قد شرفني بنشر كتابي المتواضع (الصحفي السياسي المؤرخ النجدي سليمان بن صالح الدخيل) سنة ١٩٨٢م. وهو كتاب إستعرضت فيه سيرته وآثاره ومنهجه العلمي وجهاده السياسي، ثم ألحقت ذلك بنشر بحوثه النجديات، وهي سبعة عشر بحثاً كان قد نشرها بين سنتي ١٩١١ ـ ١٩١٤م في مجلة لغة العرب التي كان يصدرها ببغداد المرحوم الأب أنستاس الكرملي. ومعظم تلك البحوث كانت عن جزيرة العرب وإماراتها وقبائلها وعن بعض المدن التي أنشأتها تلك القبائل على حدود العراق مستقراً لهجراتها. وكنت ألحقت بالكتاب رسالة صغيرة عنوانها (حقيقة المذهب الوهابي) كان الأستاذ الدخيل قد نشرها ببغداد سنة ١٩١٣م، وقد رأى المركز حذفها من الكتاب عند نشره لكونها نشرت مستقلة سابقاً ولوجودها في مكتبات بغداد العامة ولعدم ندرتها اليوم.

وكنت قد أرسلت مسودة الكتاب قبل تقديمه للنشر، أثناء عملي أستاذاً بجامعة الإمارات العربية المتحدة، إلى عالم جليل من علماء المملكة وفضلائها، أسأله النصح والمشورة في أمر نشره، وتحسباً أن يكون في الكتاب أمر يسيء إلى تاريخ المملكة ورجالها مما لم أتنبه له، وهو شيء لا أحب وقوعه في كتاب أقوم على نشره، لما أحمله في نفسي للمملكة وأهلها من ذكريات طيبة خلفها حسن الضيافة والرعاية الكريمة التي حظيت بها منهم أثناء عملي أستاذاً في كلية الشريعة بمكة المكرمة، وقد كتب لي ذلك العالم السعودي الجليل ما يدل على إعجابه بالكتاب وحضني على نشره.

ملاحظات الدكتور العثيمين على دراستي للدخيل

ومعلوم أن الكتاب إذا نشر خرج من يدي صاحبه وصار ملك الناس يقولون فيه ما يشاؤون. وقد حظي كتابي هذا بحمدالله بعناية خاصة من الزميل الكريم الدكتور عبدالله الصالح العثيمين فشرفني بملاحظات قيمة تناولت دراستي له وبحوث الأستاذ الدخيل، وقد نشر الزميل تلك الملاحظات في مجلة الخليج العربي التي يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة (المجلد الخامس عشر، العدد الأول، سنة ١٩٨٣م) ثم أعاد نشر تلك الملاحظات في مجلة (الدارة) السعودية (العدد ٣ السنة التاسعة ربيع الثاني ١٤٠٤هـ يناير ١٩٨٤م) ولعله فعل ذلك تعميماً للفائدة.

وليس هذا رداً على الزميل الكريم وإنما هو إيضاح ومشاركة في الحديث. وأنا، بعد، لا أجد في نفسي حرجاً من التسليم له بصواب بعض ملاحظاته وأنه كان موفقاً بها غاية التوفيق، ومن ذلك:

١ ـ التداخل الحاصل بين نص كلام الأب الكرملي وما نقلته عنه بتصرف، في حديثه عن كتاب العقد المتلالىء.

٢ ـ عدم الدقة في نقل كلام الأب الكرملي عن كتاب عنوان المجد.

٣ ـ عدم الدقة في نقل كلام الشيخ الجاسر عن كتاب القول السديد.

٤ ـ خطأ الجزم بوجود عدد واحد من جريدة الرياض وضياع بقية الأعداد، وقد رجح الزميل الكريم احتمال وجودها في مكتبات تركيا أو مكتبة المتحف البريطاني، ولعل الدكتور العثيمين يسره أن يعلم أنني عرفت بعد نشر الكتاب من أحد أصهار آل الباجهجي (الزميل الدكتور وليد خالص) أن جريدة الرياض توجد كاملة في مكتبة المرحوم مزاحم الأمين الباجهجي رئيس وزراء العراق الأسبق.

أما قول الأستاذ الجاسر في وصف الدخيل بأنه (أديب نجدي) وتحريفها إلى (أديب نجد) فقد كانت غلطة مطبعية أعتذر إليه وإلى أستاذنا الجاسر عنها، ولا مصلحة لي أن يكون الدخيل أديب نجد أو أديباً نجدياً.

ولم أجد مبرراً لما ذكره الدكتور من عدم إقتناع القارىء بقولي: إنني لم يتح لي الإطلاع على ملف المرحوم الدخيل المحفوظ بوزارة الداخلية، إذ لا مصلحة لي في الإشارة إلى وجود ذلك الملف وعجزي عن الإطلاع عليه، ولم أجد مبرراً لإطلاع القارىء الكريم على تفصيلات محاولتي في سبيل ذلك وإنني قدمت طلباً للوزارة فاعتذرت عن إجابته، فقد وجدت ذلك من فضول القول الذي لا يعني القارىء

ولا يهمه. أما جزمي بوجود سجل كامل لمناصبه الإدارية وبيان أسباب نزوله في التدرج الوظيفي في ذلك الملف، فقد كان القياس فيه ما نعرفه من إحتفاظ تلك الملفات بنسخ من الكتب الرسمية المتعلقة بصاحب الملف.

أمّا إنني ذكرت اسمي الشيخ الجاسر والأستاذ بطي مقرونة بألقاب التعظيم إذا وافقت أقوالها هواي ثم ذكرتها مجردة من ذلك إذا اعترضت على ما ذكراه عن الدخيل فقد علم الزميل الكريم وعلم الناس أن شهادة مثلي في مثلها لا تضرهما ولا تنفعها فليس مثلها من يحتاج إلى تزكية مثلي وثنائه.

وقد ذكر الزميل الكريم أنني نقلت ماوافق هواي من كلام المرحوم بطي عن جريدة الرياض وأعرضت عن بقية الكلام الذي حمل تشكيكاً في صحة أخبار تلك الجريدة. والحق أنني نقلت القسم الأول من كلام الأستاذ بطي حول خدمة جريدة الرياض لقضايا العرب وعنايتها بأخبار أهل الجزيرة، عند حديثي عن جهاد الأستاذ الدخيل الوطني والطومي، ولو أمعن الدكتور القراءة لوجد أنني لم أتجاهل بقية النص وإنما ذكرته في موضعه عند الحديث عن أمانة الدخيل العلمية (ص٣٨).

ملاحظات الدكتور على بحوث الدخيل:

ولا شك أنني لست ملزماً بالدفاع عن بحوث الأستاذ الدخيل حول نجد وإماراتها، إذ أنني لست مختصاً بتاريخ المملكة الحديث الذي يبدو أنه اختصاص الدكتور الذي لا ننازعه فيه ولا نملك حق الحكم على قيمة ملاحظاته تلك وإنما هو أمر متروك لزملائه الذين يشاركونه الإختصاص نفسه.

ولرب سائل يسأل أين كان الدكتور العثيمين عن تقويم تلك البحوث كل هذه المدة الطويلة وقد نشرت بين سنتي ١٩١١ ـ ١٩١٤ وما الذي أقعده عن ذلك إن كان قد اطّلع عليها سابقاً، وإذا كان لم يرها حتى أعيد نشرها في هذا الكتاب، أفليس من فضل هذا الكتاب عليه أن يسدله الإطلاع على بحوث لم يرها سابقاً وهي من صميم إختصاصه بغض النظر عن قيمتها العلمية.

وقد كنت ذكرت في ص ٣٤ ما نصه (وإذا كان بعض هذه البحوث ليس جديداً على أهل نجد الآن فإنها كانت جديدة كل الجدة عند العراقيين قبل سبعين سنة من الزمان) وهذا فضل الأستاذ الدخيل الذي أبى الدكتور أن يقره له. فقد أنكر أن يكون الدخيل قد سبق إلى كتابة ماكتبه عن نجد وإماراتها، ثم قصر نقده وملاحظاته على ما يقع تحت إختصاصه وأهمل بقية بحوث الدخيل وهي:

١ ـ بعض الأعراب غير المنسوبة. ٢ ـ الخميسية أو لؤلؤ البرية.

٣ ـ سوق الشيوخ. **٦ ـ الأرطوية أو بلدة جديدة في ديار نجد.**
٤ ـ مشاهير بيوت وقبائل سوق الشيوخ. **٧ ـ بقايا بني تغلب.**
٥ ـ بلد البوعينين. **٨ ـ تيماء.**

ولسائل أن يسأل لماذا تجاهل الدكتور نصف عدد البحوث المنشورة في الكتاب ولم يعرض لها بالنقد والملاحظة، ولماذا لم يذكر إن كانت أصيلة بكراً أو سبق الدخيل إلى الكتابة فيها غيره. وإذا لم تكن تلك البحوث ضمن دائرة اختصاصه ولا علم له بها، فقد علّمه المرحوم الدخيل من ذلك ما لم يكن يعلم وكان له عليه فضل الأستاذ والمعلم وكان من حقه عليه أن يقرّ له بذلك.

وقد أنكر الدكتور الفاضل عليَّ أن عددت معظم بحوث الأستاذ الدخيل من المبتكر الأصيل الذي لم يسبق إليه ومن ذلك ما كتبه عن نجد وإمارة آل رشيد، وقال إن كتابات كثيرة كانت قد نشرت عن ذلك بلغات مختلفة قبل كتابة الدخيل عنها ومن ذلك تاريخ ابن غنام الذي طبع سنة ١٩٠٢.

وأقول: إن الزميل الكريم لم يستطع أن يذكر لنا تلك الكتابات الكثيرة التي نشرت بلغات مختلفة ولم يثبت أنها نشرت فعلاً قبل أن يكتب الدخيل ما كتبه، ولم يجد غير تاريخ ابن غنام مستشهداً على صحة أقواله. وفي هذا ظلم للدخيل، الفترة المتأخرة من تاريخ نجد، أي أنه سجل كثيراً من الحوادث التي لم يسجلها ابن غنام والتي وقعت بعد وفاته سنة ١٨١١م.

وكان معظم حديث الدخيل عن نجدُ التي عاصرها هو، أقسامها ومدنها وعادات أهلها وأخلاقهم وأعمالهم ونقودهم ودياناتهم وعلومهم، ثم تحدث مفصلاً عن أمارتي آل سعود وآل رشيد وماجرى بينهما من حروب ومنازعات، مما عاصره وكان قريب العهد به وهو ما لم يسجله ابن غنام وما لم يستطع الدكتور أن يثبت أن كتاباً قد تناوله ونشر قبل كتابة الدخيل له بين سنتي ١٩١١ ـ ١٩١٤م.

وإذا سلمنا للدكتور جدلاً بعدم جدة ما كتبه الدخيل عن نجد وإماراتها. فقد سلمت له ثمانية بحوث على سبيل الجدة والإبتكار، وهو عدد قد لا يسلم مثله لكثير من أساتذة الجامعات المختصين بالتاريخ الحديث مع ما توفر لهم الآن من الدراسة في الجامعات الأجنبية والإطلاع على كثير من الدراسات في مختلف اللغات، وهو ما لم يتوفر مثله للمرحوم الدخيل.

فإذا أضفنا إلى ذلك اعتماد المرحوم الدخيل للمنهج العلمي في كتاباته وبحوثه مثل ذكره لمبررات اختياره لموضوع البحث ثم وضعه خطة له وتقسيمه إلى موضوعات جزئية، بعناوين فرعية واستخدامه للترقيم والحواشي وذكر مصادره المطبوعة والمخطوطة مع المشاهدة والاختبار الشخصي، ثم استدراكه لما أخطأ به ومسارعته إلى تصحيحه.

أقول: إذا أضفنا إلى أصالة بحوثه الثمانية استخدامه ذلك المنهج العلمي المتكامل، الذي لم يتح له أن يتعلمه في جامعة كما يفعل الناس الآن، كان ذلك كله دليلاً على فضل الرجل ومدعاة للإعجاب به.

وإذا كان الدخيل لم يكن دقيقاً في بعض معلوماته أو خالف شيئاً من أسس المنهج العلمي في الحواشي والترقيم، أفلا يقوم له عذراً عند الدكتور أننا نجد مثل ذلك وزيادة الآن وبعد نصف قرن من وفاته، في كثير من الرسائل العلمية التي نال بها أصحابها درجة الدكتوراه وأنفقوا في إعدادها ودراسة مناهج البحث العلمي سنين عدداً، ثم كان ذلك كله بإشراف أستاذ كبير ولجنة جامعية ممتحنة.

ولو لم يكن للمرحوم الدخيل من فضل غير كون بحوثه تلك المتواضعة قد أصبحت الآن من مصادر دراسة المختصين بالتاريخ الحديث للجزيرة كالدكتور العثيمين وزملائه، يتناولونها بالدرس والتقويم والتصويب والتصحيح، ثم يتخذون من ذلك كله وسيلة للترقية العلمية وذيوع الصيت وشهادة على غزارة العلم وجودة البحث، لكفاه فضلاً وكان له أجر السابق المجتهد.

إعجابي بالمرحوم الدخيل:

وقد عاب الدكتور العثيمين عليَّ أنني معجب بالدخيل وأريد دفع القارىء لمشاركتي في ذلك الإعجاب، وهي تهمة لا أنكرها واللهم قد فعلت ذلك، على أنني لم أعاصر الرجل ولم أره ولا تربطني به رابطة نسب أو قرابة ولا أعرف حتى الآن أحداً من أسرته أو عشيرته.

ورجل مثله خرج من (بريدة) إلى الهند فقيراً في طلب الرزق وعمل كاتب حسابات عند التاجر عبدالله الفوزان ثم دفعته همته وطموحه إلى تعليم نفسه وتثقيفها والرحلة للعراق للتلمذة على كبار علمائه والأخذ عنهم. ثم مشاركته بالصحافة والكتابة والتأليف والنشر والجهاد الوطني ووصوله إلى مناصب إدارية رفيعة. وما حققه لنفسه بعصاميته وكفاحه من شهرة حتى صار علامة مميزة في تاريخ الصحافة العربية وحتى كتب عنه وعُني به رجال من مثل الكرملي والزركلي والجاسر ورفائيل بطي وكوركيس عواد وعبد الرزاق الحسني وعلي جواد الطاهر وعبدالله الصالح العثيمين.

أقول: إن رجلاً هذه صفته ومؤهلاته جدير بالإعجاب وحسن الذكر، ولا يجد الإنسان المنصف في نفسه ما يمنعه من ذلك، وقد كان الدكتور العثيمين أولى مني بهذا الإعجاب بسبب أن ذلك الرجل المتوفى سنة ١٩٤٤ قد دفع عالماً فاضلاً مثله، بعد نصف قرن تقريباً، إلى تعقب بحوثه وتصويبها والاستدراك عليها، وأتاح له أن يظهر أهل العراق وأهل الجزيرة على ما آتاه الله من علم وفضل هو أهل له وبه جدير.

تعليق على ايضاح الدكتور محسن عجيل

د./ عبدالله الصالح العثيمين



نشر الدكتور الفاضل محسن غياض عجيل في مجلة الخليج العربي[1]، التي تصدر عن مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، إيضاحاً على ملاحظات سبق أن نشرتها في مجلة الدارة[2] حول كتابه عن المرحوم سليمان بن صالح الدخيل.

وللدكتور محسن خالص الشكر على اهتمامه بما كتبته من ملاحظات، وعلى ما دوّنه من إيضاح يتعلق بها.

وأحسب أن القارىء الكريم لو رجع إلى الملاحظات المذكورة وقارنها بما كتبه الدكتور محسن من إيضاح لكانت الفائدة أكبر. على أن هذا لا يمنع من التعليق على الايضاح ذاته لتأكيد الهدف الذي قصدته من كتابة الملاحظات.

لقد ذكر الدكتور محسن في إيضاحه صواب بعض ملاحظاتي على كتابه، وأورد من ذلك أربعة أمور. ولا شك أن الحق ضالة المؤمن. وليس مهماً إيراد كل ما لم يشر إليه الدكتور بتأييد أو معارضة من تلك الملاحظات. ذلك أن من أراد معرفتها كلها فإن من السهل عليه الرجوع إليها في الموضوع الذي نشرت فيه من مجلة الدارة. لكن المهم، هنا، عرض ما ورد في إيضاح الدكتور محسن مما لم يقتنع فيه نقطة نقطة.

١ ـ قال: «أما قول الأستاذ الجاسر في وصف الدخيل بأنه (أديب نجدي) وتحريفها إلى (أديب نجد) فقد كانت غلطة مطبعية أعتذر إليه ـ يعني كاتب الملاحظات ـ وإلى أستاذنا الجاسر عنها، ولا مصلحة لي أن يكون الدخيل (أديب نجد) أو (أديباً نجدياً)».

وكنت قد أشرت في الملاحظات إلى إعجاب الدكتور محسن بالمرحوم الدخيل، وحرصه على أن يشاركه القارىء هذا الإعجاب، وأن من وسائله لذلك:

أ ـ تفخيم مكانة من كتب عن الدخيل إذا كان في كلامه ما يوحي بفضله، وترك ذلك التفخيم إذا لم يكن فيه ما يوحي بفضل.

ب ـ تغيير كلام من تحدثوا عن الدخيل إما بذكر جوانب المدح في كلامهم عنه غير مقرونة بجوانب الذم من ذلك الكلام، وإما بتغيير منطوق الكلام ليدل على عظمة من قيل فيه[٣].

وقد أعطيت أمثلة على ما أشرت إليه. ومنها ما ورد في كتاب الدكتور محسن نقلاً عن أن الشيخ حمد الجاسر قال عن الدخيل:

«أديب نجد» في حين أن الشيخ قد قال عنه: «أديب نجدي».

وقلت: إن الفرق واضح بين مدلولي التعبيرين[٤].

وقد ذكر الدكتور محسن في إيضاحه أن ذلك كان غلطة مطبعية. ومعلوم أن القارىء يبني أحكامه على ما بين يديه مما هو مطبوع. ولولا مبالغات الدكتور محسن في مدحه للمرحوم الدخيل في كثير من مواضع دراسته عنه لترجّح أن يكون هناك غلط مطبعي في تغيير عبارة الشيخ حمد من «أديب نجدي» إلى «أديب نجد». وصحيح أنه لا مصلحة للدكتور محسن في أن يكون المرحوم الدخيل «أديب نجد» أو «أديباً نجدياً». لكن القارىء إذا لاحظ أن شيخاً جليلاً مثل الشيخ حمد قد قال عن المرحوم الدخيل إنه «أديب نجد» فإن إعجابه به سيكون أكثر مما لو قال عنه «أديب نجدي». وكل القرائن الموجودة في دراسة الدكتور محسن تدلّ على أنه أراد بكل وسيلة أن يُعْجَب القارىء بالمرحوم الدخيل كل الإعجاب.

٢ ـ قال الدكتور محسن في إيضاحه: «ولم أجد مبرراً لما ذكره الدكتور ـ يعني كاتب الملاحظات ـ من عدم اقتناع القارىء بقولي: إنني لم يتح لي الاطلاع على ملف المرحوم الدخيل ... إلى قوله: أما جزمي بوجود سجل كامل لمناصبه الإدارية وبيان أسباب نزوله في التدرج الوظيفي في ذلك الملف .. إلخ.».

وكنت قد أشرت في الملاحظات إلى قول الدكتور محسن: «لم يتح لنا الاطلاع على ملف خدمة المرحوم الدخيل المحفوظ في وزارة الداخلية العراقية، وقوله عن ذلك الملف: ولا شك أن فيه سجلاً

كاملاً لمناصبه الإدارية .. إلخ. وقلت: إذا كان الملف محفوظاً في الوزارة وهو من الأهمية بالدرجة التي أشار إليها الدكتور محسن فهل يقتنع القارىء من مؤلف عراقي بالذات بعبارة: لم يتح لنا الاطلاع دون إبداء ما يثبت محاولته الاطلاع وفشله في تلك المحاولة؟ ومادام المؤلف لم يطلع على الملف فكيف يجزم بأنه يشتمل على ما ذكره؟ أليس من الأفضل في مثل هذه المسألة أن يقال: «ومن المحتمل» أو «ومن المرجح» بدلاً من «ولا شك»[٥]؟

وأحسب أن إجابة الدكتور محسن عن هذه المسألة في إيضاحه لا تقنع القارىء. إن عبارة: «لم يتح لنا الاطلاع» تحتمل أن يكون مُنِع من الاطلاع، كما ذكر في الإيضاح، وتحتمل أن تكون مشاغله حالت دون اطلاعه. فإن كانت الوزارة قد منعته من ذلك ـ وهذا ما يعرفه إخواننا العراقيون أكثر مني ـ فإن الأجدر به أن يقول، مثلاً،: إن الأنظمة تحول دون الاطلاع عليه. أو يقول: إنه حاول الاطلاع عليه، فلم يمكّن من ذلك. ولا يحتاج القارىء بطبيعة الحال إلى تفصيلات عما قام به في محاولته. أما مسألة جزمه بوجود سجل كامل لمناصب المرحوم الدخيل في ذلك الملف .. إلخ فقد قال في إيضاحه: إن مرد ذلك القياس .. إلخ.

ولو سلّم للدكتور محسن بأن الملفات، عادة، تحتفظ بكل شيء مما ذكره فإن استعمال عبارة مثل «ومن المرجّح» أصوب؛ خاصة إذا قرنت بعبارة مثل؛ لأن الملفات، عادة تشتمل على هذه الأشياء.

٣ ـ قال الدكتور محسن: «أما أنني ذكرت اسمي الشيخ الجاسر والأستاذ بطي مقرونة (هكذا) بألقاب التعظيم إذا وافقت أقوالها هواي ثم ذكرتها مجردة (هكذا) من ذلك إذا اعترضت على ما ذكراه عن الدخيل فقد علم الزميل الكريم وعلم الناس أن شهادة مثلي في مثلها لا تضرهما ولا تنفعها. فليس مثلها من يحتاج إلى تزكية مثلي وثنائه.».

وغريب أن يفهم الدكتور محسن أن ما أشرت إليه في الملاحظات كان تبيين أن شهادته في الشيخ حمد والأستاذ بطي تضرهما أو تنفعها.

لقد أشرت في الملاحظات إلى أن وسائل الدكتور محسن لإقناع القارىء في مشاركته الإعجاب الشديد بالمرحوم الدخيل ما سبق أن قلت في هذا التعليق من تفخيم لمكانة من كتب عن الدخيل إذا كان في كلامه ما يوحي بفضله، وترك ذلك التفخيم إذا لم يكن فيه ما يوحي بفضل. وضربت دليلاً على هذا بقولي: فحمد الجاسر «علاّمة نجد ومؤرخها الأستاذ حمد الجاسر» حين قال« إن الدخيل أول نجدي مارس الصحافة[٦]. لكنه وصفه قبل ذلك بالأستاذ حمد الجاسر حين لم يكن في كلامه ما يدل

على أسبقية الدخيل[7]. ورفائيل بطي: «الصحفي الكبير الأستاذ رفائيل بطي» حين قال عن جريدة الرياض: إنها جريدة ذات لون خاص في الصحف العراقية، بل في الصحف العربية قاطبة في ذلك الجيل.»[8] لكنه وصفه قبل ذلك بالأستاذ رفائيل بطي حين لم يكن كلامه عن الدخيل يوحي بعظمة[9].

وبهذا يتضح أن ما ورد في الملاحظات لم يكن المراد منه الشهادة بفضل كلٍ من الشيخ حمد والأستاذ بطي وإنما تبيين وسيلة من وسائل الدكتور محسن في إقناع القارىء ليشاركه إعجابه الشديد بالمرحوم الدخيل.

٤ ـ ذكر الدكتور محسن في إيضاحه أنه أعرض عن إيراد بقية كلام الأستاذ بطي عن جريدة الرياض ـ وهو الجزء الذي حمل تشكيكاً في صحة أخبار تلك الجريدة ـ وأورده عند الحديث عن أمانة الدخيل العلمية.

والذي قام به الدكتور محسن في هذه المسألة أنه أورد في الموضع المعنون: نشاطه الصحفي ما يلي:

«وقد أشاد الأستاذ رفائيل بطي طويلاً بهذه الجريدة ـ يعني جريدة الرياض ـ، وقال: إنها خدمت القضية العربية، وساعدت على نشر الوعي القومي، وإنها كانت مصدراً لكل ما ينشر في العالم آنذاك من أخبار الجزيرة العربية وحوادثها، وإن أكثر مروياتها تشيع في عالم الصحافة فتتناقلها الجرائد في العراق والشام ومصر. وقد تشغل بعض مروياتها عن جزيرة العرب أسلاك البرق ودواوين الدولة العثمانية أياماً بل أشهراً».

ولم يورد، هنا، غير ذلك من كلام الأستاذ بطي[10]. ثم أشار في الموضع المعنون: الأمانة العلمية إلى أن الأستاذ الدخيل «لا يذيع خبراً ولا يكتب شيئاً قبل الاطمئنان إلى صحة مصدره وعدالة ناقليه ورواته».

وأورد نصين للدخيل أراد بهما إثبات ما قاله عنه. وبعد ذلك مباشرة قال:

«وعجيب حقاً أن نجد بعد ذلك، من يتهم الأستاذ الدخيل بالتزيد والمبالغة وعدم الأمانة، وممن اتهمه بذلك ظلماً الأستاذ رفائيل بطي في قوله: «وقد تشغل بعض مروياتها؛ أي جريدة الرياض، عن جزيرة العرب أسلاك البرق ودواوين الدولة العثمانية أياماً بل أشهراً بينما يكون الحادث من أساسه من مبتدعات خيال مدير الرياض أو محررها»[11].

وكنت قد أشرت في الملاحظات إلى ما أورده الدكتور محسن من كلام الأستاذ بطي عن جريدة الرياض، ثم أشرت إلى كل ما قاله هذا الأستاذ عنها؛ ومنه ما قاله بعد ثنائه عليها:

«وليس عليكم بعد ذلك أن تدققوا أو تلحفوا في تمحيص صحة ما ترويه صحيفة الرياض من أخبار الإمارات العربية وسلطات الخليج وزعامات البوادي. فالمبالغة بادية عليها. ولكن هذا لا يهم الكاتب أو الناشر، إنما المهم أن أكثر مروياتها تشيع في عالم الصحافة فتتناقلها الجرائد في العراق والشام ومصر. وقد تشغل بعض مروياتها من هذا اللون أسلاك البرق... الخ[١٢]».

ولعل القارىء الكريم يلاحظ أن الأستاذ بطي لم يقل عن جريدة الرياض: «إنها كانت مصدراً لكل ما ينشر في العالم آنذاك من أخبار الجزيرة العربية وحوادثها» ـ وهو الأمر الذي ادّعى الدكتور أنه قاله[١٣]. ومعلوم أن الأستاذ بطي لو قال هذا الكلام لما صدّق. ولا يخفى على القارىء الكريم الأسلوب الذي اتّبعه الدكتور محسن في إيراده جزءاً من نقد الأستاذ بطي لجريدة الرياض؛ إذ يؤيد هذا الأسلوب ما سبقت الإشارة إليه من اتّباعه مختلف الوسائل لإقناع القارىء بمشاركته الإعجاب بالمرحوم الدخيل.

٥ ـ ثم انتقل الدكتور محسن في إيضاحه إلى مناقشة قليل مما أشرت إليه في الملاحظات حول أعمال المرحوم الدخيل، وقال:

«ولرب سائل يسأل أين كان الدكتور العثيمين عن تقويم تلك البحوث كل هذه المدة الطويلة...» إلخ.

وعجيب أن يربط الدكتور محسن بين تقويم أي إنتاج وبين زمن نشره؛ والجميع يعلمون أن التقويم يمكن أن يحدث لأعمال نشرت منذ مئات السنين! لكن الأعجب من ذلك أن يخفي عليه المراد بملاحظاتي على ما ناقشته من أعمال المرحوم الدخيل مع نصي في تلك الملاحظات على ذلك المراد. فلقد قلت في ديباجتها:

«والملاحظات على الكتاب بعضها يتعلّق بدراسة المؤلف ـ وهو الدكتور محسن ـ وبعضها يتعلّق ببعض ما كتبه الدخيل.

وإذا كان تناول الدراسة مهماً في حد ذاته فإن الهدف الرئيسي من تناول بعض ما كتبه الدخيل إبداء ما قد يساعد في تقويم ما ذكره المؤلف عنه.»[١٤].

وبهذا يتضح أني لم أكتب ما كتبته عن بعض أعمال المرحوم الدخيل تقويماً لها ابتداء، وإنما للمساعدة في تقويم الدراسة التي كتبها عنه وعن أعماله الدكتور محسن. ومما يوضح ذلك أنني في نهاية مناقشتي لبعض أعمال الدخيل قلت:

«وبعد هذا أترك للقارىء الكريم تقويم ما ذكره الدكتور عجيل عن الأستاذ الدخيل، ووصفه إيّاه بأنه كان عادلاً جداً في تحليله وتعليله، ولم يكن متعصباً ولا متحيزاً» وأن كتاباته كانت موضوعاتها «أصيلة بكراً كان الدخيل أول من بحث فيها لم يسبقه أحد من الباحثين»، وأنه كان «حريصاً كل الحرص على ترقيم مئون بحوثه واستخدام حواشي الصفحات فيما تستخدم به عادة من الإشارة إلى المصادر»، وأنه «قد أبعد بحوثه عن أن تكون مجرد جمع للمعلومات وسرد لها، وأضفى عليها طابع البحث العلمي الدقيق»، وأنه «قد أخذ بأسباب المنهج العلمي كاملة، واستوفى جوانبه إستيفاء من دقة في اختيار الموضوعات وخطة متكاملة في بحثها ومعالجتها، وحرص على ذكر المصادر والإشارة إليها واستكمال لما يقتضيه البحث من الترقيم والحواشي والتعليقات وتحقيق الشخصية الباحثة المتميزة من خلال المناقشة والاستدراك والتحليل والتعليل»[١٥].

٦ ــ قال الدكتور محسن في إيضاحه: «وقد كنت ذكرت في ص ٣٤ ما نصه وإذا كان بعض هذه البحوث ليس جديداً على أهل نجد الآن فإنها كانت جديدة كل الجدة عند العراقيين قبل سبعين سنة من الزمان. وهذا فضل الأستاذ الدخيل الذي أبى الدكتور ــ يعني كاتب الملاحظات ــ أن يقره له...» الخ.

ومرة أخرى يثير الدكتور محسن العجب. ذلك أني لم أعلّق على العبارة التي أوردها في هذا الإيضاح، وإنما قلت فيما يتعلّق بموضوع حكمه على أسبقية الدخيل في الكتابة عما كتب عنه ما يلي:

«ومن الواضح أن إعجاب الدكتور عجيل بالدخيل جعله يصف كتاباته وصفاً غير مطابق للواقع في بعض الأحيان. فقد ذكر ــ مثلاً ــ أن معظم كتاباته جاءت بكراً لم يسبقه أحد إلى الكتابة فيها، وتوفرت فيها الجدة والطرافة. وعدّ من ذلك ما كتبه الدخيل عن نجد وإمارة آل رشيد[١٦]. ومن المعلوم أن كتابات كثيرة كانت قد نشرت عن نجد وإمارة آل رشيد بلغات مختلفة قبل كتابة الدخيل عنها. بل إن تاريخ ابن غنام، وهو مصدر مهم عن نجد ودعوة ابن عبد الوهاب وتاريخ آل سعود، كان قد طبع سنة ١٩٠٢م»[١٧].

وبهذا يتضح أنني لم أحاول إنكار أسبقية المرحوم الدخيل في الكتابة عن كل الأمور التي كتب عنها أو إثباتها، وإنما حاولت أن أبين عدم دقة الدكتور محسن حينما عدّ من الموضوعات البكر التي كتب فيها الدخيل كتاباته عن نجد وإمارة آل رشيد.

٧ ـ ثم قال الدكتور محسن: «إن الزميل الكريم ـ يعني كاتب الملاحظات ـ لم يستطع أن يذكر لنا تلك الكتابات الكثيرة التي نشرت بلغات مختلفة، ولم يثبت أنها نشرت فعلاً قبل أن يكتب الدخيل ما كتبه، ولم يجد غير تاريخ ابن غنام مستشهداً به على صحة أقواله».

والواقع أني اعتقدت أن من هو في مثل مرتبة الدكتور محسن العلمية يستطيع بسهولة ـ لو أراد ـ أن يعرف كثيراً مما كتب عن نجد وإمارة آل رشيد ـ وهذا ما ركزت عليه الحديث ـ قبل الدخيل. وذكرت تاريخ ابن غنام مثلاً من تلك الكتابات. ولست أرى داعياً للإثقال على القارىء بذكر كثير من الكتب والمقالات التي تضمنت معلومات عن نجد وإمارة آل رشيد، والتي نشرت قبل نشر الدخيل لما كتبه عنهما. ولا أدّعي أني ملم بكل ما كتب عنهما، ولكني أودّ أن أشير إلى عدد مما يحضرني من الكتابات برغم ما يتضمّنه بعضها من أخطاء، مثلها مثل كثير من الكتابات.

ـ كتابة نيبور التي وردت فيها معلومات عن نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشرت مترجمة إلى الإنجليزية عام ١٧٩٢م.

ـ كتابة دوساسي: ملاحظات حول الوهابيين، المنشورة بالفرنسية عام ١٨٠٥م.

ـ كتابة وارنج ضمن رحلته إلى شيراز. وقد نشرت بالإنجليزية عام ١٨٠٧م.

ـ كتابة كورانسز: تاريخ الوهابيين .. بالفرنسية. وقد نشرت عام ١٨١٠م.

ـ كتابة بوركهارت في مؤلفيه رحلات في بلاد العرب وملاحظات على البدو والوهابيين. وقد نشرا بالإنجليزية الأول سنة ١٨٢٩م والثاني سنة ١٨٣١م.

ـ كتابة بردجز بعنوان تاريخ موجز للوهابيين، ملحقة بكتابه عن رحلته إلى البلاط الإيراني. وقد نشرت بالإنجليزية عام ١٨٣٤م.

ـ كتابة مانجان ضمن كتابه عن محمد علي بالفرنسية. وقد نشرت عام ١٨٣٩م.

ـ كتابة شودزكو عن عقيدة إتباع الشيخ محمد. وقد نشرت بالفرنسية عام ١٨٤٨م.

ـ كتابة والين عن نجد وآل رشيد المنشور بالإنجليزية عام ١٨٤٨م.

ـ كتابة بالجريف عن نجد وآل رشيد المنشورة بالإنجليزية عام ١٨٦٥م.

ـ كتابة دحلان بالعربية في مؤلفيه الدرر السنية .. المنشور عام ١٨٨٤م.

وخلاصة الكلام .. المنشور عام ١٨٨٧م.

ـ كتابة هوبير عن نجد وآل رشيد بالفرنسية. وقد نشرت عام ١٨٨٨م.

ـ كتابة زويمر عن الوهابيين المنشورة بالإنجليزية عام ١٩٠١م.

ـ كتابة سالدانا عن الأحداث الجارية في جزيرة العرب، خاصة نجد والخليج بين عام ١٩٠٤م و١٩٠٦م، والمنشورة بالإنجليزية خلال هذين العامين.

٨ ـ وبعد أن تحدّث الدكتور محسن في إيضاحه عن مسألة أصالة كتابات المرحوم الدخيل تكلم عن اتّباعه للمنهج العلمي، ثم قال:

«إذا كان الدخيل لم يكن دقيقاً في بعض معلوماته أو خالف شيئاً من أسس المنهج العلمي في الحواشي والترقيم، أفلا يقوم له عذراً (هكذا) عند الدكتور ـ يعني كاتب الملاحظات ـ أننا نجد مثل ذلك وزيادة الآن وبعد نصف قرن من وفاته في كثير من الرسائل العلمية..» إلخ.

ولعلّ القارىء الكريم يدرك أن تساؤل الدكتور محسن في غير محلّه. ذلك أني قد أوضحت سابقاً أن تناول كتابات المرحوم الدخيل في الملاحظات كان الهدف الرئيسي منه تبيين تقويم دراسة الدكتور محسن لتلك الكتابات.

وقد أوضحت في تلك الملاحظات ـ وفي هذا التعليق ـ أن ما قاله الدكتور محسن عن منهج المرحوم الدخيل مخالف للواقع. ومادامت الملاحظات لم تتناول بعض ما كتبه المرحوم الدخيل إلا للمساعدة في تقويم دراسة الدكتور محسن عنه فإنه لا داعي لتلمس أعذار للمرحوم الدخيل. ذلك أن اللوم لم يكن منصباً عليه أساساً، بل على من وصفه بأوصاف غير مطابقة للواقع.

٩ ـ ثم اختتم الدكتور محسن إيضاحه بذكر مصدر إعجابه بالمرحوم الدخيل. ولكن الإعجاب بعصامية الدخيل يجب ألاّ يطغى على عاطفة باحث فاضل؛ مثل الدكتور محسن، فينسب في خضم الحماس إلى المعجب به ما لا يتّصف به. ذلك أن المبالغة قد لا يقتصر ضررها على اهتزاز الثقة بكاتبها،

وإنما قد يتجاوزه إلى المكتوب عنه. ولو وزن الدكتور محسن كتابات المرحوم الدخيل بميزان نقدي عادل لكان ذلك كافياً لإظهار المزايا التي اتّصفت بها تلك الكتابات.

وفّق الله الجميع لما فيه الخير والسداد.

الهوامش:

(١) انظر العدد الثالث من سنة ١٩٨٧م، ص‌ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨.
(٢) انظر العدد الثالث من السنة التاسعة، ١٤٠٤هـ، ص‌ص ٨١ ـ ٩٧.
(٣) العدد الثالث الدارة: ص‌ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٤) العدد الثالث المصدر نفسه: ص ٨٤.
(٥) العدد الثالث الدارة: ص ٨٣.
(٦) كتاب الدكتور محسن، الصحفي السياسي المؤرخ النجدي سليمان بن صالح الدخيل، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٢م، ص ١٨.
(٧) المصدر نفسه: ص‌ص ١٤ و١٧.
(٨) المصدر نفسه: ص ١٨.
(٩) المصدر نفسه: ص‌ص ١٥ و١٧.
(١٠) المصدر نفسه: ص ١٩.
(١١) المصدر نفسه: ص‌ص ٣٧ ـ ٣٨.
(١٢) رفائيل بطي الصحافة في العراق، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ص‌ص ٢٨ ـ ٢٩.
(١٣) كتاب الدكتور محسن السابق ذكره: ص ١٩.
(١٤) الملاحظات في الدارة: ص ٨٢.
(١٥) المصدر نفسه ص‌ص ٩٦ ـ ٩٧.
(١٦) كتاب الدكتور محسن: ص ٣٣.
(١٧) الملاحظات في الدارة: ص ٨٢.

ooo



العلم رحم بين أهله

للأستاذ عبدالله بن حمد الحقيل

المكتبة ركن أساسي في الحياة العلمية ومظهر حضاري في حياة الأمم والشعوب.. حيث أن الكتاب من أهم وسائل المعرفة وفي تكوين طلاب العلم تكوينا سليما وعلى مدى التاريخ كله مازال الكتاب يضيف إلى تراث الأمم مزيداً من المعارف في مختلف مجالات الفكر والإبداع.. وقد بدأ الاهتمام بالعلم عند المسلمين منذ بداية الدعوة الإسلامية وذلك التزاماً بالأمر الرباني لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله عز وجل «اقرأ» وبالأحاديث النبوية التي تحث على العلم والبحث عنه..

فالكتاب وسيلة تثقيف ومعرفة وترفيه.. وفي المكتبة يلتقي الماضي بالحاضر، ويطل الحاضر على المستقبل.. وعلى مدى التاريخ فالمكتبات تجسد بجلاء صورة أمينة لتاريخ الأمم وستظل المكتبات من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والفكري ومازالت تحمل على عاتقها هذه المسؤلية التاريخية المجيدة فهي شاهدة على الحضارة ودليل على المعرفة.. والمكتبة تخدم الدارسين والباحثين، وأصبحت اليوم موضع اهتمام الأمم، وتحرص الجامعات ومراكز البحوث على تطوير مكتباتها وتسخيرها لخدمة طلابها وروادها.. فالمكتبة هي المكان الذي يجمع المادة المكتوبة وينظمها ويحفظها وييسر استعمالها لمن يبتغيها وعلى مدى قرون من الزمان لم يكن أمام الإنسانية من وسائل الثقافة غير الكتاب.. ولذا فكم يسعد المرء حينما يسمع بقيام البعض من العلماء والأدباء بوقف مكتباتهم للجامعات.. ولا شك أن هذا العمل يعتبر بادرة طيبة وعملاً جليلاً وتاريخاً مجيداً.. فمتى قدم المرء مكتبته لإحدى الهيئات العلمية فإنها ستعنى بها، وستحافظ على ما بها من مخطوطات نادرة وتعمل على صيانتها والحفاظ عليها وتحقيق ما يستحق التحقيق وطباعته ونشره..

ولتشهد بلادنا اليوم نشاطاً مكتبياً عريقاً ولا غرو فتاريخ الكتاب والمكتبات عند أسلافنا تاريخ ممتد طويل.. ولذا نرجو من كل صاحب

مكتبة أن يبادر بالتبرع بها للهيئات والمؤسسات العلمية حفاظاً عليها وصيانة لها من التلف والضياع بعد وفاته .. فقد يرثها من لا يعرف قدرها وقيمتها العلمية، وكونها تراثاً والتراث لا يورث، وإنما هو ملك للجميع .. فكم من مكتبات أحرقت وضاعت وأهملت وفقدت لأنها تركت في أيد لا تعرف قدرها..

لقد شغف علماؤنا بالكتب وجمعها حتى كانوا يرون نكبتهم في أموالهم أيسر عليهم من نكبتهم في كتبهم، والأدب العربي هو أغنى الآداب العالمية القديمة بالإشادة بالكتاب والولع به والتحدث عنه حتى حق لعالم كبير مثل غوستاف لوبون أن يقول: إن حب العرب للعلم والكتاب كان عظيماً وأنهم بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير حتى استطاعوا أن يبدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة.

إن الكثير من المكتبات الخاصة تحفل بنفائس المخطوطات النادرة والكتب القيمة .. لقد كان أسلافنا يرحمهم الله يعنون بالكتاب ويحرصون على ابتياعه أو نسخه وكانوا يوصون بوقفه على معاهد العلم والمساجد مع الحرص على اختيار الحذّاق من النساخ والمهرة في الضبط والنقل، والإجادة في التجليد. ومن المعروف أن مكتبة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة، والأمويين في قرطبة من أعظم المكتبات، ولها الفضل الكبير في حفظ التراث الإسلامي..

إن الكتاب ركن أساسي من أركان العملية التعليمية لا تقوم إلا به، ولذا ينبغي أن نحرص على اقتنائه وتوفيره لطلاب العلم ليسهم في زيادة رصيدهم العلمي من المعرفة والثقافة .. ولقد روى ياقوت أن عدداً من المكتبات تبرع بها أصحابها وأن الكثير من العلماء كانوا يوصون بأن تؤول مكتباتهم إلى دور العلم، كما فعل الصاحب بن عباد حين أوقف مكتبته على الري، كما أن مروكان بها في مطلع القرن السابع الهجري عشر خزائن للوقف وجميعها مجانية والإعارة فيها بدون رهن. وكذلك في البصرة والكوفة والقاهرة والأندلس كانت مساجدها تحتفظ بكنوز الثقافة وديعة غالية تصونها وتؤديها لأبناء الإسلام جيلاً بعد جيل..

إنه نداء موجه إلى كل صاحب مكتبة في بلادنا ألاّ يحبسها أو يجعلها عرضة للتلف والإهمال إذ لا ينبغي حبس الكتب والمخطوطات.. ولقد اتصل بي منذ أيام مجموعة من الإخوة الباحثين يسألون عن بعض المخطوطات، ويرغبون في تحقيقها وجزء منها لدى ورثة أصحاب تلك المكتبات الخاصة وبالاتصال بهم لتصويرها واستعارتها استجاب البعض ورفض البعض بكل أسف إن وقف المكتبة

والتبرع بها للمدارس والجامعات والأندية الأدبية والمكتبات العامة والهيئات العلمية إلى غير ذلك عمل خيري عظيم، لأنه ذو نفع كبير فهو كالصدقة الجارية.. فقاريء الكتاب يستزيد منه علما، وهذا العلم ينفع به نفسه، وينفع الآخرين.. وناشر المخطوطة يبرز مافيها من علم دفين، فأتاحه لنفسه ولغيره.. وتداول العلم مطلوب شرعاً، وثواب ذلك يعود لمؤلف الكتاب، وناشره، وناقله لغيره.. والساعي في طلبه، وميسِّره لكل ظمآن لطلب العلم.. فكن يا أخي واحداً من هؤلاء.. ولتكن قدوة حسنة، ومثلاً طيباً في التسابق لهذا العمل الخيري الجليل.. فالعلم رحم بين أهله.. والله الموفق والهادي إلى أقوم طريق..

●●●

مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة

عرض الأستاذ ناصر بن عبدالله الغالي



يتناول الكتاب المرافق والخدمات المدنية التي قدمت للحجاج في الأراضي الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة وحتى سقوط الخلافة العباسية.

وقد صدر الكتاب هذه الأيام ضمن مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ويحتل الرقم ثمانية وثلاثين في هذه السلسلة ومؤلفة الدكتور سليمان عبد الغني مالكي أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة أم القرى.

وهذه الدراسة التي تقع في مائة وأربع وسبعين صفحة من الحجم المتوسط، دراسة تاريخية وصفية، تناولت بشيء من التفصيل، تلك الخدمات التي قدمت للحجاج، في كل من مكة والمدينة. وترجع أهمية دراسة الخدمات التي قدمت للحجاج، إلى أن حصر تلك الخدمات، ومعرفة أنواعها، ووسائلها، وتطورها، والتغير الذي حدث لها من زمن لآخر، يعطينا فكرة واضحة موثقة، عن الاهتمام الذي تحظى به تلك الأماكن، من حكام المسلمين في كل مكان، وذلك لما لها من أهمية في نفوس المسلمين عموماً. وعندما يخرج القارىء بعد قراءته الكتاب بمعرفة هذه الخدمات، سيدرك مدى ضخامة ما يقدم للحرمين الشريفين من خدمات، وتوسعة، واهتمام بالغ .. وما يقدم لكل زائر لهذه الأماكن من جهد واضح، وخدمته والسهر على راحته حتى يتسنى له العبادة في جو آمن يعبق بشذا الأمن والرخاء..

واستطاع الكاتب أن يجمع شتات مادته من أوعية العلم المختلفة، من مصادر خطية، وأخرى مطبوعة بلغت الخمسين مصدراً، ومراجع حديثة، عربية، وأجنبية، وعدد من الدوريات العلمية، والمجلات.

وقسم المؤلف كتابه إلى **مقدمة، وأربعة فصول**:

وقد بينت **المقدمة أهمية** دراسة هذه الخدمات، وسبب اختيار الكاتب لهذا الموضوع، حيث أنه كان بعيداً عن أنظار الكتّاب ولـم يتناولوه بالدراسة والبحث.

أما **الفصل الأول**: فقد درس مكة والمدينة قبل ظهور الإسلام، وتحدث عن جغرافية هاتين المدينتين وتاريخهما، وعن أهم الخدمات التي قدمت لها في العصر الجاهلي، وتنظيمات قصي بن كلاب التي تمثلت في السقاية، والرفادة، والحجابة، ووضّح الدور الزراعي، والاقتصادي، الذي قامت به المدينة في العصر الجاهلي، وتحدث عن طرق التجارة، وتجارة المدينة الداخلية والخارجية.

والفصل الثاني: يعقده المؤلف للحديث عن مرافق الحج في مكة المكرمة، والمشاعر، وما قدم فيها للحجاج. من خدمات، كتوفير المياه أثناء موسم الحج، من الآبار والعيون، وتوفير الأطعمة، والمأكولات والسكن.

لذا اهتم الخلفاء، والأمراء، والتجار ببناء الدور، والأربطة الخاصة لسكن الغرباء، والمنقطعين والحجاج. يلي **ذلك الفصل الثالث**: ويشتمل على خدمات الحجاج ومرافق الحج في أمكنة المشاعر،

ودور سكان مكة في توفير الإقامة للحجاج بها فترة أداء نسك الحج.

كما تحدث المؤلف في هذا الفصل عن أعطيات الخلفاء لولاة مكة، والأحداث السياسية التي وقعت في مكة، وفي أمكنة المشاعر، والتي كانت صدى للتنافس بين خلفاء العباسيين، والفاطميين، ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين، وسلاطين الرسوليين على سيادة الأماكن المقدسة، وعلى إخضاع أشراف مكة لسلطانهم.

كما يلي ذلك **الفصل الرابع والأخير** والذي عقده المؤلف للحديث عن خدمات الحجاج في المدينة المنورة.

وقد بدأ هذا الفصل بالحديث عن الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وما أقيم فيه من خدمات للحجاج.

وعن المياه في المدينة ومدى عناية الخلفاء بالعيون، والآبار التي تتوفر بها .. وعن الدور والأربطة التي كانت تنشأ لزوار المدينة المنورة.

كما تعرَّض أيضاً لدور الأعطيات التي كان يقوم الخلفاء بإرسالها إلى ولاة المدينة، وسكانها فقد حرص خلفاء الدولة الأموية، وخلفاء الدولة العباسية، وخلفاء الدولة الفاطمية، وغيرهم من سلاطين الأيوبيين، ثم الرسوليين، على رعاية أهلها، وكسب أمرائها، وتقديم الأعطيات لهم، لتثبيت نفوذهم السياسي في العالم الإسلامي.

وهذا الكتاب الذي صدر حديثاً يتميز بمميزات عدّة منها:

* إنه حَصَرَ تلك الخدمات وقصر دراسته عليها.
* وصفه لتاريخ وجغرافية، مكة والمدينة، وذلك لبيان ما لهذه الخدمات من أهمية.
* دراسة لتنظيمات قصي بن كلاب، وذلك لترتيب الموضوع بشكل منطقي، ومعرفة تسلسلها التاريخي.
* بيان ما حصل في هذه الديار من أحداث، وما حل بها من دمار، بسبب السيول الجارفة، وذلك لكي يعرف القارىء مدى حاجة الحجاج لهذه الخدمات.
* التقصي الجيد للمعلومات، وتحري صدقها، وذلك بالرجوع إلى كثير من المصادر، والمراجع، حتى الأجنبية منها.

وأخيراً فإن الدراسة دراسة تاريخية وصفية، اعتمد فيها المؤلف على المصادر القديمة .. فخرج بهذه الدراسة التي بيَّنت ما قدم لحجاج بيت الله الحرام من خدمات .. وبيَّنت أهمية تلك الأماكن في نفوس المسلمين عامة على مرِّ الأمنة.

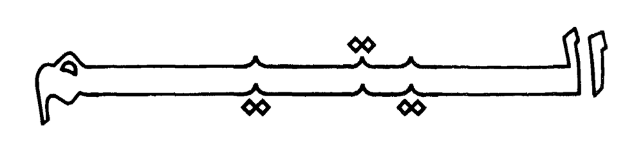
وهي دراسة مهمة ومفيدة للقارىء. إذ يخرج منها وهو على معرفة بتاريخ تلك الخدمات. ويعرف من أين وكيف بدأت؟ وإلى أي صورة وصلت في عصرنا الحاضر!

وفي عهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، الذي أولاها جُلَّ عنايته بتوسعة الحرمين الشريفين، وأخذ على عاتقه خدمة الحجاج، والسهر على راحتهم، فشق لهم الطرق، وأفسح لهم الأرض، ورغب بذلك إلى رضـاء الله، لا إلى ثناء الناس.

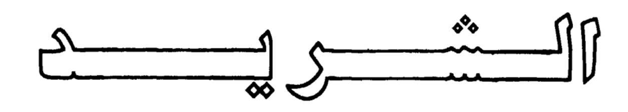
فوصلت في عهده حفظه الله، إلى الروعة في البنيان، والبراعة في الخدمة، والعمل بصمت.

وبعد فالدراسة ـ فيما أرى ـ دراسة جيدة، وجهد علمي مشكور..





زَفَرَاتُ هذا القيظِ من زفراتِهِ ... ودُموعُ هذا الغيمِ من عبراتِهِ
ضاق النَّهار أَسىً بحمل همومِهِ ... وانشقَّ صدرُ الليلِ من أَنّاتِهِ
عارٍ تَكَشَّفَ للخطوبِ فلا أبٌ ... يحنو ولا أمٌّ طوت سَوْآتِهِ
للهِ واهِي الخَفْقِ بين ضُلُوعه ... زادت كوارثُه على دَقَّاتِهِ
أَسوانُ تدرك شجوه من صوته ... وتحسُّ ذلَّ اليُتْمِ من نبراته
وأخو مُحيًّا كالخِضَمِّ مغضّنٍ ... يطوى الشحوبُ أساهُ في طيَّاته
خط الشقاءُ عليه قصة يُتْمِه ... إن تَلْقَهُ تَعْرِفْه من قَسماتِه
وطريد كَوْنٍ ضلَّ في آفاقِه ... فجميعُها إن سار من غاياته
وإذا أقام لما يَفيء إلى حِمًى ... يحنُو على المشبوبِ من لوْعاتِه
حمل الفوادح رأسُه ما ضمَّه ... صَدْرٌ يَلُمُّ الشعث من أشْتاتِه
ومشى يَئِنُ لما أقالَتْه يدٌ ... مَسَحَتْ على المكدودِ من شَعراته
عُقِمتْ أمانيه ولكنْ دهرُهُ ... أعيا مناكبَه بعبء بَنَاتِه
كم حسرةٍ قد أورثتها نظرةٌ ... لِمُنَى الطفولة في وجوهِ لِدَاتِهِ
ويرى البشاشة في مواكب لَهْوِهِمْ ... فيذوقُ طعمَ الموتِ قبل مَمَاته
يا رُبَّ طفلٍ صاح مِنْهم: يا أبي ... فيكاد يَصْعقُهُ صدى صَيْحَاتِه
أو صاح: يا أمِّي فكانت هتفةً ... تنشقُّ منها النَّفْسُ عن حَسَراته
وكأنَّه من دهرِهم تقطيبةٌ ... لِعُبُوسِه تبدو على صفحاته
وَهُمُو أغاريد الحياة شَدَتْ بها ... شَفَةُ الرَّبيعِ الطلق في بسماتِه



الشريد

شعر الدكتور: حسن جاد حسن

إن ساجلوه الشَّدْوَ في أفراحهم ... غَنَّى من الأشجانِ في آهاتِه

أو رام تنغيم السرور له فَمٌ ... مَاتَتْ أغاني البِشْر فوق لَهَاتِه

أبداً تغالبُهُ الدموعُ كأنَّها ... خُلقت مع الأجْفَانِ في حَدَقَاتِه

وإذا أَهَلَّ العيدُ في آفاقِه ... وأشاع في الدنيا سَنَا بَهْجاته

وتسابَق الأطفالُ فيهِ مواكباً ... نَشْوى سقاها العيدُ من نَشَواته

وعلى جُسُومِهُمُو جَديدُ ثِيَابِه ... وعلى وُجُوهِهُمُو سنا لَمَحَاتِه

أَبْصَرْتَ مَطْوِيًّا علَى أَسْمَالِهِ ... يطوي الضلوعَ أسىً على جمرَاته

حيرانَ ينظرهم فيرجع باكياً ... مُتَعَثِّراً في الذُّلِ من خُطُواتِه

العيدُ يملأُ كأسهم من شَهْدِهِ ... ويصبُّ مُرَّ الصابِ في كاسَاتِه

ما العيدُ للمحزونِ إلا لوعةٌ ... تُضْنى وتجديدٌ لِظُلْم حياتِه

ذكرى لآلام اليتيم مريرةٌ ... يعيَا بها فيتيهُ في غَمَراته

مَنْ لليتيم يحوطه برعاية ... ويُقيله في العيش من عَثَراته

شُدُّوا عَزَائِمَهُ فَرُبَّ إساءَةٍ ... للدهر صارت بعدُ مِن حَسَناتِه

واحْمُوا مواهِبَه يَجِئْكُمْ في غدٍ ... بالمعْجزات الغُرِّ من آياته

إنَّ الذي خلق النبوغ مواهباً ... قد صيّر الإغفالَ من آفاتِه

وَلَرُبَّ مغمورِ الطفولة خاملٍ ... يوماً يهابُ اللَّيْثُ من وثباته

ولربما نهض اليتيم بقَوْمِهِ ... وأَطَلَّتِ الآمالُ مِنْ راياته

اليُتْمُ أَنْجَبَ للزمانِ محمداً ... فمَحا دُجَاهُ وكانَ خيرَ هُداتِهِ

الأمثال العامية في نجد



عرض الاستاذ محمد بن عبد الله الحمدان

الأمثال في كل بلد هي لسان أبنائه وتعبيرهم اليومي عن شعورهم ومعاناتهم، وتعكس مدى الوعي والإداك الذي يتمتع به أولئك،والأمثال العامية معين لا ينضب ولا يمكن إحصاؤها أو حصرها فبين وقت وآخر تسمع مثلاً جديداً عليك لم يطرق سمعك من قبل. وقد تسمع في قرية مثلا لا يوجد في القرية المجاورة لها فما بالك بالمنطقة والبلاد.

وهذه المنطقة غنية بالأمثال الصادقة المعبرة الجميلة كما أن الشعر العامي أو (الشعبي) أو (النبطي) أو (البدوي) مليء بتلك الأمثال.

وتحت عنوان «الأمثال العامية في نجد» كتب الأستاذ محمد بن ناصر العبودي عدة مقالات في الصحف والمجلات السعودية القديمة وعلى رأسها مجلة (الجزيرة) الشهرية المحتجبة ثم خرج له كتاب بنفس العنوان ضم ألف مثل من الألف إلى الياء جعله الجزء الأول وقد علق عليه الشيخ عبدالله بن خميس وأثنى عليه ولاحظ أن المؤلف أكمل الحروف الهجائية في الجزء الأول بينما المفروض أن يجعل الجزء الأول لقسم من الحروف الهجائية والجزء الثاني لبقيتها.

وقد علقت على الكتاب بأن نشرت حلقات في مجلة الجزيرة أوردت فيها أمثالاً لم ترد في الكتاب المذكور.

ثم أخرج الأستاذ عبد الكريم الجهيمان كتابه (الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب) في ثلاثة مجلدات أورد فيه ٢٨٥٢ مثلاً ويختلف منهجه قليلاً عن منهج سابقه بأنه يتوسع في إيراد الأمثال ويأتي بشواهد لها من الشعر الشعبي بينما العبودي يختار من الأمثال ويورد أصولها وشواهدها من المصادر العربية ويحاول مقارنتها بالأمثال العربية والعامية في بعض الدول العربية.

ثم دارت الأيام ونشط الرجلان واشتدت المنافسة الشريفة بينهما والعمل الدءوب المتواصل وأصدر العبودي كتابه هذه المرة في خمسة مجلدات تضم ٣٠٠٠ مثل جاءت في أكثر من ١٨٠٠ صفحة وموضوعات الأمثال في ٢٣٥ صفحة ورجع لأكثر من ٤٠٠ مصدر ومرجع، وشرح الكلمات العامية في قرابة ١٠٠ صفحة. وأصدر الجهيمان كتابه في عشرة مجلدات ضمت حوالي ٩٠٠٠ مثل، المجلد العاشر ملحق للكتاب يضم أمثالاً مستدركة من الألف إلى الياء و٧٦ صفحة تضم أمثالاً مختارة ومبوبة من جميع أجزاء الكتاب.

وكتب الأستاذ عبدالله الهويش ملاحظات على صنيع الجهيمان نشرت في العدد ٤٨٧٩ الصادر في ١٤٠٦/٥/٢٧هـ من جريدة الجزيرة والملاحظات في رأيي جيدة باستثناء إحداها.

ومن كتب الأمثال العامية التي صدرت في المملكة كتاب للأستاذ أحمد السباعي رحمه الله (الأمثال الشعبية في مدن الحجاز) في مائة صفحة. وكتاب الأستاذ حسين عبدالله محضر (كتاب الأمثال العامية في مكة المكرمة) ضم ٨٨٠ مثلاً. وكتاب الأستاذ عاتق بن غيث البلادي (طرائف وأمثال شعبية من الجزيرة العربية). وكتاب الأستاذ يحيي الألمعي (الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية) ضم ١٠٨٦ مثلاً.

ولاهتمامي بالأمثال واحتفاظي بملف في مكتبتي يضم ما أسمعه من الأمثال الجديدة في الحياة اليومية أرسلت للأستاذ الجهيمان عن طريق الشيخ حمد الجاسر بعض الأمثال التي سجلتها والتي لم ترد في كتابه أو كتاب الشيخ العبودي.

ولازال ذلك الملف موجوداً في مكتبتي أضم إليه الأمثال التي أسمعها بين الفينة والأخرى. ولازال أحد رفوف مكتبتي المتواضعة يضم مجموعة كتب عن الأمثال الفصيحة والعامية لعل من المناسب إطلاع القراء على أسمائها من باب العلم بالشيء وربما الفائدة.. وهي:

ـ الأمثال البغدادية المقارنة مع أمثال ١١ قطراً عربياً/ عبد الرحمن التكريتي.

ـ فرائد اللآل في مجمع الأمثال (كتاب نادر) ٩٠٠ صفحة جزءان في مجلد/ ابراهيم بن علي الأحدب طبع عام ١٣١١هـ.

- المستقصي في أمثال العرب (مجلدان)/ جارالله محمود الزمخشري.

- الأمثال اليمانية مع مقارنتها بنظائرها من الأمثال الفصحى والعامية في البلاد العربية/ إسماعيل الأكوع.

- زهر الأكم في الأمثال والحكم/ الحسن اليوسي تحقيق د. محمد حجي ود. محمد الأخضر .. المغرب ٣ مجلدات.

- الأمثال العربية ومصادرها في التراث/ محمد أبو صوفة.

- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي/ أحمد قبّش

- أمثال العرب/ للمفضل الضبي.

- حدائق الأمثال العامية/ فائقة حسن راغب.

- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال/ أبو عبيد البكري.

- الأمثال/ لأبي عكرمة الضبي تحقيق د. رمضان عبد التواب.

- جمهرة الأمثال الفراتية/ حسين علي الحاج حسن.

- الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة/ الأصبهاني (مجلدان).

- كتاب جمهرة الأمثال/ أبو هلال العسكري (مجلدان).

- أمثال العرب/ فؤاد علي رضا.

- الأمثال الدارجة في الكويت/ عبدالله النوري.

- أمثال المتنبي/ جمعها الصاحب بن عباد.

- في الأمثال العربية/ د. ابراهيم السامرائي.

- الأمثال في القرآن الكريم/ ابن القيم.

- الأمثال العامية/ محمد صادق دياب.

- الأمثال الشعبية/ محمد صفوت.

- الأمثال العربية القديمة/ رودولف زلهايم.

- كتاب الأمثال المسمى الفرائد والقلائد (العقد النفيس ونزهة الجليس) للثعالبي.

- مجمع الأمثال/ للميداني.

- الفاخر/ للمفضل بن سلمة بن عاصم.

- من الأمثال العامية/ خالد سعود الزيد.

- السحر الحلال في الحكم والأمثال.

- العمانيون .. حكمهم وأمثالهم الشعبية/ آي اس جي جاياكار.

- كتاب مضاهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب محمد بن حسين اليمني.

- أمثال وحكم/ عبدالله مخايل دياب.

- الأمثال الشعبية في حياتنا اليومية/ وفاء الخناجري.

- ربع مليون من أمثال الشرق والغرب/

يوسف وصلاح الدين البستاني.

- الأمثال من الكتاب والسنة/ محمد بن علي الحكيم الترمذي.

- كتاب أمثال الحديث/ الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي.

- تمثال الأمثال/ محمد بن علي العبدري الشيبي (مجلدان).

- بحوث ومقالات كثيرة جداً عن الأمثال العامية في بعض الدول العربية نشرت في مجلة التراث الشعبي العراقية.

أمثال لم ترد في أي من كتابي الجهيمان والعبودي:

والأمثال التالية لم ترد في أي من الكتابين المذكورين:

- الدز من المز والتغار من الشبعة (التغار هو التنفس من الشبعان بصوت مرتفع وهي عادة سيئة).

- الثلمة ما ينبيها قضاضها.

- القرم منجا والكريم معان (القرم هو الشجاع) وأصله موجود في الأمثال العربية الفصيحة.

- طقه بالموت يقنع بالكفن.

- الكتيفة على الكتيفة ما تمسك.

- أول بواشيرها القوارير والحدا.

- دلني في الخلوة وأدلك في الدبادب.

- مع خيط الما يا دجاجان.

- الملزق يطيح.

- يا مدور التمر عند مَصّصة العبس.

- كل شاة بعصبها معلقة.

أمثال أوردها العبودي ولم يوردها الجهيمان:

- الولد والقعود مخلفين الوعود.

- أحد ياقط واحد يتمنى النسية. (والنسية هي اللبن القليل المخلوط بماء كثير وقد أورد الجهيمان كلمة الشنينة بدل النسية وما أوردته أنسب وأقرب للمعنى).

- الضحيكة تعلم.

- يا جده نادي جدتك.

- شلفا ذياب.

أمثال أوردها الجهيمان ولم يوردها العبودي:

- كوخا وعصاية.

- لا تبوق ولا تخف.

- قولة الحمدلله ولا قولة أخلف الله عليك (أو أنعم الله عليك) وهذا المثل موجود عند إخواننا المصريين بلفظ (آخذ الحاجة بأيدي ولا أقول يا سيدي).

أمثال بالجملة:

وفيما يلي بعض الأمثال العامية التي سجلتها في (الملف) الموجود في مكتبتي لم أتمكن من

مقارنتها بكتابي الأستاذين، أوردها من باب الفائدة العامة:

- أكذب من صواية الليل.
- أكل الفهود ولا أكل السنانير.
- إلى سلمت أنا وبنيّاتي فبصر امي واخيّاتي.
- اقر دينك الين تعزى مهبول.
- الى بغيت تهينه فاكرب يمينه.
- أما حصه والا شاذوب.
- الى قام الذكر عمي البصر.
- الى ادبرت ادبرت.
- أول لعبة للشيطان.
- ان كان في الهند مروّة فالرز فيه قوه.
- إن لقحت والا ما ضرها الجمل.
- أراد أن يعرّبه فاعجمه.
- الشيوخ أبخص.
- عنز الشيوخ نطاحة.
- اسود كنه الليل.
- اسود كنه الكحل.
- أبيض كنه الشطوط.
- اما عاد عنزي اللي تنزي.
- إن طاعك السوق والا طعه.
- إن كانك حبر فالناس حبور.
- إلى فاتك البطيخ فاشرب من الماء.
- ابليس يعرف ربه.
- أبين من الشمس.
- أسرع من البرق.
- أكبر من ويش.
- أقرب من يدك لا ثمك (لفمك).
- إن قام طقه الغار وان قعد كلته النار.
- إن حسب الزارع ما زرع.
- إلى حجت السويدا.
- إلى حجت البقرة على قرونها.
- إن كانك فسقان فاحفر ضب والا جربوع براس عدابه.
- الين تقوم ناقة صالح.
- إلى نامت الحسده والفسده وابليس وولده.
- أب جزم.
- إلى شفته حافي فقل يا كافي (بسبب الصافي).
- أمس الأدنى من خمس وثلاثين سنة.
- أكوبع عباتي واتاحي لشاتي.
- أصعدت.
- أكثر ما في دار السو الحطب.
- أمطرت وأصبحوا ياقطون.
- أبرك من الكاف والسين.

- أدق من تراب المجرا.
- أبوكم ردي وطاحت عليه المنسفة.
- الى كذبت فسنّد.
- إياك نعبد واياك نستعين.
- إزبن طويق.
- الأحدب يعرف كيف ينام.
- احسب سقايفه.
- راح يجيب شقص (له قصة طريفه).
- أنت أبوها وسمها.
- أنت أبونا والله ربنا.
- إلى كلت بصيل فكل بصل.
- إحك في الداب وولم المقلاب.
- إحك في الكلب وولم العصا.
- إحك في الحصان وولم العنان
- إزمر على قد فلوسك.
- بينهم مثل ما بين سهيل والجدي.
- بعير شمال.
- بعد وذره (له قصة).
- لا تقروا ولا بدخن (له قصة)
- جمشة بير (له قصة).
- بيت الطوى ولا عشا ردي.
- تراب العيش عيش.
- تيس الجماعة.
- تمدحك حريم المشاش.
- ترعى وهي رابضة.
- قال يا كثر حكيهم قال من ترديده.
- تناقلت الغروب.
- توق حلالك قبل ما يتوقاك.
- قاطع القوم حلالك.
- تحويلة من أسفل الدرجة ولا تحويلة من علوها.
- تشابه البقر علينا.
- تفنى اليدين ولا تفنى عواملها.
- تسقم رغبه بلا هويمل (له قصة).
- يصلح العيد بلا حنا.
- ثورة بارود.
- جربوع ما يسوى حطبه.
- جلة كفيفه.
- جنة حمار ثغب وثيل.
- الجادّة ولو طالت وبنت العم ولو بارت.
- الجراده من جراد والمطيه من ركاب.
- الجلا فنا.
- جزاك يا ناقة الحج ذبحك.
- جاك الذيب جاك وليده.

إلى آخر تلك الأمثال الكثيرة.

توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة

د. محمد شوقي بن إبراهيم مكي

مقدمـــة:

لا شك أن زيادة نمو المنطقة المبنية وزيادة نمو السكان يعني أيضاً زيادة مساحة الحدائق العامة أو المساحات الخضراء اللازمة للترفيه. ومن المعروف أن اصطلاحي الترفيه والتمدن أصبحا متلازمين في الوقت الحاضر، ويشكلان تحدياً واضحاً للمخططين، وواضعي القرارات.

وقد أصبحت المساحات المخصصة للترفيه في المدن، سواء كانت مساحات خضراء أو مساحات حرة، أو متنزهات ضرورة ملحة للمدن العصرية. ولأهمية هذا الاستخدام فقد عرف في المدن منذ فترات تاريخية بعيدة، إذ طبق في المدن الإغريقية والرومانية والعربية القديمة[1]، حيث استخدمت الساحات العامة للمبادلات التجارية والاجتماعات الشعبية. ولكن النمو العمراني كثيراً ما يؤدي إلى تناقص المساحات الخضراء نتيجة لتوسع طرق النقل والمساكن والمصانع والأسواق المغطاة، مع أن أهمية هذه المساحات تعتبر أكثر إلحاحاً مع زيادة النمو العمراني لأنها تعتبر عاملاً أساسياً في مواجهة التشريعات الجديدة التي تزيد من تحديد وقت الفراغ لدى الموظف والعامة وربة البيت، كما أنها أيضاً مهمة جداً لمكافحة أخطار المدنية الآلية. فالمساحات الخضراء تعمل على تطهير وتجديد الهواء، وإبطال تأثير الغازات السامة وامتصاص الاندريدكاربونيك، وحجز الغبار بوساطة الترسب على الأوراق والخضير، وبث الأوكسجين والأزون، وتنظيم حالة الرطوبة ودرجة الحرارة، والقضاء على بعض الروائح، والعمل كستار واقٍ ضد انتشار ضجيج حركة المرور ودخان المصانع. ولا شك أن هذه الفوائد مهمة جداً لحالة السكان الفزيولوجية بوجه عام ولأصحاب البنيات الضعيفة بوجه خاص، كالأطفال وكبار السن.

وتؤثر المساحات الخضراء أو المفتوحة على نفسية السكان المدنيين، فالعامل أو الطالب المرهق من أجواء العمل والدراسة، يجد تغييراً في النشاط الذهني بتأمل منظر يدخل الهدوء والراحة النفسية عليه حتى ولو كان المنظر مصطنعاً، أو بممارسة نشاط فيها يعبر فيه عن ذاته، وإمكاناته بدون توقع وانتظار المكافأة المادية. ولهذا فأهمية الحدائق العامة أكثر ضرورة في المدن التي تقل فيها الحدائق الخاصة في المساكن. ويعتبر بعض علماء الاجتماع أن إيجاد الوقت والمكان المناسبين للترفيه ضروري جداً لتخفيف ضغط عبء العمل على العامل الفقير، وأن نقص هذا الجانب يؤدي إلى ظهور عصابات الشباب التي تتخذ أي عمل حتى ولو كان تخريبياً لمجرد التسلية[٢]. بل إن البعض اعتبر الترفيه من الأنشطة المهمة لأنه يجدد نشاط العامل والموظف وبالتالي يزيد من إنتاجيته، ولهذا فهو إذن نشاط إنتاجي وليس مجرد هدر للوقت[٣].

ونظراً لما سبق ذكره من أهمية هذه المساحات الخضراء فقد كان هدف هذه الدراسة مقارنة وضعها في المدينة المنورة بين سنة ١٣٨٢هـ وسنة ١٤٠٦هـ (السنوات التي تتوافر عنها البيانات) في ضوء تغير مساحة المدينة المنورة وعدد سكانها وطبقاً للمواصفات العالمية مع التأكيد على فعالية توزيع الحدائق العامة في سنة ١٤٠٦هـ، وذلك أملاً في الإسهام في تحديد فعالية أحد الأساليب الموجودة المستخدمة لغرض الترفيه، وبالتالي تقويم أي قصور فيها لغرض تطويرها،أو تحسينها،لخدمة سكان وزوار المدينة المنورة.

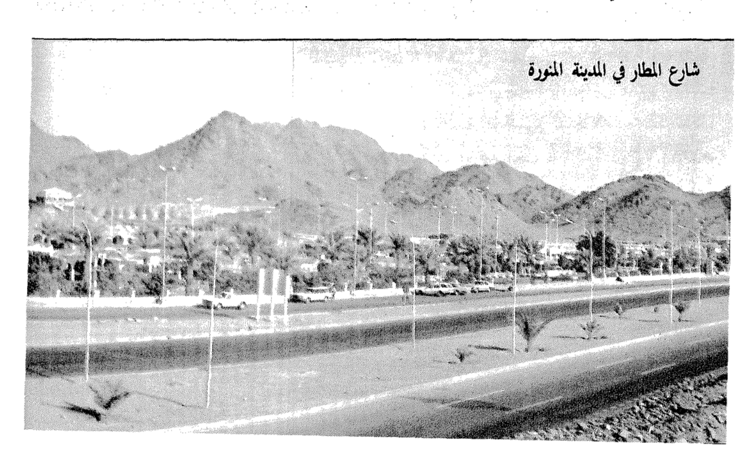
ومن المعروف أن مساحة الحدود البلدية للمدينة المنورة ازدادت من ٥٨,٨ كم² في سنة ١٣٨٢هـ (١١,١كم² منها تشكل المناطق المبنية)[٤]، إلى ٣٣٠كم² في سنة ١٤٠٦هـ (٦٨كم² منها تشكل المناطق المبنية)[٥]. كما ازداد عدد السكان من ٧١٩٩٨ نسمة في سنة ١٣٨٢هـ إلى ٣١١٢٨٤ نسمة في سنة ١٣٩٨هـ بنسبة نمو سنوي ٤,٨٪[٦]. ولو اعتبرنا نسبة النمو السنوي نفسها لأصبح عدد السكان في سنة ١٤٠٦هـ ٤٣٠٩٢٧ نسمة. أما المساحات الخضراء فقد بلغت ٦,٨كم² في سنة ١٣٨٢هـ (١,٠٢كم² منها تشكل الحدائق العامة)[٧]، وازدادت إلى ٨,٨كم² في سنة ١٤٠٦هـ (٠,٩٥كم² منها تشكل الحدائق العامة)[٨].

الدراسات السابقة

بدأت بعض الحكومات،والمؤسسات الدولية،مثل الحكومة الأمريكية، والحكومة السوفيتية، ومكتب العمل الدولي، الاهتمام بالمساحات الخضراء والنشاطات التي تمارس فيها منذ العشرينات من القرن

العشرين[٩]. وقد تناول علماء الاجتماع دراسة موضوع الترفيه كوسيلة اجتماعية وثقافية ونفسية لممارسة حياة سكان الحضر مثل دراسة بيبر **Pieper** الذي حاول تحديد مفهوم الترفيه كحالة من الشعور منفصلة عن المكان والزمان[١٠]. وهناك دراسة ويلنسكي **Wilensky** عن دور الترفيه في تنمية ثقافة ومهارات الجمهور والاعتماد على الذات وكسره لقيود التقاليد[١١]. كما اهتم بعض الجغرافيين بدراسة الترفيه من منظور جغرافي، أي من حيث التوزيع المكاني للخدمات الترفيهية مثل دراسة ماندلكر **Mandelker** الذي ربط بين نسب نمو التحضر ونمو المساحة الخضراء في المدن[١٢]. ولا ننسى الدراسات العديدة التي تمت عن الأحزمة الخضراء حول المدن والتي تهدف بالإضافة إلى غرضها الأساسي في تنطيق استخدامات الأرض إلى خلق مجال مساعد للترفيه.

أما الدراسات العربية المهتمة بالترفيه فمحدودة جداً ومعظمها يقتصر على تقارير الشركات والمؤسسات الاستشارية التي تتناول دراسة تطوير استخدامات الأرض في المدن العربية. بالإضافة إلى بعض الأطروحات العلمية التي تناولت دراسة تركيب المدن مثل رسالة محمد صبحي عبد الحكيم عن مدينة الإسكندرية والتي طبعت في سنة ١٩٥٨م[١٣]. ومن الدراسات العربية الحديثة التي اهتمت بالترفيه كموضوع قائم بذاته دراسة إسحق القطب من منظور اجتماعي ودراسة عبد الإله أبو عياش من منظور جغرافي. كما اهتمت حديثاً منظمة المدن العربية بموضوع الترفيه والمساحات الخضراء في المدن العربية. في سنة ١٩٧٢م أشرفت المنظمة بالتعاون مع أمانة مدينة بغداد على تنظيم ندوة خصصت

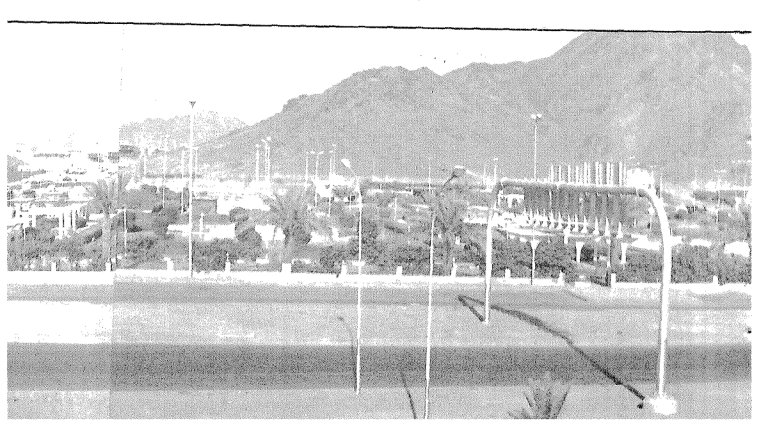

شارع المطار في المدينة المنورة

جميع مواضيعها لمشاكل التشجير وتجميل المدن في العالم العربي (١٤). كما خصصت مواضيع المؤتمر السادس لمنظمة المدن العربية المنعقدة في الدوحة بدولة قطر سنة ١٩٨٠م لمعالجة الجوانب المختلفة للترفيه في المدن العربية. وقد اهتم بحثان من مجموع ٣١ بحثاً من بحوث هذه الندوة بموضوع التشجير والمساحات الخضراء في المدن العربية. ففي البحث الأول شخّص الباحث أسباب قلة المساحات الخضراء في المدن السعودية واقترح بعض الحلول لمواجهة هذا النقص (١٥). وفي البحث الثاني تعرّض الباحث لجهود أمانة مدينة جدة حيال خلق المساحات الخضراء للترويح (١٦).

مفهوم المساحات الخضراء:

يعرّف البعض الأراضي الخضراء، بأنها الحدائق العامة والخاصة، والملاعب العامة، وملاعب النوادي والأراضي الزراعية في البيئات الحضرية والأراضي الخالية والمساحات المائية (١٧). ومن الواضح أن هذا التعريف واسع جداً إذ أنه أدخل حتى الأراضي الخالية ضمن المساحات الخضراء مع أن هذه قد تكون غير منظمة أو مكاناً لإلقاء النفايات خاصة في الدول النامية، وبالتالي عدم إمكانية ممارسة أي نشاط فيها. وفي اعتقادي أن تحدد هذه المساحات بالحدائق العامة أو الخاصة التي يستطيع الجمهور الدخول إليها والاستفادة منها في عملية الترفيه وقضاء وقت الفراغ.

وتصنف هذه المساحات تبعاً لنوعية مستخدميها إلى عدة مستويات وهي:



١ ـ على مستوى الحي: ويكون الهدف من إنشاء المساحات الخضراء على هذا المستوى خدمة سكان الحي فقط.

٢ ـ على مستوى المدينة: والهدف من مساحات هذا المستوى هو خدمة سكان جميع أحياء المدينة.

٣ ـ على المستوى الإقليمي والوطني: وتوجه هذه المساحات لخدمة سكان المدن والمستوطنات الأخرى في الإقليم كله أو ما وراء ذلك في الأقاليم الأخرى من الدولة.

وفي المدينة المنورة يتوافر النوعان الأولان كما سنرى عند دراسة توزيع الحدائق العامة فيها. أما النوع الثالث فغير موجود في المدينة المنورة في الوقت الحاضر. وهذا النوع الأخير غالباً ما يهدف إلى خدمة السكان لقضاء وقت الفراغ في الإجازات السنوية أو الفصلية بعكس النوعين الأولين اللذين يقدمان الخدمة لقضاء وقت الفراغ اليومي والأسبوعي، ولكن الأهمية الدينية للمدينة المنورة تدفع إلى وجود نمط مختلف من النشاط الترويحي فيها حيث يفد إليها سنوياً الزوار للسلام على الرسول ﷺ وقضاء عدة أيام أو أسابيع فيها للصلاة في المسجد النبوي الشريف طمعاً في كرم الله عز وجل الذي جاء على لسان سيد الخلق محمد ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في فضل الصلاة في المسجد النبوي بأنها خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام[١٨]. وتخلق هذه الزيارات نشاطاً ترويحياً للزائرين يعمل على تعميق الإيمان، ونشاطاً اقتصادياً لقطاع كبير من سكان المدينة المنورة الذين يقدمون خدماتهم لهؤلاء الزوار. ولا شك أن هذا النوع الأخير من الترويح يتفق مع تعريف جراي Gray للترويح بأنه عمل تأملي جمالي ونفسي وروحي وفلسفي[١٩].



حديقة في المدينة المنورة

الاحتياجات المدنية للمساحات الخضراء:

لقد أوصى المؤتمر الدولي لتخطيط المدن الذي عقد في باريس في سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) بألا تقل المساحة المخصصة للحدائق العامة عن عشر مساحة المدينة[٢٠]. وهناك توصية أخرى تقترح بأن مساحة أيكر واحد (٤٠٥٠م^{2}) من المساحات الخضراء ضرورية لكل ألف ساكن[٢١]، بل إن آراء أخرى ترفع المعدل إلى ٧ أياكر (أو ٢٨٣٥٠م^{2}) لكل ألف شخص[٢٢]. أما روبير أوزيل فقد قدر ضرورة توافر ٢ ـ ٥م^{2} لكل ساكن في المدينة، ويمكن أن يقل هذا المعدل إذا ما توفرت البساتين والأحراج حول المدينة[٢٣].

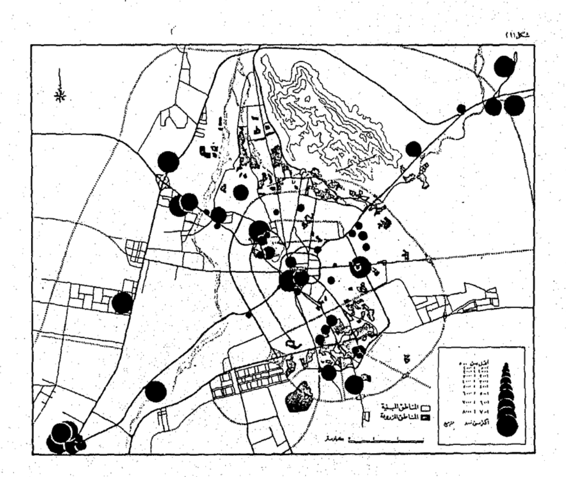
وفي المدينة المنورة نجد أن المساحة الخضراء في سنة ١٣٨٢هـ ربما كانت تدخل بشكل عام ضمن المقياس العالمي إذ أنها كانت تشكل أكثر من عشر المساحة الإجمالية للمدينة المنورة، ولكن المساحة المخصصة للاستخدام العام بعيدة كل البعد عن هذا المقياس إذ أنها كانت تقل عن العشر بنسبة ٩٩,٧٪. وإذا نظرنا إلى مقياس عدد السكان نجد أن نصيب الأيكر (كل ٤٠٥٠م^{2}) من المساحات الخضراء العامة هو ١٥٢٠ ساكناً. ويفوق هذا المعدل المقياس العالمي المنخفض بمقدار النصف.

وفي سنة ١٤٠٦هـ ازدادت مساحة المنطقة المبنية كثيراً وأصبحت المساحة الخضراء تشكل نحو ٢٧٪ فقط من عشر المساحة الإجمالية للمدينة المنورة، ولكن المساحة الخضراء العامة كانت تشكل نحو ٣٪ فقط من قيمة العشر المناسب لمساحة المدينة المنورة. وأصبح نصيب الأيكر (أوكل ٤٠٥٠م^{2}) من المساحة الخضراء العامة نحو ٢٠٠ نسمة حسب المقياس المنخفض. ويعني هذا المعدل أن المساحات الخضراء العامة تبعاً لمقياس عدد السكان أصبحت تزيد على احتياجات السكان بنسبة ٨٠٪. وتكفي هذه الزيادة سكان المدينة المنورة لنحو ١٢٠ سنة قادمة. ولكننا إذا ما أخذنا المقياس المرتفع فإننا نجد أن نصيب كل سبعة أياكر (أوكل ٢٨٣٥٠م^{2}) ١٤٠٠ نسمة. ويعني هذا المعدل أن هناك نقصاً في المساحات الخضراء في الوقت الحاضر في المدينة المنورة. وربما كان هذا المعدل الأخير هو الأقرب إلى الواقع والملائم لنمو السكان ولمعيار مساحة المدينة المنورة. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن بعض الحدائق الخاصة يمكن أن تستقبل بعض السكان لقاء أجر أو بدون أجر لأمكن الاستنتاج بأن المساحات الخضراء في المدينة المنورة أصبحت تقترب من تلبية احتياجات السكان في الوقت الحاضر، ولكن إذا ما أخذنا في الاعتبار تحقيق هدف أمانة المدينة المنورة في إيجاد ٨ ـ ١٠م^{2} لكل فرد من سكان المدينة المنورة[٢١]، لأصبح على الأمانة زيادة المساحة الحالية بنسبة ٢٦٨٪.

توزيع الحدائق في المدينة المنورة:

تتباين مساحة الحدائق العامة في المدينة المنورة بين أقل من ٥٠٠م٢ إلى أكثر من ٨٠٠٠م٢ (شكل ١)، ولكن الحدائق الأكثر انتشاراً هي ذات الحجم المتوسط التي تتراوح مساحتها بين ١٠٠١ ـ ٣٠٠٠م٢، فقد بلغ عدد هذه الحدائق المتوسطة ١٩ حديقة، أي بنسبة ٣٨٪ من مجموع الحدائق العامة (جدول ١). أما الحدائق الصغيرة التي تتراوح مساحتها بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠م٢ فتشكل نحو ١٤٪ من مجموع الحدائق العامة. وتشكل الحدائق الكبيرة (٣٠٠١ ـ ٨٠٠٠م٢) والحدائق الكبيرة جداً (أكثر من ٨٠٠٠م٢) نحو ٣٠٪، ١٨٪ من مجموع الحدائق العامة في المدينة المنورة على التوالي:

توزيع الحدائق العامة فى المدينة المنورة مصنفة حسب الحجم ، ١٤٠٧هـ



(جدول ١) أعداد ونسب الحدائق العامة في المدينة المنورة
مصنفة حسب الحجم، ١٤٠٧هـ.

حجم الحدائق العامة بالمتر المربع	العدد	النسب المئوية
أقل من ٥٠٠	٢	٤,٠٠
٥٠١ ـ ١٠٠٠	٥	١٠,٠٠
١٠٠١ ـ ٢٠٠٠	١٢	٢٤,٠٠
٢٠٠١ ـ ٣٠٠٠	٧	١٤,٠٠
٣٠٠١ ـ ٤٠٠٠	٢	٤,٠٠
٤٠٠١ ـ ٥٠٠٠	٢	٤,٠٠
٥٠٠١ ـ ٦٠٠٠	٦	١٢,٠٠
٦٠٠١ ـ ٧٠٠٠	٢	٤,٠٠
٧٠٠١ ـ ٨٠٠٠	٣	٦,٠٠
أكثر من ٨٠٠٠	٩	١٨,٠٠
المجموع	٥٠	١٠٠,٠٠

المصدر: أمانة المدينة المنورة، الإدارة العامة للحدائق والتشجير.

وباستخدام قاعدة صلة الجوار *Nearest Neghbour Analysis* يمكن معرفة نمط توزيع هذه الحدائق في المدينة المنورة. ويمكن التعبير عن صلة الجوار بالقاعدة الحسابية التالية: [٢٥].

ر = ٢ف ن م

حيث تمثل:

ر = معيار صلة الجوار.

ف = متوسط المسافات الحقيقية الفاصلة بين الحدائق.

ن = مجموع عدد الحدائق.

م = مساحة المدينة المنورة

وتنحصر قيمة (ر) عادة بين صفر التي تشير إلى التوزيع المتمركز وبين ٢,١٥ التي تشير إلى التوزيع المتجانس. ويمكن أن يتضح التوزيع العشوائي في المنطقة إذا اقترب معيار صلة الجوار من القيمة.

وبتطبيق القاعدة السابقة على توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة اتضح أن قيمة صلة الجوار (ر) تساوي ١,٢٨. وتعني هذه القيمة أن نمط التوزيع المكاني لهذه الحدائق هو نمط التوزيع المتباعد مع مسافة فاصلة غير منتظمة بين الحدائق. وقد يعزى سبب هذا النمط في التوزيع إلى التوسع المساحي الأفقي السريع للمنطقة المبنية ومحاولة أمانة المدينة المنورة إيجاد الحدائق العامة في مختلف أحياء المدينة وحيث يمكن إيجاد الأرض المناسبة لإقامة مثل هذه الحدائق، لأنه لم يكن في التخطيط السابق للمدينة المنورة تركيز كبير على إقامتها.

ومن المرجح أن يعتقد كل قارىء بوجود الفرض البديهي بأنه كلما ازدادت مساحة المدينة ازدادت أعداد الحدائق العامة ومساحتها. وقد لاحظنا صحة هذه الفرضية بالنسبة للبيانات العامة حيث ازدادت مساحة المدينة المنورة وازداد عدد سكانها وكذلك ازدادت مساحة الحدائق العامة فيها. ولكن لمعرفة مدى انسجام هذه العلاقة في كل أرجاء المدينة المنورة فقد استخدم تقسيم الأمانة للمدينة المنورة إلى تسعة قطاعات (شكل ٢)، وحسب معامل الانحدار الكلي *Multiple Regression* بين متغيرات مساحة القطاع، وعدد سكانه، وعدد حدائقه، ومساحة هذه الحدائق (جدول ٢).

جدول ٢: توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة تبعاً للقطاع ١٤٠٦هـ (الأرقام بين الأقواس تشير للمساحة الخضراء بالأيكر

القطاع	المساحة المبنية في القطاع بالكم² (١)	عدد سكان القطاع (٢)	عدد الحدائق العامة (٣)	مساحة الحدائق العامة في القطاع بالمتر المربع (٣)	نصيب الأيكر من السكان (١)
العقيق	١٣,٥	١١٢٦٣٣	٧	٢٢١٢٠٠ (٥٢٣,٩)	٢١٥
العاقول	٩,٥	٤٧٩٠٢	٢	١٠٧٠٠٠ (٢٥٣,٤)	١٨٩
الميقات	٩,٤	٢٢٤٨٩	٨	٧٠٦٢٠ (١٦٧,٣)	١٣٤
أحـد	٩,٢	٣٧٩٧٥	٩	٨٠٥٥٠ (١٩٠,٨)	١٩٩
قبـاء	٧,٣	٣٧٤٧٣	٦	٢٥٠٠٠ (٥٩,٢)	٦٣٣
العوالي	٦,٧	٣٥٠٨٥	١٣	١٤٨٢٠ (٥٨,٨)	٥٩٧
العزيزية	٥,١	٦٤٤٤	٢	٣٩٠٠٠٠ (٩٢٣,٧)	٧
العيون	٤,٨	٥٦٨٥٥	–	–	–
الحرم	٢,٥	٧٤٠٧١	٣	٣٣٥٠٠ (٧٩,٤)	٩٣٣
المجموع	٦٨,٠	٤٣٠٩٢٧	٥٠	٩٥٢٦٩٠ (٢٢٥٦,٥)	١٩١

المصادر: ١ـ من حساب الباحث.

٢ـ تقدير الباحث اعتماداً على نمو السكان بين سنة ١٣٨٢هـ وسنة ١٣٩٨هـ.

٣ـ أمانة المدينة المنورة، الإدارة العامة للحدائق والتشجير.

ويلاحظ من الجدول رقم (٢) أن أكبر القطاعات مساحة ليست هي التي تضم أكثر الحدائق عدداً أو مساحة. ويؤكد هذه الحقيقة أن قيمة معامل الانحدار الكلي بين مساحة القطاع وعدد الحدائق أو مساحتها منخفضة، كما أن قيمة مربع معامل الارتباط ($R2$) لا تشرح إلا نسباً منخفضة من العلاقة (جدول ٣)، وبالتالي فإن قيم اختبار (ف) لم تكن ذات دلالة. والعلاقة الوحيدة المقبولة إحصائياً هي علاقة عدد سكان القطاع وعدد الحدائق فيه حيث كانت قيمة معامل الانحدار ٠,٤٩ والتي تشرح نحو ربع نسبة التباين عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ودرجات حرية ٢٠.

وتعني هذه الحقائق أن هناك أسباباً أخرى تحدد حجم الحدائق العامة الحالية لعل من أهمها إمكانيات توافر الأرض المناسبة وبأسعار غير مكلفة جداً للأمانة.



جدول ٣: معامل الانحدار الكلي بين مساحات القطاعات وعدد سكانها وعدد الحدائق ومساحتها في هذه القطاعات

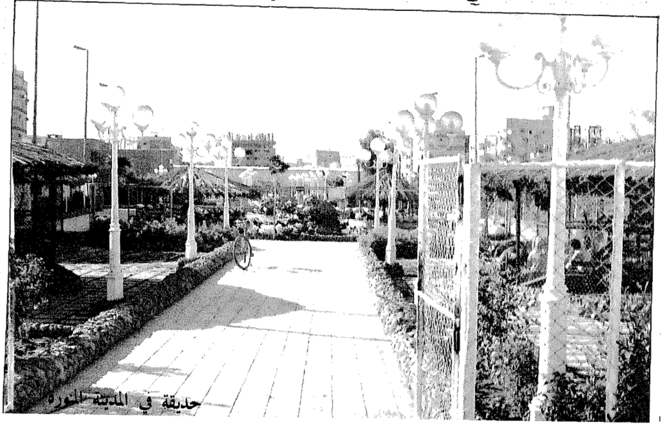
المتغـــيرات	معامل الارتباط (R)	مربع معامل الارتباط (R2)	قيمة اختبار ف (F)
مساحة القطاع ـ وعدد سكانه	٠,٢٩	٠,٠٨	٠,٤٤٨
مساحة القطاع ـ وعدد حدائقه	٠,٢١	٠,٠٤	٠,٢٢٥
مساحة القطاع ـ ومساحة حدائقه	٠,٣٨	٠,١٤	٠,٨٢٩
سكان القطاع ـ وعدد حدائقه	٠,٤٩	٠,٢٤	١,٥٦٦
سكان القطاع ـ ومساحة حدائقه	٠,١٥	٠,٠٢	٠,١١٨

المصدر: جدول رقم (٢).

ويبدو أن الحدائق في داخل المدينة المنورة موجهة لخدمة سكان الحي حيث نجد أنه بالرغم من صغر إجمالي مساحتها إلا أن نصيب الأيكر من السكان مرتفع كما هو الحال مثلاً في قطاعات الحرم وقباء والعوالي. أما القطاعات الواقعة في أطراف المدينة المنورة فتتميز بكبر مساحة حدائقها وقلة نصيب الأيكر من سكان القطاع الذي تقع فيه بالرغم من ازدحامها بالرواد مما يعني أنها تخدم سكان جميع قطاعات المدينة المنورة. ولا شك أن هذا الاتجاه يعوض مشكلات صغر الحجم أو التوزيع غير المتوازن للحدائق العامة في داخل المدينة المنورة.

النتائج والتوصيات:

لقد اتضح من هذه الدراسة أن مشكلة الأراضي الخضراء العامة في المدينة المنورة لم تعد في الوقت الحاضر مشكلة نقص المساحة وإنما مشكلة التوزيع المتجانس. فنجد أن نحو ٧٥٪ من مساحة الحدائق العامة تتركز في ثلاثة قطاعات وهي العقيق والعاقول والعزيزية والتي تضم نحو ٤٠٪ فقط من مساحة المنطقة المبنية. وهناك قطاعات لا تضم حدائق عامة إطلاقاً مثل قطاع العيون. وفي التخطيط الحديث يعتقد بأن المسافة الفاصلة بين المناطق الخضراء يجب ألا تزيد على ٠,٨ كم[٢٦]، ولكننا نجدها في المدينة المنورة تصل أحياناً إلى ٦ كم. وتعني هذه الحقائق أنه في المرحلة القادمة يجب على أمانة المدينة المنورة الاختيار الدقيق لإنشاء الحدائق العامة الجديدة التي تخدم سكان الأحياء. ومثل هذه الحدائق قد ثبت نجاحها كما في قطاع العقيق حيث حديقة المجد التي تعتبر متنفساً يومياً لسكان حي العقيق



حديقة في المدينة المنورة



(صورة ١) تنوع النشاطات في حديقة المجد حيث لعب الأطفال والحيوانات الداجنة

والأحياء المجاورة به (صورة ١). ولا شك أن هذا الاختيار سيدعم العلاقة بين عدد السكان وعدد الحدائق ومساحتها أيضاً في القطاعات البلدية للمدينة المنورة.

ولتحسين توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة يمكن ذكر التوصيات التالية:

١ ـ التوسع في إنشاء الحدائق العامة لتحقيق طموحات أمانة المدينة المنورة ولمقابلة احتياجات نمو السكان وخاصة من الحدائق ذات الحجم المتوسط في المناطق التي توجد فيها الحدائق الصغيرة جداً في الوقت الحاضر. فالحدائق الصغيرة لا توفر الخصوصية للزائر (صورة ٢).

٢ ـ القيام بدراسات تفصيلية عن السكان الذين يفترض أن تخدمهم هذه الحدائق وذلك لتحديد العوامل الاقتصادية والتركيبات العمرية للسكان المحليين من أجل تقديم أفضل الخدمات لهم.

٣ ـ المرونة في تنفيذ مخططات الحدائق العامة بحيث تأخذ في الاعتبار التحولات في التركيبات الاقتصادية والاجتماعية للسكان، وفي تقنية الإنشاء. ولا شك أن هذه التحولات تؤثر على تكاليف الإنشاء والصيانة. وعلى أية حال فإن التخطيط المرن. والمراجعة الدورية تجعل تسهيلات الحدائق العامة تخدم المجتمع إلى ما لا نهاية.

٤ ـ الربط بين احتياجات السكان وطبوغرافية القطاعات البلدية مما يمكّن من إنشاء الحدائق العامة في المناطق التي تبدو متضرسة بعد إجراء بعض التعديلات عليها وإدخال بعض التسهيلات التي تجعلها آمنة وجذابة.

٥ ـ ومما يساعد على خفض تكاليف إنشاء الحدائق العامة زيادة مساحة قطع الأرض لمخططات المسكن لكي يستخدم ٤٠ ـ ٦٠٪ منها في الزراعة مما يجعل السكان أنفسهم يسهمون في خلق إطار طبيعي جذاب يساعد على قضاء وقت الفراغ في أعمال الحديقة أو في النشاطات الأخرى

التي تمارس فيها. أما النمط السائد في الوقت الحاضر في انتشار قطع الأراضي ذات مساحة ٤٠٠م٢ فلا يسمح بإنشاء حدائق فعلية لكل مبنى. ويقترح زيادة معدل المساحة لكل قطعة إلى نحو ٩٠٠م٢.

٦ ـ تدعيم جهاز إدارة الحدائق والتشجير بالأمانة بالمتخصصين في التخطيط للترفيه. ويمكن أن يكون هذا التدعيم من مستشارين من خارج المدينة المنورة ممن تتوافر لديهم الخبرة والمهارة ولكن بالاشتراك مع المخططين المحليين الذين يكونون على دراية أكبر بالسمات الخاصة للمجتمع. وقد أثبتت التجارب أن تكلفة استخدام المستشارين من خارج المنطقة على مدى فترة محدودة غالباً ما يعوضه استخدام الخبرات المحلية على مدى أطول في مجالات البحث وتنفيذ المخططات[٢٧].

٧ ـ إيجاد وسيلة في الحدائق الكبيرة الحجم التي تخدم سكان مختلف قطاعات المدينة المنورة مثل حديقة النخيل بحيث تمنع المضايقات لمختلف مجموعات المستخدمين مثل العزّاب والعوائل. وقد تكون هذه الوسيلة باستخدام حاجز من مظهر طبيعي للأرض أو حاجز اصطناعي جذاب (صورة ٣) أما الوضع الحالي ففيه من الاختلاط والمضايقات مما يتنافى مع التقاليد والأعراف السائدة والأهم من هذا وذلك مع الشريعة الإسلامية. وقد ثبت نجاح استخدام هذه الفواصل في مدن أخرى من المملكة.

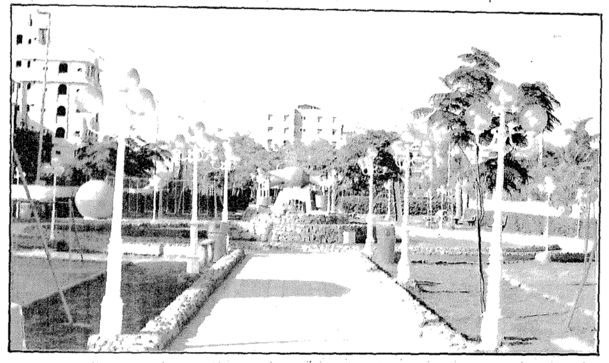
٨ ـ الاهتمام بصيانة الحدائق العامة ووضع ذلك في الحسبان عند إنشاء الحدائق العامة لأن تكاليف الإنشاء تشكل جزءاً بسيطاً من التكاليف إذا ما اعتبرنا تكاليف الصيانة. ويجب أن تكون الحدائق المنبسطة والمتضرسة مهيئة لاستخدام الآلات الميكانيكية في الصيانة مما يقلل من التكاليف. كما يجب أن تخضع عمليات الصيانة لجدول زمني مقنن لإنجاز مختلف عمليات الرش والبذر والتسميد والتقليم والرش والعناية بشبكة المياه وبالممرات والحواجز والإضاءة والعلامات الإرشادية.

٩ ـ العناية بإنشاء مواقف لسيارات رواد الحدائق العامة فما يلاحظ بالنسبة للحدائق الموجودة حالياً في داخل المدينة المنورة هو إما عدم وجود المواقف أو صغرها مما لا يشجع السكان على ارتيادها.

١٠ـ بث الوعي بين المستخدمين وأطفالهم بأهمية الحفاظ على الحق العام وضرر العبث وإفساد أجزاء الحدائق العامة على المستخدمين الآخرين. ويمكن القيام بذلك بدعوة أرباب الأسر إلى حفل

عام في الأحياء التي تفتتح فيها الحدائق العامة.

١١ـ النظر إلى عملية إنشاء الحدائق العامة كجزء مهم ضمن خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة. وبالتالي يمكن أن تطعم الحدائق العامة بخدمات وتسهيلات مكملة لممارسة بعض النشاطات الترويحية والثقافية وخاصة في الحدائق المتوسطة والكبيرة الحجم. ويهدف هذا المركب من ممارسة النشاطات في الحدائق العامة إلى جعل الترفيه ليس تضييعاً للوقت وإنما هو وقت له قيمته في الرقي بسلوك ومفاهيم وخبرات الفرد والجماعة. ومن أمثلة هذه النشاطات إيجاد مكان مكشوف لممارسة بعض الألعاب الشعبية أو إيجاد طريق دائري حول الحديقة لركوب الدراجات العادية التي ندر استخدامها في الوقت الحاضر مع أنها تعتبر وسيلة رياضية مفيدة لجسم الإنسان. ●●●



حديقة في المدينة المنورة

المراجــــع:

١ - أوزيل، روبير، ١٩٧٤م، فن تخطيط المدن، بيروت، ص١٠٩ (ترجمة بهيج شيخ).

٢ - *Perry, N., 1976, «Social Theory and Urban Leisure», in Royal Town Planning Institute, The Urban Crisis: Leisure in the Urban Environments, London, P. 5.*

٣ - *Kraus, R., 1972, Recreation and Leisure in Modern Society, Appleton-Century, N.Y., P. 298.*

٤ - *Makki, M.S., 1982, Medina, Saudi Arabia: A geographical Analysis of the City and Region, Avebury, London, P. 138.*

٥ - فارسي زكي بن محمد علي، ١٤٠٦هـ، خريطة المدينة المنورة، أمانة المدينة المنورة، المدينة المنورة.

٦ - مكي، محمد شوقي بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ، أطلس المدينة المنورة، لجنة الأطلس الوطني، قسم الجغرافيا، جامعة الملك سعود، الرياض، ص٢٨.

٧ -

٨ - فارسي، زكي بن محمد علي، مرجع سابق؛ بيانات غير منشورة لدى الإدارة العامة للحدائق والتشجير بأمانة المدينة المنورة.

٩ - القطب، إسحق بن يعقوب، ١٩٧٤م، «مفهوم الترويح ونظرياته في المجتمعات الحضرية المعاصرة»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، مجلد ٨، ص٢٧٥.

١٠- *Pieper, J., 1952, Leisure, The Basis of Culture, Panthom Books Inc., N.Y., PP. 79-85.*

١١- *Wilensky, H.L., 1964, «Mass Society and Mass Culture: Interdendence or Independence?» Amer. Soc., Vol. 22 (4), pp. 173-197.*

١٢- *Mandelker, D., 1962, Green and Urban Growth, Univ. of Wisconsin Press, Wisconsin.*

١٣ - عبدالحكيم، محمد بن صبحي، ١٩٥٨م، مدينة الإسكندرية، مكتبة مصر، القاهرة.

١٤ - المعهد العربي لإنماء المدن، دون تاريخ، التشجير وتجميل المدن، الرياض.

١٥ - الشريف، عبدالرحمن، ومحمد، السيد البشري، ١٩٨٠م، «الترفيه في المدن السعودية»، المؤتمر السادس لمنظمة المدن العربية - الدوحة - ١ - ٤ مارس ١٩٨٠م، منظمة المدن العربية، الكويت.

١٦ - عبدالله، كامل، ١٩٨٠م، «الخدمات الترويحية في مدينة جدة»، المؤتمر السادس لمنظمة المدن العربية - الدوحة - ١ - ٤ مارس ١٩٨٠م، منظمة المدن العربية، الكويت.

١٧ - أبو عياش، عبدالإله، ١٤٠٣هـ، «التخطيط للخدمات الترفيهية في المدن» في أبو عياش، عبدالله بن يوسف، التخطيط والتنمية في المنظور الجغرافي: دراسة مختارة، وكالة المطبوعات، الكويت، ص٤٢٤.

١٨ - العلوي، مصطفى بن محمد بن عبدالله، ١٤٠٤هـ، إتحاف المؤمنين بتاريخ مسجد خاتم المرسلين، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ص٩٤.

١٩ - *Gray, D., 1974, «This Alien Called Leisure», In Murphy, J., (ed.), Concepts of Leisure, Englewood Cliffs: N.J., P.3.*

٢٠ - مكاوي، محمد بن حسين، ١٩٣٨م، التقدم العمراني لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى، القاهرة، ص١٦.

٢١ - عبدالحكيم، محمد بن صبحي، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

٢٢ - أبو عياش، عبدالإله، مرجع سابق، ص٤٢٤.

٢٣ - أوزيل، روبير، مرجع سابق، ص١١١.

٢٤ - دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤٠٦هـ، دليلك إلى المملكة: المدينة المنورة دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض، ص٣٩.

٢٥ - *Hammond, R., & McCullagh, P., 1978, Quantitative Techniques in Geography: An Introduction, 2nd ed., Clarendon Press, Oxford, P. 271.*

٢٦ - *Makki, M.S., Op. Cit., P. 177.*

٢٧ - *Matthes, L.R., «Evaluating and Implementing Recreation Planning in the Small Community», In Wolensky, R.P., & Miller. E.G., (eds.), Proceeding of the First Conference on the Small City and Regional Community, March 30-31, Vol. 1, Univ. of Wisconsin, Stevens Point*

٢٨ - مكي، محمد شوقي بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ، سكان المدينة المنورة، دار العلوم، الرياض.

إلى... كتّاب الدارة الكرام!!



ترجو مجلة الدارة من كتابها الكرام أن يبعثوا إليها ببحوثهم وموضوعاتهم ومقالاتهم وقصائدهم باسم رئيس التحرير ص.ب/ ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ المملكة العربية السعودية.

■ أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة حتى تخرج سليمة من الأخطاء.

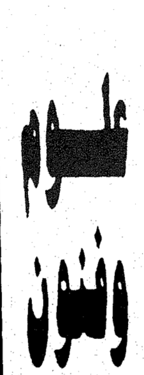
● أن تزود المجلة بالصور والخرائط الأصلية أو الشرائح الملونة، - إذا احتاج البحث ذلك - حتى تخرج البحوث والموضوعات بصورة جيدة ترضي القراء.

ألا تزيد صفحات البحث الواحد عن ثلاثين صفحة لتنوع ونشر أكبر عدد ممكن من البحوث والموضوعات.

■ أن تزوّد المجلة بصورتين شمسيتين وبيانات عن حياة الكاتب العلمية. وذلك لمرّة واحدة إذا كان الكاتب دائم الكتابة بالمجلة.

● ألاّ تبعثوا بنسخة أخرى من البحث إلى مجلة أو جريدة أخرى.

■ أن يكون عنوان وهاتف الكاتب واضحاً ومفصّلاً للاتصال به عند اللزوم.



مصطفى أمين جاهين

بيوت الله

لنا مشهدان من الخارج والداخل لمسجد الخيرية بتصميمه المتميز □



نيابة عن خادم الحرمين الشريفين «حفظه الله»

رعى صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز

حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية

لتسعة من كبار العلماء في أنحاء العالم



• من اليمين أصحاب السمو الملكي الامراء عبد الله الفيصل ونايف بن عبد العزيز، وخالد الفيصل

مساء الثلاثاء ٤ شعبان ١٤٠٨هـ، الموافق ٢٢ مارس ١٩٨٨م، نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز «أيده الله وحفظه»، رعى صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، الحفل السنوي العاشر لتوزيع جائزة الملك فيصل العالمية لتسعة من كبار العلماء في أنحاء العالم وهم:



● أحـد الفائزين يتسلم الجائزة ●

● الاستاذ محمد قطب أثناء تسلمه الجائزة ●

* الأستاذ محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي.
* د. مقداد بالجن محمد علي.

«فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية».

* د. محمود يوسف علي مكي.
* د. محمد بن شريفة.

«فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي».

* د. جانت ديفسن راولي.
* د. ملفن فرانسس قريفز.

«فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للطب».

* د. ريكاردو ميليدي.
* د. بيير شامبون.

«فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للعلوم».



● د. عبد الله العثيمين أمين عام الجائزة يلقي كلمته



صاحب الجلالة الملك محمد الخامس

" طيب الله ثراه "

ينتمي صاحب الجلالة الملك محمد الخامس إلى أسرة شريفة نزحت من مدينة ينبع النخل (بالمنطقة الغربية في المملكة العربية السعودية) إلى المغرب سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م)، واستقرت في مدينة سجلماسة بإقليم الرشيدية (تفيلات سابقا) ولما ملكت هذه الأسرة المغرب سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) عرفت بالأسرة العلوية نسبة إلى علي الشريف أحد جدودها المشهود له بالفضل والبركة.

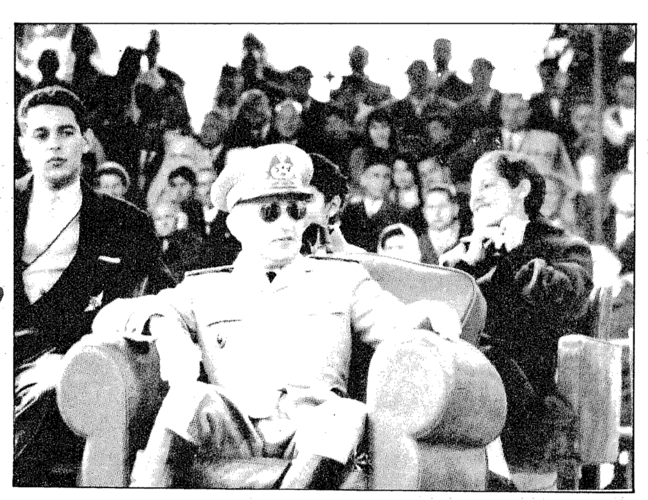
وكانت ولادة جلالته يوم الجمعة ٢٣ رجب عام ١٣٢٧ هـ (١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦ م) بالقصر الملكي بفاس التي كانت عاصمة للمغرب يومئذ، وكان والده الأمير يوسف خليفة للسلطان بها، فلما بويع والده سلطاناً عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) وانتقل إلى الرباط التي صارت منذ ذلك العام عاصمة للمغرب انتقل معه إلى سكناها، فتلقي بها العلوم الدينية واللغوية على يد فقهاء وأساتذة كان أكثرهم يعمل بالقصر الملكي، كما تلقي مبادىء اللغة الفرنسية وعدداً من العلوم العصرية على يد أساتذة تثقفوا ثقافة عصرية، وكان اتصاله بالحضارة العصرية سنة ١٩٢٥ عندما رافق والده في الزيارة الرسمية التي قام بها إلى باريس.

ولما توفي والده السلطان يوسف بفاس يوم الخميس ٢٢ جمادى الأولى عام ١٣٤٥هـ (١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٧م) بويع الأمير محمد بها يوم الجمعة الموالي، وجاءته بيعات المدن والقبائل من الأقاليم الدانية والقاصية في الأيام القليلة التالية، وقد اختاره رجال المخزن وعلماء الأمة وأعيانها لمنصب الملك الرفيع من بين إخوته لما كان يمتاز به على صغر سنه من الذكاء والحيوية ويتسم به من الجدية وحسن الخلق، فانتقل إثر مبايعته من القصر الملكي بفاس إلى القصر الملكي بالرباط، وكان من التصريحات الواعدة التي صدرت عنه في الأسبوع الأول لتملكه قوله:

«إن الشعب المغربي ينتظر منا مجهوداً مستمراً لا من أجل تنمية سعادته المادية وحدها، ولكن

لنكفل له أيضاً الانتفاع من تطور فكري يكون متلائماً مع احترام عقيدته، ويستمد منه الوسائل التي تجعله يرتقي درجة عليا في الحضارة بأكثر ما يمكن من السرعة».

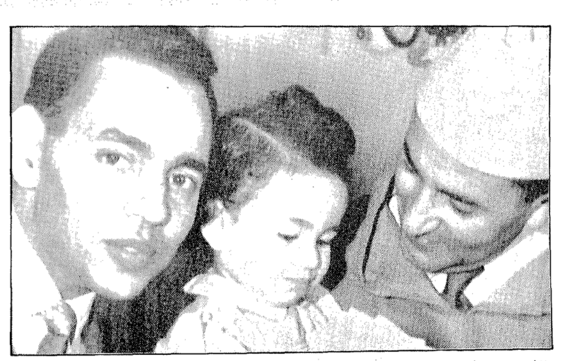
وكانت هذه التصريحات والأقوال مصحوبة بالمنجزات والأعمال، فقد فكَّر جلالته في الحالة المزرية التي كان يعيشها شعبه في ظل نظام الوصاية الأجنبية، فرأى أن لا مخلص منها إلا بنشر التعليم بيزالمغاربة، ذكوراً وإناثاً وحثّهم على تجديد الفلاحة، وتطوير الصناعة، وتنمية الشعور الوطني في نفوسهم، وكذلك شجع تأسيس المدارس الحرة وأهاب بالشبان لمواصلة تعلّمهم بالكليات والمعاهد العليا، وطوَّر التعليم بالكليات الدينية، وحارب شيوخ الطرق الصوفية الذين كانوا يتعاونون مع النظام الاستعماري، وقد رزق الله جلالته في السنين الأولى من ملكه بابن سيشتدُّ به عضده في درب النضال الطويل هو الأمير الحسن الذي ولد يوم الثلاثاء ١ صفر عام ١٣٤٨هـ (٩ يوليو ١٩٢٩م).



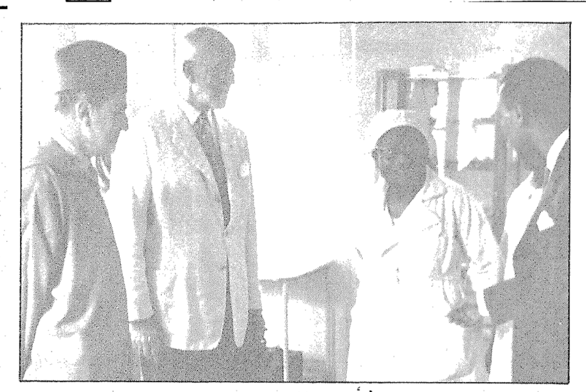
• الملك محمد الخامس يستعرض الجيش في يوم الجيش •

ولما انظّم الأحرارُ الغيورون من الشبان والكهول المغاربة صفوفهم في كتلة العمل الوطني وضعوا أيديهم في يد جلالته وصاروا يعملون جميعاً في انسجام لإخراج المغرب من الحالة البئيسة التي فرضها عليه الاستعمار إلى حالة ينعم فيها أهله بالحرية والديمقراطية وتكون فيها ثرواتُهم وإمكاناتهم الاقتصادية بين أيديهم، وكان تقديم (مطالب الشعب المغربي) إلى جلالته من طرف كتلة العمل الوطني سنة ١٩٣٣م واحتجاجُه على محاولة دمج المغرب في لجنة فرنسا ما وراء البحار سنة ١٩٣٤م من المواقف العلنية الأولى التي وقفها ضد المشاريع الاستعمارية.

وحاول الاستعماريون أن يغروه بملذّات الشباب وشهوات الصبا لمَّابدرت منه هذه البوادر، ولكن كان له من شرف النسب، واستقامة الخُلق، وحمية الشباب وشدة الطموح ما جعله يعرض عن كل الملذات والشهوات المقترحة عليه والمعروضة، وبقي دائماً يعالج الأمور بحكمة ويعمل على حماية مصالح شعبه قدر المستطاع، وعلى مالقي الشعب المغربي منهم من أذى ومكروه، لا سيما الوطنيين الأحرار الذين اقتيد الكثير منهم إلى المنافي والسجون منذ سنة ١٩٣٧م فإنه رحمه الله وقف موقفاً نبيلاً عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية في شهر سبتمبر ١٩٣٩م فأعلن انضمام المغرب إلى دول الحلفاء، وساعد بإرسال الفرق العسكرية المغربية إلى ميادين القتال في أوربا على قهر النازية والفاشيستية، وكان القصد من ذلك أن ينال المغرب حظه من النصر، فيعترف له الحلفاء وفي طليعتهم فرنسا التي ذاقت مرارة الاحتلال، بحقه في استعادة سيادته الكاملة.



• الملك محمد الخامس، والملك الحسن الثاني مع الاميرة للا أمينة •



• الملك محمد الخامس في زيارة لأحد المستشفيات •

وخلال سنوات الحرب لم تسنح لجلالة الملك محمد الخامس فرصة دون أن يغتنمها للتذكير بحقوق وطنه وطموح شعبه إلى التخلص من الوصاية الأجنبية وعودته إلى الحياة الطبيعية التي عاشها طيلة قرون، ذكَّر بذلك خلال اجتماعه بروزفلت وتشرشل مساء يوم الجمعة ٢٢ يناير ١٩٤٣م بالدار البيضاء، وفي أثناء تقديم عريضة الاستقلال إليه يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٤م وخلال اجتماعه في باريس بالجنرال ديجول في شهر يونيو ١٩٤٥م وحينما زار طنجة وألقى بها خطابه التاريخي يوم الخميس ١٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٦هـ (١٠ أبريل سنة ١٩٤٧م).

وإزاء المواقف المتصلِّبة لجلالة الملك محمد الخامس التي أخذت تعظم وتزداد شيئاً فشيئاً، وتحت ضغط المستوطنين الفرنسيين الذين كان لهم تأثير كبير على الحكومة والبرلمان بباريس قرَّرت الحكومة الفرنسية يوم الأربعاء ١٤ مايو ١٩٤٧م تعيين الجنرال الفونس جوان مندوباً سامياً لفرنسا بالمغرب، فاهتزَّت الأوساط الاستعمارية فرحاً لهذا التعيين، لاشتهار هذا الجنرال بأعماله القمعية وللأفكار الغريبة التي كان يجاهر بها حيال بلدان الحماية والمستعمرات، كفكرة السيادة المشتركة، فجاء هذا الجنرال إلى المغرب، ولكنه وجد من صلابة محمد الخامس، واستمساكه بحقوق شعبه، والتفاف شعبه حوله، ما جعل كل المشاريع التي جاء لتطبيقها تفشل، وكانت مقاومة محمد الخامس واعتراضه يتجليان على الخصوص في رفض المصادقة على مشاريع الظهائر التي ترسل إليه للمصادقة عليها، وطبعها، ويرى فيها

مساساً بحقوق شعبه، حتى كادت حركة التشريع والتقنين تتوقف في المغرب، وحينئذ بدأ الجنرال جوان ـ الذي صار مرشالاً فيما بعد ـ يفكر في سلوك طريق آخر لإرغامه على المصادقة على مشاريعه وتشريعاته، وهو طريق التهديد بخلعه ونفيه، وقد سبق له أن سلك هذا الطريق بتونس عندما نفي ملكها الشرعي (المنصف باي) لمَّا استردها الحلفاء من أيدي الألمانيين والإيطاليين بدعوى أن الباي كان يتعاون معهم، وبالفعل شرع الجنرال جوان في تنفيذ خطته بالتعاون مع بعض شيوخ الطرق الصوفية والقوَّاد الإقطاعيين الكبار، فكانت الأزمة الكبرى الأولى يوم ٢٥ فبراير ١٩٥١م ثم توبع مسلسل التهديد بالخلع بعدما نقل الجنرال جوان من المغرب في شهر سبتمبر ١٩٥١م وخلفه تلميذه الجنرال كيوم على رأس المندوبية السامية الفرنسية في الشهر التالي، وهو أيضاً من ضباط الأمور الأهلية الذين شاركوا في عمليات الفتح والقمع في المغرب، فسار هذا الجنرال على نهج سلفه في التضييق على الملك والبطش بأحرار شعبه، وواصل محمد الخامس سياسة المقاومة والمعارضة للمشاريع الاستعمارية، تلك المعارضة التي كانت تحظى بالموافقة والتشجيع من معظم طبقات الأمَّة، إلى أن انتهى الأمر يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٣م بإنزاله بالقوة عن عرشه ونفيه وولي عهده الأمير الحسن وسائر أهل بيته إلى جزيرة كورسيكا ثم إلى جزيرة مدغشقر.

وتنفس الاستعماريون الصعداء ظانين أنه بنفي محمد الخامس يذل شعبه ويخنع ويقبل بالأمر الواقع، ولكن ظنونهم ما لبثت أن منيت بخيبة ومرارة، لأن الشعب المغربي انطلق كالمارد ـ بعد فترة الذهول الأولى ـ إلى مخاطبة الاستعماريين باللغة التي لا تصغي آذانهم لغيرها، لغة الحديد والنار والتخريب والتدمير فشنوها مقاومة مسلحة وحرْباً مخرِّبة على المستعمرين، دفاعاً عن شرف ملكهم وكرامة وطنهم، على الرغم من ضعف وسائلهم وقوة وسائل عدوهم، فكانت ثورة الملك والشعب حقاً وصدقاً، وطالت هذه الثورة طيلة مقام الملك في المنفى الذي استمر ٢٧ شهراً رغم ما بذله الحكم الاستعماري من مجهود لإخماد تلك الثورة، ولكن جميع جهوده باءت بالفشل، فبدأ بالتفكير في إيجاد مخرج من الورطة وحل للأزمة، وشرعت الحكومة الفرنسية في باريس بإرسال الرسل إلى محمد الخامس تعرض عليه في منفاه بعض الحلول التي لا ترضيه ولا تحقق مطامحه ومطامح شعبه، فكان يُصرّ على أن الحل الوحيد هو الاعتراف للمغرب بحريته الكاملة وسيادته التامة، وكان له ما أراد، فانتقل إلى فرنسا في صباح يوم الاثنين ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٥م (١٤ ربيع الأول عام ١٣٧٥هـ) ثم عاد إلى المغرب يوم الأربعاء ١٦ نوفبر (١ ربيع الآخر) وتبوأ عرشه من جديد وعرشاً آخر لم يفرغ بغيابه، هو قلوب جميع المغاربة.

وكان على جلالته أن يبدأ بناء وطنه وشعبه من الصفر، حيث كانت الإدارة والاقتصاد والجيش

والأمن وسائر مرافق الدولة الحيوية بيد موظفين أجانب، لذلك لم يخف عن أمته المصاعب التي ستواجهه وتواجهها خلال السنين التالية، وكثيراً ما كان يردد بعد رجوعه من المنفى قول المصطفى ﷺ عندما رجع إلى المدينة من إحدى غزواته: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر! وعلى ذلك شرع بما أوتي من حكمة وحنكة في وضع أسس المغرب الجديد وإقامة أركانه، فأنشأ حكومة وطنية يوم الأربعاء ٢٢ ربيع الآخر عام ١٣٧٥هـ (٧ ديسمبر ١٩٥٥م) وعين ولاة الأقاليم الذين استلموا السلطة من رؤساء النواحي والمراقبين والضباط الأجانب، واتخذ سلسلة من التدابير التي أعادت الطمأنينة إلى النفوس كتسريح آلاف من المسجونين والمبعدين السياسيين، ثم سافر بصحبة ولي عهده الأمير الحسن وعدد من وزرائه إلى باريس صباح الاثنين ١ رجب ١٣٧٥هـ (١٣ فبراير ١٩٥٦م) لوضع اللمسات الأخيرة على معاهدة مغربية فرنسية جديدة تحل محل معاهدة فاس المضاة سنة ١٩١٢م فوقعت يوم الجمعة ٢ مارس المعاهدة التي اعترفت فيها فرنسا للمغرب بسيادته الكاملة، ثم سافر إلى مدريد حيث صدر تصريح مشترك يوم ٧ أبريل تعترف فيه إسبانيا بمثل ما اعترفت به فرنسا، وتمهّد بذلك الطريق لإلغاء نظام الإدارة الدولية الذي كانت تخضع له مدينة طنجة والمنطقة المحيطة بها.

وإذ ذاك شرع جلالته يمحو ما بقي من مظاهر عهد الوصاية الأجنبية، فأنشأ جيشاً وطنياً يوم ١٤ مايو أسند رئاسة أركانه لصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الحسن، كما أنشأ الأمن الوطني والدرك الملكي ووزارة للخارجية، وشرع ينشىء المرافق الأخرى التي كانت الدولة في حاجة إليها أو يجدّدها وينظّمها على أسس جديدة تضفي عليها الطابع المغربي الكامل، كتنظيم القضاء، وتجديد التشريع وإنشاء مجلس استشاري، وإحداث جامعة عصرية، وتحرير الاقتصاد، واسترجاع منطقة طرفاية، وإثارة مشاكل الحدود والمناطق السليبة ووضع حدًّا لوجود القوات والقواعد الأجنبية في المغرب، وتوطيد الصلات بالعديد من الدول الشقيقة والصديقة وعقد مؤتمر للدول الأفريقية المستقلة، ووضع أول ميثاق إفريقي بالدار البيضاء، وتنظيم ولاية العهد وإسنادها في حفل وطني بهيج إلى صاحب السمو الملكي الأمير الحسن.

ومازال جلالته يواصل المساعي ويصرف الجهود لخير وطنه وشعبه حتى توفاه الله عشية يوم الأحد ١٠ رمضان عام ١٣٨٠ هـ (٢٦ فبراير سنة ١٩٦١ م) إثر عملية جراحية صغيرة أجريت له بمصحة القصر الملكي بالرباط. فحزن الناس لوفاته حزناً كبيراً واتبعوه دعوات طيبة وثناءً عطراً على ما كافح وجاهد وأسدى من الأيادي البيضاء حتى أخرجها من نظام الحجر والحماية إلى الحرية والكرامة، وتسلم ولي عهده الملك الحسن الثاني مقاليد الحكم من بعده فقاد شعبه بالوفاء والإخلاص، إلى المستقبل الزاهر..

معلومات موجزة عن المغرب

المساحة: ٧١٠٨٥٠ كم^2.

في الشمال، سلسلة جبال الريف على طول البحر الأبيض المتوسط.

في الوسط، سلسلتا الأطلس الكبير والأطلس المتوسط (أعلى قمة: ٤١٦٥ متراً).

في الجنوب، سلسلة الأطلس الصغير والصحراء الغربية.

في الغرب، سهل شاسع.

في الشرق والجنوب الشرقي، سهول مرتفعة قاحلة.

الطقس: شبه استوائي، حار في الصيف ومعتدل في الشتاء.

السكان: ٢٠٤١٩٥٠٠ (إحصاء ١٩٨٢م).

أهم المدن (إحصاء ١٩٨٢م): الرباط ـ سلا (٨٠٣,٠٠٠ نسمة)، الدار البيضاء (٢,١٥٠,٠٠٠ نسمة)، فاس (٤٤٩,٠٠٠ نسمة)، مراكش (٤٤٠,٠٠٠ نسمة)، مكناس (٣٢٠,٠٠٠ نسمة)، طنجة (٢٦٦,٠٠٠ نسمة)، أغادير (١١٠,٠٠٠ نسمة).

ـ **نسبة الزيادة السنوية في السكان:** ٢,٦٪ ـ ٥٧٪ يعيشون في البادية والقرى ـ ٤٣٪ يعيشون في المدن ـ ٥٢,٥٪ عمرهم أقل من عشرين سنة.

اللغة الرسمية هي العربية: اللغات الأخرى المستعملة: الفرنسية، الأسبانية والإنجليزية.

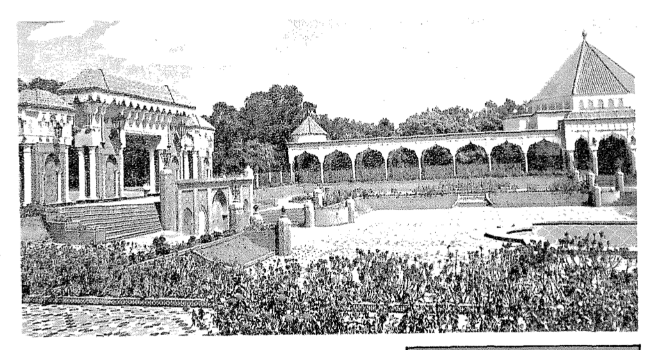
الديانات: الإسلام هو الديانة الرسمية ـ ١٪ من اليهود و ١٪ من المسيحيين.

العملة: الدرهم (دولار أمريكي = ٨,٢٨ دراهم).

(فرنك فرنسي = ١,٤٠ درهم) بتاريخ ٤/١١/١٩٨٧م.

المسافات بين الرباط وأهم المدن (كلم):

الداخلة	١,٨٠٢	الكويرة	٢,٢٢٧
أغادير	٦١٤	مراكش	٣٣٤
الدار البيضاء	٨٦	مكناس	١٣٨
الجديدة	١٩٢	وجدة	٥٤٢
الصويرة	٤٤٤	آسفي	٣٤٩
فاس	١٩٨	السمارة	١,٤٩٨
العيون	١,٢٦٣	طنجة	٢٨١



الطاقم الاجتماعي والاقتصادي:

التعليم: عدد التلاميذ والطلبة الابتدائي: (٢,٢٧٩,٠٠٠) ـ الثانوي: (١,١١٩,٦٨٨) ـ العالي: (١١٩,٩٢٠).

الصحة: ٢,٥٠٠ طبيباً أي طبيب واحد لكل ٨,٦٠٠ من السكان، ٢٤,٩٠٠ سريراً بالمستشفيات.

الطرق: ٥٧,٥٩٢ كلم منها ٢٦,٣٤٥ كلم معبدة.

القطار: محور طنجة ـ مراكش مروراً بالرباط والدار البيضاء،
محور الدار البيضاء ـ وجدة مروراً بالرباط وفاس ومكناس.

النقل الجوي: * **المطارات الدولية**: الدار البيضاء، الرباط ـ سلا، طنجة ـ أغادير ـ مراكش ـ فاس ـ وجدة ـ الحسيمة ـ ورزازات.

** **الشركة الوطنية**: الخطوط الملكية المغربية.

النقل البحري: * **الموانىء الدولية**: الدار البيضاء، المحمدية، طنجة، آسفي وأغادير ـ ميناء الجرف الأصفر، وهو من أكبر الموانىء الإفريقية، مخصص لتصدير الفوسفات.

الإعلام: عشرات الصحف والمجلات بالعربية والفرنسية.

الإذاعة: عدة محطات تذيع بالعربية والبربرية والفرنسية والأسبانية والإنجليزية.

التلفاز: قناة واحدة تذيع برامج عربية وفرنسية وقناة أخرى تحت الدراسة.

المرجع: كتيب مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للعلوم الإنسانية بالدار البيضاء ـ المغرب.


تاريخ
وصور



زيارة المستشار النمساوي

د/ فرانس فرانتسكي للدارة

١١/٨/١٤٠٨هـ = ٢٩/٣/١٩٨٨م

كتب حديثة

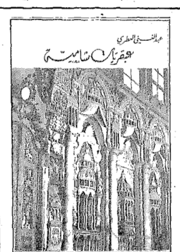


نحو دراسات وأبعاد لغوية جديدة .

د. يحي جبر

٢٤٥ صفحة.

سلسلة أسفار عربية (٦).



عبقريات شامية .

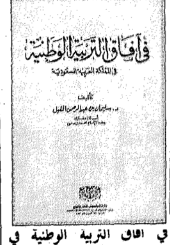
عبد الغني العطري .

٢٠٧ صفحة ـ الطبعة الأولى.

حبات رمل «المجموعة الثانية»

عبد الرحمن إبراهيم الحقيل

٩٥ صفحة.

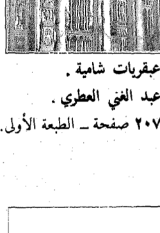


في آفاق التربية الوطنية في المملكة العربية السعودية.

د. سليمان بن عبد الرحمن الحقيل.

٢١٥ صفحة.

الناشر: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع بالرياض.



كنز الأنساب ومجمع الآداب

حمد بن إبراهيم بن عبدالله الحقيل .

٥٩٤ صفحة ـ الطبعة الحادية عشر ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.



الإتجاهات النفسية للشباب السعودي نحو عمل المرأة في المجتمع .

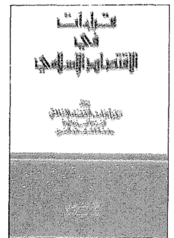
د. محمد بيومي علي حسن

٩٠ صفحة ـ الطبعة الأولى.

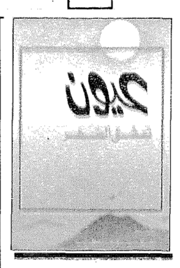
الناشر: مركز النشر العلمي ـ جامعة الملك عبد العزيز بجدة.



مجموع فتاوي ومقالات متنوعة
«الجزء الأول» «وقف لله تعالى»
الشيخ عبد العزيز بن عبدالله
ابن عبد الرحمن بن باز .
٤٥٤ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.



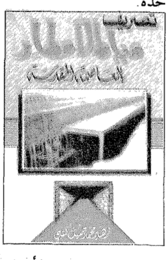
قـراءات في الاقـتـصـاد الإسلامي.
إعداد مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي كـلـيـة الاقتصاد
٤٤٥ صفحة.
الناشر: مركز النشر العلمي ـ جدة.



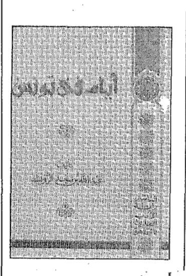
عيون تعشق السهر «شعر»
أحمد سالم باعطب .
٢٢٥ صفحة.



دليل قسم الجغرافيا .
«جامعة أم القرى ـ كلية العلوم الاجتماعية».
١٢٦ صفحة ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.



تصريـف مـيـاه الأمـطـار بالعاصمة المقدسة.
زهير محمد جميل كتبي .
٤٠ صفحة ـ مطبوعات أمانة العاصمة المقدسة.



أيام في تونس .
عبدالله بن سعد الرويشد .
٤٠٥ صفحة.
الناشر: رابطة الأدب الحديث بالقاهرة .

ندوة المخطوطات العربية في الغرب الاسلامي



● من يوم الخميس ١٤٠٨/٨/٢١هـ ـ ١٩٨٨/٤/٧م إلى يوم السبت ١٤٠٨/٨/٢٣هـ ـ ١٩٨٨/٤/٩م، تفضل معالي الأستاذ محمد بن عيسى وزير الشئون الثقافية المغربي، بافتتاح ندوة «وضعية المخطوطات العربية في الغرب العربي الإسلامي، وكيفية التعامل معها» التي نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء ـ المملكة المغربية.

هذا وقد دارت هذه الندوة حول:

١ ـ تقارير عن وضعية مخطوطات الغرب العربي الإسلامي بأهم الخزانات داخل المغرب العربي وخارجه.

٢ ـ عروض حول مشكلات توثيق وفهرسة وتنظيم وتصوير ونشر وصيانة المخطوطات العربية.

٣ ـ محاضرات حول إشكاليات تحقيق ودراسة التراث المخطوط للغرب العربي الإسلامي من النواحي النظرية والمنهجية.

هذا وقد شارك في هذه الندوة نخبة من الباحثين المتخصصين من جميع الدول العربية والغربية.

●●●



مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث

● مساء الأحد ٢١ من شهر شوال ١٤٠٨هـ ـ ٥ يونيو ١٩٨٨م، تفضل صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض، بافتتاح المؤتمر الدولي عن: «أثر الأمراض الفيروسية على الرعاية الصحية في المملكة العربية السعودية ومنطقة الشرق الأوسط»، وذلك بقاعة الأمير/ سلمان ابن عبد العزيز للمؤتمرات بمركز الأبحاث في مستشفى الملك فيصل التخصصي.

وقد بدأ الحفل بآي من الذكر الحكيم، ثم ألقى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، كلمة قال فيها:

* يسرني أن يوافق افتتاح هذا المؤتمر البدء في تشغيل خمسة مشروعات هامة بمستشفى الملك فيصل التخصصي.
* في غضون سنوات قليلة استطاعت المملكة أن تحقق إنجازات هامة في المجالات المختلفة.
* إنني أشكر الإخوة من العلماء الذين حضروا هذا المؤتمر من جميع أنحاء العالم، آملاً لهم إقامة طيبة في بلدنا، وأن يكون مؤتمركم هذا له انعكاسات إيجابية على الحركة العلمية بشكل عام، والأمراض الفيروسية بشكل خاص.



بعد ذلك ألقى الدكتور فهد العبد الجبار المشرف العام على مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث الطبية، ورئيس المجلس المشترك للدراسات الطبية العليا، كلمته.

بعد ذلك ألقى كلمته الأستاذ إدوارد كيرستاك مدير المنظمة الدولية لعلوم الفيروسات، وقد اختتم الحفل بكلمة معالي الدكتور حسين الجزائري المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية.

بعد ذلك قام سمو الأمير سلمان، بافتتاح عدد من المشاريع، حيث قام بقص شريط مشروع المبنى الإداري، ومشروع عيادة الموظفين، ومشروع وحدتي العناية المركزة للأطفال والمواليد الجدد، ومشروع سكن الموظفات، وقسم الأشعة مع الجهاز الجديد للتصوير بالرنين المغناطيسي.

هذا وقد استمر المؤتمر حتى يوم الخميس ٢٥ من شهر شوال ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨/٦/٩م، ألقى خلاله (٨٥) خمسة وثمانون بحثاً طبياً جديداً لكبار الباحثين من الأطباء العالميين.

وفي ختام المؤتمر، صدرت عدة قرارات وتوصيات طبية هامة.

■■■

الندوة القومية لكتابة التاريخ في بغداد

عقدت في بغداد الندوة القومية لكتابة التاريخ تحت شعار «نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته وذلك في الفترة من ٧ ـ ٩/٥/١٤٠٨هـ.

وقد تدارست الندوة على مدى ثلاثة أيام وعبر ست جلسات جوانب كتابة التاريخ العربي في إطار المحاور الرئيسية التالية:

١ ـ الأسباب الداعية لإعادة كتابة التاريخ العربي.

٢ ـ مناهج كتابة التراث العربي.

٣ ـ تيارات كتابة التاريخ الداهمة واتجاهاتها.

٤ ـ الرؤية القومية الحضارية للتاريخ العربي وقد شاركت الدارة في فعاليات هذه الندوة ومثلها الأستاذ عبدالله محمد البابطين مدير عام الشئون الفنية بالدارة وقدم بحثاً بعنوان .. دراسة في منهج كتابة التاريخ العربي..

وفي الجلسة الختامية للندوة أقر المنتدون التوصيات التالية:

أولاً: الانطلاق عند دراسة تاريخ الأمة العربية من معطيات الحاضر من أجل فهم ودراسة التطورات التي حصلت في الماضي..

ثانياً: تبنّي المنهج القومي الحضاري في دراسة تاريخ الأمة العربية ودراسة الحياة الاجتماعية، وظهور الدول وسقوطها في إطار المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الشاملة للحياة العربية.

ثالثاً: العمل على اعتماد التقسيم الزمني الحضاري للتاريخ العربي بما يضمن تكامل حقبه وتواصله الحضاري ويؤمّن التطور الصاعد في التاريخ ويغطّي أفقياً «الوطن العربي» واعتماد توحيد مصطلحاته.

رابعاً: الإفادة من فكرة الوحدة والتنوع في دراسة حضارات الوطن العربي القديمة ومدى تفاعلها مع الحضارة العربية الإسلامية من أجل كشف التواصل والعطاء الحضاري لأبناء الأمة العربية.

خامساً: الاهتمام بتطور الفكر التاريخي العربي بما يمكّن من الوعي بتاريخ التأريخ وإدخاله مادة

دراسية في أقسام التاريخ في الجامعات العربية.

سادساً: إعطاء أهمية خاصة للتحديات التي تواجهها الأمة العربية وفي مقدمتها التحدي الصهيوني والتحدي الشعوبي الفارسي والتوجه لدراستهما وكشف طبيعتهما العدوانية وجذورهما وأسبابهما وممارساتهما التخريبية المختلفة. ومخاطرهما على الإسلام والأمة العربية وعلاقتهما بالشعوب الإسلامية واعتبار ذلك واجباً «قومياً» على المؤرخين العرب.

سابعاً: إدانة محاولات الكيان الصهيوني لطمس الشخصية العربية الفلسطينية وسرقة تراثها القومي وتزوير تاريخها واعتبار ذلك واجباً «قومياً» ينهض به المؤرخون العرب، ويحيي المجتمعون انتفاضة سكان الأرض المحتلة وما تمثله ثورة الحجارة من تحدٍ للصهيونية وهمجيتها.

ثامناً: دعم الهيئة العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية في اتحاد المؤرخين العرب وتمكينها من تنسيق النشاطات التاريخية التي تمارسها الهيئات الوطنية لكتابة التاريخ العربي والجمعيات التاريخية وأقسام التاريخ في الجامعات العربية.

تاسعاً: تشجيع النشر التاريخي العربي المشترك وتوسيع العلاقات بين الجمعيات التاريخية العربية وإتاحة فرص الالتقاء والحوار بين المؤرخين العرب.

عاشراً: إعادة النظر في مناهج التاريخ بالتعليم العام بما يضمن تعميق الوعي القومي والحضاري والإنساني والعلمي بالتاريخ العربي، وبعث الثقة والاعتزاز بالأمة العربية وتاريخها.

حادي عشر: نشر المعرفة التاريخية وتعميق الوعي الجماهيري بالتاريخ العربي واعتماد ذلك في نشاط المؤسسات الإعلامية في الوطن العربي بما يضمن وحدة واستمرار الشخصية القومية للأمة العربية.

ثاني عشر: زيادة اهتمام الدولة العربية بجميع الوثائق والمخطوطات وتيسير اطلاع الباحثين عليها، وضرورة السعي لتأمين الوصول إلى الوثائق في اتفاقياتها الثقافية مع الدول المختلفة وبخاصة تلك التي كانت لها علاقة بالوطن العربي في أي من حقبه التاريخية..

■■■

● في يومي السبت والأحد ٢٧، ٢٨ من شهر رجب ١٤٠٨هـ، شارك الأستاذ حمد بن عبد الرحمن العمرو مدير المخطوطات والوثائق بالدارة، في الاجتماع الذي عقد بالبحرين، لمناقشة فهرسة الوثائق العثمانية، بناء على الدعوة الموجهة من المراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية.

توصيات اللجنة المكلفة بمتابعة مشروع فهرسة وجمع الوثائق العثمانية:

اجتمعت لجنة مشروع فهرسة وجمع الوثائق العثمانية اجتماعها الأول في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ١٤٠٨هـ الموافق ١٥ مارس ١٩٨٨م في قاعة البديع بفندق شيراتون البحرين واجتماعها الثاني في الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء ٢٨ رجب ١٤٠٨هـ الموافق ١٦ مارس ١٩٨٨م في القاعة نفسها بالأعضاء الذين تم إنتخابهم في الدورة التاسعة المنعقدة في أبو ظبي بتاريخ ١٨ ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٨٦م والتي تقرر تشكيلها برئاسة الأمين العام سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة وعضوية كل من:

١ ـ مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي.

٢ ـ مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر.

٣ ـ مركز الوثائق في الديوان الأميري بدولة الكويت.

٤ ـ دارة الملك عبد العزيز بالرياض.

٥ ـ مركز الدراسات والبحوث اليمنى بصنعاء.

ولما كان سعادة الأمين العام خارج البحرين في هذه الفترة فقد أناب عنه مدير مركز الوثائق



التاريخية في البحرين ونائب الأمين العام في حضور الجلسات وحضر الاجتماع كل من الدكتور بدر اليعقوب الأمين العام المساعد ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بالكويت والدكتور محمد مرسي عبدالله مدير مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي والدكتور عثمان سيد أحمد إسماعيل مدير مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر والأستاذ بهاء الإبراهيم مدير مركز الوثائق في الديوان الأميري بالكويت والأستاذ حمد عبد الرحمن العمرو مدير المركز الوطني للوثائق والمخطوطات بدارة الملك عبد العزيز في الرياض.

وافتتح الدكتور علي أبا حسين الجلسة باسم الله وانتقل بعد ذلك الحاضرون إلى مناقشة الموضوعات المدرجة على جدول الأعمال وهي:

١ ـ تمويل صندوق الأمانة العامة.

٢ ـ كيفية صرف هذه الأموال.

٣ ـ ما يستجد من أعمال.

وبعد المناقشة توصل المجتمعون إلى التوصيات الآتية:

١ ـ أن يقوم سعادة الأمين العام بالحصول على موافقة الجهات المسئولة في الجمهورية التركية على التصريح للأمانة العامة بفهرسة وتصوير الوثائق العثمانية المتعلقة بدول الخليج العربي والجزيرة العربية كما يطلب من الجهات الرسمية التركية الاستثناء من الإجراءات المتبعة في الأرشيفات التركية من حيث عدد الوثائق المصورة والإجراءات الروتينية الأخرى التي تعيق إعداد المشروع، كما يطلب من الحكومة التركية تسمية شخص من قبلها يكون حلقة اتصال بينها وبين الأمانة العامة لتحقيق هذا المشروع.

٢ ـ تلتزم كل دولة من الدول الأعضاء بالأمانة العامة بدفع مبلغ قدره عشرة آلاف ١٠,٠٠٠ دولار سنوياً كحد أدنى اعتباراً من الأول من يناير ١٩٨٨م وأن يفتح باب التبرع لمن يريد أن يضيف إلى هذا الصندوق وفي حالة تعدد المراكز في الدولة الواحدة يحق لها تقسيم هذا المبلغ فيما بينها.

٣ ـ لما كان مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي قد قام بفهرسة جانب من الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية مع موجز لكل وثيقة ورقمها ومكانها ومجموعة المجلد ورقم الصفحة والبالغ عددها حوالي اثني عشرةألف ١٢,٠٠٠ وثيقة في نحو أربعة آلاف ٤٠٠٠ صفحة وقام بهذا العمل الأستاذ عثمان صويغت تحت إشراف من المركز المذكور مقابل أجر شهري قدره ثمانمائة وخمسون =/ ٨٥٠ دولاراً. وقد رصد المركز مبلغ وقدره اثني عشر ألف ١٢,٠٠٠ دولار سنوياً في سفارة دولة الإمارات العربية المتحدة في أنقرة. لذا اعتبر هذا المبلغ هو حصة مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي لعام ١٩٨٨.

٤ ـ يكلف الدكتور محمد مرسي عبدالله مدير مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي بالإتصال بالأستاذ عثمان زكي صويغت لشرح التطور الجديد في المشروع ويبلغه بإرسال الفهرسة الجديدة مباشرة إلى الأمانة العامة في البحرين التي تقوم بدورها بتوزيعها على المراكز، على أن تظل المعاملة المالية مع الأستاذ عثمان زكي صويغت مرتبطة بمركز الوثائق والدراسات بدولة الإمارات أو السفارة في أنقرة بخصوص مستحقاته المالية لعام ١٩٨٨م وذلك في حدود المبلغ المرصود لهذه المهمة في السفارة على أن تتحمل الأمانة العامة منذ بداية عام ١٩٨٩م هذه المسئولية تجاه الأستاذ صويغت أو أي شخص يقوم مقامه ويقوم مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي بسداد حصته السنوية مباشرة إلى الأمانة العامة.

٥ ـ يحق للأمين العام اختيار أشخاص آخرين للقيام بهذا المشروع وفقاً لمقتضيات الحاجة.

٦ ـ تكتب رسائل لمراكز الدراسات والوثائق التابعة للأمانة العامة وبها رقم الحساب لصندوق الأمانة العامة حتى يسهل تحويل المبالغ المخصصة سنوياً من المراكز لدعم هذا المشروع. ويتابع الأمين العام عملية دفع حصص الدول الأعضاء وتنفيذ التزاماتها. أما رقم حساب الأمانة العامة فهو (٦٧٠٠٧٩) على بنك البحرين والكويت ـ درع الرفاع الغربي.

٧ ـ ارتأت اللجنة أن يترك لسعادة الأمين العام الوسيلة المناسبة لتقديم فهرس الوثائق للمسئولين في الدول الأعضاء وذلك على سبيل الإهداء وبيان نشاط الأمانة العامة في هذا المجال بصفة شخصية أو تكليف من ينوب عنه بالقيام بهذه المهمة.

٨ ـ تقوم الأمانة العامة بتصوير نسخ من فهرس الوثائق الموجود في مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي وتوزيعه على المراكز التابعة للأمانة العامة والجهات التي يحددها الأمين العام على أن تكون تكلفة التصوير والتجليد من ميزانية الأمانة العامة. كما تفوض اللجنة سعادة الأمين العام بالصرف من ميزانية الأمانة العامة على كل ما يتعلق بتحقيق هذا المشروع من فهرسة وتصوير ونحو ذلك. وتتولى الأمانة العامة الإشراف والمتابعة لتنفيذ المشروع بصفة دورية أو بالوسائل التي تراها مناسبة لتحقيق هذا الغرض.

٩ ـ توجيه الشكر لسعادة الأمين العام على اهتمامه ورعايته لهذا المشروع، كما تتمنى اللجنة أن ترى الأمانة العامة في مزيد من الازدهار بتوجيهاته وحكمته المعهودة في هذا المجال.

١٠ ـ لما كان مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي سباقاً في جمع وفهرسة الوثائق وقد أبدى المركز استعداده لتقديم ما قام به من فهرسة الوثائق عن الخليج العربي والجزيرة العربية، لذا يتوجه المجتمعون بالشكر والتقدير للقائمين على هذا المركز وعلى رأسهم معالي الشيخ أحمد خليفة السويدي لتكرمه بالموافقة على إرسال نسخ من فهرسة الوثائق العثمانية التي تمت في أبو ظبي إلى مراكز الوثائق والدراسات في الخليج العربي والجزيرة العربية عن طريق الأمانة العامة مع تمنياتهم بمزيد من التقدم لهذه الجهود التي ستدعم جهود الأمانة العامة.



دراسة جودة المياه تحت السطحية بمنطقة خيبر جنوب المملكة العربية السعودية

إعداد د. أحمد عبد القادر المهندس

تقع منطقة خيبر في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية وترتفع عن سطح البحر بحوالي (١٧٠٠) متراً. وتتميز المنطقة بقلة سقوط الأمطار نسبياً، كما تتميز بطبوغرافية الجبال المنفردة في سهل واسع. ويشكل وادي السليل وما يتفرع منه من وديان أهم المظاهر الهيدروجرافية في المنطقة. ويبدو من الدراسة أن معظم الخزانات للآبار الرئيسية في المنطقة توجد في الصخور المتحولة، حيث توجد المياه تحت السطحية في الشقوق والفتحات لهذه الصخور، ما عدا بئر واحدة توجد فيها المياه تحت السطحية في رسوبيات الوادي وفي شقوق الصخور النارية.

وتوضح الدراسة تأثير جيولوجية المنطقة على انسياب المياه والتركيب المعدني على المكونات الكيميائية لهذه المياه. ومن خلال التحاليل الكيميائية للمياه تحت السطحية يظهر أن مياه بئري الظر والطلاح بمنطقة خيبر هي أفضل المياه التي يمكن استخدامها لأغراض الشرب والإستهلاك الآدمي. أما بقية المياه في الآبار الأخرى، فتحتاج لمعالجة كيميائية خاصة، ويمكن مع ذلك استخدامها لأغراض الزراعة، ويحتوي أحد الآبار على كمية أكبر من الكبريتات مقارنة بالآبار الأخرى، ويعزى هذا إلى أن الصخور المتحولة التي تكون الخزان تحتوي على معدن البايرايت بكمية صغيرة والذي يتأكسد ليعطي الكبريتات.

مقدمة :



تقع منطقة خيبر في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية وتقع قرية خيبر في مركز متوسط بين القرى، كما تقع فيها الإمارة والتي تتبع من الناحية الإدارية لإمارة عسير (خريطة رقم ١). وتتميز منطقة خيبر بارتفاع درجات الحرارة ومعدلات التبخر وبإنخفاض الرطوبة النسبية وقلة سقوط الأمطار. وتتكون المنطقة أساساً من الصخور النارية والمتحولة. وتتميز منطقة خيبر بأنها سهل تحاتي واسع، وترتفع المنطقة حوالي (١٧٠٠ متراً) فوق سطح البحر مع وجود تضاريس سطح منخفض وأنظمة صرف جيدة النمو، كما تتميز المنطقة بطبوغرافية الجبال المنفردة في سهل واسع، وتوجد الكتل الجرانيتية في هذا السهل غرب وجنوب قرية خيبر التي تقع عند خط طول ٣٠ ٥٢ ٤٢ وخط عرض ٣١ ٤٧ ١٨ بحوالي ٦٠ كيلومتراً شمال شرق مدينة خميس مشيط. ويبلغ سكان قرية خيبر والقرى المجاورة حوالي ٥٠٠٠ نسمة يعملون أساساً في الزراعة، وهناك بعض البدو الذين يعيشون حول القرى لرعي الماشية. ويوجد في منطقة خيبر نوعان من الموارد المائية هما:

أ) مياه السيول خلال مواسم الأمطار.

ب) المياه تحت السطحية من الآبار الضحلة القليلة والمحفورة يدوياً.

إن الغرض من هذه الدراسة هو إلقاء بعض الضوء على صلاحية المياه تحت السطحية في منطقة خيبر للشرب وزراعة المحاصيل مع التركيز على النواحي الجيولوجية والتركيب المعدني للصخور الحاملة لهذه المياه.

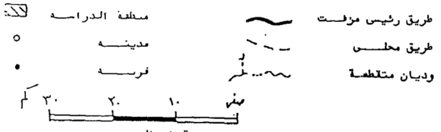
● طريقة الدراسة ●

تقوم الدراسة على عمل حقلي في المنطقة أجراه الباحث خلال عام ١٩٨٠م لفحص الآبار المختلفة في المنطقة من حيث أعماقها ونوعية صخورها ووضعها على الخريطة الجيولوجية، كما أمكن بالإعتماد على خريطة رقم GM-4 (Coleman, 1973) بالإضافة إلى الصور الجوية تحديد حدود التماس الصخرية ومواقع العينات. وقد جمعت عينات المياه (حوالي ٣ لتر لكل عينة في زجاجات نظيفة من البولي إثيلين Poly-ethylene ومغطاة جيداً بغطاء مطاطي، وأخذت العينات بعد ثلاثة أيام من جمعها للتحليل في المعمل الكيميائي بكلية الصيدلة، جامعة الملك سعود. وقد عملت التحاليل طبقاً للطريقة المتبعة في هذا المعمل. Vogel (1972), APHA-AWWA- WPCF (1976)

كما أن الصخور المختلفة والتي تشكل الخزانات للمياه تحت السطحية بالمنطقة أمكن التعرف عليها وذلك بعمل قطاعات رقيقة حيث تم

شكل رقم (١) خريطة جغرافية توضح موقع منطقة خيبر في المملكة العربية السعودية، وكذلك موقعها بالنسبة للمدن الرئيسية والقرى في جنوب غرب المملكة العربية السعودية.

دليل الخريطة



فحص العينات تحت المجهر لمعرفة معادنها المختلفة.

• جيولوجية المنطقـة •

معظم الصخور في منطقة خيبر تتبع صخور ما قبل الكامبري، وتمثل الأجزاء العميقة من الدرع العربي. ويمكن تقسيم الصخور إلى وحدتين أساسيتين هما:

١) المعقد القاعي لجبال عسير.

٢) الصخور المتحولة التي يمكن أن تكافىء في العمر مجموعات حلي وبيش والباحة (Schmidt et al, 1973)

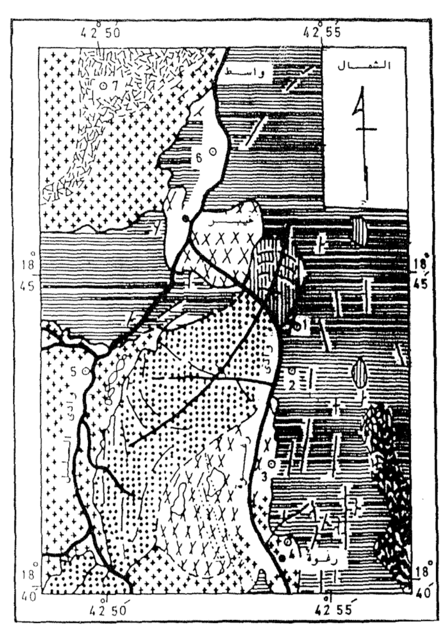
ويتكون المعقد القاعي من أورثونيس، بارانيس، مجماتايت، أمفيبولايت ورخام؛ وتسمى هذه الصخور نيس خميس مشيط. ويبدو أن النشاط التكتوني خلال تكون جبال عسير بالإضافة إلى الأحداث التكتونية التالية تجعل من الصعوبة في بعض الأماكن التفريق بين الصخور البلوتونية التابعة لجبال عسير من صخور نيس خميس مشيط. ويوجد فوق نيس خميس مشيط سلسلة سميكة من الصخور المتحولة والصخور البركانية والرسوبية على سطح عدم توافق. لا يوجد كونجلوميرات قاعدي أو أي سطح عدم توافق يمكن رؤيته في التماس بين نيس خميس مشيط والصخور المتحولة الحديثة. وتوجد أجسام من الجرانيت وقباب من النيس التي غزت الصخور المتحولة الحديثة في نفس الوقت بينما توجد صخور الجابرو داخل **Syn forms** للصخور المتحولة الحديثة **(Coleman, 1975)** أما صخور الكوارتز مونزونايت التابعة لبني ثور فهي تقطع جميع التراكيب الجيولوجية والصخور الموجودة في المنطقة ولذلك تعد أحدث صخور في المنطقة. توجد بعض القواطع الرأسية **dykes** الأنديزيتية والرايولايتية التي يمكن أن تكون ذات علاقة بـ **East-West normal Faulting** والتي يمكن أن تكون قد نتجت عن تكون البحر الأحمر.

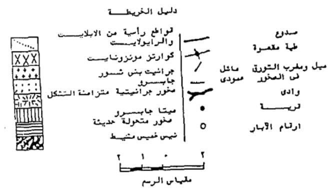
ويوجد دليل واضح على التصدع **Faulting** في منطقة خيبر، ويبرز هذا الدليل في جبل شاع الذي يحتل مكاناً بارزاً في هذه المنطقة (أنظر خريطة رقم «٢»). يوجد هنا صدع رئيسي ذو إتجاه شرق ـ غرب بالإضافة إلى صدوع صغيرة أخرى داخل الجبل. وربما يمتد الصدع الرئيسي تحت وادي السليل. توجد بعض الرواسب الحديثة والتي تتكوّن أساساً من الرمل والكربونات والغرين في داخل وادي السليل وبقية الوديان المتفرعة منه.

هيدروجيولوجية المنطقة

إن أهم المظاهر الهيدوجرافية في منطقة خيبر هي وادي السليل وما يتفرع منه مثل وادي رغوة. ويأتي وادي السليل من أعالي جبال

شكل رقم (٢) خريطة جيولوجية لمنطقة خيبر، جنوب غرب المملكة العربيـة السعودية. (معدلة من خريطة GM - 4، ١٩٧٣).





عسير في الجنوب ويسير متجهاً نحو الشمال لمسافة تقرب من ٣٠٠كم حتى يلتقي بوادي تثليث ووادي الدواسر والذي ينتهي في الربع الخالي. وينحدر وادي السليل حوالي ثلاثة أمتار في الكيلومتر الواحد. ويتميز هذا الوادي بأنه عبارة عن سهل عريض في منطقة خيبر، وفي شرق الوادي توجد منطقة جبلية عالية تميل لناحية وادي السليل (أنظر صورة رقم «١»)، أما إلى غرب الوادي فتوجد منطقة الجبال الجزيرية وهي أجسام جرانيتية في سهل منبسط. ويتميز هذا السهل بأنه ذو تضاريس منخفضة مع نظام تصريف مائي جيد، ونظام التصريف على شكل مواز للجبال التي تحدّ المنطقة. وعلى بعد حوالي عشرة كيلومترات من قرية خيبر إلى الجنوب تضيق أرض الوادي وتبدأ السلسلتان الجبليتان الشرقية والغربية في الإقتراب حتى يبلغ البعد بينهما أقل من (٥٠٠) متراً، وعندئذ تصل إلى مجرى وادي السليل الذي يصب في خيبر.

يوجد عدد من الآبار المحفورة باليد في منطقة خيبر. ويبدو من خلال الدراسة الحقلية أن المياه تحت السطحية في منطقة خيبر توجد في الرواسب والصخور المتحولة والنارية. أما النطاقات ذات النفاذية قرب الصدوع والمغطاة بالتربة السميكة فيمكن أن تكون خزّاناً مائياً مناسباً. كما تتميز الصخور المتحولة والنارية في المنطقة بمسامية ونفاذية عالية نتيجة لوجود التشققات والتحلل في هذه الصخور. ويتراوح بعد الماء تحت السطحي في الآبار ما بين متر واحد إلى أكثر من ١٧ متراً تحت سطح الأرض. ويوضح جدول رقم (١) بعض المعلومات عن سبعة آبار رئيسية تمت دراستها في منطقة خيبر (أنظر الخريطة رقم (٢)).

جدول رقم (١)

جدول يوضح أسماء الآبار وأرقامها وأعماقها ونوعية خزاناتها ومواقعها في منطقة خيبر ـ جنوب غرب المملكة العربية السعودية

رقم البئر	الموقع	العمق إلى مستوى الماء (متر)	نوعية الخزان	اسم البئر
١	خيبر	١٧,٤	رواسب + صخور متحولة	عرق الدواسر
٢	خيبر	١٤,٢	رواسب	الكظر
٣	وادي رغوة	١٥,٩	صخور متحولة	البردان
٤	وادي رغوة	١٥,٩	صخور متحولة	رغوة
٥	وادي السليل	١٣,٤	صخور متحولة	بريم
٦	واسط	٩,٩	صخور متحولة	طلاح
٧	المعزب	١,٢	رواسب + صخور نارية	الظر

إن دراسة المنطقة تبين أن الميل العام لمستوى الماء Water Table يتجه إلى الشرق، وهذا يدل أيضاً على أن الماء تحت السطحي يتجه من الغرب إلى الشرق. وتمثل الصور الفوتوغرافية رقم (١) مناظر مختلفة لثلاثة آبار في منطقة خيبر الجنوب، وجميعها محفورة باليد. ويمثل الجدول رقم (٢) الخواص الطبيعية لمياه خيبر تحت السطحية. وتوجد في المنطقة بعض العقوم أو السدود الترابية التي يبنيها المزارعون هناك خلال الوديان حتى يتمكنوا من الاستفادة من مياه الأمطار. وتسقط الأمطار عادة في شهور مارس وأبريل ومايو، أما الشهور التي لا تسقط فيها الأمطار عادة فهي سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر (Ministry of Agriculture and Water, 1975). وتبين الخريطة رقم (٣) معدل سقوط الأمطار السنوية على منطقة خيبر مقارنة ببقية المناطق في المملكة العربية السعودية (شلش، ١٩٧٣).

النتائـــج

عند فحص الجدول رقم (١) يبدو أن أكبر عمق لمستوى الماء تحت السطحي يقع عند بئر عرق الدواسر (١٧,٤ متراً) وأقل عمق لمستوى الماء تحت السطحي يقع عند بئر الظر (١,٢ متراً). ويظهر من خلال هذا الجدول أن معظم الخزانات Aquifers في منطقة خيبر هي الصخور المتحولة حيث يوجد الماء في الشقوق والفتحات لهذه الصخور، وهناك بئر واحدة تتميز بأن الماء يوجد كلياً في رسوبيات الوادي وهي بئر الكظر. ويوجد الماء فيها على عمق (١٤,٢ متراً). أما بئر الظر فهي البئر الوحيدة التي يكون فيها الماء على عمق صغير، وتتميز بأن الماء فيها يوجد في رسوبيات الوادي وفي شقوق الصخور النارية. ويظهر من جدول رقم (٢) أن مياه خيبر شفافة وبدون رائحة ولكن طعمها ملحي ما عدا بئري الطلاح والظر، ويختلف الطعم حسب كمية الأملاح الصلبة الكلية. وتتراوح قيم الرقم الهيدروجيني ما بين ٦,٥ و٨,١. وهذا يدل على قلوية هذه المياه إلى حد ما.

● جدول رقم (٢) الخواص الطبيعية لمياه خيبر تحت السطحية ●

الخواص الطبيعية	اسم البئـــر						
	عرق الدواسر	الكظر	البردان	رغوة	بريم	الطلاح	الظر
اللون	لا لون	لا لون	لا لون	لا لون	لا لون	لا لون	لا لون
الرائحة	لا رائحة	لا رائحة	لا رائحة	لا رائحة	لا رائحة	لا رائحة	لا رائحة
الطعم	ملحي	ملحي	ملحي	ملحي	ملحي	عذب	عذب
الرقم الهيدروجيني	٧,٩	٧,٨	٧,٧	٧,٧	٧,٨	٨,١	٧,٥

وعند دراسة قطاعات الصخور المتحولة تحت المجهر تبين أنها عبارة عن أمفيبولايت amphibolite تحتوي على المعادن التالية: بلاجيوكليز (أنورثايت ٢٠)، هورنبلند أخضر، أبيدوت، بيروكسين وسفين وبعض المعادن القائمة التي يحتمل أن تكون معدن بايرايت. وصخور الأمفيبولايت هي الصخور الخازنة لمعظم مياه خيبر. أما الصخور التي تقع وتغطي منطقة المعزب (بئر الظر) فهي صخور نارية متوسطة الحبيبات وقد أظهرت الدراسة المجهرية أن هذه الصخور ذات تركيب معدني يقع في حقل الجرانيت إلى كوارتز مونزونايت. أما فحص التربة في الحقل فيدل على أنها عبارة عن تربة رملية متوسطة إلى خشنة الحبيبات.

جدول رقم (٣)

التحليل الكيميائي لمياه خيبر تحت السطحية جنوب ـ غرب المملكة العربية السعودية

رقم العينة	اسم البئر	الرقم الهيدروجيني	التوصيل الكهربائي	الكلور	الكبريتات	الكربونات	الكالسيوم	المغنسيوم	الصوديوم	البوتاسيوم
١		٧,٩	٣٤٧٩	٤١٨	٣٥٣,٥	١٨٣,٠	١٤٥	٩١	١٥٤	٢,١
٢	الكفظر	٧,٨	١٥٥٠	٣٩٧	٣١٠,١	١٧٩,٠	١٤٩	٩٣	١٤٢	٢,٠
٣	البردان	٧,٧	٢٠٠٠	٣٠٠	١٤٣,٠	٣٢١,٠	٤٨٨	١٨٩	١٦٨	٤,٠
٤	رغوة	٧,٧	٢٠٩٠	٢٩١	٢٥١,٠	٣٤٢,٠	٥١١	١٧٨	١٧١	٣,٩
٥	بريم	٧,٨	١٥٠٧	٣٢٠	١٥٦,٠	٣٥٣,٨	٥٢٢	١٩٢	١٥٤	٤,٤
٦	طلاح	٨,١	١٢٥٠	١٣١	١٣٥,٠	١.٨	٤٥	١٩,٩	٣٤	٣,١
٧	الظر	٧,٥	١١٠٠	١٢٢	١٢٤,٠	١.٢	٤٢	١٧.٢	٣١	٢.٩

ويوضح الجدول رقم (٣) التحاليل الكيميائية لمياه خيبر ويظهر هنا أن التوصيل الكهربائي للمياه المحللة يتراوح ما بين ١١٠٠ و٣٤٧٩ ميكروموهز ، وهذه القيم عندما تضرب في معامل ٠,٧٥ تعطي كمية الأملاح الذائبة الكلية تقريباً ( ) بالرغم من وجود بعض الاستثناءات لهذه القاعدة. وتتراوح كمية الأملاح الذائبة الكلية ما بين ٧٦٠ و ٢٤٣٥ جزء في المليون. وتتراوح نسبة الكلور ما بين ١٢٢ جزء في المليون في بئر الظر و٤١٨ جزء في المليون في بئر عرق الدواسر، أما نسبة الكبريتات فتتراوح ما بين ١٢٤ جزء في المليون في بئر الظر لترتفع إلى ٣٥٣ جزء في المليون في بئر عرق الدواسر وتتراوح نسبة البيكربونات ما بين جزء في المليون في بئر الظر لترتفع إلى حوالي ٣٥٤ جزء في المليون في بئر

بريم. أما نسبة الكالسيوم فتتراوح ما بين ٤٢ جزء في المليون في بئر الظر لتصل إلى ٥٢٢ جزء في المليون في بئر بريم، أما نسبة المغنسيوم فتتراوح ما بين حوالي ١٧ جزء في المليون في بئر الظر لتصل إلى ١٩٢ جزء في المليون في بئر بريم. وتتراوح نسبة الصوديوم ما بين ٣١ جزء في المليون في بئر الظر وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ١٧٤ جزء في المليون في بئر بريم. وتبلغ نسبة البوتاسيوم ٤,٤ جزء في المليون في بئر بريم وتنخفض هذه النسبة إلى ٢ جزء في المليون في بئر الكظر.

شكل رقم (٣) خريطة الأمطار (معدل سقوط الأمطار السنوية) بالمملكة العربية السعودية.

معدل سقوط الأمطار في المملكة العربية السعودية

للفترة ١٩٦٦ - ١٩٧٤ م

ملاحظة: جميع التحاليل بوحدة (PPM) جزء في المليون ما عدا الرقم الهيدروجيني والتوصيل الكهربائي أجريت جميع التحاليل في المعمل الكيميائي بكلية الصيدلة ـ جامعة الملك سعود.

• المناقشة •

يظهر من الخريطة الجيولوجية رقم (٢) أن لجيولوجية المنطقة والتركيب الجيولوجي دوراً واضحاً على انسياب المياه تحت السطحية بالإضافة إلى تأثير التركيب الجيولوجي على المكونات الكيميائية لهذه المياه، فبئر عرق الدواسر موجود على صدع واضح ذو إتجاه شمال شرق ـ جنوب غرب وهو من أغزر الآبار في المنطقة، ولكن مياهه غير جيدة لأغراض الشرب أو الزراعة وهذا يعود ربما إلى زيادة نسبة الأملاح المذابة نتيجة لكثرة الشقوق مع تحلل الصخور إلى مكوناتها العنصرية. ويبدو أن معظم الآبار تتأثر بالصدوع الصغيرة الموجودة قرب جبل شاع بالإضافة إلى الصدع الكبير ذو الإتجاه شمال شرق ـ جنوب غرب وهو الصدع الرئيسي في المنطقة. ويظهر أن بئري الطلاح والظر لم تتأثرا بالصدوع في المنطقة، كما أن مياهها أكثر نقاءاً وعذوبة، كما أن الميل العام للمنطقة هو إلى الناحية الشرقية، وهذا يجعل المياه تحت السطحية تذيب المزيد من الأملاح عند انسيابها من الناحية الغربية إلى الناحية الشرقية من المنطقة ولا يوجد دليل على أن المياه في جميع الآبار تعود إلى خزان جوفي واحد، ولكن يمكن القول أن كل بئر لها خزان مغلق تكون داخل شقوق الصخور المتحولة والنارية وفي الرواسب. ولا شك أن لمواسم الأمطار دوراً كبيراً في تحسين نوعية المياه في جميع الآبار ولا سيما في آبار الجهة الغربية من منطقة خيبر.

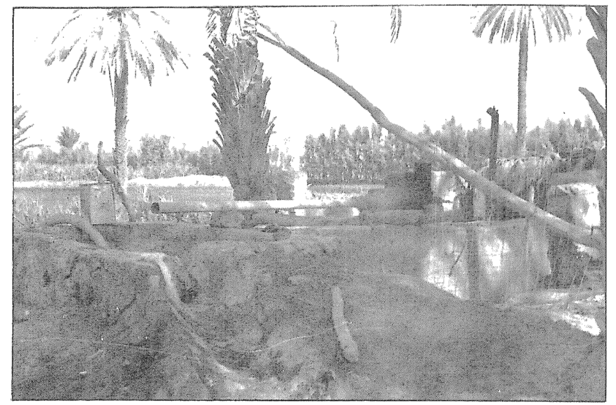
إن تركيب مياه خيبر تحت السطحية تتأثر بالجفاف، وخاصة في أيام الصيف مما يزيد في تركيز كمية الأملاح وذلك بواسطة التبخر.

إن جودة المياه تحت السطحية في منطقة خيبر تعكس إلى حد كبير جيولوجية الخزانات، فالماء يميل عادة إلى إذابة العناصر الموجودة في الصخور التي يمر خلالها. إن الأيونات الرئيسية التي تذيبها المياه تحت السطحية هي: الصوديوم، الكالسيوم، المغنسيوم، البيكربونات الكلورايد والكبريتات بالإضافة إلى بعض العناصر الأخرى بكميات قليلة جداً (Davis and Deweist, 1976)

وجودة المياه هي تعبير شامل يصف مجموع المميزات الكيميائية للماء. وتحدد جودة المياه الاستعمالات المختلفة لهذه المياه. والواقع أن جودة المياه ذات أهمية بالغة بالنسبة للمملكة العربية السعودية حيث أنها تؤثر على صحة الأفراد والمجتمع، كما أنها تؤثر على تنمية الزراعة والصناعات المختلفة. وفيما يلي مواصفات منظمة الصحة العالمية (WHO, 1971) بالنسبة لبعض الأيونات الرئيسية في المياه:

الوحدة		المفضلة	الحد الأقصى
الأملاح الكلية المذابة	جزء في المليون	٥٠٠	١٥٠٠
تركيز الرقم الهيدروجيني	ـ	٧ـ٨,٥	٦,٥ـ٩,٢
كالسيوم	جزء في المليون	٧٥	٢٠٠
كلورايد	جزء في المليون	٢٠٠	٦٠٠
صوديوم	ـ	لا يوجد	لا يوجد
بوتاسيوم	ـ	لا بوجد	لا يوجد
ماغنسيوم	جزء في المليون	٣٠	١٥٠
كبريتات	جزء في المليون	٢٠٠	٤٠٠
بيكربونات	ـ	لا يوجد	لا يوجد

ويظهر من استعراض مواصفات منظمة الصحة العالمية ومقارنتها بالجدول رقم (٣). أن مياه بئري الظر والطلاح تعد مياه جيدة إلى حد كبير، ويمكن استخدام هذه المياه لأغراض الشرب أما بقية المياه للآبار الأخرى فتحتاج لمعالجة كيميائية خاصة لجعلها صالحة للشرب والاستهلاك الآدمي، ولكن يمكن أن تستخدم مياهها لأغراض الزراعة فقط. وقد وجد أن الزيادة في نسبة أيونات البيكربونات غير موصى بها بالنسبة للإستهلاك الآدمي، وخاصة إذا زادت عن ٥٠٠ جزء في المليون **(Hem, 1959)** أما الزيادة في نسبة البوتاسيوم فيعدمهماً في تغذية النبات. ويبدو أن بعض عينات مياه خيبر تحتوي على نسبة عالية من البيكربونات ولكنها أقل من النسبة الضارة بالصحة العامة. ويبدو أن ارتفاع نسبة الأملاح المذابة الكلية في بعض عينات مياه خيبر يمكن أن يسبب بعض الإضطرابات المعوية إذا شرب بكمية كبيرة **(WHO, 1971)** وتتميز مياه خيبر تحت السطحية، وخاصة بئر عرق الدواسر بكمية عالية من الكبريتات ويعود هذا إلى أن الصخور المتحولة الذي تكون الخزان لهذه المياه تحتوي على كمية صغيرة من معدن البايرايت، حيث يعطي تأكسد هذه المعادن الكبريتات. ويختلف تركيز الصوديوم من بئر إلى أخرى، وقد وجد أن تركيز الصوديوم يكون عادة أقل من ٢٠٠ جزء



● منظر يمثل اجزاء من منطقه خيبر، ويوضح مجرى وادي السليل. ●

في المليون في ماء الشرب (NAS & NAE, 1972) ويكون تركيز الصوديوم عادة أقل من ٢٠٠ جزء في المليون في جميع عينات مياه خيبر.

وتختلف النباتات في تحملها للتركيب الكيميائي لمياه الري ونوعية التربة، وهما من أهم العوامل التي تحدد أو ربما تمنع نمو بعض أنواع المحاصيل، أما بعض الأنواع فيمكن أن تنمو بطلاقة. وتتميز مياه خيبر بأنها ذات ملوحة متوسطة إلى عالية (U.S. Salinity Lab. Staff, 1954) ولذلك فإن المحاصيل الزراعية المتوسطة أو عالية التحمل يمكن أن تنمو بنجاح في هذه المنطقة، وتشمل هذه المحاصيل السبانخ، اسباراجوس النخيل، البصل، الجزر، البطاطس، الخس، القرنبيط، الطماطم والخيار.

● التوصيات ●

فيما يلي ثلاث توصيات للمحافظة على المياه تحت السطحية واستخدامها الأمثل للزراعة وأغراض الشرب في منطقة خيبر.

١ - بناء سد خرساني رئيسي في المنطقة وذلك لحجز مياه الأمطار واستخدامها للشرب، بالإضافة إلى تعويض المياه تحت السطحية المفقودة.

٢ - استخدام بعض الطرق الحديثة في





● مناظر مختلفة تمثل ثلاثة آبار مختلفة في منطقة خيبر، وجميعها محفورة باليد ●

الري والزراعة مثل طريقة التنقيط وهي إحدى الوسائل الناجحة في ري أشجار الفاكهة والخضروات.

٣ - إنشاء معمل صغير لمعالجة المياه وتقطيرها لأغراض الشرب في المنطقة، حيث أن معظم المياه تحت السطحية في منطقة خيبر غير صالحة للشرب والاستهلاك الآدمي حسب مواصفات منظمة الصحة العالمية. ●●●

المراجع

باللغة العربية:

- شلش، علي حسين (١٩٧٣)، أطلس خرائط توزيع الأمطار في المملكة العربية السعودية - جامعة الملك سعود، الرياض.

باللغة الإنجليزية:

- **American Public Health Association, American Water Work Association and**

don, Longman, pp. 801-802.

- World Health Organisation (1971). International Standards of Drinking Water. 3rd. Ed., Geneva.

- Davis, S.M. and Dewiest, R.I.M. (1966). Hydrogeology, John Wiley and Sons, New York, 2nd. Ed., 340pp.

- Hem, J.D. (1959). Study and interpretation of the chemical characteristics of natural water; U.S. Geol. Survey Water Supply Paper 1473, 269pp.

- Logan, J. (1961), Estimation of electrical conductivity from chemical analysis of natural water. J. Geophys. Res., Vol. 66, No.8, pp. 2479-2483.

- Ministry of Agriculture and Water, Dept. of Water Resources and Development, Hydrology Division (1976). Hydrological Publication No. 97, Vol. 1, Year 1971-1975, 117pp.

- National Academy of Science & National Academy of Engineering (1972). Water quality Criteria. Report Prepared by the Committee of Water Criteria at the

Water Pollution Federation (1976). Standard methods for the Examination of Water and Wastewater, 4th Ed., Washington, D.C., U.S.A.

- Coleman, R.G. (1975). Reconaissance Geology of the Khaybar quadrange. DGMR, Map. GM-4.

request of USEPA, Washington, D.C., 594pp.

- Schmidt, D.L., Hadley, D.G., Greenwood, W.R., Gonzales, L., Coleman, R,G., and Brown G.F. (1973). Stratigraphy and tectonism of the Southern part of Precambrian shield of Saudi Arabia. US.G.S. Saudi Arabian Project Report No. 139, D.G.M.R. Bull. 8, Jeddah, Saudi Arabia, 13pp.

- U.S. Salinity Laboratory Staff, 1954. Diagnosis and Improvement of Saline and Alkali Soils, USDA Handbook No. 60; U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 160pp.

- Vogel, A.I. (1972). Textbok of Quantitative Inorganic Analysis, 3rd. Ed., Lon-

الإمام
محمد ابن عبد الوهاب
أو
انتصار المنهج السلفي

عبد الحليم الجندي

نظرات في كتاب:

الإمام محمد بن عبد الوهاب أو "إنتصار المنهج السلفي"

عرض ودراسة للأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد

الإمام محمد بن عبد الوهاب علم كبير في الإصلاح الديني وفي الفكر الإسلامي وشيخ جليل من شيوخ الإسلام في العصر الحديث آراؤه وفكره ومنهجه تقوم عليها دول الجزيرة العربية وتنادي بها وتدعو إليها الأقلام الصادقة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي كُتب عن الدعوة والداعية آلاف الدراسات، وخرجت عنهما مئات الكتب والبحوث العلمية مدرسته السلفية اليوم مدرسة كبرى من مدارس الفكر الإسلامي، فأعلام العقل العربي كتبوا عنه وحللوا مضامين دعوته.

بين يديّ اليوم كتاب الأستاذ/ عبد الحليم الجندي «الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفي» الذي نشرته دار المعارف المصرية في أكثر من عشرين ومائتي صفحة، والكتاب يجب أن يطالعه كل إنسان ليقف على كثير من أصول عقيدة الإمام ومنهج دعوته.. ويقول المؤلف عن فكر الإمام (ص:٩).. «فكر إيجابي كله، والإيمان فيه إقرار وعمل»..

ويقول (ص:٨): من أجل الاعتبار بما صنعه ابن عبد الوهاب وحاجة العصر الحالي إلى التأسي بكل كلمة قالها، وكل صنيع صنعه، وضع هذا الكتاب، ليذكر كل ذي بصر أن صفحات هذا التاريخ العظيم تتكرر.

ولنتابع خطوات المؤلف في كتابه:

الباب الأول من الكتاب في مسيرة الفكر الإسلامي حتى عصر الإمام محمد بن عبد الوهاب على امتداد ألف ومائة عام، من الفكر السلفي إلى الفكر الشيعي، إلى التصوف الفلسفي، إلى العودة للمنهج السلفي عند ابن تيمية وابن قيم الجوزية، والثاني في ظهور الفكر المنحرف والثالث عن العودة إلى المنهج السلفي.

والباب الثاني من الكتاب في الدعوة إلى التوحيد .. على يدي داعية التوحيد الإمام محمد بن عبد الوهاب؛ وهو في ثلاثة فصول:

الأول: عن الداعي إلى الله ابن عبد الوهاب.

الثاني: عن دعوته للتوحيد.

الثالث:

عن عقيدته بين الاجتهاد والتأويل.

أما الباب الثالث فهو عن انتصار المنهج السلفي وهو في أربعة فصول:

الأول: عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثاني: عن المعارك التي نشبت بين أنصار الدعوة السلفية وخصومها.

والثالث: حول نشأة الدولة السعودية في ظلال المنهج السلفي، وكفاح أئمة هذه الدولة، ونجاح محمد بن سعود والملك عبد العزيز والملك فيصل ابن عبد العزيز.

والرابع: حول دعاة المنهج السلفي الإسلامي.

يقول المؤلف في كتابه (ص ١١٩):

ما الذي يدلي به الشيخ في مجاله أو في كتبه؟

رسالات للعلماء يشرح فيها دعوته السلفية الخيرة وله مؤلفات تعد بالعشرات تُنافح عن عقيدته السلفية وتدعو إلى الإسلام الخاص.

وهو قد جلس للتدريس ستين عاماً أو تزيد، وأوفد الوفود، وأوصى الكتائب في الزحوف، وعلّم الأمراء والعلماء والجمهور والمتفقهة.

إن الجواب يمكن تلخيصه في كليات هي:

١ ـ الدعوة للتوحيد وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر، فلا إله إلاّ الله وحده.

٢ ـ تحرير الفكر الإنساني من مذلة التقليد واتباع السابقين.

٣ ـ تحرير الفكر الإسلامي مما يدخله عليه المؤولون من آراء.

٤ ـ الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد في سبيل الله أمراً بالمعروف أو ائتماراً به ونهياً عن المنكر أو انتهاء عنه.

والشيخ في تطبيق هذه المبادىء الأربعة وتعليمها ينهج نهج الرسول عليه الصلاة والسلام وهو التعليم، ثم الجهاد للدفاع عن جوهر ما تعلموه.

والمؤلف يعلم رأي المصريين وعلماء الأزهر في الدعوة السلفية (ص١٧٢) ... يقول:

إن الجبرتي مؤرخ مصر، وعالم الأزهر في القرن الثالث عشر وفي عصر محمد علي نفسه، قد أعلن رأي المسلمين في الأبطال من آل سعود: إنهم ذهبوا مع الشهداء.

ولسوف نقرأ بعد مائة عام رأي إمام مصر الشيخ محمد عبده، حيث يقول عن محمد علي:

فليقل لنا أحد من الناس أي أعماله ظهرت فيها رائحة الدين الإسلامي الجليل؟ لا يذكرون إلا مسألة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين.

وينتقل المؤلف إلى أمر آخر وهو انتصار العقيدة الدينية مع هزيمتها العسكرية ... فيقول: التاريخ يسجل إنهاء معركة الدرعية العسكرية، ويسجل ابتداء انتصار عقيدتها الدينية واتصالها بالعالم، وجريان سيرتها على الألسن وعلى أقلام العلماء وفي دروسهم.

ويذكر المؤلف في هامش صفحتي ١٧٦ و١٧٧ الحقائق الآتية:

١ ـ إن الجيش المصري لم يتكون إلا بعد سنة ١٨٢٠ أي بعد معارك الدرعية التي حدثت عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م.

٢ ـ إن محمد بن علي كان يدبر لجيشه مذبحة في الجزيرة العربية ليتخلص من مواطنيه الألبانيين الذين تمردوا عليه سنة ١٨٠٧م.

وبهذا يتأكد أ، الشعب المصري لم يشترك في معارك الدرعية بأي شكل من الأشكال.

ثم يقول المؤلف (ص ١٨٠):

بدأ بالملك عبد العزيز التاريخ العالمي للدولة الجديدة وللدعوة في القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للميلاد.

وبعد فإن هذا الكتاب القيم جدير بالتأمل والقراءة:

أولاً: لأهمية مؤلفه ومنزلته في الفكر الإسلامي المعاصر.

ثانياً: لأهمية ما تضمنه كتابه من أفكار عن الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته.

ثالثاً: لأهمية النصوص والمصادر التي استند إليها المؤلف في دعم آرائه.

والكتاب يضيء لنا جوانب كثيرة من سيرة الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته، وهو وثيقة صادقة على انتصار الدعوة السلفية، دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب على مر الأجيال منذ قيامها حتى اليوم.

ورصيد الدعوة السلفية ورائدها المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب في إحياء الفكر الإسلامي وفي تجديد مسيرة الإصلاح الديني، رصيد كبير، نرجو أن ينتفع به المسلمون المعاصرون في دينهم ودنياهم.

إن المملكة العربية السعودية، وهي تتصدر اليوم عالمنا الإسلامي والعربي لتعد بحق رائدة في مجال الإصلاح الديني والسياسي وإنني لأدعو لها بالتوفيق في خدمة الإسلام والمسلمين، وأن تحل على يديها مشكلات العالم الاسلامي الكبيرة وأن تستمر مسيرة الإصلاح والتجديد فيها من أجل خدمة الاسلام والمسلمين. ●●●

Abstract

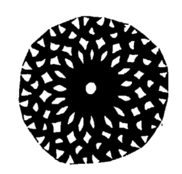
The Distribution of Public Gardens in Medina

By Mohammad S. Makki

The purpose of this research is to compare the green area in Medina during the period extended from 1382 to 1406 A.H. (the period of the available data) in relation to the changing total area of Medina city and the number of its population and according to the international standards with more emphasis on the distribution of public gardens in 1406 A.H. The aim of such comparison is to test the efficiency of one of the aspects available for recreation in Medina. This test hopefully will lead to the development of green area to serve the local and visitor population.

The research used the nearest-neighbour analysis and the multiple regression to explain the pattern of public gardens distribution in Medina, and the relationship between the area and number of these gardens and the area of Medina's quarters and the size of population.

It was evident that the problem in Medina is not related to the lack of green areas but to the non-efficient distribution of these areas. Several recommendations were suggested to increase the efficiency of such distribution.



the male ratio, and for the size of the family to become smaller.

The exploitation of lands has undergone several changes. The concentration of administrative, educational and religious posts has been unprecedented in the history of Riyadh. The residential areas, the commercial and service sectors have flourished at an astronomical rate. Simultaneously, a significant industrial sector has been crystalised. The green areas have become more extensive as a result of annexing part of Wadi Hanifa, parks as well as children's playgrounds and the plantation of roadsides.

The supply of water and the extension of its net-work has become a necessity to meet this expansion. Part of Riyadh water has been brought from Wasih at a distance of 100 Km east of Riyadh, and the other part from desalinated water from Jubail. The increased consumption of propane and electricity, and the increase in imports of vegetables and animal stock to supplement the local production. It is worth noting that some of the services have lagged behind construction projects.

Thus the population and area of Riyadh have increased at an astronomical rate which has necessitated to rethink of new ways of solving the resulting problems especially the failure of providing services to some of the built-up areas.

The solution lies in the adoption of some measures to stop any further expansion, and the transformation of the existing outskirts to suburban towns, so that they will have their own services, and to stop the urban expansion on the lands that are located between these suburbans and Riyadh, but to build on lands that are inside each zone so that services can be catered.



The Population and Urban Growth of the City of Riyadh

Dr. Abdul Rahman El-Sharif

The city of Riyadh was built over the ruins of Hejr town, which was established about 2000 years ago on the west of Wadi Batha. The city of Riyadh, which was considered as a node of caravan transportation routes in the Arabian Peninsula, was one of its famous markets, and one of its administrative capitals.

It is possible to pursue four stages of Riyadh urban development. The first stage began in the middle of the 18th century and ended when it was restored by the Saudi family in 1902 during which it witnessed prosperity at one time and recession at another, depending on political and economic stability. But the second stage lasted the first half of the 20th century, that is, the period of the establishment of the Saudi State, its expansion and unification which facilitated the growth of Riyadh inside and outside the walls until it became 8.5 Km^2. The third stage covered the late part of the 20th century, that is, the period which witnessed the socio-economic growth. Riyadh is characterised by the gigantic extension and utilisation of concrete, and the area has been developed to become 65 Km^2 approximately. The fourth stage began in 1974, which was called the economic boom, resulting from oil royalties which led to the astronomical rise of revenues of the state. Consequently, more projects were implemented, and more loans under lenient terms were granted. Public and private housing, and road constructions were established. This has caused the extension of Riyadh to about 40 Km in every direction, in which the built-up area exceed 350 Km^2 in 1986.

This urban development has witnessed a parallel growth in population which was estimated to have been under 8000 people during the early part of the 20th century. The population gradually increased to reach 80,000 in 1950, but it surpassed 660,000 in 1974, and 1.2 million in 1985. This rapid increase is interpreted to be due to the natural rate of growth as well as the rural and foreign immigration.

The density of population in the old city of Riyadh was high because of the lay-out of houses and of the narrow roads. This density has begun to diminish owing to the external extension, widening of the roads, and the demolition of old quarters, which led to a decrease in building or room density. There has been a tendency in Riyadh for raising the percentage of the middle-age groups especially



The revolution of El-Qassam was a strong blow to Palestinian politicians to whom honor and fame were more important than the homeland.

To say the truth, the martyrdom of El-Qassam and his comrades in the forests of "Ya'bad" was the spark of the Palestinian revolution against Britain and the zionism in 1936.

In the morning of 20 November 1935, he became "a mark of Jihad". His name echoed throughout the country; his martyrdom revived the meaning of sacrifice and pride, and strengthened the will and resolution of Palestinians although they lacked ammunition and supply.

●●●

Conclusion

Eziddin El-Qassam in his Jihad (holy War) was the pioneer of the national strife in Palestine. He was true patriotic and brilliant in forming effective underground organizations.

Religion was the main factor that made Eziddin El-Qassam declare his revolt; he was a well-known religious and socially esteemed personality. His religious education and understanding of Islam made him refuse the oppression and be ready to confront it not only as a contribution to restoration of a part of his usurped country, but also as an execution of the order of God the almighty which dictates the "Jihad" in the cause of God and confrontation of oppression.

As an "Imam" of Al-Istiqlal mosque, he made use of his position to achieve, at the same time, three objectives: Instigation, Organization, and Training. The objectives of his "Jihad" were:

1. Expel the British colonization from Palestine.
2. Prevent the establishment of a jewish state in Palestine.
3. Establish a temporary Arab state in preparation for the achievement of comprehensive Arab unity.

The revolution of El-Qassam left a great shadow on the Palestinian political life. All attempts to have rapprochement between Palestinians and British authorities were failure because El-Qassam believed that only by Islamic "Jihad", the Palestinian issue could be solved. He also believed that all factions are just amusement, corruption and pastime unless they are based on true faith.







Cover Picture:

Public Garden In Al-Madina Al-Munawara

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual Subscriptions :

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 $.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● PRICE PER ISSUE ●

– Saudi Arabia	:	3 Riyals
– U. A. E.	:	4 Dirhams
– Qatar	:	4 Riyals
– Egypt	:	40 Piastres
– Morocco	:	5 Dirhams
– Tunisia	:	400 Milliemes
– Non-Arab Countries	:	1 U.S. $

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est., P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.

Abu-Dhaby : P.O. Box 3778, Abu Dhaby, Tel.: 323011.

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library. P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

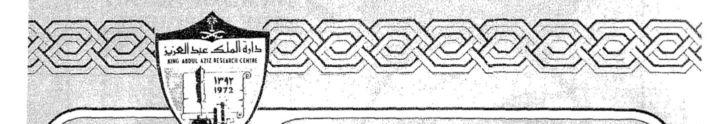
Qatar : Dar-Al-Thakafa. P.O. Box 323, Tel.: 413180.

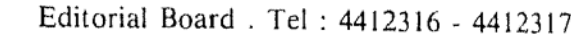
Bahrain : Al-Hilal Distributing Est., Manama, P.O. Box 224, Tel.: 262026.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est., Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Tunisia : The Tunisian Distributing Company 5, Nahg Kartaj.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company, P.O. Box 683, Casablanca, 05.




All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020
Editorial Board . Tel : 4412316 - 4412317

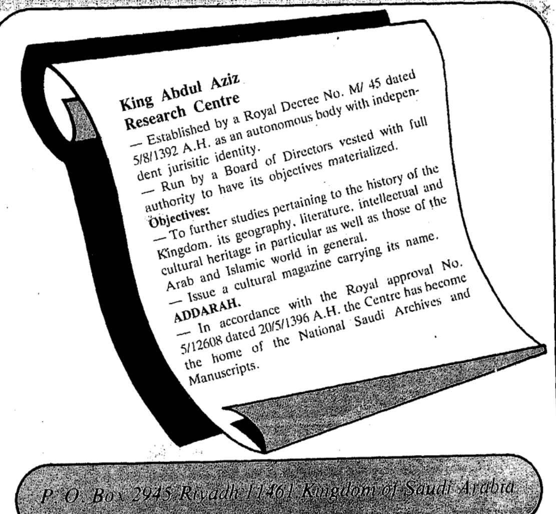


IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre

• Shawwal . May
No. 1 • Year 14 • D. Qudah 1408 A.H. June 1988 A.D.
• D. Hijjah . Yuly



King Abdul Aziz Research Centre

— Established by a Royal Decree No. M/ 45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity.

— Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:

— To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

— Issue a cultural magazine carrying its name. **ADDARAH.**

— In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020



دارة الملك عبد العزيز

ص.ب ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ هاتف ٤٤١٢٣١٦ – ٤٤١٢٣١٧

رقم الفاكسيميل : ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠





	ذو الحجة JULY. AUG.89	ذو القعدة JUN. JULY.	شوال MAY. JUNE	رمضان APR. MAY	شعبان MAR. APR.	رجب FEB. MAR.	جمادى الأخرة JAN. FEB.	جمادى الأولى DEC. JAN 89	ربيع الاخر NOV. DEC	ربيع الأول OCT. NOV	صفر SEPT. OCT.	المحرم AUG. SEPT.88	
SAT.			6 ١					10 ١				13 ١	السبت
SUN.		4 ١	7 ٢				8 ١	11 ٢				14 ٢	الأحد
MON.		5 ٢	8 ٣				9 ٢	12 ٣			12 ١	15 ٣	الإثنين
TUES.	4 ١	6 ٣	9 ٤			7 ١	10 ٣	13 ٤		11 ١	13 ٢	16 ٤	الثلاثاء
WED.	5 ٢	7 ٤	10 ٥		8 ١	8 ٢	11 ٤	14 ٥		12 ٢	14 ٣	17 ٥	الاربعاء
THU.	6 ٣	8 ٥	11 ٦		9 ٢	9 ٣	12 ٥	15 ٦	10 ١	13 ٣	15 ٤	18 ٦	الخميس
FRI.	7 ٤	9 ٦	12 ٧	7 ١	10 ٣	10 ٤	13 ٦	16 ٧	11 ٢	14 ٤	16 ٥	19 ٧	الجمعة
SAT.	8 ٥	10 ٧	13 ٨	8 ٢	11 ٤	11 ٥	14 ٧	17 ٨	12 ٣	15 ٥	17 ٦	20 ٨	السبت
SUN.	9 ٦	11 ٨	14 ٩	9 ٣	12 ٥	12 ٦	15 ٨	18 ٩	13 ٤	16 ٦	18 ٧	21 ٩	الأحد
MON.	10 ٧	12 ٩	15 ١٠	10 ٤	13 ٦	13 ٧	16 ٩	19 ١٠	14 ٥	17 ٧	19 ٨	22 ١٠	الإثنين
TUES.	11 ٨	13 ١٠	16 ١١	11 ٥	14 ٧	14 ٨	17 ١٠	20 ١١	15 ٦	18 ٨	20 ٩	23 ١١	الثلاثاء
WED.	12 ٩	14 ١١	17 ١٢	12 ٦	15 ٨	15 ٩	18 ١١	21 ١٢	16 ٧	19 ٩	21 ١٠	24 ١٢	الاربعاء
THU.	13 ١٠	15 ١٢	18 ١٣	13 ٧	16 ٩	16 ١٠	19 ١٢	22 ١٣	17 ٨	20 ١٠	22 ١١	25 ١٣	الخميس
FRI.	14 ١١	16 ١٣	19 ١٤	14 ٨	17 ١٠	17 ١١	20 ١٣	23 ١٤	18 ٩	21 ١١		26 ١٤	الجمعة
SAT.	15 ١٢	17 ١٤	20 ١٥	15 ٩	18 ١١	18 ١٢	21 ١٤	24 ١٥	19 ١٠	22 ١٢	24 ١٣	27 ١٥	السبت
SUN.	16 ١٣	18 ١٥	21 ١٦	16 ١٠	19 ١٢	19 ١٣	22 ١٥	25 ١٦	20 ١١	23 ١٣	25 ١٤	28 ١٦	الأحد
MON.	17 ١٤	19 ١٦	22 ١٧	17 ١١	20 ١٣	20 ١٤	23 ١٦	26 ١٧	21 ١٢	24 ١٤	26 ١٥	29 ١٧	الإثنين
TUES.	18 ١٥	20 ١٧	23 ١٨	18 ١٢	21 ١٤	21 ١٥	24 ١٧	27 ١٨	22 ١٣	25 ١٥	27 ١٦	30 ١٨	الثلاثاء
WED.	19 ١٦	21 ١٨	24 ١٩	19 ١٣	22 ١٥	22 ١٦	25 ١٨	28 ١٩	23 ١٤	26 ١٦	28 ١٧	31 ١٩	الاربعاء
THU.	20 ١٧	22 ١٩	25 ٢٠	20 ١٤	23 ١٦	23 ١٧	26 ١٩	29 ٢٠	24 ١٥	27 ١٧	29 ١٨	1 ٢٠	الخميس
FRI.	21 ١٨	23 ٢٠	26 ٢١	21 ١٥	24 ١٧	24 ١٨	27 ٢٠	30 ٢١	25 ١٦	28 ١٨	30 ١٩	2 ٢١	الجمعة
SAT.	22 ١٩	24 ٢١	27 ٢٢	22 ١٦	25 ١٨	25 ١٩	28 ٢١	31 ٢٢	26 ١٧	29 ١٩	1 ٢٠	3 ٢٢	السبت
SUN.	23 ٢٠	25 ٢٢	28 ٢٣	23 ١٧	26 ١٩	26 ٢٠	29 ٢٢	1 ٢٣	27 ١٨	30 ٢٠	2 ٢١	4 ٢٣	الأحد
MON.	24 ٢١	26 ٢٣	29 ٢٤	24 ١٨	27 ٢٠	27 ٢١	30 ٢٣	2 ٢٤	28 ١٩	31 ٢١	3 ٢٢	5 ٢٤	الإثنين
TUES.	25 ٢٢	27 ٢٤	30 ٢٥	25 ١٩	28 ٢١	28 ٢٢	31 ٢٤	3 ٢٥	29 ٢٠	1 ٢٢	4 ٢٣	6 ٢٥	الثلاثاء
WED.	26 ٢٣	28 ٢٥	31 ٢٦	26 ٢٠	29 ٢٢	1 ٢٣	1 ٢٥	4 ٢٦	30 ٢١	2 ٢٣	5 ٢٤	7 ٢٦	الاربعاء
THU.	27 ٢٤	29 ٢٦	1 ٢٧	27 ٢١	30 ٢٣	2 ٢٤	2 ٢٦	5 ٢٧	1 ٢٢	3 ٢٤	6 ٢٥	8 ٢٧	الخميس
FRI.	28 ٢٥	30 ٢٧	2 ٢٨	28 ٢٢	31 ٢٤	3 ٢٥	3 ٢٧	6 ٢٨	2 ٢٣	4 ٢٥	7 ٢٦	9 ٢٨	الجمعة
SAT.	29 ٢٦	1 ٢٨	3 ٢٩	29 ٢٣	1 ٢٥	4 ٢٦	4 ٢٨	7 ٢٩	3 ٢٤	5 ٢٦	8 ٢٧	10 ٢٩	السبت
SUN.	30 ٢٧	2 ٢٩		30 ٢٤	2 ٢٦	5 ٢٧	5 ٢٩		4 ٢٥	6 ٢٧	9 ٢٨	11 ٣٠	الأحد
MON.	31 ٢٨	3 ٣٠		1 ٢٥	3 ٢٧	6 ٢٨	6 ٣٠		5 ٢٦	7 ٢٨	10 ٢٩		الإثنين
TUES.	1 ٢٩			2 ٢٦	4 ٢٨	7 ٢٩			6 ٢٧	8 ٢٩			الثلاثاء
WED.				3 ٢٧	5 ٢٩				7 ٢٨	9 ٣٠			الاربعاء
THU.				4 ٢٨	6 ٣٠				8 ٢٩				الخميس
FRI.				5 ٢٩					9 ٣٠				الجمعة

١٩٨٩/٨٨ ميلادية

88/1989 A.D



١٤٠٩ هجرية

1409 A.H

● اليوم الوطني للمملكة.

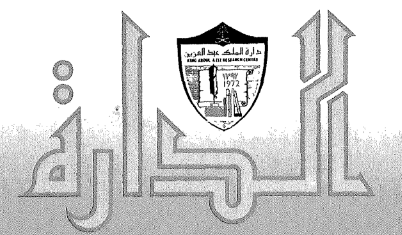
● الإجازات الرسمية.

ADDARAH

No. 1 • Year 14 • ShawwaL 1408 A.H • May 1988 A.D.



حديقة عامة في المدينة المنورة



مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض

العدد الثاني • السنة الرابعة عشرة • المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٩هـ • أغسطس، سبتمبر، أكتوبر ١٩٨٨م

- المدرسة الإسلامية أو دار الفائزين بمكة المكرمة
- مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، أسبابها، وتطورها









مجلة فصلية مُحكّمة
تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

العدد الثاني • السنة الرابعة عشرة

المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٩هـ • أغسطس، سبتمبر، أكتوبر ١٩٨٨م

دارة الملك عبدالعزيز :

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥ في ٥/٨/١٣٩٢هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية إعتبارية يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها .

والغرض من إنشائها : خدمة تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وآدابها. وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها .كما أنها "المركز الوطني للوثائق والمخطوطات" بمقتضى الموافقة السامية رقم ٥٠٨٠٦٢٦١ في ٢٠/٥/١٣٩٦هـ .

☒ ٢٩٤٥ ـ الرياض : ١١٤٦١
المملكة العربية السعودية

رقم الفاكسيميلي :
٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

طبع بشركة العبيكان للطباعة والنشر ـ الهاتف : ٤٩٨٣٣٩٢ ـ الرياض

دارة الملك عبد العزيز
KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
١٣٩٢
1972



رئيس التحرير

محمد حسين زيدان



● هيئة التحرير ●

د . منصور إبراهيم الحازمي
عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس
د . عبد الرحمن الطيب الأنصاري
د . عبد الله الصالح العثيمين
د . محمد السليمان السديس



« سكرتير التحرير ، والمشرف الفني »

مصطفى أمين جاهين

الأمين العام للدارة
ومدير عام المجلة

عبد الله بن حمد الحقيل

ترسل الاشتراكات باسم
الأمين العام للدارة

☎ : ٤٤١٢٥٧١

ترسل البحوث باسم
رئيس التحرير
☎ : ٤٤١٧٠٢٠

الإدارة والتحرير
☎ ٤٤١٢٣١٦ – ٤٤١٢٣١٧

آراء الكتاب تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

● يراعى في البحث أن لا يزيد عن (٣٠) صفحة من القطع المتوسط ومنسوخ على الآلة .

■ ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب ..

● لا تُردّ البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر ..

■ ترسل البحوث سرياً إلى محكّمين ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر .

* الاشتراكات السنوية *

■ ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية .

● وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .

■ ٦ دولارات خارج البلاد العربية .

قيمة العدد

- السعودية.......................... : ثلاثة ريالات
- الامارات العربية.................. : أربعة دراهم
- قطر................................ : أربعة ريالات
- مصر............................... : ٤٠ قرشاً
- المغرب............................ : خمسة دراهم
- تونس.............................. : ٤٠٠ مليم
- خارج البلاد العربية.............. : دولار للعدد

الموزعون

● السعودية : مؤسسة الجريسي للتوزيع
ص. ب. : ١٤٠٥ الرياض ــ ☎ : ٤٠٢٢٥٦٤

■ أبو ظبي : مكتبة المنهل
ص. ب. : ٣٧٧٨ أبو ظبي ــ ☎ : ٣٢٣٠١١

● دبي : مكتبة دار الحكمة
ص. ب. : ٢٠٠٧ ــ ☎ : ٢٢٨٥٥٢

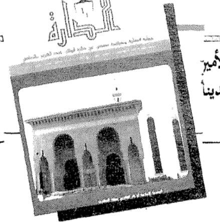
■ قطر : دار الثقافة
ص. ب. : ٣٢٣ ــ ☎ : ٤١٣١٨٠

● البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
ص. ب. : ٢٢٤ المنامة ــ ☎ : ٢٦٢٠٢٦

■ مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء ــ القاهرة ☎ : ٧٥٥٥٠٠

● تونس : الشركة التونسية للتوزيع
5 ، نهج قرطاج

■ المغرب : الشركة الشريفية للتوزيع
ص. ب. : 683 الدار البيضاء 05 .



صورة الغلاف : مسجد صاحب السمو الملكي الأمير « عبد الله بن عبد العزيز » ولي العهد الأمين ، بمدينة الدار البيضاء ـ المملكة المغربية .

في هذا العدد



واشمخرت اليمامة

● بقلم رئيس التحرير ●

واشمخرت اليمامة ، وحجرها الرياض ، قبلياً في الجاهلية وإسلامياً في صدر الإسلام ، فمنها وممن هو حولها من كل قبائل نجد ، كانوا صخار الإسلام ، والجفوة التي شفيت بها جزيرة العرب ، لم تنل من اليمامة إلاّ حماستها لأن تعود إلى ارتفاعها المسلم وشموخها العربي بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وبسيوف الأئمة من آل سعود .

والحق يحاربه الباطل ، فإذا عبد العزيز بن عبد الرحمن يعود إلى اليمامة بالسيف ، فإذا هي تعود مشمخرة بالعقيدة وبالوحدة وبالأمن وبنشر العلم .

وأبت اليمامة إلاّ أن تشمخر وتؤسس فيها ـ كما الجامعات ـ مكتبة باسم الملك عبد العزيز يؤسسها ابنه ولي العهد الأمين عبد الله ، جمعت التراث لتصون الميراث حتى أن الكتاب (الإكليل) لجغرف جزيرة العرب الهمداني ، قد ضاع ، تناهبته الأيدي من مكتبة صنعاء ، بيت الهمداني ، فإذا رجل يجمع الاكليل في أجزاء من أكثر من مكتبة ، أخذه الجد ، فإذا الاجتهاد يعطيه ، ماذا يصنع به ؟ قالت مكتبة الملك عبد العزيز هاته .. اشترته ستطبعه إن لم يكن الآن تحت الطبع .

لقد كنت أذم سارق الكتاب يوم تسلط السرّاق على مكتبة عارف حكمت ومكتبة السلطان محمود والمكتبات الأخرى يسرقون الكتب ، كنت أذمهم ، لكني الآن أشكرهم ، لقد باعوها إلى من صانها .. باعوها في أوروبا .. واشترتها المكتبات ، فإذا كل هذه الكتب مصانة في كل مكتبة أوروبية ، لأنهم تعصبوا للكتاب من حيث هو كتاب ، من حيث هو تراث إنساني ، لئن خالف عقائدهم ، فإنه يتآلف مع الفكر المثقف الذي تثقف أول الأمر بما وصل إليه عن طريق الأندلس .. عن طريق صقلية .. عن طريق القسطنطينية .. عن طريق بخارى .. عن طريق روما ، أخذوا عن كتابنا القيم الحضارية ، فهم لم يعرفوا أرسطو وأبقراط واقليدس إلاّ عن فلاسفتنا .

هذا ، شكرت السارق وأثني على صائن الكتاب ، ولو كان لي أن اقترح لطلبت من مؤسسة الملك عبد العزيز هذه أن تنتدب المختار من رجالها يذهب إلى مكتبة الفاتيكان

التي جمعت أكثر من خمسين ألف كتاب ، حتى صحائف الجلد وعليها الآيات توجد في مكتبة الفاتيكان ، لو طلب ذلك منها رسمياً لما رفض البابا هذا الطلب . لا نأخذ الكتاب وإنما نصوره ، حتى يصبح الكتاب اثنين في روما وفي حجر اليمامة .

لقد اشمخرت اليمامة بهذه المؤسسة أعني المكتبة ، كما اشمخرت بالجامعات . وكل ذلك كما الدولة كلها .. كما الكيان الكبير كله هو مؤسسة الملك عبد العزيز . ولا أنسى الدارة فهي من الرديف وكل الرديف أصبح رديف ثقافة يذوق ثمارها الذين يتثقفون .

وما نسيت أن أكتب عن المؤسسة في المغرب فهذا العدد هو الذي يكتب عنها ويكفيني ذلك . كل ما فعلته هو أني استجبت أو أني رأيت أن تصدر الدارة ملخصا عن ندوة المخطوطات العربية في هذا العدد . وليس بكثير على ابن عبد العزيز الأمير عبد الله ولي العهد . أن تأخذه الوراثة للعقيدة والوفاء للصداقة أن يبذل ما بذل في سبيل تنظيم العلاقة الثقافية بين من هم أهل ثقافة واحدة ، ثقافة اللغة الشاعرة .. لا .. ثقافة القرآن . فقد حفظه المغاربة وفسروه ، وكان حبهم لنا نحن المشارقة حبا لا يعلى عليه .

فأول من صدّق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من أهل الأمصار ما كان إلاّ السلطان سليمان . ولقد تعلمت هذه من الزعيم المغربي الشيخ علاّل الفاسي في محاضرة ألقاها في بستان الزاهر بصفته عضواً في رابطة العالم الإسلامي . ولا أدري هل أجدها عند الدارة أو في أي مكتبة أو حتى في الرابطة . فقد لعبت بعض الأيدي ببعض المحاضرات .

فعلاقة المملكة حرماً وسياجاً وصحراء وبيت الشعر وبيت المدر والرجال ، علاقتهم وثيقة بالمغرب العربي كله لأنهم كما ذكرت من قبل أهل الثبات والإثبات يحبون هذه الأرض وإنسانها . فليسوا « غلاظ الأكباد » بل هم رقاق القلوب ، وراثة الحميرية اليمنية وأخلاق الإسلام ، فلئن شعّ نوره في الحرم وسياجه ، فقد انتشرت أنواره من المغرب كله بالفاتحين الذين كانوا من هنا حتى تكوّنوا هناك سواء كانوا الفاتحين الأول أو كانوا بني هلال وبني سليم .. الفاتحون نشروا الإيمان وموجة نجد ومن لَفَّ لفّه فيها من القبائل . هم الذين عرّبوا ، قالها عبد الحميد بن باديس ، يوم عابوا بني هلال بأنهم خربوا . فقال يرحمه الله ـ وهو بربري صنهاجي ، لكنه شبع من القرآن ـ قال : لئن قيل إنهم خربوا ، فلنقل إنهم عرّبوا .

ولست بهذا أتزيّد ولا أتسيّد ، وإنما أستجدي القارئ أن يعرف نفسه .. أن يعرف ما هم العرب ، ليعرف من هم العرب .. ولا أريد أن أزيد .

● محمد حسين زيدان ●

المدرسة الإسلامية أو دار الفائزين

بمكة المكرمة

● د . عبد اللطيف عبد الله بن دهيش ●

هي ثالث مدرسة أهلية حديثة تؤسس في مكة المكرمة بعد المدرسة الصولتية والمدرسة الفخرية العثمانيتين خلال فترة الحكم العثماني للحجاز . ومؤسسها هو الشيخ/عبد الخالق محمد حسين البنقالي ،[١] وكان تأسيسها في عام ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) . وقد أطلق عليها مؤسسها عند تأسيسها اسم المدرسة الإسلامية ،[٢] وخصص لها في البداية منزلاً مناسباً قرب المسجد الحرام ، ثم بنى لها من ماله الخاص داراً كبيرة في محلة المسفلة ، أوقفها على المدرسة ، وذلك في السنة التالية من تأسيسها . كما أنه اشترى عدداً من الدور الصغيرة القريبة منها ، فأوقفها على المدرسة ، وخصص ريعها للإنفاق منه لصالح المدرسة ، بالإضافة إلى ما كان ينفقه عليها من ماله الخاص ، رغبة منه في تأمين سير الدراسة بها ، ومساهمة خيّرة منه في سبيل نشر العلم والمعرفة بين أبناء المنطقة وخاصة من الوافدين إليها .

وقد اشترط الواقف والمؤسس الشيخ عبد الخالق المذكور أن تكون النظارة على هذه المدرسة ، وأوقافها بعد وفاته ، أولاً لابنه محمد ، ثم في حال انقراض ذريته تكون النظارة لأهل الحيثية والمكانة من الميمن القاطنين في مكة المكرمة .[٣]

وإلى جانب هذا العون المادي السخي من المؤسس ، فهناك عدد من المعونات المالية كانت تصل إلى المدرسة من أهل الخير ، وخاصة من مسلمي الهند ، ومن جملة هؤلاء الشيخ دولا بينباري البنقالي ، الذي تبرع هو الآخر بدار كبيرة ، ليتم تأجيرها وينفق من إيرادها لصالح المدرسة ، وذلك في عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٨ م .[٤]

أما عن المنهج الدراسي في هذه المدرسة ، فهي مدرسة شبه ابتدائية ، ويدرس فيها علوم عدة منها : القرآن الكريم ، الهجاء والقراءة العربية ، والخط والحساب ومبادئ الفقه الإسلامي ، على أنه لم يكن لها برنامج أو خطة معينة تسير عليها لتدريس المواد المقررة بها ، بل كان برنامجها دائماً مضطرباً ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أنها كانت تحت أيدي أشخاص لم تكن لديهم أي خبرة في مجال التربية والتعليم .

وكان بها معلمون لا يقل عددهم في الغالب عن اثنين أو ثلاثة ، وكانت إدارتها تضم أشخاصاً يعيّنهم المؤسس ، الذي كان يتولى هو بنفسه رئاسة المدرسة وإدارتها والنظارة على أوقافها . وقد كان بها في السنوات الأولى من افتتاحها عدد من الطلاب لا يقل عددهم عن العشرين طالباً .(٥) لكن هذا العدد أخذ في الازدياد تدريجياً ، على أننا لم نتمكن من الحصول على إحصائيات ثابتة وموثوق بها لعدد الطلاب والمدرسين بالمدرسة خلال هذه الفترة ، وذلك لعدم توفر سجلات بذلك .

وقد سارت الدراسة في هذه المدرسة طيلة حياة المؤسس محققة المزيد من التقدم في مجال نشر العلوم والمعرفة في مكة الطاهرة لكن عندما توفي المؤسس في حوالي عام ١٣٣٢ هـ الموافق ١٩١٤ م آلت ثروته إلى ابنه ، كما آل إليه أيضاً الإشراف على المدرسة والنظارة على أوقافها ، فأخذ في تبديد ثروة أبيه على مصالحه الخاصة ، ولم يعط المدرسة ما كانت تناله من والده من عناية واهتمام ، لكن أهل الخير من أصدقاء والده وقفوا له بالمرصاد ، فما كان منه إلاّ أن هرب إلى الهند ، حيث توفي هناك عام ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، فآلت النظارة على المدرسة وأوقافها من بعده إلى أحد التجار من الميمن ، وهو الشيخ عبد الستار أبو طالب . وبذلك احتفظت المدرسة بطابعها بعد أن كادت تغلق أبوابها ، وتم تغيير اسمها إلى مدرسة دار الفائزين . وقد عمل هذا التاجر على تسيير الدراسة بالمدرسة على أحسن وجه ، كما استطاع تدبير المال اللازم لدفع مرتبات المدرسين والموظفين بالمدرسة ، بالرغم من المصاعب المالية التي كان يواجهها في تلك الفترة ، وذلك رغبة منه في أن تستمر هذه المؤسسة التعليمية في أداء واجبها ورسالتها العلمية على خير ما يرام .

وفي الوقت نفسه تم تعيين الأستاذ/عباس عبد الجبار مديراً لها وقد استمر في إدارتها مدة خمس سنوات وقام بتطوير الدراسة بها ، فازداد إقبال الطلاب عليها ، ونتيجة لذلك زاد عدد الفصول والمدرسين . وقد خلفه بعد ذلك الأستاذ/محمد سعيد جان ،(٦) فبذل جهوداً

موفقة في سبيل رفع المستوى العلمي بالمدرسة ، وعمل على تشجيع الطلاب ومنح المتفوقين منهم جوائز تشجيعية .

ولذلك احتفلت المدرسة بالمتفوقين من طلابها وأقيم حفل كبير بهذه المناسبة ، وقد نشرت جريدة القبلة ذلك الاحتفال ،[٧] مما يدل على أن المدرسة أخذت تخطو خطوات حثيثة إلى الأمام ، وذلك بفضل الله ثم بفضل الجهود الموفقة التي قام بها مديرها الجديد الأستاذ/محمد سعيد جان .

وقد استمرت المدرسة في أداء رسالتها العلمية طوال عهد الشريف حسين ، وكان الشيخ عبد الستار أبو طالب يدعم المدرسة عاماً بعد آخر ، بالهبات السخية ، ويشجع القائمين على إدارتها وهيئة التدريس بها ، ويحضهم على المزيد من الجهد والمثابرة على العمل ، فكان لذلك الدعم المادي والمعنوي أثره الكبير في جعل المدرسة تقوم بواجبها بجهد طيب .

وفي ٢٩ ربيع الأول عام ١٣٣٨ هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩١٩ م ، أعلنت المدرسة في جريدة القبلة عن التنظيم الجديد الذي أدخل في مناهجها وتعيين عدد من المدرسين الأكفاء للتدريس في هذه المدرسة ، مع توفير اللوازم المهمة التي تحتاج لها المدرسة .[٨]

وعلى ضوء هذا التنظيم أصبحت مدة الدراسة في هذه المدرسة أربع سنوات ، ويدرس الطالب خلالها المواد التالية : القرآن الكريم ، التجويد ، الهجاء ، القراءة ، الكتابة ، مبادئ العلوم الدينية ، مبادئ علوم اللغة العربية (النحو ، والمطالعة ، والمحفوظات) ، والحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ،[٩] وأن جميع الكتب في هذه المواد تقدم للطلاب مجاناً .[١٠]

وقد سارت الدراسة بالمدرسة حسب المنهج الجديد فذاع صيتها وازداد الإقبال عليها عاماً بعد آخر ، ففي عام ١٣٤١ هـ الموافق ١٩٢٣ ، كان بالمدرسة خمسة مدرسين وأكثر من مائة طالب موزعين على السنوات الدراسية الأربع .[١١]

وفي العام التالي احتفلت المدرسة بتخريج دفعة من المتفوقين من طلابها ، وذلك في حفل بهيج حضره أمير مكة وجمع غفير من الأعيان والمسؤولين .[١٢]

وبعد فترة توفي الناظر/عبد الستار أبو طالب فأدى ذلك إلى صراع مرير بين القائمين على المدرسة ، لأن كل واحد منهم يطلب أن تكون النظارة على المدرسة وأوقافها بيده ، مما أدى إلى تدني المستوى الدراسي بها . ثم بعد فترة أصبح الإشراف على هذه المدرسة بيد عدد

من النظار الذين لم يهتموا بالمدرسة والمستوى الدراسي بها ، فضعفت الموارد المالية التي كانت تسهم في بقاء المدرسة حتى كادت تقفل أبوابها . وقد أدى ذلك إلى تدخل مديرية المعارف العامة وهي الجهة المسؤولة عن التعليم في المملكة فقامت بإعادة تنظيم المدرسة وجعلت مناهجها تتمشى مع ما هو مطبق في المدارس الحكومية . وتم في عام ١٣٦٥ هـ/١٩٤٥ م تعيين الأستاذ/محمد سليم رحمت الله مدير المدرسة الصولتية مشرفاً عاماً على هذه المدرسة . وقد قام بتنظيمها تنظيماً جيداً . وعمل بجهد على حل مشاكلها المالية والإدارية فسارت الدراسة بها بصورة جيدة .(١٣) لكن بعد فترة قل الإقبال عليها فأدى ذلك إلى إغلاقها ، وكان ذلك في عام ١٣٧٢ هـ الموافق ١٩٥٢ م ■

• الهوامش •

(١) هو من أهالي الهند المهاجرين إلى مكة المكرمة ولم نعثر على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته ، والمعلومات التي لدينا تؤكد لنا أنه عاش في الفترة ما بين أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وأنه عمل مطوفاً للبنقاليين في مكة المكرمة . كما أنه درس في المدرسة الصولتية ولازم دروس الشيخ رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية ، وهو الذي اقترح عليه أن ينفق بعض ماله في مكة المكرمة ويؤسس بها مدرسة ويوقف بها دوراً لمنفعة العلم ، وكان عبد الخالق مؤسس المدرسة الإسلامية ذا مال كثير أنفق جزءاً منه في إنشاء هذه المدرسة وتأمين مواردها المالية .

(٢) جميع صكوك الوقفية المسجلة في محكمة مكة المكرمة ومستنداتها الرسمية الأساسية القديمة تسميتها بهذا الاسم .

(٣) محمد سليم رحمت الله ـ تقرير عن المدرسة الإسلامية ، محفوظ لدى ، ص ١ .

(٤) صك رقم ٣٨٦ بتاريخ ١٣٠٦/٦/٢٤ هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٨٨٩ م ، المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة ـ المجلد الأول لعام ١٣٠٦ هـ .

(٥) محمد سليم رحمت الله ، تقرير عن المدرسة الإسلامية محفوظ لدى ، ص ١ ، انظر أيضاً محمد حلمي ، تقرير عن المدرسة الإسلامية ، محفوظ لدى ، ص ٨ .

(٦) محمد سليم رحمت الله : تقرير عن المدرسة الإسلامية . ص ٢ .

(٧) القبلة : عدد ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٨) القبلة عدد ٣٤٢ في ١٣٣٨/٣/٢٩ هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩١٩ م .

(٩) محمد سليم رحمت الله ـ التقرير السابق ، ص ١ ، والقبلة عدد ٣٤٢ ، ٣٤٦ .

(١٠) القبلة عدد ٣٤٢ ، ٣٤٦ .

(١١) مجلة المعارف الهندية ، عدد ١٢ لعام ١٩٢٣ م ، ص : ٣٥٥ .

(١٢) القبلة : عدد ٦٧٤ .

(١٣) محمد سليم رحمت الله ـ تقرير عن المدرسة الإسلامية ، ص ٣ .

الإقطاع العسكري في العهدين المملوكي والعثماني

جذوره التاريخية وجوانبه

● د . محمد رجائي ريان ●

مقدمة : تناول الباحثون الإقطاع ، ولكنه لا يزال بحاجة إلى دراسة ، لأن جوانبه التاريخية عديدة ودلالاته متعددة ، ومفاهيمه متطورة ، وسنتناوله في هذه الدراسة لا كفترة من الفترات أو كقطر من الأقطار وإنما كنظام لعهدين متعاقبين ، العهد المملوكي والعهد الإقطاعي .

ولما كانت لفظة الإقطاع قد اكتسبت عدة مدلولات قبل ظهور هذين العهدين فإن هذا يوجب علينا التعرض لهذه المدلولات في عهود سابقة ، لنصل بذلك إلى إدراك الجذور التاريخية للإقطاع للدخول في الإقطاع كنظام في العهدين المذكورين .

إن المنهج التاريخي يحتم علينا الولوج ولو بإيجاز في تلك العهود السابقة من منطلق أن الإقطاع مظهر حضاري له جذوره الاقتصادية والاجتماعية ، والمتصلة بالأرض التي عاش عليها الإنسان الذي يمثل هذا المظهر الحضاري ، ولما كان أي منهج تاريخي يعتمد في أساسه على البحث العلمي ، فإننا في الدراسة التاريخية التي تعتمد على الحقائق التاريخية لابد من الإطار الزمني للوصول إلى الأهداف التي وضعناها لهذه الدراسة .

لن نتعرض للإقطاع من جوانبه الفقهية أو أبعاده الإقليمية أو صفاته النظرية وإنما سنأخذه من جوانبه العملية ، كنظام عام ضمن دراسة تاريخية ، وهذه الدراسة ستحتم علينا الدخول في جنبات العصور الوسطى كعهد مملوكي والعصور الحديثة كعهد عثماني ، مع صعوبة الانفصام بينها لصعوبة التفريق ووضع الحواجز والقفز من عهد إلى آخر لتشابك العناصر الحضارية فيها .

■ ■ ■

أولاً : الجذور التاريخية للإقطاع في مفهومه الإسلامي :

لما كانت الحضارة الإسلامية ، قد جاءت بعد حضارات أخرى ، فقد وجد العرب بعد قيام دولتهم التي أسسها النبي محمد ﷺ إقطاعاً قديماً ففي الدولة الساسانية كان الفلاحون مرتبطين بالأرض ويجبرون على القيام بأعمال السخرة ، ويخدمون في الحرب مشاة تحت لواء نبيل من النبلاء ، وهذا يدل على أن الساسانيين عرفوا اقطاعيات النبلاء .

وفي الدولة البيزنطية شرع قسطنطين في ٣٣٢ م قانوناً ينص على أن الفلاح (Colonus) إن ترك أرض سيده أعيد إليها قسراً ويصير عبداً وفي ٣٥٧ م شرع قسطنطينوس بأن آل (Colonu) أي الاقنان يجب أن يباعوا مع الأرض ، وفي اليمن حين قامت ملكية سبأ وذو ريدان زال الملا اليماني واستندت الملكية إلى شيوخ قبائل إقطاعيين ، فالأرض تعطى لشيوخ القبائل لتتولى هذه زرعها ، وكانت الأرض تعطى في الأصل مقابل خدمة عسكرية ، كما صارت تعطى مقابل دفع مبلغ من المال .[1]

هذا الإقطاع هو الذي كان موجوداً في البلاد المفتوحة ، فلما فتح العرب هذه البلاد اعتبروا أراضي الأسر الحاكمة وأراضي النبلاء الإقطاعيين الكبار الذين هرب جلهم أو قتل أثناء المعارك بالإضافة إلى أراضي معابد النار ، تعود ملكيتها لبيت المال ، ويصرف الخليفة شؤونها كما يريد ، فيعطيها بالمزارعة أو يترك فلاحيها عليها يزرعونها ، وبذلك أصبحت عائدية هذه الأراضي للدولة .[2]

لقد كانت الفتوحات الإسلامية عاملاً هاماً في تدمير الإقطاع القديم في البلاد المفتوحة ، وبذلك بدأ يبرز مفهوم إسلامي جديد للإقطاع يحل محل المفهوم القديم ،[3] حيث أصبح معناه

في البلاد الإسلامية منح الأرض التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور أو منح غلة الأرض في مقابل إعطاء شيء أو ضمانة لبيت المال ، والإقطاع حسب هذا المعنى صار إما إقطاع إقليم بأكمله لعامل من العمال أو يخصص دخل قطعة من الأرض أجراً أو معاشاً ، ثم اتسع مدلول الإقطاع حتى استعمل للدلالة على جمع الضرائب والمكوس والجزية .[٤]

ولتوضيح هذا المفهوم ودلالاته نورد هنا شواهد تاريخية عملية ، ففي خلافة عمر بن الخطاب أقطعت بعض الأراضي ، فقد منح أراضٍ لأفراد من الكوفة ، وقال الليث بن سعد « ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحداً من الناس شيئاً من أرض مصر إلا ابن سندر ، فإنه أقطعه أرض منية الأصبغ ، فلم تزل له حتى مات فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته ، فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل »[٥] . واصطفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته وما هرب عنه أربابه أو هلكوا ، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف درهم وكان يصرفها في مصالح المسلمين ولم يقطع شيئاً منها[٦]

وعندما جاء عثمان توسع في ذلك قال الأعمش عن إبراهيم بن المهاجر عن موسى بن طلحة ، قال : أقطع عثمان رضي الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين وعمار بن ياسر اسنا وأقطع خبابا وصهيبا وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز[٧] . وبشكل عام فقد شجع الخلفاء الأولون القبائل على الهجرة إلى المدن الجديدة والمراكز الأخرى للالتحاق بالقوات المقاتلة وجعلوا ذلك شرطاً للعطاء ، في الوقت الذي أسكنت فيه بعض القبائل في المدن الساحلية (روابط) وأقطعت الأراضي لضمان تموينها واستقرارها .[٨]

ونلاحظ أنه في عهد الخلفاء الراشدين أن المصدر الأول اقطاع الأرض من قبل الخلفاء وأكثر من توسع في ذلك هو عثمان بن عفان ، يقول البلاذري « ومع أن الإقطاعات الممنوحة كانت متواضعة إلا أن بعضها كانت قرية أو ضيعة كبيرة »[٩]

وفي العصر الأموي ، حصل توسع كبير في منح الاقطاعات ، بدأ ذلك في أيام معاوية حيث منح الأراضي واستصفى أراض في سورية اتخذها لنفسه وسار العديد من الخلفاء الأمويين على نفس الطريقة[١٠] والاقطاعات كانت من الصوافي أو من الأرض الموات ،[١٠] وكان الملاكون في العصر الأموي يقيمون في المدن ويديرون مزارعهم بالوكلاء ، وكان بعض الأمراء من أكبر ملاكي عصرهم مثل مسلمة بن عبد الملك ، وأقطع سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب إقطاعاً واسعاً شمل عدداً من الضياع والأنهار ويمثل خالد القسري أوج هذا الاتجاه .[١١]

وفي العصر العباسي استولى العباسيون على ضياع الأمويين وأمرائهم وأحدثوا ديواناً خاصاً للضياع السلطانية ، وكانت الضياع السلطانية واسعة وغنية وموزعة في أرجاء بلاد الخلافة .[١٢] وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) تطورت الحياة الزراعية وتوسعت الملكيات الزراعية وظهر اقطاع يقول عنه الدوري بأنه إقطاع زراعي بصورة واضحة وواسعة وكان للتجارة دور في ذلك .[١٣]

إن هذا الإقطاع الذي استعرضناه من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس حسب دلالاته ومفهومه الإسلامي يجمله المقريزي « بأنه إقطاع العطاء وهو استمرار لما كان موجوداً في صدر الإسلام وظهر واضحاً بهذا المعنى في مصر » .[١٤]

وبدورنا نستطيع القول بأن المفهوم الإسلامي للاقطاع بقي خلال هذه العهود التي ذكرناها هو العطاء وإن حدث توسع في بعض الأحيان لهذا المعنى إلا أنه بقي إقطاع عطاء في مفهومه الواسع ثم من الناحية العملية .

ثانياً : الإقطاع العسكري :

لكن المفهوم السابق بدأ في التغير ، في ظل معطيات جديدة ، تتعلق بمؤثرات تركية ومغولية أو ما يمكن تسميته بالتسلط الأجنبي ، أدت إلى إفراز ما سمي بالإقطاع العسكري .

ففي القرن الثالث الهجري ، اعتمد العباسيون على المرتزقة من الجند الترك ، فأدى ذلك إلى ضعضعة سلطانهم وأكد الحركات الانفصالية والاجتماعية .

والحقيقة أن أصول هذا الإقطاع يجري فيها خلاف بين من بدأ الأخذ به، فبولياك (Poliak) يرى أنه بدأ في دولة محمود الغزنوي ثم انتقل إلى السلاجقة ولكن بوزورث (Bosworth) بين أن الغزنويين الأوائل دفعوا أعطيات الجند بالنقد وأن الإقطاع ظهر لديهم بعد السلطان مسعود وأشار إلى تخمين كوبريلي بأن الغزنويين ربما اقتبسوا ذلك من السلاجقة وترى لامبتون (Lambton) أصول هذا الاقطاع في القرن الرابع الهجري نتيجة الحاجة إلى المال أما كلود كاهين (Cl. Cahen) فيرى جذور الإقطاع العسكري قبل البويهيين ويرى أن خطهم يمثل أوج تطور بدأ بتفوق العسكريين قبل قرن من ذلك .[١٥]

وقد تصدى لهذا الموضوع مؤرخون عرب معاصرون ومنهم أحمد المختار العبادي الذي يرى « أن نظام الملك في عهد السلاجقة كان أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الأتراك ، فبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يقطع إقطاعاً » .[١٦]

أما الدوري فإنه يرى أن خط البويهيين هو بداية مرحلة الإقطاع العسكري وأن السلاجقة أتموا ما بدأه البويهيون ، على أساس أن البويهيين انطلقوا من نظرة قبلية تعتبر الأرض المفتوحة غنيمة بحق ، وأهملوا المفهوم الإسلامي بالنسبة للأرض ، وهذه في اعتقاد الدوري نقطة التحول الهامة في الاقطاع .[١٧]

وهذا الرأي يؤيده إبراهيم علي طرخان حيث يقول « إن الوزير نظام الملك الفارسي الأصل الذي وزر لألب أرسلان (١٠٦٥ - ١٠٧٢) ولابنه ملكشاه من بعده وهما من الأتراك الغز لم يكن المبتكر لهذا النظام وإن كان هو الذي عممه ، فقد سبقه إليه بنو جلدته من البويهيين » .[١٨]

وفي اعتقادي بعد عرض هذه الآراء أن بداية مرحلة الاقطاع العسكري كانت عند البويهيين هي الغالبة مع عدم إنكارنا لأهمية من سبقوا البويهيين أو عاصروهم في هذا المجال .

أما كيف تمت هذه البداية ، فقد حدث أن معز الدولة البويهي ، بعد ضجيج الجند من الديلم ومطالبتهم بالعطاء ، أعطى الإقطاعات لقادته وخاصة الجند بذل العطاء وكانت هذه الاقطاعات من الضياع المصادرة وكذلك من أرض الخراج ، وأعطى إقطاعات لوزرائه وكبار موظفيه ، ثم توسع في إقطاع جنده الأتراك ، وبمرور الزمن توسع هذا الإقطاع العسكري ليشمل معظم المناطق البويهية وانتشر على حساب ضياع الخلافة والصوافي والأملاك الخاصة ، حتى أن عضد الدولة أقطع أراضي الوقف للجند[١٩] .

والتفسير التاريخي لبداية نشوء الإقطاع العسكري يورده الدوري على أساس « أن البويهيين كانوا في وضع حضاري متخلف ألفوا في بلادهم حياة اقطاعية تقوم على رؤساء القوافل (كتخذا) ، وقد جاؤوا على رأس جيش أجنبي من ديلم وترك يعتمدون عليه ، وغلب الاتجاه العسكري في الدولة ، وكان الغزو الأجنبي البويهي فاتحة عهد السيطرة الأجنبية في البلاد العربية وبداية انحراف في التطور الاقتصادي من الاعتماد على التجارة والنقد إلى الاعتماد على الزراعة وإلى نشوء نظام من الإقطاع العسكري ، فبدل أن يدفع البويهيون الرواتب لجندهم ذهبوا إلى

إقطاعهم الأراضي والقرى يأخذون من وارد ضرائبها بدل الرواتب وأعطيت الأراضي التي لم يشملها الإقطاع بالضمان »[٢٠] .

وإقطاع البويهيين يختلف عن النوعين المعروفين من قبل وهما إقطاع التمليك وإقطاع الاستغلال ، فاقطاع التمليك يفترض فيه أن يكون من أرض الموات لإحيائها أو من أرض الصوافي ويعطي صاحبه حق الملكية ويدفع عنه العشر ، أما إقطاع الاستغلال فهو مؤقت وهو شبيه بالمزارعة ويدفع صاحبه عادة الخراج[٢١] .

أما إقطاع البويهيين فهو في الأساس إقطاع لوارد الأرض في أراض لها زرّاعها وملّاكها إلى الجند والقادة ، ومن صفات الإقطاع البويهي العسكري أنه لم يكن من حيث المبدأ وراثياً ، ولم يكن بالضرورة مدى الحياة ، حيث بإمكان الأمير البويهي إلغاء الإقطاع إذا أراد ، كما أن المفروض أن هذا الاقطاع أعطى محل العطاء وأن المقطع مسؤول عن دفع مبلغ للخزينة بالنقد أو النوع[٢٢] . أما الواقع فهو أن الجند عملوا على عدم الوفاء بذلك وتصرفوا وكأن الإقطاعات ملكاً لهم وتركوا الإقطاعات لوكلائهم .[٢٣]

ومن الملاحظ أنه أصبح عند البويهيين اقطاع عسكري ، وأساسه هو أن يعطى بدل العطاء مقابل خدمة المقطع العسكرية ، لكنه لم يكن يعني تنظيماً للسلطة كما في الغرب الوسيط .[٢٤] واقطاع البويهيين كان مستمداً من جذورهم القبلية المبنية على نظرتهم الإقطاعية التي ترى أن الأرض ملك للغالب ، وترى حق الجيش في اقتسام خيراتها .[٢٥]

ثم جاء السلاجقة ، عندما بلغ الاقطاع العسكري شكله المتكامل وأصبح السياسة الرسمية نظرياً وواقعياً .

لقد كان أمام السلاجقة الإقطاع العسكري البويهي والغزنوي ، فقام الوزير نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م) ، وعمل على تنظيم هذا الإقطاع وتعميمه ، والحقيقة أنّ ارتباط نظام الملك بهذا العمل فيه إجماع عند المؤرخين ، فقد وجد أن مملكة السلاجقة قد اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر طاقته .[٢٦] كذلك فقد ورث السلاجقة عن البويهيين تركة اقتصادية متدهورة نجمت عن سوء تصرف بني بويه وخاصة في النواحي المالية[٢٧] ، في الوقت الذي أدى سوء تصرف بني بويه وأعوانهم إلى خراب البلاد فضلاً عن إقصاء السكان العرب عن بلادهم تدريجياً وكثرت الفتن والاضطرابات ، كل هذا حمل أصحاب

السلطة الجديدة في بغداد أي السلاجقة إلى إعادة النظر في النظم القائمة وعلاجها على النحو الذي بدا لهم ، ولذلك قام الوزير نظام الملك من أجل إصلاح هذا الوضع الذي أصبحت فيه الأموال لا تحصل من البلاد حيث أصاب الخلل الإيراد أي الدخل ، ففرق الأرض على الأجناد اقطاعات مما زاد في الدخل بعد توفر المحاصيل وارتفاع إيرادها .(٢٨)

وفي رأي الدوري أن من الأسباب التي جعلت نظام الملك يأخذ بالإقطاع العسكري « أن الدولة السلجوقية لم تعد تستطيع الاعتماد على القبائل التركمانية ، كما كانت الحال في البدء ، وصارت قوّتها بالدرجة الأولى من المماليك والرقيق ، فكان الإقطاع العسكري وسيلة لمواجهة نفقاتهم » .(٢٩)

لقد كانت الدوافع التي جعلت نظام الملك يتخذ الإقطاع العسكري في مجملها ، تدخل ضمن إطار حل مشكلات الدولة السلجوقية ، وعلى أساس أن تسليم الأرض للمقطعين يضمن عمارتها وعناية مقطعيها بها ، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها ، حيث يتم عن طريق النظام الإقطاعي العسكري مواجهة المشكلات التي واجهت الدولة وهذا يمثل جانباً عملياً في عملية الأخذ بهذا النظام .

لذلك سار سلاطين الدولة على ذلك النظام ، فمنحوا القلاع والمدن والولايات إقطاعاً للقادة من مماليكهم وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحروب ، وعلى هذا الأساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام مقسَّماً إلى إقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشاً من المماليك في مختلف الولايات ، حتى إذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة في الحروب ، جاء الوالي المملوكي بمماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة في القتال .(٣٠) بهذا نستطيع القول إن الإقطاع العسكري السلجوقي كان مبنياً على فكرة الإقطاع مقابل الخدمة وفيه استمرار لحدٍ ما لما جرى زمن البويهيين ، لكنه لم يكن على نفس الصورة التي كان عليها زمن البويهيين ، لأنه نظام الملك لم يرغب في أن يكون هذا النظام صورة طبق الأصل لما شهده في العهد البويهي .

لذلك اتجه به نظام الملك نحو مبدأ الوراثة ليحقق به الأغراض التي من أجلها وضع في الدولة السلجوقية ، ووجد أنه بهذا يمكن تحقيق تلك الأغراض ، ولكن لم يظهر مبدأ الوراثة في أيامه بشكل واضح ، من حيث التطبيق ، بل بدأ التطور في هذا الموضوع في أيام نظام الملك إلى أن أصبح اقطاعاً وراثياً في أواخر الفترة السلجوقية .(٣١)

أما المقريزي في خططه فقد ذكر أن السلاجقة عدلوا النظام الإقطاعي فجعلوا الإقطاعات وراثية . ولم يذكر نظام الملك بالاسم كصاحب لهذا التعديل في مقابل الخدمة العسكرية ، ذلك لأنهم كانوا قبيلة من البدو همهم اجتذاب أكبر عدد ممكن إلى الجيش ، وظنوا أنهم بذلك يضمنون لأنفسهم جيشاً مخلصاً ، ويقول المقريزي « إن جندياً في جيش الأمير السلجوقي أتابك[٣٢] ، نور الدين صاحب حلب قال : الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا ، الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها »[٣٣] .

ومن الأسس التي وضعها نظام الملك في الاقطاع العسكري السلجوقي واختلفت عنه في عهد البويهيين تفريقه لإقطاع الجندي الواحد في بلاد مختلفة ولم يجعله جملة واحدة في بلد واحد ، فقد جعل نصفه أحياناً على بلد في آسية الصغرى ونصفه أحياناً على بلد في أقصى خراسان .[٣٤] حتى لا يقوى المقطع بما يكون له من عصبية وقوة قد تكون خطراً على الدولة ، واتخاذ نظام الملك هذا الأساس كان إجراءً وقائياً ليحد من خطورة المقطع على السلطة المركزية .

ومما يجدر ذكره أن هذا التطور الذي حدث في الإقطاع العسكري السلجوقي كان مستمداً من نظرة السلاجقة القبلية التي تستند إلى الملكية المشتركة للأرض وتراث البويهيين في الإقطاع العسكري ، ثم أن نظرة الدولة السلجوقية كما عرضها نظام الملك كانت مبنية على أساس بأن الأرض وأهلها تعود للسلطان ، وهذه النظرة أكسبت الإقطاع العسكري أساساً نظرياً بالإضافة إلى أسسه العملية التي قام عليها .

كذلك فإن الإقطاع العسكري السلجوقي الذي كانت مظاهره الواضحة قد ظهرت أيام قوة السلاجقة والذي بني على أشخاص من كبار مماليكهم أطلق عليهم الأتابكة ومنحوا الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شؤون الأبناء وتأدية الخدمة العسكرية وقت الحرب ، هؤلاء الأتابكة سرعان ما صاروا أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات حيث انتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ،[٣٥] وعن طريق هؤلاء انتقل الإقطاع العسكري واستقرت مبادئه في الدول التي نبتت وتفرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثتهم من بعد ومن هذه الدول ، الدولة الزنكية .[٣٦]

أما الفاطميون ، فعهدهم يمثل فترة انتقالية ما بين الزنكيين والأيوبيين من ناحية الإقطاع العسكري ، فالتطورات التي حصلت في عهدهم مهّدت لإدخال الإقطاع العسكري إلى دولة

الأيوبيين ، في الوقت الذي كان طبيعياً أن تسير الدولة الأيوبية في التوزيع الإقطاعي العسكري على سنن أساتذتها من السلاجقة وآل زنكي .

لقد بدأ صلاح الدين الأيوبي فعلاً منذ صار نائباً لنور الدين بعد وفاة العاضد عام ١١٧١ م وقبل أن يستقل بالبلاد ، يقول المقريزي « وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فإن أراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » .[٣٧]

وفي مكان آخر من خططه يقول المقريزي « واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيهما قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم ـ أي منذ زمن المقريزي في القرن الخامس عشر الميلادي وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات ،[٣٨] معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم » .[٣٩]

وما نستنتجه من المقريزي أن الإقطاع العسكري دخل مصر بدخول صلاح الدين الأيوبي إليها وعلى أساس أنه لأول مرة تم فيها توزيع البلاد إقطاعات بين السلطان وجنوده .

ثالثا : النظام الإقطاعي في عهد المماليك

استمد النظام الإقطاعي المملوكي مقوماته الأساسية من عنصرين : الأول الإقطاع الإسلامي السلجوقي والأيوبي خاصة ، والثاني الإقطاع اللاتيني على النحو الذي نقله الصليبيون من بلادهم إلى الإمارات التي كونوها في الشرق الأدنى الإسلامي والمسيحي على السواء .[٤٠]

والحقيقة أن معظم مقومات الإقطاع المملوكي جاءت من الإقطاع السلجوقي والأيوبي ، أما ما جاء من الإقطاع اللاتيني ، فقد حدث تأثيره في فجر عهد المماليك ، وهو تأثير ضعيف .[٤١]

لقد كانت دولة المماليك دولة إقطاعية ،[٤٢] واعتبر عهد سلاطين هذه الدولة (١٢٥٠ – ١٥١٧) العصر الذي اكتملت فيه النظم الإقطاعية الحربية في منطقة الشرق الأدنى ، فقد نشأ المماليك في هذا النظام زمن الأيوبيين وأقاموا دولتهم الإقطاعية الكبرى على أنقاض دولة أساتذتهم من الأيوبيين واعتبرت الأرض ملكاً للسلطان وجنوده وهو الاعتبار الذي وضح زمن السلاجقة .

ومما يجدر ذكره أن السلاطين من بني أيوب اصطنعوا طوائف من الأجناد المماليك ووضعوا لإعدادهم والترقي بهم وتوليتهم المناصب نظماً خاصة واقطعوهم الأراضي حتى تولى المماليك الحكم ، فذهبوا في تطبيق هذا النظام إلى غايته ، وربطوا بين نظام الأراضي والأداة العسكرية على نحو لم تعرفه الدولة الإسلامية من قبل حتى أصبحت الأرض وكأن لا وظيفة لها إلا « إعاشة الأجناد ، وأصبح هؤلاء المماليك الذين تولوا السلطة يشكلون طبقة حاكمة منظمة بشكل جيوش اقطاعية في غالبيتها من عناصر أجنبية الأصل ، ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان أكثرهم من الأورود الذهبي (القبائل التترية في روسيا الشرقية) وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر كان معظمهم من القوقازيين والجراكسة بنوع أخص وكل هؤلاء كانوا ينسبون أنفسهم إلى الأتراك .[٤٣]

من هنا كانت أصول الإقطاع المملوكي ، إقطاعاً حربياً في صفاته العامة ولذلك يقول المقريزي « إن أرض مصر زمن المماليك كانت تنقسم إلى سبعة أقسام :

١ ـ قسم يجري في ديوان السلطان وهو ثلاثة منه ما يجري في ديوان الوزارة وما يجري في ديوان الخاص وما يجري في المفرد .

٢ ـ والقسم الثاني أقطعية السلطان للأمراء والجند .

٣ ـ وقسم جعل وقفاً على الجوامع والمدارس .

٤ ـ أرض الأحباس .

٥ ـ ملك يباع ويشترى ويورث .

٦ ـ قسم لا يزرع للعجز من زراعته .

٧ ـ قسم لا يصله ماء النيل فهو قفر ولا يزال كذلك .[٤٤]

وما تجدر ملاحظته في هذا التقسيم ، القسم الثاني وهو الإقطاع الحربي ، ومع ذلك فإن جميع الأقسام الأخرى رغم مسمياتها المختلفة تعرضت للتوزيع الإقطاعي ، يقول القلقشندي « كانت البلاد بجملتها جارية في الدواوين السلطانية وإقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا النزر اليسير مما يجري في وقف ملوك مصر على الجوامع والمدارس والخوانق ونحوهما مما لا يعتد به لقتله » .[٤٥]

إن هذا النظام الإقطاعي المملوكي العسكري الذي شمل معظم أراضي الدولة المملوكية

تميز باكتمال النظم العسكرية فيه وبالتالي فلا بد من الخوض فيه لإبراز صفاته العملية ومنهجه الذي سار فيه المماليك كدولة إقطاعية عسكرية .

الإقطاعية[٤٦] ، في عهد المماليك هي كناية عن إخاذة (تعرف بالخبز أو المثال)[٤٧] تمنحها الدولة للأمراء والفرسان وتعتبر ملكاً مؤقتاً لهم يستغلونه حسبما يشاؤون ، إذ تتنازل الدولة عن هذه الإقطاعات فتتقسم على الأمراء والفرسان تبعاً لرتبهم العسكرية[٤٨] . كتب القلقشندي « تجري الاقطاعات في الدولة المملوكية على الأمراء والجند وعامة اقطاعاتهم بلاد وأرض يستغلها مقطعها ، ويتصرف فيها كيف شاء ، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل ويختلف باختلاف أربابها » .[٤٩] لكن تراعي الدولة أن يكون دخل الإقطاعية كافياً لسد فاقتهم ، لذا كانت الدولة تفرض على آخذي معظم الإقطاعات الصالحة للزراعة رسماً أو ضريبة تدفع من دخلها في بدء كل عام للحكومة الرئيسية ، كذلك فإن الإقطاعات لم تقتصر على مختلف أنواع الأراضي بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة وهذا ما يؤكده القلقشندي حيث يقول « صارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأراضي والجزية وزكاة المواشي والمعادن والعشر وغير ذلك .[٥٠]

لقد تركزت غالبية الإقطاعات في العهد المملوكي في رجال السيف ، وتنصرف كلمة رجال السيف إلى السلطان وأمرائه وأجناده أي إلى الجيش المملوكي بأجناسه وفرقه المختلفة ، فقد كان الجيش المملوكي جيشاً إقطاعياً يتألف من ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول : أجناد الحلقة ، وهم فرسان يأتمرون بإرادة السلطان دون أن يكونوا ملكاً له .[٥١]

القسم الثاني : يعرف بالمماليك الملكيين وهم ملك السلطان ينعتون بالمشتروات والسلطانية والسيفية .

القسم الثالث : يشتمل على الأمراء ومماليكهم .[٥٢]

ومما يجدر ذكره أن أول رجال السيف هو السلطان ، ويعرف إقطاعة باسم الخاص السلطاني ، والخاص السلطاني غير الأملاك الشريفة السلطانية ، فالخاص هو الإقطاع الذي يحوزه السلطان ، وحسب القاعدة العامة في التوزيع الإقطاعي ، فقد كان خراج مصر يقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، توزع أجزاؤها على القرى توزيعاً متناسباً مع طاقتها ، فقد اختص السلطان

فيها بأربعة قراريط وعشرة قراريط للأمراء والعشرة قراريط الباقية اختص بها أجناد الحلقة .[٥٣] .

ومن خلال مبدأ التوزيع الإقطاعي الذي كانت تقوم عليه دولة المماليك فإن الأراضي المقطعة كانت ثلاث درجات من حيث الري والخصوبة ووفرة الإنتاج وبطبيعة الحال فقد اختص السلطان وكبار أمرائه على قدر منازلهم بأجور هذه الأراضي ويسمي القلقشندي هذا النوع من الأراضي (البلاد النفعية الكثيرة التحصيل) أما المتوسطة الجودة فتقطع للمماليك السلطانية ويلي ذلك أرض الدرجة الثالثة ، وهذه تقطع لأجناد الحلقة والعربان والتركمان .[٥٤]

لقد كان طبيعياً بعد أن ترسخت أقدام النظام الاقطاعي العسكري ، أن تحدث فيه تطورات في أجهزته المتعددة ، بعد أن تعدى مرحلة فجر دولة المماليك وأن تصبح له قواعد معينة وثابتة تغطي كافة إداراته ليصل هذا التطور إلى مرحلة اكتمال الصفة العسكرية لهذا النظام ولتصبح دولة المماليك دولة اقطاعية عسكرية بمعنى الكلمة .

لقد أصبح لهذا النظام إدارة ، وتشمل هذه الإدارة ورأسها السلطان : الدواوين والموظفين المنوط بهم أمر النظر في الإقطاع ، وأول هذه الدواوين ديوان الجيش فهو مظنة الإقطاعات أي سجلها على قول القلقشندي ،[٥٥] ويسميه المقريزي أيضا ديوان الإقطاع ،[٥٦] فقد كان عبارة عن مجلس حكومي مختص بحق إسناد الإقطاعات ومراقبتها ، وله مكتب رئيسي في القاهرة وينقسم إلى فرعين :

١ ــ ديوان الجيش المصري مخصص لمصر .

٢ ــ ديوان الجيش الشامي مخصص بالإقطاعات السورية واللبنانية والفلسطينية .[٥٧] .

وكان هذا الديوان من أكبر الدواوين المختصة بالشؤون المالية .[٥٨] حيث تحسب فيه مدخول الإقطاعات .[٥٩]

وقد برزت أهمية الدواوين في النظام الإقطاعي المملوكي عندما أدخلت اقطاعات السلطان في الدواوين السلطانية التي تقع في أربعة أصناف واعتبر ذلك تطوراً ملحوظاً في إدارة الإقطاع المملوكي ، وهذه الأصناف الأربعة هي :

الصنف الأول يشرف عليه ديوان الوزارة والصنف الثاني ويشرف عليه ديوان الخاص ،

وفي عهد السلطان برقوق تطور الإقطاع مرة أخرى بإنشاء الديوان المفرد الذي أفرد له السطان بلاداً معينة ، ثم أحدث ديواناً آخر هو ديوان الأملاك .(٦٠)

ومن مظاهر اكتمال النظام الإقطاعي المملوكي عملية التوزيع الإقطاعي التي كانت تتم ضمن أسس معينة تخضع لأحوال عديدة وعوامل متعددة .

ومن هذه الأحوال وهي أحوال عامة ، وهي أنه عند قيام سلطان جديد يعمل هذا السلطان على تدعيم عرشه ، حتى لو اقتضى ذلك مجاملة سلفه المعزول ، خاصة وأن تغير السلطان يقترن في معظم الأحوال بكثير من إحداث الفتن والمنافسة ، فلا بد لولي الأمر الجديد من إجراء حركة توزيع ومناقلات أو زيادة أو عزل . أو أثناء قيام أحد الأمراء بتدبير المملكة نيابة عن السلطان الذي لم يبلغ سن الرشد أو عند انحلال الإقطاع بسبب وفاة صاحبه أو مصرعه .(٦١)

كذلك إذا ما اتسعت رقعة الأرض سواء أكان بالفتح الخارجي أم بإصلاح الأراضي البور وزعها ولي الأمر اقطاعات بين أقرانه وأجناده وسائر المماليك على هذه القاعدة حسب أصول شرعية(٦٢) ، ومن الوسائل العامة العادية الكثيرة الوقوع في عصر المماليك في التوزيع الإقطاعي ما هو معروف بعبارة عرض الجند .(٦٣)

ومما يجدر ذكره أن هذه التوزيعات قد تكون محلية وفي نطاق محدود وقد تكون عامة شاملة وهناك توزيعات إقطاعية تتم ضمن أحوالاً ثانوية يمكن أن يتم فيها التوزيع الإقطاعي عند المماليك كأن يكون للسلطان هواية خاصة فيمنح في سبيلها الإقطاعات الواسعة وبعض الأحوال الأخرى .(٦٤)

ولكن يبقى أنه قد توجد عوامل تدفع ولي الأمر إلى إعادة النظر في التوزيع الإقطاعي إعادة شاملة عامة ومن هذه العوامل : الغامل المالي والاجتماعي .

فكثيراً ما يحدث هذا التوزيع عند حاجة السلطان إلى المال لإعداد الجيوش وقت الحرب أو استجابة لرغبة في الانتقام من منافسيه ، وفي مثل هذه الأحوال وقع الاعتداء على الأوقاف الإسلامية والذمية بالحل والإقطاع .(٦٥)

ومن خلال العامل المالي والاجتماعي كان يتم التوزيع الإقطاعي كأن يتظلم الأمراء المقطعون من تراكم الخراج عليهم وعجزهم عن الدفع أو يشكو بعض الأجناد من معاملة أمرائهم ، لهذا

يجد ولي الأمر نفسه مضطراً في سبيل الإصلاح لإعادة النظر في التوزيع الإقطاعي بشكل شامل فيقوم بمسح الأراضي لحصرها ، وعرفت هذه العملية في المصطلح باسم الروك .[٦٦] وفكرة الروك كما يقول بولياك « مقتبسة عن المغول والفكرة في تطبيقها عملياً مأخوذة من التقسيم السنوي الذي يحدث في القرى كل عام » . والحقيقة فإن الروك ليس من مبتكرات المماليك أو النظام الإقطاعي المملوكي فهو نظام قديم عرفته مصر منذ فجر الإسلام ، فقد جاءت تفاصيل تنفيذ فكرة الروك من نظام تقسيم الأراضي وتوزيعها الذي يجري بين سكان القرية منذ القديم ، إذ تقرر فرض الضرائب على قاعدة ما تنتجه مساحة معينة من المحصول[٦٧] ويذكر بولياك أيضاً أن تعبير الروك استعمل بمعنى التقسيم السنوي لممتلكات الدولة على دافعي الضرائب زمن الفاطميين وهذا التقسيم كان مسبوقاً بقياس المساحة ، لكنه لم يكن صورة طبق الأصل « لروك » المماليك فيما يختص في تقسيم مشاعات القرى .[٦٨]

أما عملية الروك التي تمت في عهد المماليك فالذي هدف إليه سلاطين المماليك هو وضع حد نهائي للروك أي تقسيم الأراضي بين الإقطاعيين والسلطان ، والتقسيم يجري على الوجه التالي ؛ يأمر السلطان بإجراء كشف مستعجل يطلق عليه اسم كشف البلاد ، ثم تقسيم الأملاك بين السلطان والإقطاعيين ، وقد ضمت الدولة ثلاثة أنواع من الروك : روك الحسامي في مصر والروك الناصري في سورية ولبنان وفلسطين والروك الناصري في مصر .[٦٩]

ومن الأسس التي قام عليها الإقطاع المملوكي وأعطته شكلاً ثابتاً ما يسمى بالواجبات والحقوق الإقطاعية . ويمكن دراسة ذلك من جانبين ، أحدهما أدبي والآخر مادي ، فمن حيث الجانب الأدبي للالتزامات يقوم المقطع بأداء يمين الولاء لسيده وهو ولي الأمر القائم بوصفه سلطاناً .

أما الجانب المادي فأهمه أداء الخدمة الحربية ، وهي الأساس في حيازة الإقطاع ، حتى إذا عجز الأمير ،[٧٠] عن أداء هذه الخدمة أقام بديلاً عنه ، بل عليه أن يدفع قدراً من المال إذا لم يستطع إقامة البديل ، وهذا يؤكد خطورة الالتزام الحربي ، في الوقت الذي يتوجب على الأمير أن يقوم ضمن هذا الإلتزام بأعمال حفظ الأمن وما يتعلق بها في الداخل والخارج .

إن موضوع الواجبات بطابعها المادي قد أعطت التطور في الإقطاع المظهر الأساسي وهو المظهر العسكري ، ولذلك تقدمت مرتبة أرباب السيوف على رتبة أرباب الأقلام ولذلك فالخدمة العسكرية هي الأساس الأول لحيازة الإقطاع .

ومن مظاهر هذه الخدمة الحربية التي تميز بها الإقطاع المملوكي أن المقطع يلبي نداء ولي الأمر في وقت الحرب مع أتباعه من الفرسان المجهزين في أي وقت ولأي فترة .[٧١] ومن الجانب المادي في الواجبات : الناحية المالية ، فالمقطع ملزم بدفع الخراج ، المقرر على الإقطاعات وهو من أهم مصادر بيت المال ، ويقول القلقشندي ، هي جل البلاد في الوجهين البحري والقبلي .[٧٢]

أما الحقوق التي يتمتع بها المقطع نظير تقديمه الإلتزامات السابقة فمنها : الجانب الأدبي ، الألقاب والنعوت التي تخلع عليه وتنسب إلى الجهاد الديني لإشعال الحماس الديني وقتئذ كسيف الدين وعز الدين وركن الدين وهكذا ، يقول القلقشندي « إن المماليك ورثوا هذه الألقاب عن أساتذتهم الأيوبيين وهؤلاء ورثوها عن آل زنكي » .[٧٣]

أما الحقوق المادية التي ينالها المقطع غير المتمتع بغلة إقطاعه ما عرف بآسم الاطلاقات وهي التي يحوزها من ولي الأمر ، وهناك المنح والمخصصات التي تعطى له بحكم العرف .[٧٤]

إن هذه القواعد والأسس التي بني عليها الإقطاع المملوكي وجعلت منه إقطاعاً حربياً متكاملاً ، وأصبح النظام السائد في دولة المماليك إلى الحد الذي أصبحت فيه تنعت بأنها دولة إقطاعية حربية ، هذه القواعد والأسس كان لها ظواهر ميزت هذا الإقطاع .

ومن هذه الظواهر ظاهرة كبرى ميزت الإقطاع المملوكي وهي ظاهرة المناقلات الإقطاعية ، ينفرد بها هذا النظام عن غيره من النظم المشابهة .

والمناقلات الإقطاعية تعبير ساد في مصطلح النظام الإقطاعي في مصر والشام في عصر السلاطين المماليك للدلالة على انتقال الإقطاع الواحد من يد إلى أخرى حسبما يرى السلطان ، وانفرد النظام الإقطاعي بهذه الخاصة لارتباط الإقطاعات بالوظائف والخدمات التي يؤديها المقطعون للدولة في شخص السلطان ، وما المقطعون على أخلافهم إلا موظفون في حكومة مركزية على أشد ما تكون المركزية .[٧٥]

والحقيقة التي يمكن أن نتوصل إليها في دراستنا السابقة للإدارة المحلية للإقطاعات واستغلالها أن هناك أربع حقائق كبرى مميزة لهذا الاستغلال المحلي البحت .

أولى هذه الحقائق ، بروز الجانب التقني والتشريع والجدل الفقهي في كيفية تسليم الأرض للفلاحين .

وثانيها أن هذا الاستغلال لم يختلف في تفاصيله في إقطاع السلطان عنه في إقطاع الأمير والفارق في المسميات فقط .

والحقيقة الثالثة لم يعن الأمير المقطع بالإقامة في إقطاعه ليرعى شؤونه ، بل أقام في القاهرة في قصوره أو حيث تكون وظيفته ، وهذه الظاهرة من خصائص النظام الإقطاعي في دولة المماليك ، هو عدم إقامة المقطع في إقطاعه لأن الاقطاع نفسه غير ثابت وغير مضمون البقاء في يد صاحبه في أي وقت . أما أجناد الأمراء فعاش أغلبهم في إقطاعاتهم لأنهم فوق وظيفتهم الحربية التي يؤدونها عند الطلب للنفير العام يتولون شؤون الإدارة الإقطاعية اليومية .

أما الحقيقة الرابعة ، فهي خضوع الاستغلال المحلي لتدخل السلطان ، وهذا التدخل نشأ عن شدة حرصه على حصوله على حقوق من المقطعين وهذا أمر طبيعي في دولة إقطاعية منح الإقطاع فيها كما تمنح الوظائف .[٧٦]

ومما لا شك فيه أن الإقطاع الحربي المملوكي ، بلغ درجة من التنظيم خاصة في أوج دولة المماليك وأصبحت له مظاهره المتعددة وخصائصه الثابتة وساد بطريقة صبغت فيه الدولة بهذه الصبغة التي جعلت منها دولة إقطاعية حربية بكل ما في الكلمة من معنى .

ولكن في أواخر العهد المملوكي دخلت هذا النظام عناصر أفسدته ومهدت لانهياره . ومن هذه العناصر إبطال الاقطاع الوراثي الذي أخذه المماليك عن الأيوبيين ،[٧٧] ففي فجر الدولة المملوكية كانت الإقطاعات وراثية تعطى لولاة السلطان أو لأصحاب القوة البدنية من الورثة بغية مساعدتهم على إتمام الواجب العسكري كفرسان لامعين ،[٧٨] ولكن بمرور الزمن زالت طبقة الإقطاعات الوراثية وأخذ الإقطاعيون يبذلون كل ما في وسعهم ليسجلوا بأسماء سلالاتهم ولو جزءاً يسيراً من ممتلكاتهم .[٧٩] في الوقت الذي حرص فيه أمراء المماليك أنفسهم على ألا تصبح السلطة وراثية وبالتالي ينتقل إقطاع المرشح للسلطة بعد تربعه على عرشها إلى أمير آخر .[٨٠]

ونشير أيضاً إلى ما أصبحت تجري به عادة المماليك من بيع الإقطاعات « الافراغ » أو التنزول عنها ، وبذلك دخلت طوائف شتى من غير أهل الجندية في صفوف الجندية من أهل الحرف أو الفلاحة أو غيرها ، يفيدون من خيراتها ، ولكنهم يتجنبون أعبائها وكذلك سمح لطوائف من الأمراء بأن يوفدوا إلى الحرب من ينوب عنهم ، ولذلك أخذت تنحل الرابطة القائمة

بين الأرض وأهل الجندية ، فكان ذلك أقوى معول هدم للإقطاع الحربي المملوكي والذي مهد لانهيار الدولة المملوكية .[٨١]

إن الإقطاع المملوكي أصبح إلى حدٍ ما في أواخر عهد الدولة المملوكية عبارة عن أداة للتعيش والنفقة على الجند وابتعد عن مجرد أداة للحكم ، كذلك أصبح الأمراء في أكثريتهم منتجين ، وبالتالي فقد برزت في الإقطاع الحربي المملوكي مظاهر جديدة دلت على فقدان أصوله العسكرية وهذا ما أدى إلى أفول هذا النظام ، حيث كانت الصفات العسكرية بارزة فيه في عهد فجر الدولة وفي عنفوان قوتها .

رابعاً : النظام الإقطاعي العثماني

أخذت الدولة العثمانية بالنظام الإقطاعي في وقت مبكر جداً من تاريخ آل عثمان ومن المحتمل أنه قد اتبع بالفعل منذ بداية حكمهم .[٨٢]

لكن لم يكن هذا النظام من اختراع العثمانيين في الإسلام ، فقد اقترب هذا النظام كثيراً من النظام الذي اتخذ في عصر السلاجقة . ويعتقد بعض المؤرخين أن النظام الاقطاعي العثماني مستقى من النظام البيزنطي ، وإذا كان النظام الإقطاعي الذي لجأ إليه السلاجقة في آسيا الصغرى وهو النظام الذي كان النظام العثماني تقليداً مباشراً له قد اختلف عن الإقطاع في الدولة السلجوقية الأم في فارس والعراق ، فقد يكون ذلك لتأثره بالنظام البيزنطي ولا يرجع ذلك إلى أن آسيا الصغرى بقيت بالفعل جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية حتى احتلالها على أيدي السلاجقة ، بل يرجع أيضاً إلى أن آسيا الصغرى بعد الاحتلال الذي لم يكن سوى احتلال جزئي ، ظلت متاخمة لأملاك كانت لا تزال تابعة للدولة البيزنطية ، ولذلك كان من السهل على العثمانيين الاقتباس من النظم البيزنطية وحيث ورثوا أملاك تلك الدولة في أوروبا .[٨٣]

ومما يجدر ذكره أن الدولة العثمانية ظهرت دولة غازية على حدود مدنيات متنافسة ، وظلت دولة غازية في جوهرها على الرغم من كل التطورات التي أعقبت نشوءها ، وهذه النشأة هي التي وسمت الامبراطورية العثمانية بسماتها المميزة ، أي أصبحت دولة عسكرية ، وأصبحت حضارتها القائمة على الحدود المزدوجة أشد تحررا من حضارات البلاد الإسلامية القديمة وأقدر منها على تلقي التأثيرات الجديدة .[٨٤]

لقد نشأت الدولة العثمانية بطبيعة عسكرية ، تحرص على أن يصبح المالك الحقيقي لكل البلاد التي تفتحها ، وبعد نشوئها غلبت النظرية السياسية العثمانية القائمة على حق السلطان المطلق بوصف الامبراطورية ممتلكات خاصة له ، ومن ضمن هذا الإطار تميز الحكم العثماني بأنه حكم عسكري بمعنى أنه يتفرع من الجيش العثماني أداة الحكم في الولايات ، فالجيش أداة للحرب وأداة للحكم معاً .(٨٥) ومن ضمن هذا الإطار أيضاً نظم العثمانيون دولتهم على أساس إقطاعي عسكري ، وأبقت الدولة العثمانية على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة لدى الشعوب الخاضعة حتى افتتاحها ، لذلك بقيت الأرض كالسابق في ظل الإقطاعات القديمة ، ومن هنا اتخذ العثمانيون النظام الإقطاعي المملوكي أساساً في تنظيم الأراضي في البلاد التي كانت تابعة للمماليك فلم تغير السلطنة العثمانية النظام الاجتماعي السياسي أي البنية الاقتصادية القائمة على الإقطاع وإنما غيرت الإقطاعيين وأجرت تقسيمات جديدة .(٨٦)

ما نلاحظه أن النظام الإقطاعي العثماني صاغته مؤثرات حضارية استمدت أصولها من عناصر متعددة ومن طبيعة الدولة العثمانية خاصة من حيث نشأتها كدولة عسكرية غازية .

أما اتجاه العثمانيين نحو الإقطاع وصبغ دولتهم بصبغة إقطاعية كان حصيلة لما سبق ذكره ومحصلة لمتطلبات الدولة العثمانية ، كما أحاط بذلك ظروف وعوامل جعلتهم يأخذون به ويطورونه بالطريقة التي تفي بحاجاتهم الأساسية ضمن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ورثوها ووجدوا أنفسهم في خضمها .

لذلك ومن خلال تلك المنطلقات ، فقد نظم العثمانيون دولتهم على أساس إقطاعي عسكري .(٨٧) ورحب السلاطين العثمانيون به منذ البداية ، لأنهم وجدوا أنه بهذا النظام يوفرون أسباب العيش لفئات مختلفة من الجند ، بدلاً من النفقة عليهم باعتبارهم قوة ثابتة ، وقد تضمن منح أراض لهؤلاء المحاربين ، وفي مقابل ذلك كانوا يلزمون بأداء الخدمة العسكرية ، لهذا كان عليهم أن يجهزوا أنفسهم ويعدوا الخيل ليس فقط لأنفسهم ، ولكن عادة لعدد من الأتباع يختلف باختلاف مساحة كل إقطاع ، وعلى هذا النحو وجدت الإقطاعات .(٨٨)

لقد كان ضروريا بالنسبة للعثمانيين لاتصاف دولتهم بالطبيعة العسكرية أن يكون هناك جيش متأهب للسير لدى أية إشارة ، لأن الحرب عند دولة غازية كالامبراطورية العثمانية كانت حالة تكون دائمة ، ولما كانت الفضة وهي العملة الوحيدة في تلك الأيام نادرة ، فقد كانت الدولة العثمانية مضطرة أن تجمع موردها المالي الرئيسي وهو في هيئة سلع ، وهذه الضرورة ألجأتها

إلى أن تقسم الأرض المفتوحة بين جنودها الكثيرين مع تخصيص هذه الضرائب رواتب لهم .(٨٩)

وكان من أغراض الدولة العثمانية من النظام الإقطاعي وخاصة في بداية عهدها أن تخفف عن الإدارة المالية للدولة عبء جمع الضرائب وأداء مرتبات الجند نقداً في الوقت الذي يتم فيه ربط الفرسان بالأرض خاصة في فترة الاتساع السريع للامبراطورية والفتوح الجديدة مما أوجد طبقة من الفرسان المسلمين المرتبطين بالفاتحين وهذا حال دون اتخاذ الفتوح مجرد احتلال عسكري ،(٩٠) في الوقت الذي ضمن فيه سلاطين الدولة العثمانية زراعة الأرض وضمنوا من جهة أخرى الحصول في أوقات الحرب على قوات لازمة دون تكاليف تذكر لأن صاحب الإقطاع كان يأتي للحرب ومعه سلاحه وجواده ، وهذا يفسر لماذا طبق نظام الإقطاع على فرق الفرسان في الجيش العثماني دون المشاة ، ثم إن هذا النظام كان يغني الدولة عن دفع مرتبات الجنود أوقات السلم .(٩١)

وللخوض في الإقطاع العثماني لإدراك تفاصيله ومدلولاته لابد من التعرض لأنواعه وواجبات المقطعين وحقوقهم ، ثم خصائص ذلك النظام وأخيراً تدهوره وانحلاله .

والخوض في أنواعه يتم عن طريقين : الأول الهيكل الذي بني عليه وهو التنظيم العسكري الذي تميزت به الدولة العثمانية ، والطريق الثاني هو الأرض التي تمثل الأساس الذي يشكل الإقطاعات ، أو بمعنى آخر للإقطاع العثماني وجهان عسكري وأرضي .

لقد سيطر على الدولة العثمانية منذ بداية تكوينها وخلال نموها المبكر فئة المحاربين المسلمين أحرار المولد ، وقد شكل هؤلاء المحاربون طبقة عسكرية إسلامية (السباهيون)(٩٢) ، الذين يتشكلون ضمن مجموع النظام الاجتماعي العثماني والذين يؤلفون خيالة إقليمية في المقاطعات ،(٩٣) ، وينسب تنظيمها إلى الوزير (ديمور طاش باشا) في عهد مراد الأول (١٣٥٩ ميلادية - ١٣٨٩) ، وجعل إعلامهم اللون الأحمر والذي أصبح شعار الدولة العثمانية .(٩٤)

لقد خصصت الدولة للسباهيين ملكيات عقارية ، من خلال الإقطاعات التي أوجدتها لإعالة هؤلاء الفرسان والتي كانت تعرف باسم دير يلكات (جمع دير يلك) بمعنى رزق .(٩٥)

وفي هذه الحالة كانت هذه الإقطاعات تسمى تيمار وزعامت .[٩٦] وتؤخذ أصلاً من أراضي الدولة (الأراضي الميرية) أو الميري وهي أكثر أنواع الأراضي انتشاراً .[٩٧]

وكان التمييز بين التيمار والزعامت تمييزاً مالياً ، فالإقطاع الذين يدر دخلاً يتراوح بين ٢,٠٠٠ و ٣,٠٠٠ إلى ١٩,٩٩٩ أقجة ،[٩٨] سنوياً كان يسمى تيماراً ، أما الإقطاع الذي يدر أكثر من ذلك إلى ٩٩,٩٩٩ أقجة ، فكان يسمى زعامت ، وكل واحد من الإقطاعين كان من الممكن أن يتكون من جزئين هما الأرض الأصلية المسماة « قليج »[٩٩] ، والإضافات المسماة « ترقى » التي تمنح كل منها بقصد توفير عشر الدخول التي يدرها « القليج » وكانت أجزاء الإقطاع المكتوبة من هذه الإضافات تسمى حصة[١٠٠] وفي حالة شغورها ـ بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة إلى القليج ـ كان من اقتطاعها منه من جديد وإضافتها إلى ملكيات أخرى .[١٠١]

ويذكر جب وبوون سبب وضع هذه القاعدة « بقصد تشجيع فرسان السباهي » على القيام بمهامهم على أكمل وجه ، فإلى جانب إمكان تجريدهم من أملاكهم بشكل مؤقت أو دائم في حالة عدم قيامهم بواجبهم على الوجه المرضي يجزي المالك الذي يقوم بواجبه على نحو مرض بمثل هذه الترقيات[١٠٢] » والذي كان يحدث أن السباهية العاديين من أصحاب التيمارات كانوا في فجر تاريخ الدولة على الأقل يطمحون إلى الترقي إلى مرتبة زعيم أي صاحب زعامت » ، وكان كبار الضباط من السباهي هم حكام الولايات .

أما الفئة الثالثة في الإقطاعات فكانت أكبر من زعامت وتسمى خاص ، وهي الإقطاع الكبير الذي يزيد واردها على ١٠٠,٠٠٠ أقجة ،[١٠٣] وكان بعضها من هذا النوع ملكاً خاصاً للسلطان وتسمى خواصي همايون ،[١٠٤] ويمنح بعضها الآخر للولاة وأفراد الأسر الحاكمة والمقربين إليهم ، كما ألحق ببعض المناصب الإدارية لينفق أصحاب هذه المناصب من وارداته .[١٠٥]

ومن أنواع الإقطاعات نوع رابع يعطى للعسكر وهم طائفة المسلمين المستقرين الذين يبدو أنهم كانوا أصلاً من البدو وكذلك من الجنس التركي ، ومع ذلك ففي مقابل التعهد بخدمة السلاطين بانتظام كان كل منهم يمنح قطعة صغيرة من الأرض يعفى من دفع أية عشور أو ضرائب عنها ، ومن هنا جاء اسم مسلم ، بمعنى معفي ،[١٠٦] وكانوا يقولون أنفسهم باستثمار أراضيهم ،

فلا يقبضون أية رواتب ، ومن هنا كان وضعهم شبيهاً بوضع السباهية الذين كانوا خيالة مثلهم .[١٠٧]

أما منح الإقطاعات السابقة فقد كان في الأصل يتم على يد أعلى الإقطاعيين مرتبة وهم بكوات البكوات (جمع بكلر بكي) ، وحين يمنح البكلربك الإقطاع كان يعطي صاحب الإقطاع شهادة الحق الامتلاك تسمى براءة ، ولكن الحكومة المركزية سحبت هذا الحق في عام ١٥٣٠ في عهد السلطان سليمان القانوني ،[١٠٨] وحينئذ كان بكوات البكوات لا يفعلون أكثر من تزويد المرشح لأحد الإقطاعات بمذكرة أو خطاب توصية يسمى تذكرة « تقدم إلى مكتب خاص في العاصمة » .[١٠٩]

مما لا شك فيه أن السباهية كانوا يشكلون العمود الفقري في النظام الإقطاعي العسكري العثماني فكانت عليهم واجبات ولهم حقوق ، فقد كان من واجبهم أن يقوموا مقابل إقطاعهم الإقطاعات أن يخرجوا إلى الحرب متى دعوا إلى ذلك في نظير الإيرادات التي كانوا يستمتعون بها ، وإن سمح لهم في أوقات متأخرة بعدم الخروج إلى الحرب بشرط أن يقدموا بدلاً معيناً ، لكن بقي الواجب الأساسي الذي يقدمه الإقطاعي هو الخدمة العسكرية .[١١٠] ولذلك فإن المصادر تشير إلى أنه نتيجة للنظام الإقطاعي العثماني ، فإنه في عهد سليمان القانوني كانت الأراضي المقطعة في أوروبا تقدم إلى الدولة نحواً من ٨٠,٠٠٠ فارس ، في حين كانت الأراضي المقطعة في آسيا تقدم نحو ٥٠,٠٠٠ فارس ،[١١١] وفي بعض الأحوال فإن مجموع القوة التي كان يقدمها السباهية مع أتباعهم كانت تصل في بعض الأوقات إلى حوالي مائتي ألف (بما في ذلك الأتباع الذين كانت تقدمهم الإقطاعات الخاصة ، وقد قدرت مراجع مجموع القوة المجموعة من الإقطاعات في إبان عظمة الامبراطورية بما لا يزيد على ١٤٠ ألفا أو ١٥٠ ألفا[١١٢] ، وهذه الأرقام وإن دخلها التخمين لأن الدولة العثمانية لم تكن تستطيع التأكد من الأعداد التي تحت يدها ، إلا أنه كانت لها دلالاتها العسكرية .

وفي مقابل هذه الواجبات التي يقدمها أصحاب الإقطاعات ، أعطيت لهم حقوق ، فقد خولتهم العهود التي منحتهم إياها السلطان ، أن يجمعوا لأنفسهم ضرائب معينة على الأرض ، كما أنهم باعتبارهم ممثلي الدولة فقد منحوا حقوقاً في الإشراف على استعمال الأرض وتحويلها ، ولكن حدود سلطتهم وتفصيلات دخلهم ، كانت محددة تحديداً واضحاً في الدفاتر وفي صحف

« القانون نامة ويدخلون ضمن رقابة شديدة تقوم بها الحكومة المركزية ، مع أنهم كانوا يقومون بمهمات إدارية معينة لصالح السلطنة في إدارة مناطقهم وضبط الأمن » .[١١٣]

كذلك فإن منح مقاطعة من المقاطعات إلى شخص من الأشخاص ما كان يعني تمليكه القرى والأراضي التي تؤلف تلك المقاطعة ، إنما كان يعني تفويضه حق جباية الأعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها وكانت الأراضي والقرى والمزارع تبقى تحت تصرف مالكيها على أن يدفعوا الضرائب التي تفرض عليها إلى صاحب المقاطعة أو من يوكله تسليمها[١١٤] . وبالتالي فإنهم لم يمارسوا أية سيادة أو سلطة اقطاعية على الفلاحين الذين كانوا يعملون في إقطاعاتهم ، وكان للفلاحين في الواقع الإجارة الوراثية المضمونة على القطع التي يفلحونها ، في حين لم يكن للتيماريين مثل ذلك ، فلم تكن التيمارات قابلة للتوريث وعند قيام كل سلطان جديد كان يجري تغيير الحائزين بصورة منتظمة لمنع تحصنهم .[١١٥]

لكن من الحقوق الثابتة لصاحب الإقطاع أنه كان يتمتع به مدى الحياة ما دام يؤدي واجباته العسكرية طيلة هذه الحياة على ما يرام ، ولكون الإقطاع لا يورث بل يعود إلى الدولة في حالة وفاة صاحبه ،[١١٦] فإنه يمكن أن ينتقل إقطاعه إلى أولاده وهذا ما كان يحدث في الغالب ، لكن يمنح هؤلاء عقداً جديداً يدفعون بموجبه بدلاً نقدياً للخزينة .[١١٧]

أما محمد فريد فإنه يذكر أنه كانت إقطاعات التيمار والزعامت تورث ، لكن لا يرثها إلا الذكور من الأعقاب ، وإذا انقرضت الذرية الذكور يعود الإقطاع إلى الحكومة وهي تقطعها إلى جندي آخر بنفس الشروط السابقة ، وهي أن يسكن الجندي المقطع في أرضه وقت السلم ويقعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته ، وأن يقدم جندياً آخر معه .[١١٨]

وما يجدر ذكره أن النظام الإقطاعي العسكري الذي ألمحنا إليه في الدولة العثمانية لم يكن عاما ، بل إنه تمثل واستقر في الأناضول والأجزاء الأوروبية من الامبراطورية أو بالأحرى ، فإن نظام الإقطاعية العسكرية كان سائداً فقط في آسيا الصغرى وفي شبه جزيرة البلقان ، أي أنها كانت داخلة في نظام التيمار والزعامت . أما في العالم العربي ، فكان هذا النظام موجوداً في بعض مناطق الحدود الواقعة شمال سورية والعراق وبعض مناطق حلب والموصل وطرابلس الشام ودمشق[١١٩] ، في حين أن معظم الإقطار العربية الأخرى ، الجزيرة العربية والعراق ومصر ، فقد كان الشائع إعطاء مقاطعات أو ولايات مقابل دفع مبلغ للسلطان ، وقدر محدود من الضرائب للخزينة ، لأنه عندما فتح السلطان سليم الأول الشام ومصر ١٥١٦ م مسح الأرض

من جديد وقسمها من حيث هي إلى أملاك واقطاعات سلطانية وفقاً للنظم العثمانية ، ففي مصر استقى بصورة عامة نظام تملك الأراضي الإقطاعية الذي كان سائداً في عهد سلاطين المماليك وكانت تعود كافة الأراضي إلى الإقطاعيين ، كذلك احتفظ الأتراك بالنظام الإقطاعي في سورية ولبنان على غرار ما فعلوه في مصر فظلت الأراضي في أيدي الأشراف الإقطاعيين العرب المحليين ، بالإضافة إلى المقطعين الأتراك وشيوخ القبائل بأسلوب شبه وراثي .(١٢٠)

وفي العراق كان السلطان يمنح أجزاء من أرضه إقطاعات لخاصته وأصفيائه على أن يؤدوا له نظير ذلك خدمات حربية وقت اللزوم ، وقد كان في هذا النظام فائدة نسبية للسلطان ، ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلاً ، إذ أخذ أصحاب الإقطاعات في العراق يقصرون في تقديم الجنود لأن السلطان لم يعد يهب الإقطاعات للقادرين من رجاله بل للمحببين إليه ، وإزاء هذا المقطع يهمل هذا الواجب ويكتفي بجمع المال للسلطان تماماً كما كان يحدث في أقطار عربية أخرى .(١٢١)

وهذا يعني أن الدولة العثمانية بالنسبة للإقطاع شهدت نظامين :

١ ــ النظام الإقطاعي العسكري .

٢ ــ مقاطعات أو ولايات مقابل دفع مبلغ للسلطان وقدر محدد من الضرائب للخزينة .

ويمكن إرجاع ذلك إلى أصول تاريخية وجغرافية ساعدت على هذا التمييز فالتنظيم الإقطاعي العسكري لم يمتد قط بشكل كامل إلى الأراضي العربية البعيدة الواقعة في مؤخرة الامبراطورية والتي تم فتحها في أوائل القرن السادس عشر ، حيث كان من الممكن الاستغناء عن سلاح الفرسان ، بعكس الوضع على الحدود المسيحية وفي داخل الأراضي التركية ، ولذلك لم يكن ثمة لتيمار أو زعامت في غالبية الولايات العربية ، بل كانت فيها حاميات انكشارية .(١٢٢) ولذلك فإن الأقاليم العربية كانت تلعب دوراً اقتصادياً أهم بكثير من دورها العسكري في الامبراطورية ،(١٢٣) لأن الإقطاع العثماني الذي اتخذ في الأقاليم العربية والمستمد من النظام الإقطاعي المملوكي نزعت منه صنعته العسكرية ، فقد تقرر فيه إعطاء الأراضي بمقاطعات مع بيان حدود كل واحدة والضريبة اللازمة ، ولكنها لا تعطى كتيمار مقابل الخدمة العسكرية ، بل كأمانات تدار ويرسل الوارد بعد أن يأخذ المقطع راتبه .(١٢٤)

ومن ناحية أخرى فإن للإقطاع العسكري العثماني عيوبه ، ففي الوقت الذي كان فيه هذا النظام موجوداً فإن العهد العثماني كان يتضمن اشتراطات معينة ، فالإقطاعي حتى في وقت

الحرب يؤدي خدمته العسكرية لمدة محدودة (٤٠ يوماً مثلاً) ، فإذا انتهت هذه المدة يحق له العودة إلى أرضه رغم استمرار الحرب ، ثم أن الإقطاعي في أيام السلم كان يميل عادة إلى الكسل فيهمل تدريبه ويتقاعس عندما يدعى للحرب وعدم الرغبة في ترك أرضه فتتغلب عليه نزعة الفلاحة على نزعة الحرب .[١٢٥] كذلك فإن الشروط المرتبطة بخدمات الإقطاعيين لم تكن تسير على وتيرة واحدة ، فإن بعضهم كانوا يجبرون دائماً على الخروج إلى الحرب ، على حين أن البعض الآخر كانوا يقومون بالخدمة مناوبة .[١٢٦]

لقد بدأ الخلل يتسرب إلى نظام الإقطاعات العسكرية ، وذلك عندما اتسعت رقعة الامبراطورية حيث ترك السلاطين للبكلر بكوات مهمة توزيع الإقطاعات ، فاستغلوا ذلك ومنحوا تيمارات بأكملها لأتباعهم الخصوصيين وبمرور الزمن تضعضع هذا النظام ، فادخال الأسلحة النارية قلل فائدة الفرسان ، في حين بدأ السباهية يتحللون من واجباتهم العسكرية بالرشوة أو بإرسال بديل عنهم مع سعي لجعل الإقطاعات وراثية ، وأخذت الحكومة تعمد إلى أخذ الإقطاعات الشاغرة فتعطيها إلى المقربين والحاشية بتأثير الرشاوى أو تقطعها إلى ملتزمي الضرائب .[١٢٨]

ولظهور هذه العيوب والمفاسد وتغلغلها في جسم النظام الإقطاعي العسكري العثماني بدأ هذا النظام يدخل في مرحلة من الانحطاط ، ويمكن ربط ذلك بالانحلال الذي أصاب الدولة العثمانية بشكل عام ، في أجهزتها ومؤسساتها ، بفعل التفوق العسكري والاقتصادي لأوروبا وتوقف التوسع الاقليمي منذ أوائل القرن السابع عشر ، ففي ظل هذه الظروف أصيب نظام التيمار بالانحطاط ، ذلك أن الخيالة الخفيفة التي كان يوفرها السباهيون أصبحت متخلفة عسكرياً إزاء تطور الأسلحة الأوروبية والتطور المستمر في الجيوش للدولة المسيحية ، وكذلك لم يستطع هؤلاء الفرسان التيماريون مواجهة القوة النارية الثقيلة للأوروبيين بسبب هبوط قيمة مداخيلهم ، ووسط هذا الفساد المتعاظم في الدولة العثمانية اتجهت الدولة إلى تخصيص المزيد من التيمارات لكبار الموظفين لأغراض غير عسكرية ، أو امتصاصها واستعادتها إلى الخزينة ، وكان نتيجة ذلك هبوطاً كبيراً في فاعلية السباهيين في أوائل القرن السابع عشر ، ومنذ ذلك الحين بدأت الجيوش العثمانية تعتمد إلى حد كبير على سرايا من وحدات حملة البنادق أو الصكبانية .[١٢٩]

لقد أخذ الباب العالي يعمل على هدم نظام التيمار كمؤسسة مع الخيالة السباهيين حيث اعتمد على سياسة متعمدة في استرجاع الأراضي من التيماريين ، أما عن طريق ضمها إلى

ممتلكات الأسرة المالكة ومن ثم إعادة تأجيرها إلى المضاربين للحصول على مدخولات نقدية أكبر ، أو عن طريق مجرد تخصيصها لحائزين خاضعين لسيطرة موظفي القصر ، وبذلك جرى تحول عام في شكل الاستغلال العثماني من التيمار إلى الالتزام[١٣٠] ، وتحولت الإقطاعات العسكرية إلى مزارع ضريبية (Tax - Farms) تهيئ موارد نقدية متزايدة للخزينة .

وكان الباب العالي قد طور نظام الالتزام للمرة الأولى في الولايات الآسيوية الأكثر بعداً مثل مصر حيث لم يكن بحاجة إلى المقاتلين الخيالة من الطراز المحتشد في الروميللي ، وفي القرن الثامن عشر أخذ الباب العالي يمنح أعداداً متزايدة من المزارع مدى الحياة أو المالكاني (Malikane) ، وحل التيمار وخاصة في البلقان عموماً ما أصبح يعرف بنظام الجفليك (Chiflik)[١٣١] ، ولذلك فإن التفسخ الذي أخذ يصيب الدولة العثمانية ساعد على استمرار النظام الإقطاعي العسكري .[١٣٢]

وفي القرن التاسع عشر ، دخلت الدولة العثمانية في مرحلة جديدة ، فقد لازمت هذا القرن إصلاحات قام بها السلاطين العثمانيون (التنظيمات) ، في الوقت الذي قام فيه محمد علي بإصلاحاته أيضاً ، وكان من ضمن هذه الاصلاحات ما مَسَّ جوهر الإقطاع العسكري من شمولها لنواحي عسكرية وأخرى لها صلة بالأرض ، مما كان له تأثير مباشر في هدم الإقطاع العسكري ثم زواله .

بدأت الإصلاحات العثمانية أيام سليم الثالث وسار بها محمود الثاني ، ففي عام ١٨٢٦ ألف محمود الثاني نظام الانكشارية ، ثم أمر بتوحيد الإقطاعات مع أراضي الدولة ،[١٣٣] وهذا النجاح الذي توصل إليه جعله يلغي وحدات السباهية الإقطاعيين ، وما تبقى من الإقطاعات العسكرية ، وجرى إلغاء نظام التيمار رسمياً في عام ١٨٣١ وإن يكن قد تلاشى في الواقع قبل ذلك ،[١٣٤] وفي زمن السلطان عبد المجيد صدر المرسوم الهمايوني وكان من ضمن ما جاء فيه الغاء الإقطاع والالتزام بمبدأ تولي الموظفين للجباية مباشرة ، وفي عام ١٨٤٦ اتخذت خطوة جديدة وهي إحداث نظام البطابو ، أي منح حق استغلال أراضي للأفراد من قبل الحكومة[١٣٥] . وقد أدى كل ذلك إلى استقرار الملكية الخاصة داخل الامبراطورية وتدعم ذلك بصدور قانون عام ١٨٥٨ ، حيث أعطى هذا القانون حقوقاً محددة للوراثة لحائزي الأرض أو المنتفعين بها ، في الوقت الذي جاء في أحد بنود هذا القانون الرئيسية أنه لا يسمح لأي

شخص أن يمتلك قرية بأكملها[١٣٦] . وفي عام ١٨٦٧ حصل المالكون المحليون على الملكية القانونية لأراضيهم .[١٣٧]

وعلى الجانب الآخر كانت إصلاحات محمد علي ، وهي إصلاحات ساهمت في هدم الإقطاع العسكري ، فقد نتج عن قضاء محمد علي على غالبية زعماء المماليك في مذبحة القلعة أن شغر كثير من الالتزام الذي كان يتصرف به المماليك ، وأدى هذا إلى استرجاع الدولة الأراضي التي أصبحت بدون ملتزمين ، والملتزمون الذين كانوا أشبه بالإقطاعيين ، وعرفت أراضي الالتزام المصادرة التي ألحقت بالدولة باسم المربوط ، ثم قام بعملية الروك (مسح الأراضي) أيضاً ما بين ١٨١٢ و ١٨١٤ وبموجب ذلك سجلت الأراضي باسم سكان القرية وأصبحوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرة للدولة دون وساطة الملتزمين ، وعمد إلى أسلوب مصادرة الأملاك التي ليس بيد أصحابها مستندات تدل على أنها ملك لهم بوصفه نائباً للسلطان وصادر جميع الإقطاعات من أصحابها .[١٣٩]

وفي النصف الثاني من حكمه ، عمد إلى إعطاء مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية المعروفة باسم (جفتلك) إلى أفراد أسرته وإلى بعض الأعيان وكبار الموظفين ، وكان منح هذه الأراضي يقوم في البدء على حق التصرف ، وانقلب هذا الحق في عام ١٨٣٦ إلى حق وراثي ثم إلى ملكة فردية .[١٤٠]

وبين عام ١٨٣٣ و ١٨٣٥ ألغى محمد علي الجيوش العسكرية الإقطاعية في سورية وفلسطين ولبنان ، وذلك بتجريد السكان من السلاح بالقوة دون التمييز بين الأشراف والأعيان وسواهم وأدخل نظام التجنيد العسكري ، وكان القضاء على الجيوش العسكرية الإقطاعية مقدمة لحل النظام الإقطاعي فيما يتعلق بالأراضي ، وفي عام ١٩١٤ ، بعد إلغاء الجزية السلطانية العثمانية أسدل الستار على آخر أثر شرعي لنظام الإقطاع في مصر .[١٤١]

وهكذا تكون الإصلاحات العثمانية (التنظيمات) والخطوات الإصلاحية التي قام بها محمد علي قد ساهمت مساهمة كبيرة في زوال الإقطاع العسكري العثماني خاصة من الناحية الرسمية ، لأن هذه الإصلاحات أصابت لب ذلك النظام المبني على دعامتي العسكرية والأرض وبالتالي أصبحت أكثر الأراضي ملكاً ، إما ملكيات كبيرة أو صغيرة وأدخل نظام الأجور المباشرة للجند وفرضت الخدمة العسكرية في الامبراطورية العثمانية على جميع المسلمين .

• الخاتمة •

إثر قيام الفتوحات الإسلامية دمر الإقطاع القديم في البلاد المفتوحة وبدأ يبرز مفهوماً إسلامياً جديداً للإقطاع يحل محل المفهوم القديم ، حيث أصبح معناه في البلاد الإسلامية منح الأرض التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور ، أو منح غلة الأرض في مقابل إعطاء شيء أو ضمانة لبيت المال أي أن الإقطاع حسب مفهومه الإسلامي هو إقطاع العطاء .

. ولكن الإقطاع العسكري بدأ يبرز نتيجة لمؤثرات خارجية لها صلة بالتسلط الأجنبي ، وأن البويهيين أول من بدأ به ، وكان إقطاعهم في الأساس إقطاعاً لوارد الأرض في أراضٍ لها زراعها وملاكها إلى الجند والقادة ، وبذلك أصبح الإقطاع العسكري عند البويهيين يعطى بدل العطاء مقابل خدمة المقطع العسكري ، ثم جاء السلاجقة الذين جعلوا من الإقطاع السياسة الرسمية نظرياً وواقعياً لدولتهم وخاصة على يد الوزير نظام الملك الذي عمم الإقطاع العسكري بعد أن نظمه .

وعندما جاء المماليك ورثوا الإقطاع العسكري البويهي والسلجوقي ، وفي عهد سلاطين هذه الدولة اكتملت النظم الإقطاعية الحربية وبرزت جوانبه العملية ، وأصبح نظاماً مرتبطاً بدولة إقطاعية ويطبق عملياً على الأرض ومن خلال المؤسسة العسكرية المملوكية المتداخلة في معظم جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وفي الدولة العثمانية ، كان الإقطاع العسكري قد استقي من أصول حضارية سبقت العثمانيين ومتأثرة بتلك الحضارات التي تأثر بها العثمانيون عند قيام دولتهم التوسعية حيث ورثوا أملاك حضارات تلك الدول في أوروبا وآسيا ، بالإضافة إلى كون الدولة العثمانية دولة غازية على حدود مدنيات متعددة ، كل ذلك أدّى إلى صياغة إقطاع عسكري عثماني تحتم على الدولة العثمانية أن تأخذ به لمتطلباتها ، خاصة المتطلبات المالية والعسكرية ، وشكل المحاربون في هذا النظام طبقة عسكرية كان (السباهيون) عمودها الفقري ، حيث خصصت لهم الدولة الإقطاعات لإعالة هؤلاء الفرسان ، والذين كانوا يخرجون للحرب مقابل إقطاعهم الإقطاعات وبقي واجبهم الأساسي هو الخدمة العسكرية .

ولما كان الإقطاع بشكل عام مظهر حضاري ، يلازم مجتمع الدولة ملازمة تامة ، فقد تأثر هذا النظام بجانبه العسكري في الدول التي نشأ فيها من حيث القوة والضعف ، فعندما

فسدت أحوال دولة المماليك فسد هذا النظام وشارف على الأفول مع أفول شمس تلك الدولة . وينطبق ذلك على الدولة العثمانية مع الاختلاف من حيث إن الإصلاح الذي أصاب تلك الدولة في أواخر أيامها كان من عوامل هدم الإقطاع العسكري العثماني ، لأن هذا الإقطاع لم يعد يقدم للدولة ما أرادته منه ، ومع ذلك فقد زال بزوالها ■

الهـــوامـــش

١ ـ عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٢)، ص ٢٣ – ٢٥ .

٢ ـ نفس المرجع ، ص ٢٥ .

٣ ـ يقال « اقتطع طائفة من الشيء أخذها والقطعة ما اقتطعه منه واقطعني إياها سأله أن يقطعه إياها ، وأقطعه نهراً أو أرضاً أباح له ذلك » . انظر : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) الخطط والآثار ج ١ ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ص ٩٥ .

٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية مجلد (٤) ، دار الشعب ، القاهرة ، بالنسخة العربية ، ص ١٢٣ « إقطاع » .

٥ ـ المقريزي الخطط جـ ١ ، ص ٩٦ .

٦ ـ نفس المصدر والصفحة .

٧ ـ نفس المصدر والصفحة .

٨ ـ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٩٧هـ/٨٩٢ م) ، فتوح البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ وما بعدها .

٩ ـ نفس المصدر ، ص ٣٨٤ .

١٠ ـ الصوافي ، الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها واحد منها صافية والموات هي الأرض التي لا أثر فيها للزرع ولا مالك لها .
دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ، ص ١٢٤ .

١١ ـ الدوري : نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٠ ، ص ١٠ .

١٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٢ .

١٣ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٧٢ .

١٤ ـ المقريزي ، الخطط جـ ١ ، ص ٩٧ .

١٥ ـ نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٤ – ١٥ .

١٦ ـ أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت : دار النهضة العربية ،

١٩٨٢) ، ص ٧٥ . وقد اعتمد العبادي في وجهة نظره تلك على : عماد الدين محمد الأصفهاني في كتابه دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٩٠٠ ، ص ٥٥ وصدر الدين أبو الحسين في كتابه أخبار الدولة السلجوقية لاهور ، ١٩٢٣ ، ص ٦٨ .

١٧ ـ نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٤ .

١٨ ـ إبراهيم علي طرخان النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨) ، ص ٢١ .

١٩ ـ ابن الأثير (علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين و ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣ وكذلك ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد ت ٤٢٠ هـ/١٠٣٠ م) ، تجارب الأمم جـ ٢ ، القاهرة ١٩٢ ، ص ٩٢ .

٢٠ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٨٦ .

٢١ ـ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري الماوردي (ت ٥٤٠ هـ/١٠٥٧ م) ، الأحكام السلطانية ، مصر ، ١٢٩٨ هـ ، ص ١٨١ – ١٨٨ .

٢٢ ـ ابن مسكويه ، تجارب الأمم جـ ٢ ، ص ٩٧ – ٩٩ .

٢٣ ـ نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٨ – ١٩ .

٢٤ ـ حول النظام الإقطاعي الأوروبي في العصر الوسيط راجع : السيد الباز العريني ، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى ، القسم الأول (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨) ، ص ١٦ وما بعدها .

٢٥ ـ لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع ، راجع : الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد : شركة الرابطة للطبع والنشر ، ١٩٤٥) ، ص ١٢ وما بعدها .

٢٦ ـ المقـريزي ، الخطط جـ ١ ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .

٢٧ ـ الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٦٢–٢٦٤ .

٢٨ ـ راجع : الفتح بن علي البنداري ، دولة آل سلجوق ، مصر ١٣١٨ هـ ، ص ٥٥ .

٢٩ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٩٦ .

٣٠ ـ أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٧٥ – ٧٦ .

٣١ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٩٧ .

٣٢ ـ أتابك جمعها أُتابكة وهو لفظ تركي معناه الأب أو الأمير والذي يربي ابن السلطان ثم أصبح لقباً تشريعياً يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة .

٣٣ ـ المقريزي ، خطط جـ ٢ ، ص ٢١٦ و جـ ٣ ، ص ٣٥١ .

٣٤ ـ Bernard Lewis, The Arabs in History (London : Hutchinson's University Library, 1950), P. 148.
وكذلك : الفتح بن علي البنداري ، دولة آل سلجـوق ، مصـــر ١٣١٨ هـ ، ص ٥٥ – ٥٦ .

٣٥ ـ أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

٣٦ ـ من أمثلة كبار الأمراء الذين حازوا الإقطاعات الحربية زمن الدولة الزنكية نجم الدين أيوب وأسد

الدين شيركوه ، فقد اقطعهما عماد الدين زنكي في عام ١١٣٨ هـ إقطاعا « سينا » في شهر زور بشمال العراق وأفرد أسد الدين بإقطاع الموزر ، وبذلك صاروا من أجناده .
راجع : طرخان المرجع السابق ، ص ٣٠ – ٣١ .

٣٧ ـ المقريزي ، الخطط جـ ١ ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ . ص ١٥٦ .

٣٨ ـ قبائل وقبالات جمع قبالة وهي الأرض يتقبلها أصحابها ، أي يضمنونها بمبلغ من المال يؤدونه عنها كل سنة ، ولكل نوع من الأرض قطعة أي ضريبة خاصة تناسب حاله . انظر : شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م)، نهاية الارب في فنون الأدب جـ ٨ (رقم ٥٤٩ بدار الكتب) ، ص ٢٤٨ .

٣٩ ـ المقريزي ، الخطط جـ ١ ، ص ١٣٨ .

٤٠ ـ أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٠) ، ص ١٠١ .

٤١ ـ A.N. Poliak, Journal of the Royal Asiatic Society 1937, PP. 97, 99.
وحول الاختلاف بين الإقطاع المملوكي والإقطاع اللاتيني ومدى تأثير اللاتيني به انظر : أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٤٢ ـ راجع : N. Ziadeh, Urban life in Syria under the early Mamluks, Beirut, 1953.
وكذلك : الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٠٣ وما بعدها .

٤٣ ـ أ. ن. بولياك : الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان ، نقله عن الانجليزية عاطف كرم (بيروت : دار المكشوف ، ١٩٤٨) ، ص ١٤ – ١٥ .

٤٤ ـ المقريزي ، الخطط جـ ١ ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

٤٥ ـ أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، جـ ٣ ، طبع دار الكتب المصرية ، ص ٤٥٥ .

٤٦ ـ إن لفظة إقطاعه كانت مستعملة لمتلكات ديوان المفرد وديوان الدولة وربما أطلق عليها اسم إقطاعات ، لأن أكثر غلتها توزع على الفرسان وهذا ينطبق على الأقاطع السلطانية ، أما الممتلكات التي يحتفظ بها السلطان لنفقاته الخاصة فلا يطلق عليها اسم إقطاعة .
راجع : ابن إياس (محمد بن أحمد المصري الحنفي) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، م ٥ بولاق ١٣١١ هـ ، ص ٤٢٠ .

٤٧ ـ جرت العادة في أحوال توزيع الإقطاعات أن يأمر السلطان ناظر الجيش بالكتابة للمستحق للإقطاع فيحرر الناظر ورقة مختصرة تسمى المثال مضمونها « خبز فلان كذا » انظر : المقريزي ، الخطط جـ ٣ ، ص ٣٥٣ .
والنويري ، نهاية الأرب جـ ٨ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

٤٨ ـ حول الرتب العسكرية راجع : ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ٥٨ وكذلك بولياك ، الإقطاعية

في مصر وسورية ولبنان ، ص ٢٠ - ٢١ .
٤٩ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٥٠ .
٥٠ ـ نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٤٨٥ .
٥١ ـ في البداية كان يطلق على خاصة جند السلطان الأيوبي اسم الحلق ، ثم تطور لفظ الحلق حتى صار يدل على الجيش المملوكي الذي ينشئه السلطان دون فئات مماليك الأمراء ، وصارت الحلق أكثر الفئات المملوكية عددا . انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، بولاق ، القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ص ٢٢ وكذلك : المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤ - ١٩٣٩ ، ص ٦٥٨ وما بعدها .
٥٢ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ١٤ .
٥٣ ـ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، مصر ١٩٣٦ ، ص ٨٤٢ .
٥٤ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٥٨ .
٥٥ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ١٣ ، ص ١٥٣ .
٥٦ ـ المقريزي ، الخطط جـ ٢ ، ص ٢١٧ .
٥٧ ـ بولياك ، الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان ، ص ٦٥ .
٥٨ ـ النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٨ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
٥٩ ـ بولياك ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .
٦٠ ـ حول هذه الدواوين الإقطاعية راجع : القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٥٥ - ٤٥٧ .
٦١ ـ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ، ص ١٣٠ وما بعدها .
وللتوسع في ذلك راجع : طرخان ، الإقطاع في الشرق الأوسط ، ص ٦٧ - ٦٨ .
٦٢ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٨٥ - ١٨٧ .
٦٣ ـ كان يلجأ أولوا الأمر لهذه الوسيلة لقطع العاجز والمشكوك فيه ولأنه من أصحاب الإقطاعات أو الأجناد واستخدام غيرهم فضلاً عن توفير بعض الإقطاعات للخزانة وهذا ما يعني عرض الجند .
٦٤ ـ حول هذه الأحوال وصور متعددة عنها راجع ، طرخان ، ص ٧٥ - ٧٦ .
٦٥ ـ يذكر طرخان في كتابه ص ٧١ أن الاعتداء على هذه الأوقاف جرى مرات عديدة خلال عصر المماليك برغم معارضة الفقهاء .
٦٦ ـ الروك كلمة قبطية أصلها روش ومعناها الحبل ، ثم استعملت بدلالة على عملية قياس الأرض بالحبل وهي بدورها مشتقة من اللفظ الديموطيقي (روخ) ومعناها تقسيم الأرض انظر : طرخان ص ٩٦ .
٦٧ ـ انظر : H. Idris. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford : 1948), P. 99.
وللتوسع في موضوع الروك راجع : المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٨٤١ وما بعدها ، القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٥٨ وما بعدها .
٦٨ ـ بولياك ، ص ٧٣ .
٦٩ ـ = ص ٧٤ - ٧٥ وكذلك المقريزي ، الخطط ج ١ ، ص ٨٨ .

ابن إياس بدائع الزهور ، م ١ ، ص ١٧٩ .
٧٠ ـ الأمير هو اللقب الذي استعمله الكتّاب العرب ترجمة للقب بك ، وهو لقب يخلع على كل فارس يأمر كوكبة مؤلفة من خمسة مماليك على الأقل . راجع : بولياك ، ص ٢٠ .
٧١ ـ حول الواجبات المادية التي يقوم بها المقطع في العهد المملوكي راجع : طرخان ، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ص ١٨٩ - ١٩٤ وللتوسع فيها راجع : المقريزي ، الخطط جـ ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
الأصفهاني ، دولة آل سلجوق ، مصر ١٣١٨ هـ ، ص ٥٥ .
أبو المحاسن ، جمال الدين بن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٥ م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٧ ، طبعة دار الكتب ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .
٧٢ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٥٩ .
المقريزي ، الخطط جـ ١ ، ص ١٦٧ - ١٧٣ .
٧٣ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ٤٨٨ .
٧٤ ـ للتوسع في موضوع الحقوق المادية والأدبية ، راجع : طرخان ، الإقطاع في الشرق الأوسط ، ص ٢٠٥ - ٢١٨ .
٧٥ ـ نفس المرجع ، ص ٢٦٥ - ٢٧٠ .
٧٦ ـ نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .
٧٧ ـ الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٠٤ .
٧٨ ـ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م) ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ ، ص ٩٣ .
٧٩ ـ بولياك ، ص ٩٥ .
٨٠ ـ طرخان ، الإقطاع في الشرق الأوسط ، ص ٢٦٦ .
٨١ ـ أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
٨٢ ـ هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب جـ ١ ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١) ، ص ٦٧ .
٨٣ ـ نفس المصدر ، ص ٦٨ .
٨٤ ـ خليل اينجاليق : مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مجموعة بحوث ودراسات إسلامية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ، ص ٤٤٣ .
٨٥ ـ محمد أنيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط الحديث ١٥١٦ - ١٩١٤ جـ ١ مكتبة دار العالم العربي ، بدون تاريخ) ، ص ٧٥ .
٨٦ ـ في بعض الحالات لم تبق السلطنة العثمانية على البنية الاقتصادية والاجتماعية (الإقطاعية) المملوكية فحسب ، بل استخدمت بعض زعماء المماليك لحكم الولايات المركزية ، ومثال على ذلك جان بردي

الغزالي انظر : اميل توما ، فلسطين في العهد العثماني (عمان : الدار العربية للنشر والتوزيع بدون تاريخ) ، ص ١١ ، ٢٣ .

٨٧ ـ الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٦ - ١١٩ .

٨٨ ـ جب وبوون ، ص ٦٨ . اميل توما ، المرجع السابق ، ص ١١ .

٨٩ ـ خليل اينجاليق ، مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، ص ٤٤٥ .

٩٠ ـ جب وبوون ، ص ٦٨ .

٩١ ـ محمد أنيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط الحديث ، ص٧٥ .

٩٢ ـ اسباهية كلمة فارسية معناها الجيش (سباهي وليس سيباه ومعناها الفارس) وقد حرفها البريطانيون إلى (Sepoy) وأطلقوها على الجنود الهنود .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٦٠ و ٦١ هامش ٢٣ .

٩٣ ـ بيري اندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظيمي (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٣) ، ص ١٣ .

٩٤ ـ محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق الدكتور إحسان حقي (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٣) ، ص ١٣٢ وكذلك بيري اندرسون ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

٩٥ ـ جب وبوون ، ص ٦٩ .

٩٦ ـ التيمار كلمة فارسية ومعناها الأصلي كل ما يعطي للمريض أو للحيوان أو حتى للأرض والنباتات من مؤونة أو عناية ، انظر : محمد فريد بك المحامي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، هامش (٢) . أما عمر عبد العزيز عمر فيذكر أنها ترجمة لكلمة (Pronoia) اليونانية وهي تقابل في اللفظة اللاتينية لفظة (Cura) واشتقت منها (Curator) اللاتينية ومعناها (Curateur) أي ناظر وقف أو وصي أو وكيل تركة أو ولي أو قيم . انظر كتابه السالف الذكر ، ص ٦١ هامش ٢٤ .

٩٧ ـ كانت الأرض عند العثمانيين مقسمة إلى ثلاثة أصناف رئيسية : أراضي الدولة (الميري) وأراضي المؤسسات الدينية والأراضي الخاصة (الملك الصرف) . انظر : لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث .

موسكو : دار التقدم ، بدون تاريخ ، ص ٩ - ١٠ .

٩٨ ـ اقجة أو اسبرس وهي قطعة من الفضة .

٩٩ ـ قليج كلمة تركية بمعنى سيف ، وكان هذا الركن الأساسي للإقطاعية يسمى بهذا الاسم لأن ايراداته كانت تعتبر كافية لإعالة السباهي ذاته ، ومن هنا كانت تمد السلطان بسيف في أثناء الحرب . انظر : جب وبوون ، ص ٧١ هامش (٤) .

١٠٠ ـ ترقى من كلمة ترق العربية ، وحصة من كلمة حصة العربية ومعناها نصيب من تقسيم الملك .

١٠١ ـ جب وبوون ، ص ٧١ .

١٠٢ ـ نفس المصدر ، ص ٧١ - ٧٢ .

١٠٣ ـ ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ، ص ٢٩ .

١٠٤ ـ كلمة همايون فارسية الأصل ، ومعناها الأصلي مبارك ، مقدس ، حسن الحظ ومن هنا ملكي .
١٠٥ ـ عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون (دمشق : مكتبة أطلس ، ١٩٧٢) ، ص ٤٥ وانظر بيري اندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ص ١٧ — ١٨ .
١٠٦ ـ من الكلمة العربية مسلم بمعنى معطي شيئاً أو حقاً متنازعاً عليه ، ومن هنا كان معناها في الفارسية « معنى من الأعباء العامة » .
١٠٧ ـ لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع راجع : جب وبوون ، ص ٧٨ — ٧٩ .
١٠٨ ـ في عهد السلطان سليمان القانوني احتكرت سلطات اسطانبول حق منح الإقطاعات إلا في حالات قليلة حين يكون الإقطاع صغيراً أي حين يقل دخله عن ٦,٠٠٠ اقجة فيتحول ذلك إلى الوالي .
انظر : عبد الكريم رافق المرجع السابق ، ص ٤٦ .
١٠٩ ـ جب وبوون ، ص ٧٢ — ٧٣ .
١١٠ ـ بيري اندرسون ، المرجع السابق ، ص ١٧ .
١١١ ـ عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ٤٧ .
١١٢ ـ جب وبوون ، ص ٧٦ .
وانظر : Halil Inaleik, The Ottoman Empire, Conquest Organization and Economy, Collected Studies (London Variorum reprints, 1978, PP. 108 - 113.
١١٣ ـ خليل ايجاليق ، مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .
وكذلك بيري أندرسون ، المرجع السابق ، ص ١٧ — ١٨ .
وحول الرقابة الشديدة ، يذكر عمر عبد العزيز عمر ، أن هذه الرقابة الشديدة كانت منصبة في معظمها على إقطاع التيمار والزعامت حيث كانا يخضعان لنظام التفتيش الذي قام به موظفوا الحكومة العثمانية وهم الدفتر — داريون ، أما الإقطاع الخاص فلم يكن خاضعاً للتفتيش . انظر : كتابه السالف الذكر ، ص ٤٧ .
١١٤ ـ ساطع الحصري ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .
١١٥ ـ بيري أندرسون ، ص ١٨ .
١١٦ ـ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .
١١٧ ـ لوتسكي ، المرجع السابق ، ص ١١ .
١١٨ ـ انظر كتابه ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .
١١٩ ـ لوتسكي ، ص ١٢ .
أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢) ، ص ١٢٠ ، وللتوسع في هذا راجع : جب وبوون ، ص ٨ — ٩ .
١٢٠ ـ لوتسكي ، ص ١٤ — ١٥ وكذلك الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢١ .
١٢١ ـ حسين مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، (القاهرة : مكتبة حجازي ، ١٩٣٨) ، ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .
١٢٢ ـ مصطلح انكشارية ، دبني جرى بمعنى القوات الجديدة ، مصدره الدرويش حاجي بكتاش الذي اشتهر

بورعه ، وقد جند الانكشارية من مسيحي أوروبا ، وكانوا يتقاضون مرتباتهم نقدا من خزانة السلطان . حول الانكشارية يمكن العودة إلى : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ – ١٢٤ . محمد أنيس ، المرجع السابق ، ص ٢٠ – ٢١ .

Edward. S. Creasy, History of the Ottoman, Turks, (Beirut, Khayats, 1961), P. 4.

١٢٣ ـ بيري أندرسون ، ص ١٧ .

١٢٤ ـ الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٧ .

١٢٥ ـ محمد أنيس ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

١٢٦ ـ جب وبوون ، ص ٧٢ .

١٢٧ ـ عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

١٢٨ ـ الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢٠ .

١٢٩ ـ بيري أندرسون ، ص ٣٢ .

١٣٠ ـ ما جاء القرن الثامن عشر حتى كانت الأرض الزراعية التي يقوم عليها العسكريون بالفعل قد تحولت إلى نظام الالتزام ، ثم اتسع نظام الالتزام تدريجيا فشمل أراضي الدولة والإقطاعات بل أراضي الوقف ، في نفس الوقت حين كان يموت السباهي ولا يترك وريثاً مناسباً ، وبذلك يصبح إقطاعه شاغراً (محلول) كانت الخزانة تحتفظ به وتدفع به إلى الملتزمين وبهذه الطريقة قلت أعداد فرسان السباهية .
انظر : جب وبوون جـ ٢ ، ص ٨٠ – ٨١ .
وكذلك : الدوري ، المرجع السابق ، ص ١١٤ – ١١٥ .

١٣١ ـ للتوسع في مفهوم هذا النظام راجع :

Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1, (Cambridge, 1976), PP. 120 - 126.

١٣٢ ـ بيري أندرسون ، ص ٣٧ .

١٣٣ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢٢ .

١٣٤ ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٩١ .

١٣٥ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢٢ .

١٣٦ ـ خليل اينجاليق ، مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، ص ٤٥٠ .

١٣٧ ـ بيري أندرسون ، ص ٣٩ .

١٣٨ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٦ .
وكذلك عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، ص ٣٩١ .

١٣٩ ـ فيليب حتي ، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى (بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٥) ، ص ١٢٦ .

١٤٠ ـ G. Baer, History of Landownership in modern Egypt 1800 - 1950, London, 1962, PP. 2 - 7.
وكذلك : الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٩ .

١٤١ ـ بولياك ، ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز

أسبابها ، وتطوراتها

خلال عامي ١٣٢٦ و ١٣٢٧ هـ ١٩٠٨ , ١٩٠٩ م .

● د . خالـد حمود السعدون ●

ترتّب على ازدهار الصناعة في أوروبا وتراكم رؤوس الأموال فيها أن اتجهت بعض دولها إلى استثمار جزء من أموالها في الدول الأخرى الأقل تطوراً . واتجه قسم كبير من تلك الاستثمارات في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي إلى مشاريع إنشاء السكك الحديدية . إذ تميزت تلك المشاريع بتقديم عائد مالي ثابت ، وإقامة نفوذ سياسي مستقر للدولة البانية في المنطقة التي تمر خلالها السكة ، إضافة إلى ما يترتب عليها من فتح أسواق استهلاكية جديدة أمام المنتجات الصناعية الأوروبية المتزايدة .

وكان للدولة العثمانية نصيب من تلك المشاريع ، إذ صادف ذلك الا تجاه الأوروبي حماساً لدى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ/١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) وكبار قواد جيشه ، الذين أرادوا إنشاء شبكة من السكك الحديدية تغطي كل أجزاء الدولة العثمانية . ودعم هذا الاتجاه أيضاً كبار موظفي الدولة الذين رأوا في إنشاء شبكة سكك حديدية وسيلة فعالة لتوحيد أطراف الدولة وتنشيط الحركة التجارية فيها .(١) ونتج عن ذلك إنشاء عدة شبكات من السكك الحديدية في الأناضول وبلاد الشام ، إضافة إلى سكة حديد بغداد التي اكتسبت شهرة كبيرة من جراء الصراع الذي دار حولها بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وروسيا .

وضمن هذا التوجه العام ولد مشروع سكة حديد الحجاز . ورغم ارتباط هذا المشروع في أذهان الناس بالسلطان عبد الحميد ، إلا أنَّ فكرته كانت سابقة لعهد هذا السلطان . فأول من طرح فكرته هو الدكتور زامبل Zammbel ، الألماني الأصل الأمريكي الجنسية . وكان ذلك عام ١٢٨١ هـ/١٨٦٤ م ، حين اقترح على الحكومة العثمانية إنشاء سكة حديد تربط بين دمشق وساحل البحر الأحمر . ولم يلق اقتراحه صدىً إيجابياً على الفور ، ولكن الاهتمام به تجدد سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م حين أقر وزير الأشغال العثماني الفكرة بصورة مبدئية . وأحيل المشروع إلى المختصين لدراسته ، فاعترضوا على الفكرة بحجة أن المنطقة التي يزمع مدّ السكة فيها تقطنها قبائل لا يؤمن جانبها ، إضافة إلى أن النقل البحري يمثل بديلاً أقل كلفة لإنشاء السكة .(٢) ولم يكن تخوّف أولئك المختصين من القبائل مبالغاً فيه ، إذ أنَّها طالما اعتدت على قوافل الحجاج البرية المارة في ديارها ، فسلبتها ونهبتها واحتجزتها وفرضت عليها الإتاوات ، رغم أن تلك القوافل كانت تسير تحت حماية قوات حكومية في العادة . ومن أجل كسب ود تلك القبائل وإغرائها بالكف عن الاعتداء على قوافل الحجاج ، كانت السلطات الحكومية مضطرة لصرف مبلغ ستين ألف ليرة عثمانية سنوياً على شكل هدايا وإعطيات لمشايخ القبائل .(٣)

ولم تثن تلك العقبة السلطان عبد الحميّد عن عزمه على تنفيذ المشروع ، فأعلن في ذي الحجة ١٣١٧ هـ/ابريل ١٩٠٠ م عن تصميم حكومته على وضع المشروع موضع التنفيذ . واتبع ذلك الإعلان بحملة دعاية واسعة في العالم الإسلامي تهدف إلى حث المسلمين

على التبرع للمشروع لما له من هدف ديني يتمثل في تسهيل سفر الحجاج إلى المدينة المنورة ومنها إلى مكة المكرمة . وبدأ هو نفسه حملة التبرعات بمبلغ ثلاثمائة وعشرين ألف ليرة عثمانية . ثم لاقت دعوة التبرع استجابة إسلامية واسعة ، فتبرع بعض ملوك وأمراء المسلمين بمبالغ كبيرة ، كما تشكلت جمعيات في الأقطار الإسلامية لتلقي تبرعات الأفراد . وقد بلغت حصيلة تلك التبرعات سبعمائة وستين ألف ليرة عثمانية . وبالإضافة لذلك أمر السلطان بتخصيص إيرادات بعض المناطق وبعض الضرائب لصالح تنفيذ المشروع ، كما أمر بتنازل موظفي الدولة عن مرتب شهر واحد في البداية ، ثم خصم عشرة بالمائة من مرتباتهم عن شهر واحد في كل سنة من أجل المساهمة في تغطية نفقات المشروع .(٤)

وهكذا توفرت الاعتمادات المالية اللازمة لتغطية نفقات المشروع ، والتي قدرت بمبلغ إجمالي قدره خمسة ملايين ليرة عثمانية . فبادرت الدولة لتوفير المواد اللازمة للبدء في المشروع من حصيلة التبرعات ، ثم اعتمدت على حصيلة الضرائب السنوية المرصدة للمشروع والبالغة مائتين وخمسين ألف ليرة عثمانية للصرف على نفقات الإنشاء السنوية .(٥) وعلى هذا بدأت شركة ألمانية بتنفيذ المشروع في ربيع الأول ١٣١٧ هـ/سبتمبر ١٩٠٠ م . وكانت نقطة البدء هي قرية « المزيريب » في منطقة حوران جنوبي دمشق ، ذلك لأن شركة فرنسية كانت قد أنشأت سكة حديد ربطت دمشق بالمزيريب .(٦)

وقد حظي المشروع باهتمام كبير من قبل الدبلوماسيين الأجانب العاملين في الدولة العثمانية بسبب المقاومة القبلية التي واجهته . وكان من أولئك الدبلوماسيين القنصل العام الأمريكي في بيروت ، الذي اهتم بتحري الأسباب الكامنة وراء حرص السلطات العثمانية على إنشاء السكة ـ فربط ذلك الحرص بعزم الحكومة العثمانية بعد « حرب القرم »(٧) على توسيع نفوذها الفعلي في أطراف شبه جزيرة العرب مثل بوادي الشام والعراق ، ثم التوغل في داخل شبه الجزيرة ذاتها . وأضاف : « إن سكة حديد مكة لم تصمم فقط لتؤمن للسلطان امتلاكاً غير قابل للنزاع للأماكن الإسلامية المقدسة ، ولكن لتسهل عليه أيضاً ضم نجد وتهدئة اليمن »(٨) ولا شك أن لسكة حديد الحجاز بالإضافة إلى هدفها الديني المعلن ، هدف استراتيجي مصاحب ، يتمثل من ربط غرب شبه الجزيرة مع مركز الدولة بطريق بري سريع يتجنب التحكم البريطاني في الطريق البحري المار عبر قناة السويس ولا استبعد أن يكون ضم نجد من أهداف الدولة الكامنة خلف سكة حديد الحجاز ، إذ يحسن هنا أن نذكر تدخل الدولة العثمانية المستمر إلى جانب حائل

في صراعها ضد الرياض ـ ومن أبرز مظاهر ذلك التدخل ؛ الحملة الحربية العثمانية على القصيم سنة ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ م . ولعل من مظاهره أيضاً محاولة الشريف حسين الفاشلة للتوغل في القصيم سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م .(٩)

وقد قوبلت أعمال مد السكة حين وصلت للحجاز(١٠) بمقاومة عنيفة شنتها قبائل المنطقة . وعلل القنصل البريطاني في دمشق تلك المقاومة بالخسائر المادية الكبيرة التي كانت ستلحق بالبدو من جراء إنشاء سكة الحديد . فأولئك البدو كانوا يتولون نقل الحجاج والزوار المتجهين إلى المدينة المنورة من موانئ البحر الأحمر الشمالية ، وخاصة ينبع . ويتقاضون مبالغ كبيرة من المال لقاء تلك الخدمة ولقاء توفير الدلالة والحماية لهم . وبعد اكتمال إنشاء السكة كان أولئك الحجاج والزوار سيسلكون طريق حيفا أو دمشق ويركبون من هناك القطار إلى المدينة المنورة .(١١) ولم يكتف القنصل العام الأمريكي في بيروت بهذا التعليل الاقتصادي فقط ، وإنما حاول أن يجعل للمقاومة هدفاً سياسياً أيضاً ، وهو التصدي للتوغل العثماني في أراضي شبه الجزيرة العربية .(١٢)

وزاد القنصل العام على ذلك بمحاولة استشفاف الآفاق المستقبلية لتلك المقاومة القبلية . فأشار إلى احتمال وجود علاقة بينها وبين الوضع في داخل نجد ، رغم عدم توفر دليل ملموس على ذلك ، وأضاف : « يتوقع بالتأكيد من الوهابيين أن يلموا شعثهم ضد آخر (البدع الشيطانية) التي جاء بها (لابسو الطرابيش والبنطلونات) الترك الملاعين . إنهم ، باتفاق غريب وذي معنى مع جماعة الشريف في مكة ، يلعنون صراحة السلطان لسماحه بحفر قناة السويس ، ومد خط برق البحر الأحمر ، وإدخال الحجر الصحي (بدلاً من الثقة القديمة والبسيطة في الله) ومنع تجارة الرقيق (رسمياً فقط) ، وإقامة القناصل الأجانب في جدة ، والوقوع من جراء ذلك كله في أيدي (الكفار) . إن من الطبيعي تماماً توقع غضبهم من سكة الحديد باعتبارها وسيلة ناجحة يمتلكها الأخيرون [أي الكفار] لتدمير دينهم وحريتهم ... » .(١٣) ولا شك في أنه كانت هناك في نجد فئة تتحفظ على إدخال المخترعات الحديثة ، وهي الفئة التي اعترضت فيما بعد على إدخال المغفور له الملك عبد العزيز لتلك المخترعات كما هو معروف . ولكن المبالغة واضحة في وصف القنصل العام لموقف تلك الفئة ، وخاصة فيما يتعلق بقناة السويس والخط البرقي ، إذ لا صلة مباشرة لأهالي نجد حينئذ بهذين الأمرين . كما تتضح مبالغته أكثر في تعميمه

موقف تلك الفئة وجعله موقفاً لكل أتباع الدعوة السلفية التي يسميها بـ « الوهابية » والدليل على مبالغته أن توقعه لحتمية وقوفها ضد السكة الحديدية لم يتحقق أبداً .

ولم يكتف القنصل العام بتوقعه السابق ، بل أضاف له توقعاً آخر وهو انضمام حائل لحركة مقاومة السكة الحديدية ، فقال : « يمكن الظن أيضاً بأن ابن رشيد ترجع معارضته للغزو التركي بعنف . إذ يقال إنه يدفع مبلغاً صغيراً (ربما عشرين ألف دولار) سنوياً إلى شريف المدينة ، اعترافاً بمكانته الدينية من ناحية ، ولتأكيد سلامة ممتلكاته النائية عن العدوان التركي من ناحية أخرى ، ولكنه رغم ذلك لا يعتبر نفسه مستقلاً عن الحكومة التركية فقط ، بل أيضاً حامل لواء أي شعور وطني وطموح قومي ربما يوجد في واحات ووديان نجد ... »[١٤] ويجانب الصواب القنصل العام في رأيه هذا أيضاً . إذ إن من المعروف أن ابن رشيد كان وثيق الارتباط بالدولة العثمانية ، وأنه كان في تلك الفترة يتقاضى منها راتباً شهرياً مقداره مائة وخمسون جنيهاً استرلينياً .[١٥] ولم يمر عليّ ما يشير إلى أنه كان يدفع رسم خضوع سنوي للشريف .

ووسع القنصل الأمريكي العام نطاق توقعاته ، حين قال : « ***في كل المنطقة الممتدة من العقبة ـ أو حتى من معان ـ إلى المدينة هناك قبائل على جانبي طريق الحجاج يحتمل أنها على استعداد كامل لقتال الترك شريطة أن يتحد البدو ليكونوا في وضع يمكنهم من إظهار مقاومة فعالة ... إضافة لذلك فإن عنزة المرعبة أحياناً تمد غزواتها حتى حوران ، بل وحتى الحجاز ، ويمكن أن تشارك بسهولة في أي شجار على طول سكة الحديد ... مع ذلك فإن أولئك الذين خبروا السياسات البدوية ، التي نادراً ما ترتفع فوق مستوى الرغبة في النهب ، وعرفوا الحذر البدوي الذي يشمل حتى الأقارب الأقربين ، وأدركوا طمع البدو وجشعهم ، لا يبدو لكثير منهم أن قتالاً واسعاً يمكن أن يحدث ما لم يقم رشيدي أو سعودي فيوحد القبائل في عمل مشترك يخلق مملكة وطنية ، كما فعل مرة داود ، في قبيلة جودا Juda ، في فلسطين ،!! ومع التحفظ على تشبيه القنصل لقبائل شمال شبه الجزيرة العربية بالقبائل العبرانية في فلسطين لبعد ذلك التشبيه عن الواقع ، فإن ملاحظته حول عدم إمكان اشتراك القبائل العربية في عمل موحد إلا تحت لواء قيادة تاريخية تبدو ملاحظة صائبة تؤيدها الكثير من الشواهد .***

وقد أثبتت الأحداث أن توقعات القنصل العام تلك كانت مغرقة في الخيال . إذ لم تقم حركة مقاومة عامة للسكة الحديدية تشمل كل قبائل وسط وشمال شبه الجزيرة ، كما لم تنضم

لتلك المقاومة قبائل عنزة القاطنة في بلاد الشام . بل اقتصرت المقاومة على القبائل القاطنة شمال الحجاز ، وحول المدينة المنورة تحديداً . وقد عدد القنصل البريطاني في دمشق القبائل الحجازية الرئيسية المعارضة لمد السكة وهي بنو علي ،(١٧) وجهينة ،(١٨) والحمدة ،(١٩) وولد محمد والحوازم .(٢٠) والاسمان الأخيران هما لبطنين من قبيلة حرب ،(٢١) التي قامت بالدور الرئيسي في مقاومة مد السكة حسب رواية القنصل العام الأمريكي في بيروت . وقد توسع هذا القنصل في الحديث عن قبيلة حرب فوصفها بأنها كانت المسيطرة على شمال الحجاز حينئذ ، وأنها رغم الإعانات المالية التي تقدمها لها السلطات الحكومية العثمانية كانت تقوم بسلب ونهب قوافل الحجاج . ففي ربيع سنة **١٣٢٥ هـ/١٩٠٧ م** قامت تلك القبيلة باحتجاز قافلة الحجاج المصريين الذين يرافقهم جنود الخديوي لمدة زادت عن أسبوعين ، ولم تسمح لهم بمواصلة السير إلا بعد أن دفعوا فدية باهظة .(٢٢)

وانتقل القنصل العام الأمريكي .بعد ذلك لتقدير قوة هذه القبيلة من الناحية العددية ، فذكر أن الرحالة بيركهارت Burkhardt زعم في سنة **١٢٤٦ هـ/١٨٣١ م** أن القوة المقاتلة لهذه القبيلة تتراوح بين ٣٠ – ٤٠ ألف مسلح . وتحفظ القنصل على ذلك التقدير ، ورجح ما ذكره رحالة آخر هو بارون نولده Baron Nolde الذي قدر قوة تلك القبيلة القتالية بخمسة عشر ألف مقاتل .(٢٣) ويبدو لي أن التقدير الأخير هو الأرجح ، لأن شخصية معاصرة مطلقة قدرت عدد أفراد تلك القبيلة سنة **١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م** بعشرين ألف نسمة .(٢٤) ولما كانت المعلومات التي توفرت للقنصل العام تقدر عدد المسلمين في أفراد القبائل الذين يقاومون مد سكة الحديد بأربعين ألف مسلح ، فإنه عاد للتشكك حول ما إذا كانت قبيلة حرب قد تلقت نجدات في داخل نجد .(٢٥) وهو تشكك ليس له ما يبرره ، إذ أن ذلك القنصل أغفل أن يدخل في تقديره القبائل الحجازية الأخرى المجاورة لحرب مثل جهينة وأولاد علي .

وقد كانت السلطات العثمانية كما مر تتوقع منذ البداية أن تلقى عملية إنشاء سكة الحديد مقاومة من القبائل ، ولذلك خصصت خمسة آلاف جندي للقيام بعملية الحماية اللازمة . لكن ذلك لم يكن رادعاً كافياً للحيلولة دون قيام القبائل بالأعمال العدائية المتوقعة . فأخذت القبائل تقوم بعمليات السطو على معدات السكة ، ثم انتقلت للهجوم المباشر على قوات الحماية الحكومية . فشنت هجوماً على قوة كانت مرافقة للمشير كاظم باشا ، المشرف العام على السكة ،

وقتلت مائة من أفرادها .[٢٦] وعندها اضطرت السلطات العثمانية لزيادة قوات الحماية تلك حتى بلغ عددها في صيف عام ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م أكثر من خمسة عشر ألف رجل ، يضمنهم أولئك العاملون في مد السكة .[٢٧]

ويلاحظ هنا أن عنف المقاومة القبلية ازداد في ذلك الصيف مع اقتراب إيصال مد السكة إلى المدينة المنورة . ففي حوالي جمادى الأولى سنة ١٣٢٦ هـ/يونية ١٩٠٨ م احتشدت القبائل المعارضة قرب المدينة وخاضت معركة عنيفة ضد القوات الحكومية ، التي استخدمت المدفعية لقصف تجمعات القبائل المعادية مما اضطرها للتراجع بعد أن خسرت أكثر من سبعين قتيلاً .[٣٠] وكان ازدياد عنف المقاومة على ذلك الوجه مؤذناً بفشل الجهود الاسترضائية التي كانت الحكومة تقوم بها تجاه القبائل . وتتمثل تلك الجهود في إيفاد بعثة من دمشق ضمت عبد الرحمن باشا ومحمد فاضل باشا ، توجهت إلى منطقة المدينة المنورة لتقديم الهبات إلى مشايخ القبائل ومنحهم الوعود بتخصيص رواتب سنوية لهم مقابل الكف عن معارضة مد سكة الحديد .[٢٩] وقد أخفقت جهود تلك البعثة ، فعاد عضواها إلى دمشق في غضون شهر جمادى الثانية ١٣٢٦ هـ/يولية ١٩٠٨ م . كما تم أيضاً سحب كاظم باشا مفتش عام السكة نتيجة فشله في التعامل مع مشكلة المقاومة القبلية ، وعين بدلاً عنه عبد الله باشا المشير السابق للجيش الخامس المتمركز في الشام .[٣٠]

لقد مالت الدولة بعد إخفاق جهودها السلمية للركون إلى القوة في التعامل مع القبائل المعارضة . واختارت لهذه المهمة قائداً كردياً في أورفه هو إبراهيم باشا ، بعد أن اقنعته بالتوجه إلى الحجاز على رأس ألف وخمسمائة من فرسانه للمساعدة في إخماد المقاومة القبلية . وعلق الوكيل القنصلي الأمريكي في دمشق على إسناد تلك المهمة لإبراهيم باشا بقوله إن كثيراً من الأوساط تشك في أن ذلك التكليف وليد رغبة حكومية مضمرة هدفها تدمير سمعة إبراهيم باشا القتالية وإضعاف قوته .[٣١] ولمَّح القنصل الأمريكي العام في بيروت إلى عدم ارتياح الحكومة لمكانة إبراهيم باشا الكبيرة بين قومه الأكراد ، ووصف فرسان إبراهيم باشا بأنهم « سيئو السمعة »[٣٢] وإضافة لفرسان إبراهيم باشا ، عززت الحكومة قواتها العاملة في الحجاز بنجدات من الحاميات الحكومية في المناطق المجاورة . فقد أرسلت خمسمائة من جنود حامية عكا إلى المدينة المنورة .[٣٣] كما توجه إليها ثلاثمائة وخمسون جندياً قدموا من طرابزون على البحر الاسود عن طريق ميناء حيفا .[٣٤]

ولم يؤد وصول إبراهيم باشا وفرسانه والتعزيزات الأخرى إلى تثبيط همة المعارضين القبليين ، إذ شنوا في أواخر يولية **١٩٠٨ م** غارة دموية على أحد مخيمات القوات الحكومية تحت جنح الظلام . وبعد أن اغتالوا الخفراء الذين كانوا يحرسون المخيم ، تسللوا بصمت إلى داخله وذبحوا كل الجند وعددهم ثلاثمائة جندي ، وانسحبوا دون أن يتركوا وراءهم سوى سبعة قتلى من زملائهم .[٣٥] ويلاحظ هنا أن القبائل طورت أسلوبها القتالي ضد القوات الحكومية ، فأخذت تعتمد على الغارات الليلية المفاجئة ، وهو من أساليب « حرب العصابات » حسب المصطلحات المعاصرة . ولا شك أن هذا التطوير كان وليد الرغبة في تجنب الدخول في معركة مواجهة كبيرة تكلف القبائل خسائر فادحة في الأرواح نتيجة تفوق القوات الحكومية في الأسلحة النارية ، وخاصة المدفعية التي ثبت أن القبائل لا تطيق الصبر على مواجهة قذائفها .

وقد أدت أعمال المقاومة القبلية تلك بلا ريب إلى إعاقة سرعة إنجاز العمل في مد السكة ، كما أنها كلفت الدولة خسائر كبيرة في الأرواح والأموال . ولكنها لم تستطع رغم كل ذلك ، وما كان بإمكانها ، الحيلولة دون المضي قدماً بمد السكة ، التي أوصلت إلى المدينة المنورة في أوائل أغسطس **١٩٠٨ م** . وما حل اليوم الثاني عشر من ذلك الشهر حتى غادرت حيفا أول قاطرة تجر تسع عربات محملة بالنفط متجهة إلى المدينة المنورة . أما التدشين الرسمي للسكة فتقرر أن يقام في محطة المدينة المنورة في اليوم الأول من الشهر التالي .[٣٦] وقد جرى ذلك التدشين في موعده المقرر بالفعل في حفل كبير وسط مظاهر حماسة كبيرة أبداها أهالي المدينة المنورة ، الذين هزهم أن يروا هذه السكة تمتد مسافة ١٣٠٠ كيلومتر لتصل مدينتهم بالعالم الخارجي .[٣٧]

ولم ينه تشغيل سكة الحديد المقاومة القبلية ، بل زادها تأججاً ، لأن أبناء القبائل حسوا عملياً خلال موسم الحج الأول الذي مرَّ بعد افتتاح السكة مقدار الخسائر التي لحقت بهم وحرمتهم من موارد مالية كثيرة كانوا يعتمدون عليها . وقد لاحظ القنصل البريطاني في دمشق في أوائل ربيع الأول **١٣٢٧ هـ**/أواخر مارس **١٩٠٩ م** أن نشاط القبائل المعادي لسكة الحديد قد ازداد عندئذ بصورة أكبر مما كان عليه في الشتاء الماضي . إذ أخذت القبائل تشن هجمات متواصلة ضد السكة وحراسها ، وغالباً ما يكون هناك في كل يوم سفك دماء في هذا الجانب أو ذاك . وأضاف أن هدف المهاجمين هو تدمير السكة لغاية محطة المدائن الواقعة على بعد حوالي

مائتين كيلومتر شمال المدينة . وقد نجحوا مؤخراً بالفعل في قلع ما طوله كيلومتراً واحداً من القضبان والعوارض الخشبية وحملوها معهم بعيداً . ولكن الجزء المخرب وضع تحت الإصلاح فوراً وأعيد الاتصال ثانية . وختم القنصل روايته بالقول أن هذه الروح العدوانية لدى القبائل أكثر سوءاً مما كانت عليه قبلاً ، وهي مستمرة ، ويرجح استمرارها .[٣٨]

وإزاء ذلك الوضع المتردي عادت السلطات الحكومية لمحاولة التفاهم مع القبائل ، وأوكلت تلك المهمة إلى بحري باشا متصرف المدينة المنورة والشريف حسين أمير مكة المكرمة . فأخذ الأخير يسعى للقيام بالتوفيق بين القبائل والسلطات الحكومية لتسوية القضية . وذكر القنصل البريطاني في دمشق أن جهود الوساطة تلك لم تلق نجاحاً ملحوظاً في البداية .[٣٩] ولكن تلك الجهود حققت بعد شهرين نتيجة إيجابية ، إذ كتب القنصل البريطاني في جدة إلى سفير دولته في استانبول ، ناقلاً عن سليمان البسام ، التاجر الكبير المقيم في مكة المكرمة ، **قوله** : « ... بالنسبة لبدو الحجاز فقد جلبوا للسكينة بإجراءات الشريف الحكيمة ـ فخذا قبيلة حرب الكبيران ـ المسروح وبنو سالم ، اللذان كان يهاجمان سكة القطار قدَّما خضوعهما وضماناتهما طبقاً للعادات العربية معلنين أنهما لن يهاجما سكة القطار بعد ذلك » .[٤٠]

ويبدو أن تلك الضمانات التي قدمتها القبائل للشريف حسين ، وما حصلت عليه مقابل ذلك من ترضيات مادية ، كانت كافية لهدوء الموقف حول سكة الحديد خلال السنوات التالية . إذ ليس بين يدي ما يشير إلى تجدد غارات القبائل على السكة خلال الفترة الواقعة بين عام **١٣٢٧ و ١٣٣٤ هـ/١٩٠٩ و ١٩١٦ م** . إلى أن تجددت تلك الغارات على أيدي أتباع الشريف حسين نفسه حين أعلن ثورته على الترك في التاسع من شعبان **١٣٣٤ هـ/العاشر من يونيه ١٩١٦ م** . وكانت تلك الغارات هي القاضية على سكة حديد الحجاز التي لم تقم لها بعدها قائمة . ولا فائدة في الاستفاضة هنا في الحديث عن تلك الغارات فهي خارج نطاق هذا البحث .

ونعود الآن للحديث عن توقعات الدبلوماسيين الأجانب عن الفوائد التي يتوقع تحققها للمنطقة من جراء إكمال إنشاء السكة ، وعلى وجه خاص تأثيراتها على سكان المنطقة وقبائلها . فالقنصل البريطاني في دمشق ذكر أن الآمال كانت واسعة قبل افتتاح السكة في أنها ستؤدي

إلى ازدهار كبير في التجارة ، ولكنه لاحظ بعد مرور سبعة أشهر على افتتاحها وجود صعاب تقف في طريق الانتفاع منها بما يحقق أقصى الفوائد المتاحة .(٤١) ولا أعتقد أن فترة قصيرة كهذه كافية للحكم على مدى المنفعة الاقتصادية المتحققة من مشروع كبير مثل السكة ، خاصة وأن تلك الفترة كانت بداية التشغيل ، ورافقتها الغارات القبلية على الصورة التي مر ذكرها . ويحسن ألا يغيب عن البال هنا أن الموقف البريطاني تجاه السكة عموماً كان يتسم بالتحفظ منذ البداية ، خوفاً من أن يكون منفذو المشروع الألمان يهدفون من ورائه إيجاد موطئ قدم لهم في غرب وجنوب شبه الجزيرة يمكنهم من القفز إلى مياه المحيط الهندي دون حاجة للمرور بالبحر الأحمر الذي تتحكم بريطانيا في منفذيه قناة السويس ومضيق باب المندب .

أما القنصل العام الأمريكي في بيروت فقد كان حتى قبل افتتاح السكة أكثر تفاؤلاً من زميله البريطاني ، إذ كتب قائلاً : « ... لا أستطيع إلا الإيمان بأن التقدم العثماني في الحجاز ، والمناطق الساحلية الواقعة خلفه ، سوف يكتمل عاجلاً أو آجلاً ، وستهل على البدو أياماً أكثر سعادة ، بالرغم من نقائص الترك . فعلى طول ساحل البحر الأحمر ، في الحجاز وعسير واليمن ، هناك أرض واسعة قابلة لتطوير مادي . ومن الممكن أن يتم في تلك المناطق إدخال آلات حديثة وخلق صناعات جديدة وتنمية التجارة ... لقد كُتِبَ وقيل الكثير عن الإمكانات المتاحة لبلاد العرب التركية في ظل حكومة مستقرة وتقدمية . ولكن اعتباراً قليلاً أعير لأهمية وجود سكان مجدين كادحين بدونهم لا يمكن أن ينجح في إصلاح البلاد ، الحكومة التركية سيئة السمعة ، ولكنها ليست أكثر سوءاً مما يستحق العرب ... وفيما يتعلق بالصحراء فيجب أن يعمل البدو الذين ظلوا فيها بصبر على التخلي عن حروبهم وغاراتهم . ويمكن أن يتحقق هذا عن طريق توفير الحماية لتلك القبائل التي قررت هجر القتال نهائياً ومكافأتها على ذلك . [ويجب اتخاذ خطوات لتوفير المراعي الصيفية لمواشيها] ، وبذلك يمكن جعل الصحراء ، كما اعتقد ، تستوعب عدداً كبيراً من السكان الرعويين المزدهرين ... » .(٤٢)

ويبدو القنصل هنا مغرقاً في تفائله ، فلم يتحقق لقبائل البادية في ظل الحكم العثماني ما توقعه من أمن ورخاء – وما كان بإمكان الحكومة العثمانية في الواقع أن توفر ذلك لهم – فهي لم تكن معنية في سياستها بذلك الجانب من ناحية ، وكانت إمكاناتها المادية منهكة تماماً في أخريات أيامها من ناحية أخرى . ويحسن في هذا السياق التعليق على الرأي السيء الذي أبداه القنصل

في العرب . والواقع أن هذا القنصل لم يكن منفرداً في إبداء هذا الرأي ، بل إنه يتردد في كتابات كثير من الدبلوماسيين الغربيين الذين عملوا في المنطقة العربية حينئذ . واعتقد أن ذلك الرأي كان نتيجة مقارنة ظالمة يعقدها الدبلوماسيون في أذهانهم بين إنتاجية الفرد ونشاطه العام في المجتمع العربي مع إنتاجية ونشاط مثيله في مجتمعاتهم . ولكن تلك المقارنة تغفل أمراً مهماً جداً وهو أن الفرد الغربي لم يظهر تلك الإنتاجية العالية والنشاط الجم إلا بعد أن توفر له حدٌّ أدنى من الغذاء والتعليم الكافيين ، وقامت المشاريع الاقتصادية الكبيرة من صناعية وزراعية التي وفرت له الميدان المناسب لابداء مهاراته ، وتمتع بقدر كبير من الأمن ، وتلك ظروف لم يهيء للفرد العربي أن يحيا في ظلها حينئذ .

الخاتمة :

كان مد السكة الحديدية الحجازية ذا هدف ديني رئيسي ، ولكنه مصحوب بهدف سياسي ، تمثل في الرغبة بتعزيز قبضة الدولة العثمانية في غربي شبه الجزيرة العربية ، وربما وسطها أيضاً . وقد أدركت القوى السياسية المحلية ذلك الهدف السياسي وتخوفت من نتائجه . ولذلك كان موقفها أقرب للتحفظ تجاه مد السكة ، ويتجلى ذلك التحفظ في أبرز صوره في رفض الشريف حسين للمحاولات الكثيرة والإغراءات الكبيرة التي بذلتها الحكومة العثمانية لإقناعه بالموافقة على مد السكة في المدينة المنورة إلى مكة المكرمة وجدة .[٤٣] ولعل ذلك التحفظ هو الذي جعل الشريف حسين بن علي وسلفه الشريف علي بن عبد الله لا يبذلان جهوداً جدية في التوسط لدى القبائل وإقناعها بعدم معارضة مد السكة ، مع ما هو معروف عن نفوذ أشراف مكة الكبير بين تلك القبائل . وهذا النفوذ هو الذي مكن الشريف حسين من إقناع تلك القبائل عام **١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م** بالكف عن المقاومة كما مر ، وربما كان تحركه في هذا السبيل قد جاء في النهاية نتيجة قناعته بأن السكة لن يقدر لها بعد ذلك الوصول إلى مكة المكرمة . ويلاحظ هنا أن أشراف مكة وغيرهم من القوى المحلية المجاورة رغم تحفظها على سكة حديد الحجاز فإنها لم تقم بجهد حربي مباشر أو تحرك سياسي مكشوف ضدها .

وقد وقع عبء المقاومة المسلحة على عاتق قبائل المناطق الحجازية التي مدت فيها السكة . وكان الدافع الأساسي لتلك المقاومة دافعاً اقتصادياً ليست له أبعاد سياسية ظاهرة ،

ويلفت النظر هنا أن قبائل جنوب سوريا وشرق الأردن التي تمر السكة في أراضيها أيضاً لم تسهم في تلك المقاومة التي اقتصرت على القبائل المقيمة حول المدينة المنورة والتي تضررت اقتصادياً من السكة نتيجة فقدها للموارد المالية التي تعودت على تقاضيها عند كل موسم حج ، ويدلل اقتصار المقاومة على القبائل المحيطة بالمدينة على أن تلك المقاومة لم تكن انعكاساً لرفض حضاري لمخترعات المدنية الحديثة كما حاول القنصل العام الأمريكي في بيروت أن يوصي بذلك ، إذ لو كان الأمر على تلك الصورة لاشتركت فيه أغلب القبائل التي تمر السكة في ديارها في سوريا والأردن والحجاز .

وأخيراً يلاحظ أن السلطات الحكومية العثمانية لم تبد كفاية في تهيئة أذهان القبائل لتقبل فكرة مد سكة الحديد في ديارها ، ولم توفر لها بدائل للموارد المالية التي خسرتها من جراء مد السكة . واكتفت بإغداق الهبات والعطايا على مشايخها ، أو سوق القوات الحكومية ضدها في حملات غير مجدية كلفت الدولة الكثير من الخسائر المادية والمعنوية ، وكان من الأجدى للسلطات الحكومية لو أنها طرحت مشروع إنشاء السكة على القبائل وأقنعتها به باعتباره جزءاً من مشروع حضاري اقتصادي متكامل ، يتم بموجبه حفر الآبار على امتداد السكة الجديدة لتوطين القبائل حولها وحول محطات السكة الجديدة . وبذلك كان يتوفر لأبناء القبائل مصدر بديل للعيش من خلال الزراعة والرعي حول الآبار ، ومن خلال استيعاب كثير منهم في العمالة اللازمة للسكة حراساً وعمالاً يدويين ، ولعل خزانة الدولة المنهكة والمثقلة بالأعباء في هذه الفترة هي التي حالت بينها وبين النهوض بمشروع كبير مثل هذا ■

● الهوامش ●

(١) د. محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٧ .

(٢) نبيل عبد الحي رضوان ، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، جدة ، ١٤٠٣ ، ص ١٧٠ .

(٣) وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي : ماضيه وحاضره ومستقبله ، في مجلة « الفيصل ، العدد ٣٢ ، صفر ١٤٠٠ هـ ، ص ١٢٨ » .

(٤) رضوان ، مرجع مر ذكره ، ص ١٧١ .

(٥) الخيمي ، مرجع مر ذكره ، ص ١٢٩ .

(٦) رضوان ، مرجع مر ذكره ، ص ١٧١ .

(٧) حرب نشبت بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣ م ، ثم تدخلت فيها بريطانيا وفرنسا ، وانتهت بتوقيع معاهدة باريس عام ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م .

(٨) *N.A.R.S., RG 84, Misc. No. 1982, Bie Ravndal, Am. Con. - Gen., Beirut, to W. Magelssen, Am. Con., Bagdad, Dated 31/8/1908, P. 17.*

(٩) عن تلك الحملة راجع؛ خالد السعدون ، أضواء على حملة شريف مكة على القصيم عام ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م ، في « الدارة ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، شوال ١٤٠٤ ، ص ص ٦٧ - ٧٢ » .

(١٠) أوصلت السكة إلى تبوك في أول سبتمبر ١٩٠٧ ، راجع : الخيمي ، مرجع مر ذكره ، ص ١٢٩ .

(١١) *PRO, FO. 424/219, No. 71, Consul Devy to Sir G. Lowther, Dated 23/3/1909.*

(١٢) *N.A.R.S., RG 84, Misc. NO. 1092, P. 17.*

(١٣) *Ibid, P. 18*

(١٤) *Ibid, P. 19*

(١٥) *10 R, R/14/5/25, No. 609, Sri G. Lowther to Foreign Office, London, Dated 29/7/1909.*

(١٦) *OP. CIT., PP. 20 - 21*

(١٧) قبيلة تعيش في المنطقة الممتدة بين خيبر وقلعة الزرقاء . راجع : أيوب صبري باشا ، مرآة جزيرة العرب ، ت . د. أحمد فؤاد متولي و د . الصفصافي أحمد المرسي ، الرياض ، ١٤٠٣ ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

(١٨) حي عظيم من قضاعة ، يقيمون في وادي ينبع وشماله إلى العيص وأم لج . راجع : عاتق بن غيث البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، جدة ، ١٣٩٩ ، ج ١ ص ص ٨٩ - ٩٠ .

(١٩) بطن من بني سنان من جهينة . راجع : البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ص ١١١ .

(٢٠) *PRO, FO. 424/219, No. 17*

(٢١) ولد محمد في بني سالم من حرب ، راجع : عاتق بن غيث البلادي ، رحلات في بلاد العرب ، جدة ، بدون تاريخ ، ص ٩ .
والحوازم بطن كبير من بني سالم من حرب ، دياره في وادي الصفراء قرب المدينة . راجع : البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٢٢) *N.A.R.S., RG 84, Misc. No. 1092, P. 18*

(٢٣) *Ibid*

(٢٤) *10R, R/15/5/25, NO. 23, H.B. M's Consul. Jeddah, to Sir G. Lowther, Dated 5/5/1909, endosure 1*

(٢٥) *OP. CIT., P. 18*

(٢٦) رضوان ، مرجع مر ذكره ، ص ١٧٥ .

(٢٧) OP. CIT., P. 18

(٢٨) N.A.R.S., RG 84, NO. 177, Bie Ravndal, Am. Con. - gen., Beirut, to J. Leishman, Am. Amb, Const., Dated 16/7/1908.

(٢٩) OP. CIT., P. 20

(٣٠) N.A.R.S., RG 84, No. 181, Bie Ravndal, Am. Con. - Beirut, to J. Leishman, Am. Amb., Const., Dated 3/8/1908.

(٣١) Ibid

(٣٢) N.A.R.S., RG 84, Misc No. 1092, P.21.

(٣٣) N.A.R.S., RG 84, No. 177

(٣٤) N.A.R.S., RG 84, No. 92, T. Struve, Am. Con. Agent, Haifa, to Bie Ravndal, Am. Con. - Gen., Beirut, Dated 12/8/1908.

(٣٥) Ibid

(٣٦) Ibid

(٣٧) PRO, FO. 424/219, No. 18, Sir G. Lowther to Sir E. Grey, Dated 5/4/1909, Enclosure 2.

(٣٨) PRO, FO. 424/219, No. 17.

(٣٩) Ibid

(٤٠) 10R, R/15/5/25, No. 25, H.M's Consul, Jeddah, to Sir G. Lowther, Dated 30/5/1909.

(٤١) PRO, FO. 424/219, No. 18, enclosure 2

(٤٢) N.A.R.S, RG 84, Misc. No. 1982, PP. 21 - 22

(٤٣) الخيمي ، مرجع مر ذكره ، ص ١٢٩ .

• المصادر والمراجع •

(١) الوثائق غير المنشورة :

National Archives and Records Services (N.A.R.S.), Washington,

Record Group (RG) 84 :

1 — No. 1092, Bie Ravndal, Am. Con. Gen., Beirut, to W. Magelseen, Am. Con., Baghdad, dated 31/8/1908.

2 —No. 177, Bie Ravndal to J. Leishman, Am. Amb., Const., dated 16/7/1908.

3 —No. 181, Bie Ravndal to J. Leishman, dated 3/81908.

4 —No. 92, T. Struve, Am.-Con. Agent, Haifa, to Bie Ravndal, dated 12/8/1908.

Public Records Office (PRO), London, Foreign Office (FO):

1 —424/219, No. 17, Consul Devy to Sir G. Lowther, dated 23/3/1909.

2 —424/219, No. 18, Sir G. Lowther to Sir E. Grey, dated 5/4/1909, with two enclosures.

India Office Records (IOR), London:

1 —R/15/5/25, No. 609, Sir G. Lowther to Foreign Office, London, dated 29/7/1909.

2 —R/15/5/25, No. 23, H. M's Consul, Jeddah, to Sir G. Lowther, dated 5/5/1909.

3 —R/15/5/25, No. 25, H. M's Consul, Jeddah, to Sir G. Lowther, dated 30/5/1909.

(٢) المراجـع :

١ ـ أيوب صبري باشا ، مرآة جزيرة العرب ، ترجمة د. أحمد فؤاد متولي و د. الصفصافي أحمد المرسي ، ج ٢ ، الرياض ، ١٤٠٣ .

٢ ـ خالد السعدون ، أضواء على حملة شريف مكة على القصيم عام ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م . في « الدارة ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، شوال ١٤٠٤ هـ » .

٣ ـ عاتق بن غيث البلادي ، رحلات في بلاد العرب ، جدة ، بدون تاريخ ، معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ، جدة ، ١٣٩٩ هـ .

٤ ـ محمد كمال دسوقي (الدكتور) ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٥ ـ نبيل عبد الحي رضوان ، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، جدة ، ١٤٠٣ .

٦ ـ وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي : ماضيه وحاضره ومستقبله ، في « الفيصل ، العدد ٣٢ ، صفر ١٤٠٠ هـ » .



نموذج للنمو العمراني في مدينة سعودية صغيرة

- دراسة لحالة مدينة حريملاء شمال غرب الرياض -

● د . صلاح عبدالجابر عيسى ●

مقـدمـة :

ركزت دراسات نمو المدن السعودية على حالات المدن الكبيرة أساساً أو المتوسطة(*) ، بينما لم تلق المدن الصغيرة اهتماماً يناسب انتشارها الواسع مؤخراً إثر ارتباط قيامها بإنشاء البلديات .

وقد وقع الاختيار على حالة مدينة حريملاء كمدينة صغيرة لدراسة نشأة ونمو العمران بها بهدف التأصيل الجغرافي للمظهر العمراني القائم حالياً من جانب ، ومحاولة استخلاص النموذج الذي سار ويسير عليه النمو العمراني في مدينة سعودية صغيرة وقديمة من جانب آخر . فمن المعلوم أولاً أن الوراء التاريخي للظاهرة العمرانية له تأثير واضح على كل عناصرها التوزيعية والبنائية والوظيفية . ويرتبط فهم وتفسير تلك العناصر بالأبعاد التطورية ، وثانياً فإن المدينة السعودية عموماً شهدت وتشهد في الفترة الأخيرة قفزات تطورية ضخمة بكل المقاييس تواكب في ذلك النهضة الشاملة بالمملكة والتي تخطط لها وتدعمها الدولة ، وتمثل حريملاء نموذجاً لمدينة صغيرة قديمة اجتمع فيها العمران القديم التقليدي ، والعمران الحديث المخطط ، وفيما بين ازدواجية هذين النوعين قامت عملية تحول عمراني بارز له خصائصه ودوافعه ، وربما تلقى دراسة نمط تطور العمران في حريملاء الضوء على الأحوال التطورية للمدن السعودية المماثلة .

ويحسن أن نعالج الموضوع من خلال العناصر التالية :

١ ـ الصورة التوزيعية العامة للعمران الحالي بمدينة حريملاء كآخر ما أسفر عنه النمو العمراني وكمدخل يفيد في استجلاء الصور التطورية السابقة لعمران المدينة .

٢ ـ العوامل المؤثرة على نشأة ونمو العمران بمدينة حريملاء في الماضي والحاضر على وجه الإجمال ثم تتبع آثارها فيما بعد .

٣ ـ مراحل واتجاهات النمو العمراني ، وخصائص كل مرحلة تطورية وهي محور الدراسة .

٤ ـ النموذج العام للنمو والتطور العمراني بمدينة حريملاء وهو بمثابة نتيجة الدراسة . أما مصادر المادة العلمية للدراسة فيمكن تصنيفها كالتالي :

أ ـ الكتابات السابقة : وتشمل :

١ ـ مصادر تاريخية عن نجد وتاريخ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجغرافية المملكة السعودية .

٢ ـ الدراسات والبحوث وأهمها ما كتبه صالح الطعيس عن مدينة حريملاء سنة ١٣٩٩ هـ .

٣ ـ تقارير بيوت الخبرة عن حريملاء وأهمها تقرير دار الرياض وبلفور في رمضان سنة ١٤٠١ هـ .

ب ـ الخرائط والمخططات وتم الحصول على الأولى من وكالة وزارة الشؤون البلدية والقروية لتخطيط المدن ، وتغطي منطقة حريملاء أربع لوحات بمقاييس ١ : ٢٥٠٠ معدة عن صور جوية التقطت سنة ١٩٧٦ م . أما المخططات فحصل عليها من بلدية حريملاء وهي تشمل جميع مخططات الحزم (سبعة مخططات) ومخططات تحيط بالبلدة القديمة خاصة في الشمال فضلاً عن مخططات تعديل أجزاء بالبلدة القديمة .

جـ ـ الدراسة الميدانية : أجريت الدراسة الميدانية للعمران في حريملاء من خلال الجهد المشترك لمجموعة دراسة العمران المؤلفة من د. محمد حجازي ، د. محمد بهجت ، والباحث ، من قسم الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، في الفترة من ربيع أول ١٤٠٣ هـ (ديسمبر ١٩٨٢ م) إلى جمادى الثاني ١٤٠٣ هـ (ابريل ١٩٨٣ م) وقد أمكن عن طريق الدراسة الميدانية :

١ ـ التحقق من الآثار العمرانية والشواهد الحضارية لحريملاء وأهمها بقايا الأسوار والقلاع والبوابات .

٢ ـ اللقاء مع الثقات من أهل الخبرة في حريملاء ومنهم (الشيخ ناصر ـ عبدالله بن قضيب ـ عبدالرحمن المشعل) وإمكان وضع أول خريطة تفصيلية لأحياء البلد القديمة .

٣ ـ المسح التفصيلي لأحوال المساكن والمباني بحريملاء واعتبار ذلك أحد مؤشرات أعمار المباني وفترة إنشائها .

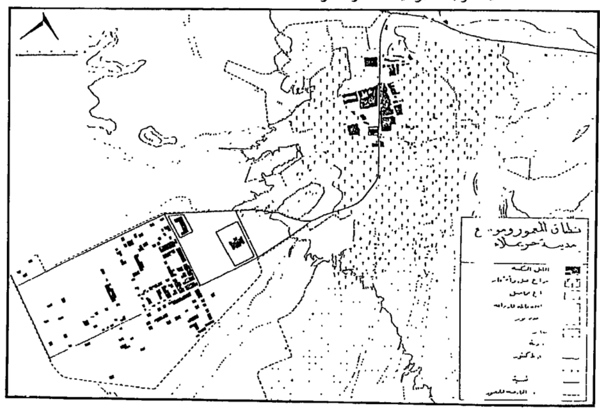
٤ ـ توقيع التوسع العمراني الحديث على الخريطة في البلد القديمة وإنشاء أول خريطة لتوزيع وحدود العمران القائم وتحت الإنشاء في مخططات منطقة الحزم .

٥ ـ حصر وتسجيل عمليات الإحلال والتجديد في البلد القديمة ومحاولة استكمال حلقات التطور العمراني من خلال ذلك .

ونعالج فيما يلي العناصر السابقة للموضوع .

أولاً : الصورة التوزيعية العامة لعمران حريملاء :

يمكن تحديد النطاق المعمور في حريملاء بالمساحات التي تشغلها مساكن المدينة ومبانيها ، القائم منها وفي دور الإنشاء بمرافقها المختلفة المبينة والمكشوفة وكذلك بمساحة الأراضي المستخدمة استخداماً اقتصادياً مرتبطاً بوظيفة عمران ونشاط سكان المدينة .



شكل رقم (١)

وبناء على ما سبق فإن النطاق المعمور في حريملاء يشغل مساحة ٧,٦٨٢,٥٠٠ متراً مربعاً[١] ، أي أنها تمثل ١,٧٦٪ فقط من جملة مساحة منطقة حريملاء الطبيعية (٤٣٥ كم٢)[٢] والتي تمتد فيما بين خطي عرض ٥٧ ˉ ٢٤° ، ١١ ˉ ٢٥° شمالاً ، وفيما بين خطي طول ٥٥ ˉ ٤٥° ، ٩ ˉ ٤٦° شرقاً ، ويكاد المعمور أن يتركز في الشمال الشرقي للمنطقة الطبيعية حيث ملتقى مجموعات الأودية التي تنصرف إليها مياه حوض حريملاء الطبيعي (خريطة رقم ١) .

ولا يتخذ النطاق المعمور شكلاً مساحياً منتظماً بل تظهر له أطراف وامتدادات في معظم الاتجاهات ، وبشكل عام يمكن تصور امتداد المعمور في محور شمالي شرقي جنوبي غربي شبه متصل ، وإذا ضرب عليه شكل هندسي يساير الإحداثيات الفلكية يصبح الامتداد الشمالي الجنوبي للمعمور في مسافة ٣,٣٧٥ كم ، والامتداد الشرقي الغربي في مسافة ٤,٢٥ كم . وتتوزع مساحة المعمور على نوعين رئيسين من الاستخدام :

أ ـ **أراضي المزارع** : ويمارس فيها النشاط الزراعي بالمدينة وتبلغ مساحتها ٦,٩٣٢,٥٠٠ متراً مربعاً ، أي نحو ٩٠,٢٪ من جملة المعمور ، ويمكن أن نميز فيها بين المزارع القديمة التي يغلب عليها زراعة النخيل وتقع في الوسط وتبلغ مساحتها نحو ٣,٠٠٠,٠٠٠ متراً مربعاً (٣٩٪ من المعمور) ثم المزارع الحديثة للمحاصيل الحقلية والمشروعات الإنتاجية الزراعية وتقع على الهوامش وتمثل ٥١,٢٪ من المعمور إذا أضيف إليها مساحات مجاري الأودية الرئيسية المتخللة لنطاق المعمور .

ب ـ **الأراضي المبنية** : وهي محور الاهتمام في دراسة العمران وتبلغ مساحتها ٧٥٠,٠٠٠ متراً مربعاً أي ٩,٨٪ من جملة معمور حريملاء .

ومن خريطة توزيع العمران (شكل ١) يتضح أن المعمور المبني ينقسم حسب نمط التواجد إلى نوعين : عمران كتلي متجمع ـ عمران مساكن منفردة وتجمعات صغيرة .

١ ـ **العمران الكتلي المتجمع** : وهو المظهر العمراني الغالب والمعبر عن مدينة حريملاء أساساً إذ يشغل نحو ٦٧٠,٦٠٥ متراً مربعاً (٨٩,٤٪ من العمران أو المعمور المبني) ، ويقع العمران المتجمع في كتلتين كتلة قديمة ، وكتلة حديثة .

الأحياء السكنية في حريملاء القديمة

شكل رقم (٢)

ـ **الكتلة القديمة** : وهي حريملاء القديمة وتكاد تتوسط نطاق المزارع القديمة في شمال وسط المعمور ، وتبلغ مساحتها ٢٢٥,٦٨٨ متراً مربعاً (٣٠,١٪ من مساحة العمران) . والكتلة شبه مندمجة يمكن أن تستوعبها دائرة نصف قطرها ٤٠٠ متر ، مع وجود بعض المزارع داخل الدائرة ويتوزع عمران الكتلة على ٢٢ حياً سكنياً(*) في الوقت الحالي تتضح من الخريطة (رقم ٢) يحيطها بعض الأحياء غير السكنية والأحياء السكنية من الشمال والشرق إلى الجنوب ، والغرب هي : التويمية ـ حلة الماجدي ـ القعيدي ـ المريزة ـ الخوى ـ صبيخة الربيع ـ الطويلعة ـ غصيبة ـ نميلان ـ الحنيني ـ الزيداني ـ موافق ـ الملقى ـ الشريعة ـ الوسيطى ـ العقدة ـ سوق المشاعلة ـ الشهواني ـ أم الذهب ـ قراشة ـ الحسيان ـ أم الخوابي . وتختلف هذه الأحياء في مساحتها وأعداد المباني السكنية وغير السكنية القائمة بها (جدول ١) ومن الحصر الميداني اتضح وجود ٣٦٧ مبنى قائم بالكتلة القديمة وهذا يعني أن متوسط عدد المباني في الحي الواحد نحو ١٦ مبنى ، ويتضح من الخريطة أن بعض الأحياء السابقة تتخللها مساحات فضاء واسعة مثل العقدة ونميلان والشهواني ، وبعضها يتضمن مزارع مثل الحنيني وأم الخوابي والحسيان وسوق الشاعلة والتويمية والخوى والمريزة ، والبعض أزيل بعض مساكنها لشق وتوسيع الشارع العام الذي يقطعها من الشمال إلى الجنوب مثل حي غصيبة وموافق والعقدة (بدأ الشق في سنة ١٣٨٧ هـ ، والتوسع في سنة ١٣٩٢ هـ) . والجدير بالذكر أن بعض المباني الحديثة قد قامت على مسافة تتراوح بين ١٠٠ – ١٥٠ متر من الكتلة المجمعة مثل المدرسة المتوسطة الجديدة في الشرق والفندق الجديد في الشمال .

ـ **الكتلة الجديدة** : وتتمثل في مباني حي الحزم القائمة وتبلغ مساحتها ٤٤٤٩١٧ متراً مربعاً أي ٥٩,٣٪ من مساحة عمران حريملاء الحالي ونحو ضعف مساحة عمران البلد القديمة وتوجد كتلة الحزم في أقصى جنوب غرب معمور حريملاء ويفصلها عن كتلة البلد القديمة ١,٣٥٠ كم على خط مستقيم ونحو ١٥٠٠ متر على طول الطريق الرئيسي الموصل بينهما ويقع في المساحة الفاصلة بين الكتلتين مزارع النخيل ـ جهة الكتلة القديمة ، ومزارع المحاصيل المهجورة مؤقتا ـ جهة الحزم ، وبينهما مساحة تقترب من ٦٥ ألف متراً مربعاً تشغلها مقابر ، والجدير بالذكر أن منطقة المقابر هذه كانت تقع على هامش المعمور مثلها مثل منطقتي المقابر الأخريين للمدينة ، لكنها أصبحت واسطة عقد لمحور السكن البشري بحريملاء ، طرفاه للأحياء ومرتكزة للأموات .

جـــدول رقـــم (١)
العمـــران في الأحيـاء السكنيـة في حريملاء القديمـة(*)

م	اسم الحـــي	المساحة/متر٢	عدد المباني الحالية	مباني مزالة	مباني مزالة للشوارع	العدد الأصلي
١	التويميـــة	٨٣٧٥	٧٧	–	–	٧٧
٢	حلـة الماجدي	١٥٦٢٥	٣١	–	–	٣١
٣	العقيـــدي	١٠٩٣٧,٥	١	–	–	١
٤	المريـــزة	٢٥٠٠	٥	–	–	٥
٥	الخبـــوى	٤٠٦٢,٥	٣	–	–	٣
٦	صبيخة الربيع	١٣١٢٥	٤٢	–	–	٤٢
٧	الطويلعـــة	٢٨١٢,٥	٧	–	–	٧
٨	غصيبـــة	١٣٤٣٧,٥	٤٣	٢	٥	٥٠
٩	نميـــلان	٤٦٨٧,٥	١٥	١	–	١٦
١٠	الحنيـــني	١٠٣١٢,٥	٢٥	–	–	٢٥
١١	الـزيـداني	٨١٢٥	١٢	٣	–	١٥
١٢	مـــوافـق	٢٢٥٠٠	٥٢	–	٧	٥٩
١٣	الملقـــى	٢١٨٧,٥	٥	–	–	٥
١٤	الشريعـــة	١٠٩٣٧,٥	١٧	٣	–	٢٠
١٥	الوسيـــطى	١٠٧٥٠	١٠	٧	–	١٧
١٦	العقدة (والبراحة)	٢١٨١٢,٥	١٣	٣٠	٥	٤٨
١٧	سوق المشاعلة	٩٠٦٢,٥	١٥	–	–	١٥
١٨	الشهـــواني	٢٠٩٣٧,٥	٢٤	–	–	٢٤
١٩	أم الـذهـــب	١٣٠٠٠	١	–	–	١
٢٠	قـراشـــة	١٠٣٧٥	١٤	–	–	١٤
٢١	الحسيـــان	١٢١٨٧,٥	٥	٣٥	–	٤٠
٢٢	أم الخـوابي	١٠٨١٢,٥	٢٠	–	–	٢٠
	الجمـــلة	٢٣٨٥٦٢,٥	٣٦٧	٨١	١٧	٤٦٥

ويقوم العمران الحالي في الكتلة الجديدة بصفة أساسية على ثلاثة من المخططات السبعة التي وضعتها البلدية للتوسع العمراني منذ سنة ١٣٩٧ هـ وهي مخطط ٣٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ . ويلاحظ من الخريطة أنها تشغل الجزء الشرقي والأوسط من منطقة الحزم ، وهي أقرب المخططات إلى البلد القديمة ، ولم يغط العمران القائم حالياً سوى ٢٦,٥٪ من جملة مساحة المخططات الثلاثة (١,٦٨٢,٥٠٠ متر٢) . وأكبر المخططات إشغالاً المخطط ٣١٠ (٣٣,٦٪ من مساحته مبنى) يليه مخطط ٣٩٨ (٣٠٪) ثم مخطط ٢١٩ (١٦٪) . والملاحظ عموماً أن القطع المبنية في المخططات متجاورة إلى حد كبير . ويبلغ عدد المباني القائمة حالياً بالحزم ٣٢٦ مبنى تمثل ٢٧٪ من العدد المخطط له في المخططات الثلاثة ، هذا فضلاً عن ثلاثة مباني قائمة في المخطط رقم ٣٧٠ من بين ٤٤٦ مبنى متوقعاً . والجدير بالذكر أن ٧٧,٥٪ من جملة مباني منطقة الحزم تقوم على المخطط رقم ٣١٠ .

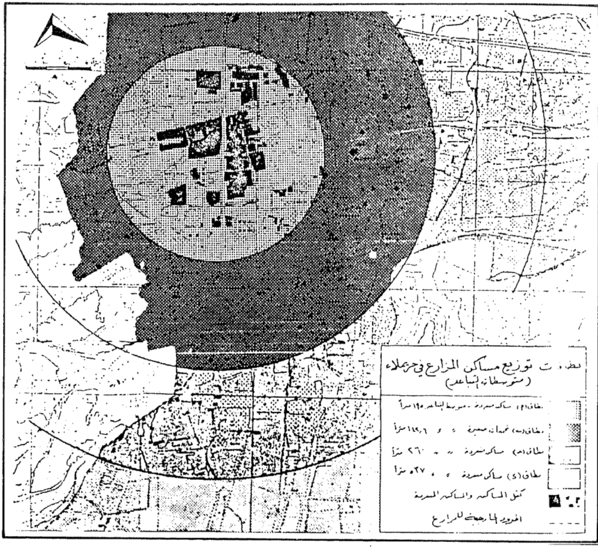
٢ ـ عمران المساكن المنفردة والكتل الصغيرة :

ويحتل مساحة نحو ٧٩٣٩٥ متراً مربعاً ، أي ١٠,٦٪ من مساحة المعمور المبنى ويقوم عليها ١٥٥ مبنى من مساكن المزارع .

وإذا أخذنا من كتلة العمران القديم بؤرة للمنظور التوزيعي لعمران المزارع يمكن تسجيل ملاحظتين أساسيتين :

ـ يتوزع نحو ٨٠٪ من عمران المزارع إلى الجنوب وإلى الشرق من الكتلة القديمة بحكم الامتداد الواسع للمزارع في الاتجاهين ، ويحظى الجنوب بنحو ١/٢ العمران تقريبا (٧٥) مسكن ، والشرق بنحو ١/٣ العمران (٥١ مبنى) هذا بينما يقع في المزارع الغربية ٢١ مبنى وفي الشمالية ٨ مباني .

ـ تختلف مساكن المزارع في نمط تجمعها بين مسكن منفرد وبين تجمع صغير ، ويختلف نمط توزيع هذين الشكلين حسب البعد من عمران البلد القديمة وتتضح هذه الملاحظة إذا طبقنا على مساحة عمران المزارع ثلاث دوائر متتالية مركزها نقطة متوسطة بأقدم أحياء البلد القديمة وأنصاف أقطارها (نصف ، واحد ، واحد ونصف) (خريطة رقم ٣) فسوف تظهر لدينا أربعة نطاقات أو مجالات مساحية متتالية حول المدينة القديمة



شكل رقم (٣)

(أ ، ب ، جـ ، د) يتباين فيها توزيع عمران المزارع من حيث العدد ومدى التجمع ومتوسط التباعد(*) وذلك على النحو التالي :

النطاق (أ) : ومساحة المزارع فيه ٥٦٠٠٢٦ متراً مربعاً ، وعدد المساكن ١٧ مسكناً معظمها مساكن منفردة ، ومتوسط التباعد ١٩٥ متراً ، ويحيط النطاق بالكتلة القديمة .

النطاق (ب) : مساحته المعمورة ٢,٠٧٧,١٤٣ متراً ويقوم به ١١٨ مسكناً أي ٧٦٪ من عمران المزارع ومعظمها تجمعات صغيرة متوسط عددها ٥ مباني ومن أكبرها منطقة سوق المهيزي (١٢ مبنى) في الشرق ، ومزرعة ابن قضيب في الغرب (٧ مباني)

ومزارع الباتل ، العطاس ، الناصر ، العمار (٦ مباني في كل منها) . ومتوسط التباعد في هذا النطاق ١٤٢,٦ متراً ، ويتفق النطاق مع مزارع النخيل .

النطاق (جـ) : ومساحة مزارعه نحو ١,٠٠٠,٠٠٠ متر٢ ، ويقوم به ١٧ مبنى غالبيتها مساكن منفردة ومتوسط التباعد فيه ٢٦٠ متراً ، ومعظم مزارعه للمحاصيل الحقلية .

النطاق (د) : وتقع مزارعه في أقصى شرق وجنوب المعمور ومساحتها نحو ٧٥٠,٠٠٠ متر٢ ولا يقوم بها سوى ٣ مباني منفردة ، وبالتالي فمتوسط التباعد ٥٣٧ متراً .

الخلاصة أن النطاق ب والذي يقع على مسافة تتراوح بين ١/٢ - ١ كم عن مركز البلد القديمة وأكثر قليلاً من نصف كم عن أطرافها هو النطاق الرئيسي لمساكن المزارع ، ويقل التوزيع حجماً وكثافة خارجه وداخله .

ثانياً : عوامل نشأة وتطور العمران بحريملاء :

يرتبط قيام العمران في منطقة ما بعدة عوامل من أهمها : ١ ـ توافر إمكانات إعالة السكان غذائياً ، وهذا يعتمد أساساً على وجود المياه ومقومات الإنتاج الاقتصادي . ٢ ـ توافر عنصر الأمن من الخطر المحلي والخارجي ، وقدرة السكان على ذلك . كما يرتبط تطور العمران أساسا بما يطرأ على العاملين السابقين من تغير قد يعزى إلى أسباب طبيعية أو سكانية أو اقتصادية أو سياسية ... الخ .

ويمكن أن نميز ثلاث مجموعات من العوامل التي أثرت وتؤثر على نشأة وتطور العمران بمدينة حريملاء وإن اختلفت درجة تأثير كل منها في الماضي والحاضر ، وهي :

أ ـ عوامل الموضع : وأكثرها أهمية ثلاثة :

١ ـ توافر المياه :

توجد ثلاثة موارد للمياه بمنطقة حريملاء هي :[1]

ـ جريان الأودية الجافة التي تستمد ماءها من الأمطار السيلية الشتوية أساساً ، وتخرج الأودية من نطاق المرتفعات المحيطة بالمنطقة وتتقارب مجاريها حول وخلال النطاق المعمور لتتجمع في وادي أبي قتادة ، (خريطة ١) ونظراً لقصر فترة جريان الأودية ـ مع غزارته ـ

فإن الاستفادة المباشرة من مياهها محدودة ، اللهم إلا إذا ظهرت وسيلة لتخزين المياه بإقامة العوائق أو السدود .

- المياه تحت السطحية ، وهي المختزنة من مياه الأمطار والأودية في طبقات الحصى والحصباء والرمال ، ويتوقف توافرها على سمك ونوعية الصخور وكذلك منسوب السطح وعلاقته بمجاري الأودية كما تتأثر كمياتها بحجم وفصل سقوط المطر وتستخرج المياه تحت السطحية بواسطة حفر آبار بأعماق تتراوح بين ٤٠ – ٤٥ متراً ، وقد أحصى الباحث ٧٩ بئراً في المنطقة المعمورة حاليا في حريملاء[١] ويلاحظ أنها تتركز في المعمور المزروع ، بل ويقترن ٣٤ بئراً بمساكن المزارع على حين لا تظهر الآبار داخل كتل العمران المتجمع سواء القديم أو الجديد وإن ظهر عدد محدود على أطراف المدينة القديمة ، وتعد الآبار السابقة المصدر الرئيسي لمياه الزراعة وكانت كذلك لمياه الشرب حتى أدخلت المياه الحكومية إلى المدينة منذ سنة ١٣٩٣ هـ ، وعلى ذلك فقد تغير عدد الآبار مع التطور العمراني والاقتصادي للمدينة في مراحله المختلفة .

- المياه الجوفية العميقة : ولم يبدأ حفر الآبار للحصول عليها إلا في سنة ١٣٨٩ هـ ، وهي تستخدم حالياً للشرب فقط حيث تعتمد المدينة القديمة أساساً على بئرين مهمين إحداهما خاص ، ونوعية مياهها معقولة لكن كميتها محدودة ، والثانية تابعة للبلدية ومياهها كافية لكنها تميل إلى الملوحة .[٢] وقد حفرت بئر جديدة لتغذية شبكة المياه في الحزم ضمن خطة لإقامة سبع محطات طلمبات مياه جوفية لكل من الحزم والمدينة القديمة .

٢ ـ توفر التربة الزراعية :

تتميز تربة منطقة حريملاء بأن معظمها رسوبية منقولة بواسطة مياه الأودية وهي عموماً تصلح للزراعة مع توافر المياه ويمكن أن نميز منها عدة أنواع :[٣]

- تربة الروضات أو مناطق الشجيرات الطبيعية وهي غنية بالدبال ومرتفعة الإنتاجية والزراعة فيها بعلية وهي أرض مشاعة لجميع سكان المدينة .
- تربة السهول وهي نوعان : تربة سهول فيضية رسوبية في مناطق ملتقيات الأودية والمصاطب الفيضية وهي تربة خصبة تشكل حالياً أراضي مزارع النخيل القديمة ومعظم

مزارع المحاصيل الحديثة ، والنوع الثاني تربة السهول التحاتية وهي تربة محلية مشتقة من صخر منطقتها وتغطي أراضي منطقة الحزم لكنها ضعيفة الاحتفاظ بالمياه قليلة الخصوبة .

- تربة سرير الوادي المتكونة في مجاري الأودية وهي فقيرة الدبال ، ملحية ، ناقصة المقطع ، قليلة الخصوبة ، ويمكن زراعتها في فترات الجفاف بإضافة الغرين والمخصبات .
- تربة سفوح المرتفات وهي قليلة السمك ، قليلة الخصوبة ، ضعيفة الإنتاجية .

٣ ـ مناسيب الأرض :

هناك ثلاثة خطوط كنتور رئيسية لها أهميتها الخاصة بالنسبة لعمران حريملاء هي :

- خط كنتور ٧٧٠ متراً فوق سطح البحر ، ويمثل نقطة الانتقال من المرتفعات المحيطة إلى السهول الوسيطة ، أو هي في الغالب نقط مخارج الأودية من أقدام المرتفعات .
- خط كنتور ٧٥٠ متراً ، ويمر في أقصى شرق معمور حريملاء حيث تصل مياه الأودية المتعددة بعد التئامها في وادي واحد هو أبوقتادة ، وفيما بين هذين الخطين تنحدر الأرض عموماً نحو الشرق ، وتفصيلاً مع اتجاه جريان الأودية ، ويبلغ معدل الإنحدار بين الخطين من الغرب إلى الشرق ١ : ٢٢٠ تقريباً .
- خط كنتور ٧٦٠ متراً ، ويكاد أن يحدد المعمور المزروع من الغرب كما يفصل بين المدينة القديمة ومساكن المزارع من جانب ، وبين المدينة الجديدة من جانب آخر .

وفضلاً عن ذلك يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

- الأراضي الواقعة فيما بين الأودية أو عند مقارنها ، أعلى منسوباً من غيرها ، وتظهر على هيئة مصاطب فيضية كانت بقعاً مناسبة لقيام العمران فوقها . وتقوم المدينة القديمة في منطقة اقتران أودية الشعبة والشريج الأيمن وأبو قتادة .
- يميل العمران المتكتل إلى احتلال الأجزاء الأعلى منسوباً فالمدينة القديمة تحتل أعلى المناسيب في غرب المعمور المزروع والحزم الجديدة تقع إلى الغرب منها على منسوب أعلى من ٧٦٠ متراً .

وواضح من العرض السابق أن عوامل الموضع قد ساهمت في اختيار مناطق السكنى الأولى وكذلك مناطق التوسع العمراني اللاحق .

ب) **عوامل الموقع** : وأكثرها أهمية ثلاثة أيضاً :

١ ـــ مجاورة حريملاء كواحة زراعية لمناطق رعوية ولبعض الواحات الفقيرة مثل القرينة (٣ كم) وسدوسي وملهم (٢٠ كم من كل) . ونظرا للغنى النباتي والزراعي النسبي في حريملاء أصبحت هدفاً لاغارات البدو خاصة في فترات الجفاف ، وكذلك قام النزاع المستمر بينها وبين الواحات المجاورة وأغار أهل حريملاء عليها في سنوات متعددة[1] بهدف السيطرة

٢ ـــ الاقتراب من العيينة والدرعية

الواقعتين إلى جنوبها الشرقي بمسافة ٣٥ كم[٢] ، ٦٠ كم على الترتيب ، وترتبط المدينتان بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبتأسيس الدولة السعودية وانعكست آثارها على حريملاء فيما تعرضت له من غزوات وما أقيم فيها من قلاع وحصون وأسوار حول العمران ومن قبل الوهابية غزا صاحب العيينة ومعه صاحب الدرعية حريملاء في سنة ١٠٩٦ هـ ، كما غزاها مرة ثانية سنة ١٠٩٨ هـ . لاحتلالها[١] وكرر غزوها مرتين أخريين في سنة ١١٢٣ ، ١١٢٨ هـ .[٢] وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد انتقل مع والده من العيينة (مولده) إلى حريملاء سنة ١١٣٩ ، وبدأ منها دعوته التي لم تلق فيها قبولاً واسعاً ، فغادرها الشيخ إلى العيينة بعد وفاة والده سنة ١١٥٣[٣] ، ثم إلى الدرعية حيث آزره أميرها محمد بن سعود في نشر الدعوة ، ودخلت حريملاء منذ سنة ١١٥٨ تحت ولاية الدرعية وشاركت في نشر الدعوة وتكوين الدولة وما ارتبط بها من حروب . وحينما سقطت الدرعية على يد إبراهيم باشا خضعت له حريملاء سلماً سنة ١٢٣٣ هـ .[٤]

المهم أن العاملين السابقين قد ساهما في اختلال الأمن والاستقرار مما دعا السكان إلى تحصين مساكنهم ومزارعهم بالأسوار درءاً للغزو والهجوم المتوقع ، بل لجأ السكان في بعض الفترات إلى هجر المساكن المنفردة والتجمع في أحياء سكنية محصنة ومسورة .

٣ ـــ الاقتراب من الرياض :

تقع مدينة حريملاء على نحو ٩٠ كم شمال غرب الرياض ويصلها طريق جيد مرصوف ، وكان لهذا الاقتراب من عاصمة الدولة أثران متناقضان على تطور عمران حريملاء . الأول سلبي يحدد النمو العمراني والوظيفي ، حيث اشتدت هجرة أهل حريملاء إلى العاصمة ،

كما أصبحت الرياض المركز التجاري والخدمي المباشر لأهل حريملاء التي تضاءل قدرها التجاري والخدمي تبعاً لذلك . أما الأثر الإيجابي المشجع للنمو فيتمثل في التأثير الحضاري الذي انتقل من العاصمة إلى أهل حريملاء فضلاً عن اهتمام العاصمة بحريملاء كأحد متنفساتها الخلوية وكمصدر قريب للمنتجات الغذائية الزراعية .

جـ)عوامل مرتبطة بخطط التنمية في المملكة :

أخذت المملكة بسياسة الخطط الإنمائية الخمسية منذ سنة ١٣٩٠ (١٩٧٠) حيث بدأت الخطة الأولى والتي انتهت سنة ١٣٩٥ ، ونفذت الخطة الثانية من سنة ١٣٩٥ حتى ١٤٠٠ ، وكانت ميزانية هذه الخطة نحو ١٢ ضعفاً لميزانية الخطة الأولى نتيجة لارتفاع عائدات البترول خلال سني الخطة ،[1] وتنفذ الآن سني الخطة الخمسية الثالثة (١٤٠٠ – ١٤٠٥) . وتعد سياسات التنمية هذه المسؤولة أساساً عن التطور العمراني الشامل في كل المملكة في الفترة الأخيرة ، وقد ارتبط بهذه السياسة ثلاثة متغيرات أساسية أدت إلى النمو العمراني الطفري والضخم هي :

١ ــ ارتفاع دخول الأفراد نتيجة لسياسة التوظيف والتوسع في المشروعات الاستثمارية بدعم الدولة .

٢ ــ الدعم الحكومي للتوسع العمراني ، بمنح أراضي البناء ، وتيسير قروض صندوق التنمية العقارية .

٣ ــ قيام البلديات بإعداد وإنجاز مخططات التوسع العمراني وإنشاء المدن الجديدة ، وتزويد العمران القائم بالخدمات والمرافق الشبكية المتقدمة .

ثالثاً : مراحل واتجاهات النمو العمراني لحريملاء

تقوم الدراسة المتكاملة للنمو العمراني على تتبع التغير الحادث في كل المساحة المبنية ، وفي عدد المباني ، وأعداد السكان ، وهي العناصر الرئيسية الثلاثة للهيكل العمراني ، وذلك منذ فترة نشأة العمران حتى صورته الراهنة .

ولا تتوافر عن مدينة حريملاء بيانات موثوق بها يمكن أن تسعف الباحث لتتبع ذلك وعلى فترات زمنية محددة ، ولكن المتاح لا يتجاوز بعض الأرقام السكانية في تعداد ١٣٩٤ هـ

(١٩٧٤ م) ، وبعض التقديرات لمساحة المساكن وأعدادها وجملة سكانها في المدينة القديمة والمدينة الجديدة أوردها تقرير بلفور سابق الإشارة عن سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

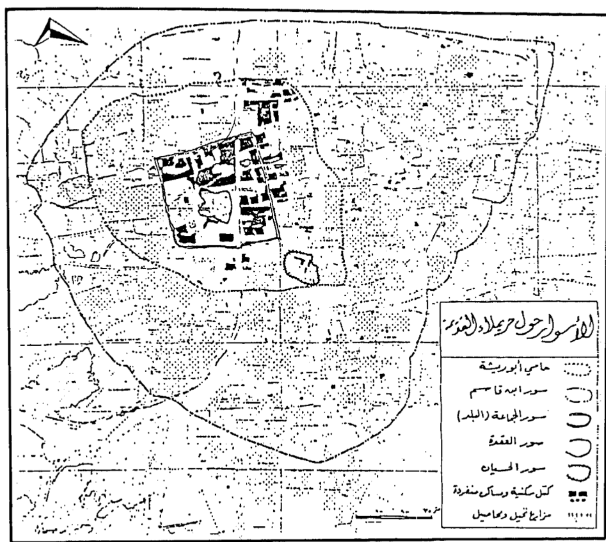
ومع ذلك فهناك بعض القرائن أو الشواهد التي تعين على تمييز مراحل عامة للنمو العمراني أهمها :

١ ــ **الأسوار**[1] : وقد بنيت ـ كما ذكر ـ لتوفير الحماية لسكان المدينة في مساكنهم أو في مزارعهم ، وتتابعت على حريملاء خمسة أسوار تختلف في الزمان والمكان فهي من أقدمها إلى أحدثها : (خريطة رقم ٤) .
- سور أبو ريشة ، وأقيم في نهاية القرن التاسع الهجري .
- سور الحسيان بني في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري .
- سور العقدة ، بني في أوائل القرن الثاني عشر الهجرية .
- سور البلد (الجماعة) في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .
- سور ابن قاسم ، بني فيما بين سنة ١٢٢٨ - ١٢٣٢ هـ .

أما من حيث المكان فيلاحظ توزع الأسوار في إطارات متتابعة ، ولا يعني هذا اتفاق التتابع التاريخي والمكاني ، فأقدم الأسوار يحيط بثلاثة أسوار أحدث منه ، بينما يعد أوسع الأسوار (الخارجي) أحدثها . وترتب على هذا اختلاف الأسوار حسب استخدام الأرض التي أحاطت بها أو تحيطها بحيث يمكن أن نميزها إلى نوعين :
- أسوار أحاطت بالعمران المبني ، وتشمل سور الحسيان في الجنوب ، والعقدة في الوسط .
- أسوار أحاطت بالمزارع والكتلة المبنية ، وتشمل أسوار أبو ريشة والبلد وابن قاسم .

ويتضح من هذا أن الاعتماد على الأسوار وحدها لا يكفي في تصور كيفية تطور العمران .

٢ ــ **فترات تعمير الأحياء السكنية في البلد القديمة** : وقد أمكن تحديد الفترات التقريبية لتعمير هذه الأحياء بالاستعانة بالكتابات التاريخية ، ومراجعة الثقات من أهل حريملاء المعمرين ، فضلاً عن ملاحظات الحصر الميداني التفصيلي لحالات المباني في جميع أحياء المدينة القديمة . ومع أن تحديد فترات التعمير هي أحد محصلات الدراسة إلا أنه مؤشر رئيسي لتمييز مراحل النمو العمراني .



المصدر : المراجع التاريخية والتحقق الميداني   شكل رقم (٤)

ويتضح من الخريطة رقم (٥) أن ثلاثة أحياء قد عمرت فيما قبل منتصف القرن الحادي عشر الهجري وهي : الحسيان ـ العقدة والبراحة ، وقد أزيلت مبانيها القديمة وحل محلها عمران أحدث (المسجد الكبير وميدانه في العقدة والبراحة والمدرسة الابتدائية في الحسيان) فيما عدا الجزء الشمالي الشرقي من حي العقدة والذي لا يزال باقيا ، وإن كانت معظم مساكنه متهالكة ومهجورة .

ـ كما عمرت أربعة أحياء أخرى فيما بين منتصف القرن الحادي إلى منتصف الثاني عشر الهجري هي الملقى وغميلان والخنيني في شمال غرب حي العقدة الأقدم ، وحي قراسة في جنوبه الغربي .



شكل رقم (٥)

ـ وفيما بين منتصف القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الرابع عشر عمرت خمسة أحياء ، أربعة منها متصلة وتقع شرق العمران الأقدم وهي حي غصيبة ـ موافق ـ الشهواني ـ الوسيطى ، وهو أحدثها والحي الخامس منفصل عنها وهو سوق المشاعلة في الجنوب الشرقي .

ـ وفي أواخر القرن الرابع عشر هجري عُمِّرت ستة أحياء تحيط بالعمران السابق من الشمال (الحلة ـ الصبيخة) والشرق (الطويلعة ـ الزيداني ـ الشريعة) والجنوب (أم الخوابي) . كما نشأت مباني حديثة في أحياء زراعية مجاورة للكتلة السابقة هي الإمارة في حي القعيدي في الشمال ومساكن التويمية والخوى والمريزة في الشمال الشرقي ، ومساكن سوق المشاعلة الحديثة والمدرسة المتوسطة الحديثة في الشرق . ومعهد المعلمات الثانوي (١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ) في مزرعة أم الذهب في الجنوب .

وواضح مما سبق أن ثمة اطراداً في نمو الأحياء السكنية خلال الفترات المتتابعة ، كما أن التوزيع المكاني للأحياء المتزامنة يتخذ أشباه أقواس تحيط بالعمران الأقدم مع استثناء في الجهة الغربية التي توقف نمو إحيائها عند منتصف القرن الثاني عشر الهجري .

ومن خلال الربط بين الصورة التوزيعية العامة للعمران الحالي ، والعوامل المؤثرة على نمو العمران بحريملاء ، واستناداً إلى القرينتين السابقتين يمكن تمييز **أربع مراحل للنمو** حسب طبيعة الامتداد العمراني وتوزيعه ومعدله وهي :

أ) مرحلة النشأة : (عمران مزارع مشتت)

ذكر البكري (متوفى سنة ٤٨٧ هـ) في كتابه معجم ما استعجم ، حرملاء (تصغيرها حريملاء) ، مما يدل على قدم وجودها ، ويستشهد البعض على ذلك أيضاً من ورود الاسم في بعض الأشعار الجاهلية ، ومن هنا يرى بعضهم أن حريملاء الحالية قد قامت على أطلال حريملاء المندثرة أو أنها قامت بالقرب من مكانها واستعارت اسمها لشهرته .[1]

وأول ما يرد عن تاريخ تعمير حريملاء الحالية تلك الرواية المتداولة حتى الآن ، والتي سجلها صالح الطعيسي في بحثه .[1] وهي تعزو بدء العمران الحالي إلى أحد رؤساء القبائل البدوية في الشام ويسمى يوسف أبو ريشة ، وهو نجدي الأصل ، قرر أن يعود إلى نجد مع رجاله بعد تزايد الاقتتال مع قبيلته وبحث عن مكان طيب الأرض ، صحي المناخ ، وفير المياه ، محمي بالجبال ، فلم يجده إلا في حريملاء ، ومكث سبع سنين يحفر الآبار ويشق القنوات ، ويشيد العمران كما بنى سوراً يحيط بالمنطقة التي عمرها لحمايتها من غارات البدو وتم كل هذا في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، ونتيجة لبعض الظروف السياسية بالشام عاد أبو ريشة ومعظم رجاله إليها في سنة ٨٩٣ هـ .

وحسب هذه الرواية التي يرجحها الكثيرون ويؤكد جوهرها وجود بقايا سور (حامي) أبو ريشة يمكن استنتاج خصائص العمران في مرحلة النشأة .

فقد بلغ محيط السور (أبو ريشة) ٣٠٧٥ متراً ، والمساحة التي يحتويها ٦٤٩٣٧٥ متراً مربعاً ، وهو بذلك ثاني أكبر الأسوار محيطاً ومساحة (أكبرها سور ابن قاسم) رغم أنه أقدمها ، وتتركز مساحته في القطاع الغربي من المعمور الزراعي حاليا ، وهو أعلى منسوباً عن الشرق . وإذا وضعنا في الاعتبار اتساع المساحة المسورة بالنسبة لعدد السكان المصاحبين لابي ريشة ، فضلاً عن اعتماد الزراعة الممارسة على مياه الآبار ، يصح ترجيح أن العمران الأول كان عبارة عن عمران متفرق يقترن بحفر البئر ، مصدر مياه الشرب والري معا ، كما كان محدود الحجم ، عشوائي التوزيع .

ويبدو أن ظروف عمران هذه المرحلة قد استمرت بعد رحيل أبي ريشة حتى منتصف القرن الحادي عشر ، إذ دخلت حريملاء في إمارة العطيان ، ثم في إمارة عيينة إلى أن قدم آل أبي رباع من الوشم واشتروا حريملاء من رئيس العيينة سنة ١٠٤٥ هـ وواصلوا عمرانها .[٢]

ب) مرحلة العمـران المتجمع :

وتبدأ مع منتصف القرن الحادي عشر الهجري ، وكانت حريملاء قد بلغت شأواً كبيراً من التقدم الاقتصادي والعمراني على يد آل أبي رباع ومع ذلك اجتمع عليها خطران ، الأول خارجي وتمثل في إغارات البدو والبلاد المجاورة على حريملاء طمعاً في نهب خيراتها وضمها ، والثاني داخلي وتمثل في الخلافات والانقسامات بين سكان حريملاء نتيجة لانتقال السلطة والامارة فيما بينهم . وقد ترتب على الخطر الأول تزايد الرغبة في التجمع السكني والتخلي عن مساكن المزارع المبعثرة ، ومن ثم ظهرت الأحياء السكنية المسورة داخل مساحة سور أبي ريشة ، كما ترتب على الخطر الثاني تعدد الأحياء السكنية المسورة والمتولدة عن بعضها ، فمع نشوب الشقاق يخرج المنشقون عن الحي ويؤسسون حياً جديداً .

وقد شهدت هذه المرحلة بناء ثلاثة أسوار حول الأحياء السكنية داخل حامي أبي ريشة ، أقدمها سور الحسيان[*] (في النصف الثاني من القرن ١١ هـ) وبلغ طوله نحو ٤٣٧ متراً وأحاط بمساحة نحو ١٢١٨٨ متراً مربعاً ، وذلك في الركن الجنوبي الشرقي داخل حامي أبي ريشة ، وكان سور الحسان يحتضن عموم سكان حريملاء في فترة إنشائه[١] ، ثم انقسم السكان

إلى فئتين متناحرتين ، فانتقلت إحداها خارجه وسكنت في حي يتوسط نطاق حامي أبي ريشة ، وهو حي العقدة والبراحة ، وأنشأت حوله سوراً في أوائل القرن الثاني عشر الهجري عرف بسور العقدة ، الذي بلغ محيطه نحو ٤٦٢ متراً ، ومساحة حوزته نحو ١٢٣١٢ متراً مربعاً . ويبدو أن عملية توالد الأحياء السكنية الناجمة عن نمو السكان قد أسفرت عن ظهور أربعة أحياء في الشمالي الغربي ، والجنوب الغربي لحي العقدة ولكن بدون أسوار وهي الملقى وقراشة الذين ارتبطا بفترة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ففي الأول بنى داره سنة ١١٤٠ هـ ، وفي الثاني بنى مسجده ، والحيّان الآخران هما نميلان والحنيني .

وفي أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري اشتد الهجوم الخارجي على حريملاء ، فبنى رئيسها حمد المبارك سوراً أوسع يجمع السكان القاطنين داخل الأسوار السابقة وخارجها ويضم مساحة من المزارع تؤمن حاجة السكان من الغذاء في فترات أحكام الحصار على المدينة[1] وسمي بسور البلد أو الجماعة ويبلغ محيطه ١٥٥٠ متراً ، ومساحة حوزته ١٥٥٦٨٨ متراً مربعاً ويتضح من الخريطة أنه يحيط بسور العقدة ويتوسط حوز حامي أبي ريشة .

وقد ارتبط ببناء سور الجماعة هدم سور وحي الحسيان وإجبار ساكنيه على الانتقال إلى داخل السور الأول ، فنشأ عن ذلك حيان جديدان هما الشهواني في الجنوب وغصيبة في الشمال ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .

والملاحظ أن مرحلة العمران المتجمع والتي استغرقت أكثر قليلاً من قرن من الزمان قد شهدت قيام تسعة أحياء سكنية مجمعة ـ بما فيها حي الحسيان ـ تمثل نحو ٤٠٪ من جملة أحياء المدينة القديمة حاليا ، كما تبلغ مساحاتها نحو ٨٦٥٩٨ متراً مربعاً أي ٣٨٪ من مساحة الأحياء السكنية ، وبُنِيَ فيها نحو ٢٢٢ مبنى تمثل نحو ٤٨٪ من جملة المباني الأصلية قبل الإزالة والهدم (٤٦٥ مبنى تقريباً) ، ويعكس اختلاف نسب المساحة والمساكن حالة التكدس والتلاصق البنائي الذي هو سمة الأحياء القديمة ومتطلبات الأمن فيها .

والملاحظ أيضاً أن النطاق المعمور في مرحلة العمران المتجمع تركز داخل سور أبي ريشة ، ولم يتجاوز النطاق المبني سور الجماعة في آخر مراحله .

جـ ـ مرحلة العمران المتجمع والمشتت :

يمكن أن نحدد بدايتها مع أواخر القرن الثاني عشر ، وتستمر حتى أواخر القرن الرابع عشر . وتتميز بأن النمو العمراني فيها قد اتخذ اتجاهين : اتجاهاً محدوداً نحو العمران المشتت في المزارع ـ مرة ثانية ، واتجاهاً مستمراً وقوياً نحو التجمع حول الكتلة القديمة .

فأما عن العودة إلى عمران المزارع فيلاحظ أنها اقترنت بحالة الاستقرار النسبي في حريملاء ، بعدما تحالفت مع الدرعية لنشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصبحت حريملاء توجه مقاتليها إلى الخارج أكثر مما تواجهه من غزوات ، بل أن الدرعية قد درأت عنها بعض المواجهات الحربية حتى بعد مجيء حملة إبراهيم باشا وسقوط الدرعية في سنة ١٢٣٣ هـ ، وأول ما ظهر من عمران المزارع في هذه المرحلة مساكن سوق المشاعلة خارج سور البلد من الجنوب الشرقي ، وذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري ، ويبدو أنه قد تبعها ظهور بدايات التجمعات الصغرى لمساكن مزارع النخيل الحالية خاصة إلى الشرق وإلى الجنوب خارج سور أبو ريشة ، وترتب على ذلك اتساع المعمور وتناثر المساكن فيه ، وحينما داهمت حملة إبراهيم باشا نَجْد طلب أمير الدرعية الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد من واليه أمير حريملاء موسى بن قاسم بأن ينشيء سوراً لتحصين المدينة ، فبنى في الفترة من ١٢٢٨ - ١٢٣٢ ، ما عرف بسور ابن قاسم[1] حول المنطقة المعمورة سواء بالزراعة أو السكن ، وبلغ طول السور ٦١٧٥ متراً ، ويحيط بمساحة نحو ٢,٨٦٧,٥٨٥ متراً مربعاً ، ويلاحظ من الخريطة اتجاه النمو الجديد صوب الشرق والجنوب أكثر من الغرب والشمال .

وقد تزايد نمو مساكن المزارع في هذه المرحلة حتى أن ٧٢٪ من جملتها تتركز فيما بين سور أبي ريشة (حد المعمور في المرحلة السابقة) وسور ابن قاسم ، وفي الفترة الحديثة ، والتي تلاشى فيها أثر الأسوار ووظيفتها ، واصل امتداد العمران وسكن المزارع انتشاره فيما وراء سور ابن قاسم ، حيث يتوزع فيه حالياً ١٥,٥٪ من جملة مساكن المزارع بحريملاء .

وبالنسبة لنمو السكن المتجمع يلاحظ أنه شمل منطقتين مختلفتين في المكان والزمان الأولى داخل سور الجماعة نتيجة لعملية النمو العمراني الطبيعي ، حيث عُمِّرَ حيان هما موافق في أواخر القرن الثالث عشر ، والوسيطى في أوائل القرن الرابع عشر ، وقد أضافا نحو ١٥٪ من مساحة الأحياء السكنية ، ونحو ١٦٪ من مساكنها . أما النطاق الثاني فيقع خارج سور الجماعة إلى

الشرق والشمال الشرقي والجنوب ، وقد بدأ تعميره منذ أواخر القرن الرابع عشر ، فالجدير بالذكر أن النمو العمراني ظل محصوراً داخل سور الجماعة حتى سنة ١٣٨٨[1] ثم انطلق بعدها بسرعة إلى خارجه ، فنشأت سبعة أحياء سكنية (الحلة ـ الصبيخة ـ الطويلعة ـ الزيداني ـ الشريعة ـ أم الخوابي) واقتطع حي التويمية السكني من مزرعته ، وظهرت كتل سكنية مجاورة للمدينة في حيي الخوى والمريزة ، كما انشئ مبنى الأمارة على مساحة حي القعيدي ، ولم يضف إلى العمران داخل سور الجماعة إلا مدرسة المعلمات الثانوية بنات بحي أم الذهب .

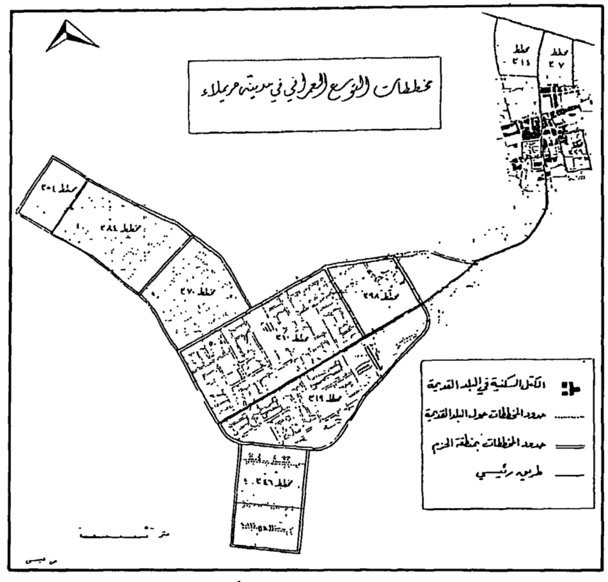
المهم أنه فيما بعد سنة ١٣٨٨ أسفر النمو عن تسعة أحياء جديدة تمثل مساحتها نحو ٤٥٪ من مساحة الكتلة القديمة ، وتضم نحو ٢٥٪ من مساكنها الأصلية (٣٠٪ من المساكن القائمة) هذا بالإضافة إلى أعداد المباني الحديثة بالمزارع المجاورة للكتلة القديمة ، والظاهرة الملفتة للنظر أن هذا النمو الضخم وقع في أقل من عشرين سنة ، وهو يعزى بالتأكيد إلى عوامل التنمية والتحول الاقتصادي الذي تشهده المملكة منذ أواخر القرن الماضي .

والخلاصة أن مرحلة العمران المتجمع والمشتت ـ رغم طولها النسبي (نحو قرنين) ، إلا أنها تعد مرحلة النمو الرئيسي في البلاد القديمة ، سواء على مستوى العمران المشتت ، (٨٥٪ منه) أو العمران المتجمع خاصة في الفترة الأخيرة .

د ـ مرحلة العمران المخطط :

وهي تتداخل زمنياً مع نهاية المرحلة السابقة ، لكنها تختلف عنها في مكان التوسع ، وأهم ما يميز هذه المرحلة أن التوسع أصبح يتبع مخططات أعدتها البلدية ، وفي مناطق جديدة ، بينما انكمش التوسع في الكتلة القديمة واقتصر البناء في الغالب على عمليات الإحلال والتجديد . وربما ترتبط بداية العمران المخطط بحريملاء بافتتاح بلديتها سنة ١٣٨٥ - ١٣٨٦ ، والتي بدأت في تنفيذ مشروعات تحسين الأوضاع العمرانية من شق شوارع ، وتوزيع مرافق ، ولكن الذي يعبر عن أثرها العمراني هو إعداد المخططات العمرانية والإشراف على تنفيذها . ويمكن تقسيم المخططات عموماً إلى نوعين :

١ ـ مخططات لتعديل مناطق قديمة ، وأهمها مخطط رقم ٣٨٢ الذي أقر في أول شعبان سنة ١٤٠٠ لتعديل المنطقة المحيطة بالمسجد الجامع بالمدينة القديمة .



المصدر : مخططات بلدية حريملاء

شكل رقم (٦)

٢ ــ مخططات للتوسع العمراني ، وهي تتوزع على جزئين : (أنظر الخريطة ٦)

ـ مخططات حول المدينة القديمة .

ـ مخططات منطقة الحزم ، والجدول التالي[1] يبين أهم معالمها :

ومما يذكر أن مخططات التوسع شمالٰ وشرق المدينة القديمة لم ينفذ منها شيء ، ويبدو أن تنفيذها قد أوقف حفاظاً على الأراضي المزروعة أو القابلة للزراعة التي خططت عليها ، بينما تركز تنفيذ المخططات على منطقة الحزم التي خططت كجناح جديد للمدينة يمكن أن يستوعب

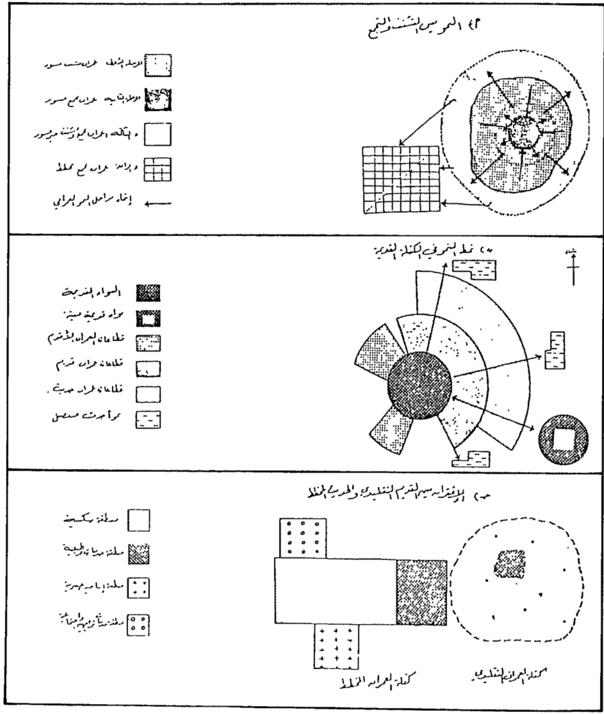
النمو السكني والسكاني في المستقبل ، كما يوفر درجة أكبر من الخدمات العامة والحكومية لمدينة حريملاء جميعاً فضلاً عن القرى التابعة لها .

جـدول (رقم ٢)
مخططات التوسع العمراني في حريملاء

رقم المخطط	استخدامه العمراني ومكانه	تاريخ إعداده	مساحته متر٢	عدد القطع السكنية المقترحة	عدد المباني غير السكنية
	أ) حول المدينة القديمة				
٣٠٧	تنظيم الأراضي شرق الشارع العام	١٣٩٧/٤	٨٤,٠٠٠	–	–
٣١٤	تقسيم الأراضي غرب الشارع العام	١٣٩٧/٤	٩٥,٠٠٠	–	–
٣٢٩	تخطيط الأراضي المملوكة شرق الشارع	١٣٩٧/١٢	٤٠,٠٠٠	–	–
	ب) منطقـة الحزم :				
٣١٠	سكن ذوي الدخل المحدود	١٣٩٧/٥	٧٨٠,٠٠٠	٧٤٤	١٤
٣١٩	منطقة خدمية وسكن دخل محـدود	١٣٩٧/٧	٦٦٠,٠٠٠	٤٥٢	١٠
٣٤٦	المنطقة الصناعيـة	١٤٠٠/١	٣٨٥,٠٠٠	–	–
٣٥٤	الأستـاد الرياضي	١٤٠٠/١	١٥٠,٠٠٠	–	–
٣٧٠	أراضي حكومية بيضاء للسكـن	١٤٠٠/٤	٣٩٠,٠٠٠	٤٤٦	٨
٣٨٤	» » » »	١٤٠٠/٨	٣٩٦,٩٠٠	٣٦٠	١٢
٣٩٨	منطقة الدوائر الحكومية والخدمـات	١٤٠٢/٥	٢٤٢,٥٠٠	–	–

وتقوم مخططات الحزم على مساحة تزيد عن ٣ كم٢ ، وأول ما بدئ عمرانه كانت المخططات السكنية (٣١٠ – ٣١٩) ثم أنشئت بعض المباني الخدمية على المخطط ٣٩٨ وتتمثل

في المعهد العلمي ومبنى البلدية الجديد ، والملاحظ أن العمران يتجه من الشرق إلى الغرب أي من جهة المدينة القديمة ـ أصل العمران .



نماذج النمو العمراني لمدينة حريملاء   شكـل رقـم (٧)

وقد أسفر النمو العمراني في منطقة الحزم منذ بدئه (١٣٩٩ هـ) حتى وقت إعداد هذا البحث (رجب وشعبان سنة ١٤٠٣ هـ) عن مساحة نحو ٤٤٤,٩١٧ متراً مربعاً من العمران المبني ، تمثل نحو ١٥٪ من مساحة المخططات بالمنطقة ، ونحو ضعف مساحة الكتلة السكنية المجمعة في المدينة القديمة ، كما أسفر النمو عن ٣٢٦ مبنى حديث تمثل نحو ١٦٪ من عدد المباني المتوقعة ، ونحو ٨٩٪ من مباني الكتلة المجمعة في المدينة القديمة . ويرجع الفرق في نسب النمو المساحي والسكني في الحزم إلى أثر التخطيط في ترك مساحات فضاء ترويحية بين المباني فضلاً عن شبكة الشوارع الواسعة (يتراوح عرضها بين ١٠ – ٢٠ متر) كما أن نمط المسكن الغالب هو الفيلا المسورة والتي تشغل قطعة مربعة مساحتها ٤٠٠ متراً مربعاً في المتوسط .

رابعاً : النموذج العام لنمو العمران في حريملاء

تهدف محاولة استخلاص نموذج عام للنمو والوصول إلى تصور مبسط للكيفية التي مر بها تطور العمران في حريملاء استجابة لظروفها الجغرافية الخاصة ، وييسر هذا فيما بعد للدراسات المقارنة ، بهدف تعميم النماذج التطورية للعمران .

ومن خلال العرض السابق يمكن أن نلحظ ثلاثة أبعاد لنموذج حريملاء التطوري .

أ) **النمو بين التشتت والتجمع** : (أنظر شكل ٧ ـ أ)

ويحاول النموذج تبسيط مراحل النمو العمراني لواحة صحراوية قديمة شهدت تحولاً ملحوظاً في مرحلتها الراهنة ، كان من معالمه استتباب أحوال الأمن ، وتوافر مقومات التنمية الشاملة والتوسع في تنفيذ مشروعاتها . وعلى ذلك يمكن أن يمر النمو العمراني في أربع مراحل متعاقبة قد تختلف فتراتها حسب كل حالة ، وهي :

١ ـ مرحلة العمران المشتت المسور ، وهو قرينة نشأة العمران في الواحات الزراعية المعتمدة على مياه الآبار للشرب والزراعة ، وعادة ما تخدم البئر مزرعة ، ويقوم حولها سكن المزرعة ، والسور هنا يحيط بالمعمور المزروع للحماية من الخطر الخارجي .

٢ ـ مرحلة العمران المجمع المسور ، وتبدأ مع نمو السكان ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، وظهور الضرورة للتنظيم والوحدة بين الجماعات القبلية لمواجهة الأخطار الخارجية ، وهنا ينتقل المستوطنون من سكن المزارع لإقامة أحياء سكنية مجمعة تعكس الأصل القبلي ،

وقد يكون بعضها مسوراً ، وقد يضرب سوراً آخر على الكتلة المبنية إمعاناً في الدفاع من وراء سورين .

٣ ـ مرحلة العمران المجمع والمشتت غير المسور ، فبعد أن يحقق التجمع السابق وظيفته في الحفاظ على كيان المجتمع ، ويستشعر المستوطنون أهميته لتوفير الخدمات المركزية ، يظهر النمو العمراني المتزايد حول الكتلة المجمعة ويتجاوز العمران السور القديم . ومع التقدم الاقتصادي والاستقرار الأمني والسياسي للمنطقة وما يحيط بها تتلاشى أهمية الأسوار ، وينطلق العمران خارجها إلى أقصى ما تستطيعه إمكانات السكان المحليين ، على هيئة عمران مشتت .

٤ ـ مرحلة العمران المخطط : وترتبط بالاستقرار السياسي والاقتصادي للدولة مركزياً وإقليمياً والتفات الحكومات إلى مشاكل العمران الراهن ومواجهتها بمشروعات التنمية المخططة لمدى بعيد ، كما يرتبط نجاح ذلك بتوافر الركيزة الاقتصادية القوية لتمويل التخطيط والتنمية . وفي هذه المرحلة قد يتناول التخطيط تعديلاً وتحسيناً في العمران القائم ، وقد ينصب على إنشاء أحياء ومدن سكنية جديدة كاملة المرافق ، منفصلة أو متصلة بالعمران القديم ، وقد يتناول لتخطيط العمليتين معاً ، وفي الحالتين تشهد المرحلة انتقال أعداد من المستوطنين لتعمير الأحياء المخططة .

ب) النمو في الكتلة القديمة للمدينة : (شكل ٧ – ب)

من الملاحظ في تطور المدن أنها تنمو ككرة الثلج ، بمعنى أن يكون لها نواة يتوالى النمو والتراكم العمراني حولها ، ولكن على عكس كرة الثلج قد يتخذ التراكم حول المدينة أشكالاً متعددة حسب الظروف الجغرافية الشاملة المؤثرة على العمران ، وحسب عدد المستويات التي نما حولها عمران المدينة فقد تكون المدينة وحيدة النواة أو يكون لها نواتان أو أكثر ، وبعض أشكال النمو العمراني منظمة مثل النمو الحلقي أو النمو القوسي أو النمو القطاعي ، وبعضها غير منتظمة أو عشوائية .

وفي حالة حريملاء يلاحظ أن الكتلة القديمة بدأت بنواتين ، أولاهما متطرفة (الحسيان) ، والثانية متوسطة (العقدة) . وقد تلاشت الأولى ولم تجذب حولها عمراناً ، بل حل مكانها عمران حديث في إطار النواة المتوسطة والتي نما حولها العمران طوال فترات التطور . ويبدو

النمو العمراني حول العقدة كما لو كان حلقياً أو شبه حلقي ، فالعمران الأحدث يحيط بالنواة من كل الجهات باستثناء ثغرة صغيرة في الغرب ، هذا مع إغفال مراحل النمو ، ولكن مع أخذها في الاعتبار يظهر النمو في نمط قوسي أو قطاعي ، فالقوس المحيط بالنواة من الغرب هو أقدمها ، يليه القوس الشرقي ثم تتوالى الأقواس أو القطاعات الأحدث جهة الشرق والشمال والجنوب ، ومع أن الغرب أعلى منسوباً من الجهات الأخرى وأصلح للنمو من حيث الموضع إلا أنه أبعد عن امتدادات المجال الزراعي للمدينة ، بعكس الجهات الأخرى التي أصبحت أصلح للنمو من حيث الموقع .

جـ) الاقتران بين العمران القديم والعمران المخطط : (شكل ٧ ـ جـ)

تمثل حريملاء نموذجاً للاقتران التكاملي ، وليس الانفصالي ، بين نطاق أصلي للعمران القديم ، ونطاق مخطط للعمران الجديد ، وبرغم المسافة الفاصلة بين الكتلتين القديمة والجديدة (١,٥ كم) إلا أن العمران المخطط لم يتخذ نمط المدينة المستقلة التي يتوسط قلبها التجاري والخدمي الكتلة المبنية ، وإنما اتخذ نمط الجناح الغربي الجديد لمدينة متكاملة ولذلك خصصت أطرافه الشرقية لتركيز الدوائر الحكومية والخدمات المركزية وهي القائمة حالياً في المدينة القديمة وذلك لكي تصبح أقرب ما تكون إلى الوضع المركزي بين الجناح السكني القديم في الشرق والجناح السكني الجديد في الغرب ، أما مساحات المرافق والأنشطة الجديدة (الأستاد الرياضي ، المنطقة الصناعية) فقد خططت على أطراف الجناح الغربي الجديد ■

• الهوامش •

(*) من أمثلة ذلك دراسة عمر الفاروق رجب عن مدن الحجاز ، ودراسة محمد الحماد عن بعض المدن الكبيرة في سنة ١٤٠٣ هـ .

(١) حسب الباحث المساحات التالية بعد توقيع أحداث التطورات على الخرائط الطبوغرافية حتى منتصف سنة ١٤٠٣ هـ .

(٢) صالح بن ناصر الطعيسي ، جغرافية منطقة الشعيب ، مدينة حريملاء ، الجزء الأول ١٣٩٩ ص ٦٨ ـ ٧٠ .

(*) تبلغ مساحة هذه الأحياء ٢٣٨٥٦٣ متر^{2} ، ويضم بعضها مثل الحنيني وأم الذهب مساحات للمزارع .

(*) الجدول من تجميع الباحث من خلال الخرائط التفصيلية ، والدراسة الميدانية وتحديد الأحياء وقياس مساحتها .

(*) متوسط التباعد = ١,٠٧٤٦ $\frac{\text{المساحة}}{\text{عدد المساكن}}$

(٣) انظر الطعيسي ص ١٣٣–١٤٥ .

(٤) تم الحصر من واقع خريطة حريملاء مقياس ١:٢٥٠٠ المعدة عن الصور الجوية سنة ١٩٧٦ م .

(٥) المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون البلدية والقروية ، تقرير لتقييم توزيع المياه في حريملاء . إعداد دار الرياض وبلفور . رمضان ١٤٠١ هـ – يوليو ١٩٨١ م . ص ٣–٤ .

(٦) انظر الطعيسي ص ١١٦–١٢٢ .

(٧) عبد الله بن محمد بن خميس ، المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية ، معجم اليمامة ، الجزء – طبعة أولى سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) ص ٣١٨ .

(٨) عثمان بن بشر النجدي ، عنوان المسجد في تاريخ نجد ، الجزء الأول ، طبعة الرياض ، ص ٨٤ ، ص ٨٨ .

(٩) عبد الله بن خميس ، المرجع السابق ص ٣١٨ .

(١٠) ابن بشر ، المرجع السابق ص ٨–٩ .

(١١) نفس المرجع ص ١٩٣ .

(١٢) عبد الكريم غعزال ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠–١٤٠١ هـ ، ص ٢٦١–٢٦٦ .

(١٣) تم متابعة الأسوار من خلال ما كتبه الطعيسي ص ١٨٥–٢٠٧ ، وأمكن تتبع بقاياها على الطبيعة مع بعض أهالي القرية ووقعت على الخرائط الدقيقة وحسب الباحث أطوالها والمساحات التي تحتويها .

(١٤) انظر عبد الله بن خميس ، المرجع السابق ص ٣١٧ .

(١٥) الطعيسي ، ص ١٤–٢١ .

(١٦) عبد الله بن خميس ص ٣١٧ .

(*) الحسيان في اللغة جمع حسي ، وهي مناطق تجمع الماء ، وربما ارتبط موقع حي وسور الحسيان بذلك ، انظر المعجم الجغرافي لابن خميس ص ٣٢٣ .

(١٧) انظر الطعيسي ص ١٩٢ .

(١٨) انظر الطعيسي ، ص ١٦٥ .

(١٩) وصل الباحث إلى هذا الرقم من خلال تتبع عدد المساكن المزالة للمخططات والتوسع في الشوارع ، وافترض أن مباني حي الحسيان نحو ٤٠ مبنى ، وهو يقترب من مباني حي العقدة .

(٢٠) الطعيسي ، ص ٤٠ .

(٢١) الطعيسي ص ٢٠٠ ، والتأكد من خلال حالة المباني ورواية السكان .

(٢٢) استخلص الباحث أرقام هذا الجول من واقع المخططات ومن المسؤولين في بلدية حريملاء .



إدارة الرسول صلى الله عليه وسلم للصراع في شبه الجزيرة العربية ونتائجه الاستراتيجية

● لواء أ . ح . محمد جمال الدين محفوظ ●

عبـــرة التــــاريخ :

● لقد أصبح من الحقائق التاريخية التي لا تُنازع أن الأمم التي تتقاعس عن بناء قوتها ، والاستعداد لدفع العدوان عنها ، تقع فريسة لأمة أقوى منها ، وتستباح حرماتها ، وتغتصب حقوقها ، وتسلب مواردها ، ولا يكون لها وزن ولا قيمة في المحيط الدولي .

● وليس من شك في أن التحديات الجسام التي تواجهها أمتنا الإسلامية تشكل أخطر تهديد يمكن أن تواجهه أمة ، وتضعها أمام موقف تاريخي حاسم ينبغي أن تتخذ منه منطلقاً لإبراز كل ما لديها من الملكات الإنسانية والذخائر المادية والحضارية ، وهي واعية كل الوعي لكل ما يهدد أمنها وسلامتها من أخطار ، وحريصة كل الحرص على بناء قوتها وقدرتها على هزيمة الخطر الذي يتهددها حتى تخطو إلى عزتها وتشق طريقها إلى نهضة حضارية ، تعيدها إلى سابق عهدها ، أمة قوية مرهوبة الجانب ورائدة للحضارة الإنسانية ، وتبوئها مكانتها اللائقة بها بين الأمم .

● من أجل ذلك ينبغي أن تفتح الأمة الإسلامية صفحات تاريخها الحافلة بالدروس النافعة ونخص بالذكر تاريخ عصر النبوة لكي تتأمل في منهج الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه والنتائج الاستراتيجية التي حققها ثم تستخلص منها الدروس والعبر ، فالله تعالى يقول :

﴿ وكلاً نقُصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ (هود ١٢٠) .

● وسوف نحاول في هذا البحث عرض عناصر المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه .

أولاً : دراسـة أحـوال العـدو

● إن معرفة العدو ودراسة أحواله ضرورة حيوية لأمن المسلمين والدفاع عنهم ، وهو ما يتضح من « الربط الوثيق » بين الأمر بإعداد القوة والمرابطة وبين التعريف بالأعداء في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (الأنفال ٦٠) . ففي هذه الآية تعريف للمسلمين بأعدائهم الظاهرين وأعدائهم الخفيين الذين عليهم أن يعدوا لهم من القوة والمرابطة ما يوقع الرهبة في قلوبهم ، وأول مقتضيات هذا الإعداد ؛ دراسة الأعداء واستطلاع أحوالهم ، لأن على أساس هذه الدراسة يتم بناء القوة الكفيلة بتحقيق الهدف الذي حدده الإسلام ...

من أجل ذلك كانت للرسول ﷺ عيون وأرصاد داخل شبه الجزيرة وخارجها يحصلون على المعلومات عن نوايا الأعداء وحركاتهم ويحققون له الإنذار المبكر بتدابيرهم وتجهيزهم للعدوان على المسلمين .

(١) ففي المدينة : كانت له عيون وأرصاد يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمصلحة العامة للمسلمين في السلم والحرب على حد سواء ، فاختار مثلاً حذيفة بن اليمان العبسي ليأتيه بأخبار المنافقين ونواياهم .

(٢) وفي مكة : كان عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي ، وكانت أيضا قبيلة خزاعة ، قال الزُّهْري : « وكانت خزاعة عَيْبَة نُصح رسول الله ﷺ (أي خاصته وأصحاب سره) مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة » .[1]

(٣) وفي القبائل العربية الأخرى : كانت له عيون ، ومنها مثلاً عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في قبيلة هوازن يوم حنين .

(٤) أما خارج شبه الجزيرة فكانت له عيون وأرصاد في بلاد فارس والروم .

● وعني الرسول ﷺ بأن يتعلم المسلمون لغة العدو ، ومن ذلك أنه أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود ، يقول زيد : « أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : إني والله ما آمن يهود على كتابي ، ثم يقول زيد : فوالله ما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته وجُدْت فيه فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم إليه » (رواه البخاري) وصدق من قال : « من تعلم لغة قوم أمن شرهم » .

● وفي الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ معنياً بالحصول على كافة المعلومات عن الأعداء ، فقد كان حريصاً على حرمان أولئك الأعداء من الحصول على معلومات عن المسلمين ونواياهم وحركاتهم .

● ومن أمثلة نشاط رجال الاستخبارات أن الرسول ﷺ كان على علم بخروج قريش لقتاله في أحد وفي الخندق عن طريق عمه العباس ، ولعل أبلغ دليل على أن الإنذار كان يأتيه مبكراً جداً هو أن المسلمين تمكنوا من حفر الخندق وهو عمل يستغرق حوالي عشرين يوماً « قبل » أن تصل قريش التي « فوجئت » به فقال قائلهم : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » وهذه الواقعة لا تدل على كفاءة أرصاد النبي ﷺ فحسب ، بل تدل ــ في الوقت نفسه ــ على عجز قريش عن الحصول على المعلومات عن نظام الدفاع عن المدينة بحفر الخندق بدليل مفاجأتها به ، كما تدل على نجاح المسلمين في كتمان أسرارهم وأسرار خططهم وحرمان العدو من كشفها .

● ثم إن هذه العيون والأرصاد بنجاحها في تحقيق الإنذار المبكر مكنت المسلمين من « إجهاض تدابير أعدائهم لمهاجمة المدينة » كما سيأتي بيانه .

ثانيا : إقامة جبهة داخلية صلبة

● كان أول ما عمد إليه الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة إقامة جبهة داخلية صلبة :

(١) فعمد إلى ربط المهاجرين ــ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ــ بالأنصار أهل المدينة الأصليين ، فآخى بينهما بصلة الأخوة ليصبحا فئة واحدة مترابطة وملتحمة وليكون الجميع متعاونين على أسباب العيش ، ويداً واحدة تعمل لهدف واحد .

(٢) وعمد إلى توحيد صف الأنصار أنفسهم حيث إنهم كانوا أوساً وخزرجاً ، وكانت بين الفئتين خلافات مستمرة وعداوات سابقة ، فأراد الرسول ﷺ ــ وقد جمع بينهم الإسلام ــ أن يشكلوا قوة واحدة متضامنة ، وأن يقضي على كل شبهة قد تثير العداوة القديمة بينهم .

(٣) وعقد معاهدة بين المسلمين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى كانت نتائجها من الناحية العسكرية قيادة الرسول ﷺ لكافة سكان المدينة مسلمين ومشركين ويهود ، وتعاون أهلها جميعاً في رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج وأنه في حالة الحرب لرد العدوان عن المدينة : تتولى كل طائفة الإنفاق على نفسها .

● بهذا العمل السياسي والاستراتيجي البارع ، حقق الرسول ﷺ وحدة المدينة وتماسك الجبهة الداخلية ، وجعل أهلها جميعاً على اختلاف دينهم يداً واحدة على أعدائهم كما وضع لمجتمع المدينة نظامه الاجتماعي والاقتصادي والعسكري ، وقد حرص عليه الصلاة والسلام على التصدي لمحاولات تفتيت هذه الجبهة الداخلية من جانب اليهود والمنافقين مثل أساليب التشكيك والتخذيل وإشاعة البلبلة ، وأساليب التفرقة والقضاء على وحدة الأمة كمحاولة اليهود الوقيعة بين الأوس والخزرج .

● وأصبحت المدينة « قاعدة الإسلام الوطيدة » ــ كما يقول رجال الاستراتيجية ــ التي تنطلق منها القوات للدفاع عن الإسلام ، وقد سجل التاريخ صلابة هذه القاعدة وقدرتها الفائقة على الصمود في مواجهة مختلف الأخطار والتحديات :

(١) فقد بلغ عدد العمليات العسكرية في عهد النبي ﷺ قرابة السبعين ما بين غزوات وسرايا في خلال سبع سنوات فقط .

(٢) وحاربت القاعدة أكثر من عدو في أكثر من جبهة ، فواجهت المشركين واليهود والروم ، وتعرضت للغزو المباشر ، وتعرضت للغزو من داخلها بينما كان أبناؤها يحاربون العدو خارجها ، وكان التفوق في العدد والعدة في جانب الأعداء .

(٣) لكنها ــ مع كل ذلك ــ بقيت قاعدة وطيدة صلبة ــ حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة ، وأمِنَ الرسول ﷺ كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلنون الإسلام .

ثالثاً : تطبيق استراتيجية الردع

● تتمثل استراتيجية الردع الإسلامية في قول الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (الأنفال ٦٠) وقول الرسول ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (رواه البخاري عن جابر) .

● فالهدف من إعداد القوة والمرابطة هو إيقاع الرهبة في قلوب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم ، ويفهم من الحديث « نصرت بالرعب .. » أن الأعداء كانوا يرهبونه عليه الصلاة والسلام ويخافونه مع بعدهم عنه بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الابل ، كما يفهم أيضاً أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم .

● وتدل إحصائيات معارك عصر النبوة على تطبيق نظرية الردع عملياً ، فالرسول ﷺ قاد بنفسه ثمان وعشرين غزوة ، حققت تسع عشرة غزوة منها أهدافها بغير قتال حيث آثر الأعداء ألا يواجهوا قوة المسلمين في أغلبها ، ولم ينشب القتال إلا في تسع غزوات فقط هي (بدر وأحد والخندق وبني قريظة وبني المصطلق وخيبر وفتح مكة ، وحنين والطائف) ويلاحظ أننا ذكرنا غزوة الفتح رغم أن القتال الذي وقع فيها لا يكاد يذكر .

صور الردع الإسلامي :

● ويستخلص من سنة الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه أن هناك أربع صور للردع هي كما يلي :

الصورة الأولى : الردع بإظهار القوة

● وقد تمثلت هذه الصورة في عدة غزوات وسرايا مثل (سرية حمزة في رمضان سنة ١ هـ ـ سرية عبيدة بن الحارث في شوال سنة ١ هـ ـ سرية سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة سنة ١ هـ ـ غزوة ودان في صفر سنة ٢ هـ ـ غزوة بواط في ربيع الأول سنة ٢ هـ ـ غزوة ذي العشيرة في جمادى الأولى سنة ٢ هـ ـ غزوة بدر الأولى في جمادى الآخرة سنة ٢ هـ) .

● هذه العمليات بدأت بعد ثمانية أشهر فقط من مقام الرسول ﷺ والمهاجرين بالمدينة ،

ويلاحظ أنها وقعت بتركيز شديد في معدلها الزمني (سبع عمليات في عشرة أشهر) ، وأن الرسول ﷺ حرص على أن يتولى بنفسه قيادة أكبر عدد منها ، وأن معظمها كان بعيد المدى (من ١٥٠ إلى ٢٠٠ كيلومتر تقريباً) على طريق التجارة إلى الشام على ساحل البحر ، وأنه لم يقع فيها قتال بالمعنى المفهوم .

● وقد حققت هذه العمليات عدة أهداف من بينها إيقاع الرهبة في قلب قريش بإشعارها بأن المسلمين « قادرون » على الإيقاع بتجارتها وإيصاد طريقها في وجهها وقد عبر عن ذلك قول صفوان بن أمية : « إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا .. فما ندري أين نسلك ؟ » .

● ثم يضاف إلى هذه العمليات غزوة فتح مكة وهي أكبر عملية طبقت فيها نظرية الردع عن طريق إظهار القوة إلى الحد الذي جَرَّد قريشاً كما جرد زعيمها أبا سفيان من إرادة القتال فدعاها إلى الاستسلام بقوله : « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

الصورة الثانية : الردع بإجهاض تدابير العدوان

● وقد تمثلت هذه الصورة في سبع غزوات هي (بني سليم ـ ذي أَمَرَّ ـ بحران ـ ذات الرقاع ـ دُومة الجندل ـ بني المصطلق ـ بني الحيان) (انظر الجدول) .

● ويكشف التحليل العام لهذه الغزوات عما يلي :

(١) كان سببها أن الرسول ﷺ بلغه أن تلك القبائل تتجمع بهدف العدوان على المدينة .

(٢) خرج الرسول ﷺ ـ على الفور ـ إلى مواضع القبائل لمهاجمتهم في عقر دارهم .

(٣) كانت القبائل عند شعورها بحركة المسلمين ، تفر تاركة أموالها وديارها .

(٤) كان المسلمون لا يعودون مباشرة إلى المدينة ، بل كانوا يبقون في ديار تلك القبائل الهاربة مدداً تراوحت بين بضعة أيام إلى شهرين لتحقيق الردع .

(٥) كانت النتيجة النهائية « إجهاض تدابير العدوان » وردع المُدَبِّرين لها حتى لا يعودوا إلى التفكير في العدوان مرة أخرى .

● وهذه الصورة تؤكد أن الإسلام لا يقف مكتوف الأيدي أمام تدابير العدوان ، بل يتحرك فوراً للقضاء عليها في مهدها ، وبذلك يحرم العدو من مزية المفاجأة ، ومن المبادأة أو حرية

العمل ، لأننا « نسبقه » في التصرف والحركة إليه ، ولا ننتظر حتى يتصرف هو ويتحرك إلينا ، وبذلك تصبح كل أعماله بمثابة « رد فعل » لما نقوم به .

● ثم إن حرص الرسول ﷺ على « أن يتولى بنفسه » قيادة هذه العمليات كلها يؤكد ما لها من شأن كبير وخطير في تقدير الإسلام وأن المبادرة بالقضاء على العدوان في مهده ، ضرورة حيوية لأمن المسلمين والدفاع عنهم .

● ويكشف نجاح عمليات إجهاض تدابير العدوان عن عدة مقومات كان المسلمون يملكونها وأهمها ما يلي :

(١) الإنذار المبكر بنوايا الأعداء مما يدل على يقظة وكفاءة العيون والأرصاد كما ذكرنا .

(٢) امتلاك « القدرات الهجومية » ، فالمسلمون في هذه العمليات « خرجوا » من قاعدتهم بالمدينة ، « وساروا » إلى مواضع أعدائهم « لتوجيه ضربتهم » إليهم ، ولولا ذلك لما استطاعوا إجهاض تدابيرهم للعدوان ، وهنا لا بد أن نصحح ما في بعض الأذهان من فهم معنى « الهجوم » على أنه مرادف للعدوان أو ينطوي على نواياه ، فالهجوم « علمياً » هو حركة نحو العدو لتوجيه الضربة إليه ، وظروف المعارك قد تدعو إلى القيام بالهجوم حتى في إطار العمليات الدفاعية . ثم إن « إيقاع الرهبة » في قلوب الأعداء الذي هو الهدف من إعداد القوة في الإسلام لا يتحقق إلا إذا أدركوا أن لدينا القدرة على التحرك إليهم وضربهم لرد عدوانهم أو القضاء على تدابيرهم في مهدها ، والمدهش أن ما قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرنا يقترب منه ما أجمع عليه رجال الاستراتيجية الحربية في عصرنا حين يقولون : « إن العقيدة العسكرية ذات الطابع الدفاعي البحت لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة في الردع ، إلا إذا توفرت لديها القدرة الهجومية ، لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد »[٢]

وتظهر القدرة الهجومية وآثارها في قول الله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحا * فالموريات قدحا * فالمغيرات صبحا * فأثرن به نقعا * فوسطن به جمعا ﴾ (العاديات ١ — ٥) ففي هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التي يسمع لأنفاسها صوت هو « الضبح » من شدة الجري ، وتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية والتي يهجم بها فرسانها على العدو في وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتي يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق في وقت الصباح فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته .

الصورة الثالثة : الردع بالقتال :

● إذا لم يتخل العدو عن التفكير في العدوان ، وركب رأسه واعتدى ، فإن المسلمين يقاتلون « مدفوعين بفكرة الإرهاب » أيضاً ، وذلك بأن تكون ضربتهم التي يوجهونها إليه على النحو الذي يردعه ويرهبه ويمنعه من التفكير في العدوان مرة أخرى . وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (التوبة ١٢٣) وقوله سبحانه : ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ (النساء ٩١) .

● ففي غزوة بدر مثلاً استطاع الرسول ﷺ إحداث خلل كبير في « التوازن النفسي » لقريش ، فقد حرص « منذ اللحظة الأولى » على اختيار أفضل المبارزين من أصحابه لمواجهة مبارزي قريش فصرعوهم جميعاً[٣] ، ونظم جيشه ووجهه للقتال مادياً ومعنوياً حتى كتب الله له النصر بأقل الخسائر على عدوه المتفوق الذي فقد من رجاله سبعين قتيلاً ، وسبعين أسيراً ، قال ابن اسحق : « ناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسوا بهم (أي تؤخروا فداءهم) لا يأرب (أي لا يشتد) عليكم محمد وأصحابه في الفداء »[٤] .

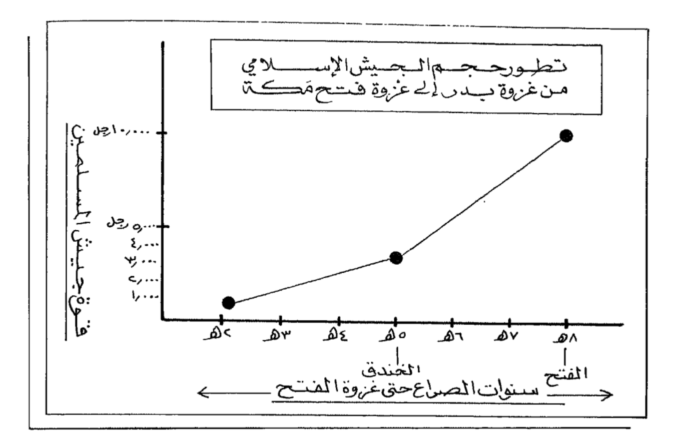
الصورة الرابعة : ردع الأعداء الأخفياء :

● ومن أمثلة هذه الصورة إحراق مسجد الضِّرار ، فقد بنى جماعة من المنافقين بذي أوان (وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار) مسجداً كانوا يحاولون فيه أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً ، فلما عرف الرسول ﷺ أمر هذا المسجد وحقيقة ما قُصد به من إقامته أمر بهدمه وتحريقه .[٥]

رابعاً : انتزاع المبادأة من أيدي الأعداء :

● إن من يملك المبادأة في الحرب يملك حرية التصرف ويحصر خصمه في نطاق رد الفعل لما يفعل وذلك من أكبر ما يساعد على التغلب عليه .

● وفي الصراع بين المسلمين والمشركين في عصر النبوة كان المشركون في البداية يملكون المبادأة ، فطوال الفترة التي قضاها المسلمون في المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق



كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونهم « بمعارك دفاعية » كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة ، وغزوة أحد في السنة الثالثة ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة التي واجه فيها المسلمون قريشاً والقبائل العربية واليهود .

● لكن الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق وجد الفرصة سانحة « لانتزاع » المبادأة من أيدي أعدائه ، فكان ذلك نقطة تحول بارزة في الصراع ، فقد روى الإمام أحمد والبخاري عن سليمان بن صُرَد ، والبزار برجال ثقات ، وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، والبيهقي عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[٦]

● إن معنى هذا القرار الخطير أن « يتحول » المسلمون من الدفاع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء انتظاراً لضرباتهم ، وبعبارة أخرى أن يتحول المسلمون من حالة « رد الفعل » إلى « الفعل » ، وقد حافظ المسلمون على هذه « المبادأة » التي انتزعوها حتى تم فتح مكة في رمضان عام ٨ هـ وارتفع لواء الإسلام فوق شبه الجزيرة .

● ومن المفيد أن ندرس ظروف وأسباب هذا القرار الخطير :

(١) فلقد فشلت قريش ــ رغم امتلاكها للمبادأة ــ في تحقيق هذا الأساس وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد بالمدينة .

(٢) وحتى في تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التي أرادت لها أن تكون « فاصلة » فحشدت لها « كل ما أمكنها حشده » من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة في القبائل العربية واليهود ، باءت بالفشل .

(٣) والذي يُتصور هو أن قريشاً ــ إزاء هذا الفشل ــ سوف تضعف عزيمتها ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى .

(٤) وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في « رصد ملامح الضعف في خصمه » ، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تماماً لتوجيه « الضربة القاضية » : « الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

خامساً : الضغط الاقتصادي على العدو

● قام المسلمون بعدة عمليات استهدفت تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام كما ذكرنا ، فنجحوا في فرض نوع من الحصار الاقتصادي حتى قال صفوان بن أمية : « إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا في دارنا هذه ، أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » .

● فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ، ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له (القَرَدة) من مياه نجد .

● وهكذا بهذا الأسلوب في الضغط الاقتصادي لم يعد أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك أسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية .

سادساً : تجريد العدو من الحلفاء

● ليس من شك في أن تجريد العدو من الحلفاء يحرمه من قُوَى كان يمكن أن تسانده وتقوي

عزيمته ، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك مع قريش فكان لذلك أثر كبير في إقناعها بتغيير موقفها من المسلمين ثم الاستسلام في النهاية :

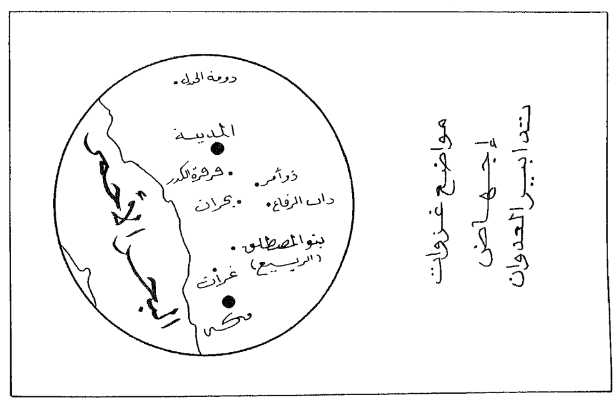
(١) فقد عقد الرسول ﷺ اتفاقات مع مختلف القبائل العربية المجاورة مثل بني ضمرة (في غزوة ودان) وبني مدلج وحلفائهم (في غزوة ذات العشيرة) وقد كان من نتائج تلك الاتفاقات ما يلي :

ـ كفالة حرية المسلمين في نشر الدعوة مما يشكل تهديداً لحاضر المشركين ومستقبلهم .

ـ كفالة حسن الجوار والمعاملة .

ـ حرمان قريش من محالفة هذه القبائل والحصول على معاونتها سواء بتأمين طريق التجارة ، أو بشد أزرها بالعدوان على المسلمين بالمدينة أو تهديد طرق مواصلاتهم أو تحركاتهم .

ـ « تحييد » القبائل التي بينها وبين قريش موادعة ومن أمثلة ذلك ما حدث في سرية حمزة في رمضان سنة ١ هـ ، فقد كان مجدي بن عمرو الجهني موادعاً لقريش وللمسلمين ، فحجز بين الطرفين ومنع نشوب القتال بينهما ، فيكون بذلك قد اتخذ موقف الحياد ولم يناصر طرفاً منهما على طرف ، ولو لم يكن المسلمون قد وادعوه من قبل ، فربما ناصر قريشاً على المسلمين .



ـ حرمان قريش من « حرية العمل » وذلك « بتضييق المساحة » التي تستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين .

ـ وحرمانها أيضا من « القواعد الخارجية » التي تسمح لها بأن تقوم بعدوان غير مباشر ضد المسلمين .

(٢) وبالقضاء على اليهود عسكرياً في شبه الجزيرة بعد إجلاء بني قينقاع وبني النضير والقضاء على بني قريظة وبعد غزوة خيبر ، جرد المسلمون قريشاً من حليف كان يشجعها ويشد أزرها ويحرضها على قتالهم .

(٣) ثم إن انتشار الإسلام في قريش نفسها وفي القبائل العربية الأخرى أضعف من موقفها في مواجهة المسلمين وجعل من الصعب بل من المستحيل أن تتوحد كلمتها لقتالهم .

سابعاً : استغلال فترات الهدنة والسلام

● كان لصلح الحديبية الذي عقد بين المسلمين وقريش في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة آثار استراتيجية لصالح الدعوة في حاضرها ومستقبلها ولتقوية مركز المسلمين في صراعهم مع أعدائهم :

(١) فقد أصبحت المنطقة التي تقع جنوب المدينة « منطقة أمينة » بالنسبة للمسلمين بعد أن كانت قبل ذلك مصدر الخطر الأكبر الذي يهدد الدعوة ويهدد المسلمين .

(١) وانحصر الخطر في المنطقة الشمالية التي تضم خصمين هما اليهود في خيبر وما حولها ، والأعراب شمال المدينة ، الأمر الذي يمكن المسلمين من القضاء على هذين الخصمين ، ليصبحوا بعد ذلك متفرغين للتحول ـ في الوقت المناسب ـ نحو الخصم الأكبر : قريش ، وإلى هدفهم الرئيسي : مكة المكرمة .

(٣) وانفتح المجال للرسول ﷺ لعقد محالفات مع القبائل التي أصبحت لا تتهيب الانضمام إلى المسلمين مادامت قريش قد التزمت بتأمين من يدخلون في حماية الرسول ﷺ وحلفه ، وخير دليل على ذلك إعلان خزاعة حلفها للرسول ﷺ قبل أن يجف مداد العهد ، قال الزُّهْرى : « فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عهد محمد وعهده »[٧]

(٤) وكسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش بسبب صد قريش المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو الهدف الذي

خرج الرسول ﷺ من المدينة من أجله ، وقد كان لهذا التعاطف أثره في تيسير عملية فتح مكة على المسلمين فيما بعد .

(٥) وفي ظل مناخ الهدنة المستقر زادت قوة جيش المسلمين ، فبعد أن كانت في غزوة الخندق (عام ٥ هـ) ثلاثة آلاف مقاتل ، وصلت إلى عشرة آلاف عند فتح مكة (عام ٨ هـ) ثم قفزت بعد الفتح إلى ثلاثين ألفاً في غزوة تبوك (عام ٩ هـ) (انظر اللوحة) .

(٦) وبعد الحديبية بشهرين بدأ الرسول ﷺ مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام : هرقل وكسرى والمقوقس وملك الحيرة وملك اليمن ونجاشي الحبشة .

ثامناً : تطوير وتدعيم القوة الإسلامية :

● في فترة وجيزة لا تتجاوز سبع سنوات تطور جيش الإسلام بقيادة الرسول ﷺ حتى لحق بمقتضيات عصره :

(١) القوة الضاربة من الفرسان :

فقد زادت قوة الفرسان في التركيب التنظيمي لجيش الإسلام حتى بلغت ثلث قوته ، وذلك خلال زمن قصير نسبياً ، فبعد أن كانت في أول معركة وهي بدر لا تكاد تذكر (فرسان اثنتان) قفزت إلى عشرة آلاف فارس في جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل في آخر معركة وهي تبوك ، والباحث المدقق يلاحظ أن جيش الإسلام قد لحق في هذا المجال بالعسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية ، إذ كانت كل منهما تقيم التركيب التنظيمي لجيشها على أساس تشكيل القوة الضاربة الرئيسية من الفرسان .(٨)

(٢) ارتفاع مستوى الكفاءة القتالية :

كان مستوى المسلمين من الرمي في بادئ الأمر أقل من مستوى الفرس الذين وصفهم الرسول ﷺ لأصحابه بقوله : « هم أكثر منكم رمية » ، فبلغ اهتمامه بتدريبهم على الرمي إلى حد أنه جعله « أساس القوة وجوهرها » ، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر يوماً ، فقرأ قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ثم قال : « ألا إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي » (رواه مسلم) وكان عليه الصلاة والسلام يكرم الرماة المهرة من أصحابه ، يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما جمع رسول

الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك (هو سعد بن أبي وقاص) ، فإنه جعل يقول له يوم أحد : ارم فداك أبي وأمي » (رواه الشيخان والترمذي) .

وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من الانقطاع عن التدريب على الرمي حتى لا ينخفض مستواهم فيه إلى حد أنه اعتبر ذلك من المعاصي أو جحود النعمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة جحدها » (رواه أبو داود وغيره) وقال : « من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصى » (رواه أحمد ومسلم) .

وقد برع المسلمون في الرمي نتيجة لهذه العناية الفائقة بتدريبهم عليه حتى استحقوا أن يطلق عليهم « رماة الحدق » أي أن الرامي منهم كان إذا صوب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها .

(٣) دعم تسليح الجيش بأسلحة جديدة .

وأضاف المسلمون إلى أسلحتهم أسلحة جديدة لم تكن لديهم من قبل وهي أسلحة الحصار ودك الحصون والأسوار وهي المجانيق والدبابات ، قال ابن هشام : « ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عُروة بن مسعود ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجَرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضُّبور »[٩]

(٤) شهادة القادة البيزنطيين.

وقد اعترف للمسلمين بملاحقتهم لعصرهم في هذه المجالات الامبراطور البيزنطي « ليو » ، فقد نقل عنه فون كريمر قوله : « إن الجندي العربي ما كان يفترق عن الجندي البيزنطي في المؤن والسلاح » كما قال عنهم : « إن العرب أمهر الشعوب الأجنبية وأبرعها على الإطلاق في العمليات الحربية » .

النتائج الاستراتيجية لإدارة الصراع .

وقد كانت النتائج الاستراتيجية لجهاد المسلمين في عصر النبوة نتائج بعيدة المدى أصبحت من الحقائق التاريخية نذكر منها ما يلي :

١ ـ تأمين الدعوة وقيام الدولة الإسلامية :

- فقريش العدو الرئيس ، أقبلت على الإسلام بعد أن ظلت عشرين عاماً تصد عن سبيل الله بكل أساليب الضغط والإيذاء والحرب .

• والمستضعفون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، عادوا إلى بلدهم تحت أعلام الإسلام والسلام .

• وأتم الرسول ﷺ ـ في أول يوم لفتح مكة ـ ما دعا إليه منذ عشرين عاماً وما حاربته قريش أشد الحرب فيه ، أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام .

• وتمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية ، وتوفر الأمن والاستقرار للدولة الإسلامية لأداء رسالتها السامية لخير البشرية .

٢ ـ تحويل اتجاهات الأعداء نحو الإسلام :

• لقد برز خلال الصراع أمر بالغ الأهمية ينفرد به الإسلام ولا نظير له في الصراعات عبر العصور بسبب ما يتصف به من سماحة وعدل ، فالصراع بين المسلمين وأعدائهم لم ينته باستسلام الأعداء فحسب ، بل أنه كان ينتهي بتحول الأعداء وتحول اتجاهاتهم من العداء للإسلام إلى الدخول فيه والحرص عليه ، بل ـ وأكثر من ذلك ـ إلى رفع راية الجهاد في سبيل الله .

• وقد ظهر هذا الأمر واضحاً في موقف قريش والقبائل العربية الأخرى بعد الفتح ، ثم ظهر واضحاً أيضاً بعد عصر النبوة في الفتوحات الإسلامية حتى أن المشير مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) تنبه إلى هذه الظاهرة وأبدى دهشة منها فقال : « من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين ! »

٣ ـ استعداد المسلمين لمواجهة الفرس والروم :

فالرسول ﷺ لم يلق ربه إلا وكان جيش الإسلام مُعَدًّا لمواجهة القوتين العظميين في عصره وهما فارس والروم ، وقد وقعت هذه المواجهة على الفور ومنذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الإسلام دين قوة وسلام:

• وبعد .. فإن الإسلام رسالة الخير والحق والمحبة والسلام ، قد ارتضاه الله ديناً لتوجيه الناس إلى أقوم السبل ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، ليصلوا منه إلى سعادتي الدنيا والآخرة ، والسلام في مبادئ الإسلام أصل في عقيدته ، وتحتل فكرته المقام الرئيسي بين أهداف الإسلام ومقاصده العامة .

غـزوات إجهـاض تدابـير العـدد للعـدوان

رقم مسلسل	اسم الغزة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوة المسلمين	النتائج
١	بني سُليم	شوال عام ٢ هـ	قَرْقَرة الكُدْر بين المدينة ومكة	بنو سليم وغطفان	٢٠٠	فرار بني سليم وغطفان تاركين أموالهم للمسلمين
٢	ذي أَمَرّ	المحرم عام ٣ هـ	ذو أمر موضع في نجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠	فر بنو ثعلبة ومحارب وبقي المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٣	بحران	ربيع الأول عام ٣ هـ	بحران على طريق المدينة بمكة	بنو سليم	٣٠٠	فر بنو سليم فبقى المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٤	ذات الرقاع	شعبان عام ٤ هـ	ذات الرقاع بنجـد	بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفـان	٤٠٠	فرار بني ثعلبة وبني محارب
٥	دُومة الجندل	ربيع الأول عام ٥ هـ	دومة الجندل	قبائل دومة الجندل	١٠٠٠	فـرت القبائـل
٦	بني المصطلق	شعبـان عام ٥ هـ	المريسيـع	بنو المصطلق	١٠٠٠	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
٧	بني لحيان	جمادى الأولى عام ٦ هـ	غُران	بنو لحيان	حوالي ٣٠٠٠	فـرار بني لحيـان

• لكن الإسلام ـ في الوقت نفسه ـ « دين عملي » يأخذ الحياة من واقعها ، فقد راعى طبائع الخلائق وميلها إلى المشاحنات ، من أجل ذلك اقتضت حكمة الله جل شأنه أن يكون الإسلام « دين قوة أيضاً » ليدافع بها عن نفسه ويرغم أعداءه على أن « يلزموا حدودهم » .

• إنه لا يفوت الباحث المدقق أن ذكر الجنوح للسلم ورد « بعد » الأمر بإعداد القوة والمرابطة في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ (الأنفال ٦٠ - ٦١) فيفهم من ذلك ما يلي :

(١) لا جنوح للسلم مع ضعف أو قلة ، أي لابد من استمرار وجود « القوة الرادعة » .

(٢)ولا جنوح للسلم مع تهاون أو غفلة ، أي لابد من استمرار وجود « الرباط » .

أي أن الجنوح للسلم في الإسلام يكون مع قوة المسلمين الرادعة ومع يقظتهم التامة ، وأن السلام الذي يدعو إليه الإسلام : سلام تحميه القوة والاستعداد ، لأنهما أقوى ضمان لتحقيق السلام بمعناه ■

الهـــوامش

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣١٢

(٢) اندريه بوفر : مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية .

(٣) هم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب (ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٢٥) .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٤٨ .

(٥) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٥٢٩ -. ٥٣٠ .

(٦) محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ ٤ ص ٥٤٩ .

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣١٨ .

(٨) ارنست ديبوي وتريفور ديبوى : دائرة معارف التاريخ الحربي ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ٤٧٨ ـ والضبور : نوع من الدبابات ، قال السهيلي : الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها . وقال أبو ذر : الدبابات آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ويدخل فيها الرجال ويتصلون بحائط الحصن .

مفتاح القرب

في آداب الأكل والشرب

● د . محمد عثمان الملا ●

هذه جولة سريعة في مخطوطة طريفة عنوانها (مفتاح القرب في آداب الأكل والشرب) ، وتقع المخطوطة في مائتين واثنتي عشرة صفحة من الحجم المتوسط ،[1] ومؤلفها هو الشيخ محمد بن عبد الرحيم ،[2] وهي شرح منظومة في آداب الطعام والشراب ، لجد الشارح الشيخ إبراهيم بن حسن العمدي ،[3] وتبلغ أبيات هذه المنظومة مائتان وواحد وسبعون بيتاً ، وقد بدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله وآله ، ثم أشار إلى آلاء الله التي أنعم بها على خلقه ، ومنها تعلم آداب الأكل والشرب التي ينبغي أن يهتم بها كل إنسان ، كما أشار إلى أن هذه الآداب التي نظمها موجودة في الكتب ، وبخاصة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي . وقد جاءت المقدمة في أربعة عشر بيتاً منها قوله[4]

الحمـــد لله الـــذي تفضـــلا	على الأنـــــام بالنـــــوال جملا
ثم صلاة الله مـــــع سلامـــــه	على النبـــي المصطفـــى وآلـــه
وبعـــد فـــا الله الكـــريم المحصي	جـاد بـفضل مـا لـه مـن محصي
فمـــن عـــظيم جـــوده ومنتـــه	تعـــليم مـــا بـــه قـــوام بنيتـــه
ولـــيس كل مـــن عنـــي بـــالأكل	يحسن آدابـــا أتت في النقـــل
وينبغـــــي اعتنـــــاء كل آكل	بها لكـــي يفـــوز بالفضائـــل

ثم شرع الناظم في بيان آداب الأكل في ستة وستين بيتاً ، تبدأ ببسم الله وتنتهي بحمده وأوجب هذه الآداب أكل الحلال ، ومن سننها غسل اليدين قبل الطعام وبعده ، والأكل باليد

اليمنى ، وعدم الأكل من وسط الإناء ، وبدء الأكل بالملح وختمه به ، وأكل الطعام الجامد بالأصابع الثلاثة الإبهام والسبابة والوسطى ، وعدم النفخ في الطعام ، وأكل التمر وترا وإبعاد نواه عن إنائه ، وعدم التربع في الجلوس أثناء الأكل ، وترك البدء بالطعام لصاحب المأدبة أو أفضل القوم ، ثم تحدث الناظم عن آداب الشرب في اثنين وعشرين بيتاً ، منها تناول الإناء باليمين ، وشرب الماء مصبًّا لا عبًّا ، وفي حالة القعود لا القيام ، وترك التجشؤ في الإناء ، ومناولة الكأس لمن يجلس إلى يمين المناول ، ثم بين السنة في وضع الطعام و هي وضعه على الأرض أو فوق السفرة . ثم تناول في عشرين بيتاً آداباً تتعلق بالمجتمعين على الطعام ، منها الحديث الطيب تأنياً للآكلين ، وألاَّ يستأثر أحد دون إخوانه بلون من ألوان الطعام ، وترك القيام على المائدة للسلام ، وترغيب المضيف لضيوفه في الأكل بلا إلحاح ، وأخذ الضيف حظه المعتاد من الطعام . ثم تكلم الناظم خلال ثلاثة عشر بيتاً عن فضيلة تقديم الطعام للإخوان ، منها أن الله سبحانه لا يحاسب الإنسان على ما يبذله فيه ، ومنها عدم ذهاب المرء لطعام لم يدع إليه . وتحدث الناظم عن آداب تقديم الطعام للإخوان ، منها تقديم ما تيسر وترك ما تعسر ، وعدم حرمان العيال منه ، ثم عرض في تسعة أبيات آداباً تتصل بالزائر والمزور ، أما الزائر فلا ينبغي أن يشترط على مزوره طعاماً إلا إذا أنس عنده القدرة والرغبة ، وأما المزور فلا يليق به أن يستفهم من زائره عن رغبته في الأكل ، بل يبادر بتقديمه إليه ، فإن أكل فحسن ، وإلا فقد ثبت له الأجر ، وخص الناظم لبيان فضل الضيافة وآدابها ستة وعشرين بيتاً ، فذكر حث النبي ﷺ عليها ، ودعوته إلى إكرام الضيف بتقديم أفضل ما عنده من الطعام والشراب من غير إجحاف بحق الأهل والعيال ، وتعجيل القرى له ومقابلته بالبشر والطلاقة ، وأن يبوأه أفضل منزل لديه ، ويهيىء له أحسن فراش ، ويعرفه القبلة وبيت الماء ، ويشرف على خدمته بنفسه . وتحدث الناظم عن آداب انصراف الضيف ، فأشار إلى عدم إقامته أكثر من ثلاثة أيام ، وأن يستأذن من مضيفه عندما يرغب في الخروج من منزله ، وأن يخرج راضياً وإن بدا بعض التقصير في حقه من مضيفه ، وأن يشيعه إلى باب البيت . وخص الناظم آداب الدعوة بسبعة أبيات ، فبين أن السنة دعوة الأتقياء والفقراء والأقرباء والجيران ، وألّا يقصر الداعي دعوته على الأغنياء بغية التباهي أو الانتفاع ، وألّا يدعو من يشق عليه الحضور . وسجل في سبعة أبيات آداب تقديم الوليمة ، فذكر أفضلية تقديم الفاكهة قبل الطعام والحلوى بعده ، ووضع كل ألوان الطعام على المائدة ليصيب كل واحد حاجته منها ، وتحدث في عشرة أبيات عن آداب إجابة الدعوة ، فذكر حثّ النبي ﷺ على تلبيتها ، وإن اقترنت ببعض الكلفة كطول المسافة أو صوم المدعو ، وألا يخص بالإجابة الغني دون الفقير ،

ثم نظم في ستة أبيات بعض آداب من يحضر الدعوة ، كالتواضع والجلوس حيث ينتهي به المجلس ، أو حيث يشير رب المنزل ، والتقيد بموعد الدعوة ، وتجنب الجلوس أمام حجرة النساء ، وعدم الالتفات إلى موضع الطعام ، وقد ختم الناظم منظومته بمثل ما افتتحها به وهو الحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ وآله ، ملتمساً العذر والصفح فيما بدا فيها من خطأ أو تقصير ، يقول[٥]:

والحمـــد للإلـــه في انتهاهـــا والشكــر للمــولى الــذي حباهــا
كـــذا الصلاة مـــع سلام دائم على نبـــي حض بالمكـــارم
فـــإن رأيت خطـــأ فأصلحـــن أو غلطـــاً فسامحن وأصفحـــن

وواضح أن النظام قد استمد معاني منظومته من آداب الإسلام في هذا الموضوع المهم ، ولهذا اعتمد شارحها في المقام الأول على السنة النبوية المطهرة ، ففي شرحه لقول الناظم ـ مثلاً ـ

وادع بخير بعـد أكل واطلبـــن زيـادة عقـيب شربك اللبـــن[٦]

يورد أثناء الشرح ما جاء في سنن أبي داود والترمذي قال قال رسول الله ﷺ : إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، وفي شرحه لقول الناظم أيضاً[٧]:

والنفخ في السخن خلاف الأولى والصبر كـي يبرد منـــه أولى

يقول : ومن آدابه ترك النفخ في الطعام ، قال عبد الله بن عباس : لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ في طعام ولا شراب ، ولا يتنفس في الإناء ، كما تناول الشرح بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وتفسيرها ففي تعليق على قول الناظم[٨]:

وقدمـــن فاكهـــة في الـــوضع قبـل الطعـام لحصول النفـــع

يورد الآية الكريمة وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون . وعند ذكره لقول الناظم[٩]

والأكل بالثلاثـــة الأصابـــع إن تكف أو زد في طعام مايع

يعرض ما جاء في الكشاف : من أن الرشيد أحضر طعاماً ، فدعا بالملاعق ، وعنده أبو يوسف فقال : جاء عن جدك ابن عباس في تفسير هذه الآية « ولقد كرمنا بني آدم » جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، فأحضرت الملاعق فردها ، وأكل بأصابعه . واحتوى الشرح على بعض الأمور

الفقهية ، ومن ذلك ما نقله المؤلف عن الغزالي في الإحياء ، وهو قوله : واعلم أنّا وإن قلنا إن الأكل على السفرة أولى ، فلسنا نقول الأكل على المائدة منهيٌّ عنه نهي كراهة أو تحريم ، إذ لم يثبت فيه نهي ، وما يقال من أنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهي عنه ، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة ، وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يُحبُّ في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب ، وليس في المائدة إلاّ رفع الطعام عن الأرض ليتيسر الأكل ، وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . كما تخللت الشرح مسائل في اللغة والنحو والبلاغة ففي قول الناظم[١٠]:

وسرعـــة الاحضار للطعـــام يعـد للضيـف مـن الاكـرام

يقول الشارح : الضيافات ثمان كما في شرح الأربعين النووية للفاكهاني : الوليمة للعرس ، والخرس للولادة ، والاعذار للختان ، والوكيرة للبناء ، والنقيعة لقدوم المسافر ، والعقيقة يوم سابع الولادة ، والوضيمة طعام المصيبة ، والمأدُبة : المتخذ ضيافة بلا سبب ويقول المؤلف معلقاً على قول الناظم[١١]:

واعلـم بـأن تشهيـة المزور أخـاه مـن محاسن الأمـور

والأمر إن أريد به القول الطالب للفعل على سبيل الاستعلاء جمع على أوامر ، وإن أريد به الفعل والشأن جمع على أمور . ويقول بعد شرحه لقول الناظم[١٢]:

ويـكثر السؤال عـن تعكـف وهـاك معناه بقـول مـنصف

واعلم أن الطلب والسؤال والاستخبار والاستفهام والاستعلام ألفاظ متقاربة مترتب بعضها على بعض ، فالطلب أعمها لأنه يقال فيما تسأله من غيرك وفيما تطلبه من نفسك ، والسؤال لا يقال إلاّ فيما تطلبه من غيرك ، فكل سؤال طلب ولا ينعكس ، والسؤال يقال في الاستعطاء ، فيقال سألته كذا ، والاستخبار استدعاء الخبر وهو أخص من السؤال ، فكل استخبار سؤال ولا ينعكس ، والاستفهام طلب الافهام ، وهو أخص من الاستخبار فإن قوله تعالى « أأنت قلت للناس » استخبار وليس استفهام ، فكل استفهام استخبار ولا ينعكس ، والاستعلام طلب العلم ، وهو أخص من الاستفهام ، إذ ليس كل ما يفهم يعلم بل قد يظن ويخمن ، فكل استعلام استفهام ولا ينعكس . وتناول المؤلف في شرحه بعض الشواهد الشعرية ، والأقوال المأثورة ، ففي أعقاب قول الناظم[١٣]:

ومـن أتى فليـأت بالتـواضع لا قـاصدا لأحسن المواضع

يقـول ما أحسن ما قيـل :

كن فاضلا وأرض بصف النعال لا خير في الصدر بغير الكمال
مـن طـلب الصدر بـلا آلـة صير ذاك الصدر صف النعـال

وعند إيراده لقول الناظم[١٤] :

وليس كل مـن عنـي بـالأكل يحسن آدابـا أتت في النقـل

يذكر قول الجنيد مؤاكلة الاخوان رضاع ، فانظروا من تؤاكلون . ثم يورد قول سهل بن عبد الله من لم يحسن أدب الأكل لم يحسن أدب العمل . وفي ثنايا شرحه لقول الناظم[١٥] :

وسرعـة الاحضار للطعـام يعـد للضيـف مـن الإكـرام

يقول : كان يقال أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منهن وإن كان أميراً قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته للعالم ، والسؤال عما لا يعلم ، وقد يتطرق المؤلف لبعض النواحي الطبية . فحين يورد قول الناظم[١٦] :

وأكل ذي الإيمان في معـاء وكافـر في سبعـة أمعـاء

يقول في ثنايا شرحه : وقال أهل الطب لكل إنسان سبعة أمعاء ، المعدة ثم ثلاثة متصلة بها رقاق البواب ثم الصائم ثم الرقيق ، ثم ثلاثة غلاظ الأعور والقولون والمستقيم وطرفه الدبر . ثم يذكر حكاية طبية حول ذلك ، وهي أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندي ورومي وعراقي وسوادي ، وقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء منه ، فقال الهندي هو الأهليلج الأسود ، وقال الرومي هو حب الرشاد الأبيض ، وقال العراقي هو الماء الحار وقال السوادى وكان أعلمهم الأهليلج يضعف المعدة وهو داء ، وحب الرشاد يرق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء ، قالوا فما عندك يا سوادي قال الدواء الذي لا داء معه ألاّ تأكل الطعام حتى تشتهيه وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه ، فقالوا صدق . وربما تضمن الشرح بعض الوقائع التاريخية وتراجم للشخصيات التي تمر في النظم ، من ذلك ما روي من أن هارون الرشيد

دعا أبا معاوية الضرير ، وصبّ الرشيد على يده في الطست ، فلما فرغ قال يا أبا معاوية أتدري من صب على يدك ؟ فقال : لا ، فقال صب أمير المؤمنين ، فقال يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله وأكرمك ، ومما جاء في ترجمته للسيوطي : وبورك في عمره بحيث وزعت مؤلفاته على أيام عمره فكانت من حين ولادته لوفاته كل يوم كرّاساً ، ونقل مثل ذلك عن النووي ، وأعجب منه ما نقل عن ابن الجوزي وزعت مؤلفاته على أيام عمره فكانت كل يوم سبعة كراريس تأليفاً وكتابة . ولم يخل الشرح من بعض الإشارات المتصلة بطبائع الحيوان كقول المؤلف قال أبو الليث في البستان : ويستحب لصاحب الضيافة أن يقول للضيف أحياناً كل من غير إلحاح ، لأن الفرس قد يشرب بغير الصفير ومع الصفير يكون أكثر شرباً والبعير يشرب بغير حداء ومع الحداء أكثر ، فكذلك الضيف إذا قلت له كل كان أهنأ وأشهى ، ولا يلح عليه فإن الإلحاح مذموم . وثمة قضايا أخرى في الكتاب وتعريفات وقصص وأخبار كثيرة متناثرة هنا وهناك ، كقضية الشفاعة الخاصة بالرسول ، وتعريف الفتوة عند الصوفية ، وهي أن يكون العبد ساعيا في أمر معين بأن يقضي حاجته ويترك خصومته ويتغافل عن زلته ويقرب من يؤذيه ويعتذر إلى من جنى عليه . وما إلى ذلك من الأخبار والقضايا . وفي الكتاب طرائف وفكاهات ساقها المؤلف على سبيل الترويح عن النفس ودفع السآمة والملل مع مناسبتها لمقتضى الحال ، فعند حديث المؤلف عن التمر يذكر أن أعرابياً أسر رجلين فخيرهما في العشاء بين اللحم والتمر ، فاختار أحدهما التمر والآخر اللحم فأطعمهما ثم ألقاهما بفناء بيته في ليلة شديدة بردها ، فأصبح آكل اللحم جامدا ، وأصبح آكل التمر تدر عيناه ، وعند كلامه حول البخل والكرم ، يروى عن الستوري أنه كان مزاحاً فحضر دعوة لأحد البخلاء ، فلما رأى القوم قد مزقوا الحمل كل ممزق ضاق صدره وقال يا غلام إرفع إلى الصبيان ، فنقل الحمل إلى داخل الدار ، فقام الستوري خلف الحمل ، فقيل له إلى أين ، فقال آكل مع الصبيان ، فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل . وعكس هذا البخيل ابن المبارك ، فقد كان يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ، ويقول : من أكل أكثر أعطيته لكل نواة درهماً ، وكان يعدّ النوى فيعطي كل من له فضل نوى بعدده دراهم ، وذلك لكسر الحياء وزيادة النشاط في الانبساط .

وهذه الاقتباسات والنقول الشائعة في الكتاب لا تعني اختفاء شخصية المؤلف ، بقدر ما تعني اتساع ثقافته وتنوعها ، فشخصيته العلمية ظاهرة في هذا الكتاب ، حيث نراه يحلل ويناقش ويوجه ويصوب ، فعلى سبيل المثال عندما يذكر قصة الأنصاري الذي آثر ضيفه بطعامه وطعام زوجه وصبيانه نراه يقول : قلت هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الطعام

حاجة ضرورية ، لأن العادة أن الصبي وإن كان شبعاناً يطلب الطعام إذا رأى من يأكله ، ويُحمل فعل الرجل والمرأة على أنهما آثرا بنصيبهما ضيفهما ، ولو كان الصبيان بحاجة ماسة إلى الطعام لوجب تقديمهم على الضيف .(١٧) وفي توضيحه لقول الناظم :

وجاز مع علم رضا ومثله قران تمر لا يجوز مثله

يقول وكذا قرانه أي جمعه تمرتين أي ونحوهما في لقمة (في الطعام المشترك بين جماعة) إلا إذا أوذنوا أو فعلوا ذلك فيجوز ، وهذا معنى قوله ومثله قران تمر لا يجوز الخ ، وفي مسلم عن عمر رضي الله عنهما نهى رسول الله ﷺ أن يقرن بين تمرتين حتى يستأذن أصحابه ، قال النووي : هذا النهي متفق عليه حتى يستأذنهم فإذا أذنوا فلا بأس ، واختلفوا في هذا النهي على التحريم أو الكراهة والأدب ، فنقل القاضي عياض عن أهل الظاهر أنه للتحريم ، وعن غيرهم أنه للكراهة والأدب ، والصواب التفصيل فإن كان الطعام مشتركا بينهم فالقران حرام إلاّ برضاهم .. وإن كان لغيرهم أو لأحدهم اشترط رضاه وجده ، فإن قرن بغير رضاه فحرام .. وإن كان الطعام لنفسه ، وقد ضيفهم به ، فلا يحرم عليه القران ، ثم إن كان في الطعام قلة فحسن ألا يقرن ليساويهم ، وإن كان كثيرا بحيث يفضل عنهم فلا بأس بقرانه ، لكن الأدب مطلقاً التأدب في الأكل ، إلا أن يكون مستعجلاً ويريد الاسراع لشغل آخر ، وقال الخطابي : إنما كان هذا في زمنهم ، وحين كان الطعام ضيقاً ، فأما اليوم مع اتساع الحال فلا حاجة إلى الإذن ، وليس كما قال بل الصواب ما ذكرناه من التفضيل ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لو ثبت السبب وهو غير ثابت ، والله أعلم .

وهكذا نجد شرح المؤلف ثرياً متعدد الجوانب يدل على ثقافة دينية وعربية واسعة في الحديث والتفسير والفقه واللغة والنحو والبلاغة والتاريخ وغير ذلك . ومما يزيد من قيمة هذه المخطوطة اعتماد المؤلف ـ غالباً ـ على المنهج العلمي في توثيق النصوص وجمع الروايات(١٨) والتوفيق بينها وذكر المصادر والمراجع(١٩) . وقد فرغ المؤلف من شرحه لهذه المنظومة سنة خمس وتسعين بعد الألف للهجرة ■



الهوامش

(١) عندي نسخة كاملة مصورة من هذه المخطوطة ، وهي بخط الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن عرفج ، وقد فرغ من كتابتها سنة ست وخمسين ومائتين بعد الألف للهجرة . ومما جاء في مقدمتها : هذا تعليق لطيف أحببت وصفه على نظم آداب الأكل والشرب للامام العلامة النحرير العلم الشهير جدي المذكور إبراهيم بن حسن الحنفي طيب الله ثراه لأبيّن مقاصده وأوضح مزايده على منهل قريب ليقرب تناوله ويكثر تداوله ، فلذا ناسب أن أسميه مفتاح القرب لنظم آداب الأكل والشرب راجياً من الله تعالى المعونة والتوفيق .

(٢) وللشارح مؤلفات أخرى منها شرح تحفة المبتدي ، وهي منظومة في فقه الحنفية لجده الشيخ إبراهيم ، قام المؤلف بشرحها . ومن آثاره أيضاً المنح الوفية باختصار شرح المنظومة العمريطية ، وفي كتاب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل أمين (ص ٥٢٧) ترجمة قصيرة للمؤلف .

(٣) للشيخ إبراهيم بن حسن مؤلفات أخرى منها دفع الأسى في أذكار الصبح والمسا ، وشرح نظم الأجرومية العمريطية في النحو ، وترجمته في كتاب الإعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لرضا كحالة وخلاصة الأثر للمحبي وتاريخ الاحساء لابن عبد القادر وبعض بيوت الملا الأسرة المعروفة بالاحساء تنتمي إلى واضع المنظومة وشارحها .

(٤) ص ٢ / ٧ من المخطوطة .

(٥) ص ٢٠٦ من المخطوطة .

(٦) ص ٢٠ .

(٧) ص ٣٦ .

(٨) ص ١٩٢ .

(٩) ص ٣٣ .

(١٠) ص ١٧٥ .

(١١) ص ١٥٧ .

(١٢) ص ١٦٣ .

(١٣) ص ٢٠٤ .

(١٤) ص ٧ .

(١٥) ص ٦٣ .

(١٦) ص ١٧١ .

(١٧) ص ١٢٥ .

(١٨) في ص ٣١ من المخطوطة مثال لطريقة المؤلف في محاكمة الرواية للأحاديث الشريفة ، والتوفيق بينها ، ومناقشة درجة الاسناد .

(١٩) ذكر المؤلف في شرحه أكثر من خمسة وأربعين مرجعاً ، ولعل بعضها لا يزال مخطوطا حتى الآن ، ومن ذلك شرح جوهرة اللقاني وعقود المشائخ لعبد الوهاب الشعراني وكتاب الغصب لابن نجيم ومختصر القوت لابن ظفر والفوائد الفقهية للطوسي ، ومنظومة ابن العماد الأقفهي في آداب الأكل وقد طبعت هذه المنظومة محققة ، ويبلغ عدد صفحاتها بفهارسها حوالي تسعين صفحة من الحجم المتوسط .

قراءة في كتاب :

« تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء »

من القرن ٤ ـ ١٠ هـ / ١٠ ـ ١٦ م

تأليف : الدكتور دريد عبد القادر نوري
منشورات : جامعة الموصل ـ الجمهورية العراقية ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م
عدد الصفحات : (٣٤٤) صفحة

● عرض الأستاذ : فاضل خليل إبراهيم ●

إن دراسة تاريخ أفريقيا ، وإبراز طبيعة العلاقات العربية الأفريقية ، وتوثيقها على مدى التاريخ القديم ، وربطها بالتاريخ المعاصر ، أمر مهم ذو ميزات إيجابية لكلا الطرفين . إذ أن من أهداف الاستعمار العمل على إضعاف تلك الروابط مع أفريقيا المسلمة ، وفك ارتباط عرى القربى والجوار مع الوطن العربي ، من أجل دوام ارتباطها به وبحضارته .

ويأتي كتاب « تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء » ، محاولة لتسليط الضوء على حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الإسلام في بقعة يكاد يكتنفها الغموض ، وبشكل خاص على القارئ العربي ، لأن جُلّ ما كتب عنها هو باللّغات الأجنبية ، وبعض هذه الكتابات ليست أمينة في عرضها للحقائق ، ويشوبها الدس والتلفيق على الإسلام وعقيدته ، لتحقيق مآرب تبشيرية ، مرتبطة بقوى أجنبية .

والمنطقة ـ موضوع الكتاب ـ تشمل بلاد السودان الكبرى والتي تقع إلى الجنوب من الصحراء الأفريقية الكبرى والممتدة من المحيط الأطلسي غرباً وحتى البحر الأحمر شرقاً ، والواقعة بين خطي عرض ٥٦ شمالاً إلى ٥٢٥ شمالاً . إضافة إلى الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي .

يقع الكتاب في ستة فصول ، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة والملاحق ، والعديد من الخرائط لفهم بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بالموضوع .

يتناول الفصل الأول « أفريقيا جنوب الصحراء قبل دخول الإسلام » . من حيث الإطار الجغرافي واللغة والسكان والعادات والتقاليد والدين والمعتقدات .

إن بلاد السودان الكبرى ، بلاد متسعة الأرجاء ، يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الشرق البحر الأحمر ومن الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية المطيرة ، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : السودان الشرقي والأوسط والغربي . أما جغرافية الساحل الأفريقي الشرقي ، المنطقة التي يسميها الجغرافيون العرب باسم (أرض الزنج) فيحدها من الشمال الصحراء ومن الجنوب نهر روفما ومن الشرق المحيط الهندي ومن الغرب البحيرات الكبرى . ويسكن هذه البلاد ، السودان والزنوج ولا يعرف عنهم قبل إسلامهم إلا القليل ، وهم يتكلمون العديد من اللغات أهمها : اللغة السودانية ، ولغة البانتو ، واللغة السواحيلية ولغة الهوسا . أما معتقداتهم قبل الإسلام فقد اتخذت أشكالاً مختلفة ، فهناك جماعة ليس لهم شريعة يراجعونها بل رسوم رسمها ملوكهم ، في حين أكّدت جماعة أخرى على قوة الطبيعة وعبدت الأسلاف ، بينما اعتقدت جماعة ثالثة بالمجوسية أو الوثنية . ويبدو أن هذه المعتقدات يسودها التشويش ويغلب عليها السحر والشعوذة .

ولهؤلاء عادات قبل الإسلام يغلب عليها طابع البداوة منها : العري والتعري وأكل لحوم البشر ، والاعتقاد بالعرافة . ومن عاداتهم أيضاً تعظيم شيوخ قبائلهم وسلوكهم تعظيماً كبيراً ، حتى اعتبرهم البعض أرباباً من دون الله يطلبون منهم البركة والخصب .

أما الفصل الثاني فيبحث في « أهمية أفريقيا وصلاتها القديمة بالوطن العربي » ، من خلال فقرات عديدة ، منها : « أفريقيا في مصادر التاريخ والجغرافيا العربية » . فقد عرفها العرب منذ وقت مبكر ، وخاصة الرحالة منهم ، حيث سجلوا عنها ما شاهدوه في أسفارهم الشيء الكثير . ومن أبرز هؤلاء : ابن خرداذبه ، والاصطخري ، وأبو زيد السيرافي ، وأبو عبيد البكري ، وابن فضل الله العمري وابن بطوطة وغيرهم .

وقد شهدت أفريقيا جنوب الصحراء ، اتصالاً وثيقاً بالوطن العربي قبل الإسلام ، حيث دلّت الآثار على وجود « صلات قديمة بين اليمن والساحل الأفريقي الشرقي » ، وأكّدت هذه

الصلات أيضاً المصادر الأغريقية والرومانية . كما كانت هناك صلات أخرى مع « العديد من دول الخليج العربي والعراق وكانت التجارة هي المحور الأساسي الذي قامت عليه تلك الاتصالات » . أما « الصلات القديمة بين شمال أفريقيا وجنوبها » فيبدو أنها واضحة ، وبشكل خاص مع مصر ، فقد أشارت « بعض الدراسات الأثرية إلى أن المصريين ذهبوا إلى السودان الغربي ، وكانت لهم علاقة ببعض سكان غانة » .

وفي الفصل الثالث دراسة عن « انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء » . عرض فيه المؤلف الخلفية التاريخية لدخول الإسلام في السودان الغربي والسودان الأوسط والشرقي ثم الحبشة والقرن الأفريقي . ففي السودان الغربي « كانت دولة غانة هي أول دولة عرفت الإسلام بشكل رسمي ودعت إليه ، ثم أعقبها دولة مالي الإسلامية التي ضمت تحت نفوذها دولة غانة التي أصبحت تضم مدينة غانة فقط بعد تدهورها . ولما ضعفت دولة مالي كانت قبائل الصنغاي التي تشبعت بالإسلام قد قويت ، وعمد حكامها إلى توسيع دولتهم تحت راية الجهاد من أجل نشر الإسلام ، وما كان منهم إلا أن مدوا نفوذهم نحو الغرب فضموا إليهم دولة مالي المنهارة ، من أجل تشكيل امبراطورية إسلامية قوية ، كي تتمكن من مقاومة القبائل الوثنية في الجنوب » . ومن الواضح « أن الإسلام لم ينتشر في بلاد السودان لولا أن استقر الإسلام في شمال أفريقيا والصحراء الأفريقية الكبرى . ويرجع الفضل في عملية انتشار الإسلام واستقراره في الصحراء إلى المرابطين » . أما في الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي ، فكان الإسلام قد « انتشر بشكل سلمي وبمحبة وبالتداخل مع السكان الأصليين عن طريق الهجرة والتجارة . وقد تغلغل الإسلام في الساحل الشرقي كله امتداداً من باجون في ساحل باندر حتى موزمبيق وجزر القمر » .

وفي هذا الفصل إشارة مهمة إلى « سبل انتشار الإسلام في أفريقيا » حددها المؤلف بالنقاط التالية ، **أولاً** : دور التجار في نشر الإسلام ، **ثانياً** : الدعاة والعلماء ، **ثالثاً** : الأربطة ، **رابعاً** : حركات الفتح .

أما « الكيانات السياسية الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء » . فهي موضوع الفصل الرابع . وكان ظهورها لأول مرة في تاريخ المنطقة كنتيجة طبيعية لظهور الإسلام فيها . واتخذت بعد قيامها مظهراً إسلامياً واضح المعالم يتمثل بخروج الملوك المسلمين إلى الحج ، ثم في اتصالهم بالقوى الإسلامية والتشبه بنظم حكمهم ، ثم باتخاذهم اللغة العربية وسيلة للأداء والتعبير الرسمي ، ثم بتبنيهم سياسة الجهاد ، وأهم هذه الكيانات هي :

أولاً : كيانات السودان الغربي (دولة غانة ــ امبراطورية مالي ــ امبراطورية الصنغاي) .

ثانياً : كيانات السودان الأوسط (امبراطورية البرنو ــ كانم) .

ثالثاً : كيانات السودان الشرقي والحبشة وساحل أفريقيا الشرقي (العبدلات ــ دولة الفونج ــ مملكة شوا ــ مقديشو ــ كلوة) .

ويتطرق الفصل الخامس إلى « الحياة الاقتصادية » ، بما فيها : التجارة والزراعة والصناعة والصيد والرعي . فبعد دخول الإسلام واستقراره في أفريقيا جنوب الصحراء ، شهدت الجوانب الاقتصادية بشكل عام والتجارة بوجه خاص تطوراً جديداً وشاملاً . وأدى ازدهار التجارة إلى ظهور نوع من الترابط المتين بين الوطن العربي والإسلامي مع أقاليم بلاد السودان ، لأن التجارة كانت ومازالت من أهم الوسائل التي تعمل على تسهيل مهمة التبادل الحضاري والفكري بين الأمم . وكانت التجارة تتم بالمبادلة وبطريقة التجارة الصامتة حيث يبدَّل الملح بالذهب . أما أهم السلع التي نشطت تجارتها بعد الإسلام والتي كانت تصدِّرها بلاد السودان للعالم الإسلامي فهي (الذهب والعبيد) . فقد كان الذهب هو المنشط الأساسي للتجارة الإسلامية والعصب الذي حرك التطور العالمي في العصر الوسيط ، نظراً لأن ذهب السودان كان المورد الأساسي الذي يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية . ومن الصادرات الأخرى : التوابل وأنياب الفيل وريش النعام والأخشاب والعطور والافاوية ، أما أهم الواردات فكان الملح الذي يستخدم في تجفيف الطعام والمحافظة عليه . إضافة إلى الأقمشة والحلي والتمور ...

أما بالنسبة إلى الزراعة ، فقد كانت طبيعة أفريقيا مناسبة لزراعة أنواع عديدة من الحبوب ، نظراً لتوفر مصادر المياه العديدة سواء كان ذلك بوجود أنهار عديدة كالنيل والنيجر والسنغال أو وجود مصادر أخرى للمياه كتوفر العديد من الواحات والبحيرات (كبحيرة تشاد الكبيرة) في السودان الأوسط . مع توفر مياه الأمطار الغزيرة . أما أهم المحاصيل الزراعية التي عرفت في المنطقة فهي الذرة والأرز والقمح إضافة إلى زراعة القطن وأشجار جوز الهند والبرتقال والموز ...

أما الصناعة فكانت هي الأخرى مزدهرة ، ومن أشهرها صناعة النسيج والجلود والصابون والأخشاب والتعدين ...

ونظراً لتوفر عوامل طبيعية مناسبة ، من أرض ومياه ، فقد نمت الأعشاب بكثرة واستمرت

حياة الغابات الكثيفة مما قدر لأنواع من الحيوانات العيش في تلك المناطق . وهكذا قُدّر لأفريقيا جنوب الصحراء أن تكون من الموارد الأساسية لتوريد العديد من الحيوانات للعالم .

وينتهي الكتاب بالفصل السادس والموسوم بـ « النظم الإدارية » . وتشمل نظام الحكم وإدارة الدولة والقضاء والجيش وتنظيماته .

كان نظام الحكم في بلاد أفريقيا جنوب الصحراء بعد الإسلام ، بشكل عام ، وراثياً ملكياً ، ولكنه بدا فيه نوع من أنواع الانتخاب ، وربما انتقل الحكم من فرع إلى آخر ، وربما انتقل الحكم إلى أحد رجال الدولة الكبار (كالوزير والأمير) ممن كان معروفاً بالشجاعة والمقدرة . وكان للملك (السلطان) في بلاده وعلى شعبه مطلق الصلاحيات ، ولم يحدد نفوذه وصلاحياته سوى القاضي المسلم . أما مجالس السلطان مع شعبه فكانت بشكل عام عامرة بالحضور من مختلف الطبقات . وإذا جلس السلطان جلس حوله العلماء والقضاة والطبقة العليا من رجالات الدولة ويحيط بهم السلاح والحراس من كل جانب .

أما إدارة البلاد فكانت من قبل موظفين لا يباشرون أعمالهم في مكاتبهم ولكن في حضرة الملك ، الذي كان يقضي معظم يومه في إدارة بلاده والنظر في المظالم والإشراف على الجيش . وقد ظهرت العديد من المناصب الإدارية منها : وظيفة (النائب) وهو لقب يطلق على القائم مقام السلطان وعرف محلياً في دولة مالي (قنجا) . ثم تأتي وظيفة الحاجب الذي كان وسيطاً بين السلطان ورعيته . وهناك الوزير أيضاً .

أما القضاء فهو منصب إسلامي بحت ، ويتمتع القاضي باحترام كبير جداً من قبل الزنوج المسلمين . وكثيراً ما كان السلطان يستشير القاضي ويطلب منه النصح والإرشاد ، وقد تمتع القاضي بصلاحيات خاصة لحفظ المؤسسات الدينية والتعليمية ، وفي تعيين الأئمة وإصدار الفتاوى وكثيراً ما كان يتولى بناء المساجد والمدارس أو توسيعها . أما تعيين القضاة فكان يتم بشكل عام بأمر ومشورة السلطان الذي كانت بيده مطلق الصلاحيات ، وكانت له وحده صلاحية النظر في القضايا الإجرامية ، وخاصة ما يتصل بالأمن العام وقضايا المساس بالدولة ، أما القاضي فكان ينظر في القضايا الشرعية وما يتصل بها .

أما بالنسبة للجيش ، فقد كان الاهتمام به ضرورة من الضرورات التي أملتها طبيعة الحال في المنطقة بعد انتشار الإسلام ، حيث برزت عملية الجهاد بين دول الإسلام والدول الوثنية ، وعليه فقد أصبح لهذه الكيانات جيش ثابت ومنظم إضافة إلى العساكر الاحتياطية ، وهم

المتطوعون الذين كانوا يشتركون في الحروب إلى جانب العساكر النظامية لأسباب مصلحية أو عقائدية محببة في الإسلام .

أما مكونات الجيش ، ففي غانة تألف معظمه من عناصر أساسية من قبيلة الملك الساراكولة ، وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش . وفي مالي اتخذ الجيش صفة ثابتة وكان معظمه يتألف من شعب الملالكة ومن القبائل الحليفة . وانقسم الجيش في معظم بلاد السودان والساحل إلى فرق عسكرية ، لكل فرقة قائد يرأسها . وهؤلاء القادة والأمراء إلى جانب الملك يشكلون القيادة العامة للجيش . وسلاح الجيش بشكل عام كان في الفترة المتقدمة القسي والنشابة وكذلك الدبابيس . وهناك فرقة الفرسان الذين يحملون في أيديهم الحراب وعلى أكتفاهم النشاب أما فرقة المشاة فأغلب أسلحتهم الحراب والسهام . أما أساليبهم في القتال فكانوا يعتمدون على الكر والفر .... وقد حدثت تطورات في أسلحة الجيش وتنظيماته في عصور مختلفة .

ويختتم المؤلف فصوله الستة بخاتمة يبين فيها فضل الإسلام على بلاد أفريقيا جنوب الصحراء وسكانها . إذ بفضله تعرفوا على وحدانية الله تعالى وأقاموا كيانات سياسية مستقلة ، وامتلكوا ثقافة واضحة المعالم ، استمدوا أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الإسلامي .

ووضع المؤلف ثلاثة ملاحق في نهاية الكتاب : الملحق الأول خاص بالتعاريف المهمة الواردة في متن الكتاب مرتبة حسب حروف الهجاء . والملحق الثاني يتعلق بسلطنات الطراز الإسلامي في أرض الحبشة . أما الملحق الثالث فهو « رسائل متبادلة بين سلطان المغرب وحكام السودان الغربي » .

□ □ □

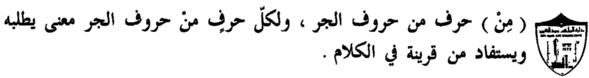
إن الكتاب ــ موضوع العرض ــ يعتبر مرجعاً لا غنًى عنه لكل باحث أو قارئ لتاريخ الإسلام ، فهو رغم تناوله لفترة طويلة بمقياس البحث التاريخي ــ حوالي ستة قرون من تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ــ في صفحات قليلة ، واعتماده التركيب دون التحليل في عرضه للكثير من الحقائق ، فإنه يبقى دليل عمل ومرشداً لمن يريد التخصص في دراسة جانب معين من جوانب الحياة في هذه المنطقة أو البحث في تاريخ إحدى دولها أو كياناتها السياسية . كما أن المؤلف قد أسدى خدمة كبيرة للمكتبة العربية والإسلامية ، في الوقت الذي تفتقر فيه إلى مثل هذه الكتب ، قياساً لما هو مكتوب بالعربية عن فترات تاريخية أخرى للإسلام ■

الفرق بين (مِنْ) التبعيضية و (مِنْ) التبيينية

● تأليف : أحمد بن سليمان بن كمال باشا ●

● تحقيق د. محمد حسين أبو الفتوح ●

المقدمــة :



(مِنْ) حرف من حروف الجر ، ولكلّ حرفٍ منْ حروف الجر معنى يطلبه ويستفاد من قرينة في الكلام .

وتأتي (مِنْ) لمعانٍ كثيرة ، قال النحاة عنها : أهم المعاني لـ (مِنْ) ابتداء الغاية ، فقد قال المبرد في كتابه المقتضب : (مِنْ وأصلها ابتداء الغاية ، ولكونها في التبعيض راجع إلى هذا) . وقد تكون هذه العبارة غير صحيحة ويمكن إثبات ذلك عن طريق إحصاء (مِنْ) في القرآن وبيان معانيها فإني أرى أن الأصل فيها التبعيض ، حتى في حال كونها مزيدة في سياق النفي ، ولذلك يقول علماء اللغة عنها : إنها زيدت للتوكيد وهذا في مثل قوله تعالى ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .

فطريق إفادتها التوكيد مع هذه النكرة التي أفادت العموم بنفسها أنّ (مِنْ) معناها التبعيض ، فإذا سُلّط النفي على معنى التبعيض المستفاد من (مِنْ) انتفت البعضية ومن هنا جاء معنى التوكيد .

وتكررت (مِنْ) في القرآن الكريم كله في (٣٢٢١) ثلاثة آلاف ومائتين وواحد وعشرين موضعاً . فإذا قمنا بعملية إحصاء (مِنْ) في القرآن الكريم وبيان مرات تكرارها في كل معنى من معانيها سوف نجد أن تكرارها في معنى التبعيض أكثر من غيرها ويكاد يكون هو الأصل في معانيها .

وإني إذ أدعو إلى هذا أقدم أولاً معنى (مِنْ) التبعيضية في القرآن الكريم من خلال رسالة في (الفرق بين (مِنْ) التبعيضية و (مِنْ) التبيينية لأحمد بن سليمان بن كمال باشا) .

• التعريف بابن كمــال بــاشــا •

هو أحمدُ بنُ سليمان ، شمسُ الدين ، المعروفُ بابن كمال باشا زادة ، شيخُ الإسلام ، روميّ وحنفي المذهب[1] ..

أسرته *: كان جدُّه كمال باشا زادة من أمراء الدولة العثمانية فنشأ ابن كمال في حجر العز والــدلال ..*

موطن ولادته *: وُلد أحمدُ بنُ سليمان بنُ كمال باشا في أدرنة[2] ولم أجد في المراجع ما يشير إلى تاريخ ولادته ..*

وفــاتــه *: توفي سنة ٩٤٠ هـ أربعين وتسعمائة هجرية في دار السلطنة القسطنطينية ، حيث كان مفتياً فيها إلى أن تُوفّي[3] .. وقيل : إنه تُوفّي سنة ٩٤٢ هـ اثنتين وأربعين وتسعمائة هجرية[4] ولكن أكثر المراجع اتفقت على أن وفاته في سنة ٩٤٠ هـ ..*

أخلاقه ومكانته العلمية *: كان صاحبَ أخلاق حميدة وأدب تام وعقل وافر ، قيل عنه : إنه الإمام العالم العلامة الرّحلة الفهّامة ، أوحد أهل عصره وجمال أهل مصره ، لم تر العيون من جمع كماله وفضله ، جعله الكفوي من أصحاب الترجيح من المقلدين القادرين على تفضيل بعض الروايات على بعض[5] ..*

سبب انصرافه إلى العلم وانشغاله به *: السبب في اشتغاله بالعلم أنّه رأى مرة عند إبراهيم باشا ابن خليل وزير السلطان المجاهد ، بايزيد خان شخصاً رثّ الهيئة خلق الثّياب ، جاء وجلس فوق بعض الأمراء الكبار المتقدمين في الدولة ، فاستغرب ذلك وسأل عن السبب فيه !*

فقيل له : هذا رجل من أهل العلم . يُقال له : المولى لطفي ، فقال ابن كمال : أيبلغ

العلمُ بصاحبه هذه المنزلة ، فقيل له : وأزيد ، فانقطع ابن كمال من ذلك الحين إلى العلم ، إلى أن مَهر وصار إماماً في كل فَنٍّ[٦] ..

وأضيف إلى ذلك استعداده الذهني والنفسي وميله الشديد إلى القراءة والتحصيل ، ورغبته في أن يرسّخ مكانة أسرته في مجتمعه بين الملوك والسلاطين على أساس العلم بجانب الجاه والسلطان لما رآه من مَنْزِلَةِ العلماء في عصره بين الملوك والأمراء ..

شيوخه *: ١ ــ المولى لطفي الرومي التوقاني .. ٢ ــ خطيب زادة .. ٣ ــ معروف زادة .. ٤ ــ المولى مصلح الدين القسطلاني[٧] ..*

ثقافته *: قرأ مباني العلوم في أوائل شبابه ، وله يد طولى في الإنشاء والنظم بالفارسية والتركية وصنف كتاباً بالفارسية على منوال كتاب كلستان وسماه بنكارستان ، وهو محاضرات في الأدب من كتب الأدب مثل كتاب العقد الفريد وعيون الأخبار وكان بارعاً في العلوم قلما يوجد فن إلا وله فيه مصنف أو مصنفات ..*

مصنفاته *: صنف مصنفات كثيرة في مختلف العلوم أذكر بعضها على سبيل المثال :*

أولاً : في التفسير :

١ ــ تفسير القرآن العزيز (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول برقم عام ٨٩٧٧) ..

٢ ــ حواش على أوائل تفسير البيضاوي (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة ، (استانبول) ..

٣ ــ الكلام على البسملة والحمدلة (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

ثانياً : في الحديث :

١ ــ شرح الجامع الصحيح للبخاري (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

٢ ــ شرح حديث الأربعين (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

٣ ــ شرح مصابيح السنة للبغوي (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

ان المظالم كلها لا تحبس بم والمغفرة بما عدا
هو ما بينه تعالى وبين عباده من الذنوب ولذلك
أتى باداة التبعيض كيف قال في
تفسير سورة نوح بعض ذنوبكم وهو ما
سبق فان الاسلام يجبه فلا يؤاخذكم به
في الاخرة حيث اخذ ما يجبه الاسلام عامًا النوعي
الذنوب فاضطرب في توجيه البعضية
الى ان اعتبره بالنسبة الى جميع ما كان قبل
الاسلام وبعده من جنس الذنوب وقيل
ان يمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين
في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين وقال
البيضاوي في تفسير سورة ابرهيم
لعل المعنى فيه ان المغفرة حيث جاءت
في خطاب الكفار مرتبة على الايمان و
حيث جاءت في خطاب المؤمنين
مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي
ونحو ذلك فيتنا ول الخروج عن المظالم

فلا يخفى عليك ان التفرقة المذكورة انما
تتم ان لو لم يجئ الخطاب للكفرة على العموم
وقد جاء كذلك في قوله تعالى في سورة الانفال
قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف
وقال الكلبي كتب وحشي قاتل حمزة رض و
اصحابه من مكة انا ندمنا وقد سمعناك تقرأ
والذين لا يدعون مع الله الها آخر الايات
وقد فعلنا كل ذلك فنزلت الا من تاب
وامن وعمل صالحا فبعث اليهم فقالوا الا
نؤمن ان لا نعمل صالحا وفي رواية فقال
الوحشي هذا شرط شديد لعلي لا اقدر عليه
فنزلت ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر
ما دون ذلك لمن يشاء فقالوا انا نخاف ان لا
نكون من اهل المشيئة فنزلت ان الله يغفر
الذنوب جميعا فقبلوا مسلمين و
قال الامام البيضاوي وتقييده بالتوبة
خلاف الظاهر ويدل على اطلاقه فيما عدا الشرك

قوله تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به
والتعليل بقوله انه هو الغفور
الرحيم على المبالغة
والحمد لله
تم التمام

ثالثاً : في التـــاريـخ :

١ ــ طبقات الفقهاء (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..
٢ ــ طبقات المجتهدين (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

رابعاً : في الأصـــول :

١ ــ تعليقة على أوائل التلويح للتفتازاني (طبع) .

٢ ــ تغيير التنقيح على تنقيح الأصول (طبع) .

خامساً : في اللغـــة :

له عدة رسائل في اللغة ، قيل : إنها تزيد على ثلاثمائة رسالة في اللغة ، والذي طبع في اللغة منها زهاء أربعين رسالة ، منها :

(الكلمات المعربة ، كاد في أصل الوضع ، والتوسع في اللغة ، وفي تحقيق التغليب ، وفي أن التوسع شائع ، وفي تحقيق المشاكلة ، وفي رفع ما يتعلق بالضمائر من الأوهام[٨] ..) .

من معـاصريـه : من معاصريه ، جلال الدين السيوطي ، واختلف العلماء في أيهما أدق نظراً ، قال عنه صاحب الفوائد البهية : كان في كثرة التأليف وسعة الاطلاع في الديار الرومية كجلال الدين السيوطي في الديار المصرية ، وعندي أنه أدق نظراً من السيوطي وأحسن فهماً .

ولكن صاحب الفوائد استدرك قائلاً : وهو وإن كان مساوياً للسيوطي في سعة الاطلاع في الأدب والأصول ولكن لا يساويه في فنون الحديث ، فالسيوطي أوسع نظراً وأدق فكراً في هذه الفنون منه بل من جميع معاصريه .[٩] ..

المناصب التي شغلها :

١ ــ تولى التدريس والقضاء بمدينة أدرنة وولاية الأناضول ..

٢ ــ تولى أخيراً الافتاء في القسطنطينية وصار بها مفتياً إلى أن توفي ..

تاريخ دخوله مصـر :

كان ابن كمال باشا قاضياً بالعسكر في ولاية الأناضول ، ولما اتجه سليم الأول إلى الشام سنة ٩٢٢ هـ صحبة ابن كمال باشا ..

وفي الثامن من محرم سنة ٩٢٣ هـ دخل السلطان سليم القاهرة لتخليصها من الجراكسة وبصحبته ابن كمال ، وهناك التقى بعلماء مصر ولقي منهم حفاوة وتكريماً ، وتناظروا وتباحثوا معه .(١٠)

وبعد ذلك يحتمل أن يكون ابن كمال باشا قد عاد إلى القسطنطينية في شهر شعبان سنة ٩٢٣ هـ الموافق أوائل سبتمبر ١٥١٧ م ..

نسخ المخطوطات وتوثيقها :

النسخ التي عثرت عليها لهذه المخطوطة ثمان :

١ ـ واحدة مطبوعة ، بدون تحقيق ضمن عدة رسائل لابن كمال باشا في كتاب برقم $\frac{٢١٠/٨}{ك ش ر}$ بالمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود بالرياض، نشره أحمد جودت، مؤرخ تركي وصاحب جريدة إقدام بالآستانة ، طبعهُ في مطبعة إقدام بدار الخلافة العلية سنة ١٣١٦ هـ ، وقد جَعَلْتُ هذه النسخة هي الأصل لطبعها ، ورمزت لها بالرقم (١) ..

٢ ـ ثلاث نسخ من جامعة الملك سعود ، المكتبة المركزية ، قسم المخطوطات ، **الأولى** ، كاملة وبعنوان : « رسالة في تفسير (من) التبعيضية » للمولى الشهير بابن كمال باشا ، وهي برقم ٨/٢٣٨ وصفحاتها أربع ، الصفحات الثلاث الأولى ، كل منها ٢١ سطراً والرابعة عشرون سطراً .. وفي نهايتها تاريخ الانتهاء من نسخها بالعبارة الآتية : (تمت الرسالة بعون الله وفرغ منه في آخر شهر رجب سنة ٩٥٩ هـ) ورمزت لها بالرقم (٢) ..

الثانية ، كاملة أيضاً ، وبدون عنوان ، ضمن مجموعة برقم ١٦٦٨ وكلها منسوبة إلى ابن كمال باشا ، وصفحاتها اثنتا عشرة صفحة ، الصفحة الأولى بها خمسة عشر سطراً ، وباقي الصفحات كل منها سبعة عشر سطراً والسطر الأول من الصفحة الخامسة والسادسة غير واضح ، وفي نهايتها عبارة (والحمد لله على التمام) .

والثالثة ، ناقصة ، ورقة واحدة عدد أسطرها ٢١ ، وبعنوان : (رسالة تتعلق بـ (مِنْ) التبعيضية لابن كمال باشا زادة .. وهي برقم ٤٧٦٩ ضمن مجموعة لابن كمال باشا ، ولم يذكر اسم الناسخ في هذه النسخ الثلاث ، وقد رمزت لهذه النسخة بالرقم (٤) ..

٣ ـ أربع نسخ من المكتبة العربية للمخطوطات النادرة بجامعة برنستون بأمريكا ، وهي كالآتي :

الأولى ، برقم ٢٩٠٤ ، وهي أربع صفحات ، الصفحة الأولى ٢١ سطراً .. والثانية والثالثة كل منهما ٢٣ سطراً ، والرابعة ٢٤ سطراً .. والعنوان فيها غير واضح ، والصفحة الثانية بها طمس خفيف وفي نهايتها عبارة (قد تم : الرسالة التبعيضية لابن كمال باشا .. رحمه الله رحمة واسعة) ورمزت لها بالرقم (٥) ..

الثانية ، برقم ٨٣٢ وهي ست صفحات واضحة ، بالصفحة الأولى عشرون سطراً وفي كل من الثانية والثالثة والرابعة والخامسة ٢١ سطراً .. أما السادسة ففيها أربعة عشر سطراً ، وعنوانها : هذه رسالة في التبعيضية لابن كمال باشا ، ورمزت لها بالرقم (٦) ..

الثالثة ، برقم ١٠٢٨ وهي ست صفحات ، بالصفحة الأولى أربعة عشر سطراً ، وفي كل من الثانية والثالثة والرابعة والخامسة واحد وعشرون سطراً ، أما الصفحة السادسة ففيها ثمانية عشر سطراً ، وبها هامش لا يخص الرسالة وإنما يخص رسالة قبلها خاصة بالأحكام الفقهية ، وفي نهايتها : (تمت الرسالة التبعيضية بعون الله تبارك وتعالى وتوفيقه) ، وقد رمزت لها بالرقم (٧) ..

الرابعة ، برقم ٣٣٣٠ ، وبدون عنوان وبها خمس صفحات بالصفحة الأولى خمسة عشر سطراً وفي كل من الثانية والثالثة والرابعة ٢٣ ثلاثة وعشرون سطراً .. أما الخامسة فيها سبعة أسطر ، والعبارة في نهايتها (تمت الرسالة) وقد رمزت لها بالرقم (٨)..

● التحقيـــق ●

رسالةٌ في الفرقِ بين « مِنْ » التَّبعيضيّةِ و « مِنْ » التَّبيِينيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيـم

الحمدُ لوليّه والصلاةُ على نَبيِّهِ ..

اعلمْ[١١] أنَّ البَعْضيَّةَ المعْتَبرةَ في (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ هِيَ البَعْضيَّةُ في الأَجْزاءِ لا البَعضيّة في الأفراد على خِلاَفِ التّنكيرِ الّذِي يكونُ للتّبعِيضِ على زَعْمِ الفَاضِلِ الشّريف ،[١٢] فإنَّ المُعْتَبرَ فيه هي البعْضيَّةُ في الأفرادِ لا البعضيَّة في الأَجْزَاءِ وبه تفارق[١٣] « مِنْ » التّبعِيضيَّةُ « مِنْ » البَيَانِيَّةَ على ما صرَّح به الرّضِي حيثُ قال[١٤] في شرح الكَافية : وتعرفها أيْ (مِنْ)[١٥] البيانية بِأنْ يَكُونَ قَبْلَ (مِنْ) أو[١٦] بعدها مُبْهَمٌ يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ المجرورُ بـ « مِنْ » تَفْسِيراً لَهُ ، ويَقَعُ[١٧] ذلك المجرورُ على ذلك المُبْهَمِ ، كما يُقال مثلا للرجس : إنّه الأوثانُ وللعشرين[١٨] إنها الدراهمُ ، في قولك عشرون من الدراهمِ[١٩] ، وللضّمِير في قولك : عَزّ مِنْ قَائِلٍ : إنه القَائِلُ ، بِخلاَفِ التّبعِيضِيَّةِ ، فَإنَّ المجرورَ بهَا لا يطلق على مَا هُو مذكورٌ قَبْلها أو بَعْدها ، لأنَّ ذلك المذكورَ بعضُ المَجْرُورِ ، واسمُ الكُلِّ لا يَقَعُ على البَعْضِ ، فَإذَا قُلْت : عِشْرُونَ مِنَ الدَّراهم ، فَإنْ أشَرْتَ بالدَّرَاهِمِ إلَى دَرَاهِمَ مُعَيَّنَةٍ أكثر مِنْ عِشْرِين ، فَمِنْ مُبَعِّضَة ، لأنَّ العشْرِينَ بَعْضُها ، وَإنْ قَصَدْتَ بالدّرَاهِمِ جِنْسَ الدَّرَاهِمِ فَهِيَ مُبَيِّنَةٌ لِصِحَّةِ[٢٠] إطلاَقِ المَجْرُورِ إلى[٢١] العِشْرِين .. إلى هنا كَلاَمُه ..

وأمَّا أنَّ المُعْتَبَرَ في التَّنكِيرِ[٢٢] للتَّبعِيضِ هو[٢٣] البَعْضِيَّة[٢٤] في الأفراد على خِلاَفِ مَا فِي (مِنْ) التَّبعِيضِيَّةِ ، فقد صرَّح به الفاضلُ الشريفُ في الحَوَاشي التي عَلَّقَها على شَرْحِ التلخيص وبنى عليه الرد على الشارح في :[٢٥] وكتقليل[٢٦] المدة في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾[٢٧] ذكَر ليلاً مع أنَّ الإسْرَاءَ لا يكونُ إلاّ باللَّيلِ ، للدّلالة على تقليل المدة وأنَّه أُسرى في بعض اللَّيْلِ ، حيث قال : الدلالةُ على البَعْضِيَّةِ مذكورةٌ في الكشّاف ، واعترض عليه بأنَّ البَعْضِيَّةَ المستفادةُ من التنكيرِ هي البعضيةُ في الأفرادِ لا البعضية في الأجزاءِ ، فكيف يُسْتَفادُ من قوله : ليلا : أن الإسراءَ كان في بعضٍ من أجزاء ليلة ،[٢٨] فالصوابُ أنَّ تنكيره لدفع تَوَهُّمِ كَوْنِ الإسْرَاءِ في ليالٍ أو لإِفَادَةِ تعظيمه .[٢٩]

وإنَّما قُلْنَا : في زعمه لأنَّهُ خَالَفَ فيه الشيخَ عبد القاهر[٣٠] فإنَّه قال في دلائل الإعجاز : إنَّ التنكيرَ في « حياة » في قوله تعالى :[٣١] ﴿ ولَكُمْ فِي القِصَاص حَياةٌ ﴾ ، للدّلالةِ على أنَّ تلك الحياةَ بعضُ حياةِ المهموم[٣٢] بقتلهِ ، والعلاَّمةُ الزمخشري[٣٣] ، فإنّهُ صَرَّحَ في مَواضِعَ مِنَ الكَشَّافِ[٣٤] بأنَّهُ قَدْ يُقْصَدُ بِالتّنكِيرِ الدلالةُ على البَعْضِيَّةِ في الأجْزَاءِ منها ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ ..

ومنها ما ذكره في تلك السورة أيضاً حيث قال : فإنْ قلت[٣٥] هَلاَّ عرَّف الزبور ، كما عُرِّف في قوله[٣٦] : ﴿ ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُور[٣٧] ﴾ قلت : يَجُوزُ أن يَكُونَ الزّبور[٣٨] وزبورا ،[٣٩] كالعباس وعباس ، والفضل وفضل وأنْ يُريد[٤٠] : وآتينا دَاوُدَ بعضَ الزبور وهي الكتبُ ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ـ ﷺ ـ من الزبور[٤١] ، فسمّى ذلك زبورا لأنّه بعض الزبور كما سُمِّي بعضُ القرآنِ قرآنا[٤٢] ..

ومنها ما ذكره في سورة الحجرات[٤٣] وتنكير القوم والنساء ، يحتمل معنيين ،[٤٤] أن يُرادَ : لا يسخر بعض[٤٥] المؤمنين والمؤمنات من بعض ، وأنْ يُقْصَد إفادةُ الشيوع[٤٦] وأنْ يصير كلُّ جماعة منهم منهيةً عن السخريّة ..[٤٧]

وخالفَ المعقولَ أيضاً ،[٤٨] لأنَّ معنى التنكير في الأَصْل التقليلُ واستعمالُه في التبعيض باعتبار تضمنه التقليلَ ولا اختصاص[٤٩] لَهذا[٥٠] الاعتبار بأَحَدِ وَجْهَي البعضيةِ ..[٥١]

ثم اعلم أنّ البعضيةَ التي تدل[٥٢] عليها « مِنْ » التبعيضيةُ هي البعضيّةُ المجَرَّدةُ المنافيةُ للكلية لا البعضيةُ التي تنتظم ما في[٥٣] ضمنِ الكلية ، يرشدك إلى هذا أنّه قال صاحب

الكشاف في تفسير قوله تعالى : ﴿ وممَّا رزقْناهُمْ يُنْفِقُون[٥٤] ﴾ : وأُدْخل « مِنْ » التبعيضيةُ صيانةً لهم وكفًّا عن الإسراف والتبذير المنهي عنه[٥٥] ولم يُنْكر عليه أحدٌ من الناظرين فيه ..

ومبنى ما ذكره على أنَّ مدلولَ « مِنْ » التبعيضيةِ هو[٥٦] البعضيةُ المجردةُ عن الكلية وأيضاً يرشد[٥٧] إليه زيادةُ[٥٨] « مِنْ » التبعيضيةِ في قوله تعالى : ﴿ وآمنوا به[٥٩] يَغْفِرْ لَكُمْ من ذنوبكم[٦٠] ﴾ فإنَّهُ لو كَانَتْ دلالتُها على مطلقِ البعضيةِ الشاملةِ لمَا في ضِمْنِ الكلّيةِ لضَاعَ تلك الزيادة وفات الدلالة على أنَّ المغفورَ بالإيمان بعضُ الذُّنوبِ لاَ كُلُّهُ ..

قال الإمامُ البيضاوي في تفسيره بعض ذنوبكم ، وهو ما يكونُ عن[٦١] خَالص حقِّ الله تعالى ، فإنَّ المظالمَ لا تُغْفَرُ بالإيمانِ ،[٦٢] بل نقولُ : لو كان مدلولُ « من » المذكورةِ البَعضيّةَ الشاملةَ لما في ضِمْنِ الكُلّيةِ المجتمعةِ معها لَما تَحقَّق الفرقُ بينها وبين « مِنْ » البيانيةِ من جِهةِ الحكمِ ولما تيسَّر[٦٣] تمشيةُ الخلافِ بين الإمامِ[٦٤] وصاحبَيْهِ ،[٦٥] فيما إذَا قال : طَلِّقِي نفسَكِ من ثلاث ما شئت ، بناء على أنَّ « مِنْ » للتّبعيضِ عنده وللبيان عندهما ، قال في الهداية :[٦٦] وإنْ قال لها طَلِّقِي نفسَكِ منْ ثلاثٍ مَا شئتِ فلها أنْ تُطَلِّقَ نفسَها واحدة وثنتين ولا تطلق ثلاثاً عند أبي حنيفة ..

وقالا : تُطلّق ثلاثاً إنْ شاءت : لأنَّ كلمةَ « مَا » محكمةٌ في التعْمِيم ، وكلمةُ « مِنْ » قد تستعملُ للتمييز فيحمل على تمييز الجنس ، ولأبي حنيفة أنَّ كلمةَ (من) حَقيقةٌ في التّبعِيضِ ، و (ما) للتعميم ، فيعمل بهما ،[٦٧] انتهى ..

ولا خفاءَ في أنَّ بناءَ الجواب المذكور على كون « مِنْ » للتّبعِيض إنَّما يَصِحُّ إذَا كانَ مدلولُها البعضيّةَ المجردةَ عن الكليةِ المنافيةِ .

ويا عجباً لصاحب[٦٨] التوضيح في تقرير[٦٩] الخلافيّةِ المذكورةِ حَيْثُ استَدَلَّ على أولَويّةِ التبعيض بتَيَقُّنِه ، قائلاً[٧٠] : التّبْعِيضُ[٧١] مُتَيَقَّنٌ ، لأنّ « مِنْ » إذَا كان للتبعيضِ فظاهرٌ ، وإنْ كان للبيان فالبعضُ مرادٌ ، فإرادةُ البعضِ مُتيَقَّنةٌ ،[٧٢] ولم يَدْرِ أنَّ البعضَ المرادَ قطعاً على تقدِيرِ[٧٣] البَيَانِ ،[٧٤] البعضُ العَامُّ لِمَا في ضِمْنِ الكُلِّ لا البعضُ المجَرَّدُ ، المرادُ ههنا ..

فبالتّعْلِيل على الوَجْهِ المذكور لا يَتِمُّ التقريبُ بل لا انطباق بين التعليل والمعلّل فتأمل ..

ولقد أصَابَ الفاضلُ التفتازاني ،[٧٥] حيث قال فيما علّقَهُ على التّلْوِيحِ مستدلاً على أنَّ

البعضيّةَ التي تَدُلُّ عليها « مِنْ » ، هي البعضيّةُ المجردةُ المنافيةُ للكلّيةِ لا البعضيّة التي هي أعَمُّ من أنْ تكونَ في ضِمْنِ الكُلِّ أوْ بِدُونِهِ ،[٧٦] لاتّفَاق النُّحَاةِ على ذلك حيث احتَاجُوا إلى التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ من ذُنُوبِكُم[٧٧] ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يَغفرُ الذنوبَ جميعاً[٧٨] ﴾ .. بأنْ[٧٩] قالوا : لا يَبْعُدُ أنْ يغفر جميعَ الذنوبِ لقوم وبعضَها لقوم ، أو خِطَاب البعضِ لقومِ نُوح ـ عليه السلام ـ وخطاب الجميعِ لهذه الأمة ، ولم يذهب أحَد[٨٠] إلى أنَّ التبعيضَ لا ينافي الكلية ..[٨١]

ولم يُصِبْ الشريفُ الفاضلُ في رَدِّهِ عليه قائلاً : وفيه بحث إذِ الْفَاضِل الرّضِي صَرَّحَ بعدم المنافاة بينهما حيث قال :

ولو كان أيضاً خطاباً إلى أمة واحدة فغفران[٨٢] بعض[٨٣] الذنوب لا يناقض غفران كلها ،[٨٤] بل عدم غفران بعضها يناقض غفران كلها ، لأن قول[٨٥] الرضي غَيْرُ مرضي ، لما عرفت أنَّ مدلولَ « مِنْ » : البعضيّة[٨٦] المجردةُ المنافيةُ للكلية ،[٨٧] ففي قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ دلالةٌ على عدم غفران بَعْضِ الذنُوب وتصريحُهُ بعَدَمِ المُنَافَاة بينهما لا يَقْدَحُ الاحتجَاجَ باتّفَاقِ السَّلف الثابت بإظهارهم الاحتياج[٨٨] إلى التوفيق المذكور ..

ثم[٨٩] إنَّ في تحريره قصوراً ، فإنَّ عبارة أيضاً في قوله : ولو كَانَ أيْضاً خطاباً إلَى أُمَّةٍ واحدة لم يصب محزَّها وكان حَقُّ التّعْبِيرِ أنْ يُقَالَ وعلى تَقْدِيرِ أنْ يكُونَ الخطابُ إلَى أُمّةٍ واحدةٍ ... إلخ ..

وكذا لم يُصِبْ صاحبُ[٩٠] المقاليدِ في رَدِّ ما نقله ابنُ الحَاجِبِ ، حيث قال : وحُجَّةُ أبِي الحسن[٩١] أنه قد جاء : إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، فلو لم يُحْمل قوله تعالى :﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ ، على الزيادة لَحُمِلَ على التّبْعِيضِ فيلزم التناقض ،[٩٢] كذا قاله ابن الحاجب ، وهو غير سديد ،[٩٣] لأنَّ المُوجَبَةَ الجُزْئِيَّةَ مِنْ لوازِمِ المُوجَبَةَ الكلية ولا تَنَاقُضَ بين اللازم والملزوم ،[٩٤] ، لأن مَبْنَاهُ أيضاً[٩٥] الغفولُ عن أنّ مدلولَ « مِنْ » التبعيضيّةِ هي البعضيّةُ المجرّدَةُ عن الكلّيةِ المنافيةِ لها لا الشّاملة[٩٦] لما في ضمنها ..

واعلم أنَّ الإِخْبَارَ عَنْ مَغْفِرة بعضِ الذُّنُوبِ وَرَدَ في القرآنِ في مواضعَ ، منها قولُه تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِر لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ومنها قولُه تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ يا قومنا أجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ومنها قولُه تعالى في سورة نوح

ـ عليه السلام ـ ﴿ يا قومِ إنّي لكُمْ نذير مُّبِين أنِ اعْبُدُوا الله واتقُوهُ وأطِيعُون يَغْفِرْ لكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ وما ورد في قوم نوح ـ عليه السلام ـ إنما هو هذا ..

وأما ما ذُكِر في سورة الأحقاف فقد وَرَدَ في الجِنّ،[٩٧] وما ذُكر في سورة إبراهيم فقد وَرَدَ في قوم نوح ـ عليه السلام ـ وعاد وثمود على ما أفصح عنه سياق القول المذكور ..

وإذَا وَقَفْتَ على هَذَا فَقَدْ عَرَفْتَ أنَّ قوْلَ النحويين : خطابُ البَعْض لقوم نوح ـ عليه السلام ـ وخطابُ[٩٨] الجميع[٩٩] لهذه الأمة مما لاَ وَجْهَ لَهُ ، لأن مَبْنَاهُ على أنْ لاَ يكُونَ خطابُ البَعْضِ وَارِداً[١٠٠] لِقَومٍ آخرين ،[١٠١] ولا صِحّةَ لذلك المبني على ما وقفت عليه ..

والعجبُ أنَّ الإمَامَ البيضاوي مع تصريحه في[١٠٢] سورة إبراهيم وتفسير سورةِ الأحقافِ بأنَّ المظالمَ لا يَجُبّها الإسلامُ والمغفورُ به إنّما هُو ما بينه تعالى وما بين[١٠٣] عبادِه من الذنوب ، ولذلك جِيء بأداةِ التبعيض ، كيف قال في تفسير سورة نوح ـ عليه السلام ـ بعضُ ذنوبكم ، وهو ما سبق ، فإنّ الإسلامَ يجبُّهُ ، فلا يُؤَاخِذْكُم بِهِ في الآخرة حيث أخذ ما يجُبُّهُ الإسلام عَامًّا لنَوْعَي الذُّنُوبِ ، فاضْطُرَّ[١٠٤] في توجيه البعض إلى أنَّ اعتباره[١٠٥] بالنسبة إلى جميع ما كان قبل الإسلام وبعده من جنس الذنب ،[١٠٦] وقيل : جِيء بـ (مِنْ) في خطابِ الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقةً بين الخطابين ..[١٠٧]

وقال البيضاوي في تفسير سورة إبراهيم : ولَعَلَّ المعنَى فيه أنّ المغفرةَ حيث جاءت في خطاب الكُفَّارِ مرتبةٌ على الإيمان وحيثُ جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج عن المظالم ..[١٠٨]

ولا يخفى[١٠٩] عليك أنَّ التفرقَة المذكورةَ ، إنَّمَا تَتِمُّ أنْ لَوْ لَمْ يَجِيءْ الخطابُ على[١١٠] الكفرة على العموم ، وقد جاء كذلك كما في قوله تعالى : في سورة الأنفال ﴿ .. قُلْ لِلّذِينَ كفَرُوا إن ينْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَف ﴾[١١١] .. وقال الكلبي[١١٢] : كتب وَحْشِيّ قاتلُ حمزةَ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ من مكة ، إنَّا نَدِمنا وقد سمعناك تقرأ ، والذين لاَ يَدْعُون مَع الله إلَهاً آخر ...[١١٣] الآيات ،[١١٤] وقد فَعَلْنَا كُلَّ ذلك ، فنزلت ، إلاَّ مَنْ تَابَ وآمن وَعَمِلَ صَالِحًا ،[١١٥] فبعث إليهم فقالوا : لَاَ نَأْمَنُ أنْ لا نعمل صَالحاً ، وفي رواية ، فقال الوحشي[١١٦] : هذا شرط شديد لعلّي لا أقدرُ عليه ، فنزلت ، إن الله لاَ يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِه وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء[١١٧] .. ، فقالوا : نَخافُ أن لا نكونَ من أهلِ المشيئة ،

فنزلت ، إن الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ،(118) فأقبلوا مسلمين ..(119)

وقال الإمامُ البيضاوي : وتقييدُه بالتوبةِ خلافُ الظاهر ويَدُلُّ على إطلاقه فيما عدا الشرك ، قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ، والتعليل بقوله : إنه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم على(120) المبالغة(121) ..

التعليـــق :

١ ـ عرض المؤلف رأي العلماء في الفرق بين (مِنْ) التبعيضية ، (مِنْ) التبيينية فذكر كلام الرضى في الكافية حول الفرق بينهما بأن (مِنْ) التبيينية تعرف بأن يكون قبل (مِنْ) أو بعدها مبهم يصلح أن يكون المجرور بها تفسيراً لما قبلها . وهذا هو ما اتفق عليه العلماء في كتب اللغة والنحو .

ولكنه حدث خلاف بين العلماء في كتب الأصول والفقه بسبب معنى (مِنْ) وكونها بين التبعيض والبيان .

فالمعاني التي وضعت لـ (مِنْ) في اللغة متصورة لا عن طريق الجوهر والأساس فيها وإلا كانت أصلية فيها . فمثلاً في قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ (النور ٥٥) قيل : إن (مِنْ) بيانية ، أي الذين هم أنتم ؛ لأن الخطاب للمؤمنين ؛ فهذا لم يتصور فيها التبعيض . (البرهان في علوم القرآن جـ ٤ ص ٤١٧) ، وقد يتصوّر فيها التبعيض ويقدر الخطاب عاماً للمؤمنين وغيرهم ، ومن هنا كان الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه في المسألة التي ذكرها ابن كمال باشا في رسالته هذه ، وأيضاً بين علماء اللغة .

ثم نجد الأخفش في كتابه معاني القرآن (جـ ٢ ص ١٤٣) يقول في قوله تعالى : ﴿ يُخرج لنا ممّا تُنْبِتُ الأرضُ منْ بَقْلِها وقِثّائِهَا ﴾ ، وإن شئت جعلته على قوله : ما رأيت من أحد ، تريد ما رأيت أحداً ، وهل جاءك من رجل ، تريد : هل جاءك رجل ، فهو بذلك جعل (مِنْ) زائدة في الآية ، ولكن الحقيقة كما بيّن ابن كمال في الرسالة ، أن (مِنْ) هنا بيانية ، ذلك أن الآية أولاً تشير إلى ما تنبته الأرض من بقلها وقثائها إجمالاً وعاماً في الاسم الموصول (ما) دون بيان وإيضاح جنس المزروع وذلك في قوله (يخرج لنا مما تنبت الأرض) فجاءت الآية بعد ذلك ببيان ما يراد جنسه بقوله تعالى (من بقلها وقثائها) ، ولم يذكر المفعول للفعل (يخرج) لتعظيم شأنه عند اليهود ، وهو المفهوم من سياق الآية كما أنه إذا جعلنا المفعول محذوفاً على تقدير (شيئاً) كما قال الأخفش لزم على ذلك وجود (مِنْ) لتكون هي ومجرورها صفة للمحذوف ، وفي هذه الحال ، هي بيانية أيضاً لأنها

بيَّنت وأوضحت المفعول به ، فبقي ما يؤكد أنها بيانية – كما قال العلماء – بأن ما بعدها يصدق على ما قبلها ، ومن ثَمَّ كان القول بأنها زائدة ضعيفاً .

٢ – (مِنْ) بين التبعيض والزيادة :

قال سيبويه : لا تزاد (مِنْ) إلا في النفي ، ورد عليه الرضى قائلاً : (فلو قال : في غير الموجب كان أسدَّ) .

والخلاصة أن علماء اللغة والنحو اتفقوا على أن (مِنْ) لا تزاد إلا في كلام موجب .

وأمام هذا يلزم أن نقول : إن زيادة (مِنْ) جاء لمعنى ، إلا أن الكلام يخلو من هذا المعنى الذي زيدت فيه (مِنْ) من أجله ؛ لأننا إذا لم نقل بهذا ألزم على زيادة (مِنْ) في القرآن الكريم زيادة حرف بدون معنى وهذا باطل .

هذا وإن كانت زائدة ، فإن المعاني التي وضعت لها متصورة فيها لا عن طريق الجوهر والأساس ، ولهذا اشترط النحاة في زيادة (مِنْ)

١ – أن يكون ما دخلت عليه نكرة عامة .

٢ – أن تكون في غير الموجب ؛ لأن التبعيض في أصل الوضع والمراد من زيادتها نفي التبعيض فيتسلط النفي على معنى التبعيض المستفاد منها فيتأكد المعنى المراد ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ (الأنعام ٥٩) ، لهذا لا يرى سيبويه وجمهور النحاة زيادة (مِنْ) في الموجب ؛ لأن استغراق الجنس في الموجب محال ، إذ لا يُتَصوّر مجيء جميع الناس في مثل : جاءني من رجل ويتصورُ ذلك في النفي وهذا في مثل : ما جاءني من رجل فلا تقول : جاءني من رجل وهذا هو الصواب وما أجمع عليه النحاة ، بخلاف ما قاله الأخفش من جواز زيادة (مِنْ) في الموجب ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ (الأحقاف ٣١) لأن هذه الآية تتعارض على رأيه مع قوله تعالى : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (الزمر ٥٣) كما احتج أيضاً بقوله تعالى : ﴿ ونكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ (البقرة ٢٧١) وهذا هو ما جاء في كتاب المعاني (جـ ١ ص ٩٩) : (فإن قلت : إنما يكون هذا في النفي والاستفهام فقد جاء في غير ذلك ﴿ ونكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ وقد مال إلى رأي الأخفش ابن مالك واستشهد بقول عائشة – رضي الله عنها – (كان يصلي جالساً فيقرأ وهو جالس فإذا بقي من قراءته نحوا من كذا) : [شواهد التوضيح من ص ١٢٥ – ١٢٨] فزيادة (مِنْ) في الآية (يغفر لكم من ذنوبكم) على رأي الأخفش لا مبرر له والصواب هو ما ذهب إليه النحاة .

والواقع أن النحاة أيضاً أخطأوا في فهم معنى التبعيض بـ (مِنْ) مما حمل الأخفش على التوفيق بين الآيتين دفعاً للتعارض .

وابن كمال في رسالته هذه أوضح محل النزاع والخلاف بين البصريين والأخفش حول زيادة (مِنْ) في الموجب .

والسبب المباشر في ضعف رأي الأخفش هو مبنى الكلام بينه وبين النحاة والمفسرين ، حيث إنهم اعتبروا معنى (مِنْ) في الآية (يغفر لكم من ذنوبكم) التبعيضية الشاملة لما هو في ضمن الكلية ، بمعنى أن الله تعالى ، يغفر لكم بعض ذنوبكم لما في ضمن الذنوب جميعاً ، فلا تنافي البعضية الكلية ، فاحتاج الأخفش إلى أن يحمل (مِنْ) وهي على هذا المبنى على الزيادة للتوفيق بين هذه الآية وبين الآية : ﴿ إن الله يغفِرُ الذنوبَ جميعا ﴾ ، فلو أن الأخفش بنى كلامه على مبنى الكلام الذي أوضحه ابن كمال في رسالته هذه وبَيَّنَ به فساد اتجاه النحاة وضعف رأي الأخفش بأن البعضية هنا تنافي الكلية ، إذ المراد من بعض ذنوبكم : الذنوب التي هي في حق الله تعالى ، ولا تشملها الذنوب التي هي في حق العباد فكلها يطلق عليها لفظ الذنوب ، وهذا إذا كان الخطاب للمؤمنين ، أما الكفار فإن الإسلام يجب ما قبله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ .

ومن ثَمَّ كان الصواب مع سيبويه وجمهور النحاة من جهة وليس معهم من جهة توجيه مبنى الكلام حول معنى (مِنْ) في الآية الكريمة ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ للتوفيق بينها وبين الآية ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ .

٣ ـ التنكير والتبعيض :

عرض المؤلف آراء العلماء حول التنكير الذي يراد به التبعيض ، وذكر أن في (ليلا) في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾ للتقليل ، وبين رأي التفتازاني في أن التنكير في (ليلا) لتقليل المدة وأنه أسرى به في بعض الليل .

ثم بين رأي الجرجاني في تنكير لفظ (حياة) في الآية الكريمة ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ بأن المراد من التنكير التبعيض في الأفراد والأجزاء وكذلك رأي الزمخشري في الكشاف أما التبعيض بـ (مِنْ) فإنما يكون في الأجزاء ، كما بين رأي السيد الشريف الجرجاني الذي قصر التنكير على التبعيض في الأفراد وبهذا أظهر ابن كمال آراء العلماء حول أن التنكير يراد به التبعيض وقد يراد به التقليل ، واستعماله في التبعيض باعتبار تضمنه التقليل ، كما أنه قد يراد به التعظيم ، كما في تنكير (ليلا) .

وبهذا ظهر لنا أن ابن كمال يعد من المجتهدين الذين قرأوا الأصول والفروع من العلوم ما هيأ لهم أدوات الاجتهاد ■



● الهــوامــش ●

(١) الشقائق النعمانية . بيروت . دار الكتاب العربي ١٣٩٥ ص ٢٢٦ .
(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية . مصر السعادة ١٣٢٤ هـ جـ ١ ص ٤٠٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) مجلة المقتبس . المجلد السابع ١٤٠٦ هـ ـ دمشق . هامش .
(٥) الفوائد البهية ص ٢٢ .
(٦) المرجع السابق .
(٧) الشقائق النعمانية ص ٢٢٦ والطبقات السنية في تراجم الحنفية ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٨) رسائل في اللغة لناصر الرشيد ط النادي الأدبي بالرياض ١٤٠١ هـ/١٩٨٠ م .
(٩) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ص ٤١٢ والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٤١٢ .
(١٠) الطبقات السنية ص ٤١١ وتاريخ الدولة العثمانية ص ٧٦ - ٧٧ .
(١١) (اعلم) سقط من (٣) .
(١٢) هو علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) .
انظر الاعلام . بيروت . دار العلم للملايين ١٩٨٤ جـ ٥ ص ٧ .
(١٣) يفارق في جميع النسخ .
(١٤) حيث قال : (ذكر في شرح الكافية) بزيادة (ذكر) في (٥) .
(١٥) (أي تعرف) بزيادة (تعرف) في (٣) ، (٥) ، (٦) وهي من كلام المؤلف .
(١٦) (وبعدها في (٣) .
(١٧) في الكافية : (ويقع اسم ذلك المجرور) .
(١٨) ولـ (عشرين) في جميع النسخ فيما عدا الأصل وهو موافق لما جاء في الكافية .
(١٩) (في قولك عشرون من الدراهم) سقط من النسخ كلها وهي في شرح الكافية ، (انظر شرح الكافية . بيروت . دار الكتب العلمية ١٣٠٠ هـ جـ ٢ ص ٣٢٢) .
(٢٠) في الكافية : (لصحة إطلاق اسم المجرور) .
(٢١) لصحة إطلاق المجرور على العشرين في (٦) ، (على عشرين) في (٣) ، (٥) . .
(٢٢) (التبعيض) في جميع النسخ وفي (١) . للتبعيض .
(٢٣) (وهو) في (٦) .
(٢٤) (التبعيضية) في (٥) .
(٢٥) (في قوله) في (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) .
(٢٦) (ولتقليل) في (٣) ، (٥) ، (٦) .
(٢٧) الآية الأولى من سورة الاسراء .
(٢٨) (كان في بعض أجزاء الليل) في (٣) وفي حاشية الشريف الجرجاني (ليلة واحدة) استانبول . دار سعادات ـ مطبعة عثمانية ١٣١٠ هـ ص ١٦٧ .

(٢٩) حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول ، ص ١٦٧ .

(٣٠) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، النحوي اللغوي مؤسس علم البيان وصاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز (ت ٤٧١ هـ) . (انظر شذرات الذهب ـ بيروت ط ثانية . دار المسيرة ١٣٩٩ هـ ج ٣ ص ٣٤٠) .

(٣١) (في قوله تعالى) سقط من (٢) ، (في) سقط من (٦) .

(٣٢) العبارة (في) (٢) ، (٦) : على أن تلك الحياة المهموم بقتله ، وفي (٦) : (للدلالة على تلك الحياة الموهم بقتله) .
والعبارة في الدلائل هي : (لما كان الإنسان إذا عَلم أنّه إذا قَتَلَ قُتِلَ ، ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه ، وصارت حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت مستفادةً بالقصاص .. إلخ .
(دلائل الإعجاز . مصر ط دار المنار ١٣٧٢ هـ ص ٢٢٤) .

(٣٣) العلامة الزمخشري ، هو جار الله أبو القاسم محمد بن عمر الخوارزمي المعتزلي ، صاحب الكشاف ومصنفات أخرى معروفة (ت ٥٣٨ هـ) (الأعلام للزركلي جـ ٧ ص ١٧٨) .

(٣٤) تفسير الكشاف . بيروت . دار الكتاب العربي ١٣٦٦ هـ جـ ٢ ص ٦٧٣ .

(٣٥) (فإن قلت) سقط من (٥) .

(٣٦) (تعالى) زيد في (٣) .

(٣٧) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٣٨) الواو سقطت من (٥) ، (٦) .

(٣٩) (وزبور) بدون ألف في (٣) .

(٤٠) الواو سقطت من (٥) .

(٤١) من أول قوله : (وهي الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ـ ﷺ ـ من الزبور) سقط من (٥) .

(٤٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٣ .

(٤٣) وهي الآية ﴿ يأيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عَسَى أنْ يَكونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ولاَ نِسَاءٌ من نِسَاءٍ عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ .. الآية ﴾ الآية ١١ من سورة الحجرات .

(٤٤) (أي أن يراد ..) بزيادة (أي) في (٦) .

(٤٥) (بعض) سقط من (٢) .

(٤٦) (الشياع) ، في (٢) ، (٣) ، (٥) ، (٦) .

(٤٧) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٦٨ .

(٤٨) (أيضاً) سقط من (٦) .

(٤٩) (والاختصاص) في (٢) .

(٥٠) (بهذا) في (٢) ، (٦) .

(٥١) (التبعيضية) في (٦) .

(٥٢) (يدل) في (٥) .
(٥٣) (في) سقط من (٣) .
(٥٤) (الآية ـ رقم (٣) من سورة البقرة .
(٥٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٠ .
(٥٦) (التبعيضية ـ هو) سقط من (٢) .
(٥٧) (يرشدك) بزيادة الكاف في جميع النسخ فيما عدا الأصل . .
(٥٨) تعبير المؤلف بكلمة (زيادة) في عبارته : (وأيضاً يرشد إليه زيادة « مِنْ » التبعيضية في قوله تعالى : ﴿ وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ لا يعني أنّ (مِنْ) زائدة في الآية مثل زيادتها في سياق النفي ، وإنما يعني أن سقوط (من) من الآية يفوت علينا المقصود وهو أن المغفور بالإيمان بعض الذنوب ، وهي الذنوب التي هي في حق الله . .
(٥٩) (به) سقط من الأصل ، وفي (٢) : (يغفر لكم من ذنوبكم) .
(٦٠) الآية ٣١ من سورة الأحقاف .
(٦١) (عن) سقط من (٥) .
(٦٢) تفسير البيضاوي ، مصر ، ط أولى مطبعة البابي الحلبي ١٣٥٨ هـ جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٦٣) (ولا يتيسر) في (٢) ـ (وما يتيسر) في (٥) .
(٦٤) هو الإمام أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠ هـ) انظر الأعلام للزركلي جـ ٨ ص ٣٦ .
(٦٥) يقصد بصاحبيه : أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (١١٣ - ١٨٢ هـ) ومحمد بن الحسن الشيباني (١٣١ - ١٨٩ هـ) .
(٦٦) كتاب الهداية للإمام العلامة برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر عبد الجليل الرشداني المرغيناني ، شيخ الإسلام (ت ٥٩٣ هـ) .
(٦٧) انظر كتاب الهداية في كتاب شرح فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام الحنفي (ت ٨٦١ هـ) .
مصر . ط أولى ١٣١٦ هـ جـ ٣ ص ١٠٧ .
(٦٨) هو صدر الشريعة الأصغر ، عبيد الله بن مسعود بن محمود بن أحمد المحبوبي البخاري الحنفي (ت ٧٤٧ هـ) .
(انظر الأعلام للزركلي جـ ٤ ص ١٩٧) .
(٦٩) (تقدير) في (٦) .
(٧٠) (قالا) في الأصل فقط (١) .
(٧١) (البعض) في (٢) .
(٧٢) التوضيح في حل غوامض التنقيح ، مصر ، ط المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ جـ ١ ص ٢٦٤ .
(٧٣) (تقرير) في الأصل فقط (١) .
(٧٤) في جميع النسخ (البيان) ولم تظهر (أل) من لفظ (البيان) في (٣) لسقوطها في التصوير .

(٧٥) التفتازاني ، هو مسعود بن عمر بن عبد الله ، سعد الدين (ت ٧٩٣ هـ) .
(انظر الأعلام للزركلي جـ ٦ ص ٣١٩) .
(٧٦) التلويح ، شرح على التوضيح . مصر . المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ ، جـ ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٧٧) الآية ٣١ من سورة الأحقاف .
(٧٨) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(٧٩) (بأن قالوا) في الأصل فقط ، (إلى أن قالوا) في بقية النسخ .
(٨٠) (أحد) سقط من (٥) .
(٨١) التوضيح في حل غوامض التنقيح وبه حاشية على التلويح جـ ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٨٢) (بغفران) في (٣) .
(٨٣) (بعض) من (٦) .
(٨٤) انظر هامش رقم (٨١) وقد تكررت عبارة (بل عدم غفران بعضها يناقض غفران كلها) في (٢) .
(٨٥) (القول) في (٥) .
(٨٦) (التبعيضية) في (٢) .
(٨٧) (المنافية للكلية) سقط من (٣) ، (٥) ، (٦) .
(٨٨) (بإظهارهم الاحتياج باحتياجهم) بزيادة (باحتياجهم) في (٢) ، (٣) .
(٨٩) (ثم ان) سقط من (٦) .
(٩٠) نسب هذا الكتاب (المقاليد) إلى الجندي أو الخجندي ، وهو أحمد بن محمود بن عمر بن قاسم شرف الدين تاج الدين (ت ٧٠٠ هـ) صاحب الأقليد في شرح المفصل ، المقاليد في شرح المصباح للمطرّزي فقد ورد التعريف به في الأزهرية (جـ ٤ ص ٤١٤) ، وفي بروكلمان : المقاليد لتاج الدين الجندي (مكتبة اسكوريال) (٢٥٩) .
(٩١) هو الأخفش الأوسط ، سعيد بن مسعدة المجاشعي (ت ٢١٥ هـ) .
(٩٢) الإيضاح لابن الحاجب ، بغداد ط العاني ١٩٨٢ جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٩٣) (فهي غريبة) في (٢) ، (وهو) في (٣) .
(٩٤) انظر الهامش رقم ٨٩ .
(٩٥) (أيضاً) سقط من (٢) .
(٩٦) (لا البعضية الشاملة ..) في (٦) ، (الشاملة) سقط من (٢) .
(٩٧) (في الجن) سقط من (٢) .
(٩٨) (خطاب) سقط من (٢) .
(٩٩) (الجمع) في (٣) .
(١٠٠) (على أن يكون خطاب البعض وأَرَادَ القَومَ الآخَرَ) في (٢) .
(١٠١) (آخر) في جميع النسخ ، وهو صواب ، كما حكى ثعلب أن العرب تقول : يأيها القوم كفوا وكف

عنا ، على اللفظ وعلى المعنى ، ولكني آثرت الأفصح وهو اعتبار المعنى ، فجئت بالجمع (آخرين) كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ (الفرقان – ٢٥) .

(١٠٢) (في تفسير سورة إبراهيم) في (٥) ، (٣) .
(١٠٣) (وبين) بدون (ما) في (٥) ، (٦) ، (٣) .
(١٠٤) (فاضطرب) في (٣) .
(١٠٥) (اعتبره) في (٣) ، (٥) .
(١٠٦) (الذنوب) في (٣) ، (٥) .
(١٠٧) تفسير البيضاوي جـ ٢ ص ٥٠٦ ، وفي الأصل (تفرقة بين الخطاب) .
(١٠٨) تفسير البيضاوي جـ ١ ص ٤٣٥ .
(١٠٩) (ولا يذهب) في (٢) ، (٣) ، (٥) ، (٦) .
(١١٠) (للكفرة) في (٢) ، (٣) ، (٥) ، (٦) .
(١١١) الآية ٣٨ من سورة الأنفال .
(١١٢) يقال له : ابن الكلبي ، أبو المنذر بن هشام بن أبي النضر ، كان من أعلم الناس بعلم الأنساب ولد بالكوفة وتوفي بها سنة ١٤٦ هـ (انظر الأعلام جـ ٦ ص ١٣٣) .
(١١٣) الآية ٦٨ من سورة الفرقان .
(١١٤) (الآية) في (٢) ، (٥) ، (٦) .
(١١٥) الآية ٦٠ من سورة مريم .
(١١٦) (أل) في (الوحشي) ليست للتعريف ، وإنما هي للعهد لذكره من قبل .
(١١٧) الآية ٣٨ ، ١١٦ من سورة النساء .
(١١٨) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(١١٩) البحر المحيط ، لأبي حيان (ت ٦٥٤ هـ) الرياض ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ١٣٢٩ هـ جـ ٣ ص ٢٦٨ .
(١٢٠) (على حقيقة المبالغة) في (٧) .
(١٢١) تفسير البيضاوي . مصر . الحلبي ١٣٨٨ هـ جـ ٢ ص ٣٢٥ .

● المـراجـع ●

(١) القرآن الكريم
(٢) الاسترابادي . محمد بن الحسن ـ رضى الله (٦٨٦ هـ) شرح الكافية ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٣٠٠ هـ .
(٣) بروكلمان . كارل (١٣٧٥ هـ) تاريخ الأدب العربي . ألماني اجي بريل ليدن سنة ١٩٤٣ م .
(٤) البيضاوي ـ عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الفارسي الشيرازي (٦٨٥ هـ) تفسير البيضاوي ـ مصر ، ط أولى شركة البابي الحلبي ١٣٨٥ هـ .

(٥) التفتازاني . مسعود بن عمر بن عبد الله . سعد الدين (ت ٧٩٣ هـ) التلويح على شرح التوضيح . مصر . المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ .
(٦) التقي الغزي ـ تقي الدين بن عبد القادر التميمي (ت ١٠١٠ هـ)
(٧) الطبقات السنية ـ تحقيق عبد الفتاح الحلو ـ مصر ، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٠ هـ .
(٨) الجرجاني ـ أبو بكر عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) دلائل الإعجاز ـ مصر ، ط دار المنار ١٣٧٢ هـ .
(٩) ابن الحاجب . الشيخ عثمان بن عمر أبو عمرو (ت ٦٤٦ هـ) الإيضاح ـ تحقيق موسى بناي العليلي ـ بغداد ـ مطبعة العاني ١٩٨٢ م .
(١٠) أبو حيان ـ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (ت ٦٥٤ هـ) ـ البحر المحيط ـ الرياض ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ١٣٢٩ هـ .
(١١) الرشيد . ناصر سعد . رسائل في اللغة لابن كمال باشا . الرياض ط النادي الأدبي ١٩٨٠ م .
(١٢) الزركلي ـ خير الدين ـ الأعلام ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٨٤ م .
(١٣) الزمخشري ـ جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي المعتزلي (٥٣٨ هـ) تفسير الكشاف ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٣٦٦ هـ .
(١٤) الشريف الجرجاني ـ علي بن محمد بن علي (ت ٨١ هـ) حاشية السيد علي المطول ـ استانبول ط دار سعادات = مطبعة عثمان ١٣١٠ هـ .
(١٥) صدر الشريعة الأصغر ـ التوضيح في حل غوامض التنقيح وعليه التلويح للتفتازاني . مصر ـ ط المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ . .
(١٦) طاشكبري زادة ـ أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ) الشقائق النعمانية ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٣٩٥ هـ .
(١٧) اللكنوي . محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم الأنصاري الهندي أبو الحسنات (ت ١٣٠٤ هـ) الفوائد البهية في تراجم الحنفية . مصر ـ السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .
(١٨) مجلة المقتبس ـ دمشق ١٩٠٦ م .
(١٩) محمد فريد بك (ت ١٣٣٨ هـ) تاريخ الدولة العثمانية ـ بيروت ـ دار الجيل ١٣٩٧ هـ .
(٢٠) المرغيناني ـ برهان الدين ، أبو الحسنات . علي بن أبي بكر عبد الجليل (ت ٥٩٢ هـ) كتاب الهداية في كتاب فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام (ت ٨٦١ هـ) مصر ، ط أولى ١٣١٦ هـ .



□ □ الروايّة التاريخيّة

حول صدر الإسلام في بلاد الشام

بين الفن والتاريخ

● د . إبراهيم السعافين ●

مدخـــل :

لم ينل عصر صدر الإسلام عناية كافية من كتاب الرواية التاريخية الرواد . ولعل ذلك يعود إلى اهتمام معظم روائيي هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) بالتماس موضوعات رواياتهم من الفترات السياسية التي تحفل بأحداث الفتن والمؤامرات والدسائس والمغامرات ، بما يتفق مع أساليبهم في كتابة الرواية في الأغلب الأعم .

وسنقصر حديثنا على أربعة روائيين وظَّفوا الأحداث التاريخية في رواياتهم على اختلاف ما بينهم في النظرة إلى التاريخ وهي الموهبة الروائية ، وهم : سليم البستاني في روايته : « الهيام في فتوح الشام »[١] ، وجورجي زيدان في روايته « أرمانوسة المصرية »[٢] لأن حوادثها تجري في كل من مصر والشام وفرح أنطون في روايته : « فتح العرب لبيت المقدس »[٣] ومعروف الأرناؤوط في رواياته : « سيد قريش »[٤] و « عمر بن الخطاب »[٥] و « فاطمة البتول »[٦] .

ولعل من المفيد أن نتعرف على النظرية الروائية لهؤلاء الكتاب وطبيعة أذواقهم في هذه الفترة .

فقد لاحظ الدكتور عبد المحسن بدر أن جورجي زيدان الذي عرف برواياته حول « تاريخ العرب والإسلام » سلك مسلكاً مغايراً لبعض كتّاب الرواية التاريخية في الغرب مثل الكسندر دوماس الاب ووالتر سكوت رائد الرواية التاريخية ، ورأى أن الفارق الأساسي بين جورجي زيدان والكاتبين المذكورين ، أن روايات دوماس الاب ووالتر سكوت تأثرت تأثراً واضحاً بالإحساس القومي الذي ساد الفترة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، وأن هذا الإحساس ألهب خياليهما وعاطفتيهما ، فجعلا من التاريخ خادماً لهذا الإحساس ولذلك اهتما بالجانب الخيالي أكثر من الجانب التاريخي ...

« وإذا كان كتّاب الرواية التاريخية من الغربيين ، قد اهتموا بإحياء الماضي ولم يهتموا بصحة المعلومات التاريخية ، وحاولوا تقديم رواية ناجحة ، فإن جورجي زيدان يوشك أن يكون على نقيضهم ، فإن اهتمامه لم يكن موجهاً إلى إحياء الماضي القديم ، وذلك لأن الفكرة القومية لم تكن قد نضجت وتبلورت في مجتمعنا ...

وإذا كان جورجي زيدان يذكر أن غرضه أن يعلّم التاريخ في قالب قصصي مشوق فإنه لا يلتزم الوقائع التاريخية تماماً ، وقد يختار روايات ضعيفة أو يختلق بعض الروايات أحياناً ، وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى أن يذهبوا إلى أن جورجي زيدان « حين يختار موضوع رواياته لا يلجأ إلى الفترات المشرقة التي تمثل أمجاد التاريخ العربي دائماً ، ولكنه يختار المواقف الحساسة التي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة ... »[٧] .

ولقد اهتم سليم البستاني أيضاً بالوقائع التاريخية في رواياته التاريخية ، وحاول ، مثلما فعل زيدان وغيره ، أن يقنع القارئ بتوثيق مادته العلمية من كتب التاريخ العربية والغربية ، بيد أنه كان أحياناً يفسر التاريخ على هواه ، وبما يتفق مع وجهة نظره إلى أحداث التاريخ ، وبما يتفق أحياناً مع تطور الأحداث والشخصيات . فها هو سليم البستاني يقول في مستهل روايته :

« إن خطب أمير المؤمنين والرسالات التي جرت بينه وبين قواد الجيوش العربية ، وهي منقولة عن تاريخ فتوح الشام وغيره »[٨]

مثلما أرفق جورجي زيدان بروايته « أرمانوسة أو فتح مصر » ثبتاً بمراجعه العربية والغربية في نهاية الرواية .[٩]

ويفسر سليم البستاني سبب تقديمه بعض الحقائق التاريخية إطاراً للجانب الغرامي بانصراف الناس عن هذه الحقائق وميلهم إلى متابعة أخبار العاشقين ، بما يوحي باهتمامه بالجانب التاريخي ، وبأهمية دوره في الرواية إذ يقول :

« هذا وربما لو كنا قد أطلنا الكلام المتعلق بوصف حالة الأمة العربية الساكنة في بلاد العرب

الأصلية في هذا الزمان وفي كل الأزمنة المعروفة التي سبقته ، فإن كثيراً من قرّاء الروايات لا يحبون هذه الحقائق المفيدة ، بل يكتفون بالوقوف على خبر العاشق والمعشوقة وهذا خطأ مبين ، لأننا لا نقدر أن نفهم حقيقة مركز العاشق ولا مركز المعشوقة ولا الحوادث الجارية ، ما لم نقف على تواريخ أزمانهم وعلى عاداتهم وحروبهم ، هذا وكم من فائدة تاريخية يحصل الإنسان عليها بواسطة روايات فيكون قاصداً الوقوف على خبر المتحابين فيعثر بحقيقة تاريخية أو نتيجة حكمية أو إصلاح أو تنكيت يلزمه أكثر من غيره ، فالضجر من الكلام عن هذه الأمور في بلاد ظروفها كظروف بلادنا خطأ عظيم » .[١٠]

وعلى الرغم من أن البستاني يشعرنا ، حين يقدم روايته ، بأنه يجمع بين دور الروائي ودور المؤرخ ، بل إنه يحاول إقناعنا بأن مهمته الأولى هي تحقيق دور المؤرخ فنراه يفسر مهمته في تعليقه على حادثة اقتحام أسوار بصرى بمائة رجل بحيلة رومانوس ضد الديرجان إذ يقول :

ومن المعلوم أنه يسوغ للمؤرخ في كل حال أن يستنتج ما هو ذو فائدة مع قطع النظر عن المتعلقات الدينية ، وتركها للكتب المذهبية ، لأن المقصود من تقرير التواريخ إنما هو إفادة القوم بحوادث مع تبين أسبابها ونتائجها لتقاس بالحوادث الجارية عليها ، ويكتب باختبارها ، ويثقف العقل ويهذب بمعرفتها ولذلك لا نعول على ذكر الأسباب الدينية في هذه الرواية ونتائج حدوثها ، قدر التعويل على الأسباب والنتائج الدنيوية المجردة عن الاعتقاد المذهبي »[١١]

أمّا مفهوم فرح أنطون لكتابة الرواية التاريخية فقد ظهر في مقدمة روايته « فتح العرب لبيت المقدس » إذ يقول منها :

« ..... والأمر الثاني : الذي أحببنا التنبيه عليه أن الروايات التاريخية لا يقصد بها سرد وقائع التاريخ وأرقامه . فإن طالب هذه الوقائع والأرقام يلتمسها في كتب التاريخ حيث تكون قريبة المنال ليجردها عما ليس منها ، لا في الروايات المطولة التي تشتبك وقائعها الخيالية بها ، ولا يصبر طالب التاريخ على مطالعتها ، وإنما المقصود من الروايات الخيالية (فوق سرد الوقائع والأرقام وتصوير الوسط المراد تصويره وإبراز العواطف والأفكار التي كانت تختلج في هذا الوسط تكميل التاريخ في جوانبه الناقصة .

ونعني هنا « بتكميل التاريخ » أن يضع المؤلف نفسه موضع الأشخاص التاريخيين الذي يتكلم عنهم ، ويعبر عن أفكارهم وآرائهم في المواقف التي يصورها لهم ، والتي لا أثر لهم في التاريخ مستدلاً على ذلك بما يعرفه عنهم .

وهذا الأمر في روايات « ديماس » المشهور كان أهم الأمور ، فكأنه به يحيي الأبطال ويكشف لك خبايا كانت مدفونة في صدورهم . ولقد سلكنا هذا المسلك في الرواية . غير أننا خشينا أن يختلط التاريخ بما ليس هو في شيء منه ، فيضل القارئ ، سيما القليل الإطلاع ، فوضعنا علامات للتفريق بين التاريخ وبين التصنيف والاستدلال .... » الرواية ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ولعل فرح أنطون هو الروائي الوحيد الذي تمسك بالحقيقة التاريخية من بين أقرانه موضوع هذا البحث ، ولم يورد ما يخالفها إلا بإشارة ترشد القارئ إلى التميز بين الحقيقة والخيال .

ويتضح من أسلوب معروف الأرناؤوط في فهم الرواية التاريخية أنه يلجأ كغيره من الروائيين السابقين إلى توثيق مادته التاريخية بالإشارة إلى المصادر والمراجع من مثل إشارته إلى كتاب السيرة وإلى كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وسيرة عمر بن الخطاب ومعجم البلدان ، والأغاني ، وتاريخ العرب في سورية قبل الإسلام لسديو ، وشعراء النصرانية وغير ذلك من المراجع والمصادر ، وقد حملته عنايته بالتاريخ على أن يعود إليه في كثير من المصادر التي تعرضت لهذه الفترة التي تمتد من فترة ما قبل ظهور الإسلام حتى بعثة الرسول عليه السلام،، وتحدثت عن أحوال العرب في مواطنهم المختلفة في الجزيرة ، والعراق ، والشام ، وعن الأمم ذات الصلة بحياة العرب من مثل الفرس والروم ، وقد خص الأرناؤوط بيزنطة بعنايته الشديدة ، لأنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث التي تعالجها رواية سيد قريش بخاصة ...... »[١٢] .

على أن الأرناؤوط كان ، إلى جانب التزامه الحقيقة التاريخية فيما يتصل بالجانب التاريخي ، متحمساً لتاريخ العرب والمسلمين ، مما جعله يزور البلاد التي وصفها في رواياته ، على نحو ما صنع من قبله الروائيون الرومانسيون ، سواء كانت هذه البلاد في الوطن العربي أم خارجه من مثل بيزنطة وأسبانيا ، ليكون على دراية بما يصف ، وحتى توحي له بمشاعر صادقة ، على نحو ما نرى في حديثه الشعري في مقدمة روايته « عمر بن الخطاب » إذ يقول فيها :

« هذه الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكة وبوادي الشام والعراق (لعمر بن الخطاب) .... فلقد طويت من أجلها البر الفسيح ، والبادية الغلفاء حتى وافيت سيناء ، وغيم علي الليل الصارد في هضابها الشم ، ووقفت حيث وقف موسى ، تظللني كما أظلته سحابة فضفاضة ، ثم لم أطل مكثي في سيناء فجفوتها ، ونزلت بوادي سلع ، وشممت عبير أولئك القتلى الذين ماتوا في شباب الإسلام ، وهم يهتفون لسيد قريش وصحبه .... ثم أمعنت في السياحة ، فرأيت العراق ورأيت دجلة والفرات وطفت بالأطلال التي وثق بنيانها بكر وائل ، ثم جئت إل بيت المقدس ، وأظلني المسجد الجامع وذلك المسجد الذي أظل عمر أمير المؤمنين ، ومازلت كذلك حتى فيأني جبل النور في مكة ، وبانت لي الطريق التي جازها محمد وأصحابه إلى العالم ثم إذا هذه الأزهار وهذه الأعشاب التي جمعتها من هنا وهناك تستحيل إلى كتاب جديد اسمه عمر بن الخطاب ... »[١٣] .

وعلى هذا النحو نجد هؤلاء الروائيين قد احتفلوا من الوجهة النظرية بالمادة التاريخية وحاولوا أن يوثقوها على اختلاف ما بينهم ـ بالمصادر والمراجع ، على أن الخلاف يبدو في حماستهم للتاريخ وتأثرهم العاطفي بأحداثه وشخصياته وحضارته عامة ، وهذا ما جعلهم ، عل اختلاف موقفهم الفكري أو العاطفي من التاريخ ، يلجأون إلى اصطناع قصة خيالية أو شبه أسطورية ليديروا عليها

أحداث الرواية ، ليتخلصوا من سطوة الواقعة التاريخية ، وليجدوا حرية واسعة في تحريك الشخصيات بما تمليه عليهم مواقفهم أو عواطفهم أو أمزجتهم الفنية .

فثمة حدث تاريخي معروف في كتب التاريخ تدور من خلاله أو على هامشه قصة غرامية أو اجتماعية مختلقة تبدو للقارئ وكأنها جزء لا يتجزأ من أحداث الفترة التاريخية التي تتناولها الرواية .

وسأحاول فيما يأتي أن أتحدث ، بانفراد ، عن أسلوب كل من الروائيين الأربعة في رواياتهم التاريخية ، من حيث تجسيد موقفهم الفكري ، أو عاطفتهم القومية أو مزاجهم الفني ، وقد قصدت إلى أن أتحدث بإيجاز شديد عن الروائي معروف الأرناؤوط لأنه يمثل امتداد فترة تأثير الرواية العربية الحديثة بالتراث الشعبي في بلاد الشام ، ولعل مسوغ اختياره يعود إلى تميزه بين روائيي النشأة والامتداد في الحماسة للتاريخ وفي التطور الفني نسبياً .(١٤)

الهيام في فتوح الشام لسليم البستاني

تعرضت هذه الرواية لفتوح الشام من خلال قصة غرامية ذات صلة بالاحداث التاريخية وبأحوال المتحاربين ، تجمع بين سلمى العربية وحبيبها سالم ، وأوعسطا الرومية وحبيبها جوليان .

وهؤلاء شخصيات متخيلة ، جعل المؤلف مهمتها التعليق على الأحداث ، وتحليل الشخصيات العربية والرومية بصورة نمطية وربما من حيث هي نماذج .

ومن الطبيعي أن يختار البستاني الروايات التاريخية التي تتفق مع فكرته الأساسية ، وليس غريباً أيضاً أن نراه يفسر الأحداث ، ويحلل الشخصيات وسلوكهم بما يلائم العناصر التي أشرنا إليها . ولعل هذا ما دعاه إلى مناقشة الروايات التاريخية ومحاولة تفنيدها .

فحين أورد البستاني خبر فتح دمشق ، علق على منح أبي عبيدة الأمان لأهل المدينة ، حين أشار إلى مشاجرة نشبت بين خالد وأبي عبيدة نتيجة هذا الأمان فرسم للفاتح.العربي صورة نمطية تركز على الجانب المادي ، على نحو ما نرى في تلهفه على اقتناص الغنائم إذ يقول البستاني معلقاً :

« ومن المؤكد أن وجود الغنائم للعربي كالمغناطيس للفولاذ »(١٥)

وقد ورد هذا الخبر في فتوح الشام في شكل حوار بين أبي عبيدة وخالد ، إذ قال أبو عبيدة

« أيها الأمير قد تم الصلح . فقال خالد وما الصلح ؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم وقد فتحتها بالسيف ، وقد خضبت دماء المسلمين من دمائهم ، وأخذت الأولاد عبيداً وقد نهبت الأموال ، فقال الأمير : إعلم أني ما دخلتها إلا بالصلح . فقال له خالد بن الوليد : إنك لم تزل مغفلاً ، وأنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم »(١٦) وانتهى الأمر بقبول الصلح .

وبوسعنا أن نلاحظ من الأخبار أن الخلاف في أمر الصلح لم يقتصر على أمر الغنائم ، بل كان لأسباب تتصل بتقويم عام للعناصر المختلفة ، ومنها الوضع الحربي ، إذ أسف خالد لنجاة الزعيمين هربيس وتوما من القتل ، وفوات الأموال التي حملوها معهم ، مثلما فعل ضرار بن الأزور على نحو ما نرى في حوار عطية بن عامر معه :

« فقلت له : يا ابن الأزور ، مالي أراك كالمتحسر ، أما عند الله أكثر من ذلك ؟

فقال :

والله ما أعني مالاً ، وإنما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا .» (٨٣)

ولعل موقف أبي عبيدة وأمراء الريان يوضح هذا الأمر بصورة أكبر .

ولم يول المؤرخون أمر هذا الخلاف اهتماماً كبيراً فيما بعد ، على نحو ما نرى في تاريخ ابن خلدون ، إذ يقول معقباً على فتح دمشق .

« فاختلف المسلمون قليلاً ، ثم اتفقوا على أمان الروم .... »[١٧]

ولم يقف الأمر عند حدود الروايات التاريخية وتفسيرها ، بل وقف البستاني من بعض الروايات موقف المفند المناقش ، فلم يقبل الروايات التاريخية التي تحدثت عن عدد كل من المسلمين والروم في معركة اليرموك ، ورأى أن عدد المسلمين أكثر مما ذكرت كتب التاريخ العربية بكثير ، إذ يقول معلقاً على روايات المؤرخين العرب :

« ومما يشكل على الإنسان فهمه أن يرى في بعض التواريخ العربية ، ذكر عدد جيش الرومان ذكراً يحمل المطالع على أن يظن أن العرب كانوا قدر ثلثهم ، مع أنهم كانوا أكثر من ثلثيهم فإن جيش العرب الذي كان تحت قيادة خالد بن الوليد في سوريا كان نحو خمسين ألفاً » .[١٨]

ويبدو أن البستاني استند في ذكر هذا الرقم إلى رواية الطبري التي أشارت إلى أن عدد الجنود الذين كانوا تحت قيادة الأمراء الذين توجهوا إلى اليرموك بلغ ستة وأربعين ألفاً .[١٩]

بيد أن البستاني لم يستند في تقدير نسبة جيش المسلمين إلى جيش الروم إلى رواية تاريخية عربية أو غربية ، إذ لم يذكر المؤرخون الغربيون الذين توافرت بين أيديهم المراجع العربية والغربية فيما أوردوه نحواً من هذا العدد ، إذ يقول « دونر DONNER

وحتى إذا لم تكن أرقام كلا الجانبين مضخمة ، فإن المراجع التاريخية تقدر أن جيش المسلمين كان حوالي ربع الجيش البيزنطي في معركة اليرموك .

ثم يذكر ما أورده المؤرخون من التباين بين عدد كل من الجيشين ، إذ بلغ عدد المسلمين ستة وعشرين ألفاً ، وبلغ عدد البيزنطيين مائتين وأربعين ألفاً .[٢٠]

وينقل عن المصادر القديمة غير العربية أن البيزنطيين تحملوا من الضحايا ما بلغ مائة وخمسين ألفاً في هذه المعركة .[٢١]

ويوشك قارئ الرواية أن يطمئن إلى أن هوى البستاني لم يكن مع العرب ، بل ربما لم يكن مع التحليل الموضوعي للأحداث التاريخية ، فأرجع انتصار العرب إلى خلل معين في الجانب الروماني قد يبدو ، في أغلب الأحيان ، غير مفهوم منطقياً ، إذ جعل هذا الخلل في صورة « عمى » مقدر مثلاً ، فيقول معلقاً على فتح بصرى :

« وبالواقع أنه عندما يريد الله سبحانه وتعالى سقوط أمة يعمي بصرها ، فإنه لو كان الرومان في الشام ذوي حكمة ودراية لما انتظروا وصول العرب إلى القرب من أبواب مدينتهم »[٢٢] .

ونراه من بعد ، يعلق على صنيع الرومان مستغرباً ، دون أن يحلله منطقياً فيكتفي بالقول :

« ومن الأمور التي تدل على تغفل الرومان عدم مبادرتهم إلى الهجوم على العرب من البابين بعد أن سار أكثر الجيش الذي كان عند الباب الشرقي ، ولو انتبهوا إلى ذلك لأضعفوا قوة العرب ، إذ لم نقل إنهم كانوا يقدرون أن يفوزوا برفع الحصر عن مدينتهم »[٢٣] .

وقد أولى البستاني عنصر الخيانة في فتوح الشام أهمية كبيرة ، حتى كادت فكرة الرواية تقوم على أن سبب الفتوح يكمن في خلل ما في الجانب الروماني من مثل الخيانة والغفلة والعمى المقدر ونحو ذلك .

فقد أشار البستاني إلى خيانة في صفوف الرومان أدت إلى فتح بصرى ، إذ يروي أن « رومانوس » قد أسلم فخان مهمته ، وسهل اقتحام بصرى بحيلة ضد الديرجان ، استعان فيها بمائة رجل .[٢٤]

صحيح أن الواقدي أورد خبر إسلام « روماس » بطريق « بصرى » وأن غلمانه سهلوا دخول العرب عبر الأسوار وقتل الديرجان[٢٥] بيد أن عملية الاقتحام لا بد أن تفهم على ضوء الزخم الواضح لحركة الفتوح . إذ يبدو من الروايات التي ذكرتها المراجع أن أهل بصرى كانوا مضطرين إلى قبول الصلح .[٢٦]

وإذا كان البستاني قد أشاد بشجاعة خالد بن الوليد الملقب بسيف الله الذي كانت رايته « والنصر مجتمعين في كل حال ، ولذلك ذكر اسمه في قيادة الجيوش في باب الفوز والفتح .... »[٢٧] فإنه حاول أن يقلل من قيمة العناصر الموضوعية في انتصار المسلمين في معركة اليرموك ، فجعل ضعف الرومان وخياناتهم وانقسامهم على أنفسهم هي التي مهدت للمسلمين أسباب الانتصار . على أن الرومان ، على الرغم من إقرار البستاني بهذه العوامل ، لم يفارقوا صفاتهم ولا سجاياهم ولا تقاليدهم ، فالشجاعة الرومانية ، والأخلاق الرومانية التقليدية النبيلة ظلت على سابق عهدها . ولذا عزا النصر إلى خيانة

قائدهم ويبدو أنه يعني « جرجة » الذي ذكرته المصادر التاريخية . إذ يقول البستاني في هذا الصدد :

« فلما رأوا أنهم لم يكونوا قادرين أن يصمدوا للعرب وجهاً لوجه ، لشجاعتهم وسرعة أفراسهم وخفة حركتهم ، عوّلوا على أن يرسلوا فرقة لتحاول المسير إلى خلف جيش العرب بحيث يبيت في الوسط ، الأسوار أمامه ، وفرقة كبيرة وراءه ، ومن المعلوم أن ذلك كان من أصوب الحركات الحربية ، وربما كان علة فوز عظيم للرومان لولا خيانة قائدهم المعهود الذي كان يحب أوغسطا ، فإنه هو الذي أشار بهذه الحركة الحربية غير أنه كان قد أخبر خالد ابن الوليد قائد العرب بها فاستعد لها .[٢٨]

ولقد أعطى البستاني « الخيانة » دوراً كبيراً إذ يقول في هذه الواقعة :

« أما العرب فلما رأوا انكسار تلك الفرقة تشددوا جداً ، وتيقنوا بالفوز بعد أن كادوا يقطعون الأمل من الحصول عليه ، هذا بدون أن يكونوا يعلمون أن انكسارها إنما كان بالخيانة » .[٢٩]

وتتحدث المصادر العربية عن هذه الواقعة ، فتذكر أن إسلام « جرجة » إنما تم في أثناء المعركة لا قبلها ، إذ لم تكن مرتبة من قبل ، وملخصها كما يأتي :

« ... وخرج جرجة إلى بين الصفين وطلب خالد فخرج إليه فأمَّن كل منهما صاحبه ، فقال جرجة يا خالد اصدقني ولا تكذبني ، فإن الحرّ لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل ، هل أنزل الله على نبيكم شيئاً من السماء ، فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ، قال : لا ، قال ، ففيم سميت سيف الله ، فقال له : إن الله بعث فينا نبيه ﷺ ، فكنت فيمن كذبه وقاتله ، ثم إنَّ الله هداني فتابعته ، فقال : أنت سيف سله الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فقال : فأخبروني إلام تدعوني ، قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، قال : فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم ، قال منزلتنا واحدة ، قال : فهل لكم مثله من الأجر والذخر ، قال : نعم وأفضل ، لأننا اتَّبعنا نبينا وهو حي ، يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ، وأنتم لم تروا مثلنا ، ولم تسمعوا مثلنا ، فمن دخل بنية وصدق ، كان أفضل منا ، فقلب جرجة ترسه ، ومال مع خالد ، وأسلم وعلَّمه الإسلام ، واغتسل وصلى ركعتين ، ثم خرج مع خالد فقاتل الروم ، وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى الحامية وعليهم عكرمة وعمّه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة :

قاتلت مع النبي ﷺ في كل موطن ، ثم أفر اليوم ، ثم نادى من يبايع على الموت ، فبايعه الحارث ابن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدام فسطاط خالد ، حتى أثخنوا جميعاً جراحاً ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل ، وقاتل خالد وجرجة قتالاً شديداً ، فقتل جرجة عند آخر النهار ...[٣٠] ولم يكن « جرجة » هذا قائد البيزنطيين في معركة اليرموك ، بل كان أحد قادتهم ويذكر المؤرخون الغربيون أنه كان على رأس فرقة من الأرمن قوامها اثنا عشر ألفاً ، وذكروا أن اسمه جرجا أو (جورج)[٣١] .

ونرى البستاني ـ انسجاماً مع تعاطفه مع الرومان ـ يعلي من مبادئهم في هذه الرواية ، فيذكر أن بطرس يرفض قتل الأسيرات المتمردات : « فلما رأى بطرس عملهن قال لقومه : تفرقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهن السيوف ، ولا ينبغي أن يقتل أحدكم واحدة منهن ، بل خذوهن أسيرات[٣٢] و لم يتابع البستاني رواية الواقدي التي تضيف إلى قول بطرس السابق :

« ومن وقع منكم بصاحبتي » أي خولة « فلا ينلها بمكروه » ونعرف من الرواية أن بطرس تخلى عن أخذ « خوله » حين رأى شدة النساء في مقاومته ورجاله ورفضهن أن يؤخذن أسيرات ، إلى أن أسرع إلى نجدتهن ضرار الذي قتل بطرس .[٣٣]

« وتتبدى عاطفة البستاني تجاه الرومان أيضاً ، في إظهار شجاعتهم الخارقة من مثل وصفه لهجوم الشخصية المبتدعة جوليان[٣٤] أو في ما ينسبه إلى المؤرخين فيما يأتي :

« هذا وقد قال المؤرخون العرب ما يدل على أنه لو لم يثب ربيعة من مكانه أسرع من البرق ، ويضرب جرجيس بسيفه ويقتله لفتك جرجيس به . مع أن المعروف أن الغدر في مثل هذه الظروف لم يكن من شأن الرومان ، بعد أن تمدنوا وقبل التنصر وبعده ، ولذلك ربما كان من المرجح أن عدم وقوف ربيعة على عادات الرومان الحربية ومحافظتهم على الزمام ، وما لحظه من غيظ جرجيس عندما بلغ بلغة لم يفهمها ربيعة أنه هو قاتل أخيه حمله على أن يعجل بقتله لدفع عذره .[٣٥]

فلم يقف البستاني عند الرواية التاريخية وإنما فسر موقفه من خلال عاطفته التي وجَّهت كثيراً من الأحداث ، فلقد أشار الواقدي صراحة إلى توقع الغدر من جرجيس على نحو ما ندرك من الرواية الآتية :

« فقال بعض الحجاب إن هذا هو الذي قتل أخاك ، فلما سمع ذلك إزورَّت عيناه وغضب غضباً شديداً ، وهمَّ أن يثب على ربيعة ، ففهم ربيعة ذلك ، فوثب من مكانه أسرع من البرق ، وضرب بيده إلى قائم السيف ، وعاجل جرجيس بضربة فجندله صريعاً قتيلاً ، ووثب على فرسه فركبها ، فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم .... »[٣٦] . فثمة مقدمات في الرواية التاريخية تقود إلى ما حدث إذ إنَّ من يتتبع السياق التاريخي يلحظ أن الروم أظهروا الغدر غير مرة .[٣٧] وعلى الرغم من أن البستاني أشار إلى أن ظلم الرومان وإساءتهم حكم شعوب امبراطوريتهم عجل بتداعي حكمهم ، فإنه لم يتعمق هذه الفكرة مثلما فعل جورجي زيدان فيما بعد في روايته « أرمانوسة المصرية أو فتح مصر » .

ومهما يكن ، فإن البستاني أفاد من التاريخ وحاول أن يلتزمه فيما يتصل بالأحداث التاريخية في حين تصرف على هواه في الوقائع الغرامية التي ربطها بالحقائق التاريخية ، فنسب إلى الشخصيات الخيالية أحداثاً تاريخية تتفق مع الجو التاريخي العام ، وتخدم الحبكة الروائية و لم تمنعه الحقائق التاريخية من تفسير الأحداث بما يتفق وموقفه الفكري وعاطفته ومزاجه الفني .

أرمانوسة المصرية لجورجي زيدان

وهي الرواية التاريخية الوحيدة التي كتبها جورجي زيدان عن عصر صدر الإسلام ، وقد نشرها بعنوان « أرمانوسة المصرية أو فتح مصر » ضمن روايات تاريخ العرب والإسلام ، وحاول أن يشرح عنوانها ببيان مضمونها : « فيها تفاصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الإسلام (٦٤٠ م) ، مع بسط حال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم وحال العرب والأقباط في ذلك العصر » وقدّم للرواية على عادته بمقدمة تاريخية ، حوت خلاصة تاريخية عن فترة الرواية ومضمونها معاً . وألقت الضوء على حركة الشخصيات التاريخية وعلى الفكرة التاريخية العامة التي تحكم فهم المؤلف وتفسيره ، إذ يقول في هذه المقدمة : « فتح الرومانيون وادي النيل ، وأقاموا به قروناً ظهر في أثنائها الدين المسيحي ، وانتشر في العالم ، ودخل الدّيار المصرية فاعتنقه المصريون ، وهم الأقباط ، ثم اتخذته الدولة الرومانية ديناً لها بدلاً من الوثنية ، وهدمت تماثيلها .

ولكن ما كادت تستقر الأمور حتى حدث نزاع ديني بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية واشتدّ النزاع حتى تمكنت الضغائن بين الرومانيين وهم الفئة الحاكمة ، وبين الأقباط وهم الشعب المحكوم ، وعرف المذهب الروماني بالملكي ، والمذهب المصري باليعقوبي . فآل ذلك إلى نفور الأقباط من الرومانيين واستبدادهم ، وإلى رغبتهم في التخلص من نيرهم بأيّة وسيلة . وكان الرومانيون يسومون المصريين سوء العذاب ، فلم تفتهم فرصة الإيقاع بهم ، والانتقام منهم .

وفي أوائل القرن السّابع للميلاد ، كان يحكم مصر والٍ يوناني الأصل ، اسمه المقوقس ، حنَّا بن قرقت ، وقد كانوا يدعونه بأسماء أخرى ، وكان متشيّعاً لأهلها ومذهبهم وتقاليدهم . وأقام بالإسكندرية شأن الولاة الرومانيين في ذلك العهد ، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية ، ومقرّ الإمارة فيها » . ويقول في المقدمة أيضاً : « ولم يكن للأقباط همٌّ في تلك الأيام إلاّ التخلص من الرومانيين والتحدث بفظائع أعمالهم وظلمهم واستبدادهم ، ولكنّهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم ، خوفاً من سخطهم وزيادة الضغط عليهم»[٣٨].

أقام جورجي زيدان بناء روايته التاريخية على الحقائق التي أوردها في المقدمة ، وفصل بين الجانبين التاريخي والغرامي من حيث استلهام التاريخ ، بيد أنه جمع بينهما في سياق الأحداث التاريخية ، فقد جعل الامبراطور الروماني هرقل يخطب أرمانوسة ابنة المقوقس والي الروم على مصر لابنه قسطنطين لما سمع من صفاتها المادية والمعنوية ولما كانت تتمتع به من أخلاق عالية وأدب رفيع ، وجمال نادر ، ومع أن خبراً كهذا ينبغي أن يلقى موضعاً للراحة والسرور في نفس « أرمانوسة » إلاّ أنها تحزن حزناً شديداً ليس عليه مزيد ، وتضطر إلى أن تكشف دخيلة نفسها لمربيتها « بربارة » وتفصح لها عن حبّها

لأركاديوس ابن القائد الروماني « الأعيرج » الذي يحاول جورجي زيدان أن يظهره بمظهر القويّ المقتدر ، الذي يهابه المقوقس ، حتى أن صورة المقوقس في الرواية تظهر وكأنه تابع للأعيرج يهابه ويخشى بطشه . ومنذ اللحظة الأولى في الرواية نكتشف أن علاقة عدائية تحكم الصلة بين المقوقس والأعيرج وابنه أركاديوس ، وتبدو المفارقة في حبّ يجمع بين اثنين تتّقد العداوة في صدري والديهما ، وتتأزم العلاقة بينهما بتقدم الجيوش الإسلامية نحو مصر ، فالمقوقس على تعاطف مع أقباط مصر ، لا يرضى عن إذلالهم وظلمهم ، بل إنّه أصبح بمثابة واحد منهم ، وهو من أجل ذلك يتعاطف مع الفاتح العربي الذي سيخلّص المصريين من ظلم الرومان ولو كانوا في الحقيقة من بني جنسه . وتبدو هذه الصورة واضحة في الرواية ، بل إن « أرمانوسة » على حبّها لابن القائد الروماني تحمل هذا الشعور ، فهي تحب المصريين وتتألّم لما يلحقهم من بطش وأذى وترويع وحرق لرجال الدين وتهديم للكنائس والصوامع ، وربما كانت مربيتها « بربارة » المصرية القبطية رمزاً لهذا التعاطف ، وهي أيضا تكره قسطنطين ابن الامبراطور وتأمل أن ينقذها الفاتح العربي منه بقتله أو احتلال البلاد أو بأية وسيلة أخرى . وتتحرك الأحداث الغرامية إلى جانب الأحداث التاريخية ، فنقرأ عن رسالة موجهة من قسطنطين إلى المقوقس يأمره فيها بأن يأتي بأرمانوسة إلى « بلبيس » لتحمل إليه في القسطنطينية ، وهنا يبدو المجال مواتياً للمغامرات والصدف والأحداث المشوقة التي تتداخل مع سياق الأحداث التاريخية بشكل عام . فتحمل أرمانوسة إلى بلبيس في حين تصل الأخبار إلى أركاديوس الذي يعلن أنه سيدافع عن حبّه حتى الموت ، ويتعقد الأمر حين يأتي رسول أرمانوسة بشائعة تقول إن قسطنطين قتل في معارك فتوح الشام ، وتبدو الحيل في هذه الرواية في صنيع بطريرك حلب يوقنا الذي مال مع العرب ضد الروم حين رأى كفة العرب راجحة ، ولكنه لم يسلم حقاً ، ولم يوال المسلمين ، وكان يطمع في ضمّ « أرمانوسة » إليه ... فبعث أحد أتباعه ليخبر أرمانوسة أنّ عليها أن تتجهز حتى تحمل إلى « قسطنطين » بأمر منه ، في حين كان في معسكر عمرو بن العاص على حدود مصر الجنوبية ، ويتشاور معه في أمر القتال ويذهب بنفسه إلى حيث « أرمانوسة » ليصحبها ، ولم تجدها توسلاتها نفعاً متعللّة بالمرض ، وأجبرها بالقوة على الرحيل معه ، بيد أن الحيلة تنكشف حين قدم رجال العرب ليحرروا أرمانوسة من حيلته ، وليولي هو بعد ذلك الفرار ، فكان خلاصها على يد عمرو بن العاص ورجاله . إذ أن عمراً غضب غضباً شديداً حين علم حقيقة موقف حليفه البطريرك . ويتحدث جورجي زيدان عن وقائع فتح مصر من العريش إلى الفرما ، إلى بلبيس إلى عين شمس إلى حصن بابليون ثم عن المعارك الأخرى ، حتى حصار الاسكندرية وما جرى فيها من مناوشات وكرّ وفرّ ثم فتح ومصالحة ، ثم غزوها في عهد قسطنطين على يد الخصي الأرمني (منويل) في عهد الخليفة عثمان ، وليصل بين هذه الأحداث وبين « أركاديوس » الذي أسره العرب وكيف استطاع بقوته أن يحطم القيود وأن يعود وتحدث عن حيل أرمانوسة فهي التي كانت تمنعه من مواجهة العرب سواء كان ذلك في الحصن أم في الإسكندرية ، إذ أنه لو كان في أرض المعارك لما فرّ أبداً لما يتمتع به من قوة ومروءة وشهامة وللقي الموت عاجلاً

أو آجلاً ، وأشار جورجي زيدان إلى أن الأعيرج اتهم المقوقس بالخيانة لأنّه كان على علم باتصاله بالعرب وبعمرو بن العاص ، وهو الذي سهل لهم مهمة فتح مصر ، في حين كان المصريّون يساعدونهم في تأمين المواصلات والتموين . وبيّن غضب هرقل على المقوقس الذي عاد بعد موته والياً مرة أخرى . ويتمكن يحيى النحوي الرومي اليعقوبي من الجمع بين المقوقس وأركاديوس بعد أن أعلمه بحال البلاد تحت حكم الرومان ، وأن المقوقس ما فعل إلا الخير ، فهو يريد تأمين البلاد ولم يقبل أن تتحوّل البلاد عن دينها . وهنا يحلّ الوئام وتنتهي هذه الحياة الحافلة بالعقبات والصعاب بزواج الحبيبين أركاديوس وأرمانوسة .

هذه هي أبرز أحداث الرواية التاريخية والغرامية ، ولم نشأ أن نتحدث عن تفصيلات مختلفة تتصل في معظمها بالجانب الغرامي أو الخيالي من الرواية ، وقد أغفلنا بعض الأحداث التاريخية لأنها سترد في محاولة عرضها على كتب التاريخ لتبيّن موقعها من الحقيقة التاريخية .

وقد يبدو لنا أن جورجي زيدان التزم الحقيقة التاريخية في وصف بطش الرومان وظلمهم واضطهاد الأقباط لإصطناعهم المذهب اليعقوبي ، فقد جعل رئيسة الراهبات وهي شخصية خيالية تعبّر عن هذا المعنى من خلال الحقائق التاريخية بقولها : « وما الوسيلة ، وقد أصبح هذا الجند أبغض إلينا من عدوّ يغتالنا ؟ أما كفانا ما يسوموننا من الخسف والجور وإهانة رجالنا ، وقتل بطاركتنا ، حتى جاءوا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحصوناً » . ويلمح على لسانها برغبة الأقباط في أن تدول دولة الرمان : « أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدّير أن يسقط في أيديهم ، ويخرجوا من هذه البلاد على أعقابهم ، فإن أيّة أمة تحكمنا بعدهم أخف وطأة علينا منهم »[٣٩] . ويذكر المؤرخون أن حاجزاً قوياً وقف بين المصريين والروم حال بينهم وبين انصهارهم في كتلة واحدة » . بل كان كثيراً ما يثير بينهم الإحن ، ويبعث الخصومات ، ويؤجّج الرّوح القومية أن تخبو أو تذبل ، وذلك هو العقيدة الدينية » .[٤٠] ولقد كان طغيان الرومان أشدّ عتوّاً في مصر منه في أرجاء الدولة الإمبراطورية كلّها .[٤١] . إذ فرَّ الأساقفة إلى الجبال وساد الرّعب والهلع ، والقتل والتعذيب ، ومطاردة الأقباط والبحث الدؤوب عن أسقفهم المختفي بنيامين .[٤٢]

ويبدو أن جورجي زيدان يخالف المراجع التاريخية في موقف المقوقس من الأقباط ، فجعله يونانياً امتزجت عواطفه بعواطف الشعب المصري ، حتى أصبح يحقد على الرومان ، ويتعاطف مع هموم المصريين ، ويرى رأيهم في المعتقد ، المتمثل في المذهب اليعقوبي ، وقد اختلف الدارسون في تحليل شخصيته فعدّه بعضهم من الطامعين « وهم جماعة ثالثة من الروم تتميز كذلك خلال حركة الفتح بموقف خاص غير موقف المقاومة وغير موقف المسالمة . وتلك هي الجماعة التي خالطها الإيمان بأن الامبراطورية البيزنطية لن تستطيع أن تقف طويلاً أمام هذه الدفقة المتدفقة من الجزيرة العربية .. أو هي على الأقل لن تستطيع أن تُبقي على صلاتها بمصر ، منذ أن استطاع المسلمون أن يقطعوا ما بينها

.وبين مصر حين استولوا على سورية ، ففصلوا رأس الامبراطورية عن أطرافها .. ولذلك لن تستطيع هذه الأطراف على ذلك صبراً ، ولن يستطيع البحر أن يجمع شملها ، فسيجترئ العرب على البحر ، وسيقبلون عليه ، وسيحولون بينه وبين أن يكون طريقاً للامبراطورية ، وسيفصمون كل العرى بين الاسكندرية والقسطنطينية ... وليس في وسع مصر أن تقاوم كذلك ، وليس في وسعها أن تنحاز إلى هذا الدّين الجديد .. فليس هناك إلا أن تداري هذه الجماعة الإسلامية بالجزية ، وأن تدرأ عنها الحرب بالصلح ، فالصلح وحده كفيل أن يحفظ عليها بقاءها وأنفسها وأموالها وذراريها »[٤٣]وقد غالى بعض المؤرخين الغربيين في وصف المقوقس حين حملوه جريرة سوء العلاقات الحاد بين المصريين والرومان . ففي حين جعل جورجي زيدان المقوقس حليفاً للأقباط ، ائتمر معهم على تسليم مصر للمسلمين أو التمهيد لهم بذلك ، تخلّصاً من عسف الرومان ، نجد بتلر يكاد يخلّص هرقل من التبعة ويضعها على عاتق المقوقس ، ويرى أن هرقل قام بمصيبة حين اختار المقوقس (قيرس) ذلك العبقري السيء الذي لم يقتصر عمله على تحطيم آمال الامبراطور في الوحدة الدينية في مصر ، وإنما تعدّى ذلك بأن جعل من نفسه رمزاً للرعب والكراهية تجاه الأقباط مدة عشرة سنين ، بعد سحق عقيدة القبط الدينية بأقصى ما يستطيع من الظلم والاضطهاد ، إذ جعل ولاء القبط للحكم الروماني مستحيلاً . ويقول عنه : إنّه الطاغية الذي سلّم البلاد واستسلم للعدو في اللحظة الحرجة ، لقد كان رجلاً سيء السمعة عرف فيما بعد في تاريخ المصريين بالمقوقس .[٤٤]

وتتفق الروايات العربية والغربية على أن « المقوقس » لم يكن عنيفاً في الرد على العرب ، بل كان يخشاهم ويتودّد إليهم ، غير أن الروايات العربية خاصّة لا تشير إلى مساعدة العرب أو التواطؤ معهم ، بل إنه كان يخشى أن تقع مصر في أيديهم ذات يوم . ولعل جورجي زيدان ، اتساقاً مع بناء روايته الخيالي في اصطناعه حباً بين ابنة المقوقس وأركاديوس ، أراد أن يضمن خاتمة سعيدة تتسّق معها الأحداث التاريخية ، فاختار أن يقف والدها موقفاً موالياً للعرب . ويبدو أن موقف المقوقس كان موقف المدرك لواقعه لا موقف المتعاطف . فقد تمّت المناوشات وكانت الغلبة للمسلمين ، يذكر البلاذري : « أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الرّوم من أراد ، ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر سمّاه ، وأن يفرض على القبط دينارين ، فبلغ ذلك ملك الروم فتسخّطه وبعث الجيوش ، فأغلقوا باب الاسكندرية ، وآذنو عمراً بالحرب فخرج إليه المقوقس ، فقال : أسألك ثلاثاً أن تبذل للروم مثل الذي بذلت لي ، فإنهم قد استغشوني ، وأن لا تنقض القبط ، فإن النقض لم يأت من قبلهم ، وأن متّ فمر بدفني في كنيسة بالإسكندرية ذكرها ، فقال عمرو : هذه أهونهن ... وكتب عمرو بفتح الاسكندرية إلى عمر » أما بعد فإن الله فتح علينا الاسكندرية عنوة قسراً بغير عهد ولا عقد ، وهي كلّها صلح في قول يزيد بن أبي حبيب[٤٥] ويبدو أن جورجي زيدان استوحى موقفه من الروايات التي تشير إلى موقف الملاينة كما نجد في رواية ابن عبد الحكم عمّا تمّ بشأن الصلح على غير إرادة قومه ، وعلى رفض من هرقل فيما بعد ، إذ يقول ابن عبد الحكم إنّ المقوقس قال لقومه :

« أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ، ولئن لم تجيبوهم إليها طائعين لتجيبنّهم إلى ما هو أعظم منها كارهين فقالوا وأيّ خصلة نجيب إليها ؟ قال إذن أخبركم : أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقوموا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ، ولا بدّ من الثالثة ، قالوا فنكون لهم عبيداً أبداً ؟ قال نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، وتكونوا عبيداً تباعون وتمزّقون في البلاد مستعبدين أنتم وذراريكم »(٤٦) .

وتشير المصادر التاريخية إلى أنّه لم يسلم إذ إنّ الرسول عليه السلام كتب إليه « يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم »(٤٧) وقد ذكر ابن خلدون ما أورده جورجي زيدان من أن « عمرو بن العاص » أعطى عهداً للمصريين .(٤٨)

وركّز جورجي زيدان على بيان ظلم الرومان واضطهادهم بينما تبين حسن معاملة العرب لشعوب البلدان المفتوحة ، ممّا جعلهم يتألفون قلوبهم ، ويحصلون على مساعدتهم بل على حبّهم أحياناً .(٤٩)

ولقد أورد الدكتور شكري فيصل روايات عن المؤرخين المسلمين تشير إلى معاونة القبط للفاتح العربي إذ يقول : « يسوق ابن عبد الحكم في كتابه طائفة من الروايات عن مساعدة القبط في مراحل مختلفة من مراحل الفتح وعن طرق مختلفة من طرق الرواة : فهو يتحدث عن هذه المساعدة في الفرما : « فيقال إنّ القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا » وهو يتحدث عنها بعد حصار بابليون : « وصارت لهم القبط أعواناً » ثم هو يتحدث عنها حين خرج عمرو يضرب في ريف مصر ، ويتجه إلى الاسكندرية « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطريق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت القبط لهم أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم » وهو يتحدث عنها أخيراً في حصار الاسكندرية بعد الكريون : « فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة »(٥٠) .

ويبدو أن جورجي زيدان وقف طويلاً عند هذه الروايات التي ذكرها ابن الحكم ورأى فيها مجالاً لحركته الروائية ، وقد ربط بين موقف المصريين وما حدث في بلاد الشام ، إذ يقول على لسان إحدى شخصيات الرواية : « وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثاً أن العرب بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم ، وأباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم أحد في ذلك ، أليسوا إذن خيراً من الرّومان « ويسوق أيضاً طائفة من المعلومات التاريخية حول عسف الرومان »(٥١) ولعلّ فيما أورده زيدان إشارة إلى كتاب عمر بالأمان إلى أهالي القدس وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، إنهم آمنون على دمائهم وأولادهم ونسائهم ، وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم »(٥٢) .

وقد حاول زيدان أن يلتزم وقائع التاريخ في تسلسل مراحل الفتح ، وحاول أن يربط بين هذه

الوقائع والجانب الخيالي من الرواية فنراه يبدأ بمقدمة تاريخية ثم يتحدث عن « أرمانوسة بنت المقوقس » و « أركاديوس » و « المسيحيون ومظالم الرومان » و « الاحتفال بضحية النيل »[٥٣] و « أرمانوسة في بلبيس » و « يوقنا وأرمانوسة » و « أركاديوس يبحث عن أرمانوسة » و « لقاء الحبيبين » ، ويعقد بعض العنوانات التاريخية من مثل « عمرو بن العاص » و « فتح الحصن » و « عقد الصلح » و « فسطاط عمرو » و « فتح الاسكندرية » . ولقد أورد الواقدي روايات تاريخية حول أرمانوسة بنت المقوقس وموقف يوقنا منها إذ أنه دبر حيلة لحملها من منزلها في بلبيس زاعماً أنه سيحملها إلى زوجها قسطنطين (فلسطين) في القسطنطينية بناء على أوامره ويورد بعض الأخبار عن مصيره مطابقاً لما جاء في الرواية التاريخية غير أن يشكك في إسلام يوقنا بطريرك حلب السابق وأخلاقه ، ويصوره شريراً منافقاً لا تنطبق صورته بأي مقياس على صورته عند الواقدي فهو عنده مسلم عميق الإيمان جاهد مخلصاً دفاعاً عن عقيدته ، ولم يدبر هذه الحيلة لمطمع مادي أو لنزوة رخيصة . وتصور الرواية التاريخية إطلاق سراح أرمانوسة إكراماً لوالدها .[٥٤]

وقد مزج زيدان بين الجانبين الغرامي (الخيالي) والتاريخي في هذه العنوانات ، وحاول أن يحوّر ما وسعته الحيلة على ألاّ يجور كثيراً على الحقيقة التاريخية ، فأثبت مثلاً كتاب المقوقس إلى عمرو بن العاص ،[٥٥] ويبدو أن مضمونه موضوع ، كما أنه نسب رسالة الرسول عليه السلام التي أرسلها إلى هرقل إلى المقوقس مع أن الرسول عليه السلام بعث برسالة معروفة إلى المقوقس بيد أن تسلسل كما أشرنا بالفتوحات على نحو يطابق ما روته كتب التاريخ من الفرما وبلبيس وعين شمس وحصن بابليون فالتوجه إلى الاسكندرية مع اختلافات يسيرة .

وضمّن روايته معلومات تاريخية متناثرة منها ما يتّصل بالتاريخ عامة ومنها ما يتصل بفتح العرب لمصر خاصة . فأورد مثلاً معلومات كثيرة عن عادات المصريين وصناعاتهم ودياناتهم وآثارهم ، من مثل غزو الفرس لمصر ومحاربة هرقل لهم ،[٥٦] وعبادة الصنّم سرابيس ،[٥٧] والحديث عن الطبيعة الواحدة والطبيعتين ،[٥٨] ومناطحة الثيران في مصر ،[٥٩] وطريقة كل من العرب والمصريين في الكتابة ، ومواد الكتابة ،[٦٠] وقصة جامع عمرو والفسطاط ،[٦١] إلى غير ذلك من المعلومات التاريخية المتناثرة .

وأما فيما يتصل بالشخصيات العربية في أحداث فتح مصر ، فقد تحدث عن عمرو بن العاص وذكر قصة إسلامه ، وهي كما رواها جورجي زيدان تكاد تحتفظ بصورتها الحرفية عند مقابلتها بما روى في كتب السيرة النبوية والتاريخ .[٦٢] وكذلك ما ورد من حديث عمرو بن العاص في الرواية حول صفات الرسول عليه السلام .[٦٣] ومن مثل حديثه عن عرفجة بن مازن وقصته مع عمر بن الخطاب حول زهد الرسول ونعيم كسرى وقيصر .[٦٤] وقد أوردت بعض الكتب التاريخية ما ذكره زيدان عن قصة سفر عمرو بن العاص مع شمّاس من الاسكندرية أنقذ عمرو حياته في القدس قبل الإسلام ،[٦٥] ووردت كذلك قصة بنيامين الأسقف ، واختفائه تلبية لحلم دعاه إلى الاختفاء .[٦٦]

كما ذكرت كتب التاريخ نبذة عن حياة ليحيى النحوي الروماني اليعقوبي المذهب الذي اضطهد لعقيدته[٦٧] وقد ضمت الرواية أحاديث وأقوالاً عن صلات القربى والأقباط ، وعن جرأة عبادة بن الصامت والزبير ابن العوّام ، وأشار زيدان إلى غزو منويل الأرمني « الخصيّ » للاسكندرية في عهد عثمان ابن عفان وما عاثه من تخريب وتدمير ، وإعادة عمرو بن العاص بعد أن ولّي عليها عبد الله ابن أبي السرح. ومهما يكن فإن جورجي زيدان أراد أن يقدّم المادة التاريخية حسب ورودها في المراجع التاريخية مع إتاحة الفرصة لترجيح ما يرى ترجيحه ، وللتعاطف مع ما يمكن أن يراه موافقاً لعواطفه ، ثم التوفيق بين الحقيقة التاريخية والحكاية الخيالية . ولعلّ أهم ثغرة عملت على توسيع الشقة بين الحقيقة والخيال هي إقحام قصة « المقوقس » وبيان خطته في تسليم مصر للعرب منذ اللحظة الأولى .

فتح العرب لبيت المقدس لفرح أنطون

يقدم المؤلف لروايته بتعريف موجز يقول فيه :

« وهي رواية تاريخية فلسفية اجتماعية جيدة تتضمن زحف العرب إلى بلاد الشام حين ظهور الإسلام ، وحصارهم مدينة القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينية الكبرى للمسيحيين يومئذ ، وسفر الخليفة عمر بن الخطاب من بلاد العرب إليها لفتحها بطلب البطريك صفرونيوس . إقامة المسجد الأقصى فيها على أنقاض هيكل سليمان القديم هيكل الإسرائيليين ، ويتخلل ذلك كلام عن أحوال اليهود والمسلمين والمسيحيين يومئذ ، والأفكار الدينية والسياسية التي كانت تختلج في نفوسهم ، والأسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي أضعفت سلطة الرّوم في بيزنطة (القسطنطينية) فكانت سبباً في سقوطهم وزوال ملكهم وقيام الأمم التي تليهم » .

بنت هذه الرواية حبكتها على قصة غرامية بطلاها « إيليا » الفتى النّاصري الذي يقيم في إيلياء ، و « أستير » ، اليهودية التي كانت بصحبة والدها في بيت لحم عشية أعياد الميلاد ، وتبدأ أحداث الرواية حين ذاع في الناس أن ثمّة يهوداً في المدينة المقدسة ، فيما حاول « إيليا » أن يشكك في صحة هذه الإشاعة ، فكاد الرّعاع أن يقتلوه لولا أن أنقذه « أرميا » من بين أيديهم . كانت أستير وأبوها يتهامسان وقد ظهرت عليهما أمارات الخوف والفزع فيما كانت الدّهماء تقترب منهما ، ممّا سهّل الشكّ فيهما فاقتيادهما وموكب البطريرك يشقّ شوارع المدينة .

ويجدّ « إيليا » في تخليص « أستير » ووالدها من قبضة الرّعاع فيحدّث البطريرك في شأنهما ، وفيما يحاول جهده أن تنكر « أستير » أنها يهودية ، تصرّ على أنها ليست « مسيحية » ، فلا يجد أمامه إلا الزعم بأنها « وثنية » ، أما والدها فيتخلص من المأزق المرعب بالاعتراف بأنه نصراني فيطلق سراحه . وترسل « أستير » إلى الدّير لتتخلص من وثنيتها وتعمّد إنفاذاً لرغبة الدّهماء ، فيما

ينمو اهتمام « إيليا » بها إلى حبّ جارف ، إذ إنه كان رأى فتاة تشبهها قبل عشر سنوات وقع في حبها عند أوّل نظرة ثم ضاعت في الزحام .

يكيد لإيليا حتى يخلو له المجال . إذ إنه بعد أن سهّل « إيليا » لأستير سبيل الفرار من الدّير في ليلة ماطرة ، وآواها في مزرعة الشيخ سليمان ، فرّت أستير برفقة « آرميا » من المزرعة حين أدركت صعوبة الطريق الذي تسلكه وحبيبها « إيليا » . بيد أن إيليا وأستير يقعان ـ أثناء فرارهما ـ أسيرين في أيدي العرب المحاصرين لبيت المقدس ممّا يمهّد الطريق إلى أن يتنافس على أستير عدد من أبطال المحاربين ، وفيما كان إيليا يجدّ في البحث عن « أستير » يقع أسيراً في أيدي العرب فيحتجز في خيمة عمرو بن معد يكرب ، فيعلم « يوسف » والد أستير بأسره فيحزم أمره على إسداء خدمة لإيليا شكراً على صنيعه واعترافاً بالجميل فيفاتح أبا عبيدة في أمره فيأمر بإطلاق سراحه . إلا أن « إيليا » يعرف ، مصادفة ، أن « يوسف » والد « أستير » عين للعرب ، حين ذكر لأبي عبيدة أمر « الرقّ » ففهم أن ثمة مهمة شائنة يقوم بها يوسف ضد مواطني إيليا وضد الرّومان ، فيعزف عن حبّ « أستير » حميّة ووطنية وفي القلب جراح . وتتّجه الأحداث بعد هذا نحو حلول مثاليّة غير واقعية ، حين يتخذ « إيليا » موقفاً بالغ الشدة بصورة مفاجئة وغير مسوّغة ، بعد أن اتخذ موقفاً يخالف تقاليد قومه ومعتقدهم ، فيعرض عنها إعراضاً لا أثر فيه لتردّد أو معاودة ، فتمرض « أستير » بعد أن خرجت ووالدها من معسكر العرب لهذا الإعراض ، فيشكو والدها ما حلّ بابنته إلى البطريرك الذي ينجح في لقاء « إيليا » بـ « أستير » بعد فوات الأوان ، إذ يستفحل المرض ، لتموت أستير ميتة رومانسية . مما يمهد لأحداث أخرى يموت خلالها إيليا . ويبدو أن المؤلف قد توسّل بالموت ليضفي جواً من الفجائع على جوّ الرواية ، فيموت الشيخ سليمان مثلما مات من قبله الرجل الصالح الراهب « ميخائيل » الذي قضى حياته في خدمة الناس وتلقّى من أجلهم ظلم الهيئة الاكليريكية إهاناتها ومؤامراتها إذ كان يخدم فقراء الناس ويشهّر بالأغنياء مما أدّى إلى الإيقاع به وطرده ، ثم التشهير به وتلويث سمعته فزعموا أنه يثري من وراء ما يجمع من أموال الأغنياء ، فصدّق الناس ما قيل ، فتحاشاه من كان يخدمهم . وهو الذي قصّ فيما بعد على عمر ابن الخطاب قصة بيزنطة والرّوم من منظور تاريخي حضاري ، وجعله المؤلف مثار إعجاب الخليفة .

ونترافق مع هذه الأحداث العاطفية ـ على نحو ما نرى ـ الأحداث التاريخية الاجتماعية التي هدف الكاتب منها إلى تقديم الفوائد المترتبة عليها ، ففي روايته لقصة الراهب القدّيس « ميخائيل » صورة لفساد الهيئة الاكليريكية ممثلة بزعمائها الذين ضاقوا بكلّ فكر يقود إلى عمل منتج ، وأبدوا تعضباً ذميماً ، فيما جرت الأحداث لتصوّر فساد الحاكم وكراهية البطريرك وأهل القدس للحكم الروماني وللأمبراطور « هرقل » خاصة .

وتشير القصة الاجتماعية التي جرت في سياق الأحداث التاريخية إلى بعض الوقائع التاريخية من

مثل حصار العرب لبيت المقدس وتمركزهم خلف أسوارها ، وطلب البطريرك « صفرونيوس » من العرب أن يحضر الخليفة عمر بن الخطاب نفسه لإجراء عهد التسليم بناءً على نصيحة عمرو بن معد يكرب إلى « إيليا » كما تزعم الرواية .

وتتحدث عن السرّ التاريخي الذي أسلفنا الإشارة إليه وهو « الرقّ السرّي » فكان بمثابة حبكة فصمت العلاقة بين إيليا وأستير .

وتوحي قصة « الرقّ السرّي » بوجود علاقة تواطؤ بين البطريرك والمسلمين في مواجهة الامبراطور الروماني هرقل . وجعلت الرواية « إيليا » يرافق عمر بن الخطاب في زيارته للأماكن المقدّسة في « بيت المقدس » و « بيت لحم » . ووصف المؤلف حصار العرب لبيت المقدس وطول أمده ، مثلما فصّل في وصف بطولة المدافعين وقوة شكيمتهم ، وفي عناد المحاصرين وإصرارهم على دخول بيت المقدس ، وصوّر تشوّقهم لرؤيتها .

ويتّضح من سياق الأحداث ومن الفكرة الأساسية في الرواية أنّها تقوم على المغامرة والمخاطرة وافتعال الحبكة وبروز الفكرة بصورة تكاد تحجب العفويّة القصصية والمتعة الفنية . مع أن ثمة مواطن تستخدم أسلوباً يقرن الفكرة بالعاطفة فيرقّ ويسمح في بعض الفصول حين يخاطب المدينة المقدسة ، مثلاً ، من خلال ما اصطلح عليها من حوادث وما فجعها من نائبات .

وإذا اهتمّ فرح أنطون بتوضيح العناصر التاريخية في الرواية بصورة مباشرة فإنه ترك بعض الأحداث الروائية التي جاءت في السياق التاريخي لتوحي بتاريخيّتها ممّا سنتطرق إليه حين نعرض الحدث التاريخي على المصادر التاريخية .

ولعل من أبرز الأحداث التاريخية التي أشارت إليها الرواية في فتح بيت المقدس هو موقف البطريرك من الحاكم الروماني من ناحية ومن الفاتح المسلم من ناحية أخرى . فالرواية تصوّر كراهية البطريرك للحكم الرّوماني الذي يعدّ دخيلاً ، ولا يرحّب بالفاتحين المسلمين ، فيتجهّم حين يقرأ نبأ الحصار . فعلى الرغم من أن المؤلف ينصف العرب حين يوازن بينهم وبين الرّومان فإنه يعدّ هذا الفتح حلقة في سلسلة التنافس على السلطة كما نرى فيما يأتي : « إن رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون . زحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها . فأوسعوا وأوسعوا المكان في الأرض لأمة عظيمة ومدنيّة جديدة ، إن الدنيا كلها تتمخّض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . إن أبناء إسماعيل الأقوياء خرجوا من قفارهم الجدباء لملاقاة أبناء إسحاق الظرفاء . ولكن يا للأخوة يا لحرمة النّسب ، إن ملاقاتهم كانت للإقتتال على سلطنة الأرض ، كأن هذه الدنيا الواسعة تضيق عن أخوين كريمين . فسدّوا آذانكم يا أيها البشر فإن أرضكم ستصير ميداناً واسعاً للحروب والمجازر المختلفة (الرواية ص ١٥٥) .

ونلاحظ أنه كان يشير إلى تواريخ بعض الأحداث في الحواشي من مثل انكسار قيودوروس أمام المسلمين في أجنادين سنة ٦٣٤ للميلاد (ص ١٥٨) ، ودخول الفرس بيت المقدس وأخذ الصليب

من الجلجلة سنة ٦١٤ للميلاد (ص ١٥٩) . وكان يتوخى أن يثبت أصل المتن حرفياً عند نقل بعض المعلومات التاريخية التي يوردها في متن الرواية . فيورد مثلاً : « وقف (أي هرقل) على نشز في حدود سوريا مودّعاً وقال : السلام عليك يا سوريا لا اجتماع بعده »

إذ يقول في الهامش : « رواه ابن الأثير وأثبته درابيرون . وهذه عبارة ابن الأثير بالحرف (السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك روميّ إلاّ خائفاً حتى يولد الولد المشئوم) (ص ١٥٩) .

وقد جاء عن ابن الأثير قوله : « وسار هرقل فنزل بشمشاط ثم أدرب منها نحو القسطنطينية فلما أراد المسير منها علا على نشز ثم التفت إلى الشام فقال : السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك روميّ أبداً إلاّ خائفاً حتى يولد المشئوم ويا ليته لا يولد فما أحلى فعله وأمرّ فتنته على الروم »[٦٨] وفي حديثه عن أرزة في جبل الزيتون يورد تفسيراً في الهامش قائلاً : « كان على جبل الزيتون في زمن مملكة إسرائيل أرزة وقد حفظ الإسرائيليون تذكارها بعد تشتتهم » (١٧٤) .

وظل هذا دأبه في توثيق الأخبار التي يرويها بالروايات التاريخية في الأغلب الأعم من مثل حديثه عن مخالفة المصريين لمذهب الإمبراطورية ، فأشار إلى أن الأقباط يئنّون مثل أبناء بيت المقدس تحت نير الرومان فيقول : « وقد اغتنموا فرصة القول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة للانفصال عن الكرسي السكندري والقسطنطيني * والمقوقس كبيرهم وواليهم يجامل العرب نكاية بالإمبراطورية * ثم يورد في الهامش « لما كاتب صاحب الشريعة الإسلامية قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس والحرث بن أبي شمّر الغسّاني يدعوهم إلى الإسلام أجابه المقوقس صاحب مصر جواباً لطيفاً وأهدى إليه أربع جوار منهنّ مارية التي ولدت للنبيّ ولداً سماه إبراهيم » « ابن الأثير » (الرواية ص ١٧٦) وتكاد الرواية تكون حرفية عند ابن الأثير الذي يقول « فأما المقوقس فإنّه قبل كتاب النبي ﷺ وأهدى إليه أربع جوار منهنّ مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ »[٦٩] .

وأشار إلى معاونة العرب المتنصّرة من غسّان للرّوم على المسلمين والفرس في حروبهم معهم (الرواية ص ١٨٠) ، وأورد خبر ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول عليه السلام وتسيير جيش أسامة ، ويروى فيه أن العرب لما رأت مسير الجيش للشّام هابوا الخلافة وقالوا « لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هذا الجيش . فكفّوا عن كثير ممّا كانوا يريدون أن يفعلوه » (ص ١٨٠) وقد ورد هذا النص حرفياً عند ابن الأثير[٧٠] الذي أشار إليه في الهامش .

وثمة مرويّات عن جيش المسلمين المتجه لقتال الفرس في العراق ، والروم في الشام وعن قيادة خالد بن الوليد وفتوحاته في العراق والشام ثم عزله واستخلاف أبي عبيدة (الرواية ص ١٨١) . فقد ترك المؤلف أحد متنصرة الغسانيين يحدّث البطريرك صفرونيوس عن فتوح بلاد الشّام في سياقها

الزمني . فحاول في الهامش أن يوضّح موقفه من الروايات التاريخية ، ومن المصادر التي ينقل عنها فهو يقول في هذا الصدد على لسان الرسول الغسّاني :

« بعد أن فتح أبو عبيدة دمشق ، وأقام فيها شهراً يتمتع فيها مع جنده بمظاهرها الجميلة ويستريح بعد عناء القتال جمع إليه أمراء المسلمين وقال لهم : « أشيروا عليّ بما أصنع وأين أتوجّه » فاتّفق رأي المسلمين إمّا إلى قيسارية (قيصرية) وإما إلى بيت المقدس . فقال معاذ بن جبل « اكتب إلى أمير المؤمنين فحيث أمرك فسر واستعن بالله فقال : « أصبت الرأي يا معاذ » إلى آخر الرواية (الرواية ص ١٨١) فيشير إلى اتفاق المسلمين بالتوجه إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس مرجحاً في الهامش إحدى الروايات : « لعلّ الأصح إما حمص وحماة وأنطاكية وإما فلسطين وبيت المقدس ، لأن قيسارية تابعة لفلسطين » . ويشير أيضاً إلى رأيه في المصدر نفسه فيقول : « نعتمد هنا على الواقدي في ما كتبه عن فتح بيت المقدس وإن كان تاريخه يكاد يكون في أكثر أقسامه قصّة عنترية . والتناقض في الروايات والتفاصيل ظاهر بينه وبين باقي المؤرخين وفيما بين هؤلاء أيضاً . وإنما فضلناه عليهم لأنه أكثر تفصيلاً . والعبارات الموضوعية في هذا الفصل بين قوسين أو ضمتين دون ذكر مصدرها هي له » .

وحين يذكر خبر أمر الخليفة أبا عبيدة أن يسير من الجابية إلى بيت المقدس وأن أبا عبيدة عقد ليزيد بن أبي سفيان وأمره أن يزحف إلى بيت المقدس وفلسطين يعلق في الهامش : « حذفنا هنا اسم خالد بن الوليد لأن الواقدي وغيره يقولون إنه بقي مع أبي عبيدة ولم يرحل في مقدّمة الجيش » . (الرواية ص ١٨٢) بل كان يشير في بعض الروايات إلى إسنادها على نحو ما ذكر عن حقيقة المدافعين عن بيت المقدس ومعنوياتهم إذ جاء في الرواية « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدّة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم إلاّ وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس ، فلا يكلّمنا منهم أحد ، ولا ينطقون غير أنّ حارسهم شديد وعدّتهم كاملة » (الرواية ص ١٨٣) إذ جاء في هامش الرواية « رواه الواقدي عن المسيّب بن نجيّة الفزاري » .

وكان فرح أنطون حين يشير إلى رواية تاريخية دون إرشاد إلى صحتها يعمد إلى شرحها في الهامش من مثل نقله على لسان البطريرك صفر ونيوس قوله : « إن العرب ليسوا كالفرس بل هم يعبدون الله مثلنا ، ولذلك يحترمون المنقطعين إليه تعالى ، فلا تخافوا منهم على الدّير » فأحال إلى وصية أبي بكر لجيش أسامة بن زيد في الكامل لابن الأثير ، فنقل النص (الرواية ص ١٨٣) نقلاً حرفياً عن ابن الأثير .[٧١]

ونقل المؤلف المعلومات التاريخية حول حصار بيت المقدس والمفاوضات المبدئية عن الواقدي موضحاً ذلك في الهامش : « كل ما وضع في هذا الفصل بين قوسين وراءها نجمة * فهو نصّ حرفي للواقدي . غير أنّه كان ينقل معلومات روتها كتب الأدب والتاريخ على ألسنة شخصيات لم تروها ، حين نسب وصف الصخرة المشرفة إلى خولة بنت الأزور (ص ٢٤٤) في حين استقى المادة من

« العقد الفريد » .[٧٢] وقام بنقده على عادته في نقد المصادر ، إذ يقول « وغنيّ عن البيان أنّ هذه الأقوال من آراء العوام وإن وردت في العقد » (الرواية ص ٢٤٤) وما يفتأ يذكر الروايات بإسنادها فيقف عندها مستغرباً من مثل إشارته إلى قراءة يزيد بن أبي سفيان الآية الكريمة ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا ﴾ إذ يقول معلّقاً : « ومن غرائب الاتفاق أن باقي أمراء الجند قرأوا في جندهم هذه الآية أيضاً فكأنهم كانوا على ميعاد واحد » (الرواية ص ٢٤٥) ونجده يحرص على نقد الروايات من مثل استبعاده لما يروى عن توهم مقدم عمر بن الخطاب وأثره في كل من المحاصرين والمسلمين إذ يقول المؤلف : « الرواية التي رواها الواقدي هنا مخالفة للعقل بعيدة التصديق ، ولذلك لم نعبأ بها ، وأوّلناها هنا هذا التأويل » (ص ٢٤٦) ويشير إلى التصحيف في الروايات على نحو ما نجد في حديثه عن كنيسة القيامة إذ يقول : « في تاريخ الواقدي تارة الغمامة ، وطوراً القمامة ، وآونة الفخامة ، وهو خطأ في النسخ ظاهر ... » (ص ٢٤٥).

وظلّ المؤلف ينبّه ـ بين الحين والآخر ـ على قيمة النصّ التاريخية من مثل إيراده لصورة تعفّف المسلمين حين دخلوا بين المقدس فلم يمدّ أحدهم يداً إلى متاع ، وذكر تعليق البطريرك « لا يقوى أحد على هؤلاء ماداموا على ما هم عليه من التزام الحق » (ص ٢٧٣) وجاء في الهامش : « معنى هذه العبارة منسوب في الواقدي لأبي الجعيد ، وهنا نعيد للمرة الثالثة قولنا « إنّ الذي لا يوضع عليه النجمة فليس من التاريخ في شيء إلا إذا نبهنا إليه » .

وإذا كان المؤلف قد صرح بأنه يلتزم أحداث التاريخ ويوثّق معلوماتٍ ، فإنه كان يتصرّف في نقل بعض هذه المعلومات على نحو ما نرى في الخبر الذي نقله عن الواقدي[٧٣] حول قرار فتح القدس فأورد بنيته الأساسية وحوّر في أجزاء أخرى مثل حوار عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفّان (الرواية ص ١٨١ – ١٨٢) وجعل المؤلف بعض الشخصيات التاريخية تقوم بأدوار روائية من مثل حديثه عن غرام عمرو بن معد يكرب الزبيدي بأستير ، مع أنّ عمراً اشترك في فتوح الشام وحصار بيت المقدس إذ يقول المؤلف في هذا الخبر : « وفي الحقيقة أنّها كانت خيمة الفارس المغوار المشهور عمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي ترك بوادي اليمن وجاء في رجاله لنصرة جند الشّام مع مالك بن الأشتر النخعي في أواخر خلافة أبي بكر » (الرواية ص ٢٤٩) وقد أورد في الهامش خبر رسالة أبي بكر إلى خالد التي يعلمه بإرسال المدد وفيهم أبطال اليمن وأبطال مكة » .[٧٤]

ومن مثله جعله خولة بنت الأزور تتحدّث عن الصخرة المشرفة مع أنّها لم تفعل . وهو قد استقى حديثها المزعوم من « العقد الفريد » حيث ورد هذا الحديث ، غير أن ابن عبد ربه لا يذكر صاحبه .

وكان المؤلف يتصرّف في الروايات التاريخية ويحاول أن يوازن بينها عند الاختلاف فحذف رواية الواقدي التي تقول إن أبا عبيدة عند الإعداد لفتح بيت المقدس سيّر خالداً على رأس الجند « فعندها

دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من خيل الزّحف وسرّحه إلى بيت المقدس » .[٧٥]

فأشار فرح أنطون إلى هذه الرواية بقوله : « حذفنا هنا اسم خالد بن الوليد لأنّ الواقدي وغيره يقولون إنه بقي مع أبي عبيدة ولم يرحل في مقدمة الجيش » (الرواية ص ١٨٢) .

وكان يختار ما يرى أنه يخدم غرضه فيجتزئ منه ما يشاء من مثل حديثه عن قوّة حامية بيت المقدس وتميّزها عن غيرها من الحاميات فنقل جزءاً منها بتصرّف عن الواقدي : « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدّة من بيت المقدس وما نزلنا بقوم إلا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس فلا يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون ، غير أن حارسهم شديد وعدّتهم كاملة » (الرواية ص ١٨٣) فحذف معظم الخبر وسقط مما اجتزأه بعد « إلا أهل بيت المقدس » « نزلنا بإزائهم ثلاثة أيام » .[٧٦]

أما ما جاء في الرواية عن دور « يوسف » والد « أستير » في فتح القدس فلم يرد في كتب التاريخ ، ولعلّ فرح أنطون أفاد من رواية للبلاذري عن فتح قيسارية في اصطناع هذه الرواية وتوظيفها في الحبكة الروائية إذ يقول البلاذري « وكان سبب فتحها أن يهودياً يقال له يوسف أتى المسلمين ليلاً فدلّهم على طريق في سرداب فيه الماء إلى حقو الرّجل مقابل أن أمّنوه وأهله ، وأنفذ معاوية ذلك ، ودخلها المسلمون في الليل وكبّروا فيها ، فأراد الرّوم أن يهربوا من السرداب ، فوجدوا المسلمين عليه ، وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية ومن معه ، وكان بها خلق من العرب ، ... ، ويروي البلاذري أن بعض اليهود كانوا عيوناً للمسلمين إذ أنّ « أبا عبيدة بن الجراح صالح السّامرة بالأردن وفلسطين ، وكانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين ، على جزية رؤوسهم ، وأطعمهم أرضهم » .[٧٧]

ويرى فرح أنطون أنه أدعى إلى الإنصاف والموضوعية أن يستقي مادته التاريخية حول الروم وأمثالهم من المصادر التي كتبها هؤلاء لأن كل قوم أدرى بتاريخهم ، مع أنّ هذه المقولة لا تصحّ دائماً . فقد استقى « الفصل الثاني والعشرين » وهو « حديث سياسي للشيخ سليمان » من تاريخ بيزنطة إذ أورد في الهامش : « كل ما يرد في هذا الفصل على لسان الشيخ ملخّص من تاريخ بيزنطة وإن لم يوضع عنده نجمة » . (الرواية ص ٢٧٧) وينقل في موضع آخر عن كتاب « أسباب عظمة الرومان وأسباب سقوطهم ، (الرواية ص ٢٨٢) ويشير إلى مصدر مونتسيكيو أحياناً من مثل قوله » وقد نقل عن بروكوب المؤرخ اليوناني (ص ٢٨٢) .

وكان يشير إلى الترجمة الحرفية عن مونتسيكيو في الهامش (الرواية/٢٨٥) وكان يتدخل في الهامش ليعلق على ما ينقله حرفياً عن مونتسيكيو فيفسره تفسيراً مختلفاً . (الرواية/٢٨٦) وعلى هذا النحو حاول فرح أنطون أن يلتزم الروايات التاريخية التي أسعفته بها المصادر ، بيد أنه كان حريصاً على الطابع الروائي ، فاهتمامه بفتوح الشام للواقدي تجاوز المادة التاريخية التي أسعفته في صياغة روايته

إلى طبيعة المادة التاريخية التي يغلب عليها طابع القصّة والمغامرة والخيال أحياناً . ولعلّه أشار إلى ذلك بطريقة غير مباشرة (الرواية ٢٤٦ ، ٢٧٢) .

معروف الأرناؤوط ورواياته : سيد قريش ، عمر بن الخطاب ، فاطمة البتول

حين نحاول أن نتأمل هذه الروايات فإننا لا نقع على أحداث تاريخية مباشرة تتصل بهذه الشخصيات اتصالاً مباشراً ، فالأحداث الاجتماعية العاطفية التي تنفلت من قيود التاريخ هي التي تغلب على شخصيات الرواية ، مع أن احتفاله بالتاريخ كان كبيراً ، وكانت حماسته لأحداثه بالغة . فقد أدت حماسته للمادة التاريخية التي يعالجها في رواياته إلى خلق شخصيات لا صلة لها بالحقيقة التاريخية أو إلى التصرّف في ممارسات الشخصيات الكبيرة ، مثلما نجد في شخصية ليلى الساحرة عمة امرئ القيس بن حجر التي تعدّ الشخصية الأولى في الرواية ، وفي شخصيتي ابنتي امرئ القيس « مارية » و « هند » ، وأمام الحقائق التاريخية المستمدة من كتب التاريخ والأدب والسير وغيرها ، لم يستطع الأرناؤوط أن يغيّر في هذه الحقائق تغييراً جوهرياً ، بل حاول ما استطاع أن يوثق معلوماته بالمصادر المختلفة كما أشرنا . ولمّا كانت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام هي الشخصية الرئيسة في الرواية فإنه لا يمكن الأرناؤوط أن يبدل في مواقفها أو أحداث حياتها ، ولهذا لم يجد في الشخصية الرئيسية « عنوان الرواية » مجالاً لحرية الحركة ، أو التصرّف الواسع ، فحاول أن يأتي بشخصية بديلة تتيح له مثل هذه الحرية ، وهي شخصية « ليلى » الكندية لتقوم بالعنصر الروائي ، فينطلق بخياله دون قيود ، ينتقل في الزمان والمكان دون أن يجد أيّ حرج . فشخصيّات ليلى ومارية وهند وعمرو بن حنظلة من صنع الخيال . وإن كان خلقه لشخصيّة « ليلى » بصورة خاصة متعمّداً ، فقد حاول أن يحقق في هذه الشخصية صلة مأساوية دامية مع القوتين الكبيرتين في ذلك الحين ، وهما دولتا الفرس والروم . وتتمثل تلك الصلة فيما يرويه التاريخ من نزاع بين امرئ القيس والنعمان ابن المنذر حول الدّروع ، وفيما يرويه التاريخ أيضاً عن موت امرئ القيس مسموماً في رحلته إلى بيزنطة . وهذا ما يرمز إلى حقيقة القوتين اللتين تتمثلان في صنيعة الفرس : الملك اللخمي ، وفي زوجة القيصر « ثيودورا » . لقد اغتنم الأرناؤوط مأساة « امرئ القيس » ليختلق شخصية « ليلى » الحرة ، لتتحدث كما تشاء ، ولتتحرك كما تشاء ، ولتنتهي إلى النهاية التي يريدها المؤلف نفسه . وكانت الصلة المأساوية نفسها بين الشاعر والقوتين الكبيرتين هي التي حدّدت موقف « سيد قريش » من هاتين القوتين ، فقد أتى ، والعرب شتى ، رمزاً للوحدة المنشودة . فالتقى بذلك الخطان : خط الشخصية التاريخية المتمثلة في « سيد قريش » وخط الشخصية المختلقة المتمثلة في شخصية « ليلى » الساحرة ، التي كانت بدورها وليدة شخصية تاريخية هي شخصية امرئ القيس .

وقد التزم الأرناؤوط في حديثه عن « سيد قريش » بالحقيقة التاريخية كما ترويها كتب السّيرة

النبوية غير أن معظمها قبل بعثة الرسول ﷺ وتبدو هذه المعلومات مفروضة على الحدث الروائي لإفادة القارئ بمزيد من المعلومات من مثل الحديث عن الفرس وذي قار والشاعر الأعشى وهانئ ابن مسعود وحنظلة ابن ثعلبة ، ونقرأ فيضاً من القصص الجانبية عن المسلمين والكفار ، ويحدثنا أحاديث شتى تقترب من المقالة والبحث التاريخي ، غير أنه ترك لنفسه حرية اختيار الزاوية التي يلتقط منها الأحداث والزاوية التي يفسّرها من خلالها ، فقد أقام الأرناؤوط صلة شبه عدائية بين الغساسنة والقيصر كما بدا في صنيع عمرو بن الحارث ضد القيصر ونجاته منه ، مع أن المراجع التاريخية تذكر أن الغساسنة ظلّوا على ودّهم للروم حتى بعد هزيمتهم في معركة اليرموك . وأما قصة فاطمة البتول ، فعلى الرغم من طابعها التاريخي المعروف الذي يحمل ملامح المأساة الأليمة ، فإن الأرناؤوط شاء أن يجعل النهاية في غير صالح يزيد بن معاوية ، فجعله يفيق من غفلته ، ليقضي فريسة الهواجس والنّذر المرعبة ، حتى أنه يموت ولم يحظ بالتكفير عن خطيئته بالجهاد ، وظلّ مصرع الحسين سوطاً يلهب ظهره حتى مات وعينا الحسين تلاحقانه .

ويبدو أن الأسماء التي جاءت في رواية « عمر ابن الخطاب » مخترعة مع أن جو الأحداث يستند إلى حقائق تاريخية ، إذ لم تذكر المراجع الأجنبية التي تعرّضت لتاريخ هذه الفترة هذه الوقائع الفردية . بيد أن التاريخ أورد أحداثاً عامة تتصل باضطهاد الدولة الرومانية لاتباع المسيحية في عهد جوستنيان ، ثم اضطهاد اتباع المذهب اليعقوبي أو أصحاب الطبيعة الواحدة في سوريا ومصر . فلم يتقيّد الأرناؤوط بذكر الأسماء التاريخية ولكنه التزم الأحداث التاريخية عامة . واختار بعض المواقف المتجادل فيها ، بل إنه أعطى نفسه الحرية في اختيار الرواية التي تناسبه ، بل إنه كان يختار ويحوّر كما يحلو له . وذلك فيما يتصّل بموقف أصحاب البلاد من عرب وغير عرب من الفتح الإسلامي . ونظراً لحماسته لهذا التاريخ فقد وظّفه توظيفاً رمزياً ، فجعل الشخصيات العربية وحدها تشارك في صنع التاريخ ، أما الشخصيات الأخرى التي حفلت بها من مثل « كريستيا » و « سافو » و « بنيامينا » و « نفتالي » و « مارسيليوس » و « زكريا البطريرك » في رواية عمر بن الخطاب ، فلم يشأ الأرناؤوط أن يجعل لهذه الشخصيات دوراً حقيقياً في تحقيق النصر على العدوّ ، لينقذها من بشاعة العبودية والاستغلال . فبنيامينا ونفتالي وكريستيا وسافو ومارسيليوس ضحايا لعسف الحاكم الروماني وأتباعه من رجال الدين .

وعلى الرّغم من زواج سافو من فروة فإنها لم تشارك إيجابياً في الثورة على القيصر ، والانتصار للرسول عليه السلام ، بل لحقت بأخيها كريستيا في معتزله بالجبل ، وتركت زوجها يلاقي مصيره وحيداً وقد كان عملها الوحيد زيارة أرض المعركة بصحبة أخيها كريستيا ، لرؤية فروة على خشبة الصّلب ، أما كريستيا فكان هدفه واضحاً يتمثّل في استرداد التّاج المفقود ، فلما شعر أن صراعه ضد القيصر لن يعود عليه بذلك التّاج ، لأن التاج بعد اليوم ملك العرب ، أحس باليأس ، وآثر العزلة ، ليموت مخضّب الجراح على ضفاف الأردن عند حبيبته بنيامينا . وقتلت بليتزا وابنتها مارية في قضية خاصة تدل على

ظلم القيصر لرعاياه . وأمّا نصرة القضية العربية فقد كانت وقفاً على العرب وحدهم . بل إن الشخصيات العربية كانت في موقف العون من رعايا القيصر نفسه .

وهكذا فإن الأرناؤوط حكم الفترة التاريخية بالرّمز الفني(٧٨) الذي فرضه على أحداث الروايات وشخصياتها ، فخالف من المراجع التاريخية ما لا يحقق وظيفة هذا الرمز على نحو ما رأينا في جعل العنصر العربي إلى صف القضية العربية ، وإن كانت الحقيقة غير ذلك من مثل موقف الحارث الغسّاني الذي قتل رسولَ النبي عليه السلام ، وفي موقف الغساسنة قبل معركة اليرموك وفي أثنائها ، ثم في موقف جبلة بن الأيهم الغسّاني الذي ارتحل إلى بلاد الروم ثأراً لكرامته على رأس عشرين ألفاً من قومه .

وعلى هذا النحو لاحظنا أن الروائيين في هذه الفترة « أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين » وظفوا التاريخ في رواياتهم بما يتفق وأغراضهم وأفكارهم وأهوائهم ونظريتهم في فن الرواية .

وإذا كان الروائيون جميعاً يصدرون عن احترام للنص التاريخي ، ويحاولون تبعاً لذلك ، أن يوثقوا رواياتهم بالمصادر والمراجع التاريخية ، فإنهم أيضاً قد تباينوا في توظيف التاريخ في أعمالهم الفنية من الناحية الفعلية ، إذ نجد البستاني يغلب عاطفته ، تجاه الرومان ، على حسه القومي فينسب إلى التاريخ ما ليس منه حيناً ، ويفسر أحداثاً تاريخية تفسيراً يخالف الحقيقة التاريخية حيناً آخر مثلما نرى جورجي زيدان يعمد إلى تغليب فكرته على الحقيقة التاريخية ، إذ يظل وفياً للحقيقة التاريخية حتى تصطدم مع فكرته الأساسية فلا يجد حرجاً في مخالفة التاريخ ليحقق تلك الفكرة ، على نحو ما رأينا في وصفه المقوقس وصفاً يخالف التاريخ ، وفي توجيه علاقاته توجيهاً يتفق والفكرة الرئيسة .

ولعل الأمر ذاته هو الذي وجه فرح أنطون ، فعلى الرغم من أنه ، وثق مادته التاريخية توثيقاً علمياً أشرنا إليه في متن مناقشة الرواية فإنه كان يخالف الحقيقة التاريخية حين لا تتفق وفكرته الرئيسة .

ومهما يكن ، فإن هؤلاء الروائيين لم تتضح في أعمالهم العاطفة القومية ، تلك العاطفة التي وجهت رواد الرواية في الغرب من مثل والترسكوت كما قدمنا ، ولعل معروف الأرناؤوط يتفرد من بينهم بوجود الإحساس القومي الذي وجه رؤيته للتاريخ من أحداثه وشخصياته ومغزاه فكراً وحضارة ■



● الهوامش ●

(١) الهيام في فتوح الشام مجلة الجنان ، بيروت مجلد عام ١٩٧٤ م .
(٢) أرمانوسة المصرية ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت د. ت .
(٣) فتح العرب بيت المقدس ــ القاهرة ١٩١٩ م .
(٤) سيد قريش (١-٣) مطبعة فتى العرب ــ دمشق ١٩٢٩ م .
(٥) عمر بن الخطاب (١-٢) مطبعة فتى العرب ــ دمشق ١٩٣٧ م .
(٦) فاطمة البتول ــ مطبعة فتى العرب ــ دمشق ١٩٤٢ م .
(٧) د. عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية الحديثة ص ٣٨ في مصر ٩٠-٩٤ .
وانظر أيضاً :

George Lucacs, The Historical Novel Translated From Germany by Hanna and Stanely Mitchell

Humanities Press Atlantic Highlands N.J U.S.A 1978.

حيث أشار لوكاتش إلى أن الرواية التاريخية نشأت بسبب الحروب النابوليونية التي أججت الروح القومية ، وأشار أيضاً إلى أن سكون كان وطنياً فخوراً بتطور شعبه ، وهو أمر حيوي لإبداع رواية تاريخية حقيقية ، انظر مثلاً ص ٥٣ .
(٨) الهيام في فتوح الشام ص ٨٦ .
(٩) أشار إلى أن مراجع روايته هي : الخطط للمقريزي ، تاريخ الطبري ، تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان ، الواقدي ، ابن هشام ، ابن الأثير ، تاريخ ابن خلدون ، حسن المحاضرة للسيوطي، تاريخ عبد اللطيف، مؤلفات شاميليوه ، ومارسيل ، وماريت ، ولكنسن ، وشارب والعقد الفريد .
(١٠) الهيام في فتوح الشام ص ١٠٢ .
(١١) المصدر السابق ص ٢٨٦ .
(١٢) إبراهيم السعافين : تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ .
(١٣) انظر مقدمة رواية « عمر بن الخطاب » وشاكر مصطفى : القصة في سورية ٤٩٠ ، ٤٩١ .
(١٤) تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام
(١٥) الهيام في فتوح الشام ص ٧٨٤ .
(١٦) الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر) فتوح الشام ــ ط ١ ص ٨٣ ، دار الجيل بيروت د. ت .
(١٧) ابن خلدون ، عبد الرحمن : تاريخ ابن خلدون في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم

من ذوي السلطان الأكبر المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ١ ص ٣٦٤ ، مطبعة النهضة بمصر ١٩٣٦ م .

(١٨) الهيام في فتوح الشام ٦٨٤ .

(١٩) الطبري أبو جعفر بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار سويدان بيروت لبنان .

(٢٠) DONEER, FREDMC GRAW : The Early Islamic Conquests P. 140 Princeton University Press New Jersy 1981.

(٢١) Ibid P. 144

(٢٢) الهيام في فتوح الشام ص ٣٩٣ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٥٧٣ .

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٨٦ .

(٢٥) فتوح الشام جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢٦) البلاذري ، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ص ١٢٠ .

(٢٧) الهيام في فتوح الشام ص ١٧٦ .

(٢٨) المصدر السابق ص ٥٣٥ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٥٣٦ .

(٣٠) تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٧٣ .

(٣١) The Early Islamic Conquests P. 19.

(٣٢) الهيام في فتوح الشام ص ٦٤٧ .

(٣٣) فتوح الشام جـ ١ ، ٥٢-٥٤ .

(٣٤) الهيام في فتوح الشام ص ٧٥٣ .

(٣٥) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

(٣٦) فتوح الشام ص ١٢ .

(٣٧) المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٦٥ ، ١٦٩ وغيرها .

(٣٨) أرمانوسة المصرية ص ٩ - ١٠ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤٠) د. شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ط ٥ ص ١٣٤ دار العلم للملايين ١٩٨٠ م .

(٤١) Butler, Alfred J, The Arab Conquest of Egypt P. 3 Oxford 1962 .

(٤٢) Ibid P. 178, 188.

(٤٣) حركة الفتح الإسلامي ص ١٣٤ .

(٤٤) The Arab Conquest of Egypt P. 175

(٤٥) فتوح البلدان ص ٢١٧ .

(٤٦) حركة الفتح الإسلامي ص ١٣٩ .

(٤٧) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٤٨) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٤٩) أرمانوسة المصرية ص ٣٩ .

(٥٠) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ١٤٣ .

(٥١) أرمانوسة المصرية ص ٣٩ .

(٥٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٣٤٥ .

(٥٣) علق جورجي زيدان على ضحية النيل في هامش ص ٥٣ بقوله : « إن القول بضحية عند المصريين لم يثبت ، وإنما جئنا به هنا للإشارة إلى ما يقال في هذا القبيل ، وفيه لذة وتسلية ، أما رأينا فتجده مفصلاً في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من (الهلال) الصادرة في ١٥ أغسطس ١٨٨٥ » وانظر فتوح الشام جـ ٢ ص ٦٩ .

(٥٤) فتوح الشام جـ ٢ ص ٤٥ وما بعدها .

(٥٥) المصدر نفسه ص ٨١ . وانظر نص كتاب الرسول عليه السلام إلى هرقل في تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٥٦) انظر أرمانوسة المصرية ٤٢ .

(٥٧) المصدر السابق ص ٤٠ – ٤١ .

(٥٨) المصدر نفسه ص ٤٢ ، وانظر فتوح الشام جـ ٢ ص ٦٤ .

(٥٩) المصدر نفسه ص ٤٥ .

(٦٠) المصدر نفسه ص ٤٥، ١٤٤ .

(٦١) المصدر نفسه ص ١٥١ .

(٦٢) انظر أرمانوسة المصرية ص ٨٢ وانظر كذلك السيرة النبوية لابن هشام القسم الثاني ص ٢٧٧ – ٢٧٨ تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ط ٢ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٥ .

(٦٣) أرمانوسة المصرية ص ٨٢ وانظر لابن كثير : الإمام أبي الفداء إسماعيل : شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٦٧ .

(٦٤) أرمانوسة المصرية ص ٨٤ ، وشمائل الرسول ص ٨٦–٨٩ ، وفتوح الشام جـ ٢ ص ٣٧ .

(٦٥) أرمانوسة المصرية ص ٧٤ وانظر حركة الفتح الإسلامي ص ١١٣ نقلاً عن ابن عبد الحكم .

(٦٦) أرمانوسة المصرية ص ٢٧ ، ٣٤٢ وانظر The Arab Conquest of Egypt P. 188 ، وقد أورد ابن خلدون نص الحلم في تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٠-٣٤١.

(٦٧) انظر أرمانوسة المصرية ص ١٨٥ ، وكتاب تاريخ الحكماء مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات ، كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ٣٥٣ - ٣٥٧ ، مكتبة المثنى ببغداد ، ومؤسسة الخانجي بمصر د. ت .

(٦٨) الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٦٩) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٧ .

(٧٠) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٧١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٧٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٦٣-٢٦٤ تحقيق أحمد أمين وزملائه ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ .

(٧٣) فتوح الشام جـ ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٧٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٩ .

(٧٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٧٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٧٧) البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ص ١٨٧ ، نشر صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ ، وفتوح الشام جـ ١ ص ٧٧ .

(٧٨) انظر تفاصيل ذلك في كتابي « تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام » ص ١٦١ وما بعدها . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .





رحلات علماء نجد إلى الشام طلباً للعلم

● الأستاذ عبد الله حمد الحقيل ●

في موضوع سابق تحدثت عن علاقة نجد بالشام في الفترة من ١١٥٧ هـ إلى ١٢٢٥ هـ وفي هذا الموضوع نلقي الضوء على رحلات علماء نجد الذين انطلقوا يبحثون عن العلم والمعرفة .

ولا غرو فلهذه البلاد ماضٍ علمي عريق فهي منارة العلم وقلعة المعرفة مهد الفصاحة وموطن البلاغة ومنطلق الأدب ومأزر الفكر ومهوى أفئدة العرب والمسلمين ..

عرفت شبه الجزيرة العربية من قديم بصعوبة اجتياز صحاريها وبواديها ، وفي سبيل

التغلب على تلك الصعوبة ، استغلت الإبل كوسيلة للانتقال ، نظراً لقوة تحملها لحرارة الشمس ، وندرة الماء ، وتخطي الحصى والرمال والأشواك على حد سواء ، حتى قيل في وصف الجمل إنه سفينة الصحراء ..

وكان الناس يتحملون متاعب اختراق الصحاري والمفازات بحثاً عن الرزق ، إما في صورة طلب مرتع أفضل وأخصب ، أو في تجارة يحملونها للأسواق والتجمعات العمرانية ، أو للهجرة لمكان أوفر أمناً ومرتعاً .. أو غير ذلك من أسباب ، كما كانت قوافل الحجيج التي تشق طريقها إلى البيت العتيق قد اتخذت لنفسها الطرق والدروب عبر الصحاري ، تسلكها كل عام ، حتى عرفت تلك الطرق في بعض أجزاء منها باسمها ، فقيل درب الحاج الشامي ، أو العراقي ، أو المصري أو غير ذلك ..

كان هؤلاء الذين يجوبون المفازات ، ويعبرون الصحراء ، على اختلاف أغراضهم في ذهابهم وإيابهم ، هم وسيلة نقل المعرفة الإنسانية من مكان لآخر .. بما يروونه من أخبار .. أو يحملونه من كتب مصنفة ، إما للقراءة ، أو للإتجار بها .. كما كان لتجار نجد دور بالغ الأثر في ذلك ، إذ وطئت أقدامهم ، أرض الشام ، والعراق ، ومصر ، وفلسطين ، والسودان ، وغيرها من دول أفريقيا .. بجانب شهرتهم بالتجارة في شرق آسيا .. وشبه القارة الهندية بالذات ..

كان بعض هؤلاء العابرين للصحراء يمرون ببلدان نجد فيستريحون من عناء السفر ، فيفيدون ويستفيدون ، و كان يوجد بجانب هؤلاء فئة تجوب الصحراء لغرض أنبل وأسمى ، وتستلذ المتاعب في سبيل غايتها النبيلة ، هذه الفئة هم طلاب العلم ، الساعون إليه أينما كان ، لا تعوق الصحراء بما فيها من مخاوف ومهالك حركة سعيهم ، أو تحول بينهم وبين ما يشتهون من فهم للعلم ..

كان الرُّواد الأوائل من أبناء نجد ، يقطعون صحراء شبه الجزيرة العربية ، ذهاباً وإياباً .. إلى العديد من بقاع الأرض طلباً للعلم ، يبدأ تلقي العلم أولاً في بلده ، مسقط رأسه ، فإذا أراد المزيد انتقل إلى بلدة مجاورة اشتهرت بعلمائها ، فإذا لم تتحقق رغبته ، وفهمه للعلم لم يزل ، انتقل إلى بلدة أخرى تموج بالعلماء .. وهكذا حتى يحقق طموحه ورغبته ، ثم يعود لموطنه ، ومسقط رأسه .. يحمل إليها رسالة العلم ، بالتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ،

والبعض من هؤلاء كان يستمر في البلدان التي أخذ عن علمائها ، ويتصدى فيها للتدريس ، والإفتاء ، لفترة تطول أو تقصر ، ثم يعودون بعدها لموطنهم في نجد ..

العجيب أنهم كانوا لا يملون من كثرة الترحال والتنقل داخل بلدان نجد ، وخارجها ، سعياً في طلب العلم ، يبحثون عن العلماء ، ليأخذوا عنهم في مختلف العلوم والفنون ، فإذا ما رغب أحدهم في المزيد ، جمع همته وشد رحاله إلى بلد اشتهرت بوفرة علمائها .. كل ذلك مع صعوبة الحياة المعيشية وقتها ، وقلة ذات اليد ، والمعاناة . الانتقال من مكان لآخر ، وفي الحصول على الكتب والمراجع وأدوات الكتابة وغيرها ..

ومع قسوة الحياة ، والمعاناة التي واجهت هؤلاء ، فقد ارتقى العديد منهم مرتقى عالياً ، وصاروا من مشاهير العلماء ليس في نجد وحدها وإنما في البلدان التي سعوا إليها طلباً للعلم ، كالشام ، ومصر وغيرهما .. وكانوا همزة الوصل بين نجد وغيرها من البلدان ، وشعاع المعرفة ، والصلة العلمية والثقافية المتدفق من قلب شبه الجزيرة العربية إلى أجزاء العالم العربي والإسلامي .

ومعروف أن قسوة الحياة المعيشية ترغم الناس على توظيف كل أفكارهم وجهدهم بحثاً عن الرزق أما أن يكتفوا باليسير منه ثم يسعون في طلب العلم فتلك شيمة أصحاب الهمم العالية .. أحد هؤلاء العلماء تلقى العلم في بلده القريبة من بريدة بالقصيم ، ثم رغب في المزيد فانتقل إلى الرياض وأخذ عن علمائها ، ثم علت همته طلباً في المزيد فسافر إلى الشام ، وجد واجتهد حتى أجيز في كثير من العلوم ، وأصبح مؤهلاً للتدريس والإفتاء .. فقرر العودة إلى بلده لينشر فيها شعاع العلم فكان كل همه أن جمع مجموعة كبيرة من الكتب والمراجع ، وجعلها في صناديق حملها بعير اشتراه وسار به ضمن قافلة كانت قادمة من الشام إلى نجد ..

علم أهله بقرب وصوله إليهم بعد غياب طال أمده ، فكانوا في انتظاره على شوق ، ولما وصل استقبلوه في سعادة غامرة ، ثم وقفت راحلته المثقلة بما حملت ، وحطت رحالها أمام بيته ، وكان أبوه في استقباله ، فظن أهله أن ما حملته الراحلة هدايا ومؤن ونفقة ، فقد كانوا في غير ميسرة ، لكنهم فوجئوا بأنه يخرج من الصناديق كتباً وورقاً ، فالتفت إليه والده قائلاً : كنت أظن أنك تعاطيت التجارة خلال إقامتك في الشام ، وأن هذه مليئة بالمؤن والكسوة والنفقة .. فإذا بها قراطيس لا تغني من جوع .. فقال الابن ، وهو يبتسم في وجه والده : يا أبي إن في هذه القراطيس خيري الدنيا والآخرة .. وكان بالفعل كما قال : فما هي إلا فترة يسيرة إلا وجلس الابن للتدريس ، فأقبل الطلاب إليه من كل ناحية ، وذاع اسمه ، وتولى القضاء في بريدة والوعظ والإرشاد .. وخرج أهله من ضائقتهم المعيشية ، بنور العلم وهدايته .. إنه الشيخ سليمان

ابن علي بن مقبل ، المولود حوالي عام ١٢٢٠ هـ بقرية المنسى إحدى القرى القريبة من بريدة .. وهو واحد من عشرات غيره ، بل مئات .. لاقوا المتاعب والصعاب ، وجدوا واجتهدوا.. وتنقلوا من بلد لآخر سعياً في طلب العلم ، متغلبين على كافة العوائق ، حتى أصبحوا من مشاهير العلماء وكانت الشام تحظى بالنصيب الأوفر من تلك الرحلات العلمية في نجد .. ويصعب أن نقوم بحصر لأسماء هؤلاء العلماء الذين جابوا البلاد طولاً وعرضاً ، طلباً للعلم ، وكان في مقدمتهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الذي تنقل في مرحلة طلبه للعلم بين العيينة والحجاز والبصرة والزبير والاحساء ، كما هو معروف لكل دارس لتاريخه الحافل ، كما كان منهم العلماء الآتية أسماؤهم : الشيخ إبراهيم بن أحمد بن يوسف الوهيبي التميمي ، النجدي ، المولود في بلدة أشيقر عام ١١٤٦ هـ ، حيث نشأ فيها ، وقرأ على علمائها ، حتى حَصَّل جانباً وافراً من العلم ، ثم رحل لأداء فريضة الحج ثلاث مرات ، وفي المرة الأخيرة سافر من مكة المكرمة إلى دمشق عام ١١٨١ هـ ، بصحبة الركب الشامي الذي كان يؤدي فريضة الحج نفس العام ، فاستقام في دمشق لطلب العلم حتى علا شأنه ، وأجيز للتدريس ، فجلس يدرِّس للطلبة في الجامع الأموي ، وأصبح مرجعاً في الفقه الحنبلي ، وأصوله ، واحتل مكانة مرموقة بين علماء دمشق ، وظل فيها هكذا إلى أن توفي فيها عام ١٢٠٥ هـ ، وهو يعتبر من ذوي المحاولات الأولى في كتابة تاريخ نجد ..

ـ الشيخ أحمد بن محمد بن مشرف ، الوهيبي ، المتوفى عام ١٠١٢ هـ ، فقد ولد في بلدة أشيقر ، وقرأ على علمائها ، ثم لما جَدَّ في طلب العلم رحل إلى دمشق ، وأخذ عن علمائها ، ولازم الشيخ موسى الحجاوي ، مصنف كتاب « الإقناع » ولما أجيز من بعض علماء دمشق ، وأصبح مؤهلاً للتدريس والإفتاء ، عاد لموطنه في نجد ، وجلس يدرس لطلاب العلم ، حتى اشتهر شأنه ، وانتفع به خلق كثير ، ولم يزل كذلك إلى أن توفي عام ١٠١٢ هـ في بلدة أشيقر ..

ـ **الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة بن زيد ، التميمي** ، ولد في العيينة في النصف الأخير من القرن التاسع الهجري ، ونشأ فيها ، وقرأ على علمائها ، ثم رغب في المزيد من طلب العلم ، فجمع همته ورحل إلى دمشق ، وسكن في مدرسة أبي عمر ، المنسوبة إلى الشيخ محمد بن أحمد بن قدامة ، شقيق موفق الدين بن قدامة ، حيث كانت حافلة بالعلماء في ذاك الوقت ، ولازم فيها أكابر العلماء ، وأخذ عنهم ، وتزامل هو والشيخ موسى الحجاوي في طلب العلم والدراسة ، حتى حصل على قسط وافر من العلوم الدينية واللغوية ، ثم عاد إلى نجد ، وسكن بلدة الجبيلة ، وتصدى للإفتاء والتدريس ، وذاعت سمعته العلمية ، وتوافد إليه العديد من طلاب العلم ، وصار عين علماء نجد في زمانه ، وظل هكذا إلى أن توفي في شهر رمضان عام ٩٤٨ هـ ..

ـ **الشيخ حسن بن علي بن عبد الله بن بسام** ، المتوفى عام ٩٤٥ هـ ، فقد ولد في بلدة أشيقر ، ونشأ فيها ، وتلقى العلم عن علمائها ، وقرأ على الشيخ معين الدين محمد ، صاحب التفسير المسمى « جامع البيان » وذلك أثناء مروره على بلدة أشيقر في طريقه لأداء فريضة الحج عام ٩٠٣ هـ .. ثم لما جدَّ في طلب العلم سافر إلى الشام ، وأخذ عن علمائها ، وكان من بينهم الشيخ موسى الحجاوي ، ثم لما أصبح مؤهلاً للتدريس والإفتاء عاد إلى بلده أشيقر ، وجلس فيها للتدريس والفتوى ، وظل هكذا إلى أن توفي عام ٩٤٥ هـ ..

ـ **الشيخ زامل بن سلطان الخطيب آل يزيدي** ، من بني حنيفة ، ولد في بلدة مقرن في مطلع القرن العاشر الهجري ، ونشأ فيها ، وقرأ على علمائها ، وعلى علماء البلدان المجاورة ، ثم رغب في طلب المزيد فرحل إلى دمشق ، فأخذ عن علمائها ، ثم انتقل إلى مصر ، فأخذ عن علماء الجامع الأزهر ، ولازم الشيخ الفتوحي قاضي الحنابلة في زمنه ، ثم عاد إلى موطنه في نجد ، فتولى القضاء في الرياض ، وجلس للتدريس والإفتاء ، وظل يزاول عمله هذا إلى أن توفي في النصف الأخير من القرن العاشر الهجري ..

ـ **الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم السناني السبيعي** ، ولد في عنيزة ، ونشأ فيها ، وتلقى العلم عن علمائها ، ولما رغب في طلب المزيد انتقل إلى الشام ، وأخذ العلم عن علمائها ، ولازم الشيخ جمال الدين القاسمي ، ثم انتقل إلى العراق فأخذ عن الشيخ نعمان الألوسي ، والشيخ شكري الألوسي ، الذي أثنى عليه ثناء عظيماً ، نظراً لما لمسه فيه من جد واجتهاد ، وذكاء وسرعة إدراك ، وقد ظل بها يتلقى العلم ، وفي نفس الوقت يمارس أعمال التجارة كوسيلة يتعيش منها ، حتى وافاه أجله المحتوم بها عام ١٣٢٧ هـ ..

ـ **الشيخ عبد الله بن أحمد الرواف الوهيبي التميمي** ، ولد في بلدة بريدة بالقصيم عام ١٢٩٢ هـ ، ونشأ فيها ، وبدأ يطلب العلم على يد علمائها ، ثم على يد غيرهم من علماء البلدان المجاورة ، وحين رغب في المزيد جمع همته وسافر إلى دمشق ، فأخذ عن علماء الحنابلة ، وجد واجتهد في تحصيل العلم حتى أجيز في بعض العلوم ، وانتهز فرصة وجوده بدمشق وأخذ ينسخ كثيراً من الكتب ، وبخاصة كتب الحنابلة التي كانت تزخر بها المكتبة الظاهرية ، وأصبح لديه أكبر مكتبة خاصة في زمنه .. ثم عاد لموطنه بالقصيم ، لكنه ما لبث أن رحل إلى المدينة المنورة ، وأخذ عن علمائها ، ثم انتقل إلى عسير ، ثم حضرموت حيث تولى فيها القضاء عام ١٣٢٩ هـ ، حتى عام ١٣٤٦ هـ ، ثم انتقل إلى مسقط فأقام فيها عامين ، ثم انتقل عام ١٣٤٩ هـ إلى بلدة جعلان بعمان بناء على طلب أمرائها من آل حمود ، وكانوا حنابلة المذهب ، فظل بها إلى عام ١٣٥٩ هـ ، حيث وافته منيته وهو في عمله بالقضاء في بلدة جعلان ..

ـ **الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الشمري** من آل ويبار ، من بطن عبده ، من قبيلة شمر . جده عبد الله الشمري هو الذي أنشأ بلدة المجمعة عام ٨٢٠ هـ ، وسكنها هو وذريته من بعده ، ثم انتقل والد عبد الله إلى المدينة المنورة ، وأقام فيها طلباً للعلم ، وولد أبناؤه فيها ، ولما أدرك ابنه عبد الله وشب عن الطوق شرع في طلب العلم ، فأخذ عن والده ، وعن غيره من علماء المدينة المنورة ، ثم أراد المزيد فرحل إلى دمشق ، وأخذ عن علمائها ، وكان من أشهر من أخذ عنهم الشيخ أبي المواهب ، شيخ الحنابلة فيها ، ثم على الشيخ فوزان بن نصرالله النجدي ، ثم عاد إلى المدينة المنورة ليكمل طلبه للعلم ، فواصل جلوسه إلى أساتذته ، وجدَّ واجتهد حتى أصبحت له مكانة علمية مرموقة بين العلماء ، فجلس للتدريس ، والإفتاء ، واشتهر أمره ، وعلا شأنه ، حتى عد من أكابر علماء المدينة المنورة ، وعندما حل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالمدينة المنورة ، وقت طلبه للعلم ، جلس إليه ، وأخذ عنه ، وأشاد بعلمه وفضله ، توفي بالمدينة المنورة عام ١١٤٠ هـ ..

ـ **الشيخ عبد الوهاب بن محمد بن حميدان بن تركي ، الخالدي نسباً** .. العنيزي مولداً ومنشأ ، ولد في بيت علم ، فجده لأبيه وأمه من العلماء المبرزين في عصرهما ، فنشأ هذا على الاستقامة ، والهمة في طلب العلم ، فأخذ عن علماء بلده عنيزة ، ودفعته همته إلى المزيد ، فانتقل إلى الزبير وبغداد ، وأخذ عن علمائها ، حتى أجيز في كثير من العلوم .. وقد ترجم له صاحب

السحب الوابلة ، ضمن ترجمة جده حميدان ، ثم رجع إلى بلده عنيزة ، فجلس فيها للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ، وظل هكذا إلى أن توفي فيها ..

ـ **الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع** ، ولد في عنيزة عام ١٣٠٠ هـ ، ونشأ فيها ، في بيت علم وصلاح ، ولما شب عكف على طلب العلم ، فجلس إلى علماء عنيزة ، وأخذ أيضاً عن علماء بريدة ، ثم رغب في طلب المزيد فسافر إلى بغداد ، وأخذ العلم عن علمائها ، وبخاصة العلوم العربية ، والفرائض ، والحساب ، ثم انتقل إلى مصر فأخذ عن علماء الجامع الأزهر ، وبالذات العلماء الحنابلة ، ثم انتقل إلى دمشق فأخذ عن علماء الجامع الأموي ، ثم انتقل إلى بغداد ثم البصرة حيث أقام فيها ، وأخذ عن علمائها ، ثم عاد لموطنه بعد أن صار من أكابر العلماء ، وقد تولى عدة مناصب ومهام علمية عديدة في المملكة ، وفي بعض دول الخليج العربي ، وعندما أنشئت أول مديرية للمعارف عام ١٣٦٥ ، أسندت إليه رئاستها ، إلى أن أصبحت وزارة فأسندت إلى خادم الحرمين الشريفين ، الملك فهد بن عبد العزيز ، حفظه الله ، حيث كان أول وزير لها .. فأطلق المسيرة التعليمية في البلاد وامتدت المدارس والمعاهد والجامعات ..

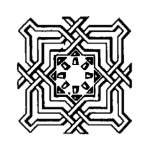
ـ **الشيخ عثمان بن أحمد بن قائد النجدي** ، ولد في بلدة العيينة ، أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، وأخذ عن علمائها الذين كانت تحفل بهم ذاك الوقت ، كما أخذ على غيرهم من علماء البلدان المجاورة ، ثم رغب في طلب المزيد من العلم فرحل إلى دمشق ، وأخذ عن علمائها ، وجدَّ واجتهد حتى حصلَّ جانباً وافراً من العلوم الشرعية واللغوية ، ومهر في الفقه والأصول والنحو ، حتى ارتقى إلى مرتبة الفتوى والتدريس ، فتصدر لهما ، وحدث أن حصل بينه وبين مفتي الحنابلة بدمشق خلاف حول مسألة فقهية ، طال فيها النقاش والخلاف بينهما بشأنها ، واشتد أمره ، فكان من أثر ذلك أن ترك ابن قائد دمشق ورحل إلى القاهرة ، وواصل تلقي العلم في بقية العلوم الأخرى ، وكذلك الفقه الحنبلي حتى احتل مكانة علمية مرموقة ، واشتهر أمره ، وأُطلِق عليه لقب المحقق ، وأثنى عليه العلماء ثناء عاطراً ، وانتهت إليه صدارة الإفتاء على المذهب الحنبلي في مصر ، كما انتفع بعلمه العديد من طلاب العلم في مصر ، من القادمين إليها من نجد والشام وغيرهم .. وكان له جهد واضح في تصنيف الكتب ، فقد أورد الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه « علماء نجد خلال ستة قرون » أسماء مصنفاته .. وقد ظل مقيماً بمصر إلى أن توفي بها مساء الأثنين ١٠٩٧/٥/١٤ هـ ..

ـ **الشيخ فوزان بن نصر الله بن محمد بن عيسى بن صقر بن مشعاب** ، من المشاعيب ،

من آل جراح ، ولد في بلدة الجادة بالقرب من عنيزة ، ثم انتقل وهو صغير ، مع أهله إلى حوطة سدير ، فنشأ فيها ، وأخذ العلم عن علمائها ، كما جلس إلى علماء أشيقر ، وإلى غيرهم من علماء نجد ، وذلك أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، وأجازه الشيخ أحمد القصير ، ثم رغب في المزيد من طلب العلم فرحل إلى الشام ، وأخذ عن علمائه ، حتى صار مؤهلاً للإفتاء والتدريس والوعظ والإرشاد ، فعاد إلى موطنه في حوطة سدير ، وجلس فيها للتدريس، وتوافد إليه الطلاب ينهلون من علمه ، وظل هكذا إلى أن توفي عام ١١٤٩ هـ ..

هذه نماذج قليلة من أعداد كبيرة يصعب حصرها ، من طلاب العلم ، وراغبي المعرفة ، وناشري عبق الطيب ، ورحيق العرفان ، فيما بين نجد وغيرها من البلدان ، وبخاصة بلاد الشام التي ارتبطت مع نجد بعلاقات علمية منذ زمن بعيد ، ومازالت جذور تلك العلاقات ممتدة إلى عهد قريب ، حين انتشرت المدارس والمعاهد العلمية ، والكليات ، والجامعات ، وازدهرت مدن نجد وقراها ، وسائر بلدان ومناطق المملكة بحركة علمية زاهية زاهرة لم تشهدها من قبل ، وهذا بفضل الله ثم بفضل حكومتنا الرشيدة .. التي نقلت أبناء هذه البلاد إلى مرحلة متقدمة من التطور الحضاري-وأصبحت دور العلم من أبرز المعالم في المدن وازدادت مرحلة التطوير والتكامل في مسيرة العلم والمعرفة ..

حقق الله لهذه البلاد ما تصبو إليه من عز ومجد وسؤدد .. فقد كانت ذات حضارة مشرقة وتاريخ مجيد وتراث حافل بالعطاء والأمجاد .. ■





● د . عبد الرحمن محمد العيسوي ●

تعتمد معارك التنمية التي تخوض غمارها أمتنا العربية في الوقت الراهن اعتماداً كلياً على التربية ومؤسساتها . فلقد أدى التطور المتلاحق الذي يحدث من حولنا في كل دول العالم أن تصبح أمتنا العربية في سباق مع الزمن . ويضع التطور العالمي أمتنا في تحد ضخم يوجب عليها أن تسارع الخطى في سعيها للتقدم . وتلعب التربية دوراً رئيسياً في معركة التنمية .

التفاعل بين التربية والتنمية :

تعتبر التنمية ، في الوقت الحاضر ، مطمحاً لجميع المجتمعات العربية والإسلامية ، وذلك للقضاء على ما بها من تخلف ، وللاستفادة من منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثة ، وللارتفاع بمستوى المعيشة وتحسين نوعية الحياة[1] .

ويعتقد البعض أن التنمية تشكل الحل السحري لجميع مشكلات المجتمع . وعلى هذا الأساس ، قسمت المجتمعات إلى مجتمعات متقدمة نجحت في تحقيق خططها التنموية ومجتمعات متخلفة ، وأخرى نامية ، وهي التي تسعى لتحقيق ارتفاع مستوى المعيشة على أرضها .

ومؤدى هذا أن الفرق بين هذه المجتمعات يكمن في درجة التنمية ونوعيتها . ويخطىء من يعتقد بأن التنمية معادلة للنمو الاقتصادي ، ذلك لأن هناك مجتمعات ارتفع فيها متوسط دخل الفرد دون

أن يشارك الفرد في صنع الحياة . ومعنى هذا أن التنمية الحقيقية تظهر في إشباع الحاجات الأساسية لأفراد المجتمع ، بشرط أن يشمل هذا جميع حاجات الفرد من الغذاء والسكن والصحة والتعليم والعمل ، وتحقيق الذات ، والمشاركة في تقرير المصير ، وحرية التعبير والتفكير ، والأمن والشعور بالكرامة والاعتزاز بالوطن[٢] .

ومن هنا يمكن اتخاذ التعريف التالي للتنمية :

« العملية المجتمعية الواعية الموجهة نحو إيجاد تحولات في البناء الاقتصادي والاجتماعي ، تكون قادرة على تنمية طاقة إنتاجية مدعمة ذاتياً ، تؤدي إلى تحقيق زيادة منتظمة في متوسط الدخل الحقيقي للفرد على المدى المتطور وفي نفس الوقت ، تكون موجهة نحو تنمية علاقات اجتماعية وسياسية ، تكفل زيادة الارتباط بين المكافأة وبين كل من الجهد والإنتاجية ، كما تستهدف توفير الحاجات الأساسية للفرد وضمان حقه في المشاركة وتعميق متطلبات أمنه واستقراره في المدى الطويل »[٣]

إذا كانت المؤسسات الاجتماعية تلعب أدواراً مهمة في تحقيق العملية التنموية ، فإن التربية تحظى بدور مهم في تحقيق التنمية ، وضمان استمراريتها ، ولذلك فالتقدم التربوي يعد مؤشراً من المؤشرات الدالة على حصول التنمية ، وعلى اعتبار أن حاجة الشعب إلى العلم تعتبر من الحاجات الأساسية والمتزايدة ، والتي يقع على التربية عبء إشباعها .

ويحدد البعض الدور الذي يمكن للتربية أن تقوم به حيال العمليات الإنتائية ، في نشر العلم بحده الأدنى بين أكبر عدد ممكن من أبناء المجتمع ، والإسهام في تعديل قيم الناس واتجاهاتهم وطموحاتهم ، ومن ذلك الإيمان بالعمل كقيمة ، والإيمان بجدوى غزارة الإنتاج وتحسينه ، وتكوين العادات الإيجابية في التفكير ، والتحلي بالموضوعية والدقة ، ونبذ التواكل والسلبية ، والنزعات الاستهلاكية ، وإنتهاج المنهج العلمي القائم على أساس الملاحظة والتجربة والتحليل والتطبيق والنقد والمقارنة والتركيب والتمييز والتعميم[٤] . وإلى جانب هذا الدور ، على التربية أن تعمل على تأهيل القوى البشرية وإعدادها وتدريبها للعمل في جميع القطاعات ، على أن يتمشى هذا الإعداد مع الحاجات الأساسية والمتغيرة للمجتمع من القوى البشرية ، مع إعطاء الأهمية الكبرى لإعداد الأيدي العاملة المدربة والماهرة والتي يعاني المجتمع نقصاً شديداً فيها .

وإذا كانت التربية تؤثر في التنمية وتمدها بالعناصر البشرية الصالحة للقيام بمشاريع الإصلاح والعمران والتطور ، فإن التنمية ، بدورها ، تؤثر في التربية . فلا شك أن تطوير المجتمع وتقدمه ورخائه ونموه يؤثر في التربية ، ويساعدها في التمكن من أداء رسالتها . فالتطور الأساسي والاجتماعي والاقتصادي يؤثر في عمليات التربية . وعلى هذا فإن العلاقة القائمة بين التربية والتنمية هي علاقة تفاعل أي أخذ وعطاء ، وتأثير متبادل ، فكل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، بل لابد لنا ، في هذه المرحلة ، من أن يكون للتربية ، في بلادنا ، دور قيادي[٥] في حركة الإصلاح والتطور والتنوير والتنمية .

أهمية التربية في عصور التنمية :

لا شك أن التربية من أهم المؤسسات الاجتماعية ، ذلك لأن التربية ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، لأنها منهج يحول الكائن البشري إلى كائن إنساني كامل ، وعن طريقها يتأتى للمجتمع تعبيد سبل الحياة التي يحياها . ولما كانت المدرسة هي المؤسسة التي أوجدها المجتمع لتقوم بتربية النشء الصغير ، فإنها ، تحقيقاً لهذه الغاية ، تختار من الخبرات العديدة التي توجد في المجتمع وفي حياة الأفراد الذين يكونون هذا المجتمع ، ما يتناسب مع تحقيق أهدافها . وهذا الاختيار والتفضيل عملية أخلاقية ، في أساسها ، إنها أعمق عمليات النشاط الإنساني ، إذ ليس هناك عملية أخرى تضاهي في أخلاقياتها عملية تربية الأجيال .[٦] .

وتتمكن التربية في أداء رسالتها على أساس الثقة في مرونة الكائن البشري الإنساني وقابليته للتغير ، وإمكانية التحكم في نشاطه في ضوء القيم والغايات الاجتماعية المرغوب فيها .

ولقد كانت التربية ، في الماضي ، تركز الاهتمام على المادة الدراسية ، ولكن التربية الحديثة تهتم بالاتجاهات النفسية للمتعلم ، والتفاعل السوي بينه وبين المادة العلمية . ولقد شهدت شبه الجزيرة العربية أعظم حركة تنوير علمي عرفها التاريخ حين شهدت مكة المكرمة فجر النبوة ، وسطع فيها النور المحمدي ، الذي يمثل أكبر انطلاقة فكرية في وقت كان العالم كله يرزح فيه تحت ظلمة حالكة من الجهل والتدهور الحضاري[٧] .

وفي العصر الحديث ، شهدت المملكة العربية السعودية نهضة علمية شامخة حيث بلغ عدد الجامعات بها سبع جامعات ، إلى جانب الرئاسة العامة لتعليم البنات ، وهذه الجامعات هي :

١ ـ جامعة الملك سعود .
٢ ـ الجامعة الإسلامية .
٣ ـ جامعة الملك فهد للبترول والمعادن .
٤ ـ جامعة الملك عبد العزيز .
٥ ـ جامعة أم القرى .
٦ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
٧ ـ جامعة الملك فيصل .

إلى جانب المعاهد الفنية والصحية ومراكز التدريب والمدارس الثانوية المهنية والصناعية والتجارية والزراعية ، ومراكز التدريب المهني والتكنولوجي[٨] .

ويمتاز التعليم في المجتمع السعودي بمزايا خاصة ، أبرزها الاهتمام بالجانب الديني والأخلاقي اهتماماً كبيراً ، وكذلك الاهتمام باللغة العربية ، مع الاهتمام بالمعارف العلمية والنظرية المعاصرة . علاوة على الاهتمام بإعداد المعلم ، والكتاب المدرسي الجيد ، وتطوير المناهج الدراسية ، وتوفير الوسائل المعينة على التدريس ، وكذلك المكتبات والمعامل والمختبرات مع الاهتمام بتعليم الفتاة ، وبالتعليم الخاص ، بالصم والبكم ، وضعاف العقول ، والمكفوفين . ومازال أمام المملكة الكثير في ميدان النهضة العلمية .

مبادئ تربية التنمية :

لكل عصر من العصور نوع التربية أو النمط التربوي الذي يصلح له ، فالتربية في العصر اليوناني غيرها في العصر الروماني ، والتربية في العصور الوسطى غيرها في العصر الحديث . ذلك لأن التربية إن هي إلا وسيلة مهمة من وسائل تحقيق أهداف المجتمع ، وعلى ذلك فالتربية تختلف ، في أهدافها ومضمونها ومحتواها ومنهجها ، باختلاف الزمان والمكان . ولاشك أن التربية هي التي تقوم على إعداد الفرد الصالح للمعيشة في مجتمع معين . وينطبق هذا على جميع الفلسفات التربوية ما عدا التربية الإسلامية ، ذلك لأن هذه الفلسفات من صنع البشر ، أما التربية الإسلامية فتستمد أصولها ومقوماتها ومنابعها من أقوال الخالق العظيم ، خالق البشر ، ومن سنة نبيه الكريم . ولذلك كانت التربية الإسلامية دون سواها من المذاهب التربوية ، صالحة لكل زمان ومكان ، لأنها أعلم بطبيعة البشر ودوافعهم ونوازعهم ، ولأنها تعتمد على الجوانب الإيمانية والروحية والخلقية ، وهي أسمى ما يوجد في الإنسان .

وإذا كانت التربية الصالحة تستهدف ، فيما تستهدف ، سد احتياجات المجتمع والوفاء بمطالب خططه التنموية ومشاريعه الإصلاحية ، من المتخصصين والمهرة في كافة المجالات ، فإن حركة التنمية التي تشهدها أمتنا الإسلامية ، في الوقت الحاضر ، تتطلب أن نعيد النظر في أنظمتنا التربوية من حيث محتواها ومناهجها وأهدافها وطرق التدريس فيها ، ووسائلها في تقويم أعمال التلاميذ ، ونظمها في القبول وتوزيع التلاميذ على أنواع التعليم المختلفة وفي أنماطها الإدارية والإشرافية وفي مصادر تمويلها وما إلى ذلك من العوامل التي تؤثر في العملية التعليمية وتجعلها أكثر فاعلية وأكثر قدرة على الوفاء بمطالب خطط التنمية ومشاريعها .

والجدير بالذكر أن التربية من أهم وسائل التنمية ، لأنها تمدها بأغلى وأهم عناصرها ، وأعني به العنصر الإنساني البشري . وليست تنمية الإنسان المسلم وسيلة وحسب لدوره الفعال في معركة التنمية ، وإنما تنمية الإنسان المسلم إنما هي غاية في حد ذاتها ، لأن الواجب الإسلامي يقتضي منا أن نكرس الجهود لغرس قيم الحق والخير والصلاح والتقوى والورع في حس المواطن المسلم وعقله ووجدانه ، وأن نغرس فيه الإيمان الصادق المقترن بالعمل الصالح . وعلى ذلك فيمكن اقتراح المبادئ الآتية لتكون الأساس للتربية الصالحة لعصر التنمية .

مبادئ التربية التنموية أو الإنمائية :

١ ـ لابد من الاهتمام بالطفل ونموه الجسمي والعقلي والخلقي والاجتماعي ومن ذلك العمل على صقل مواهبه وتنمية ذكائه .

٢ ـ ويتطلب إعداد المعلم المسلم أن يلم إلماماً علمياً بالظروف النفسية للطفل ، وأن يعرف حاجاته ودوافعه وقدراته ، ومستوى ذكائه والمشاكل التي يعاني منها .. إلخ . ولا يكفي أن يكون ملماً بالمادة العلمية ، بل لابد من الإلمام بعلم نفس الطفل أو علم نفس النمو .

٣ ـ لابد من احترام شخصية الطفل وإشعاره بالأمن والأمان والطمأنينة ، وبث الثقة في نفسه ، وتمكينه من التعبير عن ذاته بمختلف أنواع التعبير ، وذلك حتى لا تكبت مشاعر الطفل ، وتصاب شخصيته بالضعف والوهن ، بل لابد من إتاحة الفرصة أمام الطفل لتنمية إرادته الحرة . ومن هنا فلا يفرض عليه المعلم إرادته هو ، ذلك لأن لكل جيل عصره وظروفه ومطالبه ، ولذا كانت ضرورة الاهتمام بتوفير فرص التعبير الحر أمام الطلاب ، في ظل التربية الإنمائية المنشودة ، من خلال الرسم والأشغال واللعب والرحلات والجمعيات الطلابية . ولا يفهم من هذه الدعوة الحرية المطلقة ، بل الحرية في ضوء احترام النظام والقانون والخضوع للإشراف والتوجيه والوعظ والإرشاد أي الحرية المقيدة بالصالح العام وبالقانون .

٤ ـ لا بد وأن تعتمد التربية الإنمائية على تشجيع النشاط الذاتي للطلاب ، من خلال التجربة والممارسة سواء في مجالات العمل أو اللعب .

٥ ـ يجب أن تصبح المدرسة ، في ظل عصر التنمية ، صورة صادقة من الحياة خارج جدرانها ، وعلى ذلك تتيح لتلاميذها فرص التعلم والاكتساب ، عن طريق الخبرة الشخصية ، وتشجيع التلميذ على الاعتماد على نفسه في تحصيل العلم والمعرفة وفي نماء شخصيته .

٦ ـ يجب أن تقوم الحياة المدرسية على أساس تنمية روح التعاون مع الجماعة ، وذلك عن طريق تشجيع النشاط التعاوني بين الطلاب ، وبينهم وبين الإدارة المدرسية .

٧ ـ يجب أن يسود المدرسة الجو الاجتماعي الصالح بحيث يسود العلاقة بين التلميذ وزملائه روح الاحترام المتبادل ، والأخذ والعطاء ، ومعرفة الحقوق والواجبات ، والالتزام بالقوانين واللوائح ، وذلك من خلال نشاط الجمعيات والأندية كجماعة الكشافة والجوالة .

٨ ـ يجب أن تهتم المدرسة بالصحة الجسمية والعقلية لتلاميذها . وهنا يلزم توفير فرص التدريبات والتمرينات ، كما يلزم توفير الغذاء وأساليب العلاج والوقاية ، كما يلزم تحرير الطفل مما قد يصيبه من العقد والأمراض النفسية .

٩ ـ ينبغي أن يتحقق التعاون الكامل بين الأسرة المسلمة والمدرسة المسلمة في تربية الطفل وحل مشاكله أولاً بأول[٩] استرشاداً بمبادئ إسلامنا الحنيف .

١٠ ـ يجب أن يكون من بين وظائف المدرسة الحديثة نقل التراث الإسلامي ، وكافة مظاهر الحضارة الإسلامية للأجيال الصاعدة ، ذلك لأن من لا ماضي له فلا حاضر له . وعلى المدرسة أن تتوخى في هذا النقل الأمانة والصدق . وإلى جانب هذا التراث عليها أن تعمل على تعريف الطلاب بالعناصر الصالحة فقط من التراث العلمي والتقني للعصر الحديث ، حتى يمكن الاستفادة من علوم هذا العصر ومنجزاته ، والاستفادة من خبرات الأجيال السابقة إذ لا يمكن الاعتماد على الخبرة المباشرة في جميع مظاهر حياتنا الصناعية والزراعية والطبية والثقافية وما إلى ذلك . ومن وظائف المدرسة حفظ التراث وتطويره إلى الأحسن دائماً[١٠] .

١١ ـ لما كانت التنمية عبارة عن حركة نحو التقدم بمظاهر الحياة في المجتمع ، فإن المدرسة اللازمة لهذا المجتمع هي « المدرسة التقدمية » وهي التي تعد البيئة المناسبة ، وتعتمد على نشاط التلميذ وتوفر له المشكلات التي تستثير ذكاءه لحلها وتقوم المدرسة بتشجيعه وتوجيهه نحو الأصلح .

١٢ ـ وعلى المدرسة ، الصالحة لمجتمع التنمية ، أن تحتفظ بالتراث ، وأن تسجل المنجزات الجديدة حتى يكون التراث الحضاري المتراكم تحت يد الأجيال القادمة للاستفادة منه .

١٣ ـ ومن مهام المدرسة ، المنشودة ، تبسيط الحقائق وعرضها للتلاميذ بالتدريج ، لأن الحضارة العلمية عبارة عن كل مركب ومعقد ، ولابد من تبسيطه حتى يتمكن التلميذ من فهمه واستيعابه . ومن هنا يلزم أن تعمل على تفهيم النشء النظم والقواعد والقوانين والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع .

١٤ ـ على الرغم من أن مجتمع المدرسة ينبغي أن يحاكي المجتمع الخارجي ليسهل على الطلاب التكيف معه فيما بعد ، إلا أن المدرسة لا تنقل التراث كما هو بل عليها أن تغربله وتعمل على تنقيته من الشوائب ومن الخرافات والأباطيل ومن المفاسد الأخلاقية ومظاهر الشعوذة والتأخر ليكون الطالب ، فيما بعد ، عوناً للمجتمع في مقاومة هذه الأباطيل وتلك الخرافات والتقاليد الفاسدة ، ويعمل على انتشار العادات الطيبة التي تشربها في المدرسة . ولذلك يراعى القواعد الصحية ويسير وفقاً للنهج التعاوني . ومن هنا كانت « المدرسة التنموية » وسيلة في تخليص المجتمع من العيوب وإذكاء المحاسن والفضائل .

١٥ ـ من مهام المدرسة ، المنشودة ، إيجاد التقارب الفكري والثقافي بين طلابها . فالمدرسة تستقبل طلابها ولكل منهم ثقافته وعاداته الخاصة ، وعلى المدرسة أن تحقق التوحد والتجانس الفكري بين طلابها .

١٦ ـ وتحقيقاً لهذه الوحدة الفكرية والثقافية ، يتعين توحيد المناهج الدراسية في البلاد الإسلامية

لتكون المدرسة أداة وصل واتصال وانسجام ووئام وتجانس واتحاد ، لتكون أداة المجتمع في القضاء على النزعات الطائفية والجماعات المنطوية ، أو المنعزلة ، فيشعر الطلاب بوحدة الأصل ، والمصير المشترك ، ووحدة الآلام والآمال ، والتاريخ المشترك .

١٧ ـ لما كانت التنمية تعتمد على سواعد قوية وعقول ناضجة ، فإن الصحة المدرسية عليها واجب مهم وهو المحافظة على صحة التلاميذ . وقاية وعلاجاً ، ونشر الوعي الصحي بينهم ، ذلك لأن العقل السليم في الجسم السليم .

١٨ ـ تعمل المدرسة على تنمية روح الإيثار وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

١٩ ـ على المدرسة أن تحرص على تنمية سمات المواطن الصالح في طلابها ، وهو المواطن المؤمن بربه وعقيدته الإسلامية السمحة ، والذي يتحمل المسؤولية ، ويرغب في التضحية ، ويؤدي ما عليه من واجبات ، ويؤمن بالفضيلة قولاً وفعلاً .

٢٠ ـ ولكي تقوم المدرسة بواجبها نحو التنمية ينبغي أن تكون هي نفسها بيئة مشبعة بالعواطف والمشاعر والخصال الحميدة ، والتفاهم بين الطلاب والإدارة[١١] .

٢١ ـ يجب أن توثق المدرسة من علاقتها ومظاهر تعاونها مع البيت ، بحيث تسهم في علاج ما يوجد في البيت من مشكلات .

٢٢ ـ يجب أن تفتح المدرسة ذراعيها وأبوابها على مصارعها للبيئة المحلية ، بحيث يستفيد أبناء المجتمع المحلي مما بها من أجهزة ومعدات ومعامل ومختبرات وورش وكتب ومكتبات ، وبحيث تصبح المدرسة بحق ، مصدراً للإشعاع الثقافي والتنوير الحضاري في المجتمع الذي توجد به .

٢٣ ـ عليها أن تستقدم الخبراء ورجال الاختصاص بالمنطقة لكي يتحدثوا إلى طلابها ، كل في مجال تخصصه ، كما يخرج معلموها إلى البيئة الخارجية لإلقاء الدروس أو المحاضرات أو إعطاء التمارين والتدريبات[١٢] .

٢٤ ـ يجب أن تعدل المدرسة من طرائقها في التدريس ، بحيث يتضح في ذهن الطلاب الغرض من كل ما يتعلمونه ، وبحيث يصبح له وظيفة في حياتهم وفي حياة المجتمع .

٢٥ ـ يجب أن تنقى المدرسة وتغربل مناهجها وتخلصها مما بها من الحشو الزائد والمعلومات عديمة النفع مع الاهتمام بتعليم الطالب كيف يتعلم ، فالمادة العلمية ليست هدفاً في ذاتها ، وإنما المهم هو تنمية قدرات الطلاب وصقل مواهبهم وتعديل اتجاهاتهم .

٢٦ ـ على المدرسة ، التنموية ، أن تؤمن قولاً وفعلاً ، بوجود الفروق الفردية بين طلابها . والحقيقة أنه لا يوجد شخصان يتشابهان تماماً . فالطلاب ليسوا نسخة واحدة ، ولا صورة واحدة ، وإنما هم يختلفون في كم وكيف ما يمتلكون من الذكاء والقدرات والاستعدادات والميول والمهارات والسمات

والأهداف والظروف ، وعلى ذلك يجب أن تتنوع المناهج الدراسية في مستوى صعوبتها ، وأن ينوع المعلم من طرائق تدريسه .

٢٧ ـ إن مدرسة تعمل في مجتمع يسعى للنمو ، لابد وأن تؤمن بقيمة الوقت ، وبمبدأ قصر الحياة ، وعلى ذلك تساعد طلابها على الاستثمار الأمثل لوقتهم ، وأن تنتقي العناصر الصالحة من المعارف والمعلومات المتراكمة ، فتعليم الطالب لا يمكن أن يتناول كل شيء ، وإنما لابد أن يكون انتقائيا .

٢٩ ـ لما كانت عمليات التنمية تعتمد على تطبيق الحقائق والنظريات العلمية ومكتشفات العلم ومنجزاته ، فإن المدرسة مدعوة لتدريب طلابها على تطبيق هذه المعارف .

٢٩ ـ وحيث أن العمليات التنموية ، في جوهرها ، إن هي إلا تصدياً لمشاكل كبرى تواجه المجتمع ، وعلى ذلك فينبغي أن تنمي المدرسة في تلاميذها القدرة على حل المشاكل ، وفقاً للأسلوب العلمي[١٣] .

ولقد حدد جون ديوي المشكلة « بأنها حيرة وشك وتردد تتطلب بحثاً أو عملاً يجري لاستكشاف الحقائق التي تساعد على الوصول إلى الحل[١٤] .

ويحدد جون ديوي في كتابه « كيف نفكر » الخطوات التي يمر بها الفرد حين تجابهه مشكلة ما يعكف على حلها :

١ ـ الشعور بالمشكلة أي شعوره بوجود مشكلة أمامه .
٢ ـ تحديد المشكلة ، أي وصفها وتحديد معالمها والتعرف على ماهيتها .
٣ ـ افتراض الحلول المحتملة ، أي وضع الحلول المبدئية التي يحتمل أن تكون حلولاً نهائية .
٤ ـ اختبار صحة هذه الفروض ، وذلك عن طريق جمع الأدلة والبراهين .
٥ ـ إصدار الحكم أو اتخاذ القرار .

وتعتمد التربية الجيدة على الاستعانة بوسائل الإيضاح السمعية والبصرية ومنها :

أولاً :

١ ـ ذوات الأشياء المراد توضيحها حية أو محنطة .
٢ ـ نماذج الأشياء .
٣ ـ الصور الشمسية أو الجغرافية أو غيرها .
٤ ـ رسوم الأشياء أو رسوم بعض أجزائها .
٥ ـ الرسوم البيانية والأشكال التوضيحية .
٦ ـ الشرائح .
٧ ـ الدوائر التليفزيونية .

ثانياً : وسائل إيضاح متعلقة بالشرح وتشمل :

١ ـ القصــص .
٢ ـ الشــرح .
٣ ـ التجارب العملية .

ثالثاً : وسائل إيضاح تخرج عن نطاق المدرسة وهذه تشمل :

١ ـ الرحلات المدرسية .
٢ ـ السينمـا .
٣ ـ الإذاعة اللاسلكية[١٥] .

٣٠ ـ تهتم « تربية التنمية » بصقل قدرات الإنسان ، وتنمية قدراته العقلية والجسمية ، ومهاراته ، واستعداداته ، وميوله ، وسماته ، وخصاله الطيبة . وعلى ذلك تزداد كفاءته الإنتاجية ، وفاعليته ، وإسهامه ، ومشاركته في حياة المجتمع ، ويزداد عطاؤه ، سواء كان في شكل خدمات أو سلع أو إدارة وإشراف ، وتخطيط وتصميم وابتكار .

٣١ ـ الإيمان بقيمة العمل كواجب وكحق وكهواية نافعة ، ومن ثم حب العمل ، ونبذ الكسل والتراخي والاتكالية والاعتماد على الغير ، واحترام العمل ، مهما كان نوعه ، وتقديره وممارسته بإخلاص وإتقان .

٣٢ ـ على التربية أن تحسن تنمية الهوايات النافعة في أبنائها بما يضيف إلى الخير العام ، كتربية النحل ، أو دودة القز ، أو تربية الأسماك والطيور والدواجن أو زراعة البساتين والزهور أو حب القراءة والاطلاع والرحلات أو أشغال الأبرة والحياكة ... إلخ .

٣٣ ـ الاهتمام بالتعليم المهني الزراعي والصناعي والتجاري ، وتطوير مناهجه بحيث تتناول المهن الحديثة ، واستخدام التكنولوجيا والآلات الحديثة ، والاهتمام بالصناعات الدقيقة ، والوظائف الجديدة في المجتمع كالالكترونيات والأجهزة الحاسبة وما إلى ذلك .

٣٤ ـ تشجيع الأجيال الصاعدة على الانخراط في الأعمال اليدوية والحرفية ، وعدم احتقارها ، وغرس الاعتقاد بأنها لا تقل قدراً ولا شرفاً عن الأعمال المكتبية أو الذهنية . ويتطلب ذلك أن تتوسع التربية في إعداد العمال والصناع المهرة ، وتهتم في إعدادهم برفع مستواهم الثقافي والمعرفي ، إلى جانب تزويدهم بالمهارات الحرفية الدقيقة ، حتى لا يشعروا بفقدان الثقة بالذات أو النقص والدونية .

٣٥ ـ على التربية أن تشجع أبناءها على العمل في المشاريع الإنتاجية والعمرانية مهما كانت بعيدة عن العمران ، وأن تحبب إلى نفوسهم العمل بالصحارى ، وفي المناطق النائية وفي المجتمعات الجديدة .

٣٦ ـ يجب أن تقوم المؤسسات التعليمية بتعريف تلاميذها بخطط التنمية ومشاريعها ، وأن تغرس فيهم الإيمان بجدوى هذه المشاريع ، وتقدير الجهود المبذولة فيها ، ومن ثم دعوتهم للاشتراك فيها .

٣٧ ـ يجب أن تربي المدرسة أبناءها على الحياة الجادة وتحمل المسؤولية ، وذلك لأن خطط التنمية تحتاج إلى النمط الجاد من الشباب .

٣٨ ـ لما كانت مشاريع التنمية تعتمد على المنهج العلمي ، فإن المدرسة مدعوة لتدعيم الاتجاه العلمي في أذهان طلابها ، والتمرس على ممارسة الأسلوب العلمي في تفكيرهم ، وبمختلف ألوان نشاطهم ، وبذلك ينبذون كل ألوان الخرافة ورواسب الشعوذة مع الالتزام بالحقائق العلمية والموضوعية .

٣٩ ـ لما كان المال أحد مقومات الخطط التنموية ، ولذلك فإن المدرسة مدعوة لكي تربي أبناءها على حب الادخار والاقتصاد في النفقات ، واستثمار ما لديهم من أموال ، أو ما سيكون في أيديهم من أموال من المشاريع العمرانية والإنتاجية ، مهما كانت هذه المشاريع بسيطة ، فإن لها قيمتها في ارتفاع الدخل الوطني . وعلى ذلك يتعلم الطالب ألا ينفق ماله إلا فيما هو ضروري ونافع ، وأن يلتزم الاعتدال والتوسط .

٤٠ ـ يتوقف الرخاء الاقتصادي والرفاهة الاجتماعية على وفرة الإنتاج وتحسين جودته ، وعلى ذلك ، فإن المدرسة الإسلامية المنشودة يتعين عليها أن تنمي في طلابها حب إتقان العمل والتفاني فيه ، وتحسين مستوى جودته باستمرار ، بحيث تقوى منتجاتنا على المنافسة في الأسواق العالمية .

٤١ ـ يجب أن تجعل المدرسة التلميذ شخصاً منتجاً أكثر من كونه مستهلكاً ، ومعنى ذلك أن يزيد إنتاجه عن استهلاكه ، ومؤدى ذلك أن تعمل على ترشيد استهلاك الطلاب من السلع والخدمات وترشيد الطاقات .

٤٢ ـ يجب أن تحسن المدرسة استغلال أوقات الفراغ لدى طلابها ، بحيث يستفيدون منه في صقل مواهبهم ، وتنمية قدراتهم ومعارفهم ، أو في دخلهم وتحسين مستوى أسرهم .

٤٣ ـ لابد من تربية الفرد على الإيجابية ونبذ السلبية ، لأن مشاريع التنمية لا يمكن أن تؤتي ثمارها إذا وقف الناس موقف المتفرج حيالها .

٤٤ ـ يجب أن تغرس فيهم الشعور القوي بالانتماء للمجتمع ، لما لهذا الشعور من أهمية في دفع الفرد نحو الإتيان بكل ما يؤدي إلى سعادة المجتمع ورخائه وازدهاره ورفاهته .

٤٥ ـ لما كانت مشاريع التنمية تعتمد اعتماداً كلياً على القيم الخلقية وعلى ضمائر القائمين على تنفيذها ، فإن المدرسة الإسلامية مدعوة للاهتمام بالتربية الأخلاقية لطلابها ، وغرس قيم الفضيلة والعفة والنزاهة والأمانة والصدق والوفاء والإخلاص والشعور بالواجب ... وما إلى ذلك من القيم الأصيلة التي يزخر بها إسلامنا الحنيف .

٤٦ ـ يجب أن تحرص المناهج الدراسية على إبراز ما يوجد في باطن أرضنا من خيرات ، وما يوجد في مياهنا من أسماك ، وتعريف الطلاب بالمجالات الجديدة التي يمكن استغلالها واستثمارها ، ويتطلب ذلك العناية بالمناهج الجغرافية والموارد الزراعية والمعدنية والسياحية ، والمجالات التي يمكن إقامة المشاريع الجديدة فهيا ، حتى يكون للمواطن العادي نصيب في القيام بمثل هذه المشاريع .

٤٧ ـ يجب أن تحيط المدرسة تلاميذها علماً بأساليب زيادة الإنتاج التي يمكن أن تتم على المستوى الرأسي وتلك التي تتم على المستوى الأفقي ، وذلك لتنمية الوعي التنموي في عقولهم وتعريفهم بأساليب التنمية ومتطلباتها وعناصرها .

٤٨ ـ عدم احتقار الأعمال اليدوية كما كانت تذهب إلى ذلك المدرسة الأفلاطونية التي كانت تعتبر العمل اليدوي من اختصاص العبيد وحدهم ، أما « السادة » فيعملون في الأعمال العقلية[١٦] .

٤٩ ـ لابد من الاهتمام بضعاف العقول وإعدادهم وتأهيلهم للاستفادة منهم في مجالات العمل المختلفة بدلاً من أن يظلوا عالة على المجتمع وعلى أسرهم .

٥٠ ـ ضرورة الاهتمام بالعلوم الإنسانية ، بإدخالها ضمن مقررات الدراسة بالمعاهد والكليات العلمية والصناعية ، لتخريج المواطن الماهر والمثقف أيضاً .

٥١ ـ يجب أن توائم المؤسسات التعليمية مناهجها مع ظروف البيئات المحلية .

٥٢ ـ ضرورة العمل على محو أمية من تخلفوا عن ركب التعليم من الإناث والذكور .

٥٣ ـ يجب أن تدرب المدرسة طلابها على كبح جماح الذات والسيطرة عليها .

٥٤ ـ يجب أن تهتم المدرسة اهتماماً كبيراً بتنمية القيم الخلقية لدى طلابها .

٥٥ ـ على المدرسة أن توفر لطلابها القدوة الحسنة والمثال الطيب الذي يقتدون به .

٥٦ ـ لا ينبغي أن تمارس المدرسة أي لون من ألوان العقاب البدني على تلاميذها .

٥٧ ـ يتعين على المدرسة أن تنمي روح الجماعة في نفوس طلابها .

٥٨ ـ يجب أن تتناسب المادة الدراسية ، في كمها وكيفها ، مع المستوى الذهني للطالب .

٥٩ ـ يجب أن تعمل المدرسة على تنمية الشعور الجمالي بين طلابها واستحسان المظاهر الجمالية .

٦٠ ـ يجب أن تعمل المدرسة على تنمية النشاط الابتكاري عند الطلاب .

٦١ ـ ينبغي أن تكون عملية تقويم أعمال الطلاب مستمرة ومتصلة ، وأن تعتمد على الأساليب الموضوعية في القياس ، وأن تبتعد عن أساليب الامتحانات التقليدية ، حتى تتمكن من تقدير جهود الطالب تقديراً عادلاً .

٦٢ ـ ينبغي أن يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص أمام جميع الطلاب في المجالات التعليمية والمهنية .

الاهتمام بالبحث العلمي :

لا شك أننا في عصر الاعتماد على العلم والبحث العلمي في تطوير المجتمعات « في هذه المرحلة من تطور العلم والصناعة والآلة ، يجأر مطلب أساسي غدا في نظر العلماء والباحثين وسائر قادة المجتمع المعبّر العميق عن روح العصر ومستلزماته ، نعني به البحث العلمي . وغني عن القول أن هذا البحث العلمي الدائب يأخذ اليوم أبعاداً واسعة في ميدان التقدم التقني في شتى مجالات الحياة الاقتصادية ، من زراعية وصناعية وتجارية ، وإذا كان التطور التقني هو السمة المميزة لعصرنا ، بل هو أداة التقدم ومعياره ، ومقياس النمو الاقتصادي والاجتماعي في أي بلد ، فلابد أن نضيف إلى ذلك أن البحث العلمي هو محرك هذا التطور وباعثه ورائد خطواته ، وهو الذي يستخلص منه أقصى مداه ويدفعه إلى مزيد من العطاء »[١٧] .

ولذلك فقد أصبح السباق الحقيقي بين المجتمعات سباقاً في مجال البحث العلمي ، سواء اتصل ذلك بالأرض أو بالفضاء أو بالذرة أو القمح . ولقد غدت الدول المتقدمة تخصص نسبة كبيرة من دخلها القومي لأغراض البحث العلمي ، فقد خصصت الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦٤م نسبة مئوية ٣,٧ من جملة دخلها القومي لأغراض البحث العلمي ، بينما خصصت بريطانيا ٢,٧٪ . وتحظى هذه الدول بعائدات اقتصادية هائلة من وراء البحث العلمي ، وعلى سبيل المثال ، فلقد كان عائد الأموال التي خصصت ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، على أبحاث الذرة الهجنية ٧٠٠٪ .[١٨] فما ينفق على البحث العلمي من مال إنما هو من قبيل الاستثمار الجيد .

ولذلك فإننا نحتاج في عالمنا الإسلامي إلى ثورة تربوية لاستخدام المبتكرات والتجديدات ونتائج التطور العلمي ، لتكون في خدمة المشكلات التربوية المتمثلة في زيادة أعداد المقبلين على التعليم .

أزمة التربية المعاصرة ومشاكلها :

يرى كثير من المفكرين أن التربية المعاصرة تعيش أزمة تفوق في حدتها أزمة الطعام أو الطاقة ، والأزمات السياسية والعسكرية ، وإن بدت في مظهرها أقل خطراً وجذباً للانتباه[١٩] ، وذلك على الرغم من التوسع الكبير في التعليم في مختلف دول العالم ، وعلى الرغم من تطور طرق التدريس ، وتكديس المؤلفات والأبحاث التي تعالج قضايا التربية . وأزمة التعليم ، وإن اختلفت في شكلها وحدتها من مجتمع إلى آخر ، تظهر آثارها على كل الشعوب .

وأزمة التعليم المعاصر تختلف في شكلها وحدتها من دولة إلى أخرى ، إلا أن آثارها تنعكس بوضوح على كل الشعوب ، مهما تباينت ظروفها من فقر أو غنى ، ومن عراقة أو حداثة ، ومهما كانت تلك الشعوب تتمتع بنظم تعليمية ثابتة أو تكافح من أجل تأسيس نظمها التعليمية كفاحاً قد يضطرها ، أحياناً ، إلى أن تتحمل ما لا قِبل لها به ، أو أن تقتطع من لقمة العيش التي تقيم أود أبنائها[٢٠] .
ولكن فيم تبدو هذه الأزمة ؟

يرى بعض المفكرين أن هذه الأزمة ، تتمثل في تزايد عدد الأميين البالغين في العالم نتيجة للانفجار السكاني ، أو نتيجة للعجز المالي عن مسايرة التوسع في التعليم لنمو السكان . وتتمثل هذه المشكلة ، في نظر البعض ، في انخفاض مستوى التعليم ، ومستوى خريجيه ، ولكن هذه الأزمة تتمثل في حقيقة الأمر في إهمال الجانب الخلقي والروحي والديني من التربية ، وكما يرى البعض ، فإن هذه الأزمة « تنعكس بوضوح أكثر في الزيادة المضطرة لنوازع الشر في الإنسان المتعلم ، وميله إلى العنف ، وفي فساد مجتمعاته وخلوها من الثقافة ، وفي تحلله الأخلاقي ، وفشله في حمل رسالته في هذه الحياة كإنسان ، وهذه سمات أصبحت تميز عصرنا بصفة عامة ، وتميز الإنسان المتعلم والمجتمعات التي تدعي أنها متحضرة بصفة خاصة[٢١] .

والحقيقة أن هذا التحلل الأخلاقي ليس إلا نتيجة لفشل التربية ، ذلك الفشل الذي يتأتى من إهمالها للقيم الإسلامية الأصلية . ولا شك أنه من جراء هذا الفشل التربوي انتشار الأمراض والعقد والأزمات النفسية بين الشباب ، وكذلك ليست حالات الحيرة والكبت والضياع والأنانية والعنف إلا مظهراً من مظاهر هذا الفشل . وليست الجماعات الشاذة المنتشرة في أوروبا كالخنافس ، والهيبز ، وجماعات إدمان الخمور والمخدرات ، وتسيب المرأة إلا مظهراً من مظاهر هذا الفشل الناجم بدوره عن الابتعاد عن التعاليم الدينية والتمسك بها .

وكان من نتائج فشل المؤسسات التربوية أن أصبح الحصول على المؤهل هو الغاية القصوى لدى الشباب . وإذا فسدت التربية فقد فسدت كافة مجالات الحياة الأخرى كالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها ، لأن التربية هي التي تمد هذه المؤسسات بالعناصر البشرية الصالحة أو الفاسدة . وكان من جراء الابتعاد عن قيم الدين وتعاليمه أن انتشرت الأنانية ، والنفعية ، والتسيب ، والتعدي على حقوق الغير ، والوصولية ، والانتهازية ، والمناورات اللاخلاقية ، وأصبحت الغاية تبرر الوسيلة . ومرد ذلك كله خلو التعليم المعاصر ، في البلدان الأوروبية ، من التربية الروحية ، واقتصاره على الاهتمام بالقدرات المادية ، الأمر الذي أخرج الإنسان عن الفطرة الإنسانية السليمة المتزنة بين المادة والروح[٢٢] . وبذلك يصبح الإنسان ، بهذه الحالة ، خطراً على نفسه وعلى الحياة كلها ، وليس أدل على ذلك من تكدس مخزون الأسلحة الذرية والهيدروجينية والنتروجينية والكيميائية والجرثومية[٢٣] . ومن سباق الإنسان « المتعلم » في معركة الموت والدمار . وغير ذلك من وسائل الدمار ، التي تكفي لتدمير كافة المنجزات الحضارية على هذا الكوكب . ويكفي أن نتأمل الجرائم التي اقترفها الإنسان « المتعلم » ضد أخيه

الإنسان . فلقد سقط ٥٥ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية ، ويكفي أن نتأمل ما ترويه مأساة شعب فلسطين الشقيق ، والمآسي التي خلفتها قنبلة هيروشيما ونجازاكي وغير ذلك من المجازر البشرية التي نشهدها في هذه الأيام ، ومظاهر التعصب والتمييز العنصري البغيض .

وهناك من يرجع أزمة التعليم إلى فساد النظم التعليمية نفسها التي أصبحت ، في نظرهم ، نظماً تقليدية تتطلب ضرورة إعادة النظر . ويرجعها البعض إلى فقدان القدوة الحسنة في محيط التعليم الناتج من ضعف العقيدة ، وهناك من يرى أن الأزمة ، في جوهرها ، أزمة نفسية تتمثل في الفشل في الفهم الصائب للطبيعة البشرية وفطرة الإنسان . أما الأسباب الحقيقية فتكمن في فقدان التربية للقيم الخلقية وبعد المجتمعات المعاصرة عن الدين[٢٤] الذي هو خير عاصم من الزلل ■

● الهوامش ●

(١) د . عبد العزيز عبد الله الجلال ، تربية اليسر وتخلف التمية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٤٠٥هـ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق (ص١٥) .
(٥) د . عبد العزيز عبد الله الجلال ، تربية اليسر وتخلف التمية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٤٠٥هـ .
(٦) عبد الوهاب أحمد عبد الواسع ، التعليم في المملكة العربية السعودية بين واقع حاضره واستشراق مستقبله ، الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٣هـ ـ ص ٢١ .
(٧) المرجع السابق (ص ٢٥) .
(٨) المرجع السابق (ص ٣١) .
(٩) صالح عبد العزيز ، عبد العزيز عبد المجيد ، التربية وطرق التدريس ، الجزء الأول ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة عشر ، ١٩٨٢م (ص ٦٤) .
(١٠) المرجع السابق (ص ٨٠) .
(١١) صالح عبد العزيز ص ٨٣ .
(١٢) صالح عبد العزيز ص ٨٣ .
(١٣) صالح عبد العزيز ص ١٩٢ .
(١٤) المرجع السابق ص ٢١٨ .
(١٥) صالح عبد العزيز ص ٢٨٤ .
(١٦) صالح عبد العزيز جـ ٢ ـ ص ٢١١ .
(١٧) د . عبد الله عبد الدائم ، التربية التجريبية والبحث التربوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٥ .
(١٨) المرجع السابق ص ٦ .
(١٩) د . زغلول راغب محمد النجار ، أزمة التعليم المعاصر ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٠هـ ص ٩ .
(٢٠) المرجع السابق ص ٩ .
(٢١) المرجع السابق ص ١٠ .
(٢٢) المرجع السابق ص ١١ .
(٢٣) المرجع السابق ص ١١ .
(٢٤) المرجع السابق ص ١٧ .

علوم وفنون



● مسجد صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز «الدار البيضاء ـ المغرب» ●

مصطفى أمين جاهين



المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي

وضعية المجموعات وآفاق البحث



مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود
للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية

ندوة

المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي:
وضعية المجموعات وآفاق البحث

أيام 19، 20 و21 شعبان 1408
موافق
7،6،5 أبريل 1988

بمشاركة عدد من الباحثين والمختصين
من المغرب والمشرق العربيين وأوروبا
وأمريكا الشمالية

• الأستاذ محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية بالمغرب يفتتح الندوة •

تم افتتاح ندوة المخطوطات في الغرب الإسلامي بكلمة السيد محمد بن عيسى وزير الثقافة الذي أكّد ضرورة توجيه الاهتمام الأكبر للعناية بخطط التراث المخطوط في المغرب . كما نوه بدور الوزارة في هذا الشأن رغم الإمكانات المحدودة التي تتوفر لديها . وركز السيد الوزير على الأشواط البعيدة التي قطعتها الشقيقة تونس في مجال الاهتمام بالمخطوطات ودعا دول المغرب العربي إلى خلق تعاون بينها في هذا المجال كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية على الصعيد الفكري وبالتالي التمهيد إلى تحقيق وحدة شاملة .

أشارت الكلمة إلى أن هذه الندوة خطوة أولى في إطار برنامج يرمي إلى تنظيم لقاءات دورية تسلط الأضواء على مخطوطات غير منشورة على الرغم من أنها تُعَدُّ من أمهات المراجع في التاريخ الإسلامي .

أما كلمة السيد إدريس السلاوي المتصرف ، المنتدب لمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، والتي ألقاها بالنيابة عنه السيد عبده الفيلالي الأنصاري

● جانب من المشاركين في الندوة ●



● جانب من المشاركين في الندوة ●

مدير المؤسسة ، فقد تركزت حول أهمية التراث المخطوط رغم ضياع الكثير منه وضرورة فهرسته وتحقيقه ونشره ، وذلك لتعميم الاستفادة منه .

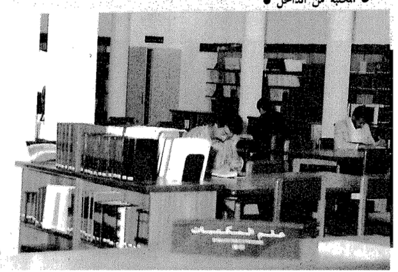
وقد ترأس الجلسة الأولى من الندوة الأستاذ محمد حجي الذي ألقى تقريراً تمهيدياً ركز فيه على ثروة العالم الإسلامي في مجال المخطوطات خاصة وأن إسهامات المسلمين على الصعيد العالمي تميزت بالخلق والإبداع الذي أعطى تراثاً عربياً ضخماً استفادت منه الحضارة الإنسانية .

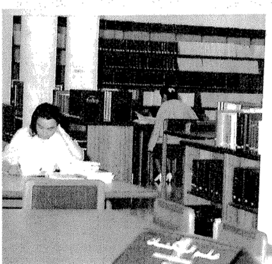
وختم الأستاذ محمد حجي كلمته متمنياً أن تكون هذه الندوة فرصة لطرح قضايا التراث المخطوط وإفساح مجال الحوار بين الباحثين الذين قدموا من بلدان مختلفة .

واستهلت الندوة عملها بمناقشة التقارير عن وضع المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي ، وكان أول المتحدثين الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني الذي أعد تقريراً عن وضع المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط التي قطعت أشواطاً واسعة في فهرسة المخطوطات .

أما الدكتور يحيى محمود ساعاتي فقد تناول وضع المخطوطات في المملكة العربية السعودية مبرزاً تجربة هذا البلد المحدودة في هذا المجال ، خاصة وأن معظم المخطوطات بهذا القطر قد تم

● المكتبة من الداخل ●







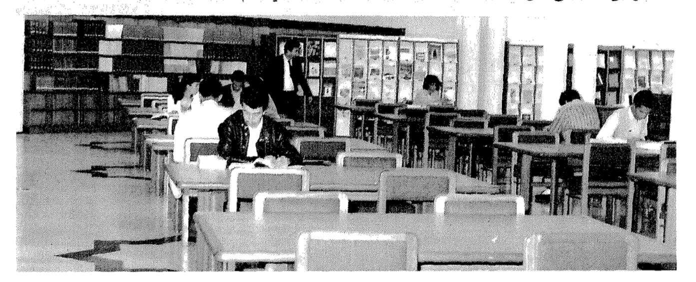
● معالي وزير الشئون الثقافية المغربي يلقي كلمة الافتتاح ●

جمعها من الخارج عن طريق الشراء والاقتناء . كما تناول جانباً آخر يتعلق بجودة الخدمات الخاصة بالمخطوطات كأجهزة الميكروفيلم والاستنساخ والتحميض مع وجود معاناة بسبب قلة المتخصصين والمهتمين بمسألة الترميم وصيانة المخطوطات .

وعن « خزانة القرويين ودورها الإيجابي في حفظ التراث المخطوط » تحدث الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ ليبرز دور هذه الخزانة في حفظ التراث المخطوط ، ودعا إلى تضافر الجهود للعناية بالمخطوطات التي تعرضت للتلاشي وذلك لإخراجها للمهتمين بها ، ثم أعطى نماذج من الكتب الموجودة بالخزانة مفهرسة في فهرس مكون من ثلاثة أجزاء .

ونيابة عن السيد الصديق بلعربي قام السيد أحمد متفكر بإلقاء كلمة حول « وضع المخطوطات العربية بخزانة ابن يوسف بمراكش » فبعد جرد تاريخي لمحتوى الخزانة تعرض المتحدث إلى عملية فهرسة مخطوطات هذه الخزانة ، وأشار إلى الحاجة الماسة إلى وضع فهرس حسب التقنية الحديثة . وفي نهاية كلمته ناشد السيد أحمد متفكر وزارة الثقافة للقيام بصيانة ما بقي من المخطوطات .

وكان آخر المتحدثين هو السيد محمد أبو الأجفان الذي تحدث عن « وضع المخطوطات العربية بتونس » أعطى من خلاله نبذة عن المكتبات التونسية التي تهتم بالتراث المخطوط .



.. ملخص عن حوارات الاجتماع الثاني

ترأس الاجتماع الثاني الخاص بالموضوع الأول الذي كان حول « تقارير عن وضع المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي ، الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي .

وكان أول المتحدثين الأستاذ محمد حجي الذي تطرق في حديثه إلى وضع المخطوطات العربية بالخزانة العلمية الصبيحية بسلا موضحاً الأهمية الكبيرة لهذه الخزانة وللذخائر النفيسة التي تحتوي عليها حيث إنها تشمل مختلف العلوم التي عرفها المسلمون والتي تتميز بطابع علمي محض .

ومن مميزات هذه الخزانة إحتواؤها مؤلفات لعلماء من فاس، وسلا، والرباط وغيرها وتتميز هذه المؤلفات بكونها بخط أصحابها .

وقد أضيفت إلى هذه المخطوطات الأصلية مخطوطات أخرى حبست من طرف محافظها الحاج محمد الصبيحي .

وأهم عمل عرفته هذه الخزانة هو عمل الفهرسة إذ إن المخطوطات التي فهرست في الجزء الأول من فهرس الخزانة صنفت إلى عشرة أصناف نذكر من بينها القرآن وعلومه ، اللغة وقواعدها إلى غير ذلك .

أما الكتب التي يحتوي عليها الجزء الثاني من الفهرس فتتميز من الناحية الجمالية بكونها في غاية الرونق والجمال .

● جانب من المشاركين في الندوة ●



وفي ختام كلمته أشار الأستاذ محمد حجي إلى أهم المخطوطات التي توفرت في الخزانة الصبيحية سواء الأصلية منها أو المصورة .

وفي عرضه حول « وضع المخطوطات العربية في مكتبة الكونجرس » قام السيد جورج عطية بتقديم جرد لأهم المخطوطات العربية التي توفرت في مكتبة الكونجرس ، والتي لم تفهرس بعد وتسعى المكتبة إلى القيام بفهرستها لتكون في متناول الباحثين .

ويرى السيد جورج عطية أنه إذا كانت الأمم الأوروبية سابقة إلى جمع المخطوطات العربية فإن الولايات المتحدة لم تدخل هذا السباق إلا أخيراً وذلك لقلة عدد المهتمين بالدراسات التاريخية ولكن هذا لا يمنع من وجود نفائس مهمة يعود تاريخ بعضها إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

وأخيراً قدم المتحدث مجموعة إحصائيات عن المخطوطات العربية الموجودة في الجامعات الأمريكية .

أما الأستاذة إيفات سوفان فقد سلطت الضوء عن « وضع المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس المقتنيات الأخيرة ، المخطوطات المغربية والأفريقية ، الفهرسة » مبرزةً دور العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا من جهة والمغرب الأقصى والشرق الأوسط من جهة أخرى في إثراء الرصيد الفكري المخطوط الذي تحتوي عليه المكتبة الوطنية بباريس ، يضاف إلى ذلك اهتمام لويس الرابع عشر بشراء عدد من الكتب المتعلقة بالطب والعلوم مما زاد إثراء الخزانة بنصوص فريدة . وبعد ذلك قامت الأستاذة إيفات سوفان بعرض عناوين لأهم المخطوطات العربية الموجودة بهذه الخزانة .

وتركز حديث الأستاذ محمد العرائشي عن « وضع مخطوطات خزانة الجامع الكبير بمكناس » حول خمسة محاور :

١ ـ التعريف بخزانة الجامع .

٢ ـ مخطوطات الخزانة التي يصل عددها إلى ١١ ٥٠٠ مخطوط مكتوب باليد والتي دخلت الخزانة عن طريق التحبيس من طرف الملوك السعديين والعلويين .

٣ ـ عناية ملوك الدولتين السعدية والعلوية بالمخطوطات .

٤ ـ التعريف بنوادر المخطوطات الموجودة بالجامع وأغلبها من المصاحف .

٥ ـ طريقة التعامل مع المخطوطات بما في ذلك الاقتناء والنسخ والإعارة .

وتميزت كلمة الأستاذ ياسين صفدي حول « المخطوطات العربية بالخزانة الوطنية البريطانية » بإعطاء لمحة تاريخية عن المكتبة الوطنية في لندن مشيراً إلى اهتمام البريطانيين بشراء المخطوطات العربية .

وصل عدد المخطوطات العربية بهذه الخزانة إلى حوالي ١٢٠٠٠ مخطوط والتي تعكس بحق الكمال الفني الراقي الذي وصل إليه العرب في الرسم والخط والتصوير ، بالإضافة إلى احتوائها على نوادر نفيسة من بينها أقدم مصحف في العالم .

وكان آخر المتحدثين الأستاذ محمد بن الأمين بوخبزة الذي تطرق في حديثه عن « المخطوطات العربية بالخزانة بتطوان » حيث بلغ مجموع المخطوطات بها إلى ٣٠٠٠ مخطوط . ونظراً لأهميتها فإنها تحتاج إلى عناية أكبر . وذكر السيد بوخبزة بأن الوثائق تكون أعظم رصيد بالخزانة كالوثائق الرسمية للزعيم عبد الكريم الخطابي . كما أعطى عرضاً لمجموعة المخطوطات والنوادر التي تفردت بها الخزانة .

وأخيراً أشاد بالتلاؤم الثقافي الموجود بين المملكة العربية السعودية والمملكة المغربية .

وتلت ذلك مناقشة لجميع العروض ، أثيرت خلالها مشكلة سرقة ونهب المخطوطات العربية . وأعطى السيد محمد طريف السمان مثالاً على ذلك سرقة نابليون لكتب النمسا بمختلف اللغات ، وبعد عهد نابليون طالبت النمسا فرنسا بإعادتها لها . وفعلت ذلك عن طيب خاطر . أما فيما يخص المخطوطات العربية الموجودة بالعالم الغربي من الصعب استرجاعها . وإذا سلمنا باسترجاعها فإن ثمنها باهظ للغاية .

وأثيرت نقطة أخرى وهي عدم السماح بالاطلاع على المخطوطات إذ ضرب عليها حصار أو احتكار مما يجعل الباحثين يعانون الأمرين من أجل الاستفادة منها . وأعطى الأستاذ قاسم السامرائي مثالاً على ذلك ما يحدث في انجلترا من تعصب واحتكار للعلم وطالب بنسخ تلك المخطوطات المحتفظ بها في مكتبات انجلترا وجعلها في متناول الباحث العربي .

وبمناسبة انعقاد هذه الندوة عرضت المكتبة الوطنية الجزائرية نماذج لمخطوطات حُققت ونشرت ليطلع عليها المهتمون .

... الاجتماع الثالث

تحت رئاسة الأستاذ محمد أبو الأجفان ابتدأت الجلسة الثالثة بحديث الأستاذ عصام محمد الشنطي الذي تناول موضوع « المخطوطات العربية : أماكنها ، الاشتغال بها ، فهرستها وتصنيفها » .

وتطرق فيه إلى أن موضوع المخطوطات العربية موضوع حساس ودقيق لما له من علاقة بعقيدتنا الإسلامية وتراثنا الفكري والحضاري .

إلا أن هذا التراث قد عرف تقصيراً في العهود الأخيرة نتيجة التخلف والتدني الذي اتسمت به تلك العهود مع العلم أن أجدادنا راعوا تراثنا المخطوط وأولوه عناية خاصة .

فالعالم العربي يفتقر اليوم لمراكز متخصصة لصيانة وترميم المخطوطات وإلى قوانين تحمي هذه المخطوطات وتحمي تسربها إلى الخارج باعتبارها ثروة قومية مهمة تستوجب الحفاظ عليها ورعايتها .

أما عن عملية فهرسة المخطوطات العربية فقد أكد الأستاذ المحاضر على ضرورة القيام بهذه العملية ــ عملية الفهرسة باعتبارها خطوة أولى تسهم في إعداد تحقيق لهذه المخطوطات .

وفي معرض حديثه عن عملية تحقيق المخطوطات ذكر الأستاذ عصام محمد الشنطي أنه علم ذو أصول وقواعد يحتاج وضعها إلى اتباع منهج من شأنه أن يكشف النقاب عن خبايا المخطوطات .

أما عرض الأستاذ محمود بوعياد والذي تناول وضع المخطوطات العربية بالجزائر « فقد استهله بسرد تاريخي للدول التي تعاقبت على حكم هذا البلد مؤكداً على دورها في تشجيع الثقافة والفكر والذي ترتب عليه تعدد للمراكز الثقافية التي كانت تزخر بمجموعات مهمة من الكتب العربية الإسلامية ، يضاف إلى ذلك كون علماء الجزائر قد اهتموا بالتأليف في مختلف العلوم الإسلامية نذكر منهم على سبيل المثال: الثعالبي، والتنسي وغيرهم كثير، فمجموع هذه العوامل المتضافرة مكنت الجزائر من أن تمتلك عدداً هائلاً من المخطوطات العربية . وللأسف الشديد فقد تعرضت

معظم هذه المخطوطات إلى الضياع لأنها لم تسلم من الهجمة الاستعمارية التي تعرضت لها الجزائر . وما سلم منها إلا ما انتقل إلى كل من تونس والمغرب بعد أن فرّ به أصحابه حفاظاً على عرضهم ودينهم ومكتسباتهم .

وبالرغم من هذه المحن التي عرفتها المخطوطات العربية في الجزائر فإن المكتبات الرسمية وشبه الرسمية ويقصد بها الزوايا وحتى المكتبات الخاصة قد بقيت تحتفظ بآلاف المخطوطات والتي استفاد منها المستشرقون في القرن الماضي ، فقاموا بتحقيق بعضها ونشره ونقله إلى لغتهم إضافة إلى إنجاز فهارس متعددة للتعريف بهذه المخطوطات .

وبعد ذلك تحدث الأستاذ قاسم السامرائي ليسلط الضوء على « مشكلات فهرسة المخطوطات العربية » حيث تناول مسألة فهرسة المخطوطات التي لم تحظ بنفس الاهتمام الذي عرفته فهرسة المطبوعات العربية خاصة وأن طريقة التعامل مع المخطوطات تختلف اختلافاً جذريا عن طريقة التعامل مع المطبوعات ، فالمخطوطات كانت ومازالت تشكل عالماً خاصاً مخالفاً تماماً لعالم المطبوعات ، وخلص إلى أن فهرسة المخطوطات ليست بالعمل الهين فهي فن وصنعة قوامها الهواية وسداها الخبرة والمعرفة الواسعتان . إذ أن عملية الفهرسة لا تخلو من مشاكل نجملها في النقط التالية :

● المكتبة من الداخل ●



ــ ضرورة إعداد المفهرس وذلك عن طريق إنشاء قسم خاص بالمخطوطات شبيه إلى حد ما بقسم المكتبات الذي أنشىء في العديد من الكليات بالعالم العربي .

ــ عدم وجود قواعد عامة وموحدة لفهرسة المخطوطات العربية .

ــ المشاكل التدريبية الفنية التي يعرفها كل من المفهرس والمحقق ، وإمكانات التغلب عليها .

وفي نهاية حديث الأستاذ قاسم السامرائي تقدم باقتراح على السادة الباحثين والأساتذة المهتمين يدعو فيه إلى تشكيل لجنة للنظر في مسألة وضع قواعد موحدة لعملية فهرسة المخطوطات العربية تتولاها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود أو غيرها من المؤسسات الأخرى الموجودة بالعالم العربي .

وفي عرضه حول « تقنيات فهرسة المخطوطات العربية » قام الأستاذ أحمد شوقي بنين بالحديث عن الفهرسة باعتبارها أداة ضرورية فعالة لكل الباحثين في التراث الحضاري لأنها ساعدت وتساعد الإنسان على المحافظة وصيانة تراثه المخطوط .

فقد قام بعض الأوروبيين بفهرسة المخطوطات العربية ، إلا أن تجربتهم أثبتت عدم خبرتهم في هذا الميدان ، فتمت المناداة على أصحابها العرب العارفين بأصولها ، فكان أول المفهرسين العرب للمخطوطات العربية الموجودة بأوروبا من السوريين واللبنانيين .

انتقل المحاضر بعد ذلك إلى الحديث عن بعض التقنيات والعناصر الضرورية للفهرسة والتي نجملها في النقط التالية :

١ ــ سعة اطلاع المفهرس بالخط الذي كتب به المخطوط (مغربي ، شرقي ...) .

٢ ــ طبيعة ونوع الورق المخطوط (عربي ، أوروبي) خاصة وأن المفهرس يخلط في بعض الأحيان بين الورق والجلد والرق .

ــ مهمة المفهرس تسجيل الناسخ وتحديد خط النسخة تحديداً علمياً .

وتقدم الأستاذ بنين باقتراحات نحصرها فيما يلي :

١ ــ العمل على إثارة اهتمام الطلبة الجامعيين بالمخطوطات ضمن برامج الجامعة ومدارس علم المكتبات .

٢ ـ إنشاء معهد للبحث وتأريخ النصوص على مستوى العالم الإسلامي تشرف عليه المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم به قسم خاص لدراسة المخطوطات .

وكان آخر المتحدثين هو الأستاذ محمد طريف السمان الذي تحدث عن « من هو ذلك الذي يشرف على المخطوطات ؟ » موضحاً أن الرغبة في التعامل مع المخطوطات تتطلب مؤهلات علمية وشهادات مدرسية وتدريب عملي مكثف .

فتضافر هذه المعطيات من شأنه أن يساهم في عملية فهرسة المخطوطات التي غالباً ما تبقى على الرفوف بدون فهرسة .

وتقدم الأستاذ المحاضر في نهاية عرضه بمجموعة اقتراحات من بينها :

ـ ضرورة التنظيم والإشراف على الأعمال التقنية (الترقيم والتسجيل ...) .

ـ مراقبة المخطوطات من طرف المسؤول لا المساعدين .

ـ التحذير من نسخ المخطوط بطريقة مباشرة لأن من شأنها أن تحد من عمره وتفقده لونه .

ـ وضع معرض على مستوى الغرب الإسلامي للتعريف بالمخطوطة العربية .

ـ تنشيط وتوسيع البحث في تطور الخط بالغرب الإسلامي للتمكن من التفريق بين الخط المغربي والأندلسي من جهة والمغربي والمشرقي من جهة أخرى .

... الاجتماع الرابع

ترأس الاجتماع الرابع الأستاذ بيتر شورد فان كوننكسفيلد الذي أعطى الكلمة لأول المتحدثين في هذا الاجتماع وهو الأستاذ محمد المنوني الذي أشار في عرضه « سرد لواقع المخطوط من الرحلات المغربية الحجازية » واللذين قاموا بوصف لما رأوه في زياراتهم ؛ وهذه الرحلات مخطوطة وتعتبر كنزاً ثميناً وقام الأستاذ في آخر عرضه بسرد لست وعشرين رحلة مغربية حجازية .

وتلى هذا العرض عرض الأستاذ أحمد شحلان حول « المخطوطات العربية الإسلامية الأندلسية المكتوبة بالخط العبري أو المترجمة إلى اللغة العبرية » ، ويقصد بالمخطوطات العربية الإسلامية الأندلسية المكتوبة بالخط العبري أو المترجمة إلى اللغة العربية ما يلي :

١ ـ مؤلفات أُلِّفت أصلاً إما بالعربية أو العبرية .

٢ ـ مؤلفات عربية لعلماء يهود أو مسلمين مشارقة أو مغاربة ترجمت إلى العبرية إما في أسبانيا أو فرنسا أو غيرها . وقد كانت اللغة العبرية هي لغة اليهود ، والمناهج العربية منهجهم ، فكتبوا بالعربية في النحو واللغة والتفسير والكلام ونقلوا جُلّ المؤلفات من العربية إلى العبرية كمؤلفات ابن سينا وابن رشد .

وظل الحال على ما هو عليه إلى ما بين القرن التاسع والخامس عشر الميلادي حيث طرأ طارئ على واقع اليهود في الأندلس فغادروها متجهين إلى المغرب وشمال أسبانيا وفرنسا ثم إلى إيطاليا ، حاملين معهم الكثير من مؤلفاتهم العربية .

اللغة العبرية الحرف :

ويطرح الأستاذ المحاضر سؤالاً عن مصير هذه الأعمال . فقد تعرضت معظم هذه المخطوطات العبرية للنهب والحرق من طرف الكنيسة . وما تبقى من هذه المخطوطات يوجد في المكتبة الوطنية بباريس حيث تحتوي على أعتقها وأغناها . كما قام في نهاية العرض بسرد للمؤلفات العربية التي ترجمت للعبرية .

أما الأستاذ محمت حاتيبوجلي ، فقد تكلم عن « وضع المخطوطات بتركيا » ، كان هناك ثروة هائلة من المخطوطات العربية الإسلامية تملأ المكتبات الخاصة والمساجد والتكايا ، وكانت هذه المكتبات تحت إدارة أصحابها .

وقام الأتراك بفهرسة بعض المخطوطات ، وهناك مشروع كبير لفهرسة كل المخطوطات في تركيا . وقام بعرض لبعض الكتب المغربية الموجودة بتركيا .

في معرض حديثه عن « الأرشيف المغربي المخطوط » تطرق الأستاذ جرمان عياش لوثائق الدولة نظراً لأهميتها وكثرتها وغناها ، وتتمثل في الرسائل ، والظهائر والعقود والرسم ... فغاية الوثائق

لا علمية ولا ثقافية عكس المخطوطات ، ولكنها لا تخلو من أي طابع علمي وأدبي . قيمتها تتمثل في كونها مصدراً لتاريخ البلاد . فقد مكنتنا الوثائق المغربية من تكذيب عدد لا يستهان به من النظريات الخطيرة التي أشاعتها الكثير من الكتب عن المغرب قبل الاستقلال . إذن فالالتجاء إلى الوثائق الوطنية سلوك للمسلك العلمي السليم .

في آخر عرضه اقترح الأستاذ عياش تجميع الوثائق التاريخية في مركز خاص بها ، وإنشاء فهارس لتسهيل استفادة الباحثين منها .

خلال مناقشة الجلستين الصباحية والمسائية ، تقدم الأستاذان محمود بوعياد ومحمد طريف السمان باقتراح تكوين لجنة مصغرة تعد تقريراً حول تقنين وطرف وصف المخطوطات ، وتحدد المسائل الأساسية لوضع صيغة معينة للفهرسة .

وألح الأستاذ السمان على أن الإنسان المتخصص الملم هو الذي يمكنه القيام بعملية الفهرسة وتصنيف مضمون المخطوط . كما طالب الأستاذ عبد الحفيظ منصور بتوظيف تراثنا العلمي المخطوط وذلك بالتطرق إلى مضمونه .

أما الأستاذ عصام محمد الشنطي فقد لفت النظر إلى أن هناك كماً كبيراً من المخطوطات في الغربة ذو قيمة أثرية وعلمية ، علينا القيام بتصويره وتوفيره للباحثين في العالم الإسلامي . إن إنشاء معهد للكوديكولوجيا في نظر الأستاذ بنين سيساعد على البحث في النسخ والنساخة ، ولتناسق الجهود في مجال تحقيق التراث العربي المخطوط .

وحتى لا نقع في التكرار والازدواجية ، اقترح الأستاذ الشنطي مسألة إخبار المختصين في أنحاء العالم الإسلامي بالأعمال التي تحقق في أي قطر من هذه الأقطار .

..... الاجتماع الخامس

ترأس الجلسة الخامسة الأستاذ محمود بوعياد ، وكان أول المتحدثين الدكتور محمد السجلماسي الذي تقدم بعرض لمجموعة من صور المخطوطات التي يحتوي عليها مؤلفه : « ذخائر

المخطوطات الملكية بالمغرب » . صَاحبَ هذه الصور تعليق ألقى مزيداً من الضوء على فن الزخرفة والتجميل والخط الذي تحتوي عليه هذه المخطوطات . حيث أكد المحاضر أن دخول فنَّ الزخرفة والتجميل إلى المغرب والأندلس في القرن التاسع الميلادي وهو فنٌّ كفنِّ العمارة لقي بدوره تشجيعاً من طرف الملوك والأمراء المسلمين .

أما كلمة الأستاذة تريزا بيريز هيجيرا فقد تركزت حول « القيمة الوثائقية للمخطوطات الأسبانية من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر والمتعلقة بالحضارة الأندلسية » . عرضت المحاضرة خلالها مجموعة من الصور ، مع تعليق عليها أبرزت من خلاله أهميتها وقيمتها التوثيقية بصفتها ممثلة للشخصيات التاريخية وأنماط حياة المسلمين في الأندلس ومدى تأثيرها في الحضارة الأسبانية .

وعن « آفاق جديدة لدراسة المخطوطات في الغرب الإسلامي » تحدث الدكتور محمد بن شريفة عن الموضوع حديثاً عاماً جاء فيه أن الغرب الإسلامي الذي تمحورت حوله الموضوعات كان له حظ وافر وإسهام كبير في خدمة التراث العربي والإسلامي من خلال المخطوطات ومسألة تدوينها والعناية بها وتداولها .

فهذه المخطوطات التي حافظت عليها الخزائن في بلاد المغرب شكلت رصيداً يرجع إلى عصور وأحقاب مختلفة ، وقد انتقلت بعض هذه المخطوطات إلى أقطار مختلفة كأسبانيا وهولندا وفرنسا

● جانب من المشاركين في الندوة ●



وإنجلترا وألمانيا وغيرها ، فلا تكاد تخلو مكتبة من المكتبات العالمية من مخطوطات يرجع أصلها إلى المغرب .

ومن علامات حفاظ المغرب على هذا التراث الإسلامي أن بعض المخطوطات التي ظهرت مؤخراً لا توجد إلا بالمغرب مثل بعض مؤلفات أبي العلاء المعري والجاحظ وساد هذا أبواباً وألوانا كثيرة من المعرفة . إلاّ أن المخطوطات في الغرب الإسلامي لم يوضع لها الوصف الكامل والشامل بعد ، مع أن هناك محاولات ظهرت مؤخراً ولكنها تظل مع ذلك تقليدية نكتفي بذكر اسم الناسخ إلى غير ذلك من المعلومات البسيطة المتواضعة عن المخطوط .

واقع المخطوطات في مكتبات الغرب الإسلامي ومكتبات المغرب في الوقت الحاضر لا يدعو إلى التفاؤل ، فهي تحتاج إلى عناية أكبر خاصة وأنها عرفت تأخراً كبيراً إذا ما قيست بمخطوطات المشرق العربي مثلاً الذي قطع أشواطاً بعيدة في مجال الاعتناء والعناية ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بالتنسيق بين المكتبات والجامعات والجهات التي تقوم بنشر المخطوطات ، إذ نجد في كثير من الأحيان المخطوط الواحد ينشر في أكثر من جهة .

أما مداخلة الأستاذ بيتر سوردفان كوننكسفيلد فقد دار حول « المخطوطات العربية المنسوخة في شمال أسبانيا النصرانية » .

الملاحظ أننا نجهل عدد المخطوطات العربية التي ترجع إلى عهود ملوك الطوائف في الأندلس . فعملية الحصول على هذه المعلومات مفيدة من الناحية العلمية لدارس الكيان المادي للمخطوطات الأندلسية والمغربية .

إن محاولة تنظيم قائمة تسجيلية لكل المخطوطات الأندلسية والمغربية عمل جسيم لا يستطيع أن يضطلع به إلا جماعة من العلماء المختصين ومن مناطق عديدة في العالم .

تشكل هذه المخطوطات تراثاً لثلاث أقليات دينية عاشت في أسبانيا النصرانية من نهاية القرن الحادي عشر حتى بداية القرن السابع عشر :

١ ـ المُضَرّبين النصارى .

٢ ـ الجماعات الإسلامية التي تسمى بالمدجنين .

٣ ـ الجماعات اليهودية .

قام الأستاذ كوننكسفيلد بالتعليق على ٣٧ مخطوطة عربية من أسبانيا النصرانية من بينها معجم لاتيني عربي يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي . كتبت معظم هذه المخطوطات على الرق .

أما مخطوطات شمال أسبانيا العربية فتحتوي على كتب مدرسية تعنى بدراسة اللغة العربية والدين الإسلامي على مستوى إبتدائي .

كما تعكس هذه المجموعة الحقيقة التاريخية في أن الجماعات الإسلامية في شمال أسبانيا منذ القرن الثاني عشر وحتى السابع عشر قد انعزلت عن بقية العالم الإسلامي وخاصة عن جنوب الأندلس .

في حين تعكس المخطوطات العربية العائدة إلى الجماعات اليهودية في شمال أسبانيا ، الحقيقة التاريخية في أنّ يهود شمال أسبانيا كانوا أهم جماعة ورثت العلم العربي وبالأخص الطب والفلسفة .

أما الأستاذة جوزي بالانيا فقد تطرقت لموضوع « المخطوطات العربية والأرشيف في عصر النهضة في فرنسا » .

تميز عصر النهضة في فرنسا باهتمام ملوكها بجمع المخطوطات العربية إلى حدٍّ جعل فرانسوا الأول يقوم بإرسال سفارات وبعثات من أجل شراء مخطوطات عربية من تركيا ، فتجمّع لهم بذلك عدد مهم من المخطوطات العربية مثل قوانين التلاميذ المسيحيين ورسائل إخوان الصفا وغيرها .

وفي نهاية عرضها تقدمت الأستاذة بطرح مجموعة من الأسئلة من بينها : هل عملية الاحتفاظ بالمخطوطات العربية من طرف الفرنسيين في القرن السادس عشر تدخل ضمن حبهم للعلم ؟ وهل كان بفرنسا علماء قادرون على دراسة هذه المخطوطات ؟

والجواب عن هذه الأسئلة يوجد في مؤلف سيصدر في السنة الجارية .

وفي آخر جلسة هذا الاجتماع تحدث الأستاذ هيربرت لانج وأعطى لمحة عن « علم الاستشراق في ألمانيا » فأشار إلى اهتمام المستشرقين بدراسة الإنتاج الفكري العربي وخاصة الألمان منهم إذ إن أعمالهم في هذا الميدان تفوق الأعمال التي قدمها كل من الإنجليز والفرنسيين مجتمعين في هذا المجال . وقد مر علم الإستشراق في ألمانيا بمراحل عدة كان أهمها بداية هذا العصر حيث جعل لدراسة الإسلام قسماً خاصاً بها ضمن أقسام الإستشراق .

كما تخلل هذا العرض ذكر بعض المستشرقين الألمان ودورهم في الاهتمام بدراسة وترجمة التراث الإسلامي . فالخزانات الألمانية تزخر بزخم مهم من المخطوطات العربية التي تمت فهرسة معظمها وهذا أهم عمل قام به العلماء الألمان تجاه المخطوطات العربية .

... ملخص أحاديث الاجتماع السادس من الموضوع الثالث

ترأس الاجتماع الدكتور يحيى محمود ساعاتي فكان أول المتحدثين الدكتور محمود علي مكي الذي تطرق لموضوع التراث والمعاصرة باعتباره موضوعاً دار حوله الكثير من النقاش واشتد حوله الجدل واختلفت الآراء بصدده مما وسع دائرة البحث في الموضوع . ونوقشت مسألة المقصود بالقديم في تراثنا العربي الإسلامي القديم حيث إن الحداثة تعني طريقة التعامل مع هذا التراث .

فتراثنا العربي الإسلامي يعتبر أغنى تراث عرفته البشرية لما شهده من تطورات مكانية وزمانية جد مهمة ، وموضوع حديثنا يستدعي تضييق الدائرة حول التراث الفكري الذي وصل إلينا في صورته المكتوبة .

فقد اتضح أن مجموعة من النظريات التي تعتبر حالياً حديثة كنظرية ديكارت مثلاً كانت لها جذور في تراثنا القديم وهذا ما يؤكد ضرورة اهتمامنا بتراثنا المخطوط ، وصيانته وترميمه ودراسته والاعتناء به .

وعن « مخطوطات الزوايا بالمغرب : نموذج تنغملت » جاء حديث الأستاذ أحمد توفيق ليبرز حيث تطرق إلى :

ـ أهمية الخزانات بالمغرب وخاصة تلك التي كان لها ارتباط بالدولة حيث كانت هذه الأخيرة تعنى بإنشائها ورعايتها وذلك لما يوجد من علاقة وطيدة بين الدين والدولة .

ـ دور الزوايا في نشر الدين والعلم في المدن والبوادي ، والتي تكونت فيها ـ بسعي شيوخها ـ خزائن تزخر بالمخطوطات العربية الإسلامية والوثائق المهمة جداً ، وفي معرض حديثه عن الزوايا بالمغرب ودورها في نشر العلم تركز حديث الأستاذ المحاضر حول زاوية (تنغملت)

الموجودة بقلب الأطلس عارضاً للمراحل التاريخية التي مرت بها هذه الزاوية انطلاقاً من تأسيسها على يد أحد صلحاء القرن الحادي عشر إلى عصرنا الحالي حيث عرفت الزاوية زيارة ملكية اقترنت بوضع قائمة لكتبها والتي وصلت إلى ٨٠٠ كتاب من بينها كتب مشرقية وأندلسية ومغربية نذكر منها :

ـ التعريف لمن عجز عن التأليف .
ـ ديوان المعـري .
ـ الأجوبـة الناصريـة .
ـ الدرر المرصعـة .

إلى جانب هذه الكتب تزخر الزاوية بمجموعة مهمة من الكتب يعرف بعضها ويجهل الكثير منها إن لم نقل عنه بأنه نادر .

وينهي الأستاذ أحمد التوفيق حديثه بعرض لحالة الخزانة بزاوية (تنغملت) فالكتب لم يعتن بها بعد حيث لازالت في البيت المظلم الذي خصص لها ، لا تتم صيانتها أو ترميمها فيصبح من الصعب على الباحث المهتم الإطلاع عليها والاستفادة منها .

أما عرض الأستاذة ماريا ج. فيجيرا فقد سلط الضوء على « وضع البحوث عن مخطوطات الموريسكيين » تناولت المحاضرة الشطر الأول منه بتقديم خريطة أوضحت من خلالها المراكز التي توجد بها أهم الوثائق والمخطوطات العربية في الأراكون مع القيام بتأريخ لهذه المخطوطات والوثائق .

فالملاحظ من خلال هذه المخطوطات أن المدحنين بالأراكون قد استعملوا العربية بسهولة وذلك حتى القرن التاسع الهجري ، إلا أنه بعد هذا القرن نجد وثائق بالعربية تتخللها كلمات غريبة عن العربية أو أنها كلمات عربية قد كتبت خطأ كأن نجد هذا تكتب بدون ألف مثلاً ، وهذا دليل على أنه بعد القرن التاسع الهجري لم يعد للمدحنين إلمام كبير باللغة العربية .

أما الشطر الثاني من الموضوع فقد تحدث عنه الأستاذ بوزيان الذي أكد على خاصيات المخطوطات الموريسكية والتي أجملها في كونها :

ـ استعملت لغة عربية محضة إذ إن الأدب الموريسكي جاء تعبيراً عن حاجة الموريسكي إلى الدفاع والحفاظ على هويته الإسلامية .

ـ تميزت الكتابات الموريسكية باستنساخها بلغة عربية فصيحة تنم عن مدى تمكن أصحابها من اللغة « إذ عند قراءتها يتبادر إلى الذهن أننا بصدد مخطوطات عربية .

ـ تعبيرها على حقيقة الشخصية الموريسكية وإبرازها للإزدواجية التي عاشها الإنسان الموريسكي .

قيمتها التي تكمن في النظر إليها من زاوية كونها تشكل طريقة حياة أناس كانوا يعيشون حياة مضطربة ، فهو أدب مقاومة سعي إلى البقاء بمختلف الطرق .

وفي نهاية حديثه أشار الأستاذ المحاضر إلى أن البحث في ميدان المخطوطات الموريسكية قد اختصر على الدارسين المهتمين بالجانب الرومانسي دون الاهتمام بالجانب العربي ، وهذا ما يستدعي زيادة الاهتمام بهذا التراث .

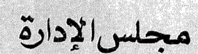
تميزت كلمة الأستاذ محمد الأمين البان حول المخطوطات العربية بموريتانيا بالحديث عن المخطوطات الموريتانية بالمعهد المريتاني والتي لا تشكل إلا نسبة بسيطة من هذا التراث العربي المخطوط إذ إن معظم هذه المخطوطات توجد الآن بالزوايا .

وكان أبرز ما ميزه حديث الأستاذ المحاضر هو النداء المؤثر الذي وجهه إلى الباحثين والمشاركين في الندوة من أجل إنقاذ المخطوطات الموريتانية التي تعاني من العديد من المشاكل الخطيرة وفي مقدمتها الجفاف الذي زحف على الزوايا فاضطر الشيخ إلى مغادرة زاويته باحثاً عن مكان يستقر به ، فيفر معه الطلبة الذين كانوا مهتمين باستنساخ هذه المخطوطات ودراستها . فواقع المخطوطات العربية بموريتانيا واقع مزر ويقتضي إلتفاتة من العلماء والباحثين والمهتمين .

وكان آخر المتحدثين هو الأستاذ عمر الجيدي الذي تحدث عن « مخطوطات علي بن ميمون الغماري في المكتبة الظاهرية » فأجمل كلمته في النقط الثلاث التالية :

أ ـ حياة علي بن ميمون .
ب ـ استعراض المعروف من مؤلفاته .
جـ ـ مؤلفاته الموجودة بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

وأنهى المحاضر كلمته باستعراض لأهم الكتب التي ألفها ابن ميمون والموجودة بالمكتبة الظاهرية مع ذكر لأهم المواضيع التي يتطرق لها كل كتاب على حدة ■



١- صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز : رئيساً أعلى لمجلس إدارة المكتبة
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني

٢- معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري : نائباً للرئيس الأعلى لمجلس الإدارة
نائب رئيس الحرس الوطني المساعد

٣- معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي : عضواً
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

٤- صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالله : عضواً
قائد كلية الملك خالد العسكرية

٥- سعادة الأستاذ عبدالرحمن بن إبراهيم أبوحيمد : عضواً

٦- سعادة عميد شئون المكتبات بجامعة الملك سعود : عضواً

٧- سعادة عميد شئون المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود : عضواً

٨- سعادة الأستاذ فيصل بن عبدالرحمن المعمر : سكرتيراً
مدير المكتبة





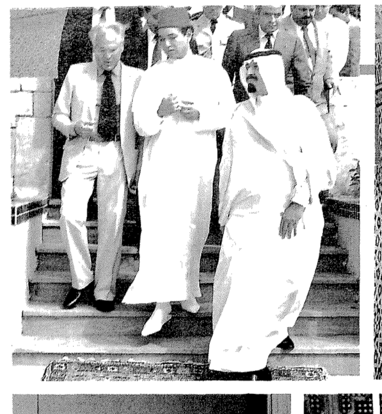
لقطات من مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء

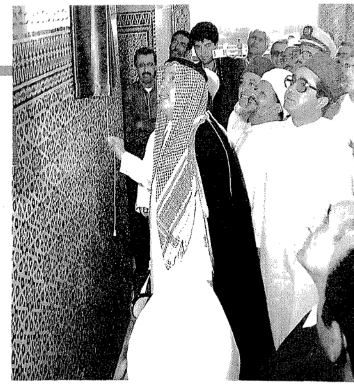








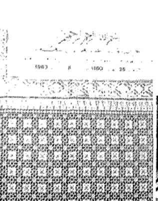






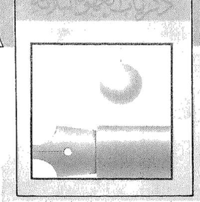

المنشورات السعودية



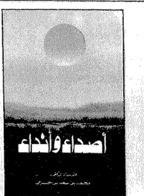



الجمعة والسبت
شعبان 1407 موافق

كتب حديثة

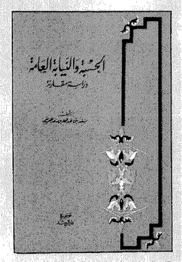


● ذكريات العهود الثلاثة .
محمد حسين زيدان
٣٧٠ صفحة ـ ١٩٨٨م .
الناشر : المؤلف .

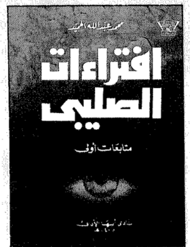


● اصداء وانداء
د . محمد بن سعد بن حسين
٢٠٢ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

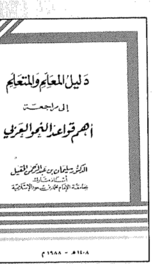
● النقد الأدبي في المغرب العربي
د . عبده عبد العزيز قلقيلة
٤٢٧ صفحة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٨م .
الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .



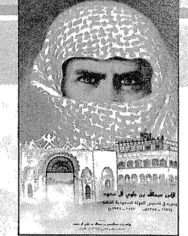
● الحسبة والنيابة العامة
« دراسة مقارنة »
سعد بن عبد الله بن سعد العريفي
١٢٠ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .
دار الرشد للنشر والتوزيع .



● افتراءات الصليبي
« متابعات أرولي »
محمد عبد الله الحميد
٢٧٠ صفحة ـ ١٤٠٨هـ .
نادي أبها الأدبي .



● دليل المعلم والمتعلم إلى مراجعة قواعد النحو العربي
د . سليمان بن عبد الرحمن الحقيل
٣٥٤ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .



● **الأمير عبد الله بن جلوي آل سعود . ودوره في تأسيس الدولة السعودية الثالثة .**
(١٢٨٧/١٣٥٤هـ ـ ١٨٦٧/١٩٣٤م) .
إعداد : جواهر بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلوي آل سعود .
١٦٨ صفحة .





● **جاك بريفير « قصائد مختارة » .**
ترجمة سامي مهدي
١٩٢ صفحة
دار المأمون للترجمة والنشر ببغداد .

● **الشعر الحديث بين المحافظة والتجديد**
د . محمد بن سعد بن حسين
١٤٠ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .



● **الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر « دراسة وثائقية »**
د . خالد محمد نعيم
٣٦٠ صفحة
الناشر : كتاب المختار بالقاهرة .

● **علم الدلالة**
بيير جيرو
ترجمة د . منذر عياشي
٢٠٧ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨م .
دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق .

● **علم الإشارة «السيميولوجيا»**
بيير جيرو
ترجمة د . منذر عياشي
١٧٢ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨م .
دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق .

أضواء على مكتبة

الملك عبدالعزيز العامة

KING ABDULAZIZ PUBLIC LIBRARY

مكتبة الملك عبد العزيز العامة

يعود تاريخ إنشاء مكتبة الملك عبد العزيز العامة لعام ١٤٠٥ هـ حينما قرر صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني إنشاء مؤسسة علمية ثقافية إيماناً من سموه بأهمية العلم والثقافة في حياة الشعوب وفي نمو البلاد وتقدمها وتطورها وتقديراً من سموه للدور الذي تقوم به المكتبات العامة في نشر العلم والثقافة ، حيث قام سموه بإنشاء مكتبة عامة تحمل اسم المغفور له الملك عبد العزيز طيب الله ثراه هبة من سموه للمواطنين لكي ينهلوا من كنوز المعرفة التي ستوفرها حيث تم تشييد مبنى رخامي فخم وجميل للمكتبة بجوار منزل سموه بحي الروضة . يتألف هذا المبنى من دورين مساحتهما الإجمالية تزيد على خمسة آلاف متر مربع تحتوي على صالات للقراءة والمطالعة وصالات لعرض الكتب والدوريات ومستودعات وغرف لتصنيف وفهرسة وتجليد الكتب واستلامها وغرف مايكروفيلم ومايكروفيش وتصوير ومكاتب إدارية واستراحات لرواد المكتبة والعاملين وما إلى ذلك من الأقسام اللازمة لأي مكتبة عامة حديثة بالإضافة إلى مسجد كبير وسكن للموظفين في منطقة هادئة وجميلة يمكن الوصول إليها بسهولة حيث تتوفر المواقف المخصصة لرواد المكتبة .

مهـام وأهـداف المكتبـة :

تعتبر المكتبات بكل أنواعها عنصراً مهماً في تقدم ورقي المجتمعات لما تقدمه من خدمات للباحثين والدارسين بالإضافة إلى دورها في تثقيف وتنمية المجتمع . والمكتبات أنواع ولكل منها رسالة تؤديها وفقاً لطبيعة مقتنياتها وحجمها ودقة تنظيمها والفئات التي تستفيد من خدماتها . والمكتبة العامة تمتاز بأنها تقدم خدماتها على نطاق أوسع لكل أفراد المجتمع من أستاذ الجامعة إلى العامل في المصنع وهذا يترتب عليه مسؤوليات جمة سواء من ناحية تأمين أوعية المعرفة وتيسير استخدامها أو خدمة الجمهور الكبير من المستفيدين ولهذا أنشئت مكتبة الملك عبد العزيز العامة لتصبح مؤسسة علمية ثقافية تربوية وفي هذا الإطار تعمل على تحقيق الأهداف التالية :

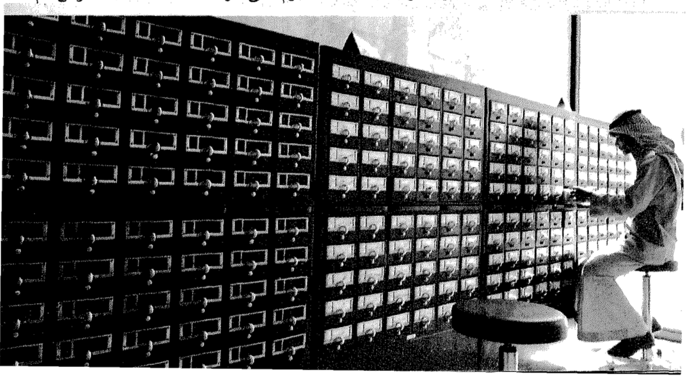
● مبنى المكتبـة ●



١ ـ توفير مصادر المعلومات من كتب ودوريات ومواد سمعية وبصرية في كافة فروع المعرفة البشرية .
٢ ـ إتاحة الفرصة لكل فئات المجتمع للاستفادة من مقتنيات المكتبة والخدمات التي تقدمها لهم .
٣ ـ تنظيم المقتنيات باستخدام التقنيات والأساليب الحديثة التي تسهل استخدام هذه المقتنيات بدون عوائق مادية أو تنظيمية .
٤ ـ توفير أفضل الخدمات للقراء والباحثين ، وذلك بتقديم المعلومات وبثها لجميع المستفيدين بأفضل الوسائل المتاحة .
٥ ـ المساهمة في إحياء وحماية التراث الإسلامي والعربي .
٦ ـ المساهمة في تثقيف المجتمع وزيادة الوعي لدى أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع بالاعتماد على شتى الوسائل ، مثل إقامة الندوات والمحاضرات والحلقات الدراسية والمشاركة في برامج التعليم المستمر ومحو الأمية .
٧ ـ التعاون مع المكتبات ومراكز البحث والهيئات المحلية والخارجية فيما يحقق أهداف المكتبة .

التـزويـد :

يعتبر هذا القسم من أهم وأبرز أقسام المكتبة حيث يتم من خلاله اختيار وتأمين أوعية المعرفة وذلك وفق سياسة شرائية وضعتها المكتبة تقوم على مراعاة طبيعة المكتبة ، ومن ثم



طبيعة المجتمع الذي تخدمه ، وبالتالي مستويات المستفيدين من المكتبة .

ويقوم قسم التزويد بالاستعانة بأدوات الاختيار من قوائم وببليوغرافيات وأدلة وفهارس الناشرين بالمهام التالية :

أ ـ اختيار المواد المناسبة وطلبها من مصدرها مباشرة .
ب ـ تلقي الكتب المطلوبة سواء كانت على سبيل الشراء أو الاهداء ، الإجراءات اللازمة لتسجيلها تمهيداً لفهرستها وتصنيفها وإعدادها للاستخدام .

حيث وصل عدد ما اقتنته المكتبة من كتب ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ مجلد .

نشـاطـات المكتبـة

الفهرســة والتصنيـف :

يعتبر هذا القسم من الأقسام المهمة حيث يتم فيه الإعداد والتنظيم الفني لمقتنيات المكتبة من الكتب والدوريات والمواد غير المطبوعة ، وذلك وفق التقنيات والنظم الحديثة في الفهرسة والتصنيف .

ففي مجال الفهرسة يستخدم التقنين الدولي للوصف الببليوغرافي ، أما التنظيم الموضوعي فيتم وفق تصنيف ديوي العشري في طبعته العربية المعدلة لفؤاد اسماعيل ، وتستخدم في الفهرسة الموضوعية قائمة رؤوس الموضوعات التي أصدرتها عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود .



وبموجب هذه الأسس تم تكوين فهرس بطاقي يمثل كل مقتنيات المكتبة حسب التقسيم التالي :

فهرس المؤلف : رتب هجائياً حسب أسماء المؤلفين والمحققين والمترجمين ..

فهرس العنوان : رتب هجائياً حسب عناوين الكتب والأوعية الأخرى .

فهرس الموضوعات : يهدف إلى مساعدة الباحث في التعرف على الموضوعات التي تمثلها مقتنيات المكتبة ، وذلك وفق رؤوس الموضوعات ورتب هجائياً .

الفهرس المصنف : جمعت فيه البطاقات في ترتيب تسلسلي حسب أرقام التصنيف التي تمثل وتحدد موقع المادة على الرف .

ولا تقتصر أعمال الفهرسة والتصنيف على الكتب ، بل تشمل كل المواد من مخطوطات ودوريات ومطبوعات حكومية ووسائل سمعية وبصرية .

الـدوريـــات :

تحظى الدوريات باهتمام خاص لدى المكتبات وبخاصة الدوريات التي تقوم على أساس علمي ، لاسيما في هذه الفترة مع التطور السريع في العلوم والتقنية ، فالدورية غالباً تحمل بين طياتها نتائج أبحاث ودراسات حديثة وسريعة التطور ، لذا يتم نشرها في الدوريات المتخصصة للمحافظة على حداثتها ، ويتم تزويد القسم بالدوريات عن طريق الاهداء والاشتراك ، وتعطى أولوياته



للدوريات الصادرة في دول الخليج العربية وتأتي في المرتبة التالية البلاد العربية فالدول الإسلامية ، وقد اشتركت المكتبة في عدد لا بأس به من الدوريات الأجنبية آخذة بالاعتبار التنوع الموضوعي لهذه الدوريات .

ويحرص القسم على تحديث مجموعة الدوريات حيث يبلغ حجم الدوريات الموجودة بالقسم ما يقارب ثلاثمائة وخمسون دورية عربية بالإضافة إلى خمس وأربعين دورية قديمة توقفت عن الصدور ، وما يقارب ثلاثمائة وخمس دوريات أجنبية .

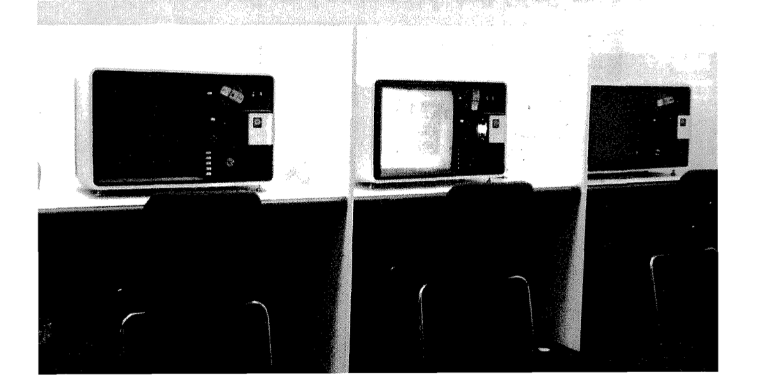
ومن حيث التنظيم فالدوريات مقسمة إلى مجموعتين : عربية وأجنبية ، وكل مجموعة مرتبة هجائياً حسب عنوان الدورية ، وهذا بالإضافة إلى فهرس بطاقي للدوريات ، وحصر بالأجزاء والمجلدات المتوفرة من كل دورية .

الخـدمـــات :

أنشئت المكتبة لخدمة القراء والباحثين . وتتنوع الخدمات التي تقدمها المكتبة وفقاً لفئات المستفيدين واحتياجاتهم ومن هذه الخدمات :

١ ـ الخدمة المرجعية وإرشاد القراء :

تعتبر هذه الخدمة من الواجبات الأساسية التي تقدم لجمهور القراء والباحثين ، حيث يمكن من خلال المراجع المتوفرة في المكتبة الإجابة على الاستفسارات العلمية وتقديم المعلومات



الموجزة التي يطلبها الباحث ، وإذا كانت حاجة الباحث تتطلب التفصيل والعمق في البحث ، فيتم اختيار وتوفير المراجع الملائمة لموضوع البحث .

٢ ـ الإعـــارة :

وضعت المكتبة في خطتها السماح بإعارة الكتب خارج المكتبة ، وسوف يتم لهذا الغرض وضع ضوابط تحدد فئات المستعيرين ومدة الإعارة وغير ذلك . وحتى يتم وضع هذه الضوابط واعتمادها من مجلس الإدارة فيقتصر استخدام مواد المكتبة على الإعارة الداخلية .

٣ ـ الاتصال بمراكز المعلومات الأخرى :

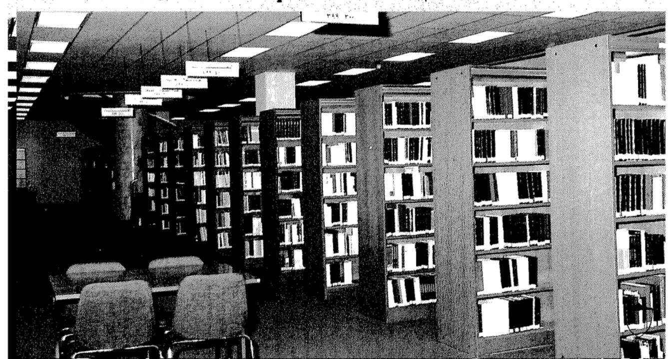
لتوسيع مجال خدمات المعلومات لرواد المكتبة فقد وضعت المكتبة ضمن مشاريعها ربط المكتبة ببعض مراكز المعلومات في داخل المملكة بواسطة الحاسب الآلي ، حيث يمكن لرواد المكتبة الاستفادة من المعلومات المتوفرة لديهم . ومن المتوقع أن يتم ذلك قريباً .

٤ ـ خدمـات أخـرى :

توفر المكتبة كل التسهيلات الممكنة : مثل آلات التصوير والبوفيه والهاتف ومواقف السيارات وغير ذلك من الخدمات .

القاعـة الملكيـة :

تشرفت المكتبة بحمل اسم موحد المملكة وباني نهضتها ومؤسس انطلاقتها المغفور



له الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ، ومن الوفاء لهذا الاسم الكريم الذي تعتز به أن تعمل المكتبة على جمع المؤلفات والإصدارات والمخطوطات الشاملة الكاملة عن تاريخ المملكة منذ البدء على يديه وكفاحه وجهاده وتحركه الداخلي والخارجي . ولا تقتصر الدوافع لتأمين هذه المطبوعات والمخطوطات على كون المكتبة تحمل هذا الاسم الكريم ، بل تتجاوز ذلك إلى كون المغفور له جلالة الملك عبد العزيز يمثل (الرمز) الذي ترتبط به المملكة وتضعه نصب عينيها في إطلالتها على الماضي واستشفافها للمستقبل .

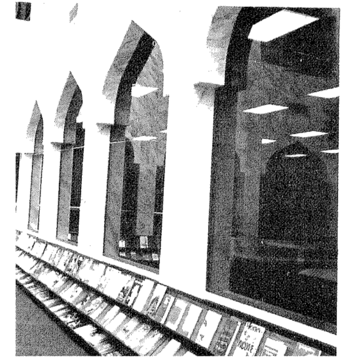
لذا فقد روعي تخصيص قاعة تضم كل ما كتب عن المغفور له الملك عبد العزيز وعن المملكة سواء كان ذلك على شكل كتب أو صور أو تسجيلات .

ولقد بلغ عدد الكتب الخاصة بتاريخ الملك عبد العزيز أكثر من ثلاثمائة كتاب والمكتبة تقتني عدداً كبيراً من الصور القديمة للمملكة ، إضافة إلى مشروع جمع وثائق تاريخ الملك عبد العزيز ومصادره ، وقد تم وضع قائمة بالمصادر الأجنبية وأخرى بالعربية وذلك للعمل على اقتنائها .

المخطـوطـات :

تعتبر المخطوطات جزءاً من تراث الأمة العربية والإسلامية ومؤشراً حضارياً لما كانت عليه الأمة العربية من العلم والثقافة ، ولهذا فالمخطوطات تجد العناية الخاصة والاهتمام الواسع





ليس فقط على المستوى الإقليمي ، وإنما على المستوى العالمي ، وذلك لما لها من قيمة تراثية وحضارية .

وقسم المخطوطات بالمكتبة يقوم بدوره ـ قدر المستطاع ـ في سبيل حفظ وحماية التراث العربي والإسلامي وذلك بأحد طريقين :

١ ـ الشراء : حيث قام القسم بشراء عدد لا بأس به من المخطوطات في بداية إنشائه بلغ ما يقارب من ٤٠٠ مخطوط ، ١٠٠ مجلد نادر وما يقارب من ١٠٠ مصور ورقي لمخطوطات نادرة ، وسياسة القسم تقوم على شراء ما يتاح له من المخطوطات لحفظها وحمايتها من الضياع ، وبالتالي تمكين الباحثين من الاستفادة منها .

٢ ـ التصوير : يحرص القسم على الحصول على نسخ مصورة للمخطوطات التي لا يمكن شراؤها سواء كان ذلك على أفلام مايكروفيلم أو على ورق ، وقد قام القسم بشراء مصورات ورقية لمخطوطات نادرة من معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت .

ويقوم القسم بإجراء العمليات الفنية للمخطوطات من فهرسة وتصنيف وتصوير وذلك لتسهيل السبل أمام الباحثين للإفادة من هذه المجموعات .

المطبوعـات الحكوميـة :

أنشأت المكتبة قسماً خاصاً بالمطبوعات الحكومية يضم ما تنشره الهيئات الحكومية من مطبوعات تمثل الأنظمة والتقارير والإحصاءات والأدلة والمطبوعات الإعلامية . وتعطى أولوية للمطبوعات الحكومية السعودية الصادرة عن الوزارات والجامعات والمؤسسات الحكومية الأخرى بالإضافة إلى مطبوعات الدول العربية الأخرى . ومطبوعات الهيئات والمنظمات العربية والإقليمية مثل جامعة الدول العربية ومجلس التعاون لدول الخليج العربية ، وتحرص المكتبة على اقتناء هذه المطبوعات لما لها من أهمية للباحثين كمصادر للمعلومات . وقد وضعت خطة لمتابعة ما يصدر من مطبوعات جديدة . وتسهيلاً لاستخدام هذه المجموعة ، فقد تم وضع نظام تصنيف خاص بها ■



معرض الكتاب السعودي في المغرب

ستقوم مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض بإقامة معرض الكتاب السعودي في رحاب مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء وذلك في إطار التعاون والتبادل الثقافي القائم بين المؤسستين اللتين تم إنشاؤهما على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني لتكونا في خدمة طلاب العلم والمعرفة في العالم العربي، وقد تقرر مشاركة عدد من الوزارات والمؤسسات والهيئات الحكومية السعودية بالمعرض كالآتي :-

١- الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
٢ - الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
٣ - دارة الملك عبد العزيز.
٤ - جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.
٥ - جامعة الملك عبد العزيز
٦ - جامعة الملك سعود.
٧ - معهد الإدارة العامة.
٨ - وزارة الإعلام.
٩ - الرئاسة العامة لرعاية الشباب.
١٠ - مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية
١١ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٢- الجامعة الإسلامية
١٣- وزارة الحج والأوقاف

حوار مع مدير مؤسسة

الملك عبد العزيز آل سعود

للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية

بالدار البيضاء - المغرب

● أجرى الحوار الأستاذ عبدالله إبراهيم الحقيل ●

المؤسسة هيئة مستقلة لا تتوخى الربح ، أنشأها في مدينة الدار البيضاء بالمغرب ، صاحب السمو الملكي الأمير « عبد الله بن عبد العزيز » ولي عهد المملكة العربية السعودية ، لرعاية العلم والعلماء في هذا الجزء من العالم الإسلامي .

ولأهمية هذا الصرح في تشجيع البحث العلمي في مجالات الدراسات الإسلامية ، التقت المجلة بالأستاذ « عبده الفيلالي » الذي تحدث عن نشاطات وإنجازات المؤسسة من خلال هذا الحوار ..

نود أن تحدثنا عن فكرة المؤسسة وبداية تأسيسها .

بسم الله الرحمٰن الرحيم ،

أود قبل كل شيء أن أعبر عن شكري لمجلة دارة الملك عبد العزيز والمشرفين عليها للأعمال الجليلة التي يقومون بها والاهتمام بكل ما يشجع الثقافة والعلم .

وردت فكرة المؤسسة كمبادرة من طرف صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية للمساهمة في العمل الثقافي وتشجيع البحث العلمي في مدينة الدار البيضاء .

وهذه الفكرة هي وليدة وعي سموه بالموقع الخاص الذي تحتله مدينة الدار البيضاء في أقصى غرب العالم الإسلامي وللدور الذي أصبحت تلعبه هذه المدينة على الصعيد الاقتصادي والمالي والاجتماعي والثقافي .

مدينة الدار البيضاء كما هو معلوم أصبحت اليوم ثاني أكبر مدينة في أفريقيا وأكبر مدينة في المغرب العربي حيث يتعدى سكانها ثلاثة ملايين نسمة ، كما تعتبر هذه المدينة القلب النابض للاقتصاد الوطني المغربي من جهة ومركزاً علمياً وثقافياً مهماً من جهة أخرى ، بسبب إقامة جامعة كبرى بها ألا وهي جامعة الحسن الثاني وعدد من المعاهد العليا ومراكز البحث والثقافة .

وموقع الدار البيضاء في المغرب وفي المنطقة عامة جعل منها واجهة للعالم الإسلامي وحلقة وصل بين غربه من جهة والقارة الأفريقية وأوروبا الغربية من جهة أخرى ، وبذلك تعتبر هذه المدينة مركزاً تتواجه فيه الثقافات وتتواجد في محيطه معالم حضارات مختلفة ، مما يجعله أرضية للحوار والعمل الثقافي والحضاري .

بناء على هذا أراد سمو الأمير جزاه الله خيراً أن يسهم في إغناء العمل الثقافي والبحث العلمي في هذه المدينة بمؤسسة رائدة تخدم المبادئ الإسلامية الراسخة وتؤكد حضور الثقافة العربية الإسلامية في هذا المركز .

وقد أرادها سموه أن تكون مؤسسة تقدم خدمات ملموسة وفعَّالة لجمهور المثقفين والباحثين في مدينة الدار البيضاء وفي المغرب عامة وكل من يرتادون مؤسسات البحث في هذه المنطقة ، فاستقرَّ رأي سموه على أن يجعل منها مؤسسة تستعمل أحدث التجهيزات المتوفرة في ميدان تسيير

المعلومات ومسايرة المعايير العصرية التي توفر للباحث والمثقف أكثر ما يمكن من الموارد بشكل عقلاني محكم .

لقد تمت عند انطلاق المؤسسة مشاورات واسعة مع مجموعة من الأساتذة والباحثين واستطلاعات وأبحاث ميدانية مركزة لاستجلاء نوعية الخدمات التي يمكن للمؤسسة أن تقدمها ، وبناء على ما لوحظ في مدينة الدار البيضاء من تواجد عدد مهم من المكتبات والخزانات الموجهة للجمهور الواسع ولطلبة المدارس والمعاهد والكليات وكذلك من وجود عدد من المراكز الثقافية الوطنية والأجنبية فقد تبين أن خدمة البحث العلمي الرفيع المستوى في ميادين تاريخ وحضارة العالم الإسلامي تشكل ميداناً يحظى باهتمام واسع من طرف المثقفين والباحثين ، ويوفر إمكانيات العمل الجاد والناجع بالنسبة لمؤسسة فتية مثل هذه .

بناء على هذه المشاورات وعلى ما أظهرته الاستطلاعات استقر رأي سموه على أن يسند مسؤولية الإشراف على إنجاز المشروع إلى مجلس إدارة يضم مجموعة من الشخصيات السعودية والمغربية المعروفة باطلاعها وخبرتها وغيرتها على المبادىء الإسلامية السمحة .

ـ ما هي أهداف هذه المؤسسة وما هي أقسامها ؟

ـ أهداف المؤسسة :

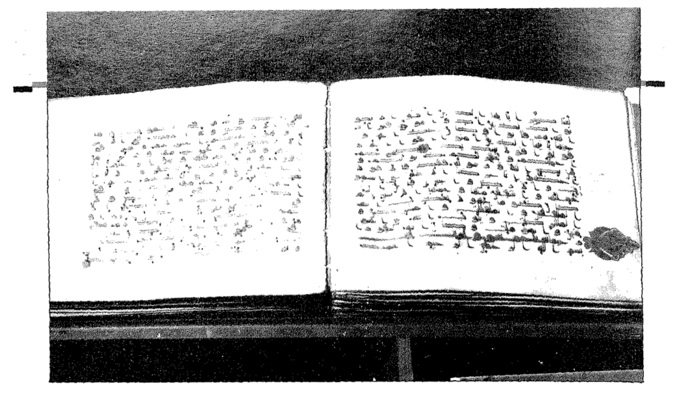
كما حددها النظام الأساسي للهيئة التي تم إحداثها وفقاً لمقتضيات القانون المغربي المتعلق بالهيئات الاعتبارية ، فإن أهداف المؤسسة هي كالتالي :

ـ تكوين وتسيير وصيانة خزانة ومركز للتوثيق في ميادين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية .

ـ تنظيم أنشطة ثقافية وعلمية في الميادين العلمية المشار إليها وذلك على شكل ندوات ومحاضرات .

ـ تشجيع النشر والتأليف في الميادين العلمية .

ـ المشاركة في المبادلات الثقافية والعلمية مع المؤسسات التي تتوخى نفس الأهداف .



ـ أقسام المؤسسة :

تتكون المؤسسة من مركّب يضم مساحة مبنية تقدر بـ ٩٠٠٠ متر مربع وتحتوي على :

● مسجد كبير بني حسب الطابع المعماري العربي الإسلامي والطابع المغربي المتميز بالفن المغربي الأصيل ، ويعدُّ مفخرة من مفاخر الإسلام في هذا البلد يستطيع استقبال ٣٠٠٠ مصلي ، وأصبح معلماً من المعالم التاريخية والحضارية وعرف منذ افتتاحه إقبالاً منقطع النظير نظراً للدروس الدينية التي تقام فيه .

● خزانة ومركز للتوثيق يوفران أهم موارد البحث العلمي حسب أحدث المعايير المعاصرة وباستعمال أحدث التجهيزات لتكون في مستوى طموحات الأمة الإسلامية إلى الازدهار والرقي الحضاري .

ـ أقسام الخزانة :

● قسم المراجع والتزويد : ينظم كل الموارد التي تتوصل بها الخزانة مثل الفهارس والمكانز والدوريات الببليوغرافية ويتتبع الإنتاج العلمي وانتقاء العناوين التي تطابق معايير تكوين مجموعات الخزانة مع متابعة الاتصال بالخزانات ومؤسسات البحث للتعرف على منشوراتها والحصول عليها بالتبادل .

● **قسم الفهرسة والتصنيف والتكشيف** : يعمل على فهرسة الكتب ، صيانة المجموعات ، تتبع التطورات في مواصفات الفهرسة وتبويب دفاتر العمليات ، وضع وتبويب ملفات المعلومات .

● **قسم المعلومات** : يعمل على صيانة الحاسب الآلي والتجهيزات المرتبطة به وكل العمليات المرتبطة بقواعد المعلومات الببليوغرافية وغيرها ، كما يعمل على إصدار فهارس الخزانة .

● **قسم الإدارة** : يشرف على كافة المسائل الإدارية : تزويد ، ضبط ملفات الموظفين ، صيانة التجهيزات والمقرات ، المحاسبة وتقديم مختلف الخدمات لرواد الخزانة .

● **قسم المخطوطات والكتب النادرة** : يعمل هذا القسم على شراء الكتب النادرة والمخطوطات والأطروحات والرسائل الجامعية ، صيانة ، استنساخ وفهرسة الكتب النادرة ، متابعة التبادل مع الخزانات والمؤسسات المحلية ، الوثائق الرسمية ، ترميم المخطوطات ، تصويرها . كما يشرف على مختبرات الميكروفيلم والميكروفيش وعلى معمل التجليد .

● **قسم الدوريات** : يقوم بتتبع الاشتراكات ، فهرسة المقالات التي تهم تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي ، صيانة المجموعات القديمة .

ـ خلال هذه الفترة حيث مضى على افتتاح هذه المؤسسة ثلاث سنوات ، ما هي الأعمال والمنجزات التي قامت بها ؟

قام صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز بتدشين المؤسسة في ١٢ شوال ١٤٠٥ الموافق لـ ٥ يوليو ١٩٨٥ م بصحبة ولي عهد المملكة المغربية الأمير محمد بن الحسن ومضى على تدشينها أقل من ثلاث سنوات قطعت المؤسسة أشواطاً كبيرة في تكوين خزانة علمية.بلغت المجموعات التي تحتويها حالياً ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ مجلد و١,٠٠٠ دورية باللغات العربية ، الفرنسية ، والإنجليزية . وفي ظرف وجيز استطاعت استقطاب آلاف الباحثين والأساتذة والطلبة الذين وفرت لهم كل الخدمات الضرورية لإنجاز أعمالهم العلمية في أحسن الظروف . ويعدّ مركز التوثيق بالخزانة قاعدة بيانات ببليوغرافية مسيَّرة بالحاسب قصد توفير إعلام ببليوغرافي دقيق وشامل وسريع ، وكان من أولى ثمار هذه القاعدة إصدار فهرس بمحتويات الخزانة من مؤلفات إسلامية ودراسات عن العالم العربي ، حول الغرب

الإسلامي (المغرب العربي ، الأندلس وأفريقيا المسلمة) وهذا الفهرس هو الآن جاهز ويمكن إرساله إلى كل من يرغب في اقتنائه .

وللمؤسسة برنامج ثقافي طموح يهدف إلى خدمة الثقافة العربية الإسلامية والتعريف بالأبحاث العلمية المخصصة للتراث العربي من جهة وللواقع الحالي للمجتمعات العربية الإسلامية من جهة أخرى .

فمنذ انطلاق المؤسسة تم تنظيم خمس ندوات حول مواضيع مختلفة تشمل مسائل متعلقة بـ « تجديد الدراسات حول الإسلام والعالم العربي » ، « تجديد الفكر الإسلامي » ، ندوة حول « مكتبات العلوم الإنسانية : ترشيد التنظيم ومعالجة المعطيات » ، ندوة حول « القانون والمحيط الاجتماعي في المغرب العربي » وندوة حول « المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي وضعية المجموعات وآفاق البحث » شاركت فيها نخبة من العلماء الأجلاء وأساتذة حضروا من المملكة العربية السعودية ، المشرق العربي ، المغرب العربي ، أوروبا وأمريكا .

ـ هل يوجد تعاون بينكم وبين المؤسسات الثقافية والتعليمية في العالم وما مدى هذا التعاون ؟

عملت المؤسسة على تكثيف علاقاتها مع المؤسسات العلمية في العالم العربي الإسلامي خصوصاً منها المؤسسات الثقافية في المشرق العربي سواء الجامعات أو مراكز البحوث أو الخزانات والمعاهد الدينية ...

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هي الحصول على كميات مهمة من منشورات علمية أساسية للتوزيع عبر السوق التجارية مثل المجلات التي تصدر عن الجامعات والهيئات العلمية والأطروحات وبعض المنشورات العلمية المتخصصة . ونلاحظ والحمد لله في هذه الفترة الوجيزة أن مبادرة الاتصال وطلب ربط علاقات تعاون أصبحت تأتي من مختلف الهيئات عبر العالم ، مما يظهر أن المؤسسة أصبحت الآن تتمتع بصيت جيد وسمعة طيبة مما جعلها تصبح مطلوبة لا طالبة .

ـ هل في نية المؤسسة ضم مجالات أخرى لنشاطاتها ؟

يتحدد نشاط المؤسسة في البرنامج السنوي الذي يقترحه مجلس إدارتها ويقره صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز وفي هذا الصدد يجب التأكيد على أن صيانة المجموعات

التي تم تكوينها ومواصلة الجهد المبذول في عرض رصيد غني ومتكامل من الموارد العلمية الأساسية يعدُّ في حدِّ ذاته عملاً كبيراً ويتطلب القيام بمجهودات كبيرة ومتواصلة لجعل هذه المؤسسة مكتسباً ملموساً ودائماً لفائدة البحث العلمي في هذه المنطقة من العالم العربي الإسلامي .

كما أن الأعمال الأخرى التي شرعت المؤسسة فيها ، لازالت في بدايتها من الواضح أنها تتطلب توظيف إمكانيات مادية وبشرية مهمة للقيام بها على الوجه المطلوب ، مثل إنشاء بنك للمعلومات حول تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي (المغرب العربي ، الأندلس وأفريقيا المسلمة) من جهة وبرامج الندوات والأنشطة الثقافية من جهة أخرى ، لذلك فإننا نظن أن برامج المؤسسة حالياً في مرحلة الانطلاق وأنها تعد بالكثير من العطاءات نطلب من الله عز وجل أن يساعدنا على القيام بها على الوجه الذي يرضيه ويرضي صاحب الفضل في إنشاء هذا المشروع وكل العلماء الأجلاء والباحثين الذين يتوجه لهم .

ـ ما هي أبرز الخطط المستقبلية التي تنوي المؤسسة تحقيقها ؟

لقد أوصى مجلس إدارة المؤسسة بأن تعمل الخزانة على جمع أكثر ما يمكن من الموارد العربية الإسلامية وأن تعمل على تقديم مجموعات متكاملة من الإنتاج العلمي العربي لجمهور المثقفين والباحثين في هذا الجزء من العالم العربي والإسلامي لتكون بمثابة الجسر الذي يربط بين مشرق العالم العربي ومغربه ويقارب بين العلماء والباحثين في شقيه . لذلك فإن الخطط المستقبلية للمؤسسة تتركز على توريد أكثر ما يمكن من أوعية المعلومات وخاصة منها تلك التي لا توزع عبر القنوات التجارية .

كما تدخل في إطار تلك الخطط ضبط تلك الموارد بالوسائل الحديثة التي يوفرها الحاسب الآلي بشكل يسمح بتقديم خدمات متكاملة وعصرية للبحث العلمي .

وأخيراً ستسهم المؤسسة بتنظيم أنشطة ثقافية تتركز حول التعريف بالأبحاث العلمية العالية المستوى التي تعرف بالتراث العربي الإسلامي من جهة وبالواقع المعاصر للمجتمعات العربية من جهة أخرى .

ـ بعد اختتام ندوة المخطوطات والتي عقدت في رحاب المؤسسة في الفترة من ٧-١٩٨٨/٤/٩ م ، نود أن تعطينا انطباعكم عنها وعن أبعادها ؟

لقد كانت هذه الندوة بالنسبة لنا حدثاً مهماً طالما ارتقيناه وتطلعنا إليه ، وقد سعدنا كثيراً لما وقع بالفعل واجتمع في رحاب هذه المؤسسة ذلك الجمع الغفير من أهم المسؤولين عن مجموعات المخطوطات الإسلامية في أكبر الخزانات الدولية والمهتمين والباحثين والمختصين في دراسة التراث العربي الإسلامي .

وقد كانت تلك الندوة والحمد لله كما أردناها وكما خططنا لها وفق التوجيهات السامية لصاحب السمو الملكي أدام الله عزه شبه مؤتمر عام تمت خلاله دراسة مختلف القضايا المتعلقة بالتراث العربي الإسلامي المخطوط فتبودلت أثناءه معلومات ثمينة حول وضعية المجموعات المتواجدة في خزانات أوروبا وأمريكا والمغرب العربي ونوقشت بإسهاب الوسائل والتقنيات الكفيلة بفهرسته وصيانته وتقديمه للبحث العلمي .

وأخيراً نوقشت الكيفية المثلى لتوظيف ذلك التراث في البحث العلمي المعاصر بصفة خاصة وفي بناء تصور متكامل للأعمال الجبارة التي قام بها العرب والمسلمون في الحقل العلمي والثقافي وبناء تصور جديد للشخصية العربية الإسلامية .

ومن أهم أبعاد هذه الندوة تلك التدابير التي اتخذت لضمان استمرار الاتصال والتعاون والتنسيق بين كل الأطراف التي حضرت الندوة ومن أهمها تكوين لجنة تقنية كلفت بوضع قواعد موحدة لعملية الوصف والفهرسة والتي تهدف إلى تقديم معلومات متكاملة للباحثين المهتمين بالميدان .

ـ هل في نية المؤسسة عقد ندوات أخرى في مواضيع جديدة ؟

نعم فكما أوصى مجلس الإدارة تقوم المؤسسة بتنظيم مناظرة علمية كل سنة في أحد مجالات المعرفة التي تغطيها وداخل إطار اختصاص الخزانة وتوجيهاتها في التعريف بالأعمال العلمية والاتجاهات الفكرية المرتبطة بتاريخ وحضارة العالم العربي عامة والغرب الإسلامي خاصة (المغرب العربي ، الأندلس وأفريقيا المسلمة) .

لقد أصبحت هذه المؤسسة تحتل والحمد لله مكانة بارزة بين مرافق البحث العلمي وأصبحت تعد قبلة لكل العلماء الأجلاء والمثقفين والمهتمين في هذه الربوع ، مما يزيد في عزمنا على المضي قدماً في العمل على تحقيق توجيهات صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله ابن عبد العزيز آل سعود « حفظه الله ورعاه » ■

الأسرة الشاعرة

بين الوراثة والاكتساب

● د . محمود جبر الربداوي ●

في الأدب العربي ظاهرة يكاد ينفرد بها من بين الآداب العالمية الأخرى فيما أعلم[1] تلكم الظاهرة هي ظاهرة (الأسر الشاعرة) ، ونعني بالأسر الشاعرة تلك الأسر التي ينبغ فيها شاعر متميز ثم لا يقف جيل الشعر عنده ، وإنما يتوالى في نسله وذراريه ، ويتوارث ذووه من أبناء وبنات وأخوة وأخوات موهبة الشعر هذه ، ثم تتواصل هذه الموهبة عبر الأحفاد وأبناء الأحفاد ، لتصل أحياناً إلى أحفاد الأحفاد ، ولو كانت هذه الظاهرة مقصورة على أسرة بعينها أو أسرتين لما غدت ظاهرة يجدر الوقوف عندها ، ولكنَّها من التوفر والشيوع بمكان كبير ، توفراً يجعلها غير قاصرة على عصر واحد فقط ، وإنما تتجاوز العصر الأدبي إلى عصرين وربما إلى ثلاثة ، إذ ينبغ الشاعر ، عميد الأسرة ، في العصر الجاهلي مثلاً ، ويتوالى بنوه وأحفاده في عصر صدر الإسلام ، وقد يوغل هذا التواصل فيعبر العصر الأموي إلى العصر العباسي ، هذا من الناحية الزمنية أو (العصرية) إن صحت التسمية ، وأمَّا إذا أمعنا النظر في البعد الأفقي لهذه الظاهرة وجدناها ، في العصر الواحد ، غير مقصورة على أسرة واحدة ، وإنما هناك أسر كثيرة متعددة ، في العصر الواحد ، أو في البيئة الواحدة ، وهذا ما جعل هذه الظاهرة تخرج من حيِّز الملاحظة الأدبية ، وترتقي إلى مستوى الظاهرة الأدبية التي تسمح بالدراسة المتعمقة المتميزة بالغنى والعمق والشمول .

وإنني لشديد الاعتقاد بأن المكان الطبيعي لدراسة هذه الظاهرة إنما يجب أن يكون في ظل الدراسات التي عنيت بدراسة شعر القبائل ، وطبيعي أن يكون المهتمون بشعر قبيلة معينة أقدر على تلمس خصائص أسرة ما تنتمي إلى قبيلة معينة ، ففي ظل انتماء هذه الأسرة لتلك القبيلة يتبين الباحث التفاعلات الاجتماعية والفكرية واللغوية بين القبيلة بوصفها مؤسسة « اجتماعية » كبيرة ، والأسرة بوصفها وحدة « صغيرة » من وحدات هذه المؤسسة الاجتماعية الكبرى ، ولعله من نافلة القول أن نعيد إلى الأذهان صورة الفخر الذي كان يتملك القبيلة بأسرها عندما ينبغ فيها شاعر ، وصور التعبير عن هذا الفخر والاعتزاز بإيلام الولائم ، وما يصاحبه من مظاهر الفرح والغبطة .

ولكن الدراسات التي عنيت بشعر القبائل كانت تنطلق من دراسة الشاعر بوصفه الوحدة الصغرى في القبيلة التي هي موضوع الدراسة ، وتنتهي إلى الصورة الشمولية بدراسة خصائص القبيلة كلها بصفتها وحدة كبرى لها مجموعة خصائص الوحدات الصغرى الداخلة فيها ، ولكنها ، في إطار هذا المرور من الوحدة الصغرى : الشاعر ، إلى الوحدة الكبرى : القبيلة ، تغفل الوقوف بالدراسة عند الوحدة الوسطى التي هي الأسرة ، ولهذا ضاعت دراسة الأسر الشاعرة في ثنايا النظرات الجزئية أو الكلية ، فدرست الأسرة في إطار شعراء مستقلين ، كأن لم يربطهم رابط بأقاربهم الأدنين ، أو أنهم درسوا بصفتهم ينتمون إلى هذه المجموعة الكبيرة المعبر عنها بالقبيلة .

ومن المسلم به أن (الشعر القبلي) قد حظي باهتمام الدارسين منذ القديم حتى هذا الزمن الحديث ، ولعل أقدم ملاحظة عن جمع شعر قبيلة معينة في كتاب ما نلاحظه في شعر (بشر ابن أبي خازم) الذي قرأ شيئاً في كتاب (بني تميم) إذ يقول :

قرأنا في (كتاب بني تميم) : أحق الخيل بالركض المعار

وإن فاتنا الاطلاع على هذا الكتاب فإنه لم يفتنا الاطلاع على كتب أشعار القبائل التي ألفها (أبو سعيد السكري) والتي بلغت ـ كما يقول ابن النديم في الفهرست[٢] ـ خمسة وعشرين ديواناً . في أيدي الناس منها (ديوان الهذليين) ، أما الآمدي فقد عدد لنا أسماء ستين ديواناً من دواوين أشعار القبائل[٣] ، واقتبس هو منها ، وقد سبقه أبو تمام إلى تأليف كتابين في هذا الاتجاه القبلي أحدهما اسمه (الاختيار القبائلي الأكبر) والثاني (الاختيار القبائلي)[٤] هذا بالإضافة إلى مجموعة غير قليلة من العلماء في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الذي عنوا عناية شديدة بجمع أشعار القبائل وشرحها والتعليق عليها ، وفي زمننا الحديث يطالع الباحث مجموعة طيبة من الدراسات لأشعار القبائل دراسة أكاديمية جادة أضافت الكثير من المعرفة عن الشعر القبلي وخصائصه[٥] . ولكن يظل الشعر في إطار الأسرة الصغيرة غير ذي بال عند هؤلاء الدارسين . وعلى الرغم من أن كتب (الشعر والشعراء)

وكتب تاريخ الأدب العربي تحفل بأسماء الكثيرين من الشعراء بعضهم المشهورون وبعضهم المغمورون ممن ينتمي إلى أسرة واحدة ، إلا أن هذه الأسماء ترد في كثير من الأحيان مفككة لا تلمح فيها رابطة الأسرة ، ولا تكتشف هذه الرابطة إلا بقسط غير قليل من الجهد المقتصد ، والتتبع الهادف الذي قد يكون مضنياً في بعض الأحيان . صحيح أن المصادفة قد تلعب دوراً في كشف صلة النسب القريبة بين شاعر وآخر ، ولكن المصادفة وحدها ليست بكافية لتقديم المادة الأولية المطلوبة لإقامة الدرس والبحث ، فلابد ، والحالة هذه ، من التتبع والاستقصاء والاستعانة بالأخبار الرافدة والمعلومات الموضحة التي تصل بالباحث إلى درجة اليقين واستنباط ملاحظاته وتدوينها بقدر غير قليل من الثقة .

ومما يؤكد على أن هذه الظاهرة ، أقصد ظاهرة الأسر الشاعرة ، مما ينفرد به الأدب العربي ، وقد لا يشاركه فيها أدب آخر هو شدة عناية العرب بالأنساب ، الأنساب على نطاق الأسرة الصغيرة ، والأنساب على نطاق القبيلة الكبيرة ، عناية تجاوزت حد القصد إلى حد المبالغة والغلو ، وأحياناً قليلة إلى حد التلفيق ، لأن العربي ، شاعراً كان أم غير شاعر ، يأنف أن يظل خارج إطار الوعاء الاجتماعي الذي هو القبيلة ، فلهذا يلتمس كل الأسباب والوسائل التي تبلغه الانتماء لأي تجمع صغير ، هو جزء من تجمع أكبر منه فتتألف الأفخاذ والبطون والفروع وتنتهي إلى الأصول وكبريات القبائل ، وهذا الانتماء يضمن له بالإضافة إلى الأمن الاعتزاز والمناخ الذي يسمح بتفتح الشاعرية والعناية الجماعية بها . ولهذا قلت أن الأجدر بدراسة هذا الموضوع هم المتخصصون بدراسة أشعار القبائل لأن دراسة الأسر الشاعرة هي ، في ذاتها ، دراسة لأشعار القبائل في أصغر وحداتها الاجتماعية التي هي الأسرة .

رب معترض يعترض علينا ، هازلاً أو جاداً ، فيقول : لماذا تحاول أن تثبت أن أسرة ما أو قبيلة نبغ أفرادها في قول الشعر ، فتوارثوه وتتابعوا في قرضه ، ونحن نعلم أن الأمة العربية وليست الأسرة العربية أو القبيلة العربية ، أمة شعر ، لا يضاهيها في دلك أمة أخرى ، حتى ليكاد يكون كل عربي شاعراً ، فإذا كان العرق العربي كله يتمتع بالشاعرية ، فمن المسلم به أن جميع أفراده سواء كانوا منتسبين إلى أسرة صغيرة أم كبيرة يحملون في موروثاتهم العرقية قدراً من الشاعرية التي تبرز إلى حيز الوجود عندما

تتوفر لها الشروط الملائمة . وهذا الاعتراض في ظاهره صحيح ، ولكن أن يزعم زاعم أن كل فرد من هذه الأمة العربية شاعر بالفطرة ، مستمد حكمه هذا من الكثرة الكاثرة من الشعراء الذين أنجبتهم الأمة العربية على مر الدهور ، فهذا اعتراض مرفوض ، ذلك أن هذه (الكثرة الكاثرة) من شعراء العربية الذين لمحناهم على مر العصور لا يسوغون أن يكون كل العرب شعراء ، ويبطلون نظرية البحث عن الشعر المتوارث في نطاق الأسرة ، لأن نسبة الشعراء في كل جيل تكاد لا تذكر أمام نسبة السواد الأعظم من عامة الناس ومن غير الشعراء منهم ، فالشعراء الذين أحصتهم كتب (الشعر والشعراء) وذكرتهم كتب تاريخ الأدب عبر عصور متعددة يظلون قلة أمام ذلك السواد الأعظم من الناس الذين

لا يتمتعون بميزة (الشاعرية) ، ولذلك يظل البحث عن هذه (الميزة) ومتوارثيها في إطار الأسرة الواحدة له ما يسوغه ، ويحمس الباحث على الولوج فيه .

يقع الدارس للعصر الجاهلي على مجموعات كثيرة من الشعراء ، تربط بين بعضهم روابط الأسرة كقرابة الدم أو قرابة النسب كالأخوة والبنوة والخؤولة والعمومة ، مثل ذلك ما نجده في المجموعة التي فيها (طرفة بن العبد) وأخته (الخرنق) ولست أدري من أين ورثا موهبة الشعر أمن خالهما (المتلمس) أم من عمهما (المرقش الأصغر) الذي هو بدوره ابن أخي الشاعر (المرقش الأكبر) وهذا الأخير عم (عمرو بن قميئة) الشاعر المشهور ، وكل هؤلاء مجموعة من الشعراء ينحدرون من آباء شعراء ، وينحدر منهم أبناء شعراء ، غير أن تشابك نسب هذه المجموعة يوقعنا في الاضطراب ، فلنأخذ مجموعة أخرى من شعراء العصر الجاهلي تساعدنا على وضوح الرؤية أكثر من المجموعة السابقة ، ولتكن المجموعة (الهذلية) التي على رأسها الشاعر المشهور (أبو خراش الهذلي) ، وقد عدّه الأصبهاني من فحول الشعراء الجاهليين وإن كان قد أدرك الإسلام فأسلم فحسن إسلامه ، يشاركه في الشاعرية أخوه (أبو جندب الهذلي) وهو أحد الفرسان الموهوبين والشعراء سليطي اللسان في الجاهلية والإسلام ، يشارك هذين الأخوين أخ ثالث لهما اسمه (الابحّ بن مرة الهذلي) ترجمت أشعاره إلى الألمانية مع أشعار أخويه أبي جندب وأبي خراش ، ومالي أعدد هذه الأسرة واحداً واحداً ،ففي كتاب (تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين يعدد تسعة من أخوة أبي خراش ويصفهم بأنهم كلهم شعراء على تفاوت في نسبة الشاعرية لدى كل واحد منهم[٦] . فالسؤال الذي ينشأ في الذهن الآن : لماذا يوضع الشعر في هؤلاء الأخوة التسعة ؟ أهناك ميراث واحد اقتسموه فنال كل واحد منهم نصيباً ؟ قد يقول قائل إن موهبة قول الشعر ليست مقصورة على هؤلاء الأخوة من هذه القبيلة ، فالذي نعرفه أن شعراء هذيل يعدون بالعشرات ، بعضهم يمكن أن يندرج في النظام الأسري المشار إليه ، ولكن بعضهم الآخر لا يخضع لهذا النظام ، وإنما هم ينتمون لقبيلة شاعرة ، لا لأسرة شاعرة وهذا القول صحيح أيضاً ، ولكن أن يكثر الشعراء في قبيلة واحدة لا يلغي وجهة النظر التي تذهب إلى إمكانية تكاثف هؤلاء الشعراء في داخل الأسرة الواحدة بفعل وراثة المواهب الفنية ، ومن الطريف أن بعض أفراد الأسرة الواحدة لا يرثون الموهبة الفنية ، بل يرثون المنزع النفسي الكامن وراء الموهبة الفنية ، فهذا أبو جندب الهذلي كان شاعراً سليط اللسان في الجاهلية والإسلام ، وكان أخوه الأبح بن مرة شاعراً هجّاءً ذا نزعة عدوانية .

ولعل من الأمثلة الأكثر دلالة على ما نقول : أسرة الشاعر الجاهلي المشهور زهير بن أبي سلمى ، فوالده (أبو سلمى) المسمى (ربيعة ابن رياح المزني) كان شاعراً ، وابنتاه سلمى والخنساء كانتا شاعرتين . وابنته سلمى هذه ، تزوجت رجلاً اسمه (عمرو) فولدت له مجموعة أولاد كانوا كلهم شعراء . ولنترك فرع سلمى لنتابع تسلسل الشعراء في فرع أخيها زهير ، فمعلوم أن زهيراً تزوج امرأتين

الأولى (أم أوفى) وهذه لم تترك عقباً ، والثانية (كبشة بنت عمار) التي ولدت لزهير ثلاثة أولاد : بجير وسالم وكعب ، وكل الناس يعرفون أن (كعب بن زهير) شاعر ، وكان أخوه (بجير ابن زهير) شاعراً أيضاً ، وهو الذي أسلم قبل كعب وحض أخاه كعباً على الإسلام وقد أرسل له كعب رسالة قال فيها :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة — فهل لك فيما قلت في الخيف ، هل لكا ؟
شربت مع المأمون كأسا روية — فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته — على أي شئ ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا — عليه ، ولم تدرك عليه أخا لكا

فأجابه بجير :

من مبلغ كعبا ، فهل لك في التي — تلوم عليها باطلاً ، وهي أحزم
إلى الله (لا العزى ولا اللات) وحده — فتنجو ، إذا كان النجاء ، وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت — من النار إلاَّ طاهر القلب مسلم
فدين زهير ، وهو لا شئ دينه — ودين أبي سلمى عليّ محرم

وقصة قدوم كعب على الرسول (ﷺ) وإسلامه وإنشاده قصيدته (البردة) بين يدية استفاضت في الحديث عنها كتب الأدب .

وإذا أحجمنا الآن عن حديث الشعر ، ومضينا إلى ما يهمنا من تتابع الشعر في نسل زهير وابنه كعب ألفينا كعباً يخلف ولدين : ذكراً وأنثى ، الذكر منهما اسمه (عقبة بن كعب) وهو المشهور في تاريخ الأدب بلقبه (المضرَّب) ، وهو الذي تُنسب إليه الأبيات الحائية(٧) التي تداولتها كتب النقد ، ومنها الأبيات :

ومازلت ترجو نفع سلمى وودها — وتبعد ، حتى أبيض منك المسائح
وحتى رأيت الشخص يزداد مثله — إليه ، وحتى نصف رأسي واضح
علا حاجبيّ الشيب ، حتى كأنه — ظباء جرت منها سنيح وبارح
ألا ليت سلمى كلما حان ذكرها — تبلغها عني الرياح اللوافح
وهزة أظعان عليهن بهجة — طلبت ، وريعان الصبابي جامح
فلما قضينا من منىً كل حاجة — ومسَّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا — ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا — وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

وعقبة بن زهير خلّف أولاداً ثلاثة : عبد الرحمن وضرغاما والعوام ، وعبد الرحمن هو والد الشاعر (بشير بن عبد الرحمن) أما (العوام) فهو شاعر رقيق ، من شعره الأبيات الغزلية المشهورة[٨] .

وخبرت ليلى بالعراق مريضة فأقبلت من مصر إليها أعودها
فوالله ما أدري إذا أنا زرتها أأبرئها من دائها أم أزيدها

وقفت عند هذه الأسرة أطول من غيرها لاعتبارات كثيرة ، منها : أن هذه الأسرة توارث الشعر فيها كابر عن كابر ، سرى الإرث الشعري من الآباء إلى الأبناء ، ثم إلى الأحفاد ، وتوالى إلى أحفاد الأحفاد ، بدءاً من (ربيعة بن رياح) الجد الأكبر ، الذي عاش هو وابنه زهير في العصر الجاهلي ، وانتهاء بـ (بشير بن عبد الرحمن) و(ابن ميادة) حفيد (سلمى بنت كعب) اللذين أدركا العصر العباسي ، فهي سلسلة تطاولت حتى اخترقت عدة عصور أدبية ، ولعله لهذا الاعتبار قال ابن قتيبة : « ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير »[٩] . فهذه الشهادة من ابن قتيبة دفعتني إلى استقصاء أعلام هذه السلسلة . وثمة أمر آخر جعلني اهتم بهذه الأسرة وأقف عندها طويلاً ، على الرغم من أن بعض أعضاء هذه الأسرة عاش في الحقبة الجاهلية كزهير الشاعر الجاهلي الذي كان أبوه ربيعة شاعراً جاهلياً أيضاً ، وخاله بشامة بن الغدير من فحول الشعراء الجاهليين ، أقول على الرغم من أن هؤلاء جاهليون ، وقالوا شعراً كثيراً في الجاهلية ، وهناك نظرية قديمة تذهب إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي منحول ، وربما تطرفت هذه النظرية فزعمت أن بعض الشعراء الجاهليين ليس لهم وجود في الحقيقة ، وإنما هم أشخاص متخيلون متوهمون نسبت إليهم أشعار وألصقت بهم لأسباب واعتبارات استفاضت في ذكرها كتب الدراسات الأدبية ، ونادى بها بعض المستشرقين وبعض الدارسين من العرب ، ولكن هذه التهمة لا يمكن أن توجه إلى أعضاء هذه الأسرة ، لأن كل واحد كان ـ في الغالب ـ راوية لأبيه قبل أن يصبح شاعراً مستحصد الشاعرية ، فكون هذا الشعر الجاهلي انحدر إلينا رواية لابن عن أبيه ، وهي رواية موثوقة ، حتى وصل إلى عصر التدوين ، فالشعر المروي بهذه الطريقة شعر موثق إلى درجة كبيرة من الثقة ، ويترتب على هذه الثقة أننا نستطيع أن نستخلص خصائص الشعر وميزاته بقدر غير قليل من الطمأنينة ومجانبة الحذر . كما يترتب على هذا أننا ، بفضل ما استخلصناه من خصائص فنية متوفرة متواترة في شعر الأسرة الواحدة ، نتيجة عنصر الوراثة وعنصر الاكتساب بالرواية ، نستطيع أن نحدد ملامح مدارس فنية شعرية ، لها خصائص مميزة وسمات واضحة ، كأن تكون هناك مدرسة (زهيرية) ابتدع الجد الأول خصائصها وأعطاها طابع سماتها المعروفة بتقليب وجهات النظر في صنيعه الفني ، ثم انحدرت إلى أولاده وأحفاده ، ولا أقول ـ هنا ـ بفعل الوراثة ، وإنما بفعل الرواية ، وهو ما سأتحدث عنه بعد قليل ، وبهذا المنظور يخرج أوس بن حجر من (المدرسة الأوسية) التي درج بعض الأدباء على اعتبارها نموذجاً لمدرسة جاهلية لها خصائصها في الشكل والمضمون والمنهج[١٠] ، فبدلاً من أن يكون

أعلام المدرسة الأوسية على النحو التالي : (أوس وزهير وكعب والحطيئة وجميل وكثير) يمكن أن يكون أعلام مدرسة الأسرة (الزهيرية) على النحو التالي : (زهير وبجير ، وكعب وعقبة والعوام وبشير والقريض والعوبثان وابن ميادة) لتواترهم في الرواية التي تستدعي وتستقطب مجموعة من الميزات والسمات ، وحتى اللهجة أو اللغة التي تنفرد بها بعض الأسر التي تنتمي إلى قبائل لها ميزات لغوية أو لهجية ، كالذي نجده من ميزات لغوية طائية في شعر أسرة (زيد الخيل) وأبنائه الشعراء (عروة والحريث والمهلهل)[١١] . ومادمنا في معرض الحديث عن خصائص شعر الأسر في إطار القبيلة يمكننا أن نشير إلى قبيلة (هذيل) التي سبق أن ذكرنا منها أسرة (أبي خراش) وأخوته التسعة الشعراء ، ونضيف إلى تلك الأسرة أسرة أخرى هي أسرة (أسامة بن الحارث الهذلي) وأخيه (مالك ابن الحارث) و(سهم بن أسامة بن الحارث الهذلي) و(إياس بن سهم) و(أمية بن عائذ) ابن أخي سهم ، وهاتان الأسرتان تتسمان في كثير من خصائصهما بالصفات التي يتصف بها أكثر شعراء قبيلة هذيل ، نتيجة وحدة التفكير النابعة من وحدة المصير ، ونتيجة المعطيات البيئية المتقاربة لدى كل أفراد قبيلة هذيل التي تنساح فوق حيز مكاني وزماني محددين . رب قائل يقول إن هذه الفروق الفنية والمحيطية وحتى اللغوية المتصورة بين القبائل التي أعطى شعراؤها مجموعة الشعر الجاهلي ، هي فروق متصورة ، وخصائص قبلية متخيلة ، ليس لها ما يعضدها في واقع الأمر ، ويؤيد هذا القائل رأيه الذي يذهب إليه بأن العرب في جاهليتهم كانت قبائلهم تلتقي حول الكعبة ، وتلتقي في الأشهر الحرم في عكاظ ، ويلقي شاعر كل قبيلة شعره على مسامع جمهور القبائل الأخرى ، بالإضافة إلى الرحلات التجارية ، ورحلات البحث عن طلب الكلأ والمرعى ومحافل السمر ، كل ذلك ذوّب الفروق الفردية من اللهجات المحلية ، والمعطيات البيئية ، وأصبحت الجزيرة العربية لغة شبه موحدة انصهرت فيها جميع الفروق التي كانت تتميز بها القبائل في إطاراتها المحدودة ، وعلى الرغم من تأييدنا لأكثر هذا القول فإن الفروق اللهجية بين القبائل ، وخاصة القصصية منها ، ظلت قائمة ، كما أن العقلية البدوية وما يحيط بها من معطيات تستمد منها تصورها ومقومات ذهنيتها تختلف عن العقلية الحضرية ، ولعله لهذا السبب ولتلك الفروق تنبه ابن سلام الجمحي عندما ألف كتابه (طبقات فحول الشعراء) فقسم الشعراء إلى شعراء الحاضرة فأفردهم عن شعراء البادية ، آخذاً بعين الاعتبار المعطيات البيئية وما تستتبعه من تصورات ذهنية وفنية ، ولعله أيضاً بسبب الفروق التي تفرضها طبيعة المحيط ، وما يتوضّع فيه من قبائل ، قسم شعراء الحاضرة إلى مكيين ومدنيين وطائفيين وبحرانيين ، ولتميز قبائل النحلة اليهودية بفروق لا يكاد يدركها إلا المتمرسون ، جعل شعراء اليهود طبقة قائمة بذاتها . ويمكن أن تكون مثل هذه الفروق البسيطة التي تميز شعر كل قبيلة وتسود في معاني شعرائها وألفاظهم ، هي التي جعلت رجلاً كأبي سعيد السكري ينفق جهداً كبيراً في تصنيف الشعر على أساس قبلي ، فيجمع شعراً لأكثر من خمس وعشرين قبيلة . كل قبيلة على حدة ، ومثل هذا يقال عن أبي عمرو الشيباني الذي جمع وعمل ـ كما قال ابنه ـ شعر نيف وثمانين قبيلة[١٢] وأودعها في مسجد الكوفة ، كما أن محمد بن حبيب تناول

شعر القبائل من الناحية الشكلية ، فألف (متفق القبائل) و(مختلف القبائل) و(تسمية شعراء القبائل) و(فهرسة أسماء الشعراء في القبائل) و(كتاب القبائل الكبير والأيام) جمعه للفتح بن خاقان في نيف وعشرين جزءاً في كل جزء مئتا ورقة وأكثر[١٣] وغير ذلك . وكم تكون معرفتنا ثرية عن القبائل ، ولهجاتها وما يحيط بها لو أن مثل هذه المصنفات سلمت من عوادي الدهر فوصلت إلينا .

هناك أسرة شاعرة كبيرة أريد أن أقف عندها قليلاً ، لاعتبارات سنتبينها من خلال العرض ، وهذه الأسرة هي أسرة (آل أبي حفصة) وهي أسرة عرفت في التاريخ الإسلامي وتاريخ الشعر العربي منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى منتصف القرن الرابع منه . وعميد هذه الأسرة رجل اسمه يزيد ، لم يكن عربياً صليبيةً ، كما تتفق على ذلك أغلب الروايات ، وإن كان من بينها من يذهب إلى عروبة الرجل فإنه من قبيلة (عكل) العربية والأرجح أنه كان مولى لعثمان بن عفان ولكاتبه مروان بن الحكم ، فأعتقه مروان ، لنجابة كانت فيه ، وزوَّجه أم ولد كانت له اسمها (سكر) ولها من مروان بنت اسمها (حفصة) . فحضنها يزيد ، فعرف (بأبي حفصة) ومهما يكن من أمر الرجل فإنه وذريته وأحفاده قد صاهروا الأشراف من بني تميم وامتزجوا بصميم القبائل العربية ، واستوطنوا اليمامة في صميم الجزيرة العربية ، وتملكوا فيها ، وكثر عددهم ، فأصبحوا من أهلها .

وهنا أتصور أن مذكراً يذكِّرني بأنني ابتدأت حديثي عن (الأسر الشاعرة) وقررت أن ظاهرة الأسر الشاعرة (يكاد) ينفرد بها الأدب العربي ، فها أنذا الآن استشهد بأسرة شاعرة ليست عربية الأصل ، فكيف يمكن التوفيق بين تلك الفكرة وهذه ؟ والجواب ينحصر في عدة نقاط :

١ ـ قلت إن هذه الظاهرة (يكاد) ينفرد بها الأدب العربي . ولفظة (يكاد) تسمح بأن تكون مثل هذه الظاهرة موجودة في غير الأدب العربي ، وإن كانت غير متوفرة فيه توفرها في الأدب العربي، وأردت من (يكاد) أن أتحدث عن ظاهرة في حدود علمي ، وفوق كل ذي علم عليم ، فقد تكون هناك ظاهرة مشابهة لها في آداب أمم أخرى لم يصل إليها علمي ، علماً بأنه كثر الحديث ، في هذا الزمن ، عن أسر في الغرب والشرق توارث أفرادها عبقرية الفن أو الاختراع أو الشعر أو المناصب المرموقة ، وواصل الخلف النبوغ الذي بدأ به السلف .

٢ ـ لو سلمنا أن عميد هذه الأسرة (أسرة آل أبي حفصة) كان مولى ، فنحن لا ننفي النبوغ عن الموالي ، ولا ننفي أن يورث هؤلاء النابغون ذراريهم شيئاً من نبوغهم . فهذه مسألة (بيولوجية) ـ سنناقشها بعد قليل ـ ولكننا عندما وصفنا الأدب العربي بأنه يكاد ينفرد بهذه الظاهرة ، عللنا ذلك بأن العرب محافظون ، إلى حد كبير ، على الأنساب ، ولذلك يبحث الباحث في هذه الظاهرة ، وهو مطمئن إلى أنه يضع قدمه على أرض صلبة ، قوامها نقاء النسب ، ووضوح الوراثة . والذي يقدر له أن يتحرى نسب هذه الأسرة يتضح له أن أفرادها امتزجوا امتزاجاً صميمياً بقبائل عربية عريقة مثل تميم كتزوج (يحيى بن أبي حفصة) من (أميرة بنت زياد بن هوزة بن شماس من بني أنف الناقة

من سعد بن زيد مناة من تميم) (وهي التي ولدت له ابنه جميلاً ، وقيل أيضاً أن يحيى تزوج بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري ، ومعروف ما هو موقع إبراهيم وأبيه النعمان وجده (بشير) من الأنصار ، ويروون أيضاً أن يحيى هذا خطب من مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم بنتيه وأختيه ، فأنعم له بذلك ، فبعث يحيى إلى بنيه فأتوه فتزوجوهن[١٤] ، وأن شريفة بنت المزلق بن قيس بن عاصم المنقري كانت زوجة لجميل بن يحيى وأما للمؤمل . ولنعد ، بعد هذا التوضيح الذي لابد منه ، إلى أسرة (آل أبي حفصة) فشيخ هذه الأسرة تزوج مولاة لبني عامرة ، فولدت له عدة أولاد هم : يحيى ومحمود وعبد الله وعبد العزيز . وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن أم يحيى بن أبي حفصة هي (لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي) ، وعقب أبو الفرج على ذلك بقوله : « وأن الشعر أتى آل أبي حفصة بذلك النسب »[١٥] وهذه إشارة مهمة جداً ، ولفتة علمية مبكرة ، تشير إلى انتقال الموهبة الشعرية بالوراثة . على كل حال إذا لم يكن الشعر قد انتقل لآل أبي حفصة عن طريق الأم ، فالأب وهو أبو حفصة كان شاعراً ، أورد له أبو الفرج في شعره في يوم (الدار) قوله :

وما قلت ، يوم الدار ، للقوم : صالحوا — أجل ، لا ، ولا اخترت الحياة على القتل
ولكنني قد قلت للقوم : جالدوا — بأسيافكم لا يُخلَصَنّ إلى الكهل

وجاء ابنه يحيى شاعراً ، قال عنه صاحب الأغاني : « ليحيى أشعار كثيرة ، وإنما ذكرناها هنا لتعرف أعراق مروان من الشعر . »[١٦] وننبه ـ هنا ـ إلى كلمة (أعراق) ومن شعره المذكور في الأغاني :

لا يصلح الناس إلا السيف إذ فتنوا — لهفي عليك ولا حجاج للدين
لو كان حياً غداة الأزد إذ نكثوا — لم يحص قتلاهم حسّاب ديرين
لم تأته الأزد عند الباب تربصه — مثل الجراد تنزّى بالتبابين

وليحيى هذا ولد شاعر غزل اسمه (جميل بن يحيى) يلقب بـ (قتيل الهوى) من شعره :

قلن : من ذا ؟ قلت : هذا اليما — مي ، قتيل الهوى أبو الخطاب
قلن : بالله أنت ذاك يقينا ؟ — لا تقل قول مازح كذّاب
إن تكن أنت هو ، فأنت منانا — خالياً كنت أو مع الأصحاب

ولجميل ولد شاعر غزل أيضاً اسمه (المؤمل بن جميل) من شعره :

ياأخ من حر الهوى إنما — يعرف حر الحب من جربا
أصبحت للحب أسيراً فقد — صعدني الحب ، وقد صوبا
لاشك أني ميت حسرة — إن لم أزر ـ قبل غد ـ زينبا
تلك التي إن نلتها لم أبل — من شرّق ـ الدهر ـ ومن غرّبا[١٧]

ولو تركنا الشاعرين جميل بن يحيى ، وابنه المؤمل بن جميل ، والتفتنا إلى سليمان بن يحيى لوجدنا

له ولدين شاعرين أحدهما (مروان بن أبي حفصة) الشاعر المشهور ، وسنعود إلى سلسلة أولاده بعد قليل ، والثاني من أولاد سليمان اسمه (إدريس بن سليمان) ، وهو أديب شاعر ، له في الأدب كتاب عن (اليمامة)[١٨] وله في الشعر قصائد ذكر بعضها صاحب الحماسة البصرية ، وذكر بعضها صاحب الأغاني ، ومنها رثاؤه لإسحق بن إبراهيم الموصلي بقصيدة منها :

سقى الله يابن الموصلي بوابل ... من الغيث قبراً أنت فيه مقيم
ذهبت فأوحشت الكرام ، فما يني ... بعبرته يبكي عليك كريم
إلى الله أشكو فقد إسحق ، إنني ... - وإن كنت شيخاً بالعراق - يتيم

ولأبي الفرج الأصبهاني تعليق لطيف ، ذكره وهو يترجم لإدريس بن حفصة ، وهو تعليق ذو دلالة مهمة على أن السجايا والطباع وبعض السمات النفسية تخضع للوراثة ، يقول أبو الفرج : « إن إدريس هذا كان سخياً من بين آل أبي حفصة » فكأنه يريد أن يصف سخاءه بأنه شذوذ على القاعدة المضطردة في الأسرة وهي سجية البخل التي توارثتها الأسرة ، فهل يفهم من هذا القول أن السجايا والمواهب يرثها المرء من والديه كما يرث لون بشرته ولون شعره ولون عينيه ؟ هذا تساؤل سنطرحه للنقاش في الصفحات القادمة . ولنعد إلى الفرع الثاني من فروع سليمان ، وهو فرع ابنه مروان ، المسمى بـ (مروان الأكبر) وهو الشاعر العباسي المشهور (١٠٣ - ١٨٢) هـ ، يروى عن الأصمعي أنه قال : إن أهل بغداد قد ختموا به الشعراء[١٩] ، وقالوا : كان مروان موصوفاً بالبخل مع يساره وكثرة ما نال من الخلفاء من المال[٢٠] . ومن شعره النقدي الذي جعل النقاد يكبرونه قوله :

ذهب الفرزدق بالهجاء ، وإنما ... حلو القريض ومره لجرير
ولقد هجا - فأمض - أخطل تغلب ... وحوى النهى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد ، فمدحه ... وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جربت فقلت غير مهلل ... بجراء لا قرف ولا مبهور
أني لآنف أن أحبر مدحة ... أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرني حسد اللئام ، ولم يزل ... ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وخلفه في الشعر ابنه (أبو الجنوب : يحيى بن مروان) ، وشعره دون شعر أبيه جودة ، منه قوله يمدح (شراحيل بن معن بن زائدة) :

ما يجهل الناس من أمر فقد علموا ... أن ابن معن : شراحيلاً فتى العرب
أعطى أبوك أبي ، قدماً وموّله ... فأعطني مثل ما أعطى أبوك أبي
ما كان يقدم من أرض يكون بها ... إلا أتانا بأوقار من الذهب[٢١]

ثم خلفه ابنه (مروان الأصغر) وكان يكنى (بأبي السمط) ، وقد عاصر من خلفاء بني العباس

المأمون والمعتصم والمتوكل والواثق ، وأخذ جوائزهم ، ومن جميل شعره أبيات له من قصيدة في نجد يقول فيها :

سقى الله نجداً ، والسلام على نجد وياحبذا نجد على النأى والبعد
نظرت إلى نجد ، وبغداد دونها لعلي أرى نجداً ، وهيهات من نجد
ونجد بها قوم ، هواهم زيارتي ولاشيء أحلى من زيارتهم عندي[٢٢]

ولمروان هذا ولدان شاعران ، أحدهما السمط بن مروان ، والآخر محمود ، أما السمط فقد قال في عياش بن حنيفة الخثعمي اليمامي :

تعيشت ياعياش من فضل كسبهاوعدت سمينا بعد طول هزالكا

يعاتبني عياش ألا أعوده فأهون به حيا علي ، وهالكا
وإني لاستحيي من الناس كلهم ومن خالقي من أن أرى بفنائكا

والثاني هو (محمود بن مروان الأصغر) ويكنى بأبي مروان له شعر أشهره قوله :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلة

ويذكر أبو الفرج أن هذه الأسرة الشاعرة انتهت بـ (متوج) وكان ساقطاً بارد الشعر ، وهنا نلتقي بتعقيب آخر لطيف يسوقه أبو الفرج عن أبي هفان ، وهو تعقيب ذو دلالة مهمة أيضاً في اضمحلال ملكة الشعر من جيل إلى جيل في الأسرة الواحدة ، قال أبو هفان : « شعر آل أبي حفصة بمنزلة الماء الحار ، ابتداؤه في نهاية الحرارة ، ثم تلين حرارته ثم يفتر ، ثم يبرد ، وكذا كانت أشعارهم ، إلا أن ذلك الماء لما انتهى إلى (متوّج) جمد »[٢٣] . فهل عنصر الوراثة والاستعداد الشعري هو الذي يدركه التلاشي والاضمحلال من جيل إلى جيل ؟! سنرى .

لمزيد من التعرف على الأسر الشاعرة يمكننا أن نلتقي بأسرة عريقة في الشعر ، هي أسرة الشاعر (النعمان بن بشير) فأبوه (بشير بن سعد) كان شاعراً وعمه (الحسين بن سعد) كان شاعراً أيضاً ومن قبله جده (سعد) كان شاعراً أيضاً ، وبشير تزوج أخت (عبد الله بن رواحة) الشاعر الصحابي ، فجاءه الإرث الشعري من مصدرين : من الأبوة والأمومة ، ونعرف أن للنعمان ابن بشير أخاً اسمه (إبراهيم بن بشير) كان شاعراً ، أما أولاد النعمان فهم (عبد الله بن النعمان) شاعراً ، وبنته (حميدة بنت النعمان) شاعرة ، وابنه يزيد خلّف (شبيب بن يزيد) وهو شاعر ، أما ابنه الآخر (عبد الواحد) فقد وُلِد له ولدان شاعران مجيدان أحدهما (عبد الخالق) والثاني (عبد القدوس) وكلاهما حفيد للنعمان بن بشير .

ولو تركت التفاصيل التي أخشى أن تجر إلى الملل لوجدت أسرة كأسرة (عبد المطلب بن هاشم) التي تتابع أنباؤها الشعراء ، وخاصة أولاد أبي طالب . وأسرة كأسرة (عمرو بن الحارث) والد الخنساء الشاعرة وأخويها الشاعرين : صخر ومعاوية ، وأولادها من عبد العزّى ومرداس ، كلهم شعراء ذكوراً وإناثاً (كعمرة بنت مرداس) ، وأحفادها (كسهم بن عباس) وابنه (أبو بلال) كلهم شعراء . هناك أسرة كبيرة قدمت للشعر العربي مجموعة من الشعراء أحب أن أتوقف عن استعراض الأسر الشاعرة عندها، وهي التي سبق أن أشار إليها ابن قتيبة فجعلها إحدى أسرتين ما اتصل الشعر في ولد أحد من الشعراء مثل ما اتصل فيهما، الأولى في الجاهلية: هي أسرة زهير، والثانية في الإسلام وهي أسرة جرير. فشيخ هذه الأسرة يسمى (الخطفى) وهو شاعر جاءته هذه التسمية من لفظة في بيت شعر قاله، وقد ترك هذا الشيخ ولدين أحدهما عطية والآخر عطاء، وعطاء خلف (أبا الزحف) وهو شاعر معروف، وعطية هو والد (جرير) وله غير جرير ولدان أحدهما عمرو والآخر أبو الورد، وأولاد جرير كثر، كلهم شعراء على تفاوت في الشاعرية بينهم، (فنوح وعكرمة) كانا مقلين، ومثلهما (حجناء والعلاء) وبنته (ربداء)، شاعرة وأما (بلال) فإنه أفضلهم وأشعرهم، وهو والد الشاعر (عقيل بن بلال) صحيح أنه شاعر مقل أيضاً، ولكن ولده (عمارة بن عقيل) كان شاعراً معروفاً محسناً وراوية مرموقاً، أدرك العصر العباسي، وهو والد (كسيب ابن عمارة) الذي ولد له ولدان شاعران: مسحل وأيوب وهناك مجموعة من أولاد جرير وبناته (حكيم وموسى وسوادة، وحزرة وجعادة وحيلة وموفية وأم غيلان) وهذه الأخيرة كانت راوية لأبيها .

والحقيقة أننا نريد أن نقف قليلاً عند أسرة جرير لأنها تعطينا عدة مؤشرات ذات صلة بالسجايا والطباع التي توارثتها الأسرة ، فعدا عن موهبة الشعر التي تنقلت فيهم تلفت نظرنا في سلوكهم ظاهرة البخل ، فكل الكتب التي ترجمت لأعلام هذه الأسرة نقلت عن شيخها (الخطفى) أنه كان يرمى بالبخل[٢٤] ، وأن ابنه عطية كان يوصف بالشح[٢٥] ، حتى أنه كان يبخل على ابنه ، فمما ينسب لجرير أنه قال شعراً مشيراً إلى هذه الظاهرة حيث يقول[٢٦] :

فـأنت أبي مـالم تكـن لي حاجـة ... فإن عرضت أيقنت أن لا أبا ليا
وإني لمغـــرور أعلـــل بالمنــــى ... ليـالى أرجـو أن مـالك ماليـا

وتنقل كتب الأدب أن ثمة ظاهرة سلوكية أخرى كانت تطبع أفراد الأسرة ، وهي العقوق ، فأبو الفرج يقول : كان جرير من أعق الناس بأبيه ، وكان ابنه بلال أعق الناس به ..[٢٧] كما كانت في الأسرة نزعة عدوانية تتمثل برغبتهم في مهارشة أناس زمانهم وابتدائهم بالعداء يتمثل هذا في الشعر على شكل هجاء برعت فيه الأسر ، وحفلت به دواوين شعرائها ، فابن قتيبة يقول عن جرير : « وكان من أشد الناس هجاء ... أخبرنا شيخ من أهل البصرة قال : مر (راعي الإبل) في سفره فسمع إنساناً يتغنى على قعود له بشعر جرير :

وعاوٍ عوا من غير شيءٍ رميته ... بقافيةٍ أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها ... قرا هندواني إذا هز صمما

فقال : لمن هذا ؟ قيل : لجرير ، فقال الراعي : لعنة الله على من يلومني أن يغلبني مثل هذا[٢٨] . أما تصديه لشعراء عصره كالفرزدق والأخطل وغيرهما فهو أكثر من أن ندل عليه بشاهد ، ومناقضته لهما استفاضت بها كتب الأدب والمحافل الأدبية وقد ورث ابنه (بلال) هذا النزعة العدوانية ، فهجا قوماً من بني فقيم بقصيدة رائية ، وهجا حماد المنقري ، وهجا مسعود بن طعمة من بني بيدعة ، فقال :

أمسعود أنت اللئيم الأثيم ... كأنك قنفذة في ضعة
سمعنا له إذ نزلنا به ... كلاما كما تنطق الضفدعة
فأي اللئيمين أشبهته ... أطعمة أم أمك الكوتعة
عددنا عديا وآباءهم ... فشر عدي بني بيدعة
فما أعطش الضيف لما غدا ... من البيدعات وما أجوعة

وتنحدر الروح العدوانية من جرير وابنه بلال إلى الحفيد عمارة بن عقيل الذي اشتهر بين شعراء العصر العباسي بكثرة هجائه ، ونماذجه كثيرة منها هجاؤه بني كلاب[٢٩] ، وقد يقول قائل إن شعر الهجاء ظاهرة عامة وغرض فردي وليس طابع أسرة ، هذا صحيح ، ولكن أن يطغى شعر الهجاء على ديوان الشاعر حتى يملأ أكثره ثم تنحدر هذه الخاصة إلى أولاده أيضاً فتغدو السمة العامة الغالبة على أشعارهم ، فهذا الذي يسمح لنا أن نفسر غرض الهجاء عند هؤلاء الشعراء على ضوء من المنزع النفسي المتمثل بالنزعة العدوانية المتوارثة عند هؤلاء .

كنت على وشك الانتهاء من استعراض الأسر الشاعرة ، على الرغم من أن الذي لم أعرضه منها أكثر بعشرات المرات مما عرضته ، ولكنني أحب أن أختم استعراضي للأسر بحديث مقتضب عن أسرة صغيرة ، إلا أنها ذات لون خاص ، تختلف عن سائر الأسر التي عرضناها ، فهي تلتقي معها في الشاعرية ولكنها تختلف معها في اللون الشعري الذي طرقته ، وهذا اللون هو لون (الرجز) ومن المعروف عند دارسي الأدب أن الرجاز يؤلفون طبقة من الشعراء ينظر إليها الأدباء والنقاد نظرة غير تلك التي ينظرونها إلى شعراء القصيد ، وليس هذا مكان التفصيل في هذه القضية ، والطريف في هذه الأسرة أنها تؤيد ، من جهة ، ظاهرة توارث الأسر لفن الشعر ، وتؤيد ما هو أعمق من ذلك ، أن الموهبة المتوارثة هي موهبة محصورة في (فن الرجز) . وشيخ هذه الأسرة (العجاج بن رؤبة) من قبيلة تميم الذي قيل إنه ولد في الجاهلية ، واستمرت به الحياة حتى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وهو والد الرجاز المشهور (رؤبة بن العجاج) الذي قيل إنه فاق أباه في هذا الضرب من النظم ، وكانت أراجيزه وأراجيز أبيه مستودعاً للغة الغريب ، ولهذا قال الخليل بن أحمد بعد جنازة رؤبة : « دفنا اللغة والفصاحة

والبلاغة اليوم »[٣٠] وقد خلفهما في هذا الفن الحفيد (عقبة بن رؤبة بن العجاج) وقد كان رجازاً موهوباً ، ونكتفي بالتلميح إلى هذه الأسرة وإلى تخصصها الدقيق في فن هو (فن الرجز) .

من خلال استعراض بعض هذه الأسر وتعداد بعضها الآخر أحسب أن الصورة أصبحت واضحة جلية ، ولكن الذي يهمنا أكثر من توضيح الصورة وجلائها هو تفسير هذه الظاهرة . واعتقد أن مهمة هذا البحث تفسير هذه الظاهرة ، وأنه منوط به أن يجيب عن التساؤل المطروح لتفسيرها وهو : هل مرد نبوغ الشعراء وتتاليهم في الأسرة الواحدة إلى عامل الوراثة أم إلى عامل المحيط أو البيئة التي فرض على الشاعر ظروفاً معينة جعلته يكتسب شيئاً كثيراً من تقاليد حرفة الأدب وخصائص فن الشعر ؟ هذه الثنائية : الوراثة والاكتساب هي المرشحة للإجابة عن هذا السؤال ، وفيها يكمن تفسير هذه الظاهرة .

ولنأخذ العنصر الأول من هذه الثنائية وهو عنصر الوراثة ، ولنسأل أولاً علماء العرب ما هي معلوماتهم عنه لعلنا نجد لديهم ما يمكننا من تفسير الأسر الشاعرة على ضوء من معرفتهم لعلم الوراثة ومع أننا نقول إن إيمان العرب بالوراثة كبير ، ولكن معلوماتهم فيها لا تعدو علم الفراسة والقيافة وعلم الأنساب ، واهتموا بالعلم الأخير اهتماماً شديداً ، حتى تجاوزوا في هذا العلم أنساب الإنسان إلى أنساب الخيل والإبل ، ولهذا يهتمون عند الزواج بعراقة نسب البنت ، لأنهم يعتقدون أن العرق دساس ، ويروون القول المأثور وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . والحقيقة التي يؤسف لها أن معلومات العرب عن علم الوراثة معلومات ضحلة لا تعطي إلا صورة باهتة لمفهوم الوراثة ، لا تعدو أن تكون مجموعة من الحكم والأمثال تشير إشارات سريعة إلى الوراثة ، منها قولهم : « الولد سر أبيه » و« العرق دساس » و« من شابه أباه فما ظلم » .

و« لا تخطبن إلا كريمة معشر فالعرق دساس من الطرفين »

وقولهم : « فرخ البط عوام » وقول شاعرهم :

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وقولهم : « لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن ينزع بالشبه إليها .. » إلخ : لهذا سنتوجه إلى الدراسات الحديثة في علم الوراثة ، لأنها دراسات علمية تجريبية نستطيع أن نطمئن إلى كثير من النتائج التي انتهت إليها : فماذا تقول الدراسات الحديثة في علم الوراثة لتفسير ظاهرة الأسر الشاعرة ؟؟

إن النتائج العلمية التي قدمها لنا علم الوراثة في منتصف القرن التاسع عشر تؤكد على أن الخصائص الفيزيولوجية أو الجسمية هي وحدها التي تنتقل بالوراثة ، إذ إن إسهام الوالدين في إنتاج البويضة المخصبة ، وهي المشيج الذي يربط الأجيال المتعاقبة ببعضها ، إنها تمثل الجسر الوحيد الذي

تعبره الصفات المتوارثة من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة ، فتلكم البيضة المخصبة تحمل في ثناياها كل الصفات التي تميز الكائن الجديد من طول أو قصر في القامة ، وبياض أو سواد في البشرة ، وشقرة أو زرقة في لون الشعر ولون العيون ، وصمت علم الوراثة القديم عن الحديث في انتقال الخصائص النفسية للكائن الحي ، والحقيقة أننا نلتمس العذر لعلماء الوراثة القدامى لسكوتهم عن الخوض في مشكلة انتقال الخصائص النفسية بالوراثة ، ذلك لأن التجارب التي قام بها علماء الوراثة كمندل ومورغان كان ميدان التجربة الوراثية عندهم هو عالم النبات وعالم الحيوان دون عالم الإنسان فلهذا جاءت نتائجهم منصبة على الخصائص الفيزيولوجية لا الخصائص السيكولوجية ، التي عرى عن مثلها عالم النبات والحيوان . ولم يطل انتظارنا حتى طلعت علينا دراسات (جولتون) في الوراثة ، وخاصة عندما نشر كتابه سنة ١٨٦٩م بعنوان (العبقرية الموروثة) ، Hereditary Genius ، وقد جعل فئة (العبقرية) واسعة إلى حد غير قليل ، إذ جمع مجموعة كبيرة من سلاسل نسب رجال حققوا (شهرة). في مختلف ميادين النشاط من سياسيين ومشرعين وعلماء وشعراء ورجال دين وقادة عسكريين وبحريين وهلم جرا ، وقد وجد في كل الأحوال أن معدل الوصول إلى الشهرة يزيد كثيراً بين أسلاف وأقارب هؤلاء الأشخاص عنه بين عامة الشعب أو سواد الناس ، واستنتج (جولتون) من ذلك أن الطبيعة وهو ما يمكن أن نسميه الآن بالنمط الجيني أهم كثيراً في تطور القدرات البشرية من التنشئة أو ما يسمى بالاكتساب من البيئة .

والواقع أن العقبة التي أعاقت الدراسات العلمية لسمات الشخصية وللسجايا الإنسانية هي صعوبة قياس هذه السمات على نحو موثوق به . وإنك لتجد مثل هذه الآراء عن الوراثة موغلة في القدم منذ عهد أرسطو : يتداولها العلماء جيلاً بعد جيل ، إلا أنها كانت آراء نظرية دعامتها المشاهدة دون التجريب ، حتى اخترع المجهر الذي تمكن العلماء فيه من دراسة الخلية التي وظيفتها تنظيم نقل الصفات الوراثية إلى الجيل الجديد .

على أن الملاحظ أنه إذا كان الوالدان على حظ من النبوغ والذكاء فإن الغالب أن يكون الأولاد الذين ينسلونهم على مثل حظهم من النبوغ ، وبالمثل إذا كان الوالدان قد تميزا بغباء وخمول ، فإن الغالب أن يكون أولادهما لهم مثل حظ أبويهما من هذه الناحية . وقرأت منذ فترة وجيزة كلمة للأديبة الفرنسية الشهيرة (جورج صاند) تقول فيها : « الوراثة تلون الشخصية إلى حد بعيد ، فإذا شاء قرائي أن يفهموني فليعرفوا شيئاً عن أبي وأمي » ثم توالت مجموعة من الدراسات في أواخر القرن التاسع عشر في علمي الوراثة والطباع تؤيد دراسة الخصائص النفسية والفنية ، فهذا (سبنسر) ومريدوه من أمثال (مورغان) و(مكدوكال) و(بنيه) يصرحون بأن الذكاء قدرة عامة وموروثة .

وفي دراسة لـ (دولاكروا وبرغسون) عن شروط قيام الشاعر ، يحددان قيام الشاعر بأربعة شروط (الحساسية الخاصة ، والقدرة الانطباعية ، والقدرة الفائقة على البناء ، والقدرة الفائقة على

الحدس) ، ويرجعان هذه القدرات إلى الموهبة الموروثة . ويذهبان إلى أن وراثة الطفل لا يحددها الآباء المباشرون فقط ، بل أن المرء يرث جدوده الأقدمين أيضاً .

قد تكون الموروثات في خاصة من الخصائص النفسية أو الفنية موجودة في إنسان ما . وإن لم تظهر نتائجها ، فإنها كامنة عفوياً ، وقد تكون مكبوتة لأسباب اجتماعية ، أو ضعيفة ضعفاً لا يسمح لها بالظهور ، وتستمر بالكمون تنتظر الفرصة المواتية ، حتى تزول عنها الرقابة الشخصية أو القيود الاجتماعية ، أو تقيّض لها عوامل القوة . فتبرز . وعوامل القوة هنا مكتسبات محيطية كالثقافة والتعليم والخبرات الرافدة ، فتنطلق بعد هذا الكمون معبرة عن ذاتها ، وقد لايقيض لها مثل هذه العوامل فتميل الموروثات إلى الضمور وربما إلى التلاشي والاضمحلال . وإني لأستميح القارىء العذر عن الإمعان في أساسيات علم الوراثة ، إمعاناً يكاد يقربنا من جفاف العلم ، وينأى بنا عن بهجة الأدب ، ولكن طبيعة بحثنا هذا تضطرنا إلى ولوج ميدان العلم . ولكي نفي الموضوع حقه لابد من التعريج مرة أخرى على علم الوراثة لنقف عندما يسمى بالصبغيات (الجينات) وحصراً عند موروثات الفن والشعر بالتحديد ، فمن المسلم به عند علماء الوراثة أن الجينات لا تورث المرء ملكة الشعر كاملة ، وإنما تورث المرء الاستعداد الفني فتهيئه لأن يكون شاعراً . ثم يأتي دور المحيط والاكتساب ورحلة العمر الطويلة فتنمي هذا الموروث وتعمقه وتصقله وإذا كانت يدنا قاصرة عن التحكم في الصبغيات الوراثية فهي قادرة على التحكم في ظروف المحيط والخبرة المكتسبة التي تدعم البذرة الموروثة ، ولعل على رأس العوامل المكتسبة في ميدان الشعر هي ظاهرة (الرواية) التي نخصها بشيء من الحديث . وللرواية في اللغة العربية معان كثيرة ، بعضها حقيقي وبعضها مجازي ، ولسنا بحاجة إلا لمعنى واحد منها وهو المعنى الذي يلزمنا عندما نتحدث عن (الراوية) ، والراوية ــ بهذا المعنى الذي نقصده هو ذلك الإنسان الذي يوكل إليه حفظ ما انتجته قريحة شاعر آخر ، ثم إعادة تلاوة ما حفظه الراوي إذا اقتضت الظروف ذلك ، ولهذا يشترط في الراوية قوة الحافظة وقوة الاستحضار ، أو قوة الذاكرة وقوة التذكر . ومعلوم أن الراوية قد قام بدور مهم جداً في حفظ التراث القديم في مجتمع تغلب عليه الأمية ، طوال فترة شيوع الأمية ، وما تخلى الراوية عن دوره هذا إلا في فترة لاحقة عندما شاعت الكتابة ونشطت حركة التدوين ، وانتقل مافي الصدور إلى السطور .

والذين قدر لهم أن يطلعوا على الشعر الجاهلي أدركوا أنه يكاد يكون لكل شاعر منهم راوية ، فمهمة الشاعر تنحصر في إنتاج الشعر ، ومهمة الراوي حفظ شعره وإعادة قراءته في محافل معينة ، فكنا نسمع أن الأعشى ــ مثلا ــ راوية خاله المسيب بن عَلَسْ ، وأن بلال بن أبي بردة راوية حاتم الطائي ، وأن زهيراً راوية طفيل الغنوي ، وقد يتسلسل الرواة ويتتابعون فيشكلون مدرسة روائية ــ إن جازت هذه التسمية ــ مثل هذا ما نجده في سلسلة رواة المدرسة الأوسية ، فشيخ هذه المدرسة أوس بن حجر ، كان راويته زهير بن أبي سلمى ، وكان لزهير راويتان ابنه كعب وتلميذه الحطيئة ، وقد روى للحطيئة أكثر من راو لعل أشهرهم هدبة ابن خشرم ، ثم روى شعر هدبة الشاعر الغزل جميل ، وكان الشاعر

الغزل الآخر كثير راوية لجميل ، وخُتمت هذه السلسلة بالسائب بن زكوان ، فكان راوية لكثير ، وربما لاحظنا من خلال استعراض هذه السلسلة من الرواة أنها تجاوزت حقبة العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي واضمحلت في أواخر العصر الأموي ، ويترتب على هذه الملاحظة نتيجة مهمة سنبينها بعد قليل ، ولعل المهمة الأولى للراوية ـ كما أشرنا ـ تنحصر في كونه مستودعاً للشعر ، ولكن الشعراء الفحول المنتجين درجوا على اختيار رواتهم من الذين يجمعون بالإضافة إلى قوة الذاكرة الموهبة الشعرية ، ولما كان الرواة شديدي الالتصاق بالشعراء المنتجين ، وكانوا بحكم ما أنيط بهم من عمل يظلون على مقربة من العملية الشعرية ، كان من البديهي أن يصبحوا مرشحين لأن يكونوا شعراء في قادمات الأيام ، وهذا ما لاحظناه من الكثرة الكاثرة من الرواة الذين تحولوا إلى شعراء فالراوية يبدأ في ميدان الشعر هاوياً ثم يتحول محترفاً ، فكأن عمل الرواية رفد الموهبة الشعرية الموروثة لدى الراوية فيتضافر العنصراان : الموهبة والمكسوب أو الموروث والمكتسب على تقديم شاعر منتج جديد ، وكأني بالراوية لا يعدو أن يكون شاعراً صغيراً متدرباً يعد بشاعرية خصبة ، ولذا يعمد فحول الشعراء إلى اصطفاء بعض أبنائهم الذين يلمحون فيهم المواهب الشعرية لمهمة الرواية ، كالذي صنعه زهير بن أبي سلمى مع ابنه كعب ، وقد ذكر لنا أبو الفرج الأصفهاني قصة تدريب زهير لابنه كعب تدريباً لا يخلو من قسوة تهدف إلى إحكام الصنعة ، وتهدف إلى إكساب المتدرب ضروباً من تقاليد المهنة . تقول الرواية إن زهيراً عندما أنس في ابنه كعب الرغبة الملحة في قول الشعر ـ وكان راويته ـ دعاه وأردفه وراءه على ناقة ، وأحب أن يختبره ، فقال زهير :

وإني لتعديني على الهم جسرة ... تخب بوصال صروم وتعنق

ثم ضرب كعباً ، وقال له : أجز يالكع ، فقال كعب :

كبنيانة القرئ موضع رحلها ... وآثار نسعيها من الدَّف أبلق

فقال زهير :

على لا حب مثل المجرة خلته ... إذا ما علا نشزا من الأرض مهرق

ثم ضرب كعباً وقال له أجز يالكع ، فقال كعب : ... إلخ

ثم قال زهير ... فأجاز كعب ... ثم قال زهير ... فأجاز كعب[٣١] . ثم انتقل زهير من وصف الإبل إلى وصف النعام ، وهو يقول البيت وابنه يتمم المعنى ببيت آخر ، فلما أنس زهير في ابنه القوة ، أخذ بيده ، ثم قال : قد أذنت لك يابُني في الشعر ... إلخ القصة ، وليس لنا من تعليق عليها إلا أن زهيراً لم يثق ـ فقط ـ بما عند ولده من موروث شعري وإنما استمهله حتى أضاف إلى هذا الموروث شيئاً غير قليل من المكتسبات التي من شأنها أن تصقل موهبة الفنان وتجود مهارته .

والحقيقة أن عملية الرواية هذه ستترتب عليها نتائج مهمة نلمسها في تاريخ الأدب العربي منها :

١ ــ استمرار النمطية المنهجية في نظم القصيدة العربية ، كوصف الأطلال ووصف الرحلة والراحلة كمقدمات للغرض الأساسي ، واعتقد أن المحافظة على هذه النمطية قد ترسخت بفعل الرواة لأن كل واحد منهم ــ كما في المدرسة الزهيرية ــ كان يجب عليه أن يعرف رسوم القصيدة قبل أن يتصدى لقول الشعر ، فهو يتسلمها من شيخه ويسلمها لتلميذه ، ولهذا استمرت تقاليد القصيدة الجاهلية طوال فترة النقل والرواية حتى جاء عصر التدوين فبدأ منهج القصيدة القديم يتزعزع على يد أبي نواس وأضرابه من الذين ثاروا على هذه النمطية المنهجية .

٢ ــ وبفعل توالي الرواة ، وخاصة في الأسر الشاعرة ــ استمرت خصائص أخرى للقصيدة القديمة ، فظلت وحدة البيت هي المسيطرة على عقلية الشعراء ، ولم تحتل وحدة القصيدة مكانها إلا في وقت متأخر جداً .

٣ ــ ساعدت الرواية على استمرار سيادة لهجة وسط الجزيرة العربية أو لهجة الخط الوهمي ما بين نجد والحجاز أو كما سماها بعض الدارسين (لغة عكاظ) ، هذه اللهجة العربية هي التي نقلها الرواة إلى خارج الجزيرة العربية ، ونقلوا معها الصور التي حفل بها الشعر القديم .

٤ ــ وبفعل الرواة وقيامهم بدور الخضرمة بين عصرين لم تقع في العصر الإسلامي مثلاً ــ على خصائص للعصر اللاحق تختلف كلية عن العصر السابق ، فلهذا ضؤلت الخصائص الفنية بين عصر وآخر ، وغدت حركة التطور والتجديد ضئيلة وهذا ما جعل بعض الدارسين يسم الشعر العربي بالمحافظة الشديدة على خصائصه وتقاليده .

وخلاصة كل ما تقدم تؤدي بنا إلى التعرف ثم الاعتراف بالأسر الشاعرة بوصفها ظاهرة شعرية ذات وزن كبير ، ونستطيع أن نفسر النبوغ الشعري على ضوء من تضافر العنصرين الأساسيين معاً : عنصر الوراثة وعنصر الاكتساب .

وإذا لم يكن بد من ترجيح أحد هذين العنصرين فإنني ، على الرغم من إيماني بالنظرية التربوية ، وآراء رجال علم الاجتماع الذين يولون أهمية كبرى لعامل الاكتساب المتمثل في البيئة والمحيط الاجتماعي ، وبالعوامل التثقيفية والتعليمية والتدريبية ، أقول ، على الرغم من إيماني بكل هذا ، فأنا أشد إيماناً بالدور الذي يقوم به عنصر الوراثة ، إذ لا قيمة للعوامل المكتسبة إذا طبعناها على نفس خالية من الموهبة ، فصنيعنا هذا صنيع من يجلب أحسن الغراس والبذور ليزرعها في أرض سبْخَةٍ أو على صخرة صماء .

إنني أشد ميلاً إلى رأي علماء الوراثة الذين يقولون : « إن نواة التمر هي نخلة كاملة كامنة في النواة » . فإذا كانت النواة نخلة من نخل الزينة فمن العبث أو حتى المستحيل أن نلتمس منها في قادمات الأيام رطباً جنياً ، مهما كانت يد المؤبر صناعاً . ومن هذه الرؤية نستطيع أن نقول إن النطفة البشرية

تشتمل على جميع مقومات الإنسان المكتمل ، إن الوراثة مجرد بداية للوجود وليست الوجود نفسه ، فهي تشبه « عود الثقاب ساعة اشتعاله ، أما الحريق الهائل الذي ينجم عن اشتعال عود الثقاب وقد امتدت النار منه إلى الأشياء فإنه لم يكن موجوداً بدخيلة رأس عود الثقاب ساعة اشتعاله » . فبينما تشبه الوراثة بعود الثقاب فإننا نشبه البيئة بالمواد التي تقبل الاشتعال والتي تلاصق رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها ■

● الحـواشـي ●

(١) برز في الآداب والفنون الأجنبية أسر محدودة مثل أسرة (سيتول Sitwell) فالأخوة : ايديث وساسفرل وأوزبرت كانوا أدباء وشعراء ترعرعوا في شمالي انجلترا في مقاطعة (دربشير) ، وكذلك أسرة (برونتي) الأخوات الشهيرات اللواتي شهرن في أدب القصة في القرن التاسع عشر ، وفي الفن أسرة الموسيقار (باخ) فمن هذه الأسرة (٥٧) موسيقاراً ألفوا قطعاً موسيقية ، خلد منهم (٢١) موسيقاراً ، منهم (جان سبستيان باخ) الموسيقي المشهور .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٥٧ .

(٣) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٥٦ .

(٤) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦٣ .

(٥) مثل دراسة الدكتورة وفاء السنديوني لشعر طيئ ، ودراسة الدكتور حسن أبو ياسق لشعر همدان وغيرهما .

(٦) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦٦ ـ ٧٠ والمجلد الثاني ـ الجزء الثاني ص ٢٥٥ ـ ٢٦٠ .

(٧) آمالي المرتضى ١١٠/٢ .

(٨) آمالي المرتضى ١١٠/٢ .

(٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٦/١ .

(١٠) كتاب في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين .

(١١) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الثاني ص ٢٠١ .

(١٢) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦١ .

(١٣) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦٥ .

(١٤) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨٠ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٥) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٧٦ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٦) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨١ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٧) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨٢ فيما بعد صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٨) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٩٠ و٦٩١ نقلاً عن الأغاني للأصفهاني ١٢٢/٥ .

(١٩) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٣ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(٢٠) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٢ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(٢١) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٩ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(٢٢) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٧ .

(٢٣) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٧٢/١٢ .

(٢٤) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٥١/١٢ .

(٢٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٩٨/١ .

(٢٦) ويقال إنه كان يشرب الحليب من ضرع العنزة حتى لا يسمع أحد صوت الحلب فيطلب منه الحليب .

(٢٧) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٧٤/٨ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٧/١ .

(٢٩) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ١٨٦/١٣ .

(٣٠) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الثالث ص ٨٦ . نقلاً عن الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٩١/٢١ .

(٣١) مقدمة ديوان كعب بن زهير ص ٦ .



قافية الشعر العربي ومحاولة الخروج عليها من العصر الجاهلي حتى أواسط العصر العباسي

د. محمد الباتل

١ ـ يرى الأكثرون أن القافية مشتقة من « قفوت أثره قفوا وقفواً : أي اتّبعته ، وقفّيت على أثره بفلان : أي أتبعته إياه ... ومنه الكلام المقفّى ، ومنه سميت قوافي الشعر ، لأن بعضها يتبع بعضاً » .[١]

والعروضيون شأنهم شأن أصحاب المعاجم اللغوية يردّدون هذا الاشتقاق ، ولكنهم اختلفوا : قيل هي قافية ، لأن كل واحدة منها تقفو أثر كل بيت فتأتي في قفاه أو لأنها تقفو الكلام ، وقيل : قافية ، لأنها تقفو أخواتها . قال ابن رشيق : والأول هو الوجه ، لأن الأخير يلزمه القول عن القافية الأولى ماذا تقفو ؟ وقال أبو موسى الحامض : قافية بمعنى مقفيّة ، قال ابن رشيق : وهو قول سائغ[٢] وواضح أن القولين الأولين تكون القافية فيهما اسم فاعل على ظاهره ، وعلى قول الحامض تكون بمعنى مفعول ، ولكن يلزم قول الحامض مالزم غيره مع الفارق إذ القافية في البيت الأخير من القصيدة ماذا يقفوها ؟ .

٢ ـ وغالبية العلماء من عروضيين وبلاغيين يرون القافية ركناً من أركان الشعر ، ودعامة من دعاماته لازمة .[٣] ولكن « ألغى بعضهم لفظ المقفّى وقال : إن التقفية ... لا تلزم الشعر لكونه شعراً ، بل لأمر عارض ككونه مصرعاً أو قطعة أو قصيدة ... وإلا فليس للتقفية معنى غير انتهاء الوزن ، وإنه أمر لابدّ منه ، جار من الموزون مجرى كونه مسموعاً ومؤلفاً وغير ذلك ، فحقه ترك التعرض ، ولقد صدق »[٤] . هكذا قال السكاكي . وهذا القول يمكن حمله على ما رآه ابن رشيق : « الوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية ، وجالب لها ضرورة إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن »[٥] . وعلى هذا يمكن من ظاهر القولين التسامح بعدم ذكر (القافية) شرطاً من شروط الشعر ، لا للاستغناء عنها بحال من الأحوال ، بل لدخولها ضمن كلمة (الوزن) . وهذا واضح في كلام ابن رشيق إذا كان قد قصد شيئاً من ذلك ، لأنه قد عدّ التقفية أحد أركان الشعر الأربعة : « اللفظ ، والوزن ، والمعنى والقافية »[٦] في موضع آخر . ولكن الأمر قد يختلف بالنسبة للسكاكي حيث يحتمل كلامه إنكار القافية شرطاً في الشعر مستقلة مصرّحاً بها ، أو ضمن الوزن ، لأنه فيما يظهر ، يعتقد بصحة نسبة المسمطات ذات القوافي المتعددة إلى العرب الأوائل ، كما سيأتي ، وأن الخليل أهملها ،[٧] أو هو ممن لا يرى الشعر موقوفاً على الوزن الذي عليه أشعار العرب ، ولذلك استنكر هذا القول من أبي إسحاق الزجاجي قائلاً : « ولا أدري أحداً اتّبعه في مذهبه هذا »[٨] . وفي مكان آخر ربط الأوزان « بالطبع المستقيم » .[٩] ويميل كثير من المُحْدثين إلى « أن النثر المسجوع سبق الشعر في الوجود ومعنى ذلك أن اكتشاف القافية سبق اكتشاف الوزن »[١٠] وهذا يعني أن القافية من أسس الوزن الذي أضيف إليها . ومن عجب أن هذا التدرج الطبيعي المقبول عقلاً ، يناقض ما رجحوه من أن الرجز ـ وهو المكبّل بقيود القافية ـ أول الأوزان ظهوراً ، كما يتناقض ذلك مع القول إن الشعر العربي قد التزم القافية لا لضرورتها له ،

بل لوقوفه عن التطور لأسباب تاريخية.[11] لأن تعدد الروى في القافية مرحلة سابقة على توحيده عقلاً . إلا أن تتجدد الأدوار . وبمناسبة ذكر الخليل فإنه يظهر من كلام ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) أن الخليل لا يشترط أن يكون الشعر جارياً على سنن شعر العرب الذين يحتج بهم ، بل هناك شعر عربي قح ، وشعر عربي مولّد ، ويخالفه ابن عبد ربه قائلاً :

« هـذا الـذي جرَّبَـهُ المجربُ	من كل ما قالت عليه العربُ
فكـل شيء لم تقـل عليـه	فإننـا لم نلتـفت إليـه
ولا نقـول غير مـا قـد قالـوا	لأنـه مـن قولنـا محال
وإنـه لـو جـاز في الأبيـات	خلافهـا لجاز في اللغـات
وقـد أجـاز ذلك الخليـل	ولا أقـول فيـه مـا يقـول
لأنـه نـاقض في معنـاه	والسيـف قـد ينبـو وفيـه مـاه
إذ جعـل القـول القـديم أصلـه	ثم أجـاز ذا ولـيس مثلـه
وقـد يـزلّ العـالم النحريـر	والحبر قـد يخونـه التحـبير[12] »

ويشفع لطول هذا النص وضوحه الذي لا يحتاج إلى تعليق إلا على مخالفة ابن عبد ربه فيه لقواعد الرجز عند العرب حيث أتى به (مزدوجاً) ، وقد قال إنه لا يرى مخالفتهم ، وهذا يمكن حمله على أنه يراها منظومة تعليمية لا شعراً .

وعلى كل حال يجب أن نفرق بين أمرين : الأول : أن ينظر إلى الشعر وشروطه من منطلق عموم الشعر عربيه ومولّده بدون تفريق ، والثاني : أن نطلق لفظ الشعر على كلام المولدين الشعري ، غير الملتزم بشروط شعر العرب الأقحاح ، وإنما التزم بشروط الشعر المولّد ، وهنا فيما يبدو ، هو موقف الخليل بن أحمد وهو الموقف الوسط . أما الموقف الأول فموقف جدّ متساهل ، لأننا لا نتكلم عن الشعر من حيث هو شعر فقط ، إذ كل لغة لها شعرها الخاص ، وإنما نتكلم عن الشعر العربي . على أنني لا أعتقد أن هؤلاء المتسامحين على اختلاف درجات مواقفهم ، بمن فيهم من قال بإسقاط شرط القافية ، قد بلغ بهم الأمر بالاتكاء في هذا على ما ورد من « أن عبد الرحمن بن حسان لسعه زنبور فجاء أباه يبكي . فقال له مالك ؟ فقال : لسعني طائر كأنه ملتف في بردَيْ حِبَرة . قال قلتَ والله الشعر » وما ورد عن لبيد حينما قالت له ابنته : إن الملوك لا يستحى من مسألتهم ، قال : « وأنتِ في هذا أشعر .[13] لأن ذلك على سبيل التجوّز . وفي الطرف الثاني المقابل لهذا الموقف المتسامح ، يقف أصحاب الرأي المتشدّد ، وهم كثيرون ، مرّ معنا منهم الزجاجي وابن عبد ربه ، القائلون بنفي إطلاق كلمة (شعر) عن كل شعر لم يلتزم بنمط شعر العرب الذين يحتج بهم في اللغة العربية ، لأننا نتكلم عن الشعر العربي لا غير ، ولأن هؤلاء المجددين ، اقتبسوا تجديداتهم المخالفة للعرب من أمم أعجمية ،

وهو رأي له نصيبه من الوجاهة ، والإجابة عليه طويلة ليس هذا محلّها ، منها ارتباط الشعر بالغناء ، والغناء متنوّع ومتطور .

٣ ـ أما عن تحديد القافية ، فقد اختلف قدماؤنا في هذا فقال قوم هي القصيدة كلها ، وقال آخرون : هي البيت الواحد كله من القصيدة ، وقال بعضهم : هي الشطر الأخير كله من البيت ،[١٤] قال ابن رشيق : « وذلك اتساع ومجاز » .[١٥] وقال السكاكي : « وحق هذا القول أن يكون من باب إطلاق اسم اللازم على الملزوم ، وباب تسمية المجموع بالبعض » .[١٦] وقال الأخفش سعيد : « القافية آخر كلمة في البيت »[١٧] مستدلاً بأنه لو قيل لك اكتب قوافي القصيدة لكتبت الكلمات في آخرها ،[١٨] قال ابن رشيق : « وهو المتعارف بين الناس اليوم » أي في زمانه واعترض عليه بوقوع (بي) في آخر بيت للمتنبي ، وأردف : « لا يستطيع أن يقول بي كلمة » ،[١٩] وقال الزجاجي : « بعض الناس من العلماء يرى أن القافية حرفان من آخر البيت ، وحكى أنهم سألوا أعرابيا قد أنشد :

● بنات وطّاء على خدّ الليل ●

ما القافية ؟ فقال : خدّ الليل » .[٢٠] قيل : إن الذي سأل الأعرابي هو الأخفش الأوسط ، ولكن البيت المنشَد مختلِف .[٢١] وذكر بعضهم أن القافية عند الزجاجي « الكلمتان في آخر البيت ، وحكى أنهم سألوا أعرابيا ... »[٢٢] ، وهذا صريح في أن الزجاجي تابع هذا الرأي ولا فرق بين حرفين وبين كلمتين ، لأن « حرفين » أراد بهما الأعرابي « كلمتين » ، لكن هذه الحكاية رويت غير منسوبة مُستدلاً بها قوم على أن القافية « هي الكلمة الأخيرة وشيء قبلها » .[٢٣] وكلمة شيء لا تطابق بالضرورة حرفين أو كلمتين إذ قد يكون حركة مثلاً . وقال الفراء : « إن القافية هي حرف الروى ، واتبعه على ذلك أكثر الكوفيين منهم أحمد بن كيسان وغيره »[٢٤] ، وهي كذلك « عند أبي علي قطرب (من البصريين) ، وأبي العباس ثعلب »[٢٥] ، واختاره ابن عبد ربه الأندلسي واقتصر عليه قائلاً : « القافية حرف الروي الذي يبنى عليه الشعر ، ولابد من تكريره في كل بيت » ،[٢٦] ، وعند الخليل بن أحمد : « القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن [قال ابن رشيق وأيّده ابن القطاع والسكاكي] وهو الصحيح ... وعلى هذا أبو عمر الجرمي [البصري] وأصحابه ... ورأي الخليل ... أصوب وأرجح » ،[٢٧] ونُسب للخليل بن أحمد رأي آخر أن « القافية ... ما بين الساكنين الأخيرين من البيت مع الساكن الأخير فقط » .[٢٨] وقال القرطاجني : « القافية هي ما بين أقرب متحرك يليه ساكن إلى منقطع القافية ، وبين منتهى مسموعات البيت المقفى »[٢٩] وهو رأي الخليل الأول تقريباً إلا أنه عكسه . كما حوّله بعضهم بمعناه إلى نظام المقاطع الصوتية .[٣٠] وهناك رأي لأبي موسى الحامض قال فيه « القافية ما يلزم الشاعر تكريره في كل بيت من الحروف والحركات ، وهذا قول جيد » .[٣١] كما قال ابن المحسّن التنوخي ، ورواه

مختصراً أيضاً ، ابن رشيق وقال عنه : « وهذا كلام مختصر مليح الظاهر ، إلا أنه إذا تأملته ، كلامَ الخليل [الأول] بعينه لا زيادة فيه ولا نقصان » ، وعلّق محمد محيي الدين على ذلك بأن قوله الحامض هو قول الفراء لا قول الخليل ، وذكر ابن منظور رأي الحامض منسوباً لابن كيسان السابق ولعله سهو ، وقال : « وقد لاذ هذا بنحو من قول الخليل لولا خلل فيه » ولم يفصّل الخلل .(٣٢) ويتضح لنا الفرق بين رأي ابن رشيق وابن منظور ورأي محمد محيي الدين في تعريف الروى : هو « حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه أي الحرف الذي تلزمه القافية وتسمّى به ... وقال البلوي : كل حرف وقع ملتزماً في آخر البيت فهو روى إلا أربعة أحرف يجمعها قولك (يهوا) فقد تكون روياً ، وقد تكون وصلاً ، والروى ما قبلها » .(٣٣) فالروى يلزم الشاعر تكراره ، ولكنه جزء من القافية التي يلزم الشاعر تكرارها ، وأعتقد لذلك أن الأمر سهو من محمد محيي الدين ، وبذلك يكون رأي الحامض يؤدي تعريف الخليل للقافية ، ويفْضُله في السهولة والاختصار والدقة ؛ ذلك أننا لو تدبرنا رأي الخليل ـ أعني الأول كما هو عند ابن رشيق وغيره ـ لوجدناه يقول : « القافية من آخر حرف في البيت » والتعبير الأدق أن يكون من آخر حركة معينة في البيت تنقلب إلى صوت مد ساكن مجانس لتلك الحركة في القوافي المطلقة ، أو من آخر سكون في القوافي المقيدة لأن ذلك يلزم الشاعر مراعاته (الوصل) ، وبغض النظر عن الخلاف الحاصل هل الحركة تحدث مع الحرف ، أم بعده عند قدمائنا لأنه يشترط حركة معينة لا مطلق حركة . ويقول « ... إلى أول ساكن يليه من قبله » وهذا ينبنى عليه لزوم ما لا يلزم كما قال بحق بعض الباحثين(٣٤) ويتضح ذلك بالمثال ، لنأخذ معلقة أمرئ القيس آخر البيت الأول فيها (... فحوملِ) فعلى هذا التعريف تكون القافية : اللام الأخيرة ـ لاحظ كما قلت أنه أهمل حركة اللام وهي الكسرة ، والميم ... الخ ، فهل الميم يلزم الشاعر تكرارها إلا إذا التزم ما لا يلزم ، ولذلك رأينا امرأ القيس يأتي بآخر البيت الثاني بقوله (شمألِ) فالهمزة تقابل الميم في آخر البيت قبله وهكذا . ويقول « إلى أول ساكن يليه من قبله » ونحن نعرف أن المدّ الواوي ، والمدّ اليائي يتناوبان كثيراً عند الشعراء في هذا الموضع (الردف) ، فلو أخذنا بائية امرئ القيس (قد أشهد الغارة الشعواء ...) مثلاً ، لوجدناه استعمل (....ـُوب) إحدى عشرة مرة فيها ، واستعمل (...ـِيب) ثماني مرات . ويقول : « مع حركة الحرف الذي قبل الساكن » يقصد الساكن الأول ، ونظرة خاطفة إلى قصيدة امرئ القيس البائية المشار إليها تعطينا أنه لم يلتزم حركة معينة ، فهي ضمة قبل الواو ، كسرة قبل الياء ، بالإضافة إلى أنه يوجد شعراء لم يوحّدوا هذه الحركة قبل ساكن ليس بحرف مدّ ، ولكنهم في الحقيقة قلة . ونفى القرطاجني وقوع تبادل الفتحة مع الكسرة والضمة في شعر الجاهلية وحصره في شعر الإسلام ،(٣٥) وقد يقابلون صوت المد المومأ إليه بحرف صحيح ساكن ويمكن أن يكون مخالفاً لكثرة .

ولو نظرنا إلى الرأي الثاني للخليل بن أحمد لوجدناه يقول « ... مابين الساكنين الأخيرين من البيت ، مع الساكن الأخير فقط » لوجدناه غير دقيق بالدرجة المطلوبة ، وإن استحسنه بعضهم وفضّله ،(٣٦)

نعم هو أخصر من الأول ، وأكثر استقامة ، ولكن نصه الأخير « مع الساكن الأخير فقط ، يخرج الساكن الأول ، وهنا يَرِد عليه إذا كان الشاعر حرّا في الساكن الأول يعامله معاملة غيره من أجزاء البيت ، لأنه ليس من القافية بحيث يقابل مطلق الحركة بمطلق حركة ، ومطلق السكون بمطلق سكون ، وقد مر معنا أنه إذا كان ذلك الساكن صوت مد طويل واوي ، أو يائي فهما يتناوبان كما سلف ،(٣٧) لكن حسب هذا التعريف الأخير هل يجوز أن تتناوب معهما ألف المد هنا كما جاز ذلك في غير هذا الموضع من البيت ؟ الجواب كما هو معروف : لا ، وهذا يعني أن لهذا الساكن أهمية غير أهمية ما ماثله داخل البيت .(٣٨) على أن هذه الملاحظات مأخوذة من هذه التعريفات دون ربط هذه التعريفات بأجزاء القافية المكونة من ستة أحرف وست حركات ، وهذه الأجزاء لها تعريفاتها التي قد تكون محل خلاف بين العلماء ، لأن الحد على الرغم من ذلك يجب أن يكون جامعاً مانعاً ، والتعريف للقافية وحدها . وبهذا أحسب أن تعريف أبي موسى الحامض هو التعريف السليم ، وأنه ليس تعريف الخليل بعينه كما ادعى ابن رشيق ، وسلامته في عمومه وجماله في إيجازه وسهولته ، ذلك أن تعريف القافية بمساحة معينة أمر صعب لم يفز به أحد من الذين حاولوا التجديد فيه حتى الآن حسب معرفتي ، ولو نظرت مثلا إلى تعريف إبراهيم أنيس لها لوجدته لا يختلف عن تعريف أبي موسى الحامض في المعنى وقد قال ابن منظور عن تعريف الحامض : إنه مطوي على خلل ، ولكن الشنتريني اختاره وانتقد ما سواه .(٣٩)

٤ ـ وإذا كانت أجزاء البيت عند السنسكريتين واليونانيين تسمى أرجل البيت ، فإن القوافي هي بمثابة الحوافر لتلك الأرجل كما يقول القرطاجني ،(٤٠) وفيها ومنها الروي الذي « حقيقة الشعر تتوقف بروايته عليه ، وتروّى به النفوس » ،(٤١) لذلك نجد شعر العرب الأوائل الذين يحتج بعربيتهم قد وحّد هذه القافية ولم يتهاون فيها إلا ما حصل من بعض العرب ، عن طريق الوهم لاشتباه حروف تقاربت مخارجها ، فاختلط الأمر عليهم ، بسبب ذلك ، أو لسبب آخر ، وقد قسمها علماؤنا إلى قسمين :

أ ـ **الإكفاء** : وهو أن ينكفئ الشاعر ، وينقلب عن حرف رويه ، إلى روي من حرف آخر ، بسبب علاقة التشابه لقرب المخرج ،(٤٢) ومثلوا لذلك بأمثلة منها : ما رووه عن أبي الدهماء العنبري ،

ويْلُ الحبالى إن أصاب الركبا ... يستخرج الصبيانُ منه خذما(٤٣)

فخلط بين الهاء والميم ، لاشتراكهما في المخرج ، وهو الشفتان .

وقال رغيب بن قيس العنبري :

نظرت بأعلى الصوق والباب دونه ... إلى نعم ترعى قوافي مسردِ

.... عجيـل مخلـط(٤٤)

ومثله : والله لولا شيخنا عبَّادُ ... لكمّرونـا عندهـا أوكادوا

فُـرشط لماكُـره الفـرشاط ... بفـيشة كأنهـا ملطـاط.(٤٥)

ومثله : « إلا أنه قد يكون من خلط الرواة بين قصيدتين

كأن تحت درعها المنقدِّ   شطّا رميت فوقه بشطِّ

ومثله كذلك

إذا رجلت فاجعلوني وسطا   إني كبير لا أطيق العنّدا(٤٦)

فخلط بين الدال والطاء ، لاشتراكهما في المخرج ، وهو أسناني لثوي ، كما اشتركا في الشدّة ، وإن كانت الأولى رقيقة ، والثانية مفخّمة .

وقال أبو محمد الفقعسي :

يا دار هند وابنتَيْ معاذِ   كأنها والعهد مذ أقياظِ(٤٧)

فخلط في رجزه بين الذال والظاء ، لأنهما يشتركان في المخرج من الأسنان . وكلاهما رخوان ، والفرق بينهما أن الأولى مرققة ، والثانية مفخّمة . وقال آخر :

كأن أصوات القطا المنقضِّ   بالليل أصوات الحصى المنقزِّ(٤٨)

ويروى المنقص بالصاد أيضاً وهو الأقرب حيث الصاد والزاي لثويتان رخوتان إلا أن الأولى مهموسة مفخمة والثانية مجهورة مرققة .

وقال أبو الدهماء العنبري أيضاً :

فلا عيب فيها غير أن جبينها   جهيض وفي العينين منها تخاوصُ
.... بالثياب الأطالسِ
.... والماء جامسُ(٤٩)

فخلط بين الصاد والسين الأسليتين ، لاشتراكهما في المخرج وهو الأسنان واللثة ، كما يشتركان في الرخاوة والهمس ، ويفترقان في أن الأولى مفخمة ، والسين مرققة ، وحصل الجمع بينهما من راجز آخر أيضاً :

وصاحب يمتعص امتعاصاً   كأن في حال استه أحلاسا
يزداد ما استعملتهُ خِناسا(٥٠)

ويندرج تحت هذا ، الخلط بين الأصوات التي يجمعها قولك (لم نر) وتسمى لشبهها بأصوات اللين الأصوات المائعة ، أو المتوسطة والثلاثة الأولى منها من أحرف الذلاقة ، والخلط بينها موجود في كثير من اللغات ومنها اللغة العربية ، من ذلك قول الشاعر :

أأن زَمّ أجمالٌ وفارق جيرةٌ   وصاح غراب البين أنت حزينُ
تنادوا بأعلى سُحْرة وتجاوبت   هوادرُ في حافاتهم وصهيلُ(٥١)

ومن ذلك ما أنشده أبو العطاف :

أرمـى بها مطالـع النجـوم   رمّي سليمانٍ بـذى غصونِ[٥٢]

وقول أبي جهل :

ما تنقم الحربُ العوانُ منّي   بازلُ عاميـنِ حـديثٌ سنّـي
لمثل هذا ولدتني أمّي[٥٣]

وقول جدّة أبي سفيان :

بُنَـيَّ إن البر شيء هيّـنُ   المنطـق الطـيب والطُّعيِّـمُ[٥٤]

وما رواه الفراء عن أبي الجراح :

والله مـا فضلي على الجيران   إلا على الأخـوال والأعمـام

وأنشد غيره :

يا ربّ جعدٍ فيهمْ لو تدرينْ   يضرب ضرب السيط المقاديمْ[٥٥]

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم في فواصله يراوح في نهاياتها بين هذه الأحرف المائعة ، أو بعضها كما يراوح قبلها بين المد الطويل الواوي ، وبين المد الطويل اليائي ، ولو تأملت نهايات فواصل سورة (ن) مثلاً لوجدتها (...ـُون ، أو : ...ـِين) أو (...ـُوم أو : ...ـِيم) ، ومثل ذلك في سورة (الصافات) من الآية الثانية عشرة حتى آخر السورة .

ب ـ الإجازة بالزاي المعجمة :

وهي اجتماع الحرف مع لصيقه في التهجية ، كالتاء مع الثاء ، والسين مع الشين ، والعين مع الغين ، حيث تتناوب رويا .[٥٦] والإجازة مشتقة من التجوّز ، وقيل : إن عامة أهل الكوفة يسمّون ذلك (الإجارة) بالراء المهملة من الجور والتعدّي ،[٥٧] ومن أمثلة الإجازة عندهم قول السموأل بن عادياء :

ربّ شتـمٍ سمعتـه فتصامَمْـ   ـتُ وعنّـى تركتـه فكُفِيـتُ
ينفع الطيِّبُ القليل من الـرز   ق ولا ينفع الكثير الخبيثُ[٥٨]

(الخبيث) بالثاء المثلثة . ويروى هذا البيت بالتاء المثناة (الخبيت) قلبت الثاء تاء وقيل : « هذه لغة لليهود » .[٥٩] فيكون ذلك من الإبدال لا من الإجازة وهو إبدال منتشر في بعض اللهجات العربية الحديثة . ومن الجمع بين الحاء والخاء ما أنشده ابن الأعرابي :

أزهـر لم يولَـد بنجـم الشُّحِّ   مُيَمَّمُ البيت كـريم السِّنْـخِ[٦٠]

والحاء والخاء وإن اختلف مخرجاهما ، فقد اجتمعا في الرخاوة والهمس وعدم التفخيم . ومن الجمع بين السين والشين قول لراجز :

ألـــذ مـــن ظهـــر فـــرسْ   نـــوم على بطـــن فـــرشْ[٦١]

ومن الجمع بين العين والغين قول جواس بن هريم :

قبحت من سالفة ومن صُدُغْ   كَأَنَّهَا كُشْيَة ضب في صُقُعْ[٦٢]

فالتاء والثاء اختلف مخرجاهما ، كما أن الأولى شديدة والثانية رخوة ، لكنهما اتفقا في الهمس والترقيق ، وواضح أن الذين يبدلون الثاء تاء يميلون لنطق الحروف من الداخل . أما السين والشين فاختلف مخرجاهما ، ولكن اتفقتا في الرخاوة والهمس والرقة ، كما أن العين والغين اختلف مخرجاهما ، واتفقتا في الرخاوة والجهر والرقة .

جـ ـ هناك أبيات منسوبة للعُجَير بن عبد الله السلولي (ت ٩٠ هـ تقريباً) هي :

ألا قَدْ أرى إنْ لم تكن أمُّ مالك   بمُلْكِ يدى إن البقاء قليـلُ
رَأى مِنْ رَفِيْقَيْه جَفاءً وبيعـةً   إذا قام يَبْتاع القلاصَ ذميـمُ
فقال لخَلَّيْهِ ارْحَلا الرَّحْلَ إنّني   بمُهْلكـةٍ والعاقبـاتُ تـــدورُ
فبَيْنَاهُ يَشْرِي رَحْلَهُ قَالَ قائِلٌ   لِمَنْ جَمَلٌ رِخو المِلاطِ نَجيبُ

فالقافية مبنية في هذه الأبيات على (ل + م + ر + ب) على التوالي ، والحروف الثلاثة الأولى منها من الأصوات المتوسطة ، ولكن الحرف الرابع ليس منها ، ولكنه ذو علاقة بحرف الميم حيث كل منهما شفهي ؛ لذلك نجد بعض العروضيين كالتنوخي مثلاً يدرجها تحت الإكفاء ، على حين يدرجها آخرون كالدماميني مثلاً تحت الإجازة . ويمكن توجيه مثل هذا التفاوت بأنه راجع إلى الاختلاف المعروف حول تعريف الإكفاء والإجازة ، أو إلى أن الأولين غلّبوا جانب النظر إلى الحروف الثلاثة الأولى ذات العلاقة ، وأن الأخيرين صبّوا الاهتمام على حرف الباء ، لا سيما أن الدماميني اقتصر على ذكر البيتين الأخيرين ، ونص على اختلاف مخرج الراء والباء .[٦٣] وقد آثرت إيراد هذه الأبيات وحدها .

ويرى العلماء أن هذا الخلط بين الحروف من الغلط فيها ، لأميّة هؤلاء وبداوتهم ؛[٦٤] لذلك فإنني عددتهم جميعاً من عصور الاحتجاج على الرغم من أن نزراً منهم من العصر العباسي ، لأن عصر الاحتجاج في الشعر البدوي تناولهم . ومما يحسن التنبيه إليه أنني لم أدخل معي الأشعار التي تبدو لأول وهلة غير موحّدة الروى ، على حين تكون موحّدة في ذلك ، وسبب هذا أن حروف الوصل المتقدمة (يهوا) قد يعتمدها الشاعر أساساً للروى لا وصلاً له ، والأمثلة على ذلك كثيرة .[٦٥] وينقل عبد القادر البغدادي عن عبد اللطيف البغدادي قوله عن الإكفاء ـ وهو ينسحب أيضاً عندي على

الإجازة ـ إن المرتكبين لذلك هم من الأعراب غير الفحول لأميّتهم ولكون الرجز يقال بداهة ، وإنه من قبيل الغلط الذي لا يقاس عليه من قِبَل المُحْدَثين لتعلّمهم وتوفّرهم على أشعارهم.(٦٦)

ويدخل في عصر الاحتجاج مع عدم وحدة الروى ما نُسِب لامرىء القيس الشاعر الجاهلي المشهور من أربع مسمّطات : الأولى مطلعها :

يـــا صَحْبَنــــا عَرِّجُـــــوا تقـــفْ بكـــم أسُـــــجُ
مهـريّـــــــــة دُلُــــــــــجُ فــــي سيرهـــــا مُعُـــــجُ
طالـت بها الـرِّحَـلُ(٦٧)

وهي ثلاث مجموعات يلتزم في كل أربعة أشطر منها قافية معينة ، ويلتزم في الشطر الخامس رويا موحداً في كل المجموعات هو اللام المضمومة .

والثانية مطلعها :

ومستلئمٍ كشّفت بالرمح ذيلــه أقمت بعضْب ذي شقائق ميله
فجعت به في ملتقى الكرّ خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على سرباله نضح جربالِ(٦٨)

وغنّي عن البيان أن هذه المسمطة على نمط المسمطة الأولى .

والثالثة مطلعها :

توهمت من هند معالم أطلالِ عَفَاهنّ طول الدهر في الزمن الخالي
مرابعُ من هند خلَتْ ومصايفُ يصيح بمغناها صدى وعـوازِفُ
وغيّرها هوج الرياح العواصفُ وكل مُسِفٍّ ثُمَّ آخـرُ رادِفُ
بأسْحَمَ من نَوْءِ السِّمَاكَيْن هَطّالِ(٦٩)

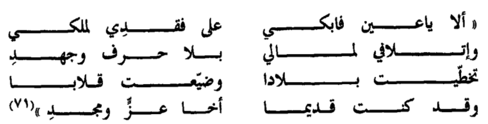
والشاعر هنا أتى بشطرين على روى واحد هو اللام المكسورة ، ثم أتى بأربعة أشطر على روى واحد هو الفاء المضمومة ، ثم أتى بعدها بشطر واحد على روى اللام المكسورة أي أنه مماثل لروى الشطرين الأولين ، ثم يستمر بإيراد أربعة أشطر ملتزماً فيها أيّ روى يختاره ، لكنه يقفلها بشطر خامس لها بروى اللام المكسورة دائماً إذا أراد الاستمرار .

والرابعة مطلعها :

خيـــال هـــاج لي شجنـــا فــبت مكابـــدا حزنـــا
عميـــد القـــلب مرتهنـــا بـذكـر اللهــو والطـــرب(٧٠)

وهذه تشبه المسمطتين الأولى والثانية ، ولكنها تختلف عنهما بجعل الروى المتغير ملتزماً بثلاثة أشطر فقط بدلاً من أربعة كما حصل هنا ، ثم الروى للقافية الثابتة في نهاية الشطر الرابع بدلاً من الشطر الخامس هناك .

وهناك خامسة منسوبة له رسمت هكذا :



« ألا ياعـــين فابكـــي   على فقـــدِي لملكـــي
وإتـــلافي لمـــالي   بـــلا حـــرف وجهـــدِ
تخطّيـــت بـــلادا   وضيّعـــت قـــلابـــا
وقـــد كنـــت قديمـــا   أخـــا عـــزٍّ ومجـــدِ »[٧١]

ولو نظر إليها بهذا المنظار لعدّت متعددة الروي بدون نظام تقريباً ماعدا الروي الموحّد بين الشطرين الأولين ، ثم هناك روي (الدال) بين الشطر الرابع والثامن ، ولكن حقيقة هذا الشعر أنه من بيتين فقـــــــط رويّهمـــــــا الـــــــدال ، قيـــــــل إنهما يمثّلان بحراً أهمله الخليل[٧٣] وإذا كانا بيتين فليسا مما أنا بصدده ، وإن كان من الواضح أنهما بتقسمهما يجسّدان الأساس – إن صحا لامرئ القيس – لما سُمِّي عند المولّدين (بذات القوافي) .[٧٣]

وهناك مسمطة أخرى غير منسوبة ، أدرجها في عصور الاحتجاج ، لأن الجوهري ذكرها قبل مسمطة امرئ القيس وإن قيل إنها لبعض المُحْدَثين وهي :

وشيبةٍ كالقسمِ غيّر سود اللِّمَمِ   داويتهـــا بالكَتَـــمِ
زورا وبهتـــانـا[٧٤]

هذا ما تيسر الوصول إليه في هذا الشأن من أشعار عصور الاحتجاج ، على أن المجموعة الأولى ذات الخلط بين الأحرف المتشابهة في الرويّ نتيجة الجهل بها لغلبة الأميّة على قائليها ، يترجح ثبوتها ، قال القرطاجني « اختلاف القافية وقع ممن لا يحفل به من العرب »[٧٥] وأحسبه يعني هذا النوع منهم . أما المجموعة الثانية وكلها منسوبة لامرئ القيس ماعدا واحدة ، فقد علق أبو العلاء المعري على المسمطة الأولى قائلاً: « وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام وقد ظلمني وأساء إليّ »[٧٦] ونسب الجوهري الثانية لامرئ القيس وقال له مسمطة ثانية ولم يذكرها ولعلها من بين ما أوردت ، وعلق المحقق على ذلك بأنه كُتِبَ عليه في بعض النسخ قول الصاغاني : « ليس هذا من شعر أحد ممن يسمى بامرئ القيس أصلاً » ونقل الزبيدي ذلك أيضاً[٧٧] وقال ابن رشيق عن المسمطة الثالثة : إنها منحولة وأنه لا يصحّحها لامرئ القيس ..[٧٨] وقيل عن الرابعة : إنها لمجهول[٧٩] وعلى هذا فإن كانت هذه المسمطات نتاج عصر يستشهد به فهي قدوة ، ولا يهم ثبوتها لامرئ القيس أو عدم ثبوتها ومثلها

ما معها ، لأن العروض مقيس على النحو واللغة ، والنافي مطالب ببرهان أقوى من المثبت ، إلا أن كثيراً من الباحثين يميلون إلى أنها لمولّدين ، وأن المسمطات نشأت بعد المربعات والمخمسات .[٨٠] وهو قول ترجحه النفس لكنه يحتاج لإثباته إلى ما هو أقوى من الترجيح .

٥ ـ في العصر العباسي عصر نضج الانفتاح على الثقافات المختلفة ، ومنها الغناء المرتبط بالشعر وأوزانه وقوافيه برباط وثيق ، وضحت محاولات إبداء الضيق بالقافية وكانت بوادر تلك المحاولات قد اتخذت مسارين :

الأول : بدا واضحاً في بحر الرجز ، سواء في أوزانه ولست بصدد بحثها ، أو في قوافيه وهي المهمة هنا ولعل تعرض بحر الرجز للتغيير أكثر من غيره لوطأة كنفه ، حتى ليراه بعضهم أقرب للسجع منه إلى الشعر ،[٨١] وكان بعض الشعراء كالفرزدق يقول « إني لأرى طَرَقة الرجز ، ولكني أرفع نفسي عنه » ،[٨٢] ، ولأبي العلاء المعرّي الكثير من الأبيات في الحطّ من قدره .[٨٣] كأنما هو منزله بين الشعر والسجع ، ولذلك سمّي حمار الشعراء ،[٨٤] وقد قسمه الفارابي إلى ثلاثة أنواع : تام : وهو ما يلزم في قافيته رويّاً واحداً ، وهو جاهلي ، ومنفصل : وهو ما يلتزم فيه الشاعر رويّاً واحداً لكل شطرين ، مثل ذات الأمثال لأبي العتاهية و لم يسمع عن الجاهليين ، ومتصل : وهو ما يلتزم فيه الشاعر رويّاً واحداً لعدد من الأشطر ، ثم يغيّر الروى مع عدد آخر من الأشطر مثل قصيدة مدرك بن علي الشيباني لكل أربعة أشطر رويّ خاص ، وقال : المنفصل والمتصل غير جاهليين ، والمنفصل أشهر من المتصل هذا ما قاله الفارابي ، وقال ابن رشيق عن نهج قصيدة مدرك « لا أشك أنه مولّد محدث » .[٨٥] والحق أنني قد اخترت هذا التقسيم للفارابي مفضّلاً إياه على غيره ، ويمكن أن يُدخل في القسم الثالث ما ماثله ، وإن تنوّعت قافيته فيما أتى على بحر الرجز من مسمطات ومربعات .. إلخ . وأحسب أن قول الفارابي عن المنفصل (المزدوج) ، والمتصل « غير جاهليين » عبارة موزونة جداً ، فلم يقل مولّدين ، ربما لأنه يتوقف في تاريخ نشأتهما ، نعم رُوي المنفصل (المزدوج) لبشر ابن المعتمر الذي قيل هو أول من فعله ، ولبشار بن برد وقد كان يصنع المزدوجات والمخمسات عبثاً واستهانة بالشعر ، ولأبي العتاهية ، ولأبان اللاحقي في العصر العباسي الأول ثم تابعهم الكثير من الشعراء ،[٨٦] لكن السؤال المهم في القضية ، هل كان هؤلاء مبتدعين له ، أم متبعين أناساً قبلهم عاشوا في عصور الاستشهاد وربما العصر الجاهلي ؟ يميل كثير من الباحثين إلى أنهم مبتدعون له غير مسبوقين إليه .[٨٧] وربما يؤيّد ذلك بعض التأييد ما روى عن أبي العتاهية من تجديدات في الأوزان لم يتقدمه الأوائل فيها،[٨٨] وذكروا منها قوله :

للمنـــــــون دائـــــــــرا	ت يـــــــدرن صرفهـــــــا
ثـــــــم ينتقينـــــــنا	واحـــــــدا فواحـــــــدا[٨٩]

هكذا يرسمها الكثيرون ، وهذا الرسم يشعر بأنهما بيتان اختلفت قافيتهما ، فإن لم ننظر للرسم ، وجعلناهما بيتاً واحداً تكون كلمة (صرفها) نهاية الشطر الأول وكلمة (واحدا) نهاية البيت وفيها الروى الدال ، فلا علاقة له بهذا البحث ، وإن كان على وزن جديد ، ومثل ذلك محاولة نُسبت لأحد المولَّدِين التزم فيها حرف روى موحّد ، لكنه التزم في حركة هذا الروى أن يكون مرة مرفوعاً ومرة مجروراً عن قصد ، وشبهوه بقواديس السانية فقالوا (القواديسي) .[٩٠]

الثاني : مسار اتخذ طابع الهزل في ظاهره ، والتبرّم بقيد الروى الواحد في مضمونه ، من ذلك ما رواه العتبي قال : قال أبي : « أنشدني أبو وائل :

ما أوجع البينُ من غريبِ ... فكيف إن كان من حَبيبِ
يكاد من شوقه فؤادي ... إذا تذكرته يموتُ

فقال له أبي : إن هذا باء ، وهذا تاء . قال : لا تنقّط أنت شيئاً . قلت : يا هذا إن البيت الأول مخفوض ، وهذا مرفوع . قال : أنا أقول لا تنقّط وهو يشكّل » .[٩١] ويروى عن جماعة أنهم عملوا شعراً رائجياً ـ أي : لا معنى له ، أو أنه مختلف القوافي ـ في مدح شجاع من رجال الخليفة المنتصر العباسي (٢٢٢ – ٢٤٨ هـ) وألقاه أحدهم عليه ونال جائزته منه ، لجهل شجاع بالشعر ، وهو :

شُجاعُ نُجاع كاتب لاتِب معًا ... كجلمود صخر حطّه السيل من علِ
خبيص لبيص مستمرٌّ مقوّم ... كثير أثير ذو شمال مهذب
فطين لَطِين آمرٌ لَكَ زاجر ... حصيف لَصِيف كلّ ذلك يُعْلَم
بليغ لَبِيْغ كلّ ما شئت قلته ... لديه وإن تسكت من القول يسكن
أديب لبيب فيه عقل وحكمةٌ ... عليمٌ بشعري حين أُنشِد يشْهَدُ
كريم عليم قابض متباسطٌ ... إذا جئته يوما إلى البذل يسمَحُ[٩٣]

ومنه ما أورده الباقلاني (ت ٤٣٠ هـ) دون نسبة أو تحديد عصر :

ربّ أخٍ كنتُ به مغتبطا ... أشدُّ كفِّي بعرى صحبتِهِ
تمسّكا منِّيَ بالودّ ولا ... أحسَبه يزهد في ذي أمَلِ
تمسّكا منِّيَ بالودّ ولا ... أحسَبه يُغيّر العهد ولا
يَحُولُ عنه أبدا ... فخاب فيه أملي[٩٣]

وهذا الشعر قد جمع بين عدم تساوي الأشطر في التفعيلات ، وبين عدم توحيد القافية ، وأحسبه مما يُؤتى به على أن الكلام الجاري على الألسنة قد يشتمل على نوع من الوزن ، كما مثّل لذلك أبو العتاهية :

« يا صاحب المسح تبيع المسحا ... تعال إن كنت تريد الربحا »[٩٤]

وعلى أي حال يقول أحد الباحثين « لم يُعهد عن العرب القدماء أنهم قالوا بيتين أو أكثر في معرض واحد إلا جاءوا بذلك من بحر واحد ، وجعلوا أواخر الأبيات حرفاً واحداً مع ما اشترطوا في هذه الأواخر من شروط مجموعها هو علم القوافي » ويردف : الخروج على الوزن الموحّد والقافية الموحّدة حدث في العصر العباسي لضعف أهله في الفصحى .[٩٥] ولعل هذا هو رأي الغالبية ، لترجيحهم عدم صحة نسبة مسمطات امرئ القيس له مع أن بعضها منسوب من القرن الثاني في كتاب العين للخليل أو الليث بن المظفر لتنزيه الخليل ، فيما يظهر ، عن بعض ما ورد فيه ، ومن ذلك نسبة المسمط لامرئ القيس . وسيبقى هذا الرأي هو الأقوى على الرغم من أنه نفي ترجيحي ، حتى يكشف البحث عن جديد ■

● الهــوامــش ●

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، مادة (قفا) ص ٢٤٦٦/٦ .

(٢) أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش ، كتاب القوافي ، تحقيق : عزت حسن ، دمشق ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، ص ١، وأبو يعلى عبد الباقي عبد الله بن المحسّن التنوخي ، القوافي ، تحقيق ، عوني عبد الرؤوف ، نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٧٨ م ، ص ٥٩ و ٦٣ . وأبو علي : الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م ص ١٥٤/١ ، وعلي بن جعفر بن علي بن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ، مخطوط ضمن مجموع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت رقم ١٦٤٠، ل ٢٢، وأحمد كشك ، القافية تاج الإيقاع ، ١٩٨٣ م ، ص ٨ .

(٣) أحمد بن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق : مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٣ م - ١٣٨٢ هـ ص ٢٧٣ وأبو الحسن : حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد بن الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨١ م ، ص ٧١ ، ومحمد بن عبد الملك الشنتريني ، المعيار في ميزان الأشعار والكافي في علم القوافي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الأنوار ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م. ص ١٢ ، عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمته ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر بدون تاريخ ، ص ٥٦٦، ٥٧٢ و ٥٧٣ .

(٤) أبو يعقوب ، يوسف بن أبي بكر محمد ابن علي السكاكي ، مفتاح العلوم ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م ، ص ٢٤٤ ، وانظر في عدم اشتراط القافية :

عند أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني ، العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، تحقيق الحساني حسن عبد الله ، مطبعة المدني بمصر ، بدون تاريخ ص ١٧ – ١٨ ، والسيد محمد الدمنهوري ، الحاشية الكبرى (الإرشاد الشافي) ، الطبعة الثانية بمصر ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٧ م ، ص ٢٠ .

(٥) ابن رشيق : العمدة ١٣٤/١ .

(٦) المصدر السابق ١١٩/١ .

(٧) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٢٦٩ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٩) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(١٠) شكري عياد ، موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م ، ص ١١٤ .

(١١) المرجع السابق ١١٥ عن الرجز ، و ١١٠ عن القول الآخر .

(١٢) أحمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م ، ص ٤٤٢/٥ على أن الدماميني ، العيون الغامزة ١٧ قال : عند الخليل « الشعر هو ما وافق أوزان العرب » .

(١٣) أبو العباس ، محمد بن يزيد المعروف بالمبرِّد ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف – بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٥٤/١ ، و ٦١/٢ .

(١٤) الأخفش ، كتاب القوافي ٣ و ٤ و ٥ ، والتنوخي : كتاب القوافي ٦٣ ، وابن رشيق ، العمدة ١٥٤/١ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ ، والسكاكي : مفتاح العلوم ٢٧٠ .

(١٥) ابن رشيق : العمدة ١٥٤/١ .

(١٦) السكاكي : مفتاح العلوم ٢٧٠ .

(١٧) الأخفش : كتاب القوافي ؛ وأبو الفتح عثمان بن جني ، مختصر القوافي ، تحقيق : حسن شاذلي فرهود ، مطابع الحضارة العربية – مصر ، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م ، ص ١٩ .

(١٨) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٣ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ .

(١٩) ابن رشيق : العمدة ١٥١/١ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ ذكر أن الناس في عهده كذلك .

(٢٠) ابن رشيق ، العمدة ١٥٣/١ .

(٢١) محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، لسان العرب ، المطبعة الميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣٠٧ هـ ، (قفا) ص ٥٧/٢٠ .

(٢٢) ابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ .
(٢٣) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٥ .
(٢٤) ابن رشيق ، العمدة ١٥٣/١ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ دون ذكر ابن كيسان .
(٢٥) السكاكي : مفتاح العلوم ٢٧٠ ، ونسبة لقطرب فقط التنوخي في كتاب القوافي ٦٦ ، وكذا عند ابن منظور ، لسان العرب (قفا) ٥٧/٢٠ ، وعياد ، موسيقى الشعر العربي ٩٩ نسبه لثعلب وقال : « لا يزال هو المفهوم الشائع للقافية » .
(٢٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٤٩٦/٥ .
(٢٧) ابن جنى ، مختصر القوافي ١٩ واختاره ، وابن رشيق العمدة ١٥١/١ - ١٥٢ وله النص ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ ، والسكاكي ، مفتاح العلوم ٢٧٠ ، وابن منظور ، لسان العرب (قفا) ٥٧/٢٠ وذكر اختيار ابن جني له .
(٢٨) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٨ .
(٢٩) القرطاجني ، منهاج البلغاء ٢٧٥ .
(٣٠) عياد ، موسيقى الشعر العربي ٩٩ .
(٣١) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٦ .
(٣٢) ابن رشيق ، العمدة ١٥٣/١ ، وابن منظور ، لسان العرب (قفا) ٥٧/٢٠ .
(٣٣) عبد البر بن عبد القادر العوفي ، حسن البيان في شرح إقامة الأوزان ، مخطوط ضمن مجموع بجامعة الملك سعود تحت رقم ف ٢/٩٦٥ ، ل ٧ وانظر أيضاً إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة (٤) ١٩٧٢ م ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .
(٣٤) كشك ، القافية تاج الإيقاع ١٥ .
(٣٥) القرطاجني : منهاج البلغاء ٢٧٣ - ٢٧٤ .
(٣٦) كشك ، القافية تاج الإيقاع ١٥ .
(٣٧) عبد الله الطيب ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الدار السودانية الخرطوم ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ م ، ص ٤٢ يعيب المستشرقون ذلك على الشعر العربي وفي شعر الإنجليز ما هو أشنع منه ، أما أنيس ، موسيقى الشعر ٢٩٤ فيوافق المستشرقين .
(٣٨) انظر اعتراضات أخرى عليه عند كشك : القافية تاج الإيقاع ٢٠ .
(٣٩) أنيس : موسيقى الشعر ٢٤٦ ، ابن منظور ، لسان العرب ٥٧/٢٠ ، الشنتريني ، المعيار والكافي ٩٠ - ٩١ .
(٤٠) القرطاجني : منهاج البلغاء ٢٧١ .
(٤١) العوفى ، حسن البيان في شرح إقامة الأوزان ل ٧ .

(٤٢) الجوهري ، الصحاح (جوز) ٨٧٠/٣ وهذا قول أبي زيد، والخليل يسميه الإجازة وستأتي . وانظر : الدماميني ، العيون الغامزة ٢٤٧ .
(٤٣) أبو عبد الله ، محمد بن عمران المرزباني ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ ، ص ٢٣ « وعن تبادل الميم والباء ، انظر المبرِّد : الكامل في اللغة والأدب ١١٧/١ .
(٤٤) المرزباني ، الموشح ٢٣ .
(٤٥) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق : محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ، ص ٤٩٠ .
(٤٦) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩١ وأبو منصور ، موهوب بن أحمد الجواليقي ، شرح أدب الكاتب ، مكتبة القدس القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ وروى : كأن تحت درعها ... لشاعرين الأولى دالية كلها ، والثانية طائية كلها . وابن السيِّد البطلَيوسي ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٣ م ، ص ٤١٥ رواها لأبي النجم العجلي وكلها طائية ، وزاد على (لا أطيق العنّدا) : (ولا أطيق البكرات الشرّدا) .
(٤٧) أحمد بن يحيى ، ثعلب ، قواعد الشعر ، تحقيق : رمضان عبد التواب ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م ص ٦٨ ، وابن قتيبة أدب الكاتب ٤٩٢ برواية (أسّ جراميز على وجاذ) ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣٧ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٦ مع اختلاف في الرواية ، والجرموز : الحوض ، والوجاذ : المرتفع .
(٤٨) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩٠ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٢٣ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٤ ورواه بالصاد .
(٤٩) المرزباني : الموشح ٢٣ ، ونظيره عند عبد القادر البغدادي ، خزانة الأدب ، طبعة بولاق الأولى ، ص ٥٣٣/٤ (لص ، يعس) .
(٥٠) أبو زيد ، سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، كتاب النوادر في اللغة ، تعليق وتصحيح سعيد الخوري الشرتوني ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، بدون تاريخ ص ١٦٨ .
(٥١) المرزباني ، الموشح ٢٤ .
(٥٢) المصدر السابق ٢٣ .
(٥٣) المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب قال لاشتراكهما في الغنّة ٧٤/٢ ، والبغدادي ، خزانة الأدب ، ٥٣٤/٤ ووجهه توجيهات منها أن تكون الياء هي الروى ، ومثله ما رواه ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩٢ (قطا ، طفا) حيث يُحتمل أن الروى الألف . ومثله مّا رواه البغدادي ، خزانة الأدب ٥٣٢/٤ حيث يُحتمل أن الياء هي الروى ، وما رواه الدماميني ، العيون الغامزة ٢٤٥ (عصيتا ، إليكا) حيث يحتمل أن الألف هو الروى ، مع روايته (عصيكا) . وأمثال ذلك كثير .

(٥٤) أبو زيد الأنصاري ، النوادر في اللغة ١٣٤ ، وثعلب ، قواعد الشعر ٦٩ ، والمبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ٧٤/٢ ، ويرى ابن بري في رده على انتقادات ابن الخشاب لمقامات الحريري (ملحقة بمقامات الحريري ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر١٣٢٦ هـ) ، ص ١١ أن السجع كالشعر تماماً .

(٥٥) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩٠ ، والجواليقي ، شرح أدب الكتاب ٣٣١ – ٣٣٢ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٤ وزاد فيها .

(٥٦) ثعلب ، قواعد الشعر ٧٠ ، وانظر : التنوخي ، كتاب القوافي ١٩٢ .

(٥٧) الدماميني ، العيون الغامزة ٢٤٧ .

(٥٨) ثعلب ، قواعد الشعر ٦٩ – ٧٠ .

(٥٩) الأنصاري ، كتاب النوادر في اللغة ١٠٤ ، وانظر : أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات العربية في التراث : الدار القومية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م، ص ٤٣٢/٢.

(٦٠) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩١ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣٧ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٦ .

(٦١) ثعلب ، قواعد الشعر ٦٩ ، والتنوخي ، كتاب القوافي ١٩١ .

(٦٢) التنوخي ، القوافي ١٧١ ، والدماميني ، العيون الغامزة ٢٤٦ .

(٦٣) المصدر السابق ٦٩ ، وابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩١ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣٧ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٧ .

(٦٤) المرزباني ، الموشح ٢٣ ، وابن منظور ، لسان العرب ٥٧/٢٠ .

(٦٥) انظر : المرزباني ، الموشح ٢٦٨ وتأمل مقصورة ابن دريد المشهورة .

(٦٦) البغدادي : خزانة الأدب ٥٣٢/٤ ـ ٥٣٣ ملخصاً .

(٦٧) أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، تحقيق ، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ص ٣١٨ – ٣١٩ وديوان امرئ القيس تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ، ص ٤٧٢ – ٤٧٣ .

(٦٨) حسين السندوبي ، شرح ديوان امرئ القيس ، المكتبة الثقافية ـ بيروت ، الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ص ١٩٦.، الجوهري ، الصحاح ، (سمط) ١١٣٤/٣ ، وسفق ١٤٩٧/٤ ، ومحمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، جمعية المعارف بمصر ١٢٨٥ هـ ، (سمط) ١٦١/٥ نقلاً عن الجوهري وقال : « هكذا هو في العين ، وقد روى الأزهري في كتابه على الوجه الذي ذكره الليث تقليداً » .

(٦٩) ديوان امرئ القيس السابق ٤٧٤ – ٤٧٥ ، والسندوبي ، شرح ديوان امرئ القيس ١٩٦ ، وابن رشيق ، العمدة ١٧٩/١ ، والزبيدي ، تاج العروس (سمط) ١٦١/٥ .

(٧٠) السكاكي ، مفتاح العلوم ٢٦٩ ، والزبيدي ، تاج العروس ١٦١/٥ بدون نسبة ، وكذا عند مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ص ٣٨٥/٣ .
(٧١) السكاكي ، مفتاح العلوم ٢٦٩ .
(٧٢) المصدر السابق ٢٦٩ .
(٧٣) انظر : الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣٧٠/٣ .
(٧٤) الجوهري ، الصحاح (سمط) ١١٣٤/٣ ، والزبيدي ، تاج العروس سمط ١٦١/٥ ونقل عن ابن بري أنها لبعض المحْدَثين .
(٧٥) القرطاجني ، منهاج البلغاء ٢٧٢ .
(٧٦) المعري ، رسالة الغفران ٣١٩ .
(٧٧) الجوهري ، الصحاح (سمط) ١١٣٤/٣ والزبيدي ، تاج العروس (سمط) ١٦١/٥ .
(٧٨) ابن رشيق ، العمدة ١٧٨/١ و ١٨٢/١ .
(٧٩) المصدر السابق ١٧٩/١ والرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣٨٥/٣ .
(٨٠) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣٨٤/٣ – ٣٨٥ ، وصفاء خلوصي ، فن التقطيع الشعري ، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٦٦ م ، ص ٢٩٨ .
(٨١) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني : إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م ، ص ٥٤ .
(٨٢) أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، تحقيق : محمود حسن زناتي ، دار الآفاق الجديدة ، مطابع دار السراج ـ بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٣١٩ .
(٨٣) أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله المعري ، لزوم ما لا يلزم ـ اللزوميات ، تحقيق : إبراهيم الأعرابي ، مكتبة صادر ـ بيروت بدون تاريخ ، ص ٣١٧/٢ ، ٣٢٠/٢ ، ٣٢٤/٢ .
(٨٤) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٢٨/٣ .
(٨٥) الفارابي (لم يوضح اسمه ولعله : أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان) المقصد الوافي في العروض والقوافي مخطوط بجامعة الملك سعود تحت رقم م ف/٤١٦ ـ ٢٧٤٤ ، ل ٨ . وانظر قصيدة مدرك عند : ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، مطبعة المأمون ، بدون تاريخ ص ١٣٦/١٩ ، وابن حجة الحموي ، ثمرات الأوراق في المحاضرات (بهامش المستظرف من كل فن مستظرف للإبشيهي) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون مكان أو تاريخ) ٤٠/٢ ، وانظر كلام ابن رشيق في : العمدة ١٨١/١ .
(٨٦) ابن رشيق ، العمدة ١٨٢/١ ، وكارل نالينو ، تاريخ الآداب العربية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ص ٢١٥ ، وخلوصي في التقطيع ٢١٥ .

(٨٧) ابن رشيق ، العمدة ١٨٢/١ ، وابن خلدون ، مقدمته ٥٨٣ ، ومحمود مصطفى ، أهدى سبيل إلى علمي الخليل مطبعة صبيح وأولاده بمصر ، الطبعة العاشرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ، ص ١٥١ ، ونالينو ، تاريخ الآداب العربية ٢١٥ ، وخلوصي ، فن التقطيع الشعري ٢٨٨ .

(٨٨) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، -مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، ص ٨/٤ و ١٣/٤ .

(٨٩) ابن قتيبة عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، دار الثقافة - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م - ١٤٠٠ هـ ص ٦٧٦/٢ .

(٩٠) ابن رشيق ، العمدة ١٧٨/١ .

(٩١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٨٤/٧ - ١٨٥ .

(٩٢) أبو الحسن غرس النعمة محمد بن هلال الصّابئ ، الهفوات النادرة ، تحقيق : صالح الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية - بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، ص ٢٦٩-٢٧٠، وأكثر الكلمات من الإتباع انظر : ابن فارس ، الصاحبي ٢٧٠ .

(٩٣) الباقلاني ، إعجاز القرآن ٥٦ ، وعنه : الدماميني ، العيون الغامزة ١٨ .

(٩٤) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ٣٩/٤ وانظر ابن حجة الحموي ، ثمرات الأوراق ٩٩/١ - ١٠٠ نثر للمعري صيغ على بحر الرجز .

(٩٥) مصطفى ، أهدى سبيل إلى علمي الخليل ١٥١ .

● المصادر والمراجع ●

أولاً : المصادر :

أ ـ المخطوطات :

ـ العوفي ، عبد البر بن عبد القادر الفيومي (ت ١٠٧١ هـ) ، حسن البيان في شرح إقامة الأوزان ، (مخطوط ضمن مجموع بجامعة الملك سعود تحت رقم ف ٢/٩٦٥) .
ـ الفارابي [لعله : أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان] ، المقصد الوافي في العروض والقوافي (مخطوط بجامعة الملك سعود تحت رقم م ف/٤١٦ – ٢٧٤٤) .
ـ ابن القطاع ، علي بن جعفر بن علي (ت ٥١٤ هـ) : المختصر الشافي في علم القوافي ، (مخطوط ضمن مجموع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، تحت رقم ١٦٤٠) .

ب ـ المطبوعات :

ـ الأخفش ، أبو الحسن : سعيد بن مسعدة (ت ٢٢١ هـ) : كتاب القوافي ، تحقيق : عزت حسن ، دمشق ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .
ـ الأصفهاني ، أبو الفرج ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) . الأغاني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية .
ـ الأنصاري ، أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت (ت ٢١٥ هـ) : كتاب النوادر في اللغة ، تعليق وتصحيح : سعيد الخوري الشرتوني ، دار الكتاب العربي ، بيروت (بدون تاريخ) .
ـ الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب بن القاسم (٤٠٣ هـ) : إعجاز القرآن ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .
ـ ابن بري ، أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار (ت ٥٨٢ هـ) : رده على انتقادات ابن الخشاب لمقامات الحريري ، (ملحقة بمقامات الحريري ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٢٦ هـ) .
ـ البطليوسي ، عبد الله ابن السيِّد ، (ت ٥٢١ هـ) : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٣ م .
ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، طبعة بولاق الأولى .
ـ التنوخي ، أبو يعلى : عبد الباقي عبد الله بن المحسّن (حان حيا سنة ٤٨٧ هـ) : القوافي ، تحقيق : عوني عبد الرؤوف ، مطبعة الحضارة العربية ـ القاهرة ١٩٧٥ م .

- ثعلب ، أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) : قواعد الشعر ، تحقيق : رمضان عبد التواب ، دار المعارف ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .
- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) : مختصر القوافي ، تحقيق : حسن شاذلي فرهود ، مطابع الحضارة العربية ـ مصر ، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .
- الجواليقي ، أبو منصور : موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠ هـ) : شرح أدب الكاتب ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- الجوهري ، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) : الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .
- ابن حجة الحموي ، تقي الدين : أبو بكر ابن علي بن محمد (ت ٨٢٧ هـ) : ثمرات الأوراق في المحاضرات (بهامش المستطرف من كل فن مستظرف للإبشيهي) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بدون مكان أو تاريخ) .
- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦ هـ) : معجم الأدباء ، مطبعة المأمون (بدون تاريخ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) : مقدمته ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (بدون تاريخ) .
- الدماميني ، أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر ابن عمر (ت ٨٢٧ هـ) : العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، تحقيق : الحساني حسن عبد الله ، مطبعة المدني بمصر (بدون تاريخ) .
- الدمنهوري ، السيد محمد (١٢٨٨ هـ) : الحاشية الكبرى (الإرشاد الشافي) ، الطبعة الثانية ـ مصر ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .
- الرافعي ، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .
- ابن رشيق ، أبو علي ، الحسن القيرواني (ت ٤٥٦ هـ أو ٤٦٣ هـ) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
- الزبيدي ، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) : تاج العروس من جواهر القاموس ، جمعية المعارف بمصر ١٢٨٥ هـ .
- السكاكي ، أبو يعقوب : يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦ هـ) مفتاح العلوم ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م .
- السندوبي ، حسن ، شرح ديوان امرئ القيس ، المكتبة الثقافية ـ بيروت ، الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

- الشنتريني ، محمد بن عبد الملك (ت ٥٥٠ هـ) المعيار في أوزان الأشعار ، والكافي في علم القوافي ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، دار الأنوار ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) : العقد الفريد ، تحقيق : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإبياري ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م .
- أبو العلاء المعري ، أحمد بن عبد الله بن سليمان : (ت ٤٤٩ هـ) :

أ ـ رسالة الغفران ، تحقيق ، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة .

ب ـ الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، تحقيق : محمود حسن زناتي ، دار الآفاق الجديدة ، مطابع دار السراج ، بيروت (بدون تاريخ) .

جـ ـ لزوم مالا يلزم ـ اللزوميات ، تحقيق : إبراهيم الأعرابي ، مكتبة صادر ـ بيروت (بدون تاريخ) .

- غرس النعمة ، أبو الحسن محمد بن هلال الصابئ (ت ٤٨٠ هـ) : الهفوات النادرة ، تحقيق : صالح الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .
- ابن فارس ، أحمد (ت ٣٩٥ هـ) : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق : مصطفى الشويحي ، مؤسسة أ . بدران للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٣ م ـ ١٣٨٢ هـ .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) :

أ ـ أدب الكاتب ، تحقيق : محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

ب ـ الشعر والشعراء ، دار الثقافة ـ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

- القرطاجني ، أبو الحسن حازم (ت ٦٨٤ هـ) : منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد بن الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨١ م .
- المبرّد ، أبو العباس : محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ـ بيروت (بدون تاريخ) .
- امرؤ القيس (ت ٨٠ ق .هـ) : ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .
- المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- مصطفى ، محمود : أهدى سبيل إلى علي الخليل ، مطبعة صبيح وأولاده بمصر ، الطبعة العاشرة ١٣٩١ هـ .

- ابن منظور ، محمد بن مكرم الأنصاري (ت٧١١ هـ) : لسان العرب ، المطبعة الميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣٠٧ هـ .

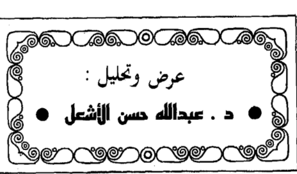
ثانياً : المـــراجـــع :

- أنيس ، إبراهيم (دكتور) : موسيقى الشعر ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
- الجندي ، أحمد علم الدين (دكتور) : اللهجات العربية في التراث ، الدار القومية للكتاب ــ ليبيا ــ تونس ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م .
- خلوصي ، صفاء (دكتور) : فنّ التقطيع الشعري ، الطبعة الثالثة ــ بيروت ١٩٦٦ م .
- الطيب ، عبد الله (دكتور) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الدار السودانية ــ الخرطوم ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ م .
- عياد ، شكري (دكتور) : موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة ــ القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .
- كشك ، أحمد (دكتور) : القافية تاج الإيقاع ، القاهرة ١٩٨٣ م .
- نالينو ، كارل : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، عناية : مريم نالينو ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

السياسة الخارجية السعودية

تأليف الدكتور

عبدالله سعود القباع



صدر الكتاب الذي نعرض له منذ فترة ، وهو الكتاب الثاني للمؤلف حيث كان كتابه الأول حول « السعودية والمنظمات الدولية » وقد صدر عام ١٩٨٠ م .

ويقع الكتاب الجديد في ما ينيف على الخمسمائة صفحة بقليل بما في ذلك ما يقرب من خُمْسٍ عدد صفحاته للفهرس والمقدمة والملاحق والمراجع .

ويضم الكتاب اثنى عشر فصلا . في الفصل الأول عكف المؤلف على دراسة السياسة الخارجية والعوامل المؤثرة فيها ومناهج دراستها وهي المنهج التحليلي والأيديولوجي والمقارن . أما العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية السعودية فقد أورد المؤلف منها عشرة عوامل هي الموقع الجغرافي الذي يتطلب قوة للدفاع عن الأراضي المترامية الأطراف ، والموارد الطبيعية وأهمها البترول ، والقدرة الصناعية والعسكرية والتكنولوجية حيث بدأ تشجيع الصناعات الوطنية ونقل التكنولوجيا وتنويع العوائد ، رغم استمرار الاعتماد على مصادر التسليح الغربية وإن كان مشروع التوازن الاقتصادي الذي أورد المؤلف تفصيلات كثيرة عنه ومشروع درع السلام المرتبط به قد أسهم في تطوير عملية نقل التكنولوجيا في المجال الدفاعي . ومن هذه العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية السعودية عامل السكان ، حيث يقدر سكان المملكة عام ١٩٨٥ بحوالي ٢ /٩١ مليون نسمة مقارنا بـ ٣ /٥١ مليونا عام ١٩٦٥ م مشيرا إلى أن نسبة الزيادة السنوية قد ارتفعت من ١,٩ ٪ عام ١٩٦٥ م إلى ٣,١ ٪ عام ١٩٨٥ م . ولم يوضح المؤلف انعكاسات عامل السكان على السياسة الخارجية بعد تفصيله لتطوير السكان . وهناك عامل العقيدة الدينية حيث الإسلام هو الركيزة الأساسية للتشريعات والحياة .

أما ثقل التاريخ كما يسميه المؤلف ، فيعني لديه إحساس الأسرة السعودية بمسؤولية المحافظة على السلطة وضمان استقرارها لخدمة المواطنين ونشر العقيدة الإسلامية . وأما الانتماء العربي الإسلامي للسعودية كعامل مؤثر في سياستها الخارجية فلا يرى المؤلف أي تعارض بين السياسة السعودية في العالمين العربي والإسلامي وأن ما يميزها عن أقطار هذين العالمين هو مكانتها الخاصة التي تسمح لها بدور مؤثر في سياسات هذين العالمين . ويتطرق المؤلف إلى عامل العلاقة السعودية الخاصة مع الغرب فيشرح دوافعها مشيرا إلى أن أبرز عقباتها هو الانحياز الأمريكي لإسرائيل . ثم هناك عامل العداء للشيوعية الذي لم يمنع الملك عبد العزيز من إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي عام١٩٢٦ م التي انتهت عام ١٩٣٨ بسحب البعثة الدبلوماسية السوفييتية من جدة .

ويورد المؤلف عددا من القوى والقطاعات التي يرى أنها مؤثرة في صنع السياسة الخارجية السعودية وهي النخبة الملكية ، علماء الدين ، الدبلوماسيون المحترفون ، أجهزة جمع وتحليل المعلومات ،

التكنوقراطيون ، المثقفون وأساتذة الجامعات ، رجال الأعمال ، ثم قطاع الصحافة والإعلام حيث يرى المؤلف أنه يقوم « بدور مساند لاتجاهات الحكومة في الداخل والخارج » .

وفي الفصل الثاني تناول المؤلف تطور السياسة السعودية والنظام العربي السعودي مستعرضا تاريخ محاولات إقامة الدولة السعودية منذ عام ١٩٤٤ م ، مركزا على السياسة السعودية في عهد الملك عبد العزيز وخاصة منذ سيطرته على الرياض في عام ١٩٠٢ م حتى « تحرير الحجاز » .

وأشار المؤلف إلى استمرار مبادئ السياسة الخارجية السعودية في عهد الملك سعود تجاه البلاد العربية والجامعة العربية والعالم الإسلامي والأمم المتحدة ، وسياسة الملك فيصل أيضا الذي رحب بفكرة المؤتمرات العربية الإسلامية لتحسين علاقاته بالدول العربية المعتدلة ، واهتمامه بالقضية الفلسطينية ،ورفع شعار التضامن الإسلامي . ولم تتغير السياسة السعودية عن ذلك في عهد الملك خالد ، ثم تطورت خطوط هذه السياسة على النحو الذي فصله المؤلف في عهد الملك فهد حيث عمدت السعودية إلى التوفيق في النطاقين العربي والإسلامي ، ودعم الأمم المتحدة والتعامل مع الأزمات الدولية المتفجرة بحكمة مكنت السعودية من أن يكون لها دور متميز في حل الصراعات الإقليمية والدولية .

وعقد المؤلف **الفصل الثالث** لتحليل أهداف السياسة الخارجية السعودية في أربع دوائر هي الدائرة الخليجية ، والعربية ، والإسلامية ثم المحيط الدولي .

ففي الخليج ، للسعودية مصالح استراتيجية ونفطية وروابط عائلية تجعل هدف الاستقرار فيه منطلقا لسياستها . واستعرض المؤلف جانبا من المواقف السعودية تجاه القضايا العربية لتحقيق التلاحم العربي ، وكذلك التضامن الإسلامي في النطاق الإسلامي .

خصص المؤلف **الفصل الرابع** لعملية صنع القرار في السياسة الخارجية السعودية حيث عالج أجهزة صناعة السياسة الخارجية في السعودية بعد تقديم نظري للموضوع ، وهي الملك الذي يتمتع بسلطات نابعة من كونه رئيسا للدولة ورئيسا للوزراء وفقا للنظم السعودية ، ثم مجلس الوزراء الذي يضم إلى جانب الملك نائبين ، ووزراء دولة ومستشاري الملك ، ثم وزارة الخارجية التي أنشئت عام ١٩٣٠ م كأولى وزارات الدولة ، وأجهزة المخابرات . ويعالج المؤلف دور بعض المؤسسات غير الرسمية في عملية صناعة القرار في السعودية مثل النخبة الملكية ورجال الأعمال والمجالس واللقاءات المفتوحة بين كبار المسؤولين وقطاعات الشعب المختلفة وأوضح المؤلف أن اتخاذ القرار في السياسة الخارجية السعودية ، يمر بثلاثة مستويات هي الملك وولي عهده ، مجلس الوزراء ثم وزارة الخارجية التي تقوم بمهمة التنفيذ ، وذلك كله في ضوء مراعاة القضايا المهمة التي تحكم القرار وأهمها العقيدة الإسلامية والأمن الوطني والالتزام السعودي بالقضايا العربية والإسلامية .

أما **الفصل الخامس** فيعالج وسائل وأدوات الدبلوماسية السعودية منذ عهد الملك عبد العزيز ومن أعقبه من أبنائه ، وتنوع هذه المسائل وسط التغيرات في الظروف السياسية والإقليمية والعالمية ، مركزا على وسائل الدبلوماسية الاقتصادية (مشيرا إلى المساعدات الخارجية السعودية من خلال الصندوق السعودي للتنمية المنشأ عام ١٩٧٤ م الذي قدم المؤلف معلومات ضافية عنه وعن عملياته حتى عام ١٩٨٥ م وعن طريقه احتلت السعودية المركز الأول في العالم من حيث مساعداتها للدول النامية) .

وهناك أيضا الوسائل الإعلامية والدعائية التي تقوم بها وزارة الإعلام منذ نشأتها عام ١٩٦٣ م والبعثات الثقافية والإعلامية في الخارج ، ثم الوسائل العسكرية مشيرا إلى حالات استخدام القوات المسلحة السعودية مع اليمن عام ١٩٣٤ م وفي فلسطين عام ١٩٤٨ م وخلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ م ، وعام ١٩٦١ م لدعم استقلال الكويت وغيرها . ولذلك لا تتوانى الحكومة في تعزيز القدرات العسكرية .

وإذا كانت الفصول الخمسة الأولى قد اهتمت بالجانب النظري فيمكن القول إن الفصول الخمسة التالية قد اهتمت بالجانب التطبيقي .

ففي **الفصل السادس** عالج المؤلف علاقات السعودية العربية خاصة مع دول الخليج العربي حيث العلاقات تضرب في جذور التاريخ مع هذه الدول التي يضمهم معها مجلس التعاون .

وكذلك أفاض المؤلف في تاريخ العلاقات السعودية اليمنية والمصرية حيث أشار إلى أزمة العلاقات في عهد الملك فؤاد ثم توثق العلاقات في عهد الثورة ، ثم توتر العلاقات المصرية السعودية إبان انفصال سوريا وتطبيق القرارات الاشتراكية في مصر وما أعقب ذلك من صدام سياسي وعسكري بسبب الثورة اليمنية الذي أنهته اتفاقية جدة مشيرا إلى الدور الحيوي الذي لعبته السعودية في حرب أكتوبر ومعارضة السعودية لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية لكنه يقرر أن العلاقات المصرية السعودية تمر بمرحلة تحسن واضح ومتزايد منذ تولي الرئيس مبارك .

واهتم المؤلف بتطور العلاقات السعودية العراقية حيث سويت مشكلة الحدود بين البلدين في اتفاقية المحمرة عام ١٩٢٢ م ، وبروتوكولات العقير المكملة لها والبروتوكولات في المتن وما أعقب ذلك من اتفاقات مختلفة لم تفلح في تطوير التعاون بين البلدين . وعارضت السعودية حلف بغداد كما لم تؤيد نظام قاسم الشيوعي وأيدت الكويت ضد تهديداته . ولم تخف السعودية موقفها في الحرب العراقية الإيرانية القائم على نبذ العدوان ، ودعم فرص السلام واحترام القوانين الدولية .

وقدم المؤلف الخلفية التاريخية للعلاقات السعودية الأردنية مرورا باتفاقية حداء سنة ١٩٢٥ م بشأن الحدود بين نجد وشرق الأردن ، واعتراف الأمير عبد الله عام ١٩٣٣ م بالمملكة العربية

السعودية ، عقب اتفاقية القدس بشأن الصداق وحسن الجوار حيث توثقت بمرور الأيام علاقات البلدين حتى الآن .

أما العلاقات السعودية مع سوريا ولبنان فقد أشار المؤلف إلى دعم السعودية لاستقلالهما وعضويتهما في الجامعة العربية وتطوير علاقاتها بهما . ويرى المؤلف أن السعودية تعتبر سوريا عنصرا مؤثرا في السياسة العربية آملين أن ينسجم مع الأهداف العربية لكنه يرى أن الموقف السوري من الحرب العراقية الإيرانية وعلاقاتها بإيران يثير جدلاً واسعاً ويمثل خروجا عن الخط العام لميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع المشترك خاصة بعد تحفظ سوريا على الفقرة المتعلقة « بإدانة العدوان الإيراني على العراق » من قرارات المؤتمر الخامس والثمانين لوزراء الخارجية العرب عام ١٩٨٦ م (تحفظت أيضا ليبيا والجزائر واليمن الجنوبي) . ويقرر المؤلف في هذا الصدد أنه مع أن « السعودية تدرك جيدا طبيعة وأسباب الخلافات السورية العراقية إلا أنها لا تشاطر السوريين موقفهم من النظام الإيراني الذي مايزال يحتل جزءا من الأراضي العراقية ويهدد سلامة وأمن الدول الخليجية » (ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣) .

كذلك أفاض المؤلف في مواقف السعودية تجاه القضية الفلسطينية منذ بوادر نشأتها وجهود الملك عبد العزيز في هذا الصدد وكذلك جهود خلفائه حتى اليوم مشيرا إلى خطة فاس القائمة على المبادرة السعودية .

وكان للسعودية دور في مساندة دول المغرب العربي في السعي لنيل استقلالها ، كما تقيم المملكة علاقات وثيقة معها .

وفي **الفصل السابع** عالج المؤلف علاقات السعودية بالعالم الإسلامي مشيرا إلى الدور الإسلامي والمكانة التي تحتلها السعودية في العالم الإسلامي انطلاقا من التزامها بالشريعة وخدمتها للأماكن المقدسة ولذلك قامت سياستها على تحقيق التضامن الإسلامي منذ عهد الملك عبد العزيز حتى الآن كما كان الملك فيصل يرى في الشيوعية والصهيونية والامبريالية خطرا على الأمة الإسلامية ، وكان يقسم العالم على أساس اقتراب دوله أو بعدها عن وحدانية الله ، وكان له دور في إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي والهيئات التابعة لها ، والعمل من أجل قضية القدس ، كما أن المساعدات الاقتصادية السعودية تستهدف ترسيخ التضامن الإسلامي .

وتناول **الفصل الثامن** العلاقات السعودية الأوروبية فبدأ بالعلاقات السعودية البريطانية التي احتلت جزءا كبيرا من تاريخ السعودية بحكم وجود بريطانيا في الخليج واتصلت بشكل أو بآخر بمراحل توحيد الجزيرة ولذلك أقام الملك عبد العزيز علاقات وثيقة مع بريطانيا لخدمة كفاحه مشيرا إلى توتر العلاقات البريطانية ـ السعودية لمدة طويلة بسبب النزاع حول البوريمي ، وبسبب العدوان على مصر . ثم تناول العلاقات السعودية الألمانية منذ أول اتصال بينهما عام ١٩٢٨ م ومعاهدة الصداقة عام ١٩٢٩ م ، وتابع

خلفاء الملك عبد العزيز سياسة الصداقة مع ألمانيا وتوثيق العلاقات في مختلف المجالات . أما فرنسا فقد اعترفت بالسيطرة على الحجاز عام ١٩٢٦ م وعقدت أول معاهدة صداقة مع الملك عبد العزيز عام ١٩٣١ م ، لكن اشتراك فرنسا في العدوان الثلاثي أدى إلى قيام السعودية بقطع العلاقات معها ثم توثقت العلاقات بفضل موقف ديجول المعادي للعدوان الإسرائيلي .

ورغم معاداة إيطاليا للملك عبد العزيز بسبب منافستها لبريطانيا فقد اعترفت بالمملكة العربية السعودية وأبرمت معها معاهدة صداقة كانت أساسا في تطور العلاقات فيما بعد ، لكن العلاقات جمدت خلال الحرب العالمية الثانية واستؤنفت بعدها في خط بياني متطور .

أما في **الفصل التاسع** فقد تناول المؤلف العلاقات السعودية الأمريكية التي بدأت في وقت متأخر لأسباب تعود لظروف البلدين وارتبطت في البداية باستخراج البترول ثم تطورت إلى المجالات السياسية والتسليح والمجالات الاقتصادية ولكن هذه العلاقات شهدت توترات كثيرة بسبب الاختلاف البين بين الموقفين الأمريكي والسعودي من الصراع العربي الإسرائيلي . ولعل الملك خالد قد أصاب كبد الحقيقة عندما أشار إلى هذا العائق بقوله : « إذا كان أصدقاؤنا لا يستطيعون إقناع إسرائيل بقبول الحق العربي فإننا نتوقع من أصدقائنا ألا يحاولوا إقناعنا بقبول الباطل الإسرائيلي » .

ثم تناول المؤلف في **الفصل العاشر** العلاقات السعودية السوفييتية مشيرا إلى أن موسكو كانت أول من اعترف بالملك عبد العزيز بعد سيطرته على الحجاز وتبادلت معه العلاقات الدبلوماسية إلى أن سحبت بعثتها الدبلوماسية عام ١٩٣٨ م ، كذلك استعرض اهتمامات موسكو المتصلة بإقامة هذه العلاقات آملين أن تسوي موسكو القضية الأفغانية وهي على ما يبدو العقبة الوحيدة في هذا المجال .

واستعرض المؤلف في **الفصل الحادي عشر** سياسات السعودية النفطية منذ اكتشاف البترول فيها منذ عام ١٩٣٨ م ، وتطور هذه السياسة بقبول شركة أرامكو عام ١٩٥٠ م بمبدأ مناصفة الأرباح وحذت حذوها دول الخليج الأخرى ، ثم تغيرت الصورة مع نشأة الأوبك عام ١٩٦٠ م التي خاضت حربا عنيفة ضد الشركات البترولية وتحكمت في أسعار البترول مشيرا إلى ثقل السعودية وأهمية موقفها داخل الأوبك والمساعدات التي قدمتها للدول النامية مستفيدة من عوائد البترول حيث بلغت نسبة هذه المساعدات إلى الناتج القومي أعلاها وهي ما يقرب من ٨ ٪ عام ١٩٧٥ م ، فضلا عن استقدام أعداد وفيرة من العمالة العربية والآسيوية إليها . ودافع المؤلف عن اتهام وجه للمملكة بأنها تتسبب في أزمة الأسعار الحالية ، وعن سياستها بعيدة النظر في هذا المجال .

أما عن آفاق المستقبل بالنسبة للسياسة السعودية ، فقد خصص لها الفصل الثاني عشر والأخير مستعرضا تلك الآفاق في ضوء تصوره لمستقبل العوامل الداخلية المرتبطة بحركة السكان والظواهر الاجتماعية الأخرى ، وتغير أحوال العرض والطلب العالمي على البترول . وينتهي المؤلف في هذا الصدد إلى توقع أن

تكون السعودية الدولة العربية الأولى عام ٢٠٠٠ في مجالات البترول والاستخدامات التكنولوجية الحديثة ، يساعدها في ذلك سهولة عملية التحول الاجتماعي وانسجام هيكلها وقيمها الاجتماعية ، وارتفاع مستوى الترابط والتكامل في البنية الاجتماعية والسياسية ، وتمتعها بالاستقرار السياسي مما يمكنها من تحقيق مكانة بارزة بين الأمم .

ملاحظات ختامية :

يعد الكتاب أول دراسة شاملة عن السياسة الخارجية السعودية بقلم سعودي ، ولاشك أن أهمية السعودية قد دفعت العديد من الباحثين وخاصة الأجانب إلى تناول جوانب هذه الأهمية ، سواء ما ارتبط بأوضاعها الداخلية أو علاقاتها الخارجية . ولقد أدرك المؤلف منذ البداية أهمية العمل الذي يقوم به ، إلا أننا مع تقديرنا الكبير لجهده ، فإننا نشعر أن من أهم مزايا هذا العمل أنه سيفتح الباب فعلا أمام محاولات جديدة لكي تفي الموضوع ما يستحق من العناية .

ويحمد للمؤلف أنه رجع إلى عدد كبير من الثقات لمعالجة الموضوع ، ولكن تشعب الموضوع وأهميته قد تركا في كثير من الوجوه مجالاً للمستزيد .

ولما كان الكمال لله وحده واهتماما بنداء المؤلف في مقدمة الكتاب وترحيبه بملاحظات الباحثين ، فإنني آمل أن تخلو طبعاته المقبلة من بعض الهنات وأخصها .

١ ـ عند معالجة سياسة السعودية في العالم الإسلامي ، جاءت المعالجة أقل بكثير مما يستحقه هذا الموضوع الحيوي ، إذ البعد الإسلامي في نظرنا هو محور السياسة الخارجية السعودية بأكملها .

٢ ـ خلط المؤلف بين منظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي ، واستشهد ببحث الأستاذ /عبد الله سندي الذي وقع في الخطأ نفسه (٣١٣ ـ ٣١٥) ولاشك أن إفراد معالجة خاصة لموقف السعودية ومساندتها للمنظمتين وتقديم معلومات كافية عنهما للقارئ أمر لا غنى عنه في هذا المقام .

٣ ـ لا شك أن المؤلف يعلم أن إيراد مقتطفات مطولة باللغة الإنجليزية دون ترجمتها لا سيما في صلب المتن ، مهما كانت أهميتها في سياق الموضوع ، أمر يخالف أصول البحث العلمي ، وينطبق ذلك أيضا على المعلومات الكثيرة التي أوردها والمتضمنة نصوص بعض الاتفاقيات الدولية ثم بيان الدول التي تبادلت التمثيل الدبلوماسي مع السعودية وغيرها .

٤ ـ كذلك نأمل أن يفيض المؤلف في الطبعة القادمة في تأصيل الدور السعودي في الصراع العربي الإسرائيلي ، وفي جميع الصفوف العربية ، وفي مجلس التعاون الخليجي .

وأخيرا ففي الكتاب أخطاء لغوية كثيرة يحتاج معها الكتاب إلى مراجعة لغوية شاملة في طبعته القادمة إن شاء الله ■

جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية

● د . إسماعيل أحمد ياغي ●

فلسطين قلب العالم العربي والإسلامي ، ولها أهمية دينية لدى أصحاب الديانات السماوية كما أنها ذات موقع استراتيجي هام ، جعل منها جسراً يربط قارات العالم القديم ، وممراً عالمياً ومرتكزاً لعدد كبير من الحضارات . وكانت أرضها ـ التي وصفتها التوراة أرض السمن والعسل ـ مسرحاً لحروب طاحنة ومكاناً للاقتتال بين الغزاة والجيوش المتجهة إلى مصر وبالعكس وبين سكانها الكنعانيين العرب . ومع ذلك فقد ظلت فلسطين كنعانية عربية صفة وسيادة ، ذلك أن صلة العرب بفلسطين لم تنقطع منذ أقدم العصور وحتى الفتح الإسلامي . وظل العرب يشكلون الكثرة العددية الغالبة في البلاد وتعضد وجودهم بمن جاء إليهم من عرب الجزيرة مع الفتح العربي الإسلامي ، الذي صبغ البلاد بطابعها العربي لغة وثقافة وتاريخاً ومصيراً[1] وسادت في البلاد مظاهر الحضارة العربية الإسلامية .

ومنذ الفتح الإسلامي لفلسطين عام ٦٣٧م أصبحت فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية الإسلامية واستقر العرب المسلمون فيها وتكاثروا . وكان اليهود قد غادروها وتفرقوا في الأرض منذ القرن الأول الميلادي عندما طردهم الرومان منها . ولم يبق منهم إلا قلة ذابت في المجتمع العربي وضاعت معالمها كفئة لها أهداف أو طموح سياسي لا بل عاشوا في رحاب[2] الدولة العربية الإسلامية حياة حرية وعدل وتسامح بمقتضى القيم التي نص الإسلام على معاملة أهل الكتاب بها . وقد حمل الفتح العربي الإسلامي اليهود إلى أفريقيا الشمالية وإلى أسبانيا (الأندلس) وعوملوا هناك معاملة حسنة في حين كانت أوروبا تضطهدهم[3] وفي ذلك يقول ...

نجيب صدقه « وفي حين كانت أوروبا الغربية المسيحية تضطهد اليهود باسم الدين وتذيقهم ألوان العذاب في القرون الوسطى ، وتضطرهم إلى النزوح إلى شرقي أوروبا وغربيها ، كانت الدولة العربية توليهم أسمى المناصب وتعترف لهم بحق المساواة المطلقة فيتجرون ويثرون ، ويبلغون شأواً في السياسة والإدارة والاقتصاد لم يسبق له مثيل » .[4]

وانطلاقاً من تعاليم ديننا ، عاش العرب واليهود أجيالاً في فلسطين في سلام ووئام ، ولم تكن للحوادث النادرة التي تحدث بينهم في بعض الأحيان إلا مظهراً من مظاهر أي مجتمع متعدد الطوائف والأجناس. ولذلك كانت المنازعات القليلة التي حصلت قبل أن تتكشف أهداف الغزو الصهيوني حالات فردية وعادية .[٥] فلم يشعر عرب فلسطين تجاه اليهود بأي إحساس يضر بالمصالح القومية للشعب الفلسطيني ، فقد كانت صلة اليهود بفلسطين مجرد صلة دينية عاطفية ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة في الإقامة قرب الأماكن المقدسة للتعبد وممارسة الطقوس الدينية لقضاء أيامهم الأخيرة في المدن الأربع المقدسة (القدس ، صفد ، لبريا ، الخليل) ناهيك عن أن اليهود المتدينين كانوا يؤمنون بفكرة بعث الدولة اليهودية في فلسطين بحدوث معجزة إلٰهية ، يظهر معها المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء « هيكل سليمان » ويقود العالم نحو الخير والسلام .[٦]

تمتع اليهود في فلسطين إبان الحكم العثماني بقسط كاف من الحرية الدينية ، لم تكن من نصيبهم في أي بلد أوروبي ، فخلال الحكم العثماني لم تتخذ أية إجراءات رسمية ، تستحق الذكر تناهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقي السكان كما كان الحال في معظم الدول الأوروبية ، إن لم يكن فيها كلها . وإذا كانت أوضاعهم في الدولة العثمانية عامة غير مرضية ، فإنها لم تكن تختلف كثيراً عن أوضاع باقي السكان . كذلك تعزز مركز اليهود ومركز باقي الطوائف الأخرى غير الإسلامية بمنحهم امتيازات كثيرة تتعلق بالمحافظة على حقوقهم الدينية ومنحهم حكماً ذاتياً في هذا المجال ، وتوسع نظام الحماية كذلك بحيث أصبح الكثيرون من اليهود والمسيحيين بمثابة مواطنين للدول الأجنبية التي تتولى حمايتهم بواسطة قناصلها .[٧] فكان اليهود في فلسطين في القرن التاسع عشر ، أقلية ضئيلة بين السكان العرب ٢٪ ، لا تلفت النظر ، ولا تثير الشبهات حولهم لقلة عددهم وضآلة شأنهم ،[٨] وعاش الجميع في ظل الحكم العثماني لا يفكرون بغير أرزاقهم اليومية .[٩] فالسلام كان سائداً بين العرب واليهود ، لكنه سلام من النوع الذي يسود بين فريقين ليس لأي منهما علاقة بالآخر أو يربطهما علاقات محدودة .[١٠] وحقيقة الأمر أن الجاليات اليهودية كانت مفعمة بروح الانغلاق والتعصب ، والتعالي ، مما جعلها غير قادرة على الاندماج مع العرب وغيرهم ، هذا فضلاً عن عدم قدرتها على قبول نظرية التعايش مع العرب وغيرهم . وربما كانت هذه الروح لدى اليهود هي السبب في كراهية الآخرين لهم إلى غير ذلك من الأسباب الأخرى كالاستغلال والتجسس وغير ذلك .

وفي الوقت الذي كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع في روسيا وبولونيا ، وكانت هناك حركات في فرنسا وغيرها من أعرق أمم أوروبا حضارة ترمي إلى ما يشبه القضاء على اليهود ، حتى كادت قضية دريفوس أن تشعل نار الثورة في فرنسا ، كان اليهود يجدون في البلاد الإسلامية أطيب معاملة ، ويعتبرونها الملجأ الآمن لهم وكانت هذه البلاد الإسلامية ترى واجباً عليها حماية اللاجئين إليها منهم والمساواة بينهم وبين المسلمين في المعاملة .

وقد عبرت جريدة الشمس اليهودية في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٣٥م عن هذه العلاقة في مقال لها ، فقالت « إن هذا الحماس الذي يبدو على المهاجرين القادمين ، يرتد إلى شعورهم بخلاصهم من بلاد تضطهد الساميين ، وعودتهم إلى حضن الأوطان السامية العربية وهم يعلمون أن فلسطين الصغيرة محوطة بملايين من العرب الذين ينظرون إليها نظرة تقديس واحترام ، ولا يعقل أن يخطر ببال المهاجرين الإساءة إلى العرب في قطر وهم الذين رحبوا بهم وأفسحوا لهم صدرهم الآن وعلى مدى عصور التاريخ » .[١١]

وقبيل بدء الهجرة الأولى عام ١٨٨٢م ، حدثت عدة حوادث فردية وعادية ، منها قيام مظاهرات ضد اليهود في فلسطين ومصر بسبب تحمسهم لاحتلال العثمانيين فلسطين ، وتعاونهم مع الجيش العثماني ، وتضرر نتيجة لذلك يهود صفد ، وحين وافق السلطان سليمان عام ١٥٦١م على تحويل مدينة طبريا إلى مدينة يهودية عارض المسيحيون ، وتدخل البابا مع الصدر الأعظم لإفساد المشروع ورفض العمال العرب أن يعملوا ، ولكن والي دمشق ساعد على إتمام بناء السور إلا أن التطور توقف بموت السلطان سليم سنة ١٥٧٤م .[١٢] ولكن هيمنة العثمانيين فتحت المجال أمام الهجرة مع أن الأتراك لم يشجعوا الهجرة ولم يعرقلوها . كما هاجمت القبائل العربية صفد سنة ١٥٦٧م ، ثم دمشق سنة ١٥٨٧م ، فأخذ اليهود يهربون إلى طبريا وبيروت ودمشق ومصر ، وهاجم القحط والطاعون صفد سنة ١٥٩٩م وسنة ١٦٠٦م ، ثم هاجمها الدروز ١٦٠٤م واحتلوها سنة ١٦٢٨م وسنة ١٦٣٦م مرة ثانية . وقد عفا الجوع والمرض والنهب على الخليل ، وأنهك القرى اليهودية في القرن السادس عشر وأدى ذلك إلى ازدهار القدس بعد اضمحلال صفد ، ولكن اليهود ضعفوا نتيجة مقاومة وتسلط بعض المسؤولين عليهم .[١٣]

وتذكر بعض المراجع إلى أن يهودا حاسيد « قاد أول حركة اشكنازية إلى فلسطين في عام ١٧٠٠م واقترض أموالاً من عرب القدس على أمل سدادها من المساعدات التي ستصله . ولما لم تصل المساعدات ، وطال الزمن بالدائنين دون أن يتسلموا ديونهم من اليهود والاشكناز ،

هجموا عليهم وحرقوا كنيستهم ، وهدموا مؤسساتهم ، فعاد من الاشكناز من عاد إلى أوروبا واعتنق الباقي الدين الإسلامي أو المسيحي ، ولم يجرؤ اليهود على الظهور في فلسطين حتى عام ١٨١٦م حين أصدر السلطان إرادة سامية بإعفائهم من ديونهم .(١٤) وليس هناك ما يشير إلى وقوع حوادث أو اصطدامات تذكر بين العرب واليهود خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر فيما عدا بعض الشكاوى اليهودية من الحكومة العثمانية ومن الباشاوات المسؤولين والتي وردت في تقارير قناصل بريطانيا . كما ذكرت نفس التقارير سوء تصرفات اليهود تجاه سكان البلاد ووجهت اللوم إليهم .(١٥)

وفي عام ١٨٧٥م بدأت موجات الهجرة تتدفق ، وكان معدل عدد المهاجرين يصل إلى ألفين في العام ، مما جعل قنصل الولايات المتحدة يكتب إلى وزارة خارجيته محذراً من أن تدفق اليهود على فلسطين من روسيا بمثل هذه الكثافة سوف يقلب الحالة في البلاد ، فلا تمضي سنوات حتى يصبح اليهود هم سكان البلاد ــ لا سكانها الأصليون .(١٦) ونتيجة لهذه الهجرة ازداد عدد اليهود فبلغ في نهاية القرن التاسع عشر خمسين ألف يهودي نصفهم تقريباً في القدس ، كما بلغ عدد مستعمراتهم تسع عشرة مستعمرة عدد سكانها ٤٣٥٠ شخصاً ،(١٧) في حين ذكرت مصادر أخرى بأن عدد اليهود في نهاية القرن بلغ ٣٥ ألف يهودي وعدد العرب ٤٥٠ ألف شخص .(١٨)

أثارت هجرة اليهود إلى فلسطين تخوف عرب فلسطين من الاستيطان اليهودي ، فقد وردت أول إشارة مبكرة لذلك من القدس في رسالة نشرتها مجلة الجوائب اللبنانية في عددها ٨/٢٥٦ عام ١٨٦٨م ، ذكر فيها الكاتب عن قدوم أحد أعضاء الجمعية الإسرائيلية في باريس (الأليانس) إلى القدس وقال فيها « إن مراد الجمعية أن تشتري حقولاً ومزارع في الأراضي المقدسة ليتعلم أولاد اليهود الزراعة والحراثة » ويلفت الكاتب نظر الدولة العليا « أن تنظر في أمرنا وتتدارك أحوالنا ، وإلا فإن اليهود لا يلبثون أن يجلونا من هذه الأرض كما أجليناهم من جزيرة العرب » .(١٩) ويتضح من ذلك أن عرب فلسطين أحسوا بالخطر الحقيقي الذي يتهددهم من وراء الهجرة اليهودية الاستيطانية ويظهر لنا أن هناك أرضية تاريخية رسبت في عقول عرب فلسطين إحساسهم بالخطر الصهيوني المتمثل في الهجرة وجعلتهم يعتقدون أن الصهيونية هي الخطر الذي يهددهم ، وإنه ينبغي تركيز جهودهم تجاه مقاومتها . ومنذ أن تأسست مستعمرة « بتاح تكفا » والتي تعني الأمل في عام ١٨٧٨م ، احتج رؤوف باشا حاكم القدس التركي إلى القنصلين الألماني

والروسي لانتشار فكرة أحلام العودة إلى فلسطين بين اليهود وأوضح الحاكم أن ما يفعله ضد هذه المستوطنات إنما هو لإزالة هذا الحلم . وتشجع عرب فلسطين فقاموا باحتلال الأراضي التي استولى عليها اليهود ، وتكرر الهجوم من العرب مع زيادة الهجرة إلى فلسطين .[٢٠]

ومع بداية عام ١٨٨٠م بدأ التحرك الفلسطيني يسجل نضاله الوطني المتصل ضد موجات ومشاريع الاستيطان للهجرة الصهيونية ، وطالبت الحركة الوطنية الفلسطينية في كل مذكرة أو احتجاج قدم للسلطنة العثمانية بطلب واحد متكرر وقف انتقال ملكية الأرض واستملاكها للصهاينة . كما اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينية مجموعة من الإجراءات لوقف انتقال الأرض ، إذ إنها حرمت البيع بفتاوى شرعية وشجعت عملية وقف الأرض ، واتخذت جميع الإجراءات السلبية والإيجابية لمنع انتقال الأرض إلى الأيدي الصهيونية .[٢١]

وأياً ما كان الأمر ، فلم يرافق الشعور القومي عند عرب فلسطين في القرن التاسع عشر أي شكل من أشكال العداء لليهود ، قبل بداية الغزو الصهيوني والهجرة الصهيونية الواسعة عام ١٨٨٢م ، فقد بدأت الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهاينة والمستوطنين الجدد عام ١٨٨٦م عندما هاجم الفلاحون العرب المطرودون من الخضيرة وبتاح تكفا « ملبس » التي أجلوا عنها رغماً عن إرادتهم . ودفعت هذه الاصطدامات المسلحة الحكومة العثمانية عام ١٨٨٧م إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهاينة الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح ... بحيث لم يعد يسمح لهم بالإقامة لمدة تزيد على ثلاثة أشهر في البلاد ، وذلك بموجب جوازات سفر حمراء ، عوضاً عن جوازاتهم الأصلية عند دخول البلاد .[٢٢]

وبالرغم من ذلك فإن الهدوء ساد العلاقات بين العرب واليهود خلال السنوات العشر الأولى من الهجرة الكثيفة (١٨٨١ – ١٨٩١م) ولكنه سرعان ما انقلب إلى شعور بالشك والاستنكار للهجرة ، وبدأ العرب يفيقون ويتنبهون للخطر الصهيوني ، وأصبح مألوفاً أن تحصل اعتداءات من السكان العرب على المستعمرات اليهودية ، وسقطت الصداقة القديمة أمام عداء العرب للهجرة ، فقد كان إحساس العرب بابتعاد المستعمرات الصهيونية عنهم يزداد ، حيث حرص اليهود على أن تكون مستعمراتهم عبرانية خالصة ، وقاوموا كل ما يخل بالشكل العبراني .[٢٣]

واتضحت الرؤية والقصد من الهجرة الصهيونية أمام عرب فلسطين ، وزالت الأقنعة وأزيح الستار عنها ، ووجد عرب فلسطين أن لا مناص لهم من الكفاح ومقاومة مخططات الصهيونية بعد أن تأكد لهم أن الهجرة اليهودية هدفها استيطان فلسطين وبالتالي طرد أهلها منها على المدى

البعيد ومن هنا كان الصراع في فلسطين صراعاً بين استعمار سياسي عسكري استيطاني صهيوني وبين شعب يدافع عن حريته ووجوده وكيانه ضمن ظروف الصراع بين القوى الاستعمارية الكبرى على السيادة والأسواق في العالم . وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين كما بين التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . فلم تكن الجاليات اليهودية المفعمة بروح الانغلاق والتعصب المستسلمة للأحلام الصهيونية قادرة على قبول نظرية التعايش مع العرب واندماجهم مع المجتمع العربي الفلسطيني .

وانكفأ عرب فلسطين على التصدي للهجرة اليهودية ومخططات الصهيونية ، ففي أيار (مايو) ١٨٩٠ م قام وفد من وجهاء القدس بتقديم عريضة احتجاج للصدر الأعظم ضد رشاد باشا (متصرف القدس) الذي أبدى محاباة وتحيزاً للصهاينة بخلاف سلفه رؤوف باشا[٢٤] وعاد وجهاء القدس في عام ١٨٩١ م فأرسلوا إلى الصدر الأعظم في الاستانة احتجاجاً طالبوا فيه بإصدار (فرمان) « بمنع هجرة اليهود وتحريم استيطانهم واستملاكهم للأراضي الفلسطينية » بعد أن لاحظوا بداية النشاط الصهيوني لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .[٢٥] وقد حدد هذا الاحتجاج شعاري الجماهير الفلسطينية الأساسيين خلال مراحل كفل الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م .

استجابت الاستانة للاحتجاج إلاّ أن التدخل البريطاني أبطل مفعول فرمان السلطنة العثمانية ، ولكن عرب فلسطين واصلوا الاتصال بالاستانة ؛ وصدر قرار في السنة التالية ١٨٩٢م يمنع اليهود من شراء الأراضي ويمنع أيضاً الرعايا من بيع الأراضي لليهود ، ولكن بريطانيا وبعض الدول الكبرى تدخلت ، فاستطاعت أن تقلل من فاعلية المنع بالرغم من تشبث الحكومة العثمانية برأيها حتى خلع السلطان عبد الحميد (ابريل ١٩٠٦م) .[٢٦] وهذا يوضح أن الصهيونية لجأت إلى أسلوب الرشوة للموظفين الأتراك بحيث أوقفت مفعول القرار هذا عدا عن الأساليب الملتوية الأخرى بمخالفة قوانين الإقامة والبقاء في فلسطين في ظل قانون الحماية للأجانب برعاية الدول الأجنبية .

وقد عاد الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم فهاجموا الخضيرة وملبن عام ١٨٩٢ م ،[٢٧] وفي عام ١٨٩٦م قبل المؤتمر الصهيوني نبهت بعض صحف القاهرة إلى النتائج الخطيرة المترتبة على الهجرة الصهيونية إلى فلسطين .[٢٨]

وفي عام ١٨٩٧م أخذت المقاومة العربية تشتد في مواجهة الاستيطان الصهيوني في أعقاب المؤتمر الصهيوني الأول . فقد ترأس مفتي القدس محمد طاهر الحسيني هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية لمتصرفية القدس ولمحاربة الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني ، فحال ذلك دون حصول اليهود على أراض زراعية جديدة لسنوات عديدة .(٢٩) وأشارت تقارير عام ١٨٩٨م إلى أن أهل فلسطين وقفوا موقفاً حازماً ضد المشاريع الصهيونية والهجرة اليهودية وإمكان قيام إسرائيل في بلادهم لأنهم اعتبروا ذلك خطراً على حقوقهم وامتيازاتهم .(٣٠)

وشهد عام ١٩٠٠م حملة احتجاجية واسعة من العوائص الجماعية ضد تملك اليهود للأراضي الزراعية وسجلت تقارير البرت عنتيبي المعتمد الرسمي للجمعية الاستعمارية اليهودية وكانت حينذاك مؤسسة صهيونية ، بأن هذه الحملة تدل دلالة قاطعة على الوعي الفلسطيني المبكر ، وتثبت أن الصهيونية هي التي سممت العلاقات العربية اليهودية في فلسطين ، كما سجلت هذه التقارير امتداد المعارضة للصهيونية إلى صفوف موظفي الحكومة من أهالي البلاد .(٣١)

وفي عام ١٩٠١ م صدر قرار آخر يمنع دخول أي يهودي إلى أرض فلسطين (إلا إذا كان سيغادرها خلال ثلاثة أشهر) ولم ينفذ هذا القرار بسبب تدخل السفير البريطاني في العاصمة العثمانية علاوة على دخول الصهاينة إلى أرض فلسطين بمساعدة بريطانيا بطرق غير مشروعة .(٣٢) وهذا يؤكد تواطؤ بريطانيا مع اليهود نظراً لأطماعها في فلسطين والتي ترجع إلى عهد بعيد ، وبالتحديد منذ عصر الغزوات الصليبية ، ولكن أطماعها قد ظهرت من جديد إثر حملة نابليون على مصر وبلاد الشام لذا ، فإنها وقفت في طريق محمد علي بعد أن اكتسحت جيوشه سوريا بهدف إقامة دولة عربية ، فتحالفت مع الدول الأوروبية فأجبرت هذه الدول محمد علي على التراجع والعودة إلى مصر بموجب معاهدة لندن ١٨٤٠م بحجة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية . والواقع أنها (بريطانيا) تريد تحقيق أطماعها في فلسطين لما لموقعها من أهمية اقتصادية وعسكرية ودينية ولذلك افتتحت لها قنصلية في القدس ، وأخذت على عاتقها حماية الجالية اليهودية في فلسطين بموجب نظام الحماية توطئة لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وكانت الصحف العربية قد عبرت عن اهتمامها بالحركة الصهيونية ومدى أخطارها ، وقد وردت إشارات عابرة في بعض الصحف العربية في مصر (وأصحابها سوريون) ، حيث ظهر

أول رد فعل للمؤتمر الصهيوني الأول في جريدة المقطم بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٨٩٧م في مقال بعنوان « مملكة صهيون » نبه فيه إلى خطورة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وإن كان يستبعد إمكانية تحقيق ذلك.(٣٣)

وفي ابريل ١٨٩٨م نشرت المقتطف مقالاً خاصاً تحت عنوان « عودة اليهود إلى فلسطين ردا على سؤال قارئ من فرانكفورت في ألمانيا عن مدى اهتمام الصحف العربية في مصر وسوريا بالحركة الصهيونية ، فأجاب المقتطف بأن ما نشر في الصحف العربية حول الحركة الصهيونية لم يكن اهتماماً خاصاً ، واستبعد المقتطف إمكانية استعمار فلسطين لأن اليهود المهاجرين إلى فلسطين حتى عام ١٨٩٨م كانوا أهل صناعة وتجارة ، ولا نظن أنهم سيعكفون على الفلاحة.(٣٤)

والواقع أن مقال المقتطف قد قلل من شأن الأطماع الصهيونية في ذلك الوقت ، كما أخطأ في تقدير قيمتها هذا فضلاً عن عدم معرفة نوعية المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، فقد ادعى المقتطف خطأً أن المهاجرين كانوا من أرباب الصناعة والتجارة وغاب عن باله أن البلاد تشهد نوعاً جديداً من المهاجرين اعتباراً من عام ١٨٨١م ، تمكنوا من تأسيس المستعمرات الزراعية واشتغلوا بالزراعة .

وساهمت مجلة المنار على لسان صاحبها محمد رشيد رضا في التنديد بالصهيونية وفضح مخططاتها وأطماعها فعقب محمد رشيد رضا على مقال المقتطف السابق وخاطب فيه العرب منبهاً ومحذراً من هجرة اليهود إلى فلسطين.(٣٥) كما كتب مقالاً آخر بعنوان « حياة أمة بعد موتها ـ جمعية اليهود الصهيونية » فضح فيه أطماع الصهيونية وأوضح كيف أنها تتظاهر بنقل الفقراء اليهود إلى فلسطين للعيش في ظل السلطان بينما هي في واقع الأمر تطلب تملك البلاد ، ثم حمل على الحكام المسلمين والعرب وطلب من الأمة عدم الاعتماد عليهم . وفي مقال آخر اتهم رشيد رضا اليهود بالعمل على استغلال فلسطين واحداث ملك لهم فيها.(٣٦) وبذلك تكون مجلة المنار قد حذرت من الخطر الصهيوني الذي يحاول التسلل إلى فلسطين بهدف قيام وطن قومي يهودي فيها وطرد سكانها الأصليين العرب ، كما أنه يدل على الفهم والإدراك العميق لحقيقة الصهيونية وأبعادها .

وحذر كذلك المفكر العربي نجيب عازوري ـ الذي أقام في فلسطين ـ من المخططات الصهيونية وتناقضها مع أماني الأمة العربية . وفي عام ١٩٠٤م أصدر نجيب عازوري بيانه

التاريخي « بلاد العرب للعرب » ، وصدر في العام التالي (١٩٠٥م) في باريس كتابه « يقظة الأمة العربية Le Reveil de la Nation Arabe » نبه فيه إلى خطورة التوسع الصهيوني في فلسطين وأثره على الأمة العربية . وكانت تصوراته وتوقعاته تنبئ ببعد نظر فريد ورؤية ثاقبة لأبعاد الخطر الصهيوني ، وقد عبر عن مطامع القوميين اليهود في مقدمة كتابه : الصراع بين اليقظة العربية القومية والحركة الصهيونية وقال في هذا الصدد : « ... تبرز في هذا الوقت وبشكل لم يثر الاهتمام سابقاً ، ظاهرتان خطيرتان متعارضتان ، رغم طبيعتهما ، هما يقظة الأمة العربية وجهود اليهود لإعادة تأسيس مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية . إنه مقدر لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب إحداهما على الأخرى . ومصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدئين متناقضين . » وفي مكان آخر من الكتاب يدرك عازوري مخطط العمل الصهيوني الذي يرسم لإعادة تأسيس ما يسمونه وطنهم القديم ، باحتلال الحدود الطبيعية لهذا الوطن فيقول : « ... هذه الحدود الطبيعية هي بالنسبة إليهم جبل الشيخ الذي يضم نهر الأردن ووادي بردى من الشمال ، مع الأراضي المحصورة بين راشيا وصيدا كمقدمة ، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب ، والجزيرة العربية في الشرق ، والبحر المتوسط في الغرب ، وبتكوينها هذا تصبح فلسطين بين يدي شعب يعرف كيف يدافع عنها » .[٣٧]

وخشيت السلطات العثمانية من انتشار أفكاره بين العرب ، خاصة بعد أن طبع بيانه (بلاد العرب للعرب) بكميات كبيرة ، ووزع في فلسطين ، فقامت الحكومة العثمانية بحركة اعتقالات في يافا وغيرها من المدن ، ولكنها اضطرت تحت الضغط العربي في عام ١٩٠٦م إلى تعيين متصرف جديد للقدس بدلاً من سلفه « رشيد بيك » الذي كان قد ساند الهجرة اليهودية إلى فلسطين وخالف القوانين العثمانية التي فرضت الحظر عليها .[٣٨]

ومما يجدر ذكره أن كتابات نجيب عازوري ،[٣٩] كانت تعبيراً عن ظهور الحركة العربية والتي تجلت فيها أول ظاهرة سياسية لمعارضة الحكم العثماني . فقد كانت يقظة القومية العربية التي ظهرت منذ مطلع القرن العشرين ، قد تطورت من حركة إحياء ثقافي إلى وعي سياسي ومطالبة بالحقوق القومية في ظل الحكم العثماني . وكان لها بالتالي تأثير على حالة العرب في فلسطين مما كان له أثر كبير على العلاقات العربية الصهيونية فحدث تغير جوهري وأصبح الصراع بين قوميتين متناقضتين .[٤٠]

ويبدو أن مشاعر الفلسطينيين العرب كانت ذات تأثير في مواقف السلطان عبد الحميد الرافضة من محاولات هرتزل لإغرائه ببيع فلسطين لليهود ، على الرغم من حاجة الامبراطورية العثمانية الماسة حينذاك للدعم المالي . فقد رفض السلطان عبد الحميد العثماني محاولات هرتزل بمنح حقوق غير محدودة للهجرة اليهودية إلى فلسطين نظير قيام اليهودية العالمية لتسديد الديون العامة للدولة العثمانية ، وأرسل السلطان إلى هرتزل يقول : « ... إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض لأنها ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ... فليحتفظ اليهود بملايينهم لأنه لو قدر لأمبراطوريتي أن تتمزق فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل ، ولن يتم ذلك إلاّ إذا مزقت أوصالنا ، ولن أوافق على أن تمزق وأنا حي » .[٤١]

وقد أثار توافد يهود الهجرة الثانية (١٩٠٤ – ١٩١٤م) استياء الفلسطينيين الذين عبروا في أكثر من مناسبة عن معارضتهم منذ اللحظة الأولى لوصول المستعمرين الصهيونيين . ورافق الاستياء من قدوم المستعمرين اليهود موجة من الغضب على الملاكين الاقطاعيين (آل سرسق ، مصطفى باشا ، فؤاد سعد) الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضي للصهيونيين .[٤٢] كما اشتد العداء بين العرب واليهود في أعقاب الموجة الثانية من الهجرة اليهودية والتي أدت إلى طرد الفلاحين والعمال العرب من المستعمرات الصهيونية ، بالإضافة إلى المقاطعة الصهيونية المنظمة للمنتجات العربية ، ونتج عن ذلك أن ساد التذمر أوساط العرب الذين تأثروا مباشرة لتصرفات اليهود العنصرية ، فوقعت مصادمات في يافا بين العرب واليهود في مارس ١٩٠٨م استدعت على أثرها الحكومة المركزية قائم مقام يافا للتحقيق معه في أسباب الاضطرابات .[٤٣]

وبعد أن قامت الجمعيات اليهودية بشراء مساحة واسعة من الأرض من عائلة سرسق اللبنانية بالقرب من طبريا ، هاجم فلاحو القرى المجاورة الفنيين الذين جاءوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها ، وذلك بقصد محاولة منع إتمام الصفقة . ونجح العرب بالفعل في استصدار أحكام من الباب العالي بإلغاء بعض الصفقات التي عقدها الصهاينة في مطلع القرن العشرين .[٤٤] ويلاحظ أن الفلاحين والعمال المتضررين مباشرة من الهجرة هم الذين قاموا بمهاجمة اليهود وكرهوا الملاك الذين باعوا أراضيهم ، وذلك بتأثير من الحملات الصحفية التي وصلت إلى الفلاحين والبدو في أكواخهم فألهبت مشاعرهم ، وزادت حماستهم الوطنية ودفعتهم للهجمات المسلحة على المستعمرات اليهودية والأفراد .[٤٥]

لكن الأوضاع أخذت شكلاً جديداً بعد ثورة ١٩٠٨م ،[٤٦] فقد شارك اليهود الطوائف الأخرى ابتهاجاً بإعلان الدستور ، بل فاق يهود القدس جميع الطوائف في إظهار عواطفهم ، فنشط الخطباء منهم وبالغت جرائدهم المحلية في الترحيب بالعهد الجديد . ورفعت الحركة الصهيونية في يافا ، وصرح الصهيونيون بوجوب تمثيلهم في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) ليتمكنوا من عرض قضيتهم والمطالبة بالحكم الذاتي في فلسطين .[٤٧] كما أنشأوا مكتباً لشراء الأراضي في يافا وباشروا ببناء الأحياء اليهودية قرب يافا ، وأنشأوا شركات أخرى في نفس العام لعبت دوراً هاماً في توسيع الاستيطان الصهيوني وتوطيده فيما بعد .[٤٨]

وكانت مشاعر الود التي أبداها اليهود تجاه الحكم الجديد على أمل أن يحقق لهم ما عجزوا عن تحقيقه في العهد السابق ، وخاصة إلغاء الإجراءات القانونية السابقة المقيدة للهجرة والتملك . ومع ذلك فقد دخل صهيونيون في فرع حزب الاتحاد والترقي بصفتهم عثمانيين ، وسعوا لضمان مقعد واحد في مجلس المبعوثان يمثل الحركة الصهيونية ولكنهم فشلوا في ذلك . وقد نجح ثلاثة مرشحين عن القدس يمثلون الأسر الإسلامية البارزة فيها هم : روحي الخالدي ، حافظ السعيد وسعيد الحسيني . أما في ولاية بيروت فقد فاز عن لواء نابلس الشيخ أحمد الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد الشقيري .[٤٩]

ومما لا شك فيه أن مشاعر الود والفرح والابتهاج التي أبداها اليهود للحكم الجديد لم تكن عفوية بقدر ما كانت مدروسة ومعروفة تماماً بالنسبة لهم ، ذلك أنه كان لهم يد في الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الذي رفض محاولاتهم المستمرة ببيعهم أراضي فلسطين وقيد هجرتهم وتملكهم الأرض بقوانين وإجراءات قانونية . وفي هذا المجال اتهمت جريدة نهضة العرب التي كان يصدرها نجيب عازوري في باريس الاتحاديين بالتحالف مع اليهود والماسونيين الأحرار ، وأن اليهود تسلطوا على جمعية الاتحاد والترقي وأنهم دبروا ثورتها على السلطان عبد الحميد بهدف إيجاد الفوارق بين الأتراك والعرب من أجل هدم الامبراطورية العثمانية ، وإقامة مملكة يهودية على أنقاضها . ومثل هذه الأفكار لم تكن بين العرب فقط بل كانت بين قسم من الأوروبيين أيضاً ، كما وجدت طريقها إلى وزارة الخارجية البريطانية .[٥٠]

ولعبت الصحافة العربية التي واكبت ثورة ١٩٠٨م ، دوراً هاماً في زيادة الوعي واليقظة العربية فظهرت بعض الصحف في فلسطين في أعقاب الثورة وإعلان الدستور ، ومن الصحف التي صدرت في فلسطين عام ١٩٠٨م (الأصمعي) في يافا لصاحبها حنا عبد الله عيسى ،

والقدس لصاحبها جورجي حنانيا ، وتبعتهما جريدة الكرمل في حيفا لصاحبها ورئيس تحريرها نجيب نصار . وأخذت هذه الصحف على عاتقها كشف المطامع الصهيونية وأخطار الهجرة وبيع الأراضي لليهود ، وكانت في طليعة تلك الصحف جريدة الكرمل والتي توقفت مراراً بسبب مقالاتها العنيفة التي كشفت الخطر الصهيوني . ومع ذلك استمر نجيب نصار في حمل لواء مناهضة الحركة الصهيونية فاضحاً أطماعها وسعيها لامتلاك الأرض وإقامة الدولة اليهودية ، وكاشفاً زيف ادعاء اليهود العثمانيين ومهيباً بالعرب أن يهبوا جميعاً لمقاومة الغزو الصهيوني العنصري لفلسطين بجمع الكلمة ووحدة الصف .(٥١)

وبعد أن جرت انتخابات مجلس المبعوثان في السلطنة العثمانية ، انتقل الصراع ضد الصهيونية داخل المجلس أيضاً ، ففي عام ١٩٠٩م أجبر النواب العرب في مجلس المبعوثان رئيس الوزراء على أن يعلن « أنه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين » . كما أنهم أجبروا كذلك وزير الداخلية على أن يعلن معارضته للأهداف الصهيونية .(٥٢)

وظهرت في هذه الفترة (١٩٠٩/١٠/٧م) أول وثيقة هامة عن موقف الفلسطينيين من اليهود والحركة الصهيونية ، وهي دراسة نشرها المثقف الفلسطيني يوسف الخالدي بين فيها أن هدف الحركة الصهيونية هو إنشاء دولة صهيونية في فلسطين . وقد حذر من قيام تلك الدولة لأن قيامها لا يمكن أن يتم دون اصطدامات وصراع دموي بسبب المعارضة العربية لقيام مثل هذه الدولة . ويطرح الخالدي في دراسته قضيتين هامتين : أولاهما : أنه يلمس أن في أوروبا « مشكلة يهودية » ولذلك فقد اقترح إقامة وطن قومي لليهود خارج فلسطين . وثانيهما : أنه يفرق بين الصهيونيين وغير الصهيونيين من اليهود .(٥٣)

وكان النضال داخل مجلس المبعوثان وخارجه يتفاعلان ، ففي عام ١٩٠٩م أنشئت منظمة محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الأراضي لليهود ، كما واصلت الصحف العربية وفي طليعتها الكرمل حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهيونيين . وتقدم نائب مدينة يافا باستجواب في مجلس المبعوثان تساءل فيه عما تقصده الصهيونية ، وعما إذا كانت الحركة الوطنية لليهود تنسجم مع مصلحة الامبراطورية العثمانية ، وطالب بإغلاق ميناء يافا في وجه المهاجرين الجدد من اليهود .(٥٤)

وفي النصف الثاني من عام ١٩٠٩م وجهت جريدة الأهرام هجوماً مباشراً للشركة الصهيونية لأطماعها السياسية في فلسطين وتحدثت في المقالات التي نشرتها عن مؤامراتهم الصهيونية ، وعن

بحث الاسرائيليين عن وطن لهم في فلسطين وأشارت الجريدة إلى مطامع الصهيونيين بالاستقلال في فلسطين ، وكيف أن المستعمرات الصهيونية أشبه بولايات مستقلة لا تخضع لقوانين الدولة وأنظمتها بدعوى أنها أجنبية . وطالبت الحكومة العثمانية بوضع حد لأطماع الصهيونية في فلسطين .(٥٥)

وكانت جريدة الأهرام قد أوفدت مراسلاً إلى فلسطين فدرس الوضع عن كثب ، واتصل بالفلسطينيين وشعر بمخاوفهم وعرّف منهم حقيقة أطماع الصهيونية ، فكتب يقول « إن الفلسطينيين قلقون من الحركة الصهيونية فالهجرة اليهودية المستمرة تخلق لديهم المخاوف والقلق ، فالبلاد تكاد تكون في أيدي الأجانب » وأشار المراسل إلى أن الفلسطينيين يتهمون الحركة الصهيونية في فلسطين بأنها تهدف إلى إقامة دولة صهيونية مستقلة ، ويؤكدون أن بعض اليهود قد بدأوا يدفعون الرشوة للحكومة العثمانية في فلسطين لإعفاء اليهود من الخدمة العسكرية ويكرسوا كل جهودهم للنشاط الاستعماري في وقت لم يكن للمسلمين والمسيحيين خيار في تحمل أعباء تلك الخدمة العسكرية البغيضة .(٥٦)

وإزاء الشعور بالخطر الصهيوني ، استمرت الفئات الوطنية والحملات الصحفية في المطالبة من السلطات باتخاذ موقف حاسم لمنع الخطر قبل وقوعه ، فطلب مبعوث القدس في مجلس المبعوثان العثماني في التشديد على فعالية إجراءات منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فأعادت الحكومة العثمانية العمل بالقيود التي فرضت في نوفمبر ١٩٠٠م .(٥٧) وقام بعض الوطنيين بإنشاء معهدين هما معهد الدستورية والروضة لخلق وعي قومي عن طريق نشر الثقافة القومية لمحاربة الصهيونية(٥٨) كما استمرت البرقيات الاحتجاجية وعرائض الاحتجاج والاستنكار وإرسال الوفود وكلها تطالب بوقف الهجرة ومنع بيع الأراضي لليهود ، وتتهم الصهيونية بالعمل على حرمان السكان الأصليين من أراضيهم . وحثت البرقيات المبعوثين العرب على الحصول على تأكيد من وزير الداخلية العثماني بوضع قيود مشددة لمنع دخول اليهود إلى فلسطين وتمليك الأرض لهم .(٥٩)

وواصلت الصحف العربية حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهاينة ، ففي شهر أيار (مايو) ١٩١٠م هاجمت الصحف العربية آل سرسق لاعتزامهم بيع الأراضي في قريتي فولة وعفولة لليهود . وفي صيف عام ١٩١٠م كانت عدة صحف عربية نافذة قد بدأت تتبنى الحملة المناوئة لبيع الأراضي العربية للمسؤولين الصهاينة بينها صحيفة المقتبس الدمشقية

وصحف المفيد والحقيقة والرأي العام البيروتية . كما كونت جميع الصحف جبهة واحدة ضد الصهيونية فكتبت مقالات كثيرة ضد الصهيونية ، كما كشفت أيضاً أساليب ووسائل اليهود ، كرشوة الحكام العثمانيين وكبار موظفي الباب العالي بقصد تسهيل نقل ملكية الأراضي العربية في فلسطين إلى اليهود .[٦٠]

وكانت جريدة المقتبس قد حثت مجلس المبعوثان ليقف بحزم في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين والتي نشطت بعد إعلان الدستور ، وأنحت بالأئمة على الأمة التي تسهل للحركة الصهيونية الوصول إلى أهدافها ، ثم دعت المبعوثين العرب لاستيضاح الحكومة عن أسباب توسع حركة الاستيطان اليهودي ومطالبتها باتخاذ كافة الإجراءات لإيقافها . وعزت نجاح الحركة الصهيونية إلى جهل الوطنيين وغفلتهم وفقرهم ، وإلى خيانة بعض الموظفين والسماسرة . وشرعت في نشر سلسلة من المقالات بعنوان الاستعمار الصهيوني نبهت فيها إلى الأضرار التي لحقت بالبلاد من جراء النشاط الصهيوني في فلسطين . وذهبت الجريدة إلى أبعد من ذلك فاتهمت الحكومة العثمانية بإزالة العقبات التي كانت قائمة في طريق الاستيطان اليهودي في عهد السلطان عبد الحميد .[٦١]

كما نشرت جريدة المقتبس خطاباً مفتوحاً من شكري العسلي قائمقام الناصرة إلى سامي باشا الفاروقي قائد الحملة الحورانية في أواخر عام ١٩١٠م ، أوضحت فيه استيلاء الحركة الصهيونية على أجزاء كبيرة من أقضية طبريا وصفد ويافا والقدس وحيفا بأسماء الرعايا العثمانيين وبواسطة السماسرة الذين يعدون أنفسهم من الأعيان . ولفتت الانتباه إلى أن الحركة الصهيونية لها علمها ويريدها الخاص وتعمل على شروعها في مخططاتها السياسية وأهابت بالنواب والحكومة أن تضع حداً للأطماع الصهيونية قبل أن تصبح فلسطين ملكاً لليهود . ومما جاء في هذه الرسالة ما يلي : « ... وعليه فإن اليهود قد سعوا ومازالوا يسعون إلى شراء القرى والأراضي والدساكر في أمبراطوريتنا البهية . إن اليهود لا يختلطون مع العثمانيين إطلاقاً كما أنهم لا يشترون منهم ، ولليهود بنك خاص هو بنك الأنجلو بلستاين الذي يقرضهم النقود بفائدة ١٪ سنوياً . لقد أسسوا في كل قرية مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة ، ويقف على رأس كل مدينة ومستوطنة مدير ومدير منتدب ، ولليهود علم أزرق في وسطه نجمة داود ، تحتها كلمة عبرية تعني « صهيون » كناية عن القدس التي تصفها التوراة « ابنة صهيون » وهم يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني . وفي مهرجاناتهم واجتماعاتهم ينشدون النشيد الوطني الصهيوني ، وعندما يأتي اليهود إلى دوائر الحكومة يقولون أنهم مسجلون في السجلات العثمانية وهذا كذب وخداع . ولكن عندما يجلبون

أمام محكمة عثمانية ينكشف مكرهم لأنهم يرجعون بسرعة إلى ممثليهم الأجانب (أي القناصل) لحمايتهم وتبرئتهم من جريمتهم ولإنهاء أعمالهم وشؤونهم دون معرفة الحكومة إطلاقاً ... وعندما تدخل بيوتهم ترى كيف يملأونها بالأسلحة وبنادق المرتين . ولهم خدمات بريدية خاصة وما شابه » .(٦٢)

ولعل رسالة شكري العسلي خير ما يدل على النظرة آنذاك للحركة الصهيونية فقد وضعت النقاط على الحروف وأزاحت الستار عن خفايا الصهيونية وكانت خير عون للوطنيين للمضي قدماً في مكافحة الصهيونية . ومن الجدير بالذكر أن شكري العسلي قائمقام الناصرة بذل أفضل مساعيه لمنع إتمام بيع أراضي مرج بن عامر التي تملكها أسرة سرسق اللبنانية ، ولكن تم بيعها نهائيا في مطلع عام ١٩١١م . وعندئذ أثارت الصحف العربية ضجة حول بيع هذه الصفقة والتي تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ فدان من أجود أراضي فلسطين .(٦٣)

ومن الظواهر المثيرة للانتباه أن منشورات وزعت باليد في يافا تدعو إلى مناهضة الصهيونية ، كما بدت تظهر في الصحف الأسبوعية الهزلية رسوم كاريكاتيرية لليهود هذا فضلاً عما ساهم به نجيب نصار في الكتابة بالصحف العربية منددأ بالصهيونية ، وداعياً الزعماء العرب للكتابة في الموضوع نفسه .(٦٤)

وسجل عام ١٩١١م تصاعداً في الموقف المعادي للصهيونية ، فقد قام نجيب نصار بجمع مقالاته التي كان ينشرها في أعداد جريدة الكرمل ونشرها في كتاب بعنوان « الصهيونية ـ تاريخها ـ غرضها ـ أهميتها » وتعرض نصار في مجموعة مقالاته بالبحث والتعليق لمراحل الحركة الصهيونية ، وفضح الأسس العنصرية التي قامت عليها كما سخر من أسلوبها في التمويه والتضليل وحمل أيضاً على الذين يمنون أنفسهم بالانتفاع من الصهيونيين في تعميد البلاد واتهمهم بالجهل والسطحية ، وأن الصهيونية قد غررت بهم ، كما هاجم الحكومة أيضاً لعدم اهتمامها بمنع الهجرة اليهودية ، أشار إلى رفع اليهود لعلمهم أثناء احتفالاتهم وبيعهم الطوابع اليهودية تحت سمع الحكومة وبصرها .(٦٥)

وعلى صعيد العمل السياسي في مجلس المبعوثان فقد عرض النواب العرب مناقشة قضية الصهيونية ، وقاد شكري العسلي نائب دمشق وروحي الخالدي نائب القدس حملة مركزة ضد الحركة الصهيونية خلال جلسة مناقشة الميزانية فقوطعت كلمة الخالدي من أحد المبعوثين ، واحتج بأن الجلسة يفترض أن تكون لدراسة الموازنة وليس لدراسة التوراة . ومن ذلك فإن

المبعوثين العرب قد تلقوا من الحكومة تعهداً أدبياً يفيد بأن الحكومة ستنظر بعناية بتنفيذ القيود المفروضة على الهجرة .(٦٦)

وكان لخطابات العسلي والخالدي أثر في إثارة المشاعر المناوئة لليهود بين الفلاحين في القرى ولما شعر العرب بأن موقف السلطة متذبذب وقراراتها لا تنفذ تماماً ، جاءوا يفكرون في حل آخر وأسلوب أمثل يدافعون به عن أنفسهم فقرروا إنشاء الحزب الوطني في يافا وكان من أبرز مؤسسيه الشيخ سلمان التاجي الفاروقي ، وكان هدف الحزب هو الحيلولة دون تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين بمنع التعامل مع المؤسسات الصهيونية وحظر بيع الأراضي لها . وأهاب بالأمة أن تستيقظ من غفلتها ، وطالب الحكومة بما يلي :

أولاً : منع الهجرة واستخدام قانون الجواز الأحمر .
ثانياً : منع بيع الأراضي .
ثالثاً : إجراء إحصاء لليهود وإعطاء العثمانيين منهم بطاقات هوية واضحة .
رابعاً : فرض رقابة حكومية وبرنامج الدراسة الرسمي على مدارسهم .
خامساً : حظر الاجتماعات الخاصة باليهود إلاّ بعد الحصول على ترخيص رسمي من الحكومة .
سادساً : إحصاء أملاك وأراضي المستعمرات واستيفاء الأموال الأميرية منهم .(٦٧)

إن هذا البرنامج السياسي يستهدف ولأول مرة ، لا منع الهجرة وبيع الأراضي فحسب بل يستهدف إخضاع المهاجرين الصهيونيين أفراداً وأملاكاً لأنظمة الدولة وفرز اليهود العثمانيين من غيرهم . كما طالب بمقاطعة جميع المؤسسات الصهيونية واعتبر التعامل مع الصهيونيين جريمة .(٦٨)

وإثر عودة روحي الخالدي نائب القدس إلى مدينته في صيد عام ١٩١١م حث الموظفين في المتصرفية على العمل بمنع انتقال أراضي لليهود ، وفي ديسمبر ١٩١١م شرعت شورى الدولة في البحث لسن قانون يمنع اليهود الأجانب من الهجرة إلى بلاد الشام بما فيها فلسطين تنفيذاً للوعد الذي قطعته الحكومة على نفسها للمبعوثين العرب .(٦٩)

وفي عام ١٩١٢م تفجرت في "فلسطين حملة معارضة وانتقاد ضد السلطات المحلية والحكومة المركزية الائتلافية ، وفقد الفلسطينيون ثقتهم بأي حكومة مهما كان لونها ، وذلك إثر قدوم

المتصرف الجديد مهدي بيك إلى القدس الذي أرسل من قبل الاتحاديين والذي أبدى تعاطفاً كبيراً مع اليهود في فلسطين ، وزار بعض المستعمرات والجمعيات الإسرائيلية ، وخطب في اليهود وطمأنهم حول موقف الحكومة منهم . كما أبدى إعجابه بما حققه الصهيونيون واعتبرهم كنموذج مثالي وقدوة للقرى العربية وأساتذة لأهاليها ، وطلب إليهم أن ينشئوا دائرة بلدية منظمة وسمح لهم باختيار حراس منهم ووعدهم بمدهم بالسلاح ، وربط مستعمراتهم بالتليفونات مع مراكز الحكومة حتى تخف قوات الحكومة لنجدتهم في حالة وقوع أي حادث ... وأشار المتصرف في نهاية خطابه بأن يبذل كل ما في وسعه لمنحهم جميع التلال الرملية حتى شاطئ البحر ليقوموا بغرسها بأشجار الكالبيتوس على حساب البلدية الجديدة .(٧٠)

أثار الخطاب موجة انتقاد في صحف فلسطين ، فتناولت صحف فلسطين والكرمل الخطاب بالتفنيد ودحض أفكاره وآرائه وطالبت الصحف الحكومة أن تعيد النظر في موظفيها وتهتم بإسناد الوظائف إلى موظفين أكفاء معتدلين وليسوا مروجي آمال جمعيات سياسية أجنبية . ولعل هذا الموقف دفع الرأي العام في فلسطين إلى اليأس من أي حكومة عثمانية مهما كان لونها .(٧١) ولا شك أن موقف الاتحاديين هذا المؤيد للصهيونيين نابع من الروابط القومية بينهم من خلال الحركة الماسونية التي جمعت بينهما قبل استلام الاتحاديين الحكم ، ولقد هاجم الرأي العام في الاستانة علناً في المساجد والصحافة ودوائر الحكومة الاتحاديين والصهيونيين والماسونيين .(٧٢)

و لم تقتصر جماعة الصحافة في فلسطين على التنبيه للخطر الصهيوني أو مقاومة البيع بل عملت على توعية أهل البلاد وذلك في محاربة الصهيونية بنفس السلاح الذي تحاربنا هي به عن طريق نشر التعليم ، وحث الأهالي على تأليف الجمعيات والشركات الزراعية والاقتصادية التي تنهض بأحوال الزراعة وتحسين أساليب الفلاحة واستثمار إمكانيات البلد والمحافظة على الصناعة التقليدية والعمل على تطويرها .(٧٤)

وواصلت الصحف العربية حملتها على الصهيونية دون لين أو هوادة ، فنشر محمد صلاح الصمادي الحسيني في القدس مقالاً في صحيفة الرأي العام عن أخطار الصهيونية العشرة أوضح فيه أن الصهيونية ترمي في النهاية إلى السيطرة على البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .(٧٥) كما حثت بعض الصحف الفلسطينية إلى الاعتماد على أنفسهم لمواجهة الخطر الصهيوني ، خاصة بعد أن أدرك العرب حقيقة تواطؤ الحكومات العثمانية سواء الاتحادية منها أم الائتلافية بسبب إفلاس خزينتها وأمل المسؤولين في سد العجز من أموال الحركة الصهيونية ، وهاجمت جريدة فلسطين

الحكومة الائتلافية ووصفت الأوامر العديدة التي صدرت بمنع الهجرة اليهودية بأنها كلها حبر على ورق ، وأنها لم تحقق الأغراض التي سنت من أجلها بل استعملها الموظفون لكسب الأموال .(٧٦)

واحتجت جريدة فلسطين ثانية على القدس عندما بيعت أراضي كفرورية وقرية أبو شرشة لليهود ، وحذرت بأنه إذا استمر هذا الحال فإن الصهيونيين سيستولون على فلسطين قرية قرية . ثم ترحيل الدولة عنها كما لفتت انتباه المتصرف إلى أن اليهود يتعاملون فيما بينهم بالنقود الصهيونية والأوراق المطبوعة ولهم أعلام تخفق على أبنيتهم ويتعلمون الفنون العسكرية تحت ستار الألعاب الرياضية وأنه لا فرق بينهم وبين أي حكومة رسمية مستقلة .(٧٧)

واهتمت الصحف المعادية للحركة الصهيونية (الكرمل ، فلسطين ، المقتبس) بمسألة الأراضي المدورة التي لعبت دورها في العهد الدستوري ، فقاومت والمبعوثون العرب مشروع الأصفر مما جعل الحكومة المركزية تتردد بين الأخذ به وصرف النظر عنه ، فاستمر المشروع معلقاً فترة طويلة ، ونشبت الحرب العالمية الأولى و لم يبت فيه . ويمكن القول أن مشروع الأصفر كان عاملاً في توحيد الجهد الفلسطيني في مواجهة الخطر الصهيوني فعندما لمحت الحكومة في صيف عام ١٩١٣م إلى نيتها بالأخذ بالمشروع ، تنادى السكان العرب في لواء نابلس فعقدوا اجتماعاً كبيراً في نابلس في صيف العام التالي للمطالبة بصرف النظر نهائياً عن مشروع بيع الأراضي بالمزاد العلني ـ مشروع الأصفر ـ وإعطائها ببدل المثل بالتقسيط للمزارعين العرب الذين نزعت ملكية الأراضي من أيديهم بوسائل استبدادية وغير مشروعة . واستجابت الحكومة للمفاوضة وتراجعت عن خطوتها .(٧٨)

وشهدت البلاد طيلة صيف عام ١٩١٣م حملة عامة من الاجتماعات الاحتجاجية ضد محاولات بيع أراضي الدولة الحكومية (الميري) في بيسان لليهود واشتدت النقمة الجماهيرية حتى أن مظاهرات قامت في نابلس سنة ١٩١٣م احتجاجاً على اعتزام السلطة بيع أراضي بيسان للمنظمات الصهيونية ،(٧٩) وحرق الشعب الفلسطيني وخاصة الشباب حرشا من الأشجار التذكارية التي غرسها بعض رجالات الصهيونية عند زيارتهم لفلسطين في ذلك العام .(٨٠) كما قام الفلاحون بمهاجمة المستعمرات اليهودية في منطقة طبريا والخليل ويافا وقد ربط الصهيونيون ذلك بحسد الفلاحين لهم إلاّ أنها كانت اعترافاً بأن حياة المستوطنات لم تكن آمنة ، وتعددت شكاوى اليهود لدى الباب العالي لحماية سكان المستوطنات ، وكانت أشهر هذه الحوادث هي

حادثة الاشتباكات بين أهالي قرية زرنوقا ومستعمرة ديران (رحبوت) في أواخر تموز (يوليو) ١٩١٣م ، والتي بدأت بحادث صغير بين بعض أهالي القرية وحراس المستوطنة اليهودية حول قطف بعض العنب من كروم المستوطنة واتسع الاشتباك ليشمل أهالي القريتين ، واستخدم السلاح ووقع بعض القتلى والجرحى من الطرفين وبدأت القضية تأخذ دوراً مهماً فاستغل الصهيونيون الحادث لتصوير أهالي البلاد بمظهر المتوحشين المتعصبين .[٨١]

وتأسست في نفس العام « جمعية مكافحة الصهيونية » في نابلس ، وأقامت لها فروعاً أخرى في بعض المدن الفلسطينية ودعت هذه الجمعية إلى إقامة المظاهرات ضد بيع الحكومة للأراضي بالمزاد العلني ، كما أرسلت برقيات احتجاج واقترحت أن تحفظ حقوق الفلاحين في أراضيهم التي اغتصبتها الحكومة وذلك بأن يدفع الفلاح الديون المترتبة عليه بأقساط سنوية .[٨٢] وهكذا قادت جمعية مكافحة الصهيونية الصراع ضد الصهيونية وعملت على نشر الوحدة بين العناصر العربية وتقديم مساعدات في الشؤون الاقتصادية والتجارية والزراعية وإرسال ممثلين عنها للمهتمين بالمسألة .[٨٣]

واستمرت الصحافة العربية (الكرمل وفلسطين) في التنديد بالصهيونية وكشف نواياها وأخطارها وآثار ذلك استياء الحكومة العثمانية وعدم رضاها عن المعارضة العربية للصهيونية ، فكانت الحكومة كثيراً ما تعطل هذه الصحف بسبب هذه المقالات غير أن تعطيل الصحف العربية أثار شبهات العرب حول تحالف وتعاون الحركة الطورانية التركية والحركة الصهيونية ضد الحركة العربية المنادية بالاستقلال .[٨٤]

وجرت محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية ، فقد جرت اتصالات بين حزب اللامركزية وجمعية بيروت الإصلاحية والحركة الصهيونية سبقها مناظرات هامة جرت على صفحات جريدة الأهرام بهدف عقد تحالف عربي صهيوني بإيعاز من حزب الاتحاد والترقي كي يرفع القيود عن اليهود في فلسطين ولكن هذه الاتصالات التي دامت أكثر من عام لم تسفر عن نتيجة تذكر وتوقفت بنشوب الحرب العالمية الأولى . ولم تعلق الصحف الفلسطينية على هذا الموقف ، فلم تعر المناظرات المشار إليها أي اهتمام وسكتت عنها هذا فضلاً عن عدم وجود أعضاء فلسطينيين في قائمة العشرين عضواً الذين اجتمع بهم ممثل الحركة الصهيونية هوتشبرغ .[٨٥]

كما انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس في يونيو ١٩١٣م ، وخرج بمجموعة قرارات ولم يشر فيها إلى منع الهجرة اليهودية والتنديد بالصهيونية بالرغم من مطالبة عرب فلسطين ببحث هذه المسألة الصهيونية فأعربت صحف فلسطين عن استيائها من المؤتمر العربي في باريس واستنكرت تقصيره في اتخاذ موقف حازم من الصهيونية كما اتهمت المؤتمر بعدم شرعية تمثيله للعرب لأنه لم يتم انتخابه من قبل المجالس المحلية .(٨٦)

وانتقدت الصحف الفلسطينية كذلك موقف الحكومة العثمانية الذي ألغى القيود المفروضة على الهجرة اليهودية طمعاً في الحصول على المال اليهودي في أوروبا وظل عرب فلسطين يرفضون محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية فقد كانوا يعتقدون أنها تريد ابتلاع فلسطين والاستقلال الإداري التام بها ، بل إنها قامت بتنفيذ مخططها واستولت على قسم من البلاد ، لذلك طالبوا الحكومة العثمانية بتلبية دعوة السكان لإيقاف الخطر الصهيوني قبل ضياع فلسطين .(٨٧)

وفي غضون الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الحركة المناهضة للصهيونية في فلسطين قد بلغت ذروتها ، وظهرت دلائل جديدة على وجود معارضة منظمة للصهيونية . وكان جميع أولئك العرب الذين يتعاونون مع الصهيونية يتعرضون للنقد الشديد والشجب الأكيد كما أن الصحافة وقفت ضد الصهيونية بشكل لا لبس فيه ولعبت مكافحة الصهيونية دوراً بارزاً في الحملة الانتخابية لمعظم المرشحين الفلسطينيين للبرلمان العثماني ، وأدرك اليهود أن عرب فلسطين على استعداد تام لمحاربتهم بمختلف الوسائل في جميع أنحاء فلسطين .(٨٨)

وفي منتصف عام ١٩١٤م تأسست في فلسطين مؤسسات وطنية وخيرية في القدس بقصد « الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد أرض الوطن وإنقاذ البلاد من الدمار » والمؤسسات هي : الجمعية الخيرية الإسلامية ، جميع الإخاء والعفاف ، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية وكانت جميع الجمعيات المذكور تنادي بالتوعية ونشر التعليم ومساندة الصناعات الوطنية . كما أسس الطلبة الفلسطينيون بالأزهر الشريف « جمعية مقاومة الصهيونية » وأسس طلبة نابلس في بيروت جمعية « الشبيبة النابلسية » وتأسست جمعية « المنتدى الأدبي » في حيفا . وشاركت النساء العربيات الفلسطينيات في هذا المجال فأسسن جميعة « الإحسان العام » وجمعية « يقظة الفتاة العربية » وكانت كلتا الجمعيتين وطنية تتولى برعايتها الصناعات المحلية .(٨٩)

ولعبت الصحافة العربية المعادية للصهيونية في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩١٤م دوراً حساساً وبارزاً في توعية الرأي العام والتمهيد للقيام بأعمال منظمة منسقة ضد الصهيونية وقد هاجمت الصحافة دون هوادة « موقف أولئك الأثرياء المتنفذين الذين تعميهم مصالحهم الشخصية فلا يرون الخطر الصهيوني المحدق بهم ويؤثرون حاضراً ذهبياً على حساب مستقبل مظلم لأبنائهم » .[٩٠] ووجهت جريدة الكرمل نداءً عاماً إلى الفلسطينيين حذرتهم فيه من خطر الصهيونية المتمثل في احتلال فلسطين وطرد شعبها منها ، وحثتهم على القيام بأعمال كثيرة منها : توجيه ضغط على الحكومة للعمل على حظر بيع الأراضي الأميرية للأجانب وتطوير الصناعات والمهن الوطنية وعدم التعامل مع الصهيونيين ومنع البيع إلى اليهود بالقوة ، ومحاولة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، والمطالبة بفتح مدارس عربية وجعل اللغة العربية لغة التعليم وأخيراً حثت الشباب على ممارسة الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية .[٩١]

وكشف هذا النداء النقاب عن أن الفلسطينيين قد فقدوا الأمل أن تتخذ الحكومة أي إجراء ضد العدوان الصهيوني ومن ثم تحركوا نحو تنظيم أنفسهم والاعتماد عليها وحدها . وعشية الحرب العالمية الأولى كان الفلسطينيون يفكرون بالانقضاض على الحكم التركي فانضم الكثيرون منهم إلى جمعيتي « العهد » و « الفتاة » اللتين كانتا تناضلان في سبيل استقلال العرب ووحدتهم وذلك إيماناً من الفلسطينيين بأن الصهيونيين حلفاء الأتراك في وجه النهضة العربية . ولم يكن مما يثير الدهشة بالطبع أن يكون شباب فلسطين قد بدأوا التفكير باللجوء إلى العنف آخر الدواء ضد الصهيونية ، وذلك في وقت كانوا فيه يعملون أيضاً على القيام بثورة ضد الأتراك لتحقيق استقلال العرب.[٩٢]

وإزاء هذا الشعور المعادي للصهيونية تصاعدت النقمة الشعبية نتيجة اتضاح المخاطر الصهيونية من جهة وإقدام السلطة المركزية على تقديم تنازلات من جهة أخرى ، فأدى ذلك إلى تحول في الموقف الشعبي وذلك بالجوء إلى العنف فأصبح قتل المستوطنين اليهود أكثر تواتراً ولم يكن محصوراً بشمال فلسطين كما كانت الحالة فيما مضى تقريباً .[٩٣] وقامت مظاهرات في مدينة القدس تعبر عن غضبتها على الصهيونية ، ورجموا بالحجارة مؤسسات الصهيونية ومتاجرها .[٩٤]

وتعود نقمة الشعب الفلسطيني على اليهود بسبب اعتداءات الآخرين على العرب هذا فضلاً عن عمليات الشراء وطرد الأهالي من الأراضي فقد تجاوز الصهيونيون حدودهم في القرى التي

اشتروها : واعتدوا على سكان القرى المجاورة وحاولوا إكراههم على الخروج من أرضهم وبيعها لهم . من ذلك ما حدث في قرية (لوبيه) في قضاء طبريا وما حدث في إحدى القرى القريبة من القدس . يضاف إلى ذلك حوادث التعديات المختلفة التي يشنها سكان المستعمرات على أبناء القرى المجاورة مستغلين تساهل السلطات معهم وسماحها لهم بالتسلح .(٩٥) وجرت اشتباكات بين أهالي قرية غابة الجركس وبين أهالي الخضيرة من اليهود بسبب اعتداء اليهود على أرض تخص العرب فوصفت جريدة مرآة الغرب هذا الاعتداء بقولها « هذا ما توصل إليه المستعمرون الإسرائيليون الذين كانوا قبلاً يوصفون بالمسالمة والجابنة ، أصبحوا الآن وقد اشتد ساعدهم فأخذوا يعتدون على أهالي القرية موصوفين بالشدة والبأس . فماذا يكون نصيب سائر البلاد معهم بعد أن يزداد عددهم ويملكون مواردها الاقتصادية ويقضوا على أعنة الثورة .(٩٦) كما لمس الأهالي العرب بأن اليهود الأجانب الذين حلوا بفلسطين لهم كل مقومات الحكم الذاتي في مستعمراتهم وإحيائهم ، فلهم نقودهم وبريدهم وعملهم ونشيدهم ولغتهم العبرية واحتفالاتهم القومية الخ .(٩٧)

ولما اشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين ، استغاث الأعيان في القدس ويافا وغزة في ابريل ١٩١٤م بالمنتدى الأدبي في الاستانة وناشدوه العمل بحزم ضد التيار الصهيوني الجارف الذي هدد المواد الاقتصادية للفلاح والتاجر ، ولفتوا الانتباه إلى نفوذ الحركة الصهيونية في دوائر الحكم في المتصرفية ، وأن حكومة إسرائيلية تأسست بينهم ، تقاضي وتجازي وأوضحوا أنه إذا كانت الحاجة إلى الإصلاح شديدة فإن الحاجة إلى دفع الخطر الصهيوني أشد ، ثم ناشدوا المنتدى باسم الوطنية أن يستعمل كل ما لديه من الوسائل المشروعة لينبه الحكومة إلى الخطر الصهيوني .(٩٨)

كما اتخذ المجلس الإداري في نابلس قراراً يقضي بعدم البيع للصهيونيين في اللواء ، فحاولت الحركة الصهيونية السعي لفصل ارتباط عدد من قرى اللواء وإلحاقها بقضاء يافا بدعوى قربها ليسهل عليهم شراء الأرض فيها ، واشتدت مناوئة الصهيونية فوزعت منشورات في القدس تحذر من الخطر الصهيوني ، وتضمنت نداء حاراً إلى أبناء البلاد ثم طلبت منهم ما يلي :

١ ـ مطالبة الحكومة بإلحاح لصد تيار الهجرة الجارف .
٢ ـ السعي لتقوية التجارة الوطنية والصناعية .

٣ ـ عدم بيع الأراضي لليهود .
٤ ـ النظر في كل الوسائل التي تدعو إلى عدم هجرة العرب من فلسطين .[٩٩]

وهكذا واصلت الصحف حملتها على الصهيونية بالرغم من تعطيل بعضها دون لين أو هوادة ، حتى بداية الحرب العالمية الأولى في آب (أغسطس) ١٩١٤م . ومع ذلك فإن نشوب الحرب لم يمنع العرب من التفكير فاتخاذ إجراء ما ضد الصهيونيين ، إذ يستفاد مما قاله بيرلمان أو الأوراق والمستندات التي وضع الأتراك أيديهم عليها عام ١٩١٥م تكشف عن وجود خطة للتخلص من الصهيونية تقضي بإضرام النار في المستعمرات اليهودية وطرد السكان اليهود . وجاء في تلك الأوراق أن الصهيونيين هم ألد أعداء العرب وهذا هو السبب الذي من أجله كان الأتراك على استعداد تام لمساعدتهم .[١٠٠]

وبنشوب الحرب العالمية الأولى ، توقف النشاط ضد الحركة الصهيونية لانتقال مركز نشاطها إلى مجالات عالمية أوسع من جهة ، ولأن الشرق العربي نفسه قد شغلته أحداث الحرب بعد أن أصبح أحد ميادينها العسكرية من جهة أخرى ، ولتغير موقف تركيا نفسه من اليهود إبان الحرب أيضاً ، فقد ألغت تركيا امتيازات نظام الحماية التي كان المواطنون الأجانب ومن ضمنهم المهاجرون اليهود يتمتعون بها .[١٠١] واعتبرت تركيا يهود روسيا مواطنين دولة معادية كانت في حالة حرب مع تركيا ، فاضطر حوالي ٣٠ ألف يهودي إلى النزوح من فلسطين وبذلك وصل عدد السكان اليهود فيها في نهاية الحرب إلى نحو ٥٦ ألف نسمة بدلاً من ٨٥ ألف عند بدايتها . ونال اليهود أيضاً في فلسطين نصيبهم من سياسة الاضطهاد[١٠٢] والتي انتهجها جمال باشا في سوريا الكبرى ، فقامت السلطات العثمانية بحظر النشاط الصهيوني في البلد ، وأمرت بحل كل المنظمات الصهيونية العاملة فيه . وقام جمال باشا بنفي عدد من الزعماء الصهيونيين البارزين من فلسطين وكان من بينهم دافيد بن غوريون واسحق بن زفيه وغيرهم . كما اشتدت الاجراءات القمعية ضد اليهود في أواخر عام ١٩١٧م عندما اكتشفت السلطات العثمانية شبكة تجسس (نيلي) وتعمل بين يهود فلسطين لصالح بريطانيا ونتيجة لذلك فرض الأتراك حصاراً حول بعض المستوطنات اليهودية ، ونكلت بسكانها واعتقلت أعداداً كبيرة منهم ، وأعدمت بعض قادة شبكة التجسس (نيلي) وزاد من حدة الإجراءات التي اتخذت ضد سكان المستوطنات اليهود الاضطراب الذي ساد في صفوف القوات التركية مع بدء الهجوم البريطاني من سيناء على جنوب فلسطين .[١٠٣]

أدى الغاء تلك الامتيازات إلى خروج تظاهرات تأييد عربية في يافا والقدس وقام المتظاهرون في إحداها بوضع قبعة من ذلك النوع الذي يستعمله المستوطنون الصهيونيون على رأس كلب ورجموه بالحجارة وهم ينشدون « الحماية مثل الصرماية » (الحذاء) .(١٠٤)

كما أبدى عرب فلسطين تأييدهم وترحيبهم بالإجراءات القمعية ضد اليهود ، ولكنهم مع ذلك كانوا غير راضين عن موقف السلطات لمنعهم من تنفيذ مخططاتهم السرية ضد اليهود . وربما كانت السلطات العثمانية آنذاك معذورة لأنها مشغولة في ميادين الحرب وتخشى قيام حرب أهلية في منطقة العرب قد تؤثر عليها ولربما كان بعض الساسة العثمانيين متعاطفين معهم .

وهكذا كانت نظرة عرب فلسطين للحركة الصهيونية نظرة واقعية ، فقد أحسوا بخطر الغزو الصهيوني الذي يتهددهم وكانوا يخشون من قيام دولة صهيونية في فلسطين من خلال تحركات الصهيونية فأدركوا أن المعركة مع الصهيونية هي معركة بقاء أو فناء وأن نجاح الحركة الصهيونية يعني أن الصهيونيين سيمتلكون البلاد ونصبح نحن فيها غرباء وكان التخوف الشعبي يذهب أبعد من ذلك وكأنه يتنبأ بالمستقبل ، ويخشى من المصير الأسود الذي سيلاقيه الفلسطينيون إذا لم ينهض المخلصون ويخفوا لانقاذهم .

ولا شك أن الحملات والنشاطات التي قام بها الفلسطينيون كانت تستهدف تعبئة البلاد ضد الحركة الصهيونية (جمعيات ، برقيات ، مظاهرات ، شركات) وممارسة ضغط على السلطات من أجل اتخاذ إجراءات تحول دون تمكن الحركة الصهيونية من التوسع والتغلغل وتعبئة الرأي العام فلسطينياً وعربياً ضد السماسرة وبائعي الأراضي وكبار الملاك . وعلى ذلك فإن مقاومة عرب فلسطين للصهيونية كانت سابقة على وعد بلفور . وهذا يدل على وعي وإدراك عظيمين لأبعاد الخطر الصهيوني إذا ظهر مع تبلور الصهيونية السياسية عام ١٨٩٧م وبدأ الصراع العربي الصهيوني منذ ذلك الوقت ، ولكنه ظل ضيقاً ومحدوداً حتى إعلان وعد بلفور ، ثم زاد تأججاً بعد وضع سياسة الوطن القومي موضع التطبيق خلال الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين ، وأوضح التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . ولا شك أن خلفية الصراع وجذوره تعود إلى عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية فض الناحية السياسية تسعى الحركة الصهيونية إلى السيطرة والاستعمار والاحتلال شأنها في ذلك شأن الدول الاستعمارية الكبرى لما بينهما من ترابط في المصير والوجود والمصالح المشتركة ومن الناحية الاجتماعية فإن المجتمع الفلسطيني

يعتبر مجتمعاً زراعياً في الدرجة الأولى ومجتمع كهذا لا بد أن يكون محافظاً ، وأن يكون أهله ملتصقين بالأرض كما أن مثل هذا المجتمع ينظر بريبة إلى الغريب دائماً لما بينهما من تفاوت واختلاف في العادات والتقاليد . أما من الناحية الاقتصادية فقد شعرت فئة الفلاحين والعمال والحرفيين بأن الصهيونية قد قدمت تحدياً لكل هؤلاء بما في صفوفها من حرفيين وخريجي جامعات وعمال مهنيين ورؤوس أموال وخبرة يهودية عالمية في كل المجالات وأنه بالتالي ستسيطر الصناعة اليهودية على الصناعة العربية وتعمل على عرقلتها ، ولذا كانت المعارضة العربية للصهيونية معارضة عنيفة وشرسة ، وتطورت إلى معركة بقاء أو فناء استمرت حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين إلاّ أن الظروف الدولية والعربية والمحلية كانت أقوى من طاقات الفلسطينيين وإمكاناتهم للحيلولة دون تحقيق نصر حاسم للصهيونية بتحقيق حلمهم وإنشاء دولتهم عام ١٩٤٨م ■

■ ■ ■

● الهـــوامـــش ●

(١) محمد أديب العامري : عروبة فلسطين في التاريخ ، بيروت ١٩٧٢، ص ١٦، ٤١، ٧٤ .

(٢) منذ أن فتح المسلمون فلسطين ، سمح الخليفة عمر بن الخطاب لليهود بالعودة إلى القدس ومنحهم قطعة أرض على جبل الزيتون لإقامة الصلوات ، كما سمح لهم بعد ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي بالعودة بعد الاضطهاد والإبادة التي لاقوها أثناء الحروب الصليبية ، وأخيراً سمح لهم العثمانيون بالعودة إلى فلسطين بعد طردهم من الأندلس . انظر نجلاء عز الدين : العالم العربي ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧٢م ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) نجيب صدقه : قضية فلسطين ، بيروت ١٩٤٦م ، ص ٧ .

(٥) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ١٩٦٦م ، ص ٤٣ .

(٦) أمين محمود عبد الله : نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي خلال القرن التاسع عشر « مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، العدد الثاني ، يوليو ١٩٧٩م ، ص ٩ » .

(٧) صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٧٧م ؛ ص ٦٠ - ٦٢ .

(٨) اختلفت التقديرات حول عدد اليهود قبيل وصول طلائع المهاجرين الجدد إليها ، ويستفاد من إحصاء جرى للسكان اليهود عام ١٨٣٩م فذكر أن عددهم نحو ٦٥٠٠ نسمة نصفهم في القدس وارتفع هذا الرقم في السنة التي تليها ليصل إلى ١٠,٥٠٠ نسمة ثم ارتفع ليصل إلى ١٤,٥٠٠ نسمة في

عام ١٨٥٦م ، ووصل في نهاية عام ١٨٨١م إلى ٢٢,٣٥٠ نسمة وكان أكثر من نصف أولئك السكان يعيشون في القدس بينما يعيش الباقون في صفد وطبريا وعكا وحيفا ونابلس والخليل وفي قريتي شفا عمرو والبقيعة انظر صبري حريس المصدر السابق ص ٥٦ - ٦٠ . بينما يذكر التقرير الإحصائي لحكومة فلسطين ١٩٤١م بأن عدد اليهود في عام ١٨٣٩م لم يتجاوز ٦٠٠٠ نسمة في حين بلغ عدد العرب ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة أي أن نسبة اليهود لم تتعدى ٢٪ ولم يتجاوز عدد اليهود في عام ١٨٨٠م عشرين ألفاً .

انظر Statistical Abstract of Palestine 1914 P. 18

(٩) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(١٠) تقرير اللجنة التي عينها المندوب السامي لفلسطين للتحقيق في الاضطرابات التي وقعت في يافا عام ١٩٢٩م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(١١) عادل غنيم : « موقف فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م . » مجلة الشرق الأوسط ، العدد الأول ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٢١٤ .

(١٢) Ben Gurion, David : The Jews in their land (London 1966) PP. 228-237.

(١٣) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨م بيروت ١٩٧٤م ، ص ٨٦ وانظر كذلك Ben Gurion, D. OP. CIT. P. 320

(١٤) مانويل فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين ، ترجمة يوسف حنا ، منشورات دائرة الثقافة وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ١٩٦٧م ، ص ١٢-١٣ .

(١٥) أنيس صايغ . الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٣-٤٤ .

(١٦) مانويل ، فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين ، ص ١٠ .

(١٧) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٧٨ .

(١٨) مازن البندك وخيرية قاسمية : أطلس الصراع العربي الصهيوني ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٧ .

(١٩) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨م ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٣٢ .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) الأرض الفلسطينية بين الشرعية والأغتصاب ، منشورات اتحاد الحقوقيين الفلسطينيين ، الكويت ١٩٧٥م ، ص ٢٣ .

(٢٢) كامل محمود خله : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩م ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٧ .

(٢٣) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » مجلة الشرق الأوسط ، القاهرة العدد الأول يناير ١٩٧٤م ، ص ١٤٥ .

(٢٤) ناجي علوش : المصدر السابق ص ٨٩ .

(٢٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ١٩٧٠م ص ٤٩ .

(٢٦) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » « مجلة الشرق الأوسط ص ١٤٥ .
(٢٧) كامل خله : المصدر السابق ص ٧ .
(٢٨) عبد الوهاب الكيالي : المصدر السابق ص ٤٩ .
(٢٩) مجاهد علي شراب : « كفاح ونضال الشعب العربي الفلسطيني منذ الحرب العالمية الأولى « دراسة تاريخية » جريدة الوطن الكويتية ، ١٩٧٦/٨/١٠م .
(٣٠) عبد الوهاب الكيالي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(٣١) Mandel, Neville : Turks, Arabs add Jewish Immigration into Palestine (London 1955) P. 214
(٣٢) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 214
(٣٣) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٣٤ .
(٣٤) المقتطف ، ابريل ١٨٩٨م ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١ . اقتباساً من عبد العزيز عوض ، مصدر سابق ، ص ١٤٦ .
(٣٥) المنار ، مجلد ١ ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ .
(٣٦) مجلة المنار ، مجلد ٤ ، جـ ٢١ ، ص ٨٠١-٨٠٩ ، نقلاً عن خيرية قاسمية ، المصدر السابق.
(٣٧) أسعد رزوق : إسرائيل الكبرى . دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، بيروت ١٩٦٨م ، ص ١٤٩-١٥٠ .
(٣٨) المصدر السابق .
(٣٩) كان نجيب عازوري يعمل في الإدارة التركية في القدس قبل أن يلجأ إلى باريس ليؤسس عصبة الوطن العربي ، والتي ينص برنامجها على تكوين امبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى البحر العربي ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة لكل المواطنين أمام القانون . انظر خيرية قاسمية ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .
(٤٠) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٣٧ .
(٤١) حسان حلاق : « موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني الدولي » ١٨٩٧ – ١٩٠٤م ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٧٤ يناير ١٩٧٨م ، ص ١٦٢ .
(٤٢) . Mandel, Neville : OP. CIT., P. 300
(٤٣) فايز صايغ : الاستعمار اليهودي في فلسطين ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٩ ، ١٠ .
(٤٤) ناجي علوش : المصدر السابق ، ص ٩٥ .
(٤٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الجديد ، ص ٩٦ .
(٤٦) في عام ١٩٠٨م أجبرت (ثورة تركيا الفتاة) السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور وإجراء انتخابات للهيئة التشريعية (المبعوثان) وقد نص الدستور العثماني على إطلاق الحريات وحق إصدار الصحف ووجوب إجراء انتخابات للمجلس التشريعي . انظر الكيالي ص ٥٢ .
(٤٧) Mandel, Nevill : OP. CIT., P. 92
(٤٨) ناجي علوش المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٤٩) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٥٠) Mandel Neville : OP. CIT., PP. 93-94

(٥١) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٥٢) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ .

(٥٣) الأهرام ، ١٩٠٩/١٠/٧م . وانظر كذلك الأرض الفلسطينية بين الشرعية والاغتصاب ، ص ٢٨ .

(٥٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٨ .

(٥٥) عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٥٦) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٠ .

(٥٧) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 96

(٥٨) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ص ٤٦ .

(٥٩) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 95

(٦٠) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٧٢ .

(٦١) أنظر جريدة المقتبس مارس ١٩١٠م ، ١٥ مايو ١٩١٠م ، ٤، ٦، ٨ سبتمبر ١٩١٠م ، ٢٠ نوفمبر ١٩١٠م نقلاً عن عبد العزيز عوض ص ١٥٠ .

(٦٢) Mandel. Neville : Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine PP. : 90 - 99

(٦٣) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 95

(٦٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(٦٥) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(٦٦) Mandel, Neville : OP. CIT., PP. 97 - 98

(٦٧) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٣ .

(٦٨) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(٦٩) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٠ :

(٧٠) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(٧١) نفس المصدر : ص ١٢٠ – ١٢١ .

(٧٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٧٣) انضمت صحيفة أخرى جديدة في المنادي أنشئت في فبراير ١٩١٢ لصاحبها سعيد جارالله وابتعت خطاً سياسياً واضحاً هو مكافحة الصهيونية ، كما تركت معارضة الصهيونية أثارها على المؤلفات والآثار الأدبية مثل كتاب إسعاف النشاشيبي « الساحرة واليهودي » وكتاب معروف الأرناؤول « فتاة صهيون » انظر خيرية قاسمية ص ١٣٩ .

(٧٤) الكرمل ١٩١٣/١/٧م نقلاً عن خيرية قاسمية ص ١٣٦ .

(٧٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ص ٦٦ وانظر Mandel, Neville : OP. CIT. P. 476

(٧٦) جريدة فلسطين ، العدد ١٨٥ ، ١٩١٢/١١/٢م .

(٧٧) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٧٨) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١٧٩ — ١٨٨ .
(٧٩) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ١٠٤ .
(٨٠) عادل غنيم : « موقف فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق مجلة الشرق الأوسط ، القاهرة العدد الأول يناير ١٩٧٤م ؛ ص ٢١٥ .
(٨١) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ١٩٧ .
(٨٢) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧١ .
(٨٣) Mandel, Neville : OP. CIT. PP. 102-103
(٨٤) المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(٨٥) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ص ١٦٠ — ١٧٧ .
(٨٦) المصدر السابق .
(٨٧) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ١٨٨ — ١٩٠ .
(٨٨) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧٢ — ٧٣ .
(٨٩) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ١٠٤ .
(٩١) الكرمل ١٩١٤/٧/٧م نقلاً عن الكيالي ص ٧٥ — ٧٦ .
(٩٢) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، من ٧٦ — ٧٧ .
(٩٣) Mandel, Neville : OP. CIT. : P. 103
(٩٤) عادل غنيم : « موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م » مجلة الشرق الأوسط ، ص ٢١٥ .
(٩٥) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٢٥٤ .
(٩٦) مرآة الغرب ، ١٩١٤/٤/٤م نقلاً عن خيرية قاسمية ص ٢٥٤ .
(٩٧) المصدر السابق .
(٩٨) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » مجلة الشرق الأوسط القاهرة ، يناير ١٩٧٤م ؛ ص ١٥٦ .
(٩٩) المصدر السابق .
(١٠٠) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٨٢ .
(١٠١) صبري حريس : تاريخ الصهيونية الجزء الأول بيروت مركز الأبحاث ١٩٧٧م ، ص ٢٩٠ .
(١٠٢) في عام ١٩١٥م اقتحم الرائد حسن الجابي اجتماعاً سرياً لفرع الجمعية الصهيونية في مدينة يافا وضبط أوراقاً سرية هامة وخطيرة ، ونفي بعض رجالات الصهيونية خارج المدينة وأبرق أهل يافا إلى السلطان العثماني في ذلك الوقت مظهرين خطر الصهيونية . انظر عادل غنيم ، « موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية ومن الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م ، ص ٢١٥ » .
(١٠٣) صبري حريس : تاريخ الصهيونية ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .
(١٠٥) المصدر السابق : ص ٢٩١ .

In 1897, immediately after the Zionist Conference, a patriotic anti-Zionist movement began to appear as a reaction to the Jewish settlement. It took on the form of organized opposition to Zionism.

The mufti of Jerusalem, Mohammad Taher Al-Hussayni, was appointed head of the local authority with the aim of hindering the Jewish and Zionist settlements.

Newspaper articles in Arab Press presented an anti-Zionist opposition. The first reaction to the First Zionist Conference appeared in the "Muqattam" newspaper under an article dated 23rd, October, 1897 entitled "The Kingdom of Zion" in which the editor had exposed the aims and conspiracies of Zionism to establish 'a National Home' in Palestine.

In 'Al-Manar' magazine, Muhammad Rasheed Ridha wrote "A life of a nation after its death, the Jewish – Zionist Organization."

In 1904, Najeeb 'Azouri issued his historical communiqué entitled "Arab lands are for Arabs." In 1905 he wrote in Paris his book "Le Reveil de la Nation Arabe" in which he clarified the dangers of the Zionist expansion in Palestine.

In 1908, the Arab Press played an important part by producing some precautionary articles against Zionism. In the same year, Palestine remarked the issue of some famous newspapers as "Al-Asmaie" in Jaffa, "Jerusalem" and "Karmil"

In 7/10/1909 there appeared the first important document on the Palestinian attitude towards Jews and Zionism.

In the latter half of 1909, "Al-Ahram" newspaper launched a direct attack on the Zionist conspiracies. it should be borne in mind that the Arab newspapers maintained a violent compaign against those Arabs who sold their lands to Zionists especially "Al-Sarsaq" of Lebanon.

In Jaffa, the Arabs established the "Patriotic Party" with an aim of hindering the development of the Zionist Movement.

Against such anti-Zionist feelings, the public resentment escalation found no way better except violence versus Zionism. Such a bitter opposition continued even after the First World War during the British Mandate period on Palestine.

In 1948, Jews realized their dream of establishing a "National Home" in Palestine since the Arabs failed to accomplish peremptory triumph over Zionism due to some international and Arab circumstances. Not to Forget that the struggle is still in force ■

Prior to the first Jewish immigration to Palestine in 1882 some ordinary and individual incidents occurred due to the Jews' enthusiastic attitude towards the Ottoman presence in Palestine. There were anti-Jews riots in Palestine and Egypt. During the first three quarters of the 19th century no available evidence whatsoever came to indicate disturbances between Arabs and Jews except for Jewish complaints against the Ottoman authority which were reported by British Consuls.

Almost in 1875 a great influx of Jewish immigrants into Palestine arrived. As a result, the number of Jews increased to reach 50,000 Jews establishing 19 settlements. The U.S. Consul in Palestine reported to his Secretary for Foreign Affairs that such continuous migration of Jews to Palestine would tip the balance. He added that in a short time Jews would replace the native inhabitants due to the large increasing number of immigrants.

In this sense, the Jewish migration began to arouse the fears of the natives lest it should take the form of settlement. It is worth noting, also, that the establishment of "Pitah-Tikvah" i.e. "hope" settlement in 1878, made Raut Pasha, the Turkish governor of Palestine, protest indignantly to both the German and Russian consuls against the Jewish attempts of setting up settlements which Jews had established as a basis for a Jewish nation. The governor repressed the establishments of Jewish settlements, as he indicated, by encouraging Palestinian Arabs to occupy them.

At the beginning of 1880, the hostile Arab reaction encompassed all parts of the country. An anti-Zionist activity began to emerge and a continuous struggle against Jews settlements became a necessity.

Arabs of Palestine sent a petition to the Ottoman authority demanding the prevention of the further Jewish immigration to Palestine and purchase of lands by them. In 1887, the Ottoman government imposed certain restrictions on the Jewish immigrants who entered the country as tourists.

It became clear then among the natives that the Jewish migration aimed at the establishment of settlement. Therefore, repression was intensified to a great extent.

In 1892, in protest against the purchase of lands by Jews a decree was issued by the Ottoman authority preventing the process of Jews' purchase of lands. But Britain and some other countries refrained it.

In 1896, prior to the Zionist Conference, Cairo press maintained an anti-Zionist campaign exposing the dangers of the Zionist migration and its repercussions on Palestine.



The Palestinians' Jihad versus the Jewish and Zionist immigration

Prepared by: **Dr. Ismail Ahmed Yaghi**

Abridged and translated into English by: Mr. Abdul Salam Abdul Moneim

No doubt that Palestine has always been regarded as the heart of the Arab and Islamic world. It has a certain religious significance to Jews, Christians and Moslems. Its strategic importance lies in its geographical position at the cross-roads of three continents Europe, Asia and Africa.

The emergence of Islam has widely influenced its population historically, linguistically, culturally and in fate.

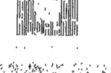
It is important to emphasize the fact that most of the Jews left Palestine by the first century A.D. except for a small sect that was welded into the Arab community. They enjoyed freedom and religious toleration accorded to them by the Islamic religion.

From the religious angle, Jews were only related to Palestine for matters of worship.

Under the Ottoman authority, Jews had received religious freedom together with social rights that were never to be granted to them in Europe.

It should be remembered that in the 19th century, Jews as minority, had only numbered 2 per cent of Palestine's population. Even though, they had always caused troubles owing to their religious fanaticism and self-arrogance. These troubles were the real cause behind an increasing tendency among them to congregate in a closed society, as they failed to enjoy social co-existence with Muslims and the other sects.











Cover Picture:

King Abdul Aziz Public Library

Annual Subscriptions

- Saudi Arabia · 20 Riyals.
- Arab Countries · The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 $.

• Articles can not be returned to authors whether published or not.



• Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

• PRICE PER ISSUE •				
	— Saudi Arabia	: 3 Riyals	— Morocco	: 5 Dirhams
	— U.A.E.	: 4 Dirhams	— Tunisia	: 400 Millimes
	— Qatar	: 4 Riyals	— Non-Arab Countries	: 1 U.S. $
	— Egypt	: 40 Piastres		

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est., P O.Box 1405, Riyadh, Tel. : 4022564

Abu-Dhabi : P O.Box 3778, Abu Dhabi, Tel · 323011

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library, P.O.Box 2007, Tel. : 228552

Qatar : Dar-Al-Thakafa, P.O.Box 323, Tel. . 413180

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est., Manama, P.O.Box 224, Tel. : 262026

Egypt : Al-Ahram Distributing Est., Al-Gala'a Street, Cairo, Tel. : 755500

Tunisia : The Tunisian Distributing Company 5, Nahg Kartaj.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company, P.O.Box 683, Casablanca, 05.

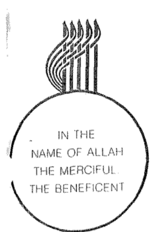


Subscriptions should
be directed to the
Secretary General of
"Addarah"

☎: 4412571

Articles should be directed
to the Editor-in-Chief
☎ : 4417020

Editorial Board
All correspondence should be directed to the
☎ : 4412316 – 4412317







An Academic Quarterly
Issued by King Abdul Aziz Research Centre

No. 2 • Year 14 • Muharram, Safar, Rabi'1 1409 A.H.Aug., Sept., Oct., 1988 A.D.

King Abdul Aziz
Research Centre

— *Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity.*
— *Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.*

Objectives :

— *To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.*
— *To issue a cultural magazine carrying its name.*

ADDARAH.

— *In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.*

P.O.Box 2945
Riyadh 11461 • Kingdom of Saudi Arabia

• Facsimile No :
00/966/1/4417020

Obekan Company for Printing & Publishing — Riyadh — Tel. : 4983392

● مدخل مكتبة الملك عبد العزيز ـ الدار البيضاء ـ المغرب

● مبنى مكتبة الملك عبد العزيز العامة ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية



No. 2. Year 14. Muharram, Safar, Rabi'1 1409 A.H Aug., Sept., Oct 1988 A.D

• King Abdul Aziz Public Library.

□ **A Model of the Urban Growth In A Minor Saudi Town (Huraimla).**

■ **Saudi Foreign Policy**



